

كتاب الشعب

من أنبياء الرسول

الجزء الأول

(بين آدم الأول و آدم الثاني)
آدم - إدريس - نوح

عبد السلام محمد بدوي

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

□ الغلاف من تصميم : حسن احمد خليل
□ طبع بمطابع دار الشعب
٩٢ ش قصر العيني القاهرة ت ٣١٨١٠

● رقم الايداع بدار الكتب ٨٢/٤٨٩٤
● الترميم الدولي ٤ - ٠٠٠٤ - ٠٩ - ٩٧٧ ISBN

الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(وكلا نقص عليك من
أنباء الرسل ما نثبت
به فؤادك وجاءك في
هذه الحق وموعظة
وذكرى للمؤمنين)

١٢٠ هود

صدق الله العظيم

تقديم

نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... ونستعين باسم الله الرحمن الرحيم ...
ونحمد الله .. العلى القدير .. اللطيف الخبير .. السميع البصير .. ونصلي ونسلم
على البشير النذير .. والسراج المنير .. معلم البشرية الاول .. النبی الامی ..
.. وعلى آله .. واصحابه .. والتابعين ..

« وبعد »

فبين يدي مسلسل « من انباء الرسل » .. اقول :
قرات الكثير .. من كتب القصص القرآني .. منها :
« قصص الانبياء » للاستاذ عبد الوهاب النجار ، « وقصص القرآن » ..
لجاء المولى ، « وقصص الانبياء » لابی اسحاق احمد بن محمد بن ابراهيم
النيسابوري الشعلبي .. المسمى « بالعرائس » .

وكذلك .. ما كتبه نوابغ المفسرين .. منها :

تفسير النسفي .. المسمى - مدارك التنزيل - وقد ابلى بلاء حسنا .. في
ميدان النحو والزواية .. وقرات ما كتبه .. فخر الدين الرازي .. والحق انه
اوسع كتب التفسير .. افقا ، واشمل .. تفريعا واستنباطا .. وقرات بعد ذلك ...
تفسير ابن كثير .. والكشاف للزمخشري ، وروح المعاني للالوسي .. الى الخازن
.. والقرطبي .. واليضاوي .

كما قرات الكتاب المقدس بمهديه : القديم والجديد .

□ □ □

وخرجت من هذه الجولة .. بحكم صادق .. على ما حشيت به .. اغلب هذه الكتب من الدسيس الاسرائيلى .. والخرافات .. والترهات .. وخاصة كتاب « الجلالين » وكتاب « العرائس » ...

وهذا الكتاب الاخير « العرائس » للثعلبي .. مفترى عليه .. به كثير وكثير .. مما دس على الائمة .. ورجال التفسير .. واولى العلم .. من اوهام الاسرائيليين .. وشعوذة المجوس .. بحيث يشعر القارئ فيه .. احيانا .. انه يقرأ حكاية .. من حكايات « ألف ليلة وليلة » غير اننى اقرر - للحق - ان فيه الكثير .. من الآراء القيمة .. والدرر الفوالى . مما يؤكد لنا .. ان ما فى هذا الكتاب من حشو باطل .. ولفو مفضوح .. مدسوس عليه .. وليس من قوله .

وقد دفعنى الى تلك الجولة .. الشاقة .. المضنية .. حرصى على سلامة موقفى .. امام ربى .. يوم ياتيه كل منا فردا .. يوم يسألنى - سبحانه عن موقف كل رسول .. مع قومه .. وموقف كل قوم مع رسولهم ..

فالمسلم .. شاهد عليهم جميعا يوم القيامة .. فهذا النص يقول :

« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » فنحن المسلمين .. بحكم موقفنا .. وموقعنا .. شهداء يوم القيامة على جميع الأمم .. والأقوام السابقة .. والشهادة على السماع .. باطلة قانونا .. ولا بد لكمال الشهادة .. من الرؤية والمشاهدة .. ولعل هذا .. هو المقصود .. من قوله تعالى : « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد » وربما تقول : كيف اشاهد احدانا مضت ووقائع انقضت ؟ .. ونحن نقول : ان المسلم .. اذا بلغ مرتبة حق اليقين .. فى ايمانه بكلام مولاه .. كان سماعه للقرآن شهودا ..

ولتقريب هذا المعنى .. اقول :

ان اليقين .. على ثلاث درجات :

علم .. وعين .. وحق ..

فمثلا .. انا اعلم يقينا .. انه توجد فاكهة .. اسمها تفاح ولكنى .. لم ار هذه الفاكهة بعد .. فهذا « علم اليقين » بالنسبة لهذا النوع من الفاكهة ..

ثم رأيت تفاحة امامى .. على المائدة .. وقيل لى هذه تفاحة بعينها .. هنا صار العلم عينا « عين اليقين » فاذا لمستها .. وشممتها .. وذقتها .. صار العين حقا .. وصار ايمانى بوجود هذه الفاكهة .. فى درجة « حق اليقين » (١) .



(١) اقرا « كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم » ثم لترونها عين اليقين « ٥ - ٧ التكاثر . و « ان هذا هو حق اليقين » ٩٥ - الواقعة .

ومن هنا كان لزاما على المسلم الحق .. ان يرى القصص القرآنى .. بدرجة حق اليقين .. ليعيش القصة .. واحوالها .. ونقاشها وصراعا .. ونتائجها .. ليكون صادقا فى شهادته يوم الدين .. ولتتم العبرة .. وتكمل العظة .. وتحقق الذكرى .

ونزول القرآن نفسه .. كان بالمشاهدة .. فى صدر الرسول الكريم .. عليه الصلاة والسلام .

والدليل على صحة قولنا هذا .. عبارة وردت .. فى مقدمة هذا التقديم فى سطره الأولى .. وهى « معلم البشرية الأول .. النبى الامى » ..

المعلم الأول .. امى ، تناقض عجيب .. وتباين غريب ولقد كان لزاما .. ان يكون محمد .. اميا ..

فلو انه - عليه السلام - تعلم القراءة والكتابة .. لكان له معلم .. علمه الالف والباء .. والواو والياء .. والاثر الحكى .. يقول : « من علمنى حرفا .. صرت له عبدا » . فمن الذى يستحق .. ان يكون محمد « عبدا » له .. غير ربه - سبحانه - ؟
لافضل لمخلوق عليه مطلقا ..

مات ابوه .. وهو فى بطن امه جنينا .. وماتت امة .. عقب عودته طفلا من قبيلة بنى سعد .. فلا أب ولا ام .. لهما عليه فضل تربية .. او رعاية .. او تاديب .. او تعليم .

وقد يسأل سائل : الم يكن جبريل معلما له ؟ ..

ونحن نقول : لا .. لم يكن جبريل معلما له .. وما موقف جبريل منه - حال نزوله عليه بما معه من آيات الله - الا كهوقف ساعى البريد .. يحمل اليك الخطاب المسجل .. وهو لا يدري شيئا مما فيه ..

حيث كان نزول جبريل بالقرآن .. عن طريق القلب .. لا عن طريق السمع .. فانه - سبحانه - يقول « نزل به الروح الامين على قلبك » ولم يقل على سمعك ..

لم يكن جبريل يقرأ .. ومحمد يقرأ بعده .. كلا .. وانما كان يتنزل بما معه .. من آيات .. على قلب الرسول .. وهو لا يعرف ما معه منها .. فيحصل التفاعل .. بين الروح الامين « جبريل » .. والقلب الامين « قلب محمد » .. والآيات .. فيرى صدره الشريف الآيات مشاهدة .. ويحاول .. ان يخرج تلك المشهودات عن طريق اللسان .. خشية زوالها من صدره .. فيقول الله له فى بعض النجوم القرآنية : « ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يلقى اليك وحيه » .. وفى نجم آخر .. يقول له « لا تحرك به لسانك .. لتعجل به .. ان علينا جمعه وقرانه » بمعنى .. اننا يا محمد .. بعد انتهاء صرعة الوحي .. التى يرجف منها جسمك

.. ويتصعب لها جبينك المشرق .. بقطرات العرق .. كأنها حبات اللؤلؤ المنثور ..
بعد انتهائها والفراغ من تنزلها .. سنخرج هذه المرثيات .. من صوائد الآيات ..
من صدرك عبر اللسان .. فلا شأن لك بتحريك لسانك .. أو إبراز الحروف .. إنما
هذا .. من عملنا نحن:

«ان علينا جمعه وقرآنه» أى وقراءته.. «فاذا قرأناه» نحن «فاتبع قرآنه» ولتأكيد
هذا الامر «ثم ان علينا بيانه»^(١).

ولقد كان جبريل - عليه السلام - أول ما يسمع الآيات.. يسمعها من فم الرسول -
عليه الصلاة والسلام - وهو يملئها.. على كتبه الوحي.

ويبرز هنا سؤال آخر: هو «ان حديث حراء.. جاء بلفظ القول» غطنى حتى ظننت
أنه الموت.. ثم أطلقنى .. وقال: اقرأ .. قلت: ما أنا بقارىء .. فغطنى الثانية ثم أطلقنى..
وقال: اقرأ .. قلت ما أنا بقارىء .. وفى الثالثة .. قال: «اقرأ باسم ربك الذى خلق .. الخ
الآيات» ولقد كانت اقرأ الأولى أمرا تكوينيا .. والثانية: أمرا تدوينيا .. أما الثالثة:
فكانت أمرا تبينيا.

فالتعبير هنا .. يقال .. وقلت .. وهذا قد يوحى الى السفهم .. أنه عن طريق
السمع ..

ونحن نقول للرد على هذا السؤال الوجيه: أن القول .. ليس معناه الكلام .. وإنما
القول .. تقرير فى أعماق النفس .. واليك الدليل:

انظر معى بعين البصيرة .. الى قول ابن مريم لأمه .. لحظة ميلاده - عليه
السلام - «فاما ترين من البشر أحدا فقولى أنى نذرت للرحمن صوما .. فلن أكلم اليوم
أنسيا»..

أى قولى: أنك صائمة .. والصوم يقتضى عدم الكلام.. وذلك حسب الشريعة
الموسوية..

فقل لى .. بالله عليك .. كيف تقول انها لا تتكلم؟ .. وكان قولها لقومها ..
بالإشارة .. عندما لاقوها بما لاقوها به .. من الاتهام والتانيب «فاشارت اليه» حيث
قالوا «كيف نكلم من كان فى المهد صيبا»؟ ..
فالقول هنا .. كان بالإشارة .. وليس باللفظ ..

وانظر معى أيضا .. الى قول الله تعالى «سواء منكم من أسر القول ومن جهر به»
وأیضا «وأسروا قولكم أو أجهروا به»؟ ومعنى هذا أن القول .. قد يكون سرا فى النفس
.. أو جهرا باللفظ؟ ونفس كلمة «لفظ» من لفظ الشىء .. أى أخرجه .. فاللفظ يخرج
القول .. من أعماق النفس .. الى الخارج .. عبر اللسان .. وتكون أيضا كلمة «عبارة» ..
من العبور .. أى السباحة .. فالعبارة تعبر بالقول .. من نفس القائل .. الى أذن
السامع..



(١) الآيات ١٦ - ١٩ القيامة.

من أجل هذا .. أردت أن أقدم هذا الكتاب - من أنباء الرسل - مسلسلا في مجموعات .. يتيسر للجميع الحصول عليها .. بطريقة مبسطة .. شيقة .. يستطيع القارئ .. من خلالها .. أن يعيش القصة .. وأحوالها .. وأحداثها .. ونقاشها .. وصراعها .. ونتائجها .. ليكون صادقا .. في شهادته .. يوم الدين.

وأنا ما أردت .. أن تكون قصصا .. أو تاريخا .. يحصر كل ما دار في حياة كل رسول من رسل الله الكرام .. أو يسرد ما جرى فيها من أحداث .. ويصور كل ما حوت سجلاتهم من مشاهد .. فحياة كل واحد منهم .. بحر زاهر .. وخضم حافل .. بالكفاح المضني .. والصراع المرير .. صالت فيها الأقلام وجالت .. وألغت عنها الكتب الضخمة والاسفار الفخمة .. وإنما أردت أن أعرض بعض ما يجول في خاطر .. حول قصصهم .. من أفكار رسخت في أذهان الكثير .. تحتاج الى شيء من التصحيح .. والتصويب، بما عن لنا .. من منطوق الكتاب .. ومفهوم الحكمة .. لما لها - من أثر في العقيدة .. وعمق في السلوك العام ..

كل ذلك مع الاحتفاظ .. بتسلسل القصة .. وهيكلها .. وعرض جميع أحداثها .. ومناقشتها .. بطريقة مرئية تبلغ درجة المشهود ان شاء الله تعالى ..

وأنا حريص غاية الحرص .. على عرض ما يطابق العقل .. ويلائم الفطرة .. قد بينا فديننا - دين الفطرة .. «فطرة الله التي فطر الناس عليها» ونبذ ما امتلأت به كتبنا .. من الأوهام .. والتحرصات .. والخرافات .. والخزعبلات .. مما دس علينا .. من أوهام الاسرائيليين .. وشعوذة المجوس .. وذلك بعد .. دراسات واسعة المدى .. في نور التاريخ .. وعلوم الحفريات .. ودراسة المواقع .. والمواضع التي كانت تجري عليها .. الحركات الرسالية .. من لدن آدم الى الرسول الخاتم ..

فاليك أيها الأخ المسلم .. سواء كانت مسلما موسويا .. أو مسلما عيسويا .. أو مسلما محمديا .. فالجميع مسلم .. نعم .. الجميع مسلم .. لان الدين واحد .. ولم أجد في القرآن الكريم كله .. كلمة «الأديان» ..

نزل الاسلام .. مع آدم عليه السلام ولكنه مر بجميع الأطوار التي يمر بها كل كائن حي .. من طفولة .. الى صبي .. الى شباب .. الى رجولة وكمال

فمثلا .. كان الاسلام .. في أيام نوح .. مازال طفلا يحبو .. قوامه .. الاستغفار فقط .. استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا .. ويمدكم .. «الخ الآيات - ١٠، ١٢ - نوح / وكان كذلك .. في أيام هود وصالح .. من بعد نوح «استغفروا ربكم، ثم توبوا اليه .. يرسل السماء عليكم مدرارا .. ويزدكم قوة الى قوتكم» ٥٢ هود.

ثم بلغ الاسلام مرحلة الصبا .. فى ايام ابراهيم .. وهى مرحلة التسرع والاندفاع .. فحطم الاصنام .. ليمرر كلمة التوحيد .. وهى الاساس الاول للدين .

وهكذا اخذ الوليد ينمو .. شيئا فشيئا .. الى ان بلغ مرحلة الشباب على يد موسى وعيسى .. وهنا ظهرت اركانه من صلوات .. وطقوس .. وعبادات .. وصوم .. وزكاة .. وحلال .. وحرام .. ولكنها اركان ناقصة لم تبلغ درجة الكمال .. حيث تبلغها على يد الانسان الكامل والرسول الخاتم محمد - عليه وعليهم جميعا الصلاة والسلام .. وحق له ان يقول « اليوم اكملت لكم دينكم .. واتممت عليكم نعمتى .. ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

ومفهوم هذا النص .. واضح .. فى ان الدين .. كان موجودا ، ولكنه كان ناقصا .. فقال « اليوم اكملت لكم دينكم » .

فالاسلام هو الاسم المهيمن .. على الدين .. فى جميع مراحل التاريخ البشرى .. من لدن آدم .. الى يوم الدين كان ابراهيم - عليه السلام - مسلما « هو سماكم المسلمين من قبل » و « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما » .. « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك » والمتحدثان ابراهيم واسماعيل .

وهكذا نرى فرعون فى ايام موسى - عليه السلام - يقول عندما ادركه الفرق « آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين » ومن بعده .. سليمان - عليه السلام - يقول فى رسالته الملكية .. مع سفيره الهدد .. الى بلقيس ملكة سبا « انه من سليمان وانه باسم الله الرحمن الرحيم الا تعلوا على .. واتتوني مسلمين » .. كما قالت بلقيس « رب انى ظلمت نفسى واسلمت مع سليمان لله رب العالمين »

وهذا ايضا عيسى - عليه السلام - يناقش الحواريين « فلما احس عيسى منهم الكفر قال من انصارى الى الله قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد باننا مسلمون » ..



واقدم اليك ايها الاخ المسلم .. اول مجموعة من انباء الرسل - بين آدم الاول وادم الثانى .

« والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم » .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة »

صدق الله العظيم

من نبأ آدم
نبي الملائكة

١ الملائكة جن نورى

حتى الجنات .. سميت بهذا الاسم ..
لأنها تستر من فيها لارتفاع أشجارها ..
ومن هذه الزاوية نستطيع ان نقول عن
الملائكة انهم جن لانهم مستورون عن انظارنا ..
ولكنهم « جن نورى » فهم من عناصر النور ..
اما النوع الآخر .. فهم « جن نازى » لانهم من
عناصر النار ..

واراد الله - سبحانه - ان يخلق آدم ..
من عناصر الطين .. فقال للملائكة « انى خالق
بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من
روحي فقعوا له ساجدين » ٧١ - ٧٢ ص .

وقد يتبادر الى الذهن .. ان الملائكة ..
تلقى الله - سبحانه - يحادثهم .. ويحادثونه ..
ولكن الحقيقة ان حيرتهم فيه - جل شأنه -
وتعالى عن ذلك علوا كبيرا - اكبر واعظم من
حيرتنا نحن فيه .

ولكن .. لماذا يخبر الله ملائكته هذا الخبر
.. قبل خلق آدم ؟ .. ولماذا ينبئهم .. بانه
جاعل هذا الشر .. خليفته فى الارض ؟ ..

لم يكن فى الكون - حسب ما علمنا الله -
سبحانه - غير عالم الملائكة .. وهم .. من
عناصر النور .. وليس فى طبعم الفسوق
والعصيان ... لان الله تعالى قد فطرهم على
الطاعة المطلقة ..

وعالم الجن .. وهم من عناصر النار ..
وفى طبعم .. الفسوق والعصيان ..

ولفظ الجن - لغويا - مشتق من الجيم
والنون .. وكل مشتقات الجيم والنون ..
تفيد معنى الستر ..

فنحن نقول : جن عليه الليل .. اى ستره
الليل بظلمته .. ونقول عن المجنون : انه مجنون
.. لستر عقله ..

ويقال للجنين جنينا .. طالما كان مستورا
فى بطن امه .. فاذا ظهر فى الوجود .. لا يقال
له جنين ..

ويقول - عليه الصلاة والسلام - « الصوم
جنة » اى وقاية وستر عن المعاصى ..

والخليفة - عادة يعطى سلطات من استخلفه
حيث قال فى مقام آخر للملائكة:

«واذا قال ربك للملائكة.. انى جاعل فى الأرض
خليفة» ٣٠ البقرة / أعتقد أن هذه هى أول رمزيات
الحياة.. مبدأ الشورى.. يضرب الله لنا المثل
الأعلى.. فى ملكه وملكوته.. وقوته وجبروته..
باستشارة الملائكة استشارة اخبارية.. فى خلق
بشر من طين.. واستخلافه.. فى كوكب الطين..
ليؤله.. هو وذريته لمنزلة أعلى وأرقى.. من منزلة
الملائكة.. حيث يكون الملائكة بالنسبة لهم فى
الجنة.. أشبه بالحاشية والاتباع أنظر معى إلى
وصف حالهم.. فى هذا المقام.. «والملائكة يدخلون
عليهم من كل باب.. سلام عليكم بما صبرتم.. فنعم
عقبى الدار» ٢٤ - الرعد.

واستمع.. الى صوت الله - سبحانه - يناجيهم
فى الجنة.. كما جاء فى الخبر «سلام من الله
الخالد.. الى العبد الخالد» وتصور قوله عنهم «لهم
ما يشاءون عند ربهم».

أحس الملائكة.. عظيم هذه المنزلة.. وجليل تلك
الدرجة.. فغبطوا آدم وذريته عليها.. وتمنوها
لأبنائهم.. فقالوا: «أتجعل فيها من يفسد فيها
ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك»
٣٠ البقرة.

وفى هذا التعبير.. من الملائكة.. رمز مستور
يريدون به.. أن يقولوا.. لربهم: نحن أولى من هذا
البشر.. بتلك المنزلة السامية.. وهذه الدرجة
العالية.. وهم يعلمون بفطرتهم أن عنصر الطين..
فيه.. الفسوق والعصيان.. والمروق والتمرد.. كما
حصل أمامهم - سابقا - من عنصر النار - وهو
أصل الجن.. من قبل آدم - عليه السلام -

ولكن الله - جل شأنه.. قال لهم: «أنى أعلم مالا
تعلمون» وكرر عليهم أمر السجود له.. بعد خلقه..
وبعد النفخ فيه من روحه.. ولا عصيان فى عنصر
النور.. ولا تمرد فى طبيعة الملائكة «فسجد الملائكة
كلهم أجمعون» ٣٠ الحجر / تنفيذا للأمر.. وتمشيا
مع طبيعتهم التى فطرتهم الله عليها.. الا إبليس..
كان من الجن النارى.. وفى طبيعته الطاعة
والعصيان معا - كما بينا آنفا - فامتنع عن
السجود..

ولكن ماذا جاء إبليس هنا.. وهو من عناصر
النار.. حتى أن أمر السجود.. لآدم.. قد شمله.. هو
أيضا.. مع الملائكة.. وهو من غير جنسهم؟
وهذا بحث لطيف.. اخترنا له عنوانا هو..
«غيب إبليس»

وقبل أن ننتقل إلى هذا البحث.. أريد أن أقول:
أننا نعلم أقدمية الجن.. فى الحياة الكونية.. تلك
الأقدمية.. التى كانت سببا فى قول الملائكة جميعا
من قبل آدم - عليه السلام - «أتجعل فيها من يفسد
فيها» - ويسفك الدماء؟ مما يدل على أنهم عاشروا
قبل آدم.. كائنات أفسدت فى الأرض.. وسفكت
الدماء.. وهذه الكائنات.. هى الجن..

فالجن اذا.. أعلم من الأنس.. بما كان عليه.. أمر
الحياة فى هذه الأرض.. ومن ثم لم يتخلف عن
السجود.. من الملائكة غير واحد منهم.. كان من
الجن النارى.. وهو - عزازيل - الذى هو إبليس -
أى اليائس يأسا مطلقا..

وما علل تخلفه عن السجود الا بعلته كونه:
أولا : أعلم هو وقبيله.. بشئون الحياة

الأرضية .. على النحو الذى كان يجرى ..
قبل تكوين آدم .

وثانيا : انه رأى شرف العنصر النارى ..
على عنصر الطين .. وافتخر بذلك متكبرا
« اسجد لمن خلقت طينا » ٦١ - الاسراء / ثم
قوله « انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من
طين » ١٢ الاعراف / وكان بهذا القياس ..
الذى يواجه به .. حكمة الحكيم .. وعلم
العليم .. جديرا بأن ينادى بالطرد « فاخرج
منها فانك رجيم » . وان عليك اللعنة الى يوم
الدين « ٣٤ - ٣٥ الحجر .

ولقد قال بعض قصار النظر : ان لعنة
ابليس .. مؤقتة الى يوم الدين .. ظانين انها
ترفع عنه فى هذا اليوم ..

وقد جهل هؤلاء الناس .. قوله تعالى ..
على لسان ابليس يوم الدين .. مخاطبا من
اتبعوه .. واغتروا به :

(ما انا بمصرخكم ، وما انتم بمصرخى)
٢٢ ابراهيم / اى لا تنقلونى ولا اتقدم ..
وكذلك خطاب الله - تعالى - له : « لمن
تبعك منهم لاملأن جهنم منكم اجمعين » ١٨ -
الاعراف .

وقوله له ايضا « لاملأن جهنم منك ومن
تبعك منهم اجمعين » ٨٥ - ص .

كما نسوا ان يوم الدين .. هذا .. هو يوم
ابدى .. لسكان الجنة .. او لسكان النار ..
كما ورد فى الخبر عنه - صلى الله عليه وسلم -
« والله انها لسعادة الابد ، او شقوة الابد » .



٢ غباء إبليس

فالباء هنا .. لم تأت عبثا .. وانما هي للتشبيه .. والعمل مع الرياء .. كعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس .. ولكنه يضيع هباء .. ويذهب سدى ..

انظر الى قوله تعالى « وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » ٢٣ - الفرقان .

فقرر - سبحانه - ان لهم عملا .. ولكنه هباء .. لانهم لا يقصدون به وجه الله .. انما يبتغون به شيئا آخر في نفوسهم .. لا ظلم في القضاء .. ولكن العدالة الالهية .. قضت بأن يحدد العبد لنفسه .. الجزاء الذي يبتغيه من وراء عمله ..

وكانى ارى بعض الناس .. يوم الحساب .. يقول للملائكة : ليست هذه صحيفة حسناتي .. فقد انشأت مسجدا في الدنيا .. وتبرعت بمبالغ كبيرة في انشاء كذا وكذا ولا اجد في تلك الصحيفة شيئا من هذا الذي قدمت « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها » ١١١ النحل/ فتقول له الملائكة : لقد عملت ما عملت لفعال عنك : المحسن الكبير .. ورجل البر .. والخير .. والاحسان وقد قيل .. وحصلت على الاجر الذي تبتغيه في الدنيا « اذهتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » ٢٠ الاحقاق/ فماذا تريد هنا الآن ؟ ..

وعلى النقيض منه .. من كان يبتغى عمله .. وجه الله .. تبارك وتعالى ..

واترك وصف هذا النوع .. من التفرد بالعمل .. لوجه الله فقط .. لا يبتغى فاعله من ورائه .. نفعا ولا مدحا ولا منصبا .. ولا جاها

كان إبليس .. من الجن النارى .. الموجود على كوكب الأرض قبل خلق آدم - عليه السلام - وكان اسمه عزازيل .. عبد الله وجاهد نفسه .. وقيل : انه لم يترك مكان شبر في السماوات والأرض .. الا وسجد لله فيه ..

فوصل بعبادته تلك .. الى درجة الملائكة النورانيين .. بل وصار أعلى منهم منزلة .. وارقى منهم درجة بجهاده مع نفسه .. وصراعه مع شهواته .. وليس للملائكة شرف هذا الجهاد .. او الصراع النفسى .. حتى أطلق عليه لقب - طاووس الملائكة ..

ولكن .. قاتل الله الغرور .. ففد هوى به غروره بنفسه في هذا المقام .. الى اسفل سافلين بعد أن كان في أعلى عليين ..

وبحضرتي في هذا المقام .. حديث معروف عن عبد الله بن مسعود رواه الشيخان عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول فيه :

« ان احدكم ليعمل بعمل أهل الجنة .. وفي رواية - فيما يبدو للناس حتى ما يكون بينه وبينها .. الا ذراع .. فيسبق عليه الكتاب .. فيعمل بعمل أهل النار .. فيدخلها » .. وبالعكس .. وقد يتبادر الى الذهن - من هذا المعنى - اسناد الظلم الى الكتاب .. لقوله « فيسبق عليه الكتاب » ..

ولكن لو تدبرنا .. نص الحديث الشريف .. لوجدناه - عليه الصلاة والسلام - يقول : « يعمل بعمل أهل الجنة » .. ولم يقل : يعمل عمل أهل الجنة ..

أترك. وصف هذا للرسول عليه الصلاة والسلام -
حيث يقول :

« أول ما تسقط الصدقة .. في كف الرحمن
فيريها .. كما يري أحدهم فلوله (١) .. حتى
تأتي يوم القيامة وقد صارت .. مثل جبل
أحد » .

والأصل فيها أنها صدقة قليلة .. والله يري
الصدقات مادامت خالصة لوجهه - تعالى .

وكان عزازيل - ابليس - من النوع الأول ..
يبتغى بعبادته .. أن يرقى إلى صفوف الملائكة
وقد بلغ فامتنع عن السجود .

وهنا يتوجه إليه .. خطاب الله تعالى -
« ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك » (٢) .. ؟

وتتجلى صفة الانانية .. في رده .. على
خطاب الله له .. « قال أنا خير منه » وبدأ ..
بأنه .. وأذكر هنا خبراً عن جبريل - عليه
السلام - « قال لرسول الله - صلى الله عليه
وسلم .. ما أبغضت أحداً من الخلق ما أبغضت
رجلين : أما أحدهما .. فمن الجن .. وهو
ابليس - لعنه الله - حين أبى أن يسجد لآدم ..
وقال : أنا خير منه والآخر من الانس .. وهو
فرعون .. حين قال .. أنا ربكم الأعلى ..
ولو رأيته يا محمد .. وأنا أخذ من حما البحر
وأدسه في فيه .. مخافة أن يقول كلمة التوحيد
.. فيرحمه الله بها » (٣)

فاذا قال المخلوق : أنا .. في موقف التفضيل
.. فقد اشرك بخالقه .. ورازقه .. ومحركه ..
ومدير أمره .. واتبع هواه .. وضل هداه ..

فأنت إذا أمعنت النظر .. وتدبرت في أن
انعام النظر نفسه ليس منك .. بل هو من فيض
قوة التجلي .. بصفة بصره - تعالى - إلى
بصيرتك .. أنت كلما تدبرت هذا .. أدركت
حقيقة عبوديتك .. وكلما أدركتها .. استشعرت
فضله عليك .. بتنزل صفاته إليك .. والاعتراف
بالفضل .. مدعاة لازدياده .. وتحقيق اسناد
الصفات إلى مسندها الحق .. وهذا يقتضي
استشعار الدل بالنسبة لنظرك إليك .. من حيث
أنت .. وهذا أيضاً يقتضي منحك العزة من حيث
هو .

(١) الفلول : يعنى المهر الصغير .

(٢) تسلسل العرض هنا من سورة الاعراف ١٢ - ١٨ .

(٣) في القرطبي وغيره - ٩٠ - يونس .

فكلما تم استشعارك .. الاعتماد عليه ..
والاستناد إليه تم كمال تجليه لك .. وأقباله
عليك .. طرداً لقاعدة « كمال الامداد .. من
كمال الاستعداد » .. وبهذا تكون العبودية ..
هي أشرف مقامات العبد .. وأكملها .. وهذا
الشرف .. هو الذي عينه الله - تعالى - بالتجلي
الكامل .. في مثل الآيات :

« سبحان الذي أسرى بعبده » ..
« ما أنزلنا على عبدنا » ..

و « إله كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا » ..
و « عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا »
.... الخ ..

وهنا مدخل واضح .. للأثر الحكمي « من
عرف نفسه فقد عرف ربه » ..
وتلك رمزية ثانية :

قال ابليس (أنا خير منه خلقتني من نار
وخلقه من طين) ١٣ الاعراف / حقيقة عنصر
النار أشرف من عنصر الطين .. فالنار بطبيعتها
خفيفة صاعدة دائماً .. إلى أعلى .. أما الطين
.. فتثقل هابط إلى أسفل .. والعلوى دائماً
أشرف من السفلى ..

خرج ابليس .. في هذا الموقف .. غيباً
أشد الغباء .. قصر النظر .. منحط التفكير ..
سوء الفهم .. فإن الله - سبحانه - لم يطلب منه
مع الملائكة .. السجود للطين .. لم يقلل
- سبحانه - فاذا سويته فقعوا له ساجدين ..
وانما قال « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي
فقعوا له ساجدين » ..

فالتكريم اذا .. ليس للطين .. وانما هو لما
في داخل الطين من روح الله ..

فمثلاً زجاجة « الكيروسين » نضعها .. في
أى مكان بالمنزل « قد يكون تحت السلم » ..
أو في المطبخ .. أو بين المخلفات .. بينما زجاجة
العطور .. نحفظها في علبة رشيقة .. وفي فترينة
أنيقة .. والزجاج في الحالين واحد .. وانما
الفرق فيما هو داخل الزجاج ..

والانسان خلق وأمر .. والخلق هو الجسم
والامر هو الروح .. الخلق ما تبصرون .. والامر

ملا تبصرون « فلا أفسم بما تبصرون وما لا تبصرون » .. ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا » .. « وأوحى في كل سماء أمرها » .. « إلا له الخلق والأمر » .. سبحانه .. وجل شأنه .. وتسامت قدرته .. فعالم الخلق صورة ومظهر .. أما عالم الأمر فهو الحقيقة والجوهر ..

ولنا بحث .. في موضوع الخلق والأمر .. بين كيف ومتى يمتزج الأمر بالخلق في الإنسان ومتى يعود الأمر إلى أصله والخلق إلى أصله (١) وليس هذا مكان البحث .. وإنما أشرنا إليه .. لنذكر الفرق « بين الطين والروح » .. ونلمس غياب اليبس ..

أخطأ إبليس التقدير .. وأساء التفكير .. فقال « أنا خير منه خلقتني من نار .. وخلقته من طين » ١٢ الأعراف / فقال له ربه : « فاهبط منها » أي اهبط من تلك المنزلة .. التي بلغت .. وانزل عن هذه الدرجة .. التي رقيت إليها « قال فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج أنك من الصاغرين » ١٣ الأعراف / ولنا وقفة قصيرة .. أما هذا الرد من اليبس - لعنه الله - تشمل فكرتين : الأولى : أن إبليس .. خرج غيبا .. سوء التقدير والتفكير للمرة الثانية ..

فلو أنه .. قال بعد أن صدر الأمر الإلهي .. بطرده من رحمة الله .. لو قال : يارب اغفر لي هذا الخطأ .. لغفر له .. فقد عصي بعده آدم عليه السلام - واستغفر وأتاب .. فغفر الله له .. ولكن إبليس .. بدلا من أن يطلب المغفرة .. طلب الانظار .. أي تأجيل موته إلى يوم الدين ..

والفكرة الثانية .. في موقف إبليس هذا .. نفهم منها .. أن للجن آجالا مثل آجالنا .. يموتون بعدها .. باتقضاء الأجل والا لما كان هناك داع لأن يطلب إبليس عدم الموت إلى يوم يعثون

ولكن آجال الجن تحسب بالقرون .. ونحسبها نحن البشر بالسنين ..

واجب إبليس .. إلى طلبه « فقال الله له « قال أنك من المنظرين » ١٥ الأعراف .. قال إبليس « فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم » ١٦ الأعراف ..

وارجو أن نعي جيدا قول إبليس للعين .. لله جل شأنه « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » .. وحدد لنفسه الصراط المستقيم بالذات .. ولنا عودة .. إلى هذا الصراط .. بعد أن نذكر .. تحديه لنا .. بقوله بعد ذلك « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » ١٧ الأعراف / فقال له - سبحانه - « قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستغفروا من استطعت منهم بصوتك ، واجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الأغورا » ٦٣ - ٦٤ الأسراء ..

وبالها من حرب ضروس بيننا وبين إبليس وذريته .. وقد صدر له الأمر الإلهي الحربي .. بإعلان بدء المعركة .. بقوات فيها أصوات يستغفروا بها .. وفيها جلب (٢) « بفتح الجيم واللام » على الخيول .. وعلى الأرجل .. وفيها مشاركة في الأموال والأولاد ..

والجن ثقل - بفتح الثاء والقاف - مكلف بالعبادات الانسانية .. من صلاة وصيام .. وزكاة .. وحج .. وتحلل للحلال .. في مآكلهم ومشاربهم .. ونسائهم .. وهذا يدل .. على قيام اشتراك فعلى .. في الاستفادة من طبيعة الحياة الأرضية .. وبحسبك .. أن تستشعر ذلك الاشتراك العنصري .. بين آدم وذريته .. وإبليس وذريته حين قال الله تعالى :

« قلنا اهبطوا منها جميعا » وصيغة الجمع هنا لآدم وحواء وإبليس ، فاما يأتينكم مني هدى .. فمن تبع هداي ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون « ٣٨ - ٣٩ البقرة / سواء كانوا من الجن أو الأنس معا ..

(١) نشر بمجلة الدعوة .. بعنوان « رحلة الحياة بالحواس العشر » العدد السادس / شهر ذي الحجة سنة ١٣٩٦

(٢) جلب كطلب : أي صاح على فرسه « يستحثه على السبق - مختار الصحاح » .

٣ إبلّيس يتحدّى

صلاتك على قدر درجة الصراع .. بينك وبين إبليس اللعين .. هو يريد أن يشغلك عنها .. بأمور دنيوية .. وأنت تصارعه .. وتستعيز بالله منه .. لتتجه بقلبك إلى حبيبك .. وخليك .. ورازقك ومدير أمرك..

وأترك التعبير .. عن مثل هذا الموقف .. لقائدنا المصطفى إذ يقول فى حديث ورد فى صحيح البخارى .. عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم.. قال: «أن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فأخذه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلّم فذكرت دعوة أخى سليمان: «رب هب ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى» فرددته خاسئاً.(١)

ولنستمع إلى جداله .. مع ربه .. فى الآية التى بين أيدينا «ثم لآتينهم من بين أيديهم .. ومن خلفهم .. وعن أيمنهم .. وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين» ١٧ - الأعراف / بعد أن قال «لاقعدن لهم صراطك المستقيم» .. حصار تام .. واحاطة شاملة .. من الجهات الأربع:

من أمام.. ومن خلف .. ومن يمين وشمال... فإذا لاحظنا.. أن الجهة السفلية.. هى الطين بثقله وظلمته.. وحجبه الكثيفة .. فكيف الفكك من حبال الشيطان والخلاص من شراكه؟..

إن رحمة الله بعباده المؤمنين .. حرمت الجهة العليا.. على سلطان إبليس.. وهى

هذا التحدى من إبليس .. يستدعى منا منتهى اليقظة .. والحذر فللشيطان خطوط كثيرة «يدخل منها الى صدور بنى آدم فيزين لهم الشر .. ويدفعهم إلى الرذيلة .. دفعا .. أن لم تكن عندهم حصانة الايمان .. وقوة اليقين ..

يقدم إبليس .. انذاراً .. لكل سائر .. على الطريق المستقيم بقوله فى سورة الأعراف «لاقعدن لهم صراطك المستقيم» ١٦ - لم ينذر به رواد الملاهى «والكباريات» أو عملاء بيوت الدعارة «والبارات» .. ليس له شأن بالظلمة.. وعبد الطاغوت .. ولا بالمجدين المارقين الخارجين على تعاليم صاحب الملك والملكوت .. فكل هؤلاء أعوانه .. وأنصاره .. وجنوده .. استذلهم الشيطان .. وخالط قلوبهم .. فلا عين لهم .. ولا أذن .. ولا لسان .. ولا يد .. ولا رجل .. وانما هى عينه وأذنه ولسانه .. ويده .. ورجله .. الشيطان هو عينهم التى يبصرون بها .. وأذنه التى يسمعون بها ولسانهم الذى يتكلمون به .. ويدهم التى يبطشون بها ورجلهم التى يمشون بها «ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه» أتبعوه انقيادا .. واستسلاماً مطلقاً لا هم له بهؤلاء وانما شغله الشاغل .. وهمه المائل .. هؤلاء الذين اتجهوا إلى الصراط المستقيم «لا هم له» الا هؤلاء الذين يقفون بين يدي رب العالمين «فى اليوم خمس مرات» وكان تكبيرة الاحرام اذن له «بالدخول الى نفس المصلى ..» فقد تخطر ببالي.. وأنا قائم فى الصلاة «أشياء كثيرة.. لم تكن فى فكرى.. قبل الدخول فى الصلاة .. فيذكرنى بكذا .. وكذا .. واعلم يا أخى أن أجرك عن

(١) صحيح البخارى - الجزء الرابع - ص ١٩٧ - طبعة الشعب ..

الجهة الوحيدة الباقية من الجهات الست.. فلا
نجاة من حباله .. ولا فكاك من شراكه .. الا
بالاتجاه الى أعلى .. الى الله ومن هنا كان ختام
الاذن لابليس .. فى اعلان الحرب الضروس .. على
آدم وذريته «أن عبادى ليس لك عليهم سلطان» ٦٥
- الإستراء .. عبادى .. الذين يتجهون الى .. فى كل
أعمالهم «يرفعون أكفهم .. ليل نهار .. لأخذ بيدهم
فى الملمات .. وأنقذهم من المهلكات .. يعلمون أن
الأرض تهوى تحت أقدامهم .. الى هاوية .. ما لها
من قرار .. فلا يركنون اليها .. ولا يطمنون عليها
.. وانما يستمسكون بالعروة الوثقى العلوية ..
حتى اذا هوت الأرض الى قرارها السحيق .. أو الى
غير قرار .. لا يهوون معها .. فهم معتصمون بحبل
الله العلوى المتين مستمسكون بركنه الركين.

وقد يتبادر الى الذهن سؤال لطيف:
أليس اليمين جهة الخير (كيف يأتى إبليس عن
طريق الخير؟..

ولدينا عن هذا الكثير من الأمثلة:

فمثلا.. يوسوس لى إبليس - وهو يعلم إننى
مؤمن أحب الخير - فيأتينى من باب الخير .. حيث
يدفعنى الى زيارة جارتى فلانة .. لأنها أرمل ..
مات زوجها .. وترك لها أطفالا يتامى .. فهم فى
حاجة الى من يواسيهم ويمسح من عيونهم ..
دموع الأسى واليتم ... وهذا عمل خير من غير شك
.. غير أن إبليس يريد بهذا الدفع .. أن يدخلنى الى
منزلها .. عسى أن تتاح له فرصة .. لنصب شباكه
.. وأحكام شراكه .. بينى وبينها .. ومثل آخر ..
كثيرا ما يحدث لنا فهو يوسوس لى فى صلاتى ..
وأنا فى الركعة الرابعة من صلاة العشاء مثلا .. أن
هذه هى الركعة الثالثة وهو يعلم أننى سابنى على
اليقين - وهو الأقل - وسأصلى ركعة زائدة .. واتبع

صلاتى بسجدة السهو. وكلها زيادة لى فى الأجر ..
بعد هذا التحدى والعصيان / وبعد ظهور
غبائه مرتين / كان الرد القاطع .. من الله -
سبحانه:- «قال أخرج منها مذءوما .. مدحورا ..
لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين» ١٨ -
الأعراف.

وقبل أن نترك إبليس - لعنه الله - لنعود الى
آدم عليه السلام - نريد أن نعرف أسلحته التى
يحاربنا بها فانت أن عرفت سلاح عدوك .. أمنت
مكره .. وكفيت غدره .. واتخذت لنفسك الأسلحة
المضادة .. التى تصد بها غاراته .. وتفسد بها
طلقاته ..

وقد أورد لنا - ابن اسحاق الثعلبى - رواية
فيها .. أسلحة الشيطان رأيت أن أقدمها للقارىء ..
ليحذرها . فقال :

روى أن إبليس، قال يارب .. لعنتنى ..
وأخرجتنى من رحمتك .. وجعلتنى شيطانا رجيماً
.. مذموماً مدحوراً .. فما رسلنى؟ فقال : رسلك
الكهنة .

قال : فما كتبى ؟ قال : كتبك الوشم .
قال : فما حديثى ؟ .. قال : حديثك
الكذب .

قال : فما قراءتى ؟ .. قال : قراءتك
الشعر .

قال : فما مؤذنى ؟ .. قال : مؤذذك
المزمار .

قال : فما مسجدى ؟ .. قال : مسجدك
السوق .

قال : فما طعامى ؟ .. قال : طعامك ما لم يذكر
اسمى عليه .

قال : فما شرابى ؟ .. قال شرابك كل مسكر .
قال : فما حبائلى ؟ .. قال : حبائك النساء .

٤] آدم نبي الملائكة

مخالفة هذا لما أورده الأستاذ الكبير الشيخ
عبد الوهاب النجار .. في كتابه « قصص
الأنبياء » .

حيث يقول :

يبالغ بعض الناس فيزعم ان الله تعالى - علم
آدم أسم كل شيء كان ويكون .. وعرض عليه
صورة هذه الأشياء ما كان موجودا وما سيوجد
« وان آدم سمى كل شيء باسمه وهذه مبالغة
لا أميل اليها (٢) » .

ولست ادري لماذا لا يميل الأستاذ الى هذا
الرأى ؟ ولنا في هذا الموضوع بحث طريف . .
لا اعتقد ان احدا قد سبقنا اليه بمعنى اننى لم
اقراه من قبل فالعلم كله . . كامن بالفطرة في
نفس آدم وذريته .. ولا ضرب لك مثلا .. يقرب
هذا المعنى ..

انا اقول لك : هذه الزلطة .. فيها نار ..
فتقول انت : كيف يكون فيها نار .. وهذا
سطحها بارد شديد البرودة ؟ ..

فأقول لك : اضرب تلك الزلطة الباردة
بالزناد .. نخرج منها الشرار .. الذى يشعل
النار ..

فالتعلم .. ما هو الا قدح لزناد العكر
البشرى لاجراج العلم الكامن في النفس البشرية
.. وان الذى اكتشف المدياع .. لم تأت الفكرة

بعد ان خلق الله آدم - عليه السلام - ونفخ
فيه من روحه .. واسجد له ملائكته .. علمه
الاسماء كلها « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم
على الملائكة فقال أنبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم
صادقين » ٣٠ البقرة .

واختلف المعسرون والعلماء .. في المقصود
بالاسماء التى تعلمها آدم ..

فقال بعضهم : انه تعلم اسماء الملائكة كلهم
.. وهذا مردود طبعاً .. فليس من المعقول ..
الا يعرف الملائكة اسماءهم عندما قال الله لهم
« أنبئوني باسماء هؤلاء » حيث قالوا « سبحانك
لا علم لنا الا ما علمتنا » وقال آخرون : علمه
اسماء ذريته .. وهذا مردود ايضا .. لان اسماء
بنى آدم .. كلها اسماء مكررة جيلا بعد جيل
وليس في هذا حكمة ظاهرة وقال ابن عباس :
علمه اسم كل شيء .. حتى القصعة والقصيعة (٢)
كما قال صاحب تفسير البيضاوى (٢) ان الله
تعالى خلق آدم من اجزاء مختلفة .. وقوى
متباينة مستعدا لادراك انواع المدركات .. من
المعقولات والحسنيات والتخييلات والموهومات ..
والهمة معرفة ذوات الأشياء وخواصها ..
واسمائها .. واصول العلوم .. وقوانين
الصناعات وكيفية آلاتها (٣) .

والنص والمنطق .. يؤيدان الرايين الآخرين
فاللفظ بالكلية المطلقة .. في كلام الله - سبحانه -
لما قال الاسماء كلها « يشمل ما كان وما يكون برغم

(٢) البيضاوى ٣١ البقرة .

(١) النسخى ٣١ البقرة .

(٣) قصص الانبياء للنجار ص ٦ - الطبعة الثالثة .

من خارج نفسه. وإنما هي كامنة فيه .. واخذ
يجرى التجارب العلمية .. تجربة اثر تجربة ..
حتى أبرزها حقيقة .. تخدم الحياة ..
ولعل هذا هو السبب .. في أن علماء النفس
.. والتربية يحرصون. أشد الحرص .. على
الطريقة الاستنتاجية .. في التعليم .. بمعنى
أن المدرس الماهر .. لا يلقي تلاميذه المعلومات
تلقينا وأملاء عليهم .. وإنما هو القادر .. على
استنتاج الحقائق العلمية من أفواه التلاميذ ..
ولهذا قالوا : أن الطريقة التلقينية .. لا تأتي
بخير ..

عرف آدم - عليه السلام - كل شيء في
الدنيا .. بفطرته التي فطره الله عليها .. وكان
الله - سبحانه - قد عرض عليه « فلم » الدنيا
.. بما عليها .. من حيوان .. ونبات .. وحماد
.. وعلوم .. وآلات .. ومكتشفات ..

عرف كل شيء باسمه .. وتركيبه ..
وفائده .. وخواصه .. ثم عرض - جل شأنه -
تلك المسميات على الملائكة .. قائلا لهم :
« انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » في
دعواكم .. بأنكم احق منه .. بالاستخلاف في
الأرض ؟

فراى الملائكة امامهم .. اشياء لم يالفوها ..
ومسميات لم يعرفوها .. فقالوا : مقرين معترفين
بعجزهم ..

« قالوا سبحانه لا علم لنا الا ما علمتنا ..
انك انت العليم الحكيم » ٣٢ البقرة .

قال ليثبت لهم .. قدرة آدم .. وامتيازه
عليهم « قال يا آدم انبئهم بأسمائهم » ..
وهنا يجلس آدم من الملائكة مجلس النبوة
والانبياء لينبئهم بأسماء تلك المشهودات .. التي
امامهم .. وتركيبها وتكوينها « فلما انبأهم
باسمائهم » قال الله تبارك وتعالى لهم « ألم اقل
لكم اني أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم
ما تدون ، وما كنتم تكتمون » ٣٣ البقرة .

لقد افاض الله على آدم .. الاستعدادات ..
والملكات .. والفرائض الداخلة في نطاقه وذريته
فعرف الاسماء كلها .. وكانت الملائكة تجهل
تماما .. علاقات آدم وذريته بهذه النشأة
الأرضية .. لذلك اجابهم سبحانه - لما ابدوا
الاعتراض على خلق آدم .. بقوله « اني أعلم
ملا تعلمون » ..
ولما كانت المعروضات .. خاصة بنشأة
آدم .. وهى نشأة فريدة .. لم يسبق لها

مثيل .. فقد تبينت ملائكة النور .. والنار
- ابليس - ان هذا شأن جديد .. من شئون
الله .. في أيام الله .. لا يعلمون عنه شيئا ..
وكان حريا بهم .. ان قالوا « سبحانه لا علم لنا
.. الا ما علمتنا .. انك انت العليم الحكيم »
فلا احاطة لنا بعلمك .. الا ما تفضلت ..
فكشفت لنا .. وعلمتنا اياه ..

فأراد - سبحانه - أن يجعل آدم ..
وسيلة علمهم بالنشأة الجديدة .. فتفضل ..
وجه الامر .. الى آدم « قال : يا آدم انبئهم
باسمائهم » ونهض آدم على منصة الانبياء ..
فأبأ الملائكة .. ونجح في ذلك « فلما انبأهم
باسمائهم » قال الرب - تبارك وتعالى ..
للملائكة : « ألم اقل لكم اني أعلم غيب السماوات
والأرض وأعلم ما تدون » من الاعجاب والفضة
.. بحصول العلم بما لم يكونوا يعلمون .

« وما كنتم تكتمون » (١) في انفسكم من
استعظام نعمتي .. وفضلى على آدم ..
واختصاصه بخلافتي في الارض ..

وتبين من النص .. ان المعروضات المشهودة
.. للملا الأعلى .. والتي لم يكن لديهم العلم
باسمائهم .. كانت بالنسبة لهم .. غيبا ..
ندليل قوله تعالى « ألم اقل لكم اني أعلم غيب
السماوات والأرض » الذي كان غائبا عنكم ..
مجهولا لديكم .. فوجود آدم لهذا .. رحمه
بكم .. وسعة لافاقكم ..

وهنا يدرك اللبيب .. سر سجود الملائكة
لآدم .. بوصف الخصائص الذاتية .. للفضل
الإلهي .. « الذى خلق من الماء بشرا ، فجعله
نسبا وصهرا ، وكان ربك قديرا » .

والله ما أسمى الإشارة .. الى القدرة ..
في هذا المقام « حيث سجد النور والنار معا ،
لكائن جمع النور والنار معا .. فكان أعلاه فوق
الملائكة .. وأدناه أسفل من الانعام ..

وهذا مضمار واسع .. تتسابق اليه الهمم
العالية صعودا .. والفرائض الدنيئة هبوطا ..
والإنسان هنا مكلف باسم الروح القدس
والخلد الفردوسى .. ان يعمل كادحا .. في
الترفع عما هو أدنى .. الى ما هو أعلى .. لأن
الأعلى .. اخلد باق .. والأدنى بائد فان ..
فمن شاء الخلود سعى اليه
ومن شاء الهبوط هوى دنيا
ومن عرف المحبة في جهاد
لهذا كان صديقا نبيا

٥ الحياة الأولى لآدم

مادتها .. وجنسها .. فنحن لا نميل الى هذا
الرأى .. بسبب الأدلة التى قدمناها .

ثم قال الله تعالى لآدم : « ويا آدم اسكن أنت
وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا
هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » ١٩ - الاعراف
فأين تلك الجنة ؟ ..

لقد اختلف المفسرون والعلماء .. فى مكانها .

قال بعضهم : انها من جنات الارض (١) ..
وقال الأغلب : انها ليست من جنات
الدنيا ..

ولهم فيها اقوال كثيرة .. وصولات وجولات
حتى ان بعضهم قال : انها جنة .. اخترعها الله
بين السماء والارض (٢) وهذه كلها اقوال مردودة
فالكلام عن المكانية والزمانية فى مثل هذه البحوث
ما هى الا سفسطة خيالية .. وشطحات وهمية
.. لاداعى للنقاش فيها .. لان المكان والزمان
اعتباريان .. بالنسبة لساكن هذه الارض ..
او غيرها من الكواكب الاخرى ..

والواقع المنطقى .. انها جنة بها فواكه
ومطاعم .. ليست من فواكه ومطاعم الدنيا ..
بمعنى انها تتحلل كلها داخل الجسم - جسم
آدم وزوجته - بلا فضلات .. ولا نفايات ..
فليس فى الجنة مكان للبول والبراز .. ولا مجال
للعرق والمخاط .. ولا يوجد فيها غير شجرة

خلق الله تعالى حواء .. من ضلع من أضلاع
آدم لتكون زوجا وسكنا له .. وقد ورد فى
الخبر .. « خلقت المرأة من ضلع أعوج .. فان
تقمها تكسرهما .. وان تتركها .. تستمتع بها
على عوجها » .

وقد اخبرنى بعض اساتذه التشريح الانسانى
.. ان للذكر .. ضلع ناقص ... فى آخر الجانب
اليسر .. من القفص الصدرى .. أما الأنثى ..
فجميع أضلاعها .. تامة .. ولعل هذا هو سر
المثل العامى الذى يقوله الانسان عن زوج ابنته
« لقد اخذ منى أربعة وعشرين ضلعا » والنص
القرآنى يقول « هو الذى خلقكم من نفس واحدة
وجعل منها زوجها لسكن اليها » ١٨٩ ..
الاعراف .

وقد جاء ما يؤدى هذا المعنى فى التوراة ١

ففى سفر التكوين .. فى الاصحاح الثانى ..
ما نصه :

٢١ - فأوقع الرب الاله سباتا على آدم فنام
فأخذ واحدة من أضلاعه .. وملا مكانها لحما ..

٢٢ - وبني الرب الاله الضلع .. التى
أخذها من آدم امرأة .. وأحضرها الى آدم ..

٢٣ - فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ..
ولحم من لحمى هذه تدعى امرأة .. لأنها من
امرى أخذت . ١ هـ / اما ما يتكلفه البعض فى
تفسير قوله تعالى « وجعل منها زوجها » اى من

(٢) الثعلبى .

(١) فى البيضاوى والنسقى ٣٥ - البقرة .

بحلة صدفية لؤلؤية .. اشبه ما تكون باظافر
الطفل الوليد لحظة ولادته .. لؤلؤية .. وردية
.. شغافة تكاد تنم عن الدم يتفرق تحتها ..
فلا مسام للجلد .. ولا دبر للبراز .. ولا قبل
للبول ..

فعندما قاسمهما ابليس - أى اقسام لهما -
انه لهما من الناصحين .. « وقاسمهما انى لكما
لمن الناصحين » ٢١ - الاعراف .. لياكلا من
تلك الشجرة المحرمة .. وهما لم يالغا وجود من
يجرؤ على الحلف بالله كاذبا « صدقته حواء
أولا .. فأكلت ثمرة منها .. ثم تبعها آدم
كذلك ..

وبدأت عملية الهضم في المعدة .. حتى اذا
تم .. بدا العرق أولا يلتمس طريقا الى الخروج
.. وكان لزاما ان تطير تلك الحلة الصدفية ..
التي تغطى مسام الجلد .. لتتفتح هذه المسام
وتسمح بمرور العرق منها .. ثم تظهر السؤات
.. لتفتح الطريق أمام البول والبراز « فلما ذاقا
الشجرة بدت لهما سوءاتهما » ولم يبق من الحلة
غير أطراف الأصابع في اليدين والرجلين ..

ويذكرنى هذا بأيام الصبا عندما كان الضحك
يفلنا ونحن في مجلس الآباء والاجداد .. فنحاول
كبتة في صدورنا .. فلا نستطيع .. الا اذا
نظرنا الى اظفارنا فيتلاشى الضحك ، في الحال
.. وكان الروح .. تتذكر حلة الجنة فتقبض .

ولا اكتمك ايها القارئ الكريم .. ان مسألة
الحلة الصدفية .. التي هي من جنس الاظافر
.. كانت اجتهدا منا .. وتخريجا من واقع
الحال ..

غير اننى بعد ايراد هذا المعنى حول لباس
آدم وحواء في الجنة وأنا ابحت في كتب التفسير
رأيت ابن عباس رضي الله عنه يقول في تفسير « بدت
لهما سوءاتهما » تقلص النور - بتسديد النور
وفتحها - الذي كان لباسهما « فصار اظفارا في
الأيدي والأرجل » (١) ..

كما رأيت سعيد بن جبير - رضي الله عنه -
يقول : كان لباسهما من جنس الاظفار (٢) ..
فكان قول الشيخين الجليلين دليلا على صحة
ما اتجهنا اليه ..

(٢) الكشف والنسفي ٢٢ - الاعراف .

واحدة - وكانها مسمار جحا - خلقها الله فيها
.. من عناصر الطين .. بمعنى انها تترك بقايا ..
لا بد ان تخرج من الجسم .. على هيئة بول وبراز
.. وعرق ومخاط .. ودموع وبصاق .. تلك
هي الشجرة المحرمة اوجدها الله في الجنة ..
ونهاهما عن الاكل منها .. وهو - سبحانه -
يعلم انها ستكون السبب .. في هبوطهما من
الجنة الى الارض .. حيث توجد اماكن .. لمثل
هذه القاذورات .. الناتجة من اكل ثمرها ..

وهذا هو تخطيط العليم الحكيم .. حيث
كان الامر الصادر .. قبل خلق آدم « انى جاعل
في الارض خليفة » ولم يقل انى جاعل في الجنة
خليفة .. فلزم ايجاد الأسباب التي تؤدي الى
الهبوط .. من الجنة الى الارض ..

ولقد كان بعض ائمتنا يتحدث قريبا في
المذيع .. حول آدم وحواء في الجنة .. وطابق
رأى فضيلته رأينا الذي سقناه عن غداء الجنة
.. فقال انه بغير فضلات ولا نفايات .. غير انه
قرر ان لباسهما في الجنة .. لم يكن لباسا
ماديا .. وانما كان لباسا معنويا .. مستدلا
على ذلك .. بقول الله تبارك وتعالى « يابنى آدم
قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ،
ولباس التقوى ذلك خير » ٢٦ الاعراف ..
فقرر انه لباس التقوى ..

فاذا كنا نعلم ان هذه الآية بمعناها ..
كانت بعد هبوطهما من الجنة الى الارض ..
ونحن لا نلجأ الى المعنى الباطنى .. الا اذا عجزنا
عن ابراز المعنى الظاهرى .. والظاهر صريح ..
في قوله تعالى .. « ينزع عنهما لباسهما ليريهما
سؤاتهما » ١٢٧ الاعراف ومعنى هذا .. انه كان
عليهما لباس .. واستطاع الشيطان باغوائهما
ان ينزع عنهما هذا اللباس .. وظهرت السؤات
.. والعمورات فما هو هذا اللباس اذا ؟ ..

نحن مادمننا متفقين .. مع فضيلة الاستاذ -
محدثنا في المذيع - في ان طعام الجنة ليس له
فضلات .. ولا نفايات .. تستلزم المسالك
للخروج من الجسم .. فلاداعي اذا لمسام الجلد
.. حيث لا يوجد عرق .. فكان جسمهما مغطى

(١) القرطبي ٢٢ - الاعراف .

وقد فاتنا ان نعرف نوع هذه الشجرة ..
وقد اختلف فيها المفسرون .. ولكنهم اجمعوا -
تقريبا . على انها الحنطة او الكرم .. او
التينة (٣) ..

ولا يهمننا نوعها « او اسمها » ويكفي ان
يعلم انها شجرة من شجر الارض « الطينى » الذى
يبقى من ثمرة فى الجسم فضلاته « كما بينا ..
وعرف آدم وحواء بالفطرة » ان ما انكشف من
جسميهما « عورات .. يلزم سترها .. » وطبقا
بخصفان عليهما من ورق الجنة « ٢٢ الاعراف
اى يلصقان الاوراق ببعضها لتستر ما بها لهما
من السوءات » ..

اين يتبرزان ويتبولان ؟ .. وليس فى الجنة
مكان لمثل هذا .. فسمعا نداء العلى القدير
« وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة
واقبل لكما ان الشيطان نكما عدو مبين » ٢٢
الاعراف .

احس آدم بجريمته .. فاستحى من ربه
.. ولم يدر ماذا يقول ، ..

ولكن الله الرحيم بعبدہ آدم .. وهو يعلم
ما انطوت عليه نفسه من الندم « قال له يا آدم
قل : « ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تفقر لنا
وترحمنا ، لنكونن من الخاسرين » ٣٣ الاعراف
فقالها » ..

يؤيدنا فى هذا « فتلقى آدم من ربه كلمات
.. فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » ٣٧
البقرة .

تاب عليهما « ثم قال لهما « اهبطوا بعضكم
لبعض عدو ، ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى
حين » ٢٤ الاعراف وأمر الهبوط هنا بالجمع
« فقد هبط معهما ابليس » ليقوم برسالته
معهما « ومع ذريتهما .

(١) انبىاوى والكشاف والنسفى وغيرهم ٣٥ - البقرة .

(٣) الكشاف والنسفى ٣٧ البقرة .

وعن ابن مسعود :
أحب الكلام الى الله . ما قاله أبونا آدم
« حين افترى الخطيئة » سبحانه اللهم وبحمدك
.. وتبارك اسمك وتعالى جدك .. لا اله الا انت
سبحانك « ظلمت نفسى فاغفرلى » انه لا يغفر
الذنوب الا انت (١) .

ويبدو لنا سؤال .. قبل ان نترك الجنة
« ونهبط الى دنيا الاكدار »

هل كان آدم وحواء مستمتعان بنعيم الجنة؟
وما مدى احساسهما بهذا النعيم ؟

وقبل ان نجيب على هذا السؤال .. اذكر
ان قرية بمحافظة الغربية كان بها تفتيش لاملاك
احدى الاميرات وقيل ان الفلاحين « كونوا وفدا
سافر الى القاهرة لمقابلتها » وليقولوا لها ان
الآفات الزراعية « قضت على القمح والبذرة .
فى الحقول » نقصدون من هذا تخفيف القيمة
الايجارية .. او تقسيط الايجار على أعوام
قادمة « فلم تفهم غرضهم » وقالت لهم مادمت
ليس عندكم قمح ولا ذرة .. كلوا جاتود

لا شك انه رد مضحك وسواء حدث هذا
من شيوكار « او من غيرها فلها العذر .. فى
تفكيرها « فهى لا تعرف معنى الفقر لانها ولدت
« فى القصور » .. حولها كل ما تشتهى الانفس
من لذائل الطعام وأشهى المأكولات فلم تفهم معنى
الفقر ..

ولم يدر طعم الفقر من هو فى غنى
ومصحح الأبدان ليس كمبتلى

وهكذا كان حال آدم وحواء فى الجنة ..
حولهما ما تشتهى الانفس « وتلد الأعين »
« انهار من ماء غير آسن » . « وانهار من لبن . »
« وانهار من عسل » .. « وانهار من خمر لذة
للشاربين » .. « فيها سرر مرفوعة » .. « فيها

الا اذا شقيت ؟ او الراحة الا اذا تعبت ؟ او لذة
الطعام الا اذا جعت ؟

طردا من الجنة « ومعهما ابليس » ليؤدى
كل واحد منهم دوره على مسرح الحياة الدنيا
وليثبت ابليس - عمليا - ان آدم وذريته - وهم
سبب طرده من رحمة الله ورضوانه - هم الذين
يعصون الله « ويحاربونه » ويسعون فى الارض
فسادا « بالظلم والجبروت » والكبر والطاغوت
وقد لفت نظرى آية من كتاب الله الكريم عن
الشيطان : « كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر
- فلما كفر قال انى برىء منك انى اخاف الله » .
« الشيطان ابها الاخ الكريم » يخاف الله ..

فاكمة كثيرة « .. » ولحم طير مما يشتهون «
لا يعرفان معنى ، للفقر او الشقاء او الجوع
او العرى .. لم يجربا شيئا من كل ذلك ..
حتى يميزا بين الفنى والفقر .. او السعادة
والشقاء .. او الشبع والجوع .. والحكمة
تقول : وبضدها تتميز الاشياء .. فكل ما لآدم
فى الجنة .. الا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظلم
ولا يضحي .. اما الاحساس بالنعيم .. فهذا
شيء آخر .. حتى العلاقة بين آدم وحواء « فى
الجنة » ليست فيها العلاقة الجنسية « او
العاطفة الغريزية » التى تجذب الذكر الى الانثى
وتشد الانثى الى الذكر .. لان تلك الغريزة
وليدة الغذاء الطينى الارضى الذى لم يدخل
جسميهما بعد فلم يكن فى حياتهما هذا الاحساس
بالسعادة والنعيم والراحة وهل احسن السعادة



٦ آدم في الحياة الدنيا

إذا قيسست بغيرها .. مما تثبت الأرض من بقلها
وقثائها ، وقومها وعدسها وبصلها ... كما
ستشهدين فيما بعد ..

وطعام الجنة .. من نفس انواع طعام الدنيا
.. ولكنه من عناصر نورانية .. لا من عناصر
طينية .. انظر الى قوله - تبارك وتعالى
(« أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، كلما
رزقوا منها من ثمرة رزقا ، قالوا هذا الذي
رزقنا من قبل ، وأتوا به متشابها ») ٢٥ البقرة /
فالتفاحة .. في حدودها الوردية الرائعة ..
التي لا يستطيع فنان ابداعها .. وملاسة
سطحها .. التي يعجز امهر صناع « الدوكو »
عن اخراجها .. ورائحتها الخاصة بها .. فهي
ليست رائحة ورد .. أو قل .. أو نرجس ..
وانما هي رائحة خاصة .. اسمها رائحة التفاح
.. وطعمها اللذيذ الشهى .. الذي لا يمكن
لخبراء الحلوى اخراج مثيل لها .

كل هذا الجمال .. من عناصر الطين ..
فكيف تتخيل جمال التفاحة من تفاح
الجنة .. التي هي من عناصر النور ؟ لا نملك
الا أن نقول :

سبحان الخلاق العظيم

ولنهبط مع آدم وجواء .. الى الأرض ..
لنبدا الحياة الدنيا .. بين مطامعها .. ومطامعها
وآمالها .. وآلامها .. وأحوالها وأحوالها ..
ولنجرب الشقاء والعناء .. والفقر والمرض ..
والجوع والعري .. حتى اذا عدنا الى اصلنا ..
في الحياة العليا .. استطعنا ان نحس السعادة
والنعيم .. والراحة والغنى .. وصلاح البال ..
وحسن المال .

ويبدو ان آدم وجواء .. لم يهبط في مكان
واحد .. ليتم اللقاء بينهما والتعارف بعد حين
.. في عرفات ..

قال ابن عباس - رضى الله عنه - هبط آدم
على الأرض فوق جبل سرنديب (١) .

نزل آدم في الهند .. ونزلت حواء في
الجزيرة العربية .. وقيل أن حواء عندما جاءت
.. أنها ملاك بمنقود من أجود أنواع العنب ..
صفاء وشفافية وجمالا .. فقالت للملاك :
ما هذا ؟ .. قال : هذه فاكهة .. قالت :
ما هذه الفاكهة المظلمة ؟ .. وذلك بالنسبة الى
الفاكهة النورانية .. التي كانت تتناولها في
الجنة .. فقال لها الملاك : كلى .. فهذه من
اصفى المأكولات الأرضية .. وأكثرها شفافية

(١) : التلبيس .

٧ لقاء وتعارف

تبحث عيناه في جنبات الوادى .. عن جزء منه
.. طال حنينه اليه .. وزادت لهفته عليه ..
- مضت ستة شهور .. من البحث المضنى
.. اكلا فيها من نبات الارض .. ونمت فيهما
الفريزة الجنسية .. والتقت عيناها ..
ولا يكاد كل منهما أن يصدق عينيه .. فهذا
اللقاء .. فيه امر جديد .. لم يالفاه من قبل
.. ولم يعرفاه في حياتهما الاولى في الجنة ..

ذلك الامر هو الفريزة الجنسية .. وهى
اساس العلاقة التى تربط بين الذكر الانثى ..
فهبت والهة للقاءه .. وعدا مسرعا ..
لاحتوائها بين احضانه .. فى نشوة غريبة ..
واضطراب عجيب .. والتقى الجسدان .. فى
لقاء حار مجنون ..

واذا بملك من السماء .. يقول .. :

يا آدم .. الله يناديك .. والشهوة تناديك
.. فأيهما تلبى ؟ / الشهوة ، .. ماذا ، ..
ماذا يشغلنى عن ربى ؟ .. انا ما زلت اتلظى
بنار خطيئتي الاولى .. فكيف اخطىء ثانية ؟
لا .. لا .. والى وقت آخر .. ولكنه ربى .. الذى
سامحنى .. وعفا عني .. وغفر لى خطيئ ..
ولم يطردنى من رحمته - ملعونا - برغم عصياني
.. ومخالفتى امره ..

ظل كل الف .. يبحث عن الفه ..

هو يجد فى البحث عنها .. وهى ايضا
تجد فى البحث عنه .. لا يقر لاحدهما قرار
ولا يهدا لهما بال ..

سار هو من الهند .. حتى دخل الجزيرة
العربية .. من شرقها .. بينما هى تجوب
الجزيرة .. من اقصاها .. الى اقصاها ..

وفى صبيحة يوم صاف جميل .. جلست
فتاة .. رقيقة .. رشيقة .. انيقة .. فى
ريعان الصبا .. وشرخ الشباب .. بعد الفجر
.. وقبل شروق الشمس .. فوق صخرة
عالية .. وقد اتجهت بوجهها الى الشرق
فانعكست على جبينها المشرق خيوط الصبح
البيضاء .. فكسته اشراقة رائحة .. اكسبتها
جمالا وجلالا .. لا يحدهما وصف .. ولا يسبر
غورهما فكر .. تمد بصرها الى الافق الشرقى
.. بعينين حالمتين .. طال بهما الحنين الى
الاليف المفقود ..

واذا بها تلمع من بين انفاس الصباح ..
شبحا مقبلا من بعيد .. شاب فى عنفوان
شبابه .. مفتول الدراعين .. بارز العضلات
.. مرسلا شعره على كتفيه .. تحركه نسيمات
الصباح العليقة .. يسير فى خطى ثابتة ..

انظر يا آدم .. لذة اللقاء بعد الفراق ،
والاحساس بالراحة بعد التعب والشقاء ، ..
لقد خدمتك من حيث لا تدري ..

وينحنى آدم - عليه السلام - ليلتقط
حصيات .. يرمي بها ابليس اللعين .. طردا
له من خواطره .. وابعادا له عن هواه .

ومن درور « الثعلبي » (١) التي استخلصناها
بعنف .. من بين الصخور والشعاب ..
وهي كثيرة وقاسية في بحر كتابه/ وقد أشرنا
في تقديم هذا المسلسل الى كثرة الدسيس
الاسرائيلي فيه .. بجانب ما فيه من الدور
الفوالى ومنها :

روى عن وهب بن منبه :

اوصى الله آدم .. بعد ما تاب عليه ..
وهبط به الى الارض قال :

يا آدم اني اجمع لك العلم كله .. في اربع
كلمات :

واحدة لى .. وواحدة لك .. وواحدة
بينى وبينك .. وواحدة بينك وبين الناس ..

فاما التى لى : فلا تشرك بى شيئا ..
واما التى لك : فأجزيك بعملك ..

واما التى بينى وبينك : فممكنك الدعاء ..
ومنى الاجابة .. واما التى بينك وبين الناس :
فان ترضى لهم .. ما ترضى لنفسك ..

ثم رفع كل منهما يديه الى السماء :
لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك ..
ان الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك ..

وكلن هذا المكان عرفات ..

وكان الزمان/ التاسع من ذى الحجة ..

وقد يقول قائل : هل كان هناك .. في هذا
الحين .. شهر ذى الحجة ؟ ..

ونحن نحيل الجواب على الله - سبحانه -
حيث يقول :

« ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا
في كتاب الله ، يوم خلق السماوات والارض ،
منها اربعة حرم » ٣٦ التوبة/ وذو الحجة من
الاشهر الحرم ..

ويظهر لهما ابليس .. لاول مرة .. على
سطح الارض .. فيتطلع اليه آدم - عليه
السلام - في دهشة .. قائلا : من انت ؟ ..
هل جئت خلفنا يا ملعون .. بعد ان فعلت بنا
فعلتك المشئومة .. وأغويتنا .. وتسببت في
طردنا من جنة الله .. ماذا تريد منا بعد ذلك ؟

فقال له ابليس .. فى بسمته الصفراء :

لقد خدمتك يا آدم .. هل كنت تحس فى
الجنة .. باى لذة ؟

هل كنت تعرف معنى السعادة والراحة
والنعيم ؟ هل كنت ترى فى حواء هذا الجمال ،
وتلك الفتنة ؟ .. لقد خدمتكما .. بالنزول
الى تلك الارض .



٨ عوامل ابتلاء آدم

وتكون عوامل ابتلاء آدم عشرة :

١ - العتاب : « ألم انهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين » .

٢ - نزع الحلة الصدفية : « ينزع عنهما لباسهما » .

٣ - الفضيحة : « فبدت لهما سؤاتهما » .

٤ - الخروج من جوار الله : « قلنا اهبطوا منها جميعا » .

٥ - العداوة والبغضاء : « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو » .

٦ - الفرقة : هو بالهند ، وهى بالجزيرة العربية .

٧ - المنادة بالمعصية :

وقد روى أن ابراهيم - عليه السلام - قال :

يا رب .. خلقت آدم بيدك .. ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك .. واسكنته

جنتك بلا عمل .. ثم برلة واحدة .. ناديت عليه - بالمعصية .. وأخرجته من جوارك ؟ .. فأوحى الله اليه :

يا ابراهيم .. أما علمت ان مخالفة الحبيب للحبيب .. أمر شديد ..

٨ - تسليط العدو على ذريته :

واجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان الا غرورا .

٩ - جمل الدنيا سجننا له ولأولاده : بقاسون فيها الحر والبرد وكانا فى الجنة « لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً » ..

ويقول - صلى الله عليه وسلم :

« الجنة سجين (١) .. لا حشر فيها ولا قر » .

١٠ - التعب والشقاء :

« ان هذا عدو لك ولزوجك .. فلا يخرجكما من الجنة فتشقى » .

(١) سجين : بوزن جملر .. اليوم الذى ليس فيه حر ولا برد « مختار الصحاح » .

٩ أول قاتل وأول شهيد

- تعالى - فلم يصدق أباه .. قائلا له : ان الله لم يأمر بهذا .. ولكنك تحب هابيل اكثر منى .. وتريد ان تخصه باقليما .. لجمالها .. فجمع آدم - عليه السلام - قابيل وهابيل .. وطلب منهما تقديم قربان الى السماء .. فالذى يتقبل الله قربانه هو الذى يتزوج اقليما .. فرضا بهذا الراى ..

وروى ان آدم عندما طلب من قابيل وهابيل .. ان يقدما قربانا الى السماء .. قدم هابيل جذعة سمينة من الفم وكان صاحب غنم .. وقدم قابيل حزمة من زرع ردىء .. وكان صاحب زرع ..

فنزلت نار من السماء .. اكلت قربان هابيل .. وتركت قربان قابيل (٢) ..

« وائل عليهم نبا انى آدم بالحق .. اذ قربا قربانا .. فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر » ٢٧/المائدة ..

وغضب قابيل .. وذهب الى هابيل .. وهو يرعى الغنم .. وقال له : سأقتلك .. قال : ولم ؟ قال : لان الله قبل قربانك .. ولم يقبل قربانى .. وتتزوج أختى الجميلة .. واتزوج أنا أختك الدميعة .. فيتحدث الناس ..

كانت حواء .. تلد لأدم .. توأمين فى كل بطن .. غلاما وجارية .. الا شيئا .. فانها ولدت منفردا .. وجملة حملها .. عشرون بطنا (١) .. أولهم « قابيل » .. وتوأمته « اقليما » .. وآخرهم « عبد المغيث » وتوأمته « أمة المغيث » ..

وقد روى بعضهم .. ولعله ابن اسحاق :

ان آدم .. كان يفشى حواء فى الجنة .. فحملت بقايل وتوأمته .. حيث وضعتهما فى الأرض .. بعد الهبوط اليها ..

وهذا الراى مردود قطعا .. لسبب بسيط جدا .. وهو ان الفريضة الجنسية .. لم تكن فيهما .. وهما فى الجنة ..

ثم وضعت حواء .. فى البطن الثانية « هابيل » وتوأمته « لبودا » ..

وكان الولد يتزوج اى بنت من اخوته .. الا توأمته .. فلا تحل له ..

وكانت اقليما .. توامة قابيل .. جميلة جدا .. فأصر قابيل .. على الزواج منها .. بدلا من لبودا توامة أخيه هابيل .. ولكن أباه آدم .. أخبره .. ان هذا مخالف لأمر الله

(٢) القرطبي وغيره - ٢٧ / المائدة .

(١) القرطبي وغيره - ٢٧ / المائدة .

انك خير منى وافضل .. ويفتخر ولدك .. على
ولدى ..

فقال له هايل : وما ذنبى فى هذا ؟ ان
الله .. لا يقبل الا من المتقين ..

« قال لاقتلك ، قال انما يتقبل الله من المتقين
لئن بسطت الى يدك لتقتلنى .. ما انا بباسط
يدي اليك لاقتلك .. انى اخاف الله رب العالمين »
٢٨ / المائدة .

وكان خوف هايل من الله .. قد فتح له
باب الشهادة .. فالقتول ظلما شهيد .. لان
القاتل الظالم .. قد حمل عن قتيله جميع اوزاره
واثامه .. فاردف هايل .. قائلا :

« انى اريد ان تبوء بائى واثمك ، فتكون من
اصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين » ٢٩ /
المائدة - فيدخلك الله جهنم يا قابيل وافوز انا
بالجنة .

ويبدأ دور ابليس .. فى اشغال الفتنة بين
الاخوين ..

وهل يلزمه .. غير جهاز آدمى .. يستدله
.. ويستولى عليه ؟ .. ليكون هو العين التى
ترى .. والاذن التى تسمع .. واللسان الذى
يتكلم .. واليد التى تبطش .. والرجل التى
تمشى .. وذلك ليتم التوازن .. والتعادل ..
بين قوى الخير والشر .. حيث يكون الحال
مقابلا .. لحال المؤمن الذى يقول الله - سبحانه -
فيه فى الحديث المعروف « لا يزال عبدى يتقرب
الى بالنوافل .. حتى احبه .. فاذا احبته ..
كنت سمعه الذى يسمع به .. وبصره الذى
يبصر به » آخر الحديث .. ونصه كالاتى :

روى البخارى عن ابي هريرة .. قال :

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

« ان الله تبارك وتعالى قال :

من عادى لى وليا .. فقد اذنته بالحرب ..
وما تقرب الى عبدى بشئ .. احب الى مما
افترضته عليه . وما يزال عبدى يتقرب الى
بالنوافل .. حتى احبه .. فاذا احبته كنت
سمعه الذى يسمع به .. وبصره الذى يبصر به

(١) أى ليقبض روحه .

.. ويده التى يبطش بها .. ورجله التى يمشى
بها .. ولئن سألتنى .. لاعطيته .. ولئن
استعاذنى .. لاعيذنه ..

وما ترددت فى شئ انا فاعله .. ترددى
عن نفسى المؤمن (١) .. هو يكره الموت .. وانا
اكره مساوته .

وكبر الامر فى راس قابيل .. ونجح ابليس
فى اغوائه واستفزازه فحمل صخرة ضخمة ..
رضخ بها راس اخيه هايل .. فخر صريعا ..
« فطوعت له نفسه قتل اخيه فقتله ،
فاصبح من الخاسرين » ٣٠ / المائدة .
وحلت به لحظة الندم ..

ولكن بعد نجاح ابليس .. فى تنفيذ اول
جريمة قتل .. فى تاريخ البشرية ..
ولاول مرة يرى قابيل الموت .. ماذا يصنع
بهذا الجسد الهامد ؟

انه لا يتحرك .. لاحول له ولا قوة ، لقد
صار لاشئ .. هل يتركه هكذا فى البرية ..
ليكون طعاما للوحش والطيور ؟ لا .. فلاحمله على
كتفى .. حتى ادبر امرى .. واقر رأى ..

ومن العجيب .. ان بعض هواة الحشو فى
التفاسير .. بالغوا فى المدة .. التى حمل فيها ..
قابيل جثة اخيه هايل .. حتى وصل بها
بعضهم .. الى اربعين سنة ..

وطبعاً .. لم يكن فى هذا الحين .. حنوط
تحفظ به جثث الموتى .. وواضح ان تلك الآراء
لا تستحق شرف المناقشة .. الا اذا تجردنا ..
من عقولنا ..

وادرك قابيل التعب .. من حمله الثقيل ..
فجلس تحت شجرة .. حتى يسترد انفاسه ..
ويستعيد قوته .. وألقى جسده اخيه الى
جانبه .

وحانت منه التفاته .. فرأى غرابين
يتشاجران فوق الشجرة .. وانتصر أحدهما ..
فقتل أخاه .. ونزل الغراب القاتل .. فحفر
حفرة .. فى الرمال .. وضع فيها جثة اخيه

(٢) القرطبي ٢٧ / المائدة .

المقتول وأهال عليه الرمال .. ثم طار ..
وهنا مرف قابيل .. كيف يصنع بجسد
أخيه .. فصنع به .. كما صنع الغراب بجسد
أخيه .

« فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه
كيف يواري سوء أخيه ، قال ياويلتى اعجزت
أن اكون مثل هذا الغراب ، فأواري سوء أخى
فأصبح من النادمين » ٣١/المائدة وثبت في صحيح
مسلم .. وغيره .. عن عبد الله .. قال ..
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

« لا تقتل نفس ظلما .. الا كان على ابن آدم
الأول كفل من دمها .. لأنه كان أول من سن
القتل » .

وقال أيضا :

« من سن في الاسلام سنة حسنة .. كان له
أجرها .. وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ..
ومن سن في الاسلام سنة سيئة فعليه وزرها
ووزر من عمل بها .. الى يوم القيامة » .

ثم قال :

« ان اخوف ما اخاف على امتي الأئمة
المضلون » (١) .

وذهب قابيل بأخته اقليما بعد قتل أخيه
الى جنوب الجزيرة العربية وهو فرع .. يملا
الربع جوانبه .. ويرجف الخوف نواحيه يعزع
قلبه من كل شيء ..

فوسوس اليه الشيطان .. ان النار ..
أكلت قربان أخيك هابيل .. لأنه كان يعبدها ..
فاوقد .. نارا .. تكون لك ولعقبك من بعدك ..
فكان أول من بنى بيت النار (٢) .

وقال الثعلبي .. في كتابه « قصص
الأنبياء » :

وكان لقابيل .. ولد أعمى .. ولهذا الأعمى
ولد .. فقال ابن الأعمى .. لأبيه : هذا أبوك
قابيل يا أبى .. فرمى الأعمى أباه قابيل بسهم
فقتله .. فقال ابنه له : انه أبوك .. كيف
تقتله ؟ .. فلطمه فمات .. ثم قال الأعمى :
ويل لى .. قتلت ربي برميته (٣) .. وقتلت
ولدى بلطمتى .

وكان الشر في أبناء قابيل .. اتخذوا آلات
اللهو .. من أنواع الطبول .. والمزامير ..
والطنابير .. وانتشر فيهم شرب الخمر ..
والزنا .. وعبادة النار والأوثان .. وكان من
أوثانهم :

يفوث ، ويعوق ، ونسر ، وود ، وسواع ،
ظلوا يعبدونها حتى أتاهم نوح بعد جده ادريس
- عليه السلام -



(٢) القرطبي ٣٠ / المائدة .

(١) القرطبي ٢٠ / المائدة .

(٣) اى ابن .

١٠ وفاة آدم

جده آدم معه في السفينة .. وبعد الطوفان ..
دفنه في مكان بيت المقدس (١) .

وتتابع الحياة الدنيا .. حيث نلتقى ان شاء
الله .. بالأقوام قوما بعد قوم .. وجيلا اثر
جيل .. ورسولا تلو رسول .. حيث يقوم
الصراع بين الخير والشر .. والحق والباطل ..
لنرى كيف يكون النصر دائما للحق » ونقذف
بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » .

ومن حقنا الآن .. ان ننقل الى اول رسول
.. قبل نوح .. وهو نبي الله ادريس .. لنخلق
معه في عالم الفضاء ..

مرض آدم .. قبل موته .. فأوصى الى
ابنه شيث .. وكان شيث هو وارث النبوة عن
ابيه آدم - حتى ورثها الى ادريس .. الذي
ورثها ابنه متوشالch .. ثم لامك .. ومنه الى
نوح - عليهم جميعا الصلاة والسلام -

مات آدم - عليه السلام - في سن تسعمائة
وثلاثين عاما .

على ما جاء في التوراه ..

وقيل : لما كان الطوفان .. حمل نوح تابوت

(* *)

(١) التلمبي - واكتشاف - والقرطبي ٣٧ / مود .

بسم الله الرحمن الرحيم
« واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبياً
ورفعناه مكاناً علياً »
« صدق الله العظيم »

من نبأ إدريس
أول راكب لسفن الفضاء

١ من هو .. ؟

وقد روى عن ابي ذر الغفاري قال :
قلت لرسول الله .. كم كتابا .. انزل الله
تعالى ؟ .. قال : « مائة صحيفة وأربعة كتب .. »
انزل الله على آدم عشر صحائف .. وعلى شيث
خمسین صحيفة .. وعلى ادريس ثلاثين صحيفة
وعلى ابراهيم عشر صحائف وانزل التوراه والزبور
والانجيل والفرقان (٢) .

وادريس - عليه السلام - هو اول من خط
بالقلم .. واول من خاط الثياب .. ولبس
المخيط .. واول من افاض الله عليه في علوم
النجوم والحساب .. ورصد الكواكب ..
ويقول الحافظ بن كثير .. في البداية
والنهاية :

ان ادريس .. هو اول نبي بعد آدم
وشيث .. عليهم الصلاة والسلام .
كما ذكر الشهرستاني : ان « اغشايون »
هو شيث - عليه السلام -

شب ادريس في بابل .. على عبادة الله
تعالى .. وكان رجلا آدم .. تام القامة ..
اجلح - حسن الوجه .. كث اللحية .. مليح
الشمال والتخاطيط - تام الباع .. هريض
المنكبين .. ضخمة العظام .. قليل اللحم ..
يراق العينين .. اكحلها .. متأنيا في كلامه ..
كثير الصمت .. ساكن الاعضاء .. اذا مشى اكثر
نظرة الى الارض .. كثير الفكرة ، به عتبة ..
اذا افتتظ احتد .. يحرك بسانته اذا تكلم (٣) .

هو ادريس بن يادر بن مهلائيل بن قينان بن
انوش ابن شيث بن آدم .. وامه اسمها آشوت
واسمه في التوراه اخنوخ .. او .. خنوخ ..
وفي مصر .. اسمه .. هرمس الهرامسة
- اي حكيم الحكماء -

وقيل سمي ادريسا .. لكثرة درسه الكتب
.. ودرسه صحف آدم وشيث - وان كان هذا
التعليل للاسم .. لم يوافق عليه صاحب تفسير
الكشاف ..

وقد اختلف الحكماء .. في مولده .. فقال
بعضهم .. انه ولد بمصر .. وسموه هرمس
الهرامسة .. وان مولده بمنف وقالوا : ان معلمه
« اغشايون » .. ولم يذكروا لنا .. من يكون
« اغشايون » هذا الا أنهم قالوا عنه كان أحد
الانبياء اليونانيين او المصريين .. وسموه أيضا
« اورين الثاني » وادريس عندهم .. هو « اورين
الثالث » .

وقالوا ان هرمس .. خرج من مصر ..
وجاب الأرض كلها .. ثم عاد اليها .. ورفع
الله اليه من مصر .. بعد اثنتين وثمانين سنة
من عمره .

وقال بعض آخر .. وهو مانميل اليه ..
ان ادريس .. ولد ببابل ونشأ بها واخذ
من صباه .. بغرب في جميع نواحي العلوم
الكونية .. درس علم شيث بن آدم .. وهو
جد جد ابيه (١) .

(١) من قصص الانبياء للنجار . (٢) من قصص الانبياء للشمس .. والكشاف ١٩ سورة الاملى .

(٣) من كتاب تاريخ الحكماء .. مختصر الروزي .

٢ من بابل إلى بابلين

ظل ادريس - عليه السلام - يدعو اهل بابل .. الى عيادة الله وحده .. ونهى المفسدين من بني آدم .. عن مخالفة شريعة آدم وشيث .. فلم يستجب له الا القليل ..

فعزم على الهجرة الى الغرب .. واخبر تابعيه .. بما عزم عليه .. ولكن شق عليهم الرحيل عن ديارهم .. وقالوا له : وهل نجد في الارض مثل بابل ؟ ..

وكلمة بابل في لغتهم .. بمعنى (النهر) .. ولعلمهم يقصدون بهذا « نهر دجلة والفرات » .. فقال لهم : عسى ان رحلنا في سبيل الله .. ان يرزقنا نهرا غيره .. فخرجوا معه ..

ولما اشرفوا على اقليم مصر .. وراوا النيل .. خاليا من السكان .. كثير الخيرات .. وقف ادريس .. على شاطئ النيل .. وسبح الله .. وحمده على اكرامه .. وقال لمن معه « بابلين » وكلمة « يون » في لغتهم .. مثل افعل للتفضيل .. في لغة العرب .. فكانه يقول لهم : هذا نهر اكبر وافضل من النهر الذي تركناه ..

فسمى هذا الاقليم .. عند جميع الامم « بابل يون » الا العرب فانهم يسمونه « اقليم مصر » نسبة الى « مصرى » بن حام بن نوح .. الذى نزل به بعد الطوفان ..

واقام ادريس .. بصعيد مصر الاعلى .. فى قصر أنس الوجود (١) يدعو الناس الى الامر بالمعروف .. والنهى عن المنكر .. وتخليص النفوس من العذاب .. فى الآخرة .. بالعمل الصالح فى الدنيا .. والحكم بالعدل .. وأمرهم بصلوات ذكرها لهم .. وأمرهم بصيام أيام معروفة .. من كل شهر .. وحثهم على الجهاد ضد اعداء الدين .. وأمرهم بزكاة الاموال .. معونة للفقراء والضعفاء .. وشدد عليهم فى الطهارة .. من الجنابة .. وحرم لحم الحمار والكلب (٢) وحرم المسكر .. من كل شئ من المشروبات .. وشدد فى هذا اعظم تشديد .. وجعل لهم قربانات .. منها : لدخول الشمس رموس البروج .. ومنها لرؤية الهلال .. ومنها لدخول الكواكب فى بيوتها وشرفها .. ومناظرتها للكواكب الاخرى .. وجعل لهم أعيادا كثيرة فى اوقات معروفة ..

علمه الله جميع اللغات .. فخطب كل فرقة بلغتها .. ورسم للناس تمدين المدن .. واجتمع حوله .. طالبوا العلم من كل المدن والبلاد .. فعرفهم السياسة المدنية .. وقرر لهم قواعدها .. فبنت كل فرقة .. من الامم .. مدنا فى ارضها .. وكانت عدة المدن .. التى انشئت فى عهده .. مائة وثمانين مدينة .. أصغرها : مدينة الرها (٣) - وعلمهم العلوم ..

استخرج الحكمة .. وعلم النجوم ..

(١) من كتاب « تاريخ الحكماء » .

(١) اقدم الر تاريخى فى صعيد مصر الاعلى .

(٢) من قصص الانبياء للنجار .

فان الله - سبحانه - افهمه اسرار الفلك ..
وتركيبه .. ونقط اجتماع الكواكب فيه ..
واقترانها .. وتقابلها .. وافهمه عدد السنين
والحساب ..

ولولا ان الله - سبحانه - عز وجل - ارسل
على يدي رسوله - ادريس - عليه السلام -
اصول هذه العلوم العلوية .. لما وصلت البشرية
الى استقرار تلك الخواطر .. ولما هبط الانسان
على سطح الكواكب الاخرى .

وجاء في كتاب تاريخ الحكماء .. وهو مختصر
الزوزنى - لجمال الدين ابي الحسن على بن
يوسف القفطى :

وقسم ادريس الارض اربعة اقسام ، وجعل
على كل ربع ملكا يسوس امر الجزء المعمور
منه ...

والملوك الاربعة هم :

الاول : « ايلوس » ..

الثانى : « زوس » ..

الثالث : « اسقليوس » ..

والرابع : « زوس آمون » .. وهو آمون
الملك ..

وكان اسقليوس .. اقوى الملوك عزما ..
فانه اجتهد لحفظ الكلمة .. وقوانين الشريعة
الادريسية .. وحزن لرفع ادريس .. من بين
اظهرهم .. وصور صورته .. وصور رفعه في
الهيكل ..

وكان اسقليوس هذا .. ملكا في الجهة التى
ملكها اليونان بعد الطوفان .. فوجدوا صورة
ادريس ورفعه .. وعلموا علو قدر اسقليوس ..
وتدوينه الحكم لهم .. فى الهياكل التى افسدها
الطوفان .. فظنوا خطأ .. ان اسقليوس هو
الذى ارتفع .. الى السماء .. ا ه -

كما جاء فى الصفحة ٣٤٨ .. من كتاب تاريخ
الحكماء .. فى ترجمة « هرمس الثالث »
بالنص :

زعم جماعة من العلماء .. ان جميع العلوم
التي ظهرت قبل الطوفان .. انما صدرت عن
هرمس الاول .. الساكن بصعيد مصر الاعلى ..
وهو الذى يسميه العبرانيون .. خنوخ النبى ..
ابن يارد ، بن مهلائيل ، بن قينان ، بن انوش ، بن
شيث . ابن آدم - عليه السلام - وهو اول من
تكلم فى الجواهر العلوية .. والحركات النجومية
وأول من بنى الهياكل .. ومجد الله فيها ..
وأول من نظر فى علم الطب .. والف لاهل زمانه
قصائد موزونة .. فى الاشياء الارضية والسمائية
.. وقالوا عنه انه اول من انذر بالطوفان ..
ورأى ان آفة سماوية .. تلتحف الارض .. من
الماء والنار .. فخاف ذهاب العلم .. ودروس
الصنائع .. فبنى الاهرام .. والبرابى .. فى
صعيد مصر الاعلى .. وصور عليها جميع
الصناعات .. والآلات .. ورسم فيها .. صفات
العلوم .. حرصا منه .. على تخليدها لمن بعده
.. خيفة ان يذهب رسمها من العالم - ا ه -

وبالتأمل فيما ذكرنا .. من كتاب تاريخ
الحكماء .. حول ادريس عليه السلام - نجد
نقاطا .. نركزها فيما يلى :

اولا : ان هرمس الاول - ادريس - عليه
السلام - كان مقامه بصعيد مصر الاعلى .. وانه
هو الذى يسميه العبرانيون .. خنوخ النبى ..
فى التوراة ..

ثانيا - انه اول من تكلم فى علم الفلك والنجوم
والحساب .. واول من نظر فى الجواهر العلوية .

ثالثا - انه نظم الحكم فى الارض .. وقسم
المعمور .. وشيد المدائن .

رابعا - تنبأ بحدوث طوفان يشمل الارض
كلها .. ويهلك ما فوق سطحها .. وهذا هو
الذى دفعه الى تسجيل العلوم .. ورسمها على
الاهرامات .. خوفا عليها من الضياع ..

خامسا - رأى اليونانيون صورة ادريس
ورفعه .. وظنوا خطأ .. ان اسقليوس -

الذى كان يحكم منطقة اليونان .. بتكليف من
ادريس .. ظنوا ان اسقليوس هو الذى رفع
الى السماء ..

وسنرى ان شاء الله كيف رفع ادريس ..
من الصور التى سجلها اسقليوس على هياكل
اليونان .. تلك الصور التى اوقعتهم فى هذا
الخطأ ..

ولكن قبل ان ندخل فى هذا البحث الغريب
.. نرى ان نستقرئ التاريخ .. لنعلم .. هل
كان ادريس احد بناء الاهرامات ؟ وهل كان -
كما يقول البعض - احد ملوك الاسر التى حكمت
مصر .. وحدثنا عنها التاريخ .. بانها كانت
ثلاثين اسرة ؟ فنجد فى موسوعة تاريخ العالم
« التى اصدرها وليم لانجر » ونشرتها مؤسسة
فرانكلين .. فى صفحة ٤٦ من الجزء الاول :
حول سنة ٢٩٠٠ - ٢٧٠٠ قبل الميلاد .. قامت
الاسرتان الاولى والثانية .. وكانت طيبة «عاصمة
مصر .. وفى هاتين الاسرتين توحدت المملكتان
.. مصر العليا .. ومصر السفلى .. تحت حكم
مينا واخلافه .. والمقصود باخلافه : زوسر
مؤسس الاسرة الثالثة .. سنة ٢٧٠٠ - ٢٦٥٠
ق.م .. ومن بعده خوفو وخفرع ومنكاورع
.. وظهرت اول نصوص الاهرامات فى عهد
اوناس آخر ملوك الاسرة الخامسة سنة ٢٥٠٠
قبل الميلاد - ا.هـ .

ومن هذا نفهم ان ادريس - عليه السلام -
كان قبل نظام الاسر .. فهو الذى بدأ الحياة
والعمران فى وادى النيل .. حيث لم تكن فى

الوادى مملكة فى الجنوب .. ومملكة فى الشمال
.. وحد بينهما مينا فى الاسرتين الاولى والثانية
.. ولكن حدث هذا بعد ادريس بزمان كبير .

والتاريخ محدود .. فتذكر لنا موسوعة
تاريخ العالم ص ٤٧ ج ١ .. ان اعظم المصادر
التاريخية القديمة .. هى حجر بالرمو « وهو
حجر به تاريخ كتب فى الاسرة الخامسة ..
وبردية تورين » .. وبها قائمة بأسماء الملوك ..
مقسمة الى اسرات .. وترجع كتابة هذه البردية
الى الاسرة التاسعة عشر .. وتسجل ٩٥٥ عاما
للأسرات الثمان الاولى .. وتعطى المادة الموجودة
فيها .. تاريخا دقيقا الى حد ما .. مبنيا على
حساب الموتى .. وعلى معلومات فلكية للعصر
الذى يلى عام ٢٠٠٠ ق.م. أما التواريخ السابقة
حيثما وجدت .. فليست مؤكدة ..

غير ان التاريخ يؤكد لنا .. ان هناك
رسوما وصورا .. اكتشفت فى نهاية الاسرة
السادسة .. حول سنة ٢٠٠٠ ق.م .. على
الاهرامات والهياكل سواء كانت هذه الاهرامات
والهياكل من صنع صاحب الرسوم والصور ..
او من صنع تلاميذه وولائه .. مثل اسقليوس
الذى سجل رفع ادريس بصور .. على هياكل
اليونان التى خربها الطوفان .. كما تقرر
الموسوعة التاريخية فى ص ٤٦ ج ١ ما نصه :

فى نصوص الاهرامات .. التى ظهرت فى
الاسرتين الخامسة والسادسة : يبحر الملك فى
السماء .. فى سفينة رع .. فما هو موضوع
هذه السفينة .. سفينة رع .. التى ابحر فيها
الملك .. وتحدثت عنها الاثار وسجلها التاريخ ؟



٣ إدريس يفرز الفضاء

كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة ..
مثل ما يرفع لأهل الأرض جميعا .. فاشتاق
ملك الموت لرؤيته .. فاستأذن الله في ذلك ..
فأذن له .. فأتاه في صورة آدمي .. وبقي
ضييفا .. عند إدريس .. ثلاثة أيام .. لا يأكل
فيها .. فسأله إدريس عن نفسه .. فقال له :
أنا ملك الموت . فطلب منه أن يقبض روحه ساعة
.. ليدوق كرب الموت .. ففعل بعد إذن الله
له .. ثم قال له إدريس .. بعد عودة الروح
إليه : أرفعني إلى السماء .. لأرى الجنة ..
فرفعه ولما مر بالنار - قبل وصوله إلى الجنة
.. طلب دخول النار .. فدخلها .. ثم خرج
منها .. ودخل الجنة .. وامتنع عن الخروج
منها .. والعودة إلى الأرض .. قائلا : الله
يقول عن الموت « كل نفس ذائقة الموت » ..
وقد ذقته .. ويقول عن النار « وإن منكم
الآء واردها » .. وقد وردتها .. ويقول عن
الجنة .. وما هم منها بمخرجين « وأنا لست
بمخرج منها ..

فأوحى الله - عز وجل - إلى ملك الموت
.. أن « دعه فإنه دخل الجنة بأذنى .. وبأذنى
لا يخرج » - أ.هـ - كما روى عن ابن عباس
وغیره في تفسير « ورفعه مكانا عليا » ٥٧/مريم
روايات تقرب من تلك الرواية ..

وما دمنا قد ذكرنا ابن عباس - رضي الله
عنه فليسمح لي القارئ الكريم .. أن نجول
معا جولة قصيرة .. بين صفحات كتب التفسير

لم يذكر إدريس « في القرآن الكريم ..
إلا في آيتين أ
الأولى : « وأذكر في الكتاب إدريس أنه
كان صديقا نبيا ورفعه مكانا عليا * »
« ٥٧/٥٦/مريم » .

والثانية : « واسماعيل وإدريس وذا الكفل،
كل من الصابرين » ٨٥ الأنبياء .

وتقول التوراة : سار اخنوخ مع الله .. ولم
يوجد .. لأن الله أخذه - وذلك في الأصحاح
الخامس .. من سفر التكوين .. واليك نص
عبارة التوراة :

٢١ - وعاش اخنوخ خمسا وستين سنة
وولد متوشالح .

٢٢ - وسار اخنوخ مع الله بعد ما ولد
متوشالح ثلاثمائة سنة وولد بنين وبنات .

٢٣ - فكانت كل أيام اخنوخ ثلاثمائة
وخمسا وستين سنة .

٢٤ - وسار اخنوخ مع الله ولم يوجد لأن
الله أخذه (١) .

كما جاء في الصحيحين .. في حديث الاسراء
.. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - مر
بإدريس في السماء الرابعة (٢) .

وقد أورد ابن اسحاق الثعلبي .. رواية
حول إدريس - عليه السلام - لطولها نوجزها
فيما يلي :

(٢) من تفسري : التفسير : والحافظ بن كثير - ٥٧/مريم .

(١) سفر التكوين - الأصحاح الخامس ٢١ - ٢٤ .

لنستشيق سويا .. عبر ببي الله ادريس - عليه السلام - ونرى ما قاله أثمتنا .. من أولى السلم .. حوله ..

فنجذ ان صاحب تفسير النسفى .. ذكر رواية .. هي رواية الثعلبي .. التي ذكرناها .. ولكن الشيخ أجزها جدا .. فذكر .. ان الله رفعه الى السماء الرابعة - وقد راه - صلى الله عليه وسلم - فيها ليلة المعراج .. ثم ذكر عن الحسن انه قال : رفعه الله الى الجنة .. لا شيء أعلى من الجنة يفصد قوله تعالى « ورفعهنا مكانا عليا » .. وذلك انه حبيب لكثرة عبادته الى الملائكة .. فقال لملك الموت : أذقني الموت يهن على .. ففعل ذلك باذن الله .. ثم حبي .. ثم قال له : أدخلني النار .. أزد رجة .. ففعل .. ثم قال له أدخلني الجنة .. أزد رغبة .. ثم قال له : أخرج .. فقال : قد ذقت الموت .. ووردت النار .. فما أنا بخارج من الجنة .. فقال الله عز وجل : باذني فعل .. وباذني دخل .. فدعه « (١) » .

ونحن نرى الآن ان الوقائع في رواية النسفى تتفق مع رواية ابن اسحاق الثعلبي عن ابن عباس وغيره ..

ويصل بنا البحث الى الحافظ بن كثير في تفسيره .. فنجد رواية عن كعب الأخبار .. لما سأله ابن عباس .. عن رفع ادريس .. وهي رواية اشد غرابة من رواية الثعلبي والنسفى ولكنه في نهايتها .. قال : ان في بعضها نكارة .. ثم ذكر عن ابن عباس : ان ادريس كان خياطاً .. فكان لا يفرز ابرة الا وقال : « سبحان الله » فكان يسمى حين يسمى .. وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه ..

وقال : ان ادريس .. رفع ولم يم .. كما رفع عيسى .. كما ذكر أيضا رأى الحسن .. بانه رفع الى الجنة .. لا شيء أعلى من الجنة (٢) يقصد قول الله تبارك وتعالى « ورفعهنا مكانا عليا » ..

ونستخرج الخطى الى تفسير الكشاف :

وقد ذكر ان الله تعالى أنزل على ادريس ثلاثين صحيفة .. وانه أول من خط بالقلم .. ونظر في علم النجوم والحساب .. وأول من خاط الثياب .. ولبسها .. وكانوا يلبسون الجلود ..

وقال عن انس بن مالك : ان الله رفعه الى السماء الرابعة .. وعن ابن عباس .. السادسة .. وذكر أيضا رواية الحسن .. لا شيء أعلى من الجنة (٣) .. ورواية الحسن هذه .. وردت أيضا في تفسير الطبري .. وأما البيضاوى .. فقد اكتفى .. بأن قال : رفع ادريس الى السماء السادسة .. أو الرابعة (٤) .

ويكفينا الآن .. تلك الجولة السريعة بين ارجاء التفسير .. حول هذا الموضوع .. ولنا فيها ان شاء الله جولات سريعة ... ولعلنا خرجنا من تلك الجولة ... بما يشبه الإجماع على ان ادريس عليه السلام ... قد رفع الى السماء ... بطريقة ما .. حتى ان بعض المفسرين قالوا : انه الآن ينعم بنعيم الجنة ... ويعبد الله أحيانا في السماء السادسة .. أو الرابعة .. الا ان بعض المفسرين تحرز في تفسير « ورفعهنا مكانا عليا » .. فبعد ان قرروا انه حى في السماء السادسة ... أو الرابعة .. عاد بعضهم ... ورجح انه رفع الذكر .. وعلو المكانة ...

ونحن نلتبس لهؤلاء العذر في ترددهم ... ووقوفهم عند هذا الحد من التفسير ...

فلم يكن أحد يتصور في زمانهم .. ان انسانا يستطيع غزو الفضاء اللانهائى ... أو النزول على سطح القمر ... أو ارسال سفن الى كوكب المريخ .. وكوكب الزهرة .. وقد ينزل قريبا انسان عليهما .. وعلى غيرهما من الكواكب ... التي أصبح الوصول اليها في نطاق الامكان ..

ورفع الذكر .. عبر الله - سبحانه - عنه .. في قوله لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - « ورفعهنا لك ذكرك » . فاذا كان هو نفس المقصود بالنسبة لادريس عليه السلام .. لقال عنه : ورفعهنا له ذكره ... ولكنه تعالى يقول : « ورفعهنا » .. وظاهر النص هنا .. رفعناه هو : ولقد شكك الحافظ بن كثير .. في تفسيره .. في أن ما ورد عن رفعه الى السماء .. قد يكون من الاسرائيليات ... وهذا قول مردود عقلا ... ونقلًا ..

لأننا نعلم الدسيس الاسرائيلى دائما يطعن في عصمة الانبياء .. ويوقفهم مواقف الاتهام ... مثل ما قالوه ... عن يوسف -

(٢) تفسير ابن كثير ٥٧ / مريم .

(٤) البيضاوى ٥٧ / مريم .

(١) النسفى ٥٧ / مريم .

(٣) الكشاف ٥٧ / مريم .

عليه السلام - من انه جلس من امرأة العزيز .. مجلس الرجل من زوجته .. وانه زجر من ذلك مرارا فلم يزد جر ... لولا أن ضربه أبوه يعقوب في ظهره ضربة . اخرجت الشهوة من أظافر رجله ... وهذا مذكور .. في كثير ... من أمهات كتب التفسير ... فجعلوا يوسف عليه السلام ... في درجة انسق الفسقة ... وأفجر الفجرة ... بل وصوروه في هذا الموقف بصورة ... يندى لها جبين الفسق والفجور ... فضلا عن جبين الايمان (١) ..

وكما زعموا أيضا .. عن نبي الله - داود عليه السلام - أنه رأى زوجة قائده أوريا .. على سطح بيتها تستحم .. فأعجبه جسمها ولما أحست به ... أرسلت شعرها .. الذي قطى جميع جسمها ... فازداد هياما بها .. وأرسل زوجها الى ميدان القتال .. وعمل على قتله .. ثم تزوج بها ...

وكلها جنائيات تكفى اقلها .. للهبوط بالانسان العادي من أعلى عليين ... الى أسفل سافلين .. فما بالك بنبي الله داود (٢) ...

مثل هذا .. هو الدسيس الاسرائيلي .. وهو كثير وكثير في أغلب كتب التفسير ...

أما رفع نبي الله ادريس الى السماء ... فهذا تكريم له ... وتشريف لقدره .. وليس هذا من طبع الاسرائيليين حيال الانبياء والمرسلين ...

كل المراجع اثبتت بما لا يقبل الشك - حول ادريس ثلاث حقائق :

الحقيقة الاولى : أن ادريس - عليه السلام - كان يرفع له كل يوم من العمل الصالح .. مثل جميع أهل الأرض في زمانه ... حتى أحبته الملائكة ...

والحقيقة الثانية : أن ادريس رفع الى السماء بطريقة ما ...

أما الحقيقة الثالثة : فهي الاجماع التام على أنه .. أول عالم في الجواهر العلوية ... واستخراج الحكمة ... وعلم النجوم ... والفلك ... والحساب ... ورصد الكواكب ...

أفهمه الله أسرار الفلك ... وتركيبه ... ونقط اجتماع الكواكب فيه .. واقترائها

... وتقابلها ... وأفهمه عدد السنين والحساب وقرر كتاب تاريخ الحكماء ... أنه لولا .. أن الله - عز وجل - أرسل على يدى هرمس الهرامسه (٣) - ادريس - عليه السلام - اصول هذه العلوم العلوية ... لما وصلت البشرية الى ما وصلت اليه ... من استقراء تلك الخواطر ...

ونحن نضيف الى هذه العبارة ... ولما هبط الانسان على سطح الكواكب الأخرى ..

ولله دائما في خلقه شئون ... لايات قدرته .. من جميع زوايا الامكان ...

فمثلا .. لماذا خلق الله - سبحانه - عيسى بن مريم - عليهما السلام - بدون أب ؟ .. هل يريد - جل وعلا - أن يضع الخلاق في متاهات الشك .. ويبداء الشرك ؟ كلا والله .. وانما هي ابراز للقدرة من جميع الوجوه ... ومن كافة الاحتمالات العقلية ...

فقد خلق قبل عيسى - عليه السلام - انسانا بغير أب ولا أم وهو آدم - عليه السلام . ونظيره .. خلق انسانا .. بآب وأم ... مثلى ومثلك ... كما خلق انسانا بآب من غير أم ... وهى حواء (٤) فلزم لكمال القدرة ... أن يخلق انسانا من أم بغير أب فكان هذا الأخير .. هو عيسى - عليه السلام - وأراد أيضا .. أن يخرج ادريس من الدنيا .. بطريقة خاصة .. غير الطريقة التي يخرج بها الناس جميعا .. وهو - سبحانه - لا يسأل عما يفعل ...

لقد عبد ادريس ربه .. حتى شفى جسمه .. ولم يعد للجسم سلطان على الروح .. فصنع لنفسه زورقا ... صاروخا من الذهب .. أنساب به ... في شعاع من أشعة الشمس المنبسطة على سطح النيل .. وكان معبده في وسط النيل عند أسوان ... وانطلق بزورقه الصاروخى هذا ... لحظة شروق الشمس .. بعد عمليات من الحساب الفلكي .. وبعد الرصد لكوكب الشمس .. في نقطة ولحظة .. يتم فيها اقتران كوكبي الشمس والأرض .. ورفعته الله اليه ...

ومن شهور قليلة ... قرأت .. في جريدة الأهرام ... بحثا بقلم الأستاذ « أنيس منصور » في سلسلة مقالات : « الذين هبطوا من السماء » ومما جاء فيه ...

(١) نقد هذا الموضوع بإسهاب .. في كتابنا - من نيا يوسف .

(٢) نقد هذا الموضوع بإسهاب .. في كتابنا - من نيا داود .

(٣) أى حكيم الحكماء .

(٤) حواء من ضلع من آدم .

رفع ادريس - عليه السلام - في راي الدين
 ... والعلم .. والآثار والتاريخ .. بل وفي
 السوراء ايضا كما راينا من قبل ...
 وقد أورد القرطبي في تفسيره حول معنى
 قوله تعالى « وان الياس لمن المرسلين » ١٢٣ /
 الصفات .. ان ابن مسعود قال : اسرائيل هو
 يعقوب ... والياس هو ادريس ... ثم قال :
 قطع الله على الياس « ادريس » لده المطعم
 والمشرّب .. وكساه الريش .. والبسه النور
 .. فصار مع الملائكة .. فكان أنسيا ملكيا ...
 ارضيا سماويا ...
 كما ذكر عن ابن قتيبة : حول معنى الآية
 المذكورة : ان الله تعالى قال لالياس :
 « سلني اعطك » قال : ترفعني اليك ...
 فصار يطير مع الملائكة ... كما ان القرطبي ذكر
 روايه عن أنس ... اذكرها للفارسي ... للعلم
 بما قيل حول هذا الموضوع :
 قال أنس : غزونا مع رسول الله - صلى
 الله عليه وسلم - حتى اذا كنا بفتح النافه ..
 عند الحجر - حجر تمود - اذا نحن بصوت
 يقول : اللهم اجعلني من امة محمد المرحومة :
 المغفور لها ... المثوب عليها ... المسنّجاب لها
 ... فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
 « يا أنس .. انظر ما هذا الصوت » ؟ ..
 فدخلت الجبل ... فاذا انا برجل .. ابيض
 اللحية والرأس .. عليه ثياب بيض ... طوله
 اكثر من ثلثمائة ذراع ... فلما نظر الى قال :
 انت رسول النبي ؟ ... قلت : نعم ... قال :
 ارجع اليه ... فأقرئه مني السلام ... وقل
 له : هذا اخوك الياس ... يريد لقاءك ...
 فجاء النبي - صلى الله عليه وسلم - وأنا معه
 ... حتى اذا كان قريبا منه ... بعدم النبي -
 صلى الله عليه وسلم - وبأخرت .. فتحدثا
 طويلا ... فنزل عليهما شيء من السماء ...
 شبه السفرة ... فدعوانى ... فاكلت معهما
 ... فاذا فيها كماء (١) ورمز وكرفس ...
 فلما اكلت ... قمت فتنحيت ... وجاءت
 سحابة ... فاحتملته ... فاذا انا أنظر الى
 بياض ثيابه في السحابة ... فقلت للنبي -
 صلى الله عليه وسلم - بأبي انت وأمي - هذا
 الطعام الذي اكلنا ... أمن السماء نزل ؟ ..
 فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - « سألته
 عنه .. فقال : يأتيني به جبريل في كل أربعين
 يوما اكلة ... وفي كل حول شربة من ماء زمزم
 ... وربما رأيت على الجب ... يملأ بالدلو
 فيشرب ... وربما سقاني » (٢) ...

لم يكن أحد يعلم ان لنبي الله ادريس ..
 اسراراً واسفاراً الا في عام ١٧٧٦ ... عندما
 هجر بحار اسكتلندي .. اسمه « بروس » على
 نسخة لاسرار النبي اخنوخ ... وجدها في
 الحبشة ...
 وبعد ذلك بمائه عام عثروا على نسخة
 اخرى لاسرار اخنوخ في يوغوسلافيا ...
 وهذه الكتب جاءت مترجمة ... من نصوص
 عبرية او يونانية ... او حبشية ...
 وهذه الاسفار بها ١٠٨ فصول ...
 نتحدث عن الجنة والنار ... ويوم القيامة
 ... وعن الطوفان الذي سوف يفرق العلم
 كله ...
 وفي الفصول من ١٧ الى ٣٦ من هذه
 الاسفار .. يتحدث ادريس ... عن رحلته
 .. الى العوالم الأخرى ..
 فوصف الكواكب ... ودوران الشمس ..
 والقمر .. والارض ومن العجيب .. انه تحدث
 عن المدارات ... غير الدائرية للكواكب وعن
 درجات الحرارة .. وعن تتابع الألوان ... عن
 قرب وعن بعد ...
 وفي الفصل الرابع عشر ... يقول
 اخنوخ ...
 وادخلوني ... في السماء ... من حائط
 شفاف ... محاط بالنار .. والشرار ..
 ودخلت هذا الجسم الهائل اللامع الذي
 ارتفع بي .
 ونحن مازلنا مع الاستاذ انيس منصور
 يحكي لنا ما قرأه في اسفار اخنوخ فيقول '
 وفي هذه الاسفار .. وصف غريب ..
 وعجيب للسفينة التي نقلته مرة أخرى الى
 السماء ...
 ثم قال : لم يمض ادريس .. وانما صعد
 الى السماء .. ولم يعد ..
 وقبل ان يختفي ... في الملكوت الأعلى ...
 صبح ابنه متوشالغ قائلاً :
 وهكذا أروى لك يا ولدي .. كل اسرار
 الدنيا .. في هذه الاسفار ... وقد كشفت لك
 ... عن كل شيء .. فاحفظها عني .. واعطها
 لاولادك من بعدك - اه - ..
 ويقال ان نوحا - عليه السلام - حفيد
 متوشالغ - قد حمل معه في السفينة ..
 اسرار اسفار اخنوخ - ادريس - مع تابوت
 جده آدم .. كما ذكرنا في نبأ آدم - عليه
 السلام .
 وقد اتضح الآن .. الاجماع التام ... على

(١) الكماء نوع يؤكل نيئاً من الارض بلا ورق ولا زهر .. بل قطع كالقنقاس .

(٢) القرطبي ١٢٣ / الصفات .

٤ التبشير بمحمد

وعد ادريس - عليه السلام - اهل ملته
... بأنبياء يأتون من بعده .. وعرفهم صفة
النبي - صلى الله عليه وسلم - قائلا :

« يكون بريثا من المدمات .. والآفات كلها
.. كاملا في الفضائل الممدوحات ... لا يقصر
عن مسألة يسأل عنها .. مما في الأرض والسماء
.. ومما فيه دواء وشفاء من كل ألم .. وأن
يكون مذهبه ودعوته .. المذهب الذي يصلح
به العالم .. »

وكان على فص خاتم ادريس « الصبر مع
الايان بالله يورث الظفر » ...

وعلى المنطقة .. التي يلبسها « الأعياد في
حفظ الفروض والشريعة في تمام الدين ...
وتمام الدين كمال الرؤية » وعلى المنطقة التي
يلبسها .. وقت الصلاة على الميت :

« السعيد من نظر لنفسه ، وشفاعته عند
ربه أعماله الصالحة » .

وله مواظب وآداب ... منها :

لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه
.. يشل الأنعام على خلقه ...

وقال : من أراد بلوغ العلم ... وصالح
العمل ... فليترك من يده أداة الجهل ...

وسبى العمل .. كما ترى الصانع الذي يعرف
الصنائع كلها ... إذا أراد الخياطة ... أخذ
آلتها ... وترك آلة التجارة .. فحب الدنيا
والآخرة ... لا يجتمعان في قلب أبدا ...

وقال : خير الدنيا حسرة ... وترها
ندم .

وقال . إذا دعوتكم الله - سبحانه -
فاخلصوا النية ... وكذا الصيام والصلوات
فافعلوا ...

وقال : لا تحلفوا كاذبين ... ولا تهجموا
على الله - سبحانه - باليمين .. ولا تحلفوا
الكاذبين ... فتشاركوهم في الائم .

وقال : تجنبوا المكاسب الدنيئة .
وقال : اطيعوا للوكم .. وأخضعوا
لأكابركم ... واملاءوا أفواهكم بحمد الله .

وقال . حياة النفس الحكمة .

وقال : لا تحسدوا الناس ... على مؤاتاه
الحظ .. فان استمتعهم به قليل .

وقال : من تجاوز الكفوف ... لم يفنه
شيء .

بسم الله الرحمن الرحيم
« وجعلنا نريته هم الباقين ، وتركنا عليه في الآخرين
سلام على نوح في العالمين »
« صدق الله العظيم »

من نبأ نوح
آدم الثاني

١ مقدمة

فتبرج النساء للرجال ... وتبرج الرجال
للنساء .. وعم الفساد ...
وقد روى المفسرون .. أن هذا معنى قوله
تعالى : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية
الأولى » (١) .
وكان آدم - عليه السلام - قد أوصى ..
الأنكح بنوشيث بنى قابيل .. حزنا منه
على ابنه الشهيد هايل .. وقد جعل بنوشيث
آدم في مفارقة معهم ... في الجبل .. وجعلوا
عليه حفاظا وحراسا .. لكيلا يقربه أحد من
أولاد قابيل .. وكان آدم يدعو لابناء شيث
... ويستغفر لهم .

وبعد فترة من الزمن ... اتفق مائة من
نسل شيث أهل الجبل .. على الهبوط الى
السهل ... لينظروا حال أبناء عمهم قابيل
... فوجدوا نساءهم آية في الجمال ...
فاحتبس النساء الرجال المائة .. ثم مكثوا
ماشاء الله ...

فقال مائة أخرى ... ما لنا لا ننزل
السهل .. لنرى ما فعل اخوتنا .. ونعلم
ما حبسهم عننا ... وكما حصل لاختهم من
قبل حصل لهم أيضا .. احتبسهم جمال

انقسم أبناء آدم وذريته ... الى بطنين :
بطن يسكن السهل ... والآخر يسكن
الجبل ...

وكان رجال الجبل في وجوههم .. صباحة
وجمال .. وفي نسائهم دمامة ... بينما في
وجوه نساء السهل صباحة ، وفي الرجال
دمامة ...

وكان سكان السهل ... هم بنو قابيل
« القاتل الأول » .

أما سكان الجبل ... فهم بنوشيث بن
آدم « واخوته » ...

واتى ابليس رجلا .. من أهل السهل
« ذرية قابيل » في صورة غلام .. أجره الرجل
ليخدمه .. واتخذ ابليس شيئا .. مثل الذي
يزمر به الرعاة والمزارع هو مؤذن ابليس - كما
قدمنا - فأحدث صوتا جميلا .. لم يسمع
الناس مثله .. وبلغ ذلك من حولهم .. فاتوه
مستمعين اليه .. واتخذوه لهم عيدا ...
يجتمعون اليه كل سنة ...

(١) جاء هذا المعنى في تفاسير النسفي والبيضاوي والكشاف - ٢٣ - الاحزاب .

ودا - وسواعا - ويفوث - ويموق
- ونسرا ..

وكانت هذه أسماء رجال صالحين .. كانوا
بين آدم ونوح ..

فلما ماتوا .. صنعوا لهم تماثيل ..
تبركا بهم .. ثم عبدوها بعد طول الزمن ..

وقد انتقلت تلك العبادة .. الى العرب ..
فكان ود لكلب .. وسواع لهمدان .. ويفوث
للدحج .. ويعوق لمراد .. ونسر لحمير ..

ولذلك سمى العرب .. بعبد ود .. وعبد
يفوث .. (١) .

النساء .. وهكذا نزل اهل الجبل الى السهل
... فظهرت المعصية ... وتناكحوا ...
واختلطوا ... وكثر بنو قابيل ... حتى
ملاءوا الارض ... واكثروا فيها الفساد ..
ورفعوا راية الشر في كل مكان :

واتخذوا آلات اللهو ... من انواع الطبول
والمزامير والطناوير ... وانتشر فيهم الزنا ...
وشرب الخمر ... وطفيان القوى على الضعيف
... وعبادة النار والاوثان ...

* * *

وكانت اوثانهم .. كما قدمنا في نهاية - نبأ
آدم - هي : -



٢ تعريف بنوح

وكانوا يخنقونه .. حتى يترك مفشيا عليه .. ويضربونه في المجالس .. ويطرد منها .. ثم لا يدعو عليهم .. بل يدعو لهم .. ويقول : رب اغفر لقومي .. فانهم لا يعلمون (٢) .

كان ثاني المصطفى - عليهما الصلاة والسلام - في الميثاق اقرا « واذا اخلدنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم » ٧ / الاحزاب .

وقد جمعت آية الميثاق هذه - ايضا - اولى العزم من الرسل فقط .. وكان ثاني المصطفى - كذلك - في الوحي .. اقرا :

« انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح » ١٦٣ / النساء .

هو في البعث اول من تنشق عنه الارض .. بعد محمد - عليهما الصلاة والسلام - ..

سماه ربه شكورا .. اقرا « ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا » ٣ / الاسراء .

« واكرمته ربه .. بالسلامة والبركة .. » يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك « ٤٨ / هود .

وهو آدم الثاني .. لقوله تعالى « وجعلنا ذريته هم الباقين » ٧٧ / الصافات .

وقال المفسرون : جميع الخلق الان من نسله (٣) .

هو نوح بن لامك بن متوشالch بن اخنوخ - واخنوخ .. هو نبي الله ادريس ، من نسل شيث بن آدم - عليهم السلام - كما بينا ذلك من قبل .

سمى نوحا لكثرة نوحه .. وخوفه من ربه . هو اول نبي من انبياء الشريعة .. واول اولى العزم من الرسل .. واول نذير عن الشرك .. واول من عدته امته ..

واولوا العزم من الرسل .. خمسة .. هم : محمد - ونوح - وابراهيم - موسى - وعيسى ..

تجمعهم الآية « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا .. والذي اوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ١٣ / الشورى . وفي حديث الشفاعة :

عن ابي هريرة .. في صحيح مسلم « يانوح انت اول الرسل الى الارض (١) .

وكان عليه السلام .. اطول الانبياء عمرا .. وقيل له : اكبر الانبياء .. وشيخ المرسلين .. عمر في الارض الفا ومائتي عام لم ينقص له سن .. ولم تضعف له قوة ..

ولم يبلغ احد من الدعوة مثل ما بلغ .. كان يدعو قومه .. ليلا ونهارا .. اعلانا واسرارا .. لم يلق نبي من امته .. من الاذى ما لقي ..

وقد روى ان نوحا كان يضرب .. ثم يلف في لبد .. ثم يلقى في بيته .. فيرون انه قد مات .. ثم يخرج .. ويدعوهم الى الله ..

(١) وان صح هذا الحديث .. يكون آدم وفيث وادريس انبياء وليسوا رسلا .

(٢) القرطبي ٤٤ / هود .. والكناف والبيهاوي ١٠ / القمر .

(٣) القرطبي والبيهاوي ٤٨ / هود .

٣ صراع فوق طاقة البشر

بذل فوق ما يستطيع .. من جهد وعناء
وكفاح في دعوتهم ليلاً ونهاراً .. وبسراً وجهاراً ..
ولكنهم لم يزدادوا .. الا كفراً وعناداً .. ونفوراً
واستكباراً .. ولم يتبعه الا قلة قليلة .. من
ضعفاء القوم .. الذين لا حول لهم ولا قوة ..
اعتز نوح بصحبته .. واصر على ملازمتهم ..
 فلم يزد القوم .. الا استهزاء به .. وسخرية
منه ..

وكلما مرت الأيام .. وكرت السنين ..
كلما اشتد آذاهم له .. وتسليط سفهائهم عليه
حتى اطلقوا عليه اسم المجنون ..

« كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عدنا ،
وقالوا مجنون وازدجر » ٩/ القمر .

قال لهم نوح « انى لكم نذير مبين ، ان
لا تعبدوا الا الله انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم »
فقالوا له :

« ما نراك الا بشراً مثلاً ، وما نراك اتبعك
الا الذين هم اراذلنا » طلبوا منه .. ان يطرد
هؤلاء المستضعفين .. الذين اتبعوه ولكنه قال لهم
باصرار « ما انا بطارد الذين آمنوا » ٢٥ - ٢٩/
هود .

وهكذا .. نرى ان شيطان الكبر .. هو
اساس الكفر .. ففى كل عصور الرسالات ..
نجد ان المستضعفين هم اول من يبادر الى اتباع
الرسول .. اما المترفون .. المتفطرسون ..
الذين اكل الكبر قلوبهم .. وقضى الحقد الأسود
على آخر خيط من خيوط النور في صدورهم ..
فيقفون موقف العناد والتحدى .. وقد يكون
ذلك العناد .. وهذا التحدى .. مصحوباً بيقين
مكبوت في أفئدتهم .. بصدق الرسول ..

اختلف العلماء .. فى سن نوح .. عندما
ارسله الله .. بين الخمسين .. او المائة
والخمسين .. او المائتين والخمسين ولكن
المتفق عليه .. هو المدة .. التى قضاهما فى
الرسالة حسب النص القرآنى .. « فلبث فيهم
الف سنة ، الا خمسين عاماً » ١٤/ العنكبوت .

وان كان احد المفسرين .. يريد ان يقول :
ان التسعمائة والخمسين عاماً هذه .. هى كل
عمره .. قبل الرسالة وبعدها ..

ولكن الواضح المتفق عليه .. أنها مدة
رسالته فقط . وأوتى الرسالة وسنه مائتان
وخمسون عاماً .

بدا يدعو قومه .. الى عبادة الله وحده ..
وترك عبادة الأوثان .. التى عكفوا عليها ..

وجعل اساس دعوته .. الاستغفار ..

وظل يأمرهم بالمعروف .. وينهاهم عن
المنكر .. يأمرهم بالكرم .. والصدق ..
والوفاء .. والمروءة .. والنبل .. والشجاعة
.. وعلو الهمة ..

وينهاهم عن الزنا .. وشرب الخمر ..
والكذب .. ونقض العهد .. والبخل ..
والانانية .. والخنوع .. والسجود لغير الله
فلل يخوفهم .. عذاب الله وبطشه .. وقوته
وجبروته .. ويذكرهم .. بيوم الحساب ..
يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت .. وتضع
كل ذات حمل حملها .. من شدة الفزع .
وهلع الموقف ..

وامانته فيما يبلغ به .. ولكنه الكبير .. والله سبحانه - يقول عنهم « ان في صدورهم الاكبر ما هم بهالفيه » ٥٦/ غافر .

ومن هنا نفهم .. قوله - عليه الصلاة والسلام في الخبر .. لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من شرك او كبير .

ولكأنى أشهد موقفنا .. من مواقف نوح - عليه السلام - مع قومه .. في صورة .. عرضتها سورة نوح ..

فهاهو واقف بين ملا من قومه .. وقد اجتمعوا حوله رجالا ونساء .. شيبا وشبابا .. صبية واطفالا .. رجالا ونساء .. وقد تجمعوا للسخرية منه .. والاستهزاء به ..

قال : يا قوم « استغفروا ربكم .. انه كان غفارا » .

قالوا : وماذا لنا عند ربك بانرح .. لو استغفرناه ؟

قال : « يرسل السماء عليكم مدرارا » .

قالوا : وماذا ايضا غير المطر ؟

قال : « ويمددكم بأموال وبنين » .

قالوا : ثم ماذا غير الأموال والبنين ؟

قال : « ويجعل لكم جنات » ..

قالوا : ثم ماذا ؟ .. قالوها .. وهم يتضحكون .

قال : ويجعل لكم انهارا .

فينبرى له شاب من سفهائهم .. ويأبى بحركة وقحة .. فيها كل الصفاقة .. والسفالة .. والوقاحة .. تجعل نوحا يفعل من اجل دينه وربيه .. فيقول « ما لكم لا ترجون لله وقارا .. وقد خلقكم اطوارا ؟ » .

انت أيها الشاب الوقح .. اما عندك شيء من الوقار اربك .. الذي خلقك من ماء مهين .. وأوجدك من سيكروب .. حقير .. صغير .. متناه في الضالة .. يحمل سن الدوس منه الآلاف ؟

الم تعلم ان اصلك نطفة قلدة .. كان من الممكن ان تنساب مع البول .. من رحم أمك .. الى بحار المجارى ؟ ولكن الله حفظك ورعاك ..

وصورك فسوك .. « ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم اطوارا » ؟ وقد خلق لكم سبع سموات طباقا .. وجعل لكم الشمس والقمر ؟ « الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا » ؟

الم تر ان جسمك هذا الذي يتناول به على ربك في سوء ادب .. وعدم خشية .. هو الذي خلقه لك من عناصر الأرض .. ومعادنها المختلفة .. ومما تنبت من فاكهتها ، ويقولها ، وقثائها ، وفومها ، وعدسها ، وصلها ؟ ..

الم تعلم ان الله أنبتك من الأرض نباتا .. وانك عائد فيها خلقا جديدا .. بعد موتك .. حيث تلقى الله .. ليوفيك حسابك ؟

« والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ، ويخرجكم اخراجا ، والله جعل لكم الأرض ساطا لتسلكوا منها سلا فجاجا » (١) .

لم يطلب منهم نوح .. في الآية التي نحن بصدد عرضها .. غير الاستغفار .. الاستغفار فقط .. وجعله مفتاحا للخير كله .. من مال .. وبنين .. وجنات .. وانهار ..

ويذكرنى هذا بموقف .. للخليفة الثانى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمر بن الخطاب :

خرج يستسقى (٢) .. فما زاد على الاستغفار .. فقيل له ما رأيناك استسقيت .. فقال :

لقد استسقيت بمفاتيح السماء .. التى يستنزل بها القطر ..

وعن الحسن : ان رجلا : شكا اليه الجرب .. وآخر شكا الفقر .. وثالث : قلة النسل .. فأمرهم جميعا .. بالاستغفار فقال له الربيع بن صبيح : أتاك رجال يشكون انوا .. ويسألون انوا .. فأمرتهم جميعا بالاستغفار .. فتسلا قول نوح لقومه « استغفروا ربكم انه كان غفارا » .. الخ الآيات (٣) .

(١) ارجع الى هذه الصورة .. في سورة نوح ١٠ - ٢٠ .

(٢) الكشاف ١٠ - ١١ نوح .

وطال الصراع بين نوح وقومه.. يدعوهم فى الليل والنهار .. وفى السر والعلن .. كلما استطاع الى ذلك سبيلا ولكن فى آذانهم وقر .. وعلى قلوبهم أكنة.. وفوق أعينهم غشاوة .. وبينهم وبين ما تدعوهم إليه حجاب كثيف .. وكما دعاهم «جعلوا أصابعهم فى آذانهم، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا» ٧/ نوح.

شغلته الدنيا .. بزینتها ومفاتنها ومطاعمها ومطامعها وآمالها وأحوالها..

نعم بذل نوح - عليه السلام - معهم .. فوق ما يستطيع البشر ليذكرهم بآلاء الله وآياته ونعمه وأفضاله .. ولكن اذا لم تشهد البصائر .. ما تصور .. صور هذه السور .. فكيف نسميها بصائر؟ .. وهى فى عمه قائم .. كما بين ذلك - سبحانه - فى سورة النور .. عندما قال:

«والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب»

فما هو هذا الشيء الذى كفروه «فصاروا مخدوعين خدعة .. جعلت أعمالهم هباء ، وأفئدتهم هواء؟ إنما ذلك هو النور» الذى عموا فيه «وضلوا بعده فى ظلمات تتراكم» كلما ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون «فهم فى ظلم شديد» الى نعيم الدنيا «ومتاعها الفانى» وما هى الا لمعات «من سراب خادع» يراه الظمآن عندما يضل بين الصحراوات والسباسب المترامية الاطراف والتي لا يدري أولها من آخرها «فيظن هذا الضال» ان امام عينيه لمعان الماء «الذى هو نهمه ومشتهاه» وهنالك لا يكون الا المآب، والعرض فى يوم الحساب».

وهذا معنى قوله تعالى «لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه».

ماذا يقول نوح لمن كفر «وتولى وغدر» وطفى وفجر «ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدر».. ولا ندري وأيم الله «أهم عميان» أم أنهم يتعامون؟ والغالب أنهم صادقون عندما قالوا «قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب» ٥ / فصلت.

وحق لنوح - عليه السلام - أن يقول:

«كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا».

ونور الله فى جميع القلوب واحد «قلب المؤمن .. وقلب الكافر ولكن الفرق فى الزجاجة التى يشع منها النور».. ولتقريب هذا المعنى «نضرب المثل بالمصابيح: كل الوسائل المستعملة فيها» من جنس واحد «الأناء» والغاز «والفتيل المشتعل» والنار المشتعلة «كلها من جنس واحد ونوع واحد» فما بال هذا المصباح ضوءه قوى صاف مشع «وذلك لا ينبعث منه النور»؟..

الفرق فى الزجاجة المشعة .. فهذه زجاجة صافية نظيفة شفافة .. فانبعث منها الضوء قويا.. صافيا.. وتلك تراكمت عليها الأدخنة والاغبار فحجبت الضوء.. وعزلت النور..

وأترك التشبيه فى هذا المقام. لمن أوتى جوامع الكلم - عليه الصلاة والسلام - اذ يقول «القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد». وجلأؤها الاستغفار «أو قال تلاوة القرآن وذكر الله».

ومن أجل هذا كانت دعوة نوح - عليه السلام - تتركز فى استغفار:

«استغفروا ربكم إنه كان غفار» يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم «بكذا وكذا» الخ الآيات غير أنه فى واد وهم فى واد آخر..

٤] اليأس

فلا هم استجابوا لدعائك « ولا كفوا ايديهم
عن ايذاننا وايدائك . ولا هم نزل بهم الطوفان »
الذى تعدهم به ؟ (١)

اما يكفى ما وصلنا اليه . « من سخرية
القوم » وهزئهم ؟ اما تستحي من سير الناس
حولك في كل مكان قائلين : المجنون - المجنون ؟
اما تكف عن هذا .. حفاظا على كرامتنا ..
وكرامة ابنائنا ؟

لم تكن زوج نوح - عليه السلام - كافرة ..
في اول الامر وانما طول الزمن وممرور القرون
والاجيال هو الذى جعل اليأس يدب الى قلبها
مما ساعد اليأس على فتح ثغرة ينفذ منها الى
هذا القلب .

فسلطت على نوح « لسانها » يشبعه تائيبا
ولوما وسخرية « وتبعها في هذا الامر انها كنعان
الابن المدلل » .

بالقسوة المحنة .. حتى بيته لم يخرج منه
الا بثلاثة اخماسه .

وضاقت عليه الارض بما رحبت .
في الشارع يترصده جنود الله .

وفي المنزل .. تلقاه زوجة بلسانها البسيط
فلا يملك الا التطلع الى السماء :

« انى مغلوب فانتصر »

(١) كان نوح يتلوهم بالطوفان قبل ان يوحى اليه « انهم مفروقون » وكان يعلم نباء من اسفار جده ادريس ..
وهي للاثون صحيفة ، وصحف شيت وهي خمسون صحيفة من الكشاف ٦٢ الامراف .

مرت الايام « يوم اثر يوم » وعام تلو عام
« وقرن بعد قرن » ونوح على هذا الحال .

هو يتوعدهم العذاب « ان لم يؤمنوا به » وهم
في غيهم سادرون « وعلى آذاه مصرون .. فلا هو
يكف عن انذارهم وابعادهم ولا هم يرعون عن
آذاهم وسخريتهم » .

يمش خلفه الاطفال والشباب والسفلة :
المجنون « المجنون » فلا يملك الا التطلع الى
السماء قائلا

« انى مغلوب فانتصر » القمر

والسماء دائما « هى ملجأ المؤمن » هى
الجهة الوحيدة « التى يهرع اليها » كلما حز به
الامر او المت به الخطوب واحاطت به الشدائد

لم يؤمن معه « الا القليل من قومه الفقراء
والضعفاء » بالاضافة الى اهل بيته .. « وهم :
زوجه واناؤه الأربعة » وزوجات ابنائه الثلاثة
الاول .

وكان ارادة القدر « شاءت الا يخرج نوح
- عليه السلام - بعد هذا الجهد الجهيد في
ذلك الامد المسيد بايمان اهل بيته كلهم .

جاءته زوجته مؤنية موبخة يا نوح
اما كفالك هذا الزمن الطويل في هذا الهواء
الذى تدميه .. والوهيم الذى تحيا فيه ..
من انذار قومنا « بطوفان » يهلكهم فلا يدع على
الارض من الكافرين ديارا ؟ ..

٥ الفرج

وتستجيب السماء لنوح :

« وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ، فلا تبشّر بما كانوا يفعلون » ٣٦/هود .

كان الرجل منهم يأتي نوحا .. ومعه ابنه الصغير « فيقول لابنه : احترس من هذا الرجل « حتى لا يضلّك » فاذا مات الأب « شب الولد على نفسه لنوح » .

ويروى ان رجلا .. جاءه يحمل ابنه على كتفه .. وهو يتوكأ على عصا .. ثم قال : يا بني انظر هذا الشيخ لا يضلّك .. قال : يا ابي اعطني العصا .. ثم قال : ضعني على الأرض ..

فمشى اليه بالعصا .. فضربه مشجّه شجرة موجعة في رأسه .. وسالت الدماء .. فقال نوح :

رب .. « قد ترى ما يفعل بي عبادك فان يك لك في عبادك خيرية .. فاهدهم وان يك غير ذلك فصبرني .. الى ان تحكم وانت خير الحاكمين » .. فأوحى الله اليه :

« انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبشّر بما كانوا يفعلون » واذا بلغ المشرقمة كان معنى هذا بدء بزوغ الخير .. « فان مع العسر يسرا » ومع اليأس فرجا .

فاندفع مع اجابة السماء قائلا : « رب لا تدر على الأرض من الكافرين ديارا » ٢٦ نوح/ وكان احساسه « بانحدار آلام القرون عن كاهله » .. ينسيه نفسه فيقول :

« انك ان تدرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » ٢٧ نوح . هل تخبر الله

بارسول الله بشيء يعلمه ؟ في اعماق هذا التعبير من نوح - عليه السلام - احساسه باللهفة الى الفرج « بعد هذا الصراع المضني » والكفاح القاسي « ما يقرب من ألف عام لم يخرج منها الا بثلاثة أخماس بيّنة » وهم أبناؤه : سام وحام ويافت مع قلة قليلة من المستضعفين «

وتظل ابواب السماء مفتوحة لنوح « تنفيذا لمشيتته » وهذا مقام يذكرني بعبارة قراتها .. لبعض الصوفية المقربين يقول فيها عن الله عز وجل :

تركنا له ما نريد لما يريد .. فترك لنا ما يريد لما نريد وكانت اجابة السماء له « واصنع الفلك باعيننا ووحينا » ٣٧/هود . اي اننا سنسوق اليك كتل الأخشاب الضخمة « وعليك ان تصنع منها الدسر » . والدسرة هي المسمار الخشبي . يقول ابن عباس :

« لم يعلم كيف صنعة الفلك » وأوحى الله اليه ان يصنعها « مثل جوجو الطائر .. » (١) وجوجو الطائر .. او السفينة .. صدرها .

ان صناعة السفينة كانت بعين الله .. ووحيه « حتى الدفة » لم يصنعها نوح - عليه السلام - فهو لا يدرى الى أين تنسبر والى أي جهة تتجه وانما هي .. « تجري باعيننا » ..

« ولا تخاطبني في الدين ظلموا انهم مفرقون » ٣٧/هود .

(١) القرطبي والتسفي والكشاف ٢٨/هود - وكررها الكشاف في ٢٧/المؤمنون

زادوا سخرية به « وبأبنائه الثلاثة ..
الذين يعملون معه في صناعة السفينة » .
يجمع الناس بعضهم بعضا ليذهبوا اليه
جماعات جماعات .
يهزأون ويسخرون « ويطلبون ويذمرون
ويرقصون » .

ما هذا يا نوح ؟ ابلغ بك الجنون ان
تصنع سفينة في صحراء ؟ .. وهل عندك من
الخيال ما يمكنك من تنيير سفينة .. فوق
الرمال ؟

« ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملا من
قومه ، سخروا منه » ٣٨/هود ولكنه .. في
هذه المرة لا يقبل سخريتهم .. ولا يتجاوز
عن سيااتهم واستهزائهم .. فيردها عليهم قائلا
.. فقد طمأنته السماء : « ان تسخروا منا
فانا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف
تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه
عذاب مقيم » ٣٩/٣٨ هود .

وتمت صناعة السفينة كما اجمع المفسرون
.. من خشب الساج « ذات مساكن مطلية من
الداخل والخارج بالقار .. طولها ثلاثمائة ذراع
.. وعرضها خمسون ذراعا .. وارتفاعها ثلاثون
ذراعا .. من ثلاثة طوابق في الاسفل .. السباع
والوحوش . وفي الاوسط . الدواب والانعام ..
وفي الاعلى .. نوح ومن معه .. وما يلزمهم من
الزاد » (١) .

وفي مثل هذه المواقع التي لم يرد عنها
نص قرآني .. أو سنة صحيحة .. نرى ان
نستعرض معا .. بايجاز بعض الآراء التي وردت
فيها . ليكون القارئ على علم بالمصادر التي
يبنى عليها علمه .. فالقرآن الكريم .. لم
يتحدث عن صفة سفينة نوح .. غير أنها « ذات
ألواح ودر »

كما لم ترد عنها « سنة صريحة » .

وقد اجمع الكثير من أولى العلم « من رجال
التفسير . كابن عباس .. والكلبي . وقتادة
وعكرمة .. على الأبعاد الثلاثة التي ذكرناها »
وذكرتها جميع كتب التفسير .

كما أن هذه الأبعاد « هي الأبعاد التي ذكرتها
التوراة في سفر التكوين بالاصحاح السادس

.. وبصها - ١٤ - اصنع لنفسك فلكا من
خشب جفر .. تجعل الفلك مساكن وتطليه
من داخل ومن خارج بالقار ١٥ - وهكذا تصنعه
ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك .. وخمسين ذراعا
عرضه .. وثلاثين ذراعا ارتفاعه ١٦ - وتصنع
كوا للفلك .. وتكمله الى حد ذراع من فوق
وتصنع باب الفلك في جانبه . مساكن سفلية
ومتوسطة وعلوية تجعله - ١ هـ -

كما ذكر رأى آخر في كتب التفسير .. عن
الحسن البصري وغيره قال : كان طولها ألف
ومائتي ذراع .. وعرضها ستمائة ذراع .. ولعل
هذه الأبعاد .. نقلوها من رواية وردت في بعض
كتب التفسير (٢) حول معنى الآية « ويصنع الفلك »
ولا بأس من تلخيصها للقارئ من باب العلم
بالشيء فقط وهي أن الحواريين سألوا عيسى -
عليه السلام - أن يبعث لهم رجلا شهد سفينة
نوح .. ليحدثهم عنها .. فانطلق بهم الى
كثيب من تراب .. فاخذ كفا منه « وقال :
اتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم » .
قال : هذا « كعب بن حام (٣) بن نوح » .

قال : ف ضرب الكثيب بعصاه « وقال : قم
ناذن الله فاذا هو قائم » .

قال له : اخبرنا عن سفينة نوح ..
قال : كان طولها ألف ومائتي ذراع وعرضها
ستمائة ذراع وكانت ثلاث طوابق : طبقة
للدواب والوحوش ، وطبقة للانس ، وطبقة
للطير - ١ هـ -

وبعد انتهاء صنعتهما « ظلت في مكانها فوق
الرمال » في الصحراء اربعين عاما « يتربص
نوح - عليه السلام - الطوفان . بين لحظة
وأخرى فكانت وسيلة من وسائل الهزاء به «
والسخرية منه .. وقد بلغ من سخريتهم بنوح
.. وسفينته .. انهم اتخذوها مبال ومبارز
لهم ..

ومن طول الزمن امتلات بالقاذورات
والاوساخ .

ويزعم بعض المفسرين « أن الله تعالى « قد
ابتلى قوم نوح بالمقم في مدة وقوف السفينة -
قبل الطوفان - بعد تمام صنعها « حتى لا يفرق
الا المكلفون . وفي هذا الرأي تكلف ظاهر .
لاداعي له - وأن كان هذا جائزا - ولكننا نرى

(١) لم يذكر القرآن الكريم .. وصف السفينة .. وإنما ذكرت في التوراة وذكرت التفسير كلها هذه الأبعاد التي
ذكرناها .

(٢) القرطبي والطبري والكشاف والعلبي

(٣) في هامش القرطبي « في الاصل قبر سام بن نوح »

فى كل يوم مئات الأطفال .. بهلكون .. بمختلف
الامراض .. وليس ذلك عقابا للاطفال على ذنوب
ارتكبوها .. أو جرائم اقترفوها كما نرى الكثير من
الزلازل التى تدمر المدن والقرى بمن فيها من كبار
وصغار:

وصدق الله عندما يقول:

«واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم
خاصة».

وقد روت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها -
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - انه قال:
«لو رحم الله أحدا من قوم نوح .. لرحم المرأة أم
الصبى وذلك أنها .. خشيت عليه من الماء .. وكانت
تحبه حبا شديدا .. فخرجت به الى الجبل .. حتى
بلغت قمته .. فلما بلغها الماء .. حملت الصبى ..
فلما بلغ الماء رقبتها رفعتة بيدها .. حتى ذهب
بهما الماء .. فلو رحم الله أحدا منهم لرحم هذه»^(١).

وقال القرطبي والكشاف .. ما معناه ..

الصحيح أنه أهلك الولدان بالطوفان .. كما
هلك السباع والأنعام .. ولم يكن الغرق عقوبة
للمصبيان والبهائم .. وإنما غرقوا بأجلهم .. كما
يموتون بأى سبب من أسباب الموت .. وليكون ذلك
.. زيادة .. فى عذاب الآباء والأمهات .. برؤية
أبنائهم يغرقون^(٢).

ولما اقترب ميعاد الغرق .. ابتلاهم الله -
سبحانه - بالجرب .. والجرب مثل عملى لبحث ..
قد نسميه «لذة الشر» .. فالأجرب

يمزق جلده باظفاره .. ويرى الدم يسيل من
جروحه .. ولكنه لا يزداد الا شوقا الى التمزيق
والتجريح .. وذات يوم صائف جلس أحدهم ..
يتبرز فى الخلاء .. فعبثت يده فى الأرض ..
وأمسك بقطعة صغيرة .. من البراز الجاف ..
والبراز اذا جف تحول الى مادة كبريتية .. وسالت
القطعة فى يده .. ودعك بها بين أصابع يده
الأخرى الملتهبة .. من الجرب الذى يشوبها ..
فاحس أن الالتهاب قد زال فى الحال .. وبدأت
جروح أصابعه تلتئم وتبرأ..

وكان هذا اكتشافا لعلاجهم من الجرب الذى
هدمهم .. وأشعل النار فى أجسادهم .. ووجدوا فى
السفينة مخزنا مليئا بهذا العلاج .. فنظفوها تماما
.. بل وغسلوها بالماء .. ليستحموا به..

قالت له زوجته يوما .. أما ينصرك الله ؟ فقال
لها: نعم..

قالت: فمتى .. قال: اذا فار التنور ..

فخرجت .. وهى تقول لقومها .. والله انه
لمجنون حقا..

يزعم .. أن الله لا ينصره .. الا أن يفور هذا
التنور^(٣).

وقال القرطبي : فهذه خيانتها .. ويقصد
القرطبي - رضى الله عنه - بقوله. فهذه خيانتها ..
التعليق على قول الله تبارك وتعالى فى سورة
التحريم:

«ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة
لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين
فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل
ادخلا النار مع الداخلين» ١٠ / التحريم.
وستعرض لموضوع خيانتها فى حينه ان شاء الله

(١) ذكره الثعلبي .. كما ذكره القرطبي بالنص.. بدون اسناده الى عائشة - ٤٤ / هود.

(٢) القرطبي ٤٤ / هود والكشاف فى سورة نوح.

(٣) القرطبي ٤٦ / هود.

٦ الطوفان

كان في موقع مسجد الكوفة .. عن يمين الداخل
مما يلي باب كندة ..
وقيل بالشام بموضع .. يقال له « عين
وردة » (٢).

وروى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال:

ما أرسل الله سفينة من ريح .. الا بمكيال .. ولا
قطرة من مطر الا بمكيال .. الا يوم عاد .. ويوم
نوح .. فان الماء يوم نوح .. طغى على الخزان ..
فلم يكن لهم عليه سبيل .. ثم قرأ « أنا لما طغى الماء
حملناكم في الجارية » .. وان الريح .. يوم عاد
عنت على الخزان .. فلم يكن لهم عليها سبيل ثم
قرأ « بريح صرصر عاتية » (٣).

وجد نوح أزواجا .. من كل نوع وجنس ..
من السباع .. والوحوش والهوام .. والدواب ..
والطير .. كل زوج يأخذ طريقه .. الى مكانه
الخاص به في السفينة .. وركب هو ومن معه من
المؤمنين وحمل معه في السفينة تابوت جده الأكبر
- آدم - عليه السلام - وأسفار جده ادريس..

(٢) البيضاوى والكشاف - ٢٧ / المؤمنون .. والقرطبي

٤٠ / هود.

جلست امرأة نوح .. أمام التنور .. تصنع الخبز
واذا بالماء يتفجر من بين السنة النيران .. متدفقا
في عنف .. فيدفعها في صدرها ، فتكون أول
الهالكين .. غرقا .. وحرقا في نفس الوقت .. لأن
الماء خارج من التنور « وفار التنور » وفجرت
الأرض عيونا .. وفتحت أبواب السماء بماء منهمر
والتقى الماء .. ماء الأرض وماء السماء .. ولعلنا
نذكر .. ما ذكره كتاب تاريخ الحكماء عن ادريس -
عليه السلام - من أنه أول من أنذر بالطوفان ..
ورأى آفة سماوية تلتحف الأرض من الماء والنار ..
يقول ابن عباس في ...

« ففتحنا أبواب السماء بماء .. من غير سحب
.. لم يقلع أربعين يوما .. وقال على بن أبي طالب
.. - رضي الله عنه - أنه المجرة .. وهى شرج
السماء .. ومنها فتحت بماء منهمر .. وقيل: كان
ماء السماء باردا كالثلج .. وماء الأرض حارا مثل
الحميم (١).

وقال جميع المفسرين تقريبا: ان التنور..

(١) القرطبي ١/١ القمر.

(٣) الكشاف - ٦/ الحاقة.

كما حمل الدر معه في الطابق العلوى ..
لضعفها .. الا يطاها الدواب .. والذر هو
الحشرات الصغيرة ..
وقال القرطبي والكشاف : انه جعل تابوت
آدم معترضا .. بين الرجال والنساء في
السفينة ..

واختلف المفسرون في عدد ركاب السفينة
بين الثمانين والتسعة ! ! والأغلب .. على
ما رواه ابن عباس : انهم كانوا ثمانين .. منهم
نوح .. وبنوه الثلاثة : سام ، وحام ، ويافت ،
وزوجاتهم .. ويقول ابن عباس ايضا : لما خرجوا
من السفينة - بعد الطوفان بنوا قرية .. تسمى
الى اليوم .. قرية الثمانين .. وهى بناحية
الموصل (١) .

ويقول الزهرى : ان الله - عز وجل - بعث
ريحا .. فحمل اليه من كل زوجين اثنين ..
من السباع .. والطيور .. والوحش .. والبهايم
.. وقال جعفر بن محمد : بعث الله جبريل ..
فحشرهم .. فجعل يضرب بيده .. على الزوجين
فتقع يده اليمنى على الذكر .. واليسرى على
الانثى .. فدخله السفينة (٢) .

كما يقول القرطبي :

جاءت الحية والعقرب .. لتدخل السفينة
.. فمنعهما لضررهما .. وبلائهما .. فتعهدا
بعدم الاضرار بالركاب .. فتركهما تركبان ..
ولهذا يقول القشيري وغيره : فمن قال : « سلام
على نوح في العالمين » لم تضراه ..

وذكر حديثا .. حول هذا المعنى .. عن
الحافظ بن عساكر .. مرفوعا .. من حديث ابي
امامة .. قال .. قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم « من قال حين يمسي .. صلى الله
على نوح وعلى نوح السلام .. لم تلدغه عقرب تلك
الليلة » (٣) .

كما ذكر القرطبي حادثا آخر .. أذكره ..
مع التحفظ .. كما ذكرت حديث العقرب والحية
للعلم بما قيل فقط .. وهذا الحادث هو :

قال : عن قتادة .. والحكم بن عيينه .
وابن جريج .. ومحمد بن كعب .. فاصاب حام
امراته في السفينة .. فدعا نوح الله .. ان يغير

نعلته .. فجاء بالسود .. وقال عطاء : ودعا
نوح على حام .. الا يعدو شعر اولاده اذانهم ..
وانهم حيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام
ويافت (٤) .

ولعل القارىء الكريم .. قد لفت نظره قولى
أذكره مع التحفظ .. كما ذكرت حديث العقرب
والحية .. فنحن نرى .. اننا قد تجولنا كثيرا
في روضة القرطبي - رضى الله عنه - وغيرها من
رياض التفسير .. وقطفنا من القرطبي .. كثيرا
من الورود والازهار والرياحين ..

والسائر بين الرياض والبساتين .. ويحاول
قطف الازهار والورود .. لا يسلم من بعض
الاشواك .. فمثلا .. انا لا اصدق مطلقا ..
ان القرطبي - رحمه الله - هذا الاستاذ الجليل
والامام الكبير .. صاحب هذا المؤلف الضخم
الجامع لاحكام القرآن .. هذا الرجل .. واسع
الافق .. شامل التفريع والاستنباط .. انا
لا اصدق .. انه يذكر أن ابن عباس - رضى الله
عنه - قال : لم يكن في الأرض الطوفان نهر
ولا بحر .. فلذلك سخرها منه .. ومياه البحار
.. هى بقية الطوفان (٥) .

فهل تصدق هذا عن الامام القرطبي ؟ واذا
صدقنا أن القرطبي ذكرها - نقلا - فهل نصدق
ان ابن عباس قالها ؟ ..

وهل نصدق انه يقول ايضا .. عن ابن عباس
.. في تفسير قوله تعالى « وقال اركبوا فيها
بسم الله مجريها ومرساها » ٤١/هود - تعلق
ابليس بذنب الحمار .. وكانت بدا الحمار ..
قد دخلتا في السفينة .. فجعل الحمار يضطرب
ولا يستطيع ان يدخل فصاح به نوح : ادخل
ويلك .. وكررها مرتين .. والحمار يضطرب ..
ثم قال له : ادخل ويلك .. وان كان معك الشيطان
- كلمة زلت على لسانه - فدخل .. ووتب
الشيطان فدخل ..

فهل يحتاج الشيطان الى مثل هذا ؟ ..

مع ان الحديث يقول « ان الشيطان يجرى
من ابن آدم مجرى الدم »

ان من يكثر التجوال بين أرجاء كتب التفسير
يلمس أن ابن عباس - رضى الله عنه - مفترى

(١) القرطبي ٤١/هود

(٢) القرطبي ٢٨/هود

(٣) القرطبي ٢٨/هو ص ٢٢٦١ طبعة كتاب الشعب

(٢) القرطبي ٤٤/هود

(٤) القرطبي ٣٦/هود

عليه .. في كثير من المواقف .. التي دسها
الاسرائيليون وهواة الحشو .. في كتبنا .. وكـ
حاولوا تغيير كلمة او حرف من الكتاب الكريم
ولكنهم لم يفلحوا .. لان الله سبحانه - يقول :
« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وليت المسئولين .. يطهرون تلك الكتب ..
من امثال هذا الحشو .. وتلك التاولات .. التي
تضر الدين ولا تخدمه .. وانما هي مدسوسة
عليه .. وعلى ائمتنا من اولى العلم .. ورجال
التفسير .

وارتفع الماء في الصحراء .. وطففت السفينة
بمن فيها آخذة طريقها .. الى حيث يشاء الله ..
حيث « تجرى باعيننا » ويتطلع نوح .. فيرى
ابنه كنعان .. يتجه الى الجبل .. فناداه « يا بني
اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » ٤٢/ هود -
ولكن الكافر اخذته العزة بالاثم ، وابى .. وقال :
« ساوى الى جبل يعصمنى من الماء » .

وفي رأيي ان كنعان بن نوح .. اشد كفرا ..
من فرعون موسى .. فقد قال فرعون حينما
ادركه الفرق « امنت انه لا اله الا الذي آمنت به
نحو اسرائيل وانا من المسلمين » .

ولكن هذا فال « ساوى الى جبل يعصمنى من
الماء » وهو يرى امام عينيه آيات الهلاك وامارات
الدمار والفناء .. فيرد عليه ابوه مشفقاً عليه :
يا بني « لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم »
٤٣/ هود .

ولكن موجة طاغية عاتية .. لم يعجبها رد
كنعان على ابيه .. فلطمته لطمه جعلته يسوى
الى أعماق الأعماق امام ابيه « وحال بينهما الموج
فكان من المفرقين » وهنا تغلب عليه عاطفة الأبوة
فيقول ستائراً غامة التائر :

« رب ان ابني من اهلى ، وان وعدك الحق
وانت احقكم الحكيم » (١) .

ويقول الله له « يا نوح انه ليس من اهلك ،
انه عمل غير صالح » ٤٥-٤٦/ هود .

ونرى اننا مضطرون للوقوف وقفة قصيرة
امام تلك الآية : « انه ليس من اهلك » .

فقد زعم بعض المفسرين .. انه ابن زنا ..
مستشهدين بقوله تعالى « ضرب الله مثلا للذين
كفروا امرأة نوح .. وامرأة لوط كانتا تحت
عبدن من عبادنا صالحين فخانتاهما » التحريم
وهذا الزعم مردود قطعاً .. وخطير ايضا ..

فنحن اذا شطح بنا سوء الظن .. واتهمنا
ام سام بالزنا .. فقد طعننا في صحة نسب كل
الانبياء والمرسلين .. بما فيهم محمد - صلى
الله عليه وسلم - لانهم جميعاً من نسلها ..
ولا يوجد على سطح الارض من بعد نوح ..
الا من هو من نسلها لقوله تعالى « وجعلنا ذريته
هم الباقين » وقوله « ذرية من حملنا مع نوح »
وقوله ايضا « وحملناكم في الجارية » .

والخطاب في الآية الاخيرة .. موجه الى
كل من تبغفه دعوة محمد - عليه الصلاة
والسلام - وهو مرسل الى الناس كافة .. وان
كان بعض هؤلاء المفسرين .. قالوا انه ابنها من
زوج غير نوح - عليه السلام - مستشهدين بان
علياً - رضى الله عنه قراها « ونادى نوح ابنها »
على ان الضمير هنا يعود على امراته (٢) والتكلف
ظاهر في هذا التاويل والاولى فهم اللفظ بحسب
نصه القرآني ، فالقرآن الكريم جعله ابنه ..
فهو ابنه .. ومن صلبه ..

ولهذا اجمع الجمهور .. على ان معنى هذه
الآية « يانوح انه ليس من اهلك » انه ليس من
اهل دينك ولا ولايتك وقد قيل لسعيد بن جبیر
« ان ابني من اهل » .. اكان من اهله ؟ اكان
ابنه ؟ ..

قال : لا اله الا الله . ، يحدث الله محمداً -
صلى الله عليه وسلم - انه ابنه .. وتقول :
انه ليس ابنه ، نعم كان ابنه ولكنه كان مخالفاً
له في النية والعمل والدين .. ولهذا قال الله
تعالى عنه « انه ليس من اهلك » ..

ثم قال القرطبي .. في تفسيره .. وهذا
هو الصحيح ان شاء الله .. لجلالة من قال به
يقصد العالم الجليل . « سعيد بن جبیر » ..

والولد يسمى عملاً .. كما يسمى كسباً ..
كما جاء في الخبر : « اولادكم كسبكم » (٣) ..
فاذا قال - سبحانه - لنوح - عليه السلام -
« انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح » ..

(٢) من تفسير الكشاف وغيره - ٤٢/ هود

(١) لنا رأى في هذا الموضوع سيالى في نهاية القصة

(٣) القرطبي ٤٦/ هود

فانها قد تؤدي ايضا معنى انه ولد غير صالح .. فالولد عمل أبيه ..

وما هذا الا لنفهم قوله تعالى « يوم يحسب
والد عن ولده » وان كان هذا الوالد .. هو
نوح - عليه السلام - وفي قراءة « انه عمل غير
صالح » .. بكسر الميم وفتح اللام .

اما قول نوح « ان ابني من اهلى وان وعدك
الحق » .

فالوعد بالنجاة « احمل فيها من كل زوجين
اثنين واهلك الا من سبق عليه القول » ..

وقد فات نوح - عليه السلام - ان ابنه
كنعان .. ممن سبق عليه القول .. هو وامه
.. لانهما خاناه من الناحية الدينية ..

وبعض المفسرين من اولى العلم .. قال :
ان نوحا لم يكن يعلم بكفر ابنه .. وعلى اية حال
... فهذا دليل على ان قرابة الدين .. غامرة
لقرابة النسب .. وان نسبك في دينك .. وان
كان حبشيا وكنت قرشيا .. فهو لصيقك ..
ومن لم يكن على دينك وان كان امس اقاربك
رحما ... فهو ابعد بعيد عنك ... وجعلت
ذاته عملا غير صالح .. مبالغة في ذمة ...

قال الشيخ ابو منصور رحمة الله :

كان عند نوح - عليه السلام - ان ابنه كان
على دينه .. لانه كان ينافق .. والا فلا يحتمل
ان يقول نوح « ان ابني من اهلى » .. ويسأل
الله نجاته ... وقد سبق منه النهى عن سؤال
مثله .. بقوله تعالى : « ولا تخاطبني في الدين
ظلموا انهم مغرورون » فكان يسأله على الظاهر
الذى عنده ... كما كان اهل النفاق .. يظهرون
الموافقة لئيبنا - عليه السلام - ويضمرون
الخلاف له ... ولم يعلم بذلك .. حتى اطلعه
الله عليه ...

وقوله تعالى : « ليس من اهلك » اى من

الذين وعدت النجاة لهم .. وهم المؤمنون حقا
.. في السر والظاهر - (١) - اه ..

وسارت السفينة .. بين جبال الامواج ..
وكما قلنا اختلف المفسرون .. في عدد
ركابها ...

فقال بعضهم سبعة ... نوح وابناؤه
وزوجاتهم ... وقال البعض عشرة خمسة
رجال ... وخمس نساء ... وقال البعض
ثمانين .. ونحن نميل الى الراى الأخير
لسببين ...

السبب الاول : ان هناك مؤمنين من قومه
غير اهله ... جادله قومه لطردهم .. فابى
... اقرا قول الملائكة :

« ما نراك الا بشرا مثلنا ... وما نراك
اتبعا الا الذين هم اراذلنا بادي الراى »
٢٧ / هود .
وقول نوح ايضا لقومه « وما انا بطارد
الذين آمنوا » ٢٩ / هود .

والسبب الثانى : قول الله تعالى لنوح :
« احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الامن
سبق عليه القول » ثم اضاف « ومن آمن »
اى : من آمن من غير اهلك ...

وهذا دليل .. على انه كان من بين ركاب
السفينة من هو من غير نسله ... ولكن لم
ينجب بعد الطوفان الا ابناء نوح فقط .. لتكون
ذريته هم الباقين .

ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار .. فى
كتابه « قصص الانبياء » : انه يؤيد الراى القائل
بان الطوفان ... لم يعم الأرض كلها .. وانما
شمل المنطقة التى فيها قوم نوح فقط (٢) .

ونحن لا ندرى لماذا يؤيد فضيلته هذا الراى

« واحمل فيها من كل زوجين اثنين » ... لا ...
طبعا لحفظ الجنس في جميع المخلوقات
... وهذا وحده دليل قاطع على عموم الطوفان
... والانساق الله الوحوش والحيوانات من
جميع الاجناس .. الى الجهات التي لا يعمها
الطوفان .. بدلا من حملها في السفينة .

نقول : سارت السفينة .. تتقاذفها جبال
الامواج ... بين عيون الارض المتفجرة ...
وابواب السماء المفتحة وارتفع الماء فوق أعلى
قمة جبلية بمقدار خمسة عشر ذراعا ...

ولم يبق من نبضات الحياة .. فوق سطح
كوكب الارض غير سفينة تمحر عباب الماء .. في
محيط .. متلاطم الامواج ... صاحب
الاعاصير ..

.. مع انه قرر في كتابه ... ان علماء
الجيولوجيا ... يقولون : اننا كلما بحثنا في
اعالي الجبال ... وجدنا بقايا حيوانية .. من
الاحياء التي لا تعيش الا في انحبار .. وهذا
يستدعي .. وجود طوفان على هذه الجبال ..

ولا شك ان الطوفان قد عم الارض كلها ..
لسببين : الاول : قول الله - تبارك وتعالى :
« وجعلنا ذريته هم الباقين » وقول نوح :
« رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا » ..
مما يدل على ان كل من على سطح الارض بعد
الطوفان .. من نسل ركاب السفينة .. سواء
كان من الانس او الوحش .. او الانعام ... او
الطير ... وبالتالي يكون الطوفان عاما ..

والسبب الثاني : اذا كان الطوفان لم يعم
الارض كلها .. فبماذا نعلل قوله تعالى لنوح :



٧ النجاة

« وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي
وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي ،
وقيل بعدا للقوم الظالمين » { هود ..

رست السفينة على جبل ارارات .. وهو
يتصل بجبال ارمينيا .. بين بحر قزوين والبحر
الاسود شرق تركيا وشمال جزيرة العرب ...
كما قيل : رست على جبل بأرض الموصل ...
والمكان متقارب في الحالتين الى حد ما ...

ويقول القرطبي في تفسير هذه الآية :

قيل . ان الجودي اسم لكل جبل .. ومنه
قول زيد ابن عمرو بن نفيل :

(سبحانه .. ثم سبحانا يهود له

وقبلنا سبح الجودي والحمد) (٢)

كما يذكر ايضا انه بقيت على الجبل اعواد
السفينة ... واورد حديثا .. عن النبي -
صلى الله عليه وسلم - قال : « لقد بقى منها -
اي من السفينة - شيء ادركه اوائل هذه
الامة » ...

ويقال : اكرم الله ثلاثة جبال .. بثلاثة
نفر ...

جرت السفينة بمن فيها .. باسم الله
مجريها ومرساها .. وكأنها لفتنة من الله -
سبحانه - لعباده المؤمنين ... ليقول المؤمن
عند ركوبه سيارة او طائرة او قطارا او سفينة
او دابة - بسم الله مجريها ومرساها .. بعد
قوله « سبحان الذي سخر لنا هذا ... وما كنا
له مقرنين » .. فاذا قالها .. نزلت عليه
السكينة وكانت ركوبته جارية بمين الله ورعايته
.. وكان هو مطمئنا آمنا .. الى نهاية رحلته
... سلام

مشت السفينة بركابها .. في اليوم العاشر
من رجب .. وظلت في الماء مائة وخمسين يوما
.. واستقرت على جبل الجودي شهرا ...
وهبط بها يوم عاشوراء ..

وروى ان السفينة مرت بالبيت وقد دار
الماء حوله - على هيئة دوامة ... فطافت بها
سبعاً حول البيت .. وقد انجى الله البيت من
الغرق وكان ذلك في اليوم العاشر من ذي الحجة ..
وصام نوح يوم الهبوط .. وأمر من معه ..
فصاموا شكراً لله تعالى (١) .

(١) الكشاف والبيضاوي والقرطبي ٢٤/هود

(٢) الجمد كمنق : جبل لبنى نصر بنجد

وبعلها مباشرة « ونادى نوح ربه فقال رب
ان ابني من اهلى » ... الخ ٤٥/هود .

فلماذا تأخر هذا المشهد .. الى ما بعد رسو
السفينة ... مع أنه كان في اول لحظات
الطوفان ؟

والمتبادر الى الذهن .. ان نداء نوح
بسؤاله هذا عند غرق ابنه كان نداء انفعاليا
« فقال رب ان ابني من اهلى » ...

والقول تقرير في أعماق النفس .. لفظه
اللفظ الى الخارج ، وتعبر به العبارة .. من
نفس القائل .. الى اذن السامع .. فقد يكون
القول سرا في أعماق النفس ... او جهرا
باللفظ مثل « واسروا قولكم أو اجهروا به » ..

ولكن لم يأت رد السميع العليم .. اللطيف
الخير .. وهو في تلك الظلمات الداكنة ..
والأهوال المتراكبة .. لان في الرد شيئا غير
قليل من اللوم والتأنيب .. والله - سبحانه -
ارحم بعبد نوح .. من ان يزيد آلامه . وما ان
رست السفينة على الجودي .. حتى اتاه الرد
على سؤاله المكبوت السابق :

« قال يا نوح انه ليس من اهلك ، انه عمل
غير صالح » ويأتى التأنيب صريحا ..
« فلا تسألن ما ليس لك به علم انى اعطك أن
تكون من الجاهلين » ٤٦/هود .

وكانها صدمة كهربية .. مست شفاف قلب
نوح .. أكون من الجاهلين ؟ قال :

« رب انى اعوذ بك ان أسألك ما ليس لى
به علم والا تفقر لى وترحمنى اكن من الخاسرين »
٤٧ / هود .

« قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات
عليك ، وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم
يمسهم منا عذاب اليم » ٤٨ / هود ..

اهبط بتحية منا ... وبسلامة من الفرق
.. وبركات عليك .. والبركات .. هى الخيرات

اكرم الجودى بنوح ... وطور سيناء
بموسى ... وحراء بمحمد - صلى الله عليهم
جميعا ..

وبعد ان رست السفينة على جبل الجودى
.. أرسل نوح الحمامة (١) ... لتكتشف له
مكانا في الأرض جف عنه الماء ... فعادت بعد
وقت .. تحمل في فمها غصن الزيتون فصار
رمزا للسلام ..

وبمناسبة غصن الزيتون .. وعلاقته بنوح
عليه السلام - اذكر اننى قرأت رواية في تفسير
الكشاف والنسفى تقول ...

روى ان التين اهدى منه طبق .. لرسول
الله - صلى الله عليه وسلم .. فقال لأصحابه :
« لو قلت ان فاكهة نزلت من الجنة .. لقلت
هذه .. لان فاكهة الجنة بلا عجم (٢) وتلك
الرواية .. توحى الينا بمعنى جديد حميل ..
للقسم في سورة التين « والتين والزيتون وطور
سينين وهذا البلد الامين » فيكون التين رمزا
لعصر آدم ... والزيتون رمزا لعصر نوح وطور
سينين رمزا لعصر موسى ... وهذا البلد الامين
رمزا لعصر محمد ... عليهم جميعا السلام ...
ويكون القسم هنا بأربعة عصور .. هى قم
عصور الجنس البشرى ... فى الحياة
الدنيا ...

وقبل ان نبعد عن رسو السفينة .. على
جبل الجودى ... استأذن القارىء الكريم ...
فى الوقوف برهة ... امام مشهد مناداة نوح
ربه ... سائلا عن سبب هلاك ابنه كنعان ...
فقد ورد هذا المشهد .. فى سياق القصة

... بسورة هود بعد أن قال الله تعالى :
« وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء اقلعى
وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى
وقيل بعدا للظالمين » ٤٤/هود ..

(١) القرطبي ٤٤/هود

(٢) اى بغير نوى .. والحديث فى الكشاف والنسفى .. فى سورة التين ..

.. وهى فى حق نوح .. بكثرة ذريته واتباعه
.. ويكفى ان قادة الامم .. وائمة الدين ...
فى القرون الساقية كلهم من نسله ..

وقد دخل فى ذلك السلام:.. كل مؤمن
ومؤمنة .. الى يوم القيامة . كما دخل كل
كافر وكافرة ... فى المتاع والعذاب ...

نقصد « وامم ستمتعهم .. ثم يمسه منا
عذاب اليم » ..

وفسر البيضاوى البركة هنا .. بانها
زيادات فى نسلك ... لتصير آدمًا ثانيا (١) ..
وجاء فى القرطبى : فى كثير من كتب الحديث
.. الترمذى .. وغيره - ان جميع الخلق الآن
من ذرية نوح .. ثم ذكر عن الزهرى : ان
العرب وفارس والروم واهل الشام واليمن من
نسل سام .. وكل جلد اسود من حام ...
والباقيين من يافت (٢) ...

وقال الثعلبى .. قال رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - « ولد نوح ثلاثة : سام وحام
ويافت .. فسام ابو العرب وفارس والروم ..
وحام ابو السود .. ويافت ابو الترك ...

سام نوح ومن معه .. يوم خروجهم من
السفينة وشكر لله نصره وتأييده ... وقال :

« رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى
مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين
الاثبارا » ٢٨ نوح .

دعا لابويه .. لامك بن متوشـالح ..
وشمخا بنت انوش وكانا مؤمنين (٣) .. ثم دعا

للمؤمنين والمؤمنات .. وعن النبى - صلى الله
عليه وسلم - انه قال :

« من قرا سورة نوح .. كان من المؤمنين
الذين تدركهم دعوة نوح » ولمن دخل بيتى مؤمنًا
للمؤمنين والمؤمنات (٤) .

ولما حضر نوح الموت .. دعا ابنه ساما -
وهو بكره - فقال :
يابنى انهالك عن اثنتين .. واوصيك
باثنتين ...

فاما اللتان انهالك عنهما ... فالاشراك بالله
والكبر / فانه لا يدخل الجنة من كان فى قلبه
مثقال حبة من الشرك او الكبر .

واما اللتان اوصيك بهما .. فانى رايتهما
يكثران الولوج الى الله تعالى : قول لا اله
الا الله ... لو جمعت السموات والارضون
لخرقتها .. حتى تبلغ الى ربها .. ولو جعلت
لا اله الا الله فى كفة ميزان لرجحت بالسموات
وما فيها واوصيك بسبحان الله .. فانها صلاة
الخلق وبها يرزقون ...

والى مدينة « ارم ذات العماد » التى لم
يخلق مثلها فى البلاد المدينة التى استغرق
بناها ثلاثمائة سنة ... لتكون جنة الارض
... لنصحب فيها هودا مع قوم عاد ...
عمالقة التاريخ البشرى كله ... ولنتابع خطى
التاريخ مع المجموعة الثانية من الرسل الكرام -
حيث نلتقى بعهد هود - بصالح .. ثم نشرف
للقاء خليل الرحمن ... اول المسلمين ..
ابراهيم - عليهم جميعا السلام ..

(٢) القرطبى ٥٩/الاعراف

(٤) البيضاوى والكشاف ٢٨ نوح

(١) البيضاوى ٤٨/هود

(٣) البيضاوى والكشاف ٢٨ نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

(وكلا نقص عليك من
أنباء الرسل ما نثبت به
فؤادك وجاءك في هذه الحق
وموعظة وذكرى
للمؤمنين)

صدق الله العظيم

« ١٢٠ هود »

بسم الله الرحمن الرحيم

«الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد»

صدق الله العظيم

○ من نبأ هود
مع قوم عاد

مقدمة

ورث الأرض . بعد طوفان نوح -
عليه السلام - أبناء الثلاثة : سام وحام
ويافت فنزل سام في الشرق الأوسط
ونزل حام في القارة السوداء .. فهو
أبو السود .. أما يافت فقد ورث شمال
الأرض وغربها .

وإذا كان حديث رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - الذي ذكره أبو اسحاق
الثعلبي وابن كثير والذي قال فيه « ولد
نوح ثلاثة : سام وحام ويافت .. فسام
أبو العرب وفارس والروم ، وحام
أبو السود ، ويافت أبو الترك » (١) ..
فلعل قوله - عليه الصلاة والسلام -
أبو الترك يقصد به المنطقة الشمالية بعد
الطوفان .

وبين المثقفين خطأ شائع .. كثيرا
ما نقرأه في الصحف .. حيث يطلقون
على سكان أمريكا .. أبناء العم سام وهذا
قول واضح البطلان .. لأن الأمريكيين ..
هم أبناء العم يافت .. ولهذا ينتشر بينهم
اسم .. جنرال يافت .. وأما أبناء سام
فهم سكان منطقة الشرق الأوسط .

وقصتنا هذه التي نحن بصدد عرضها
.. تدور أحداثها في جنوب الجزيرة
العربية .. حيث يقيم نسل عاد ابن عوص
بن أرم بن سام بن نوح (٢) : .. وهو عاد
الأولى .. ومساكنهم في أرض الأحقاف (٣)
.. في شمال حضرموت وعمان .. كان
ملكهم من رمل عالج .. إلى شحر عمان (٤)
.. وعالج هي مناطق الصوالق العليا
والسفلى بجمهورية اليمن الديمقراطية
الشعبية .. وشحر عمان .. لعلها
« صحار » الآن على خليج عمان .. وقال
ابن عباس .. هو واد بين عمان ومهره (٥)
.. والمهرة منطقة في اليمن الجنوبية الآن .
والأحقاف الآن .. رمال هشة .. شديدة
النسومة .. يقال أنها تبتلع كل ما يقع
فوقها .. ويسمونها منطقة الرمال
المتحركة .. بالربع الخالي من المملكة
العربية السعودية .

وقد ذكر لي بعض من اشترك في حرب
اليمن عام ١٩٦٣ أنه شاهد بنفسه بعض
المظليين المصريين .. يهبط في هذا الربع
الخالي .. فابتلعته امواج الرمال .. كما
تبتلع الغريق مياه المحيط .

(١) تفسير ابن كثير ٩٤ الكهف .. نقلا من مسند الامام احمد .

(٢) النسفي والبيضاوي ٦٥ / الامراف .

(٣) الأحقاف : جمع حقف - وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء .. من احتوقف الشيء اذا هوج .

(٤) من البيضاوي والكشاف والنسفي ٦٩ / الامراف .

(٥) النسفي ٢١ / الأحقاف .

وقد ذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار
 .. في كتابه « قصص الأنبياء » أن السيد
 عبد الله بن أحمد بن عمر ابن يحيى العلوى
 .. من أهل حضرموت .. أخبره شخصيا
 .. أنه قام في جماعة الى إحدى المدن
 البائدة في شمال حضرموت ونقب فيها
 .. وعثر على بعض الأنية الجميلة ..
 المصنوعة من المرمر الجيد .. عليها كتابة
 بالخط المسامري .. ثم ترك التنقيب ..
 لمضايقة البدو له .. وعدم قدرته المالية .

اما ما ورد في كتاب القسطلاني في
 صفحة « ٣٣٣ » الجزء الخامس .. من
 أن قوم عاد كانوا يسكنون بين رمال مشرفة
 على البحر باليمن .. فهذا غير صحيح ..
 لأن الاحقاف تقع في شمال حضرموت ..
 اما القسطلاني .. فيجعلها في جنوبها ..
 على المحيط الهندي .. وهذا مخالف
 للواقع المعروف .

ولعل تحت هذه الرمال الآن .. ثروات
 علمية .. لو كشفت لكانت عظيمة القيمة
 .. تبين عن مدينة عظيمة مطمورة تحت
 تلك الكثبان .. فقد أخبرنا الله تعالى عن
 تمكين هؤلاء القوم - قوم عاد - في العلوم
 والمكتشفات وقدرتهم على انشاء المصانع
 .. وبناء الآيات .. وتشبيد المدن .. ذات
 الصمد .. مما لا يوجد مثله في البلاد ..
 اقرا قوله تعالى عنهم :

« ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه ،
 وجعلنا لهم سمعا وابصارا وافئدة » ٢٦/
 الاحقاف . واقرا ايضا قول هود - عليه
 السلام - لهم :

« اتبنون بكل ريع آية تعبثون ،
 وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون »
 ١٢٨ - ١٢٩ / الشعراء . وتأمل كذلك ..
 قوله تعالى :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات
 العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد »
 ٦ - ٨ / الفجر .



١. من أشد مناقرة

ذراع (١) « وقال هذا أيضا صاحب تفسير الكشاف في سورة الفجر . ومن حقنا .. أن نتخيل قوتهم .. عندما نرى الرجل منهم يقتلع الصخرة الضخمة من الجبل بيده (٢) وزاد الكشاف .. أنه كان يلقيها على الحى فيهلكهم .. بل وذكر صاحب تفسير القرطبي .. حول معنى الآية « وزادكم في الخلق بسطة » ٦٩ / الاعراف .. ذكر رواية عن وهب .. تقول :

كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة .. وكان مين الرجل يفرخ فيها السباع .. وكذلك مناخرهم .. كما ذكر رواية عن أبى هريرة .. قال « كان الرجل من قوم عاد .. يتخذ المصرعين من حجارة .. لو اجتمع عليها خمسمائة رجل من هذه الأمة .. لم يطيقوه .. وكان أحدهم يغمر الأرض برجله .. فتدخل فيها (٣) .

أقول لولا أن الله - عز وجل - قال في وصفهم « وزادكم في الخلق بسطة » .. لقلنا أن في تلك الأقوال مبالغة لا يقبلها العقل .. ولكن كيف يقف العقل .. أمام قدرة القادر ، وقوة القوى ؟ ..

لقد وفر الله لهم .. كل أسباب السعادة في الدنيا من رزق وفير .. وخير كثير .. فقد كانوا .. أهل بساتين وزرع وعمارة .. وكانت

كان قوم عاد من المترفين في الحياة الدنيا .. « واترفناهم في الحياة الدنيا » ٣٣ / المؤمنون .. بواهم الله أرضا .. تدر عليهم الخيرات .. وتنبت لهم الكلا والعشب الكثير .. ويمكن لهم في ديارهم .. ينون الآيات المعجزات .. والقصور الشامخات .. وأبراج الحمام .. وأنشأوا المصانع الضخمة .. مما يدل على أنهم كانوا أهل علم دنيوى .. وهذا واضح .. في قول رسولهم لهم : « اتبنون بكل ريع آية تعبشون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » ١٢٨ - ١٢٩ / الشعراء .

ويدل على كثرة عددهم .. ما ذكره جميع المفسرين من أن عدد الناجين منهم من الهلاك كان أربعة آلاف نفس . لقد أعطاهم الله سبحانه فوق عطائه المادى .. من القوة وضخامة الأجسام .. مالم يعط غيرهم ..

يقول الله تبارك وتعالى - عنهم « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة » ٦٩ / الاعراف أى زادكم عظما وطولا .. وقوة وشدة .

وقد اجمع المفسرون - حول تلك الآية - على أنهم كانوا طوال الأجسام بدرجة تخرج عن نطاق العقل .. فقالوا أن أقصرهم كان طوله ستين ذراعا وأطولهم مائة ذراع .. بل وقال الامام النسفى .. كان طول الرجل أربعمائة

(١) النسفى ٨ / الفجر .

(٢) من الكشاف والبيضاوى والنسفى ١٥ / فصلات .

(٣) القرطبي ٦٩ / الاعراف .

بلادهم اخصب البلاد .. ووهبهم تلك الأجسام
القوية .. والعقول المفكرة المدبرة .. وفجر
لهم من وسائل العلم .. ما يمكنهم من الرفاهة
.. وبلهنية العيش ..

واری کل هذا واضحا في قوله تعالى عنهم :
« وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة »
٢٦/الأحقاف وتلك هي مفومات الفكر والعلم .

ولكنهم بدلا من شكر الله على نعمه التي
لا تحصى .. وآلائه التي لا تستقصى .. وحمده
على هذا الفضل الواسع العريض .. صدق
عليهم قول اللطيف الخبير « أن الانسان ليطغى
.. أن رآه استغنى » .

فطفوا وبغوا .. والسدوا في الارض ..
بطشا وظلما .. وكفرا .. وعتوا .. يقول لهم
رسولهم :

« واذا بطشتم بطشتهم جبارين » ١٣٠/
الشعراء .

والشر كالبيئر .. ان زلت القدم في حافته
.. لا بد ان يهوى صاحبها الى العاغ .. فزين
لهم الشيطان سوء أعمالهم .. فنسوا ربهم
وخالقهم ورازقهم .. واتخذوا اصناما يعبدونها
.. وقد ورد عن ابن عباس ان آلهتهم كانت
ثلاثة : صداء - وصمود - والهباء (١) .



٢ رسول

.. من قوم نوح « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم في الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » ٦٩/ الاعراف .
قالوا : يا هود .. كيف تنهانا ان نعبد ما وجدنا عليه آباءنا ؟ .. لقد أصابتك آلهتنا .. بالخيل والجنون لما عبتنا .. وحاولت صرفنا عن عبادتها .. فانت مجنون « ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » ٥٤/ هود .. اى مستك الآلهة بخيل وجنون .. ظنا منهم .. ان هذا الاتهام .. يصرف الناس عن اتباعه .. والاستماع الى دعوته ..

□ □ □

وليس بعجب .. من أولئك .. ان يسموا التوبة والاستغفار .. خيلا وجنونا .. وهم عاد .. أعلام الكفر .. وأوتاد الشرك .. قوم جفاة غلاظ الأكباد .. لا يبالون بالبهت .. ولا يلفتون الى النصح .. ولا تلين شكيמתهم للرشد .. فأعلن لهم براءته .. من تلك الآلهة .. التى لا تضر ولا تنفع .. ولا قدرة لها على أن تمسه بسوء « قال أنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيدونى جميعا ، ثم لا تنظرون » ٥٤ - ٥٥/ هود .. أى لا تؤجلون تدبيركم ضدى . تحداهم هود بمفرده .. رجل واحد .. يواجه بهذا التحدى أمة عطاشا .. الى اوراقه دمه .. يرمونه عن قوس واحد .. وما ذلك .. الا لثقتة بربه .. وانه يعصمه منهم فلا تنشب فيه مخالفهم .. فناصية كل دابة على الأرض .. بيده وحده فقال « انى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة الا هو أخذ بناصيتها » ان ربى على صراط مستقيم « ٥٦/ هود ..

ارسل الله سبحانه - اليهم هودا - عليه السلام - وكان هود .. من احدى قبائلهم يقال لها قبيلة - خلود - نسبة الى خلود ابن عاد بن عوض بن ارم بن سام بن نوح ..

وكان من أوسطهم نسبا .. وأصحبهم وجها .. وكان فى مثل أجسامهم .. أبيض .. طويل اللحية .. وهو .. هود بن عبد الله بن رياح بن الخلود بن عاد بن عوض بن ارم بن سام بن نوح فكان بين هود ونوح سبعة آباء ..

دعاهم الى عبادة الله .. وأمرهم بتوحيده ونهاهم عن الظلم والظفیان .. والبطش والكفران : فابوا .. وقالوا « من أشد منا قوة » ؟

ويرد عليهم القرآن الكريم .. ردا عقليا منطقيا .. نقوله « أولم يروا ان الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة » . هاجموا هودا بالسب والشتم .. فكان يلقاهاهم بالعفو والصفح .. قالوا له :

« انا لنراك فى سفاهة ، وانا لنظنك من الكاذبين ، قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين » ٦٦ - ٦٨/ الاعراف .

وهكذا يعلم الله - سبحانه وتعالى - الدعاة .. كيف يخاطبون السفهاء .. وكيف يغضون عن اذاهم .. ويتجاوزون عن سيئاتهم .. ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم .. من سب وأذى .

وظل هود يذكرهم بالآء الله ونعمه .. وأفضاله عليهم وكرمه .. ويخوفهم بطشه وعدابه .. ويضرب لهم المثل .. بمن سبقهم

وقد خصى الناصية .. لان الحيوان ..
 يتقاد لك اذا امسكت بشعرنا صيته .. وكانت
 العرب .. تجز ناصية الأسير .. اذلالا له ..
 وقال الترمذى الحكيم .. فى « نواذر الأصول »
 حول قوله تعالى « ما من دابة الا هو آخذ
 بناصيتها » ..

وجهه عندنا .. أن الله تعالى .. قدر
 مقادير أعمال العباد .. ثم نظر اليها .. ثم
 خلق خلقه .. وقد نفذ بصره فى جميع ما هم
 فيه عاملون .. من قبل أن يخلقهم .. فلما
 خلقهم .. وضع نور تلك النظرة .. فى نواصيهم
 .. فذلك النور آخذ بنواصيهم .. تجريهم الى
 أعمالهم المقدرة عليهم يوم المقادير ..

وخلق الله المقادير .. قبل أن يخلق
 السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .. رواه
 عبد الله بن عمرو بن العاص .. قال .. سمعت
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول :

« قدر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات
 والأرض بخمسين ألف سنة » .. ولذلك قويت
 الرسل .. وصاروا من أولى العزم .. لأنهم
 لاحظوا نور النواصي .. وايقنوا أن جميع الخلق
 منقادون .. بتلك الأنوار الى ما نفذ بصره -
 سبحانه - فيهم من الأعمال .. فأوفرهم حظا
 من الملاحظة .. أقواهم عزما .. ولهذا قال
 هود : « فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ، انى
 توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة الا هو
 آخذ بناصيتها » « ١ هـ ويعلق القرطبى على
 هذا فيقول (١) .

سميت ناصية .. لان الأعمال .. قد نصت
 وبرزت من غيب الغيب .. فصارت منصوطة
 فى المقادير قد نفذ بصر الخالق فى جميع حركات
 الخلق بقدرته .. ثم وضعت حركات كل من
 دب على الأرض حيا فى جبهته .. بين عينيه ..
 فسمى ذلك الموضع منه ناصية .. لأنها تنص
 حركات العباد بما قدر .. فالناصية مأخوذة
 بمنصوص الحركات .. التى نظر الله - تعالى -
 اليها .. قبل أن يخلقها .. ووصف الله ناصية
 أبى جهل .. فقال « ناصية كاذبة خاطئة »
 يخبر سبحانه - أن النواصي .. فيها كاذبة
 خاطئة ..

تحداهم هو بمفرده .. لم تفزعه قوتهم ..
 او يرهبه بطشهم وجبروتهم ..

وهكذا يفعل الايمان بنفس المؤمن .. بمنحه
 قوة .. تصفر امامها كل قوة .. فالانفعال
 بالايمان أشبه بانفعال الدجاجة الضعيفة ..
 اذا اقرب ثعبان .. مثلا .. من فراريجهما
 الصفار .. تنقلب الى نسر كاسر .. فتهاجم
 العدو .. وتدميه نقرا وضربا - على الرغم من
 قوته وضعفها - حتى تقتله .. او يفر منها نجاة
 بنفسه من الهلاك ..

وقد تحدى نوح قومه .. بمثل هذا
 التحدى .. من قبل هود .. حيث قال لهم
 « ثم اقضوا الى ولا تنظرون » ٧١ يونس ..

نفس القوة .. ونفس اليقين .. ونفس
 الايمان .. وبنفس التحدى ..

لم تفدهم هذه المواعظ .. وتلك الزواجر
 وكان قلوبهم وعقولهم فى أكنة مما يدعوه اليه
 .. ولم يزدادوا الا اصرارا على كفرهم ..
 وتمسكا بأصنامهم .. وغلوا فى عنادهم وطفيتهم
 .. بل ترقوا فى تحديه .. قائلين « فأتنا بما
 تعدنا ان كنت من الصادقين » ٧٠ الاعراف
 يفصدون قوله لهم « انى اخاف عليكم عذاب يوم
 عظيم » ١٣٥ الشعراء . وحينئذ قال لهم هود
 غاضبا « قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب »
 والرجس .. هو العذاب . وقد قال : وقع ..
 بلفظ الماضى .. يقينا منه .. بأن العذاب واقع
 .. والبلاء ما له من دافع ..

واشتد فى لومهم .. وتأييهم .. وتسفيه
 احلامهم .. وبيان ما هم فيه .. من ضلال ..
 بترك التوجه الى الله .. الخالق الرازق ..
 القائم على كل نفس بما كسب .. والركون الى
 أولياء وشفعاء ووسطاء ... رمزوا لهم بتمثيل
 وصور لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ..
 « أتجادلوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم
 .. ما أنزل الله بها من سلطان ، فانتظروا ،
 انى معكم من المنتظرين » ٧١ الاعراف .

هذه الأسماء ... مثل العزى .. من العزة
 .. واللات .. من الالهية .. وليس لها من
 العزة والالهية شيء ..

٣ وفد عاد إلى البيت الحرام

وقد ورد عن الحسن بن علي .. رضى الله
عنهما .. أنه وفد على معاوية .. فلما خرج من
عنده .. قال له بعض حجاب معاوية .. يا بن
ننت رسول الله .. انى رجل ذو مال ..
ولا بولد لى ... فعلمنى شيئا .. لعل الله
برزقنى ولدا .. فقال له الحسن .. عليك
بالاستغفار .. فكان يكثر الاستغفار .. حتى
كان يستغفر فى اليوم سبعمائة مرة .. فولد له
عشرة بنين .. فبلغ ذلك معاوية فقال للحاجب ،
هلا سألته مم قال ذلك ؟ .. فوفد الحسن ..
وفدة أخرى .. فسأله الرجل ... فقال : ألم
تسمع قول هود « وبزذكى قوة الى قوتكم »
وقول نوح « وبمددكم بأموال وبنين » ؟ ..

أمسك الله عن قوم عاد ثلاث سنين
.. حتى جهدوا وأشرفوا على الهلاك .. وفى مثل
تلك الحال .. كانوا يلجأون الى طلب الفرج من
الله .. عند بيته المحرم .. مسلمهم وكافرهم
.. وكانوا جميعا .. يعظمون بيت الله ويقدمون
سكانه « العماليق » .. فى هذا الحين .. وقد
سمى أهل مكة العماليق .. لأنهم كانوا من نسل
عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح .. وسيدهم
اذ ذاك .. رحل يقال له معاوية بن بكر ..

ذكر المفسرون .. ان قوم عاد .. جهزوا
وفدا .. يتوجه الى البيت الحرام .. لطلب
الفرج من رب البيت (١) .. وكان على رأس
الوفد .. قيل بن عنزة .. والقيم بن هزال بن
هزيل .. وغبيل ابن ضد بن عاد الأكبر ..
ولقمان بن عاد بن ضد بن عاد الأكبر .. ومعهم

عتا قوم عاد .. وعصوا رسولهم ..
وكذبوا وجحدوا بآيات ربهم واتبعوا أمر كل
جبار عنيد من ملا قومهم ... وكانوا أصحاب
زرع وبساتين .. وأنعام وبنين .. كما قدمنا
« واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام
وبنين وجنات وعيون » ١٣٢ - ١٣٤ / الشعراء /
فكانت أول حاجتهم الى الماء .. يروون به
مزارعهم وحدائقهم .. ويشربون منه ..
ويسقون أنعامهم ...

فأمسك الله عنهم المطر .. مدة من الزمن
.. مروا فيها بمراحل .. من الجهد المضنى ..
والهلاك المحقق .. وكانوا كلما اشتد بهم الجهد
.. ذكرهم هود .. بأنه لا نجاة لهم الا بالعودة
الى الله .. والاستغفار مما ارتكبوا من الآثام
.. مبينا لهم .. انه ناصح أمين .. لا يبغي لهم
الا سعادة الدنيا .. ونعيم الآخرة « ويا قوم
استغفروا ربكم ، ثم توبوا اليه يرسل السماء
عليكم مدرارا ، وبزذكى قوة الى قوتكم ولا تتولوا
محرمين » ٥٢ / هود .

وجاء فى جميع التفاسير .. حول هذه الآية
« وبزذكى قوة الى قوتكم » أن الله منع عنهم
المطر .. ثلاث سنين .. وأعقم أرحام نسائهم
.. ثلاثين سنة .. وقالوا ان المقصود
بزيادة القوة .. اى يمنع العقم عن نسائكم
فتنجبون البنين الذين يقوى بهم جانبكم ..
وتزدادون بهم قوة ..

واللاحظ فى قصة نوح وهود .. هو طلب
الاستغفار من قومهم .. وبين ان الاستغفار
.. له اثر كبير .. فى زيادة الفيث والبنين .

(١) جاء ذكر هذا الوفد فى جميع كتب التفسير تقريبا ٧١/٧٢ / الامراف .

مرثد بن سعد .. وكان مرثد هذا مسلما يكرم
اسلامه (١) ..

وخرج معهم الكثير من قومهم .. وبلغ عدد
الوفد .. سبعين رجلا ..

وتحرك ركب الوفد .. حتى وفدوا على
مكة بعد مسيرة شهر .. ونزلوا عند سيدها ..
معاوية بن بكر - وكان بظاهر مكة .. خارج
الحرم .. فآكرم وفادتهم .. وكانوا اخواله
وأصهاره .. فقدم لهم الطعام والخمر ..
وطاب لهم المقام في مكانهم هذا شهرا .. ياكلون
.. ويمقرون الخمر .. وتغنيهم « الجرادتان »
وهما جارتان لمعاوية بن بكر .. سيد مكة ..
فلما رأى معاوية طول مقامهم ، ولم يهزم
ونسيانهم المهمة التي وفدوا من اجلها .. وقد
بعثهم قومهم .. يستغيثون من البلاء الذي
أصابهم .. شق ذلك عليه .. وقال في نفسه :
لقد هلك اخوالي وأصهارى .. وهؤلاء مقيمون
عندى .. وهم ضيفى .. والله ما أدرى كيف
أصنع ؟ .. انى لأستحي أن أمرهم بالخروج
الى ما بعثوا اليه .. فيظنوا انى ضقت بهم
وبضيافتهم .. وقد هلك قومهم جهدا
وعطشا ..

وهذاه تفكيره .. فالف شعرا غنته لهم
الجرادتان وهم سكارى :

الا يا قبيلا ويلك قم فهينم (٢)
لعل الله يمنحنا الفما

فيسقى أرض عاد ان عاد
قد أمسوا لا يبينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو
به الشيخ الكبير أو الفلاما

وقد كانت نساؤهمو بخير
فقد أمسست نساؤهمو عيامي

وان الوحش ياتيهم جهارا
ولا يخشى لمادى سها

وانتم ها هنا فيم اشتهيتهم
نهاركمو وليلكممو تما

فقبح وفدكم من وفد قوم
ولا لقوا التحية والسلاما

وهنا تنبهوا .. وقال بعضهم لبعض ..
يا قوم .. لقد بعثنا قومنا .. يستغيثون بنا ..
من البلاء والهلاك .. فهيا ندخل الحرم ..
لنستسقى لهم .. وقد ابطانا عليهم .. فقال
مرثد بن سعد .. الذى آمن بهود سرا : انكم
والله .. لا تسقون بدعائكم .. ولكن ان اطعتم
نبيكم .. وانبتم الى ربكم .. واستغفرتموه ..
سقيتم فاطهر اسلامه لهم .. فطلبوا من معاوية
.. أن يحبس عنهم مرثد بن سعد .. حتى
لا يدخل معهم الحرم .. لانه تبع دين هود ..
وترك دين آبائهم .. وقال عنه جهامة « بن
الخبيري » خال معاوية :

ايا سعد « فأنك من قبيل
ذوى كرم وأمك من ثمود (٣)
فانا لا نطيعك ما بقينا
ولسنا فاعلين لما تريد
اتامرنا لتترك دين رقد
ورمى آل ضد والعبود
وتترك دين آباء كرام
ذوى راي وتببع دين هود

وذهب الوفد الى البيت الحرام .. وقام
رئيسهم .. قيل ابن عنزة يدعو .. فقال :
اللهم لم آجىء لمريض فأداويه .. ولا لأسير
فأفديه .. اللهم أسق عادا ما كنت تسقيهم
.. فأنشأ الله سبحانه - سبحانه ثلاث :
واحدة بيضاء .. وواحدة حمراء .. وواحدة
سوداء .. وسمع مناد يناديه من السحاب
.. أن يا قبيلا .. اختر لنفسك ولقومك واحدة
من تلك السحاب .. فقال : لقد اخترت
السوداء .. فانها أكثر السحب ماء .. (٤) .

وقال ابو اسحاق الثعلبي : ان قيل بن
عنزة .. لما اختار السحابة السوداء .. ناداه
المنادى من السحاب :

لقد اخترت رمادا رمدا .. فلم تبني من
آل عاد احدا .. لا والدك تتركه ولا ولدا ..
الا جعلتهم رميما همدا ..

(١) الكشف والبيضاوى والنسفى ٦٦ / هود .

(٢) الهينة : الصوت الخفى .

(٣) ثمود : بلد شمال حفر موت الآن .

(٤) بهذا المعنى فى الكشف والبيضاوى والنسفى ٧٢/٧١ الامراف .

٤ ريج صرصر عاتية

« فارسنا عليهم ريحا صرصر في أيام
نحسات » ١٦/فصلت .

و « وأما عاد فاهلكوا بريج صرصر عاتيه ،
سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما »
٦/الحاقة .

و « أنا أرسلنا عليهم ريحا صرصر في يوم
نحس مستمر » ١٩/القمر .

ونلاحظ أن اسم « صرصر » ورد في ثلاثة
مواضع .. بخلاف الأسماء الأخرى .

والريح الصرصر .. هي الريح الحلزونية
العاصفة .. المهلكة لكل شيء ..

وقد ورد في القرآن الكريم .. ريج أخرى
.. نصف صرصر .. « كمثل ريج فيها صر »
أصاب حوث قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته »
١١٧/آل عمران .

وكما لاحظنا أن الريح الصرصر .. تهلك كل
شيء .. نلاحظ أيضا أن الريح « الصر » تهلك
الزرع فقط .

تتابعت عليهم تلك الريح .. سبع ليال ..
وثمانية أيام حسوما .. أى متتابعة .. حتى
أهلكتهم جميعا .. واجمع المفسرون .. على
أنها كانت في آخر شوال من صبيحة يوم الأربعاء
.. إلى مساء الأربعاء التالي .. وقال ابن
عباس : ما هذب قوم الا في يوم الأربعاء (١)
أسك الله تعالى عنهم المطر .. وسلط
عليهم كثرة الرياح من غير مطر .

أصبح قوم عاد .. في ديارهم .. وقد
ساق الله عليهم السحابة السوداء .. التي
اختارها .. فيل بن عنزه .. دخلت عليهم ..
من واد .. يقال له .. المفيث ..

فلما راوها .. فرحوا .. واستبشروا ..
وظنوها سحابة ممطرة .. تروى زرعهم ..
وتسقى انعامهم .. وتنقذهم من الهلاك الذي
هم فيه ..

« فلما راوه عارضا مستقبلا أوديتهم ،
قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم
به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بامر
ربها » ٢٤ - ٢٥/الأحقاف .

وكان أول من عرف ما فيها .. من العذاب
والدمار .. امرأة من قوم عاد .. لما رأت
السحابة .. صرخت .. ثم صرعت .. فلما
أفاق .. سألوها عن سبب صراخها ..
قالت : رأيت ريحا .. فيها كسهب النار ..
أمامها رجال غلاظ يقودونها ..

وقد سمى الله سبحانه - هذه الريح ..
التي أهلكت عادا .. بأسماء مختلفة ، منها :

١ - الصيحة « فاخذتهم الصيحة بالحق »
٤١ المؤمنون .

٢ - العذاب الأليم « بل هو ما استعجلتم به
ريح فيها عذاب أليم » ٢٤ الأحقاف .

٣ - الريح العقيم « وفي عاد اذ أرسلنا عليهم
الريح العقيم » ٤١ الداريات .

٤ - وسماها الصرصر .. كما في الآيات :

(١) في جميع كتب التفسير تقريبا ١٦ / فصلت - والنهي من القرطبي .

« كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ، أنا
ارسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس
مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر »
١٨ - ٢٠ / القمر .

وقال اولو العلم : بعث الله على عاد الريح
العقيم ، فلما دنت منهم .. نظروا الى الابل
والرجال تطير بهم الريح بين السماء والارض ..
فتداروا في البيوت ، فلما دخلوها .. دخلت
عليهم الريح .. فأخرجتهم منها ، فهلكوا .. فلما
أهلكهم الله تعالى - أرسل عليهم طيورا سودا
فالقتهم في البحر .

لم تدع الريح احدا من عاد .. الا أهلكته
.. وكان هود ومن معه قد اعتزلوا .. في
حظيرة (٢) ما يصيبهم من الريح الا ما يلين
جلودهم ، وتلذبه الأنفس ، وأنها من عاد لطنع
.. فتحملهم ما بين السماء والارض .. وتدفعهم
بالحجارة .. حتى هلكوا .

خرجت الريح على عاد من الوادي .. فقال
تسعة رهط منهم ، أحدهم الخلجان .. وكان
زعيمهم تعالوا .. حتى تقوم على رأس الوادي
فنزلوها .. فجعلت الريح تدخل الى تحت
الواحد منهم ، فتحمله .. ثم ترمي به فيندق
عنقه .. حتى لم يبق الا الخلجان .. فوقف
وقال :

لم يبق الا الخلجان نفسه
يا لك من يوم دهاني أسسه

فقال له هود - عليه السلام - ويعك
يا خلجان .. أسلم تسلم .. فقال مالى عند
ربك .. اذا اسلمت ؟ .. قال : الجنة ..
قال : مالى بها .. فأتت الريح فالحقته
بأصحابه .. وأهلكته ..

□ □ □

وتذكرنا صاعقة عاد بموقف بين قريش ..
ورسول الله - صلى الله عليه وسلم ..

فقد بعثت قريش عتبة بن ربيعة - وكان
أحسنهم حديثا - ليكلم رسول الله - صلى الله
وعليه وسلم وينظر ما يريد .. فاتاه .. وهو -
عليه السلام - في الحطيم .. فلم يسأل شيئا الا
أجابه .. ثم قرأ - عليه السلام - من فصلت
الى قوله تعالى :

واذا أراد الله بقوم شرا .. حبس منهم
المطر .. وسلط عليهم كثرة الرياح .. واذا أراد
بقوم خيرا .. أرسل عليهم المطر .. وحبس
منهم كثرة الرياح (١) .

وقال أمية بن الصلت :

فاهلكوا بمذاب حص دابره
فما استطاعوا له صرفا ولا انتصروا
وقال عبد العزيز بن زرارہ الكلابي :

فسرق بين بينهمو زمان
تتابع فيه أيام حسوم

أرسل الله سبحانه - عليهم تلك الريح
الحلزونية العاصفة .. التي نرى بعضها الآن
.. مخففة جدا .. في الأيام التي مازالت تحمل
اسم « حسومات » في آخر فصل الشتاء ..
ويقولون أيام العجوز .. وذلك ان عجوزا من
عاد .. توارت في سرب .. فانترعتها الريح ..
في اليوم الثامن فأهلكتها .. وقيل أيضا .. هي
أيام العجز .. لأنها عجز الشتاء .. أي آخره .

وذكر الكشف اسماءها .. وهي :

الصن ، والصنبر ، والوبر ، والأمير ،
والؤتمر ، والمعلل ، ومطفىء الجمر ، وقيل :
مكفىء الظعن (٢) .

أرسل الله عليهم تلك الريح .. جبارة عاتية
.. فكانت تنزع الناس من داخل منازلهم الى
الخارج فتلف الرجل .. صاعدا به .. في
طبقات الجو العليا .. حتى يكون للرأى في حجم
العصفور .. ثم تأتيه ريح عكسية .. من أعلاه
.. فتدكه في الأرض .. مرتطما .. من أسفل
عجزه .. فيندك رأسه .. كاسرا عظمتي
الترقوة .. ويستقر الرأس من داخل الجسم
على استه .. فتراه كالقذح المجوف .. من
الداخل ..

هذا التشبيه الرائع .. واضح في قوله
تعالى :

« واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية ،
سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ،
فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل
خاوية » ١٧/٦ الحاقة .. فهم لطول أجسامهم
كانهم جدوع نخل . وتخيل أيضا .. نفس
التشبيه .. في قوله سبحانه :

(١) القرطبي ١٦ / فصلت .

(٢) الكشف ٦ / الحاقة .. والظعن : هو الجمل الذي عليه هودج .

(٣) النسفي والبيضاوي ٢٥ / الاحقاف من ابن عباس .

يكن لهم عليها سبيل .. ثم قرأ « بريح صرصر عاتية » (٤) .

وأفنى الله قوم عاد .. سوى من بقى منهم بمكة ونواحيها .. وقد أصاب قيل بن عنزة - رئيس وفدكم الى البيت الحرام ما أصابهم ويصل بنا البحث الى مدينة أرم .. التي صدرنا بها نبأ هود - عليه السلام .

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، أرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد » ٨/١ / الفجر بعض المفسرين يقول : أن ذات العماد .. صفة لقوم عاد بمعنى أن أجسامهم طويلة فارهة .. ولكن أغلب المفسرين .. على أن المقصود مدنتهم .. مدينة أرم .. واستدلوا بقراءة ابن الزبير - لعاد أرم - على الإضافة .. أي عاد الأولى أصحاب مدينة أرم ..

ولهذه المدينة وصف غريب .. قرأته في النسفي .. والبيضاوي .. والكشاف .. وقالوا : أن الله لم يخلق مثلها على سطح الأرض .. وموضوعها : أنه كان لعاد .. أنان .. شداد وشديد .. فملكا وقهرا ثم مات شديد .. وخلص الأمر لشداد .. فملك الدنيا .. ودانت له ملوكها .. فسمع بذكر الجنة .. فقال : ابني مثلها .. فبنى مدينة أرم .. في بعض صحاري عدن .. بناها في ثلاثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة .. وهي مدينة عظيمة .. قصورها من الذهب والفضة .. وأساطينها من الزبرجد والياقوت .. وفيها أصناف الأشجار والأنهار .. ولما تم بناؤها .. سار اليها ناهله .. فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة .. بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا (٥) ..

وهن عبد الله بن قلابه .. أنه خرج في طلب ابل له ، فوقع على تلك المدينة فحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره معاوية بن أبي سفيان .. فاستحضره .. وسأله عن ذلك .. فقص عليه ما رأى .. وما حصل .. فبعث معاوية الى كعب .. فسأله .. فقال كعب : انها أرم ذات العماد .. وسيد خلها رجل من المسلمين

« فإن اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل

صاعقة عاد وثمود » ١٣ / فصلت . فناشده عتبة بالرحم وأمسك على فيه .. ووثب مخافة أن يصب عليه العذاب .. فأخبر قريشا بذلك .. وقال : لقد عرفت السحر والشعر .. فوالله ما هو ساحر .. ولا شاعر .. فقالوا : لقد صبات .. أما فهمت منه كلمة ؟ فقال : لا

.. ولم اهتم الى حواره .. فقال عثمان بن مظعون - وكان واقفا - ذلك والله .. لتعلموا أنه من رب العالمين .. ثم بين لهم ما ذكر من صاعقة عاد وثمود (١) وذكر القرطبي : أن سبعة من قوم عاد .. عندما هاجمتهم الريح .. حفروا حفرا .. وقاموا فيها .. ليردوا الريح .. وسمى منهم ستة من أشد عاد .. وأجسمها .. منهم : عمرو بن الحلي ، والحرث ابن شداد ، والهلثام ، وخلقجان بن سعد .. فأولحوا عبائهم في شعب نين حلين .. ثم اصطفوا على باب الشعب ليردوا الريح عن في الشعب من العسال .. فجعلت الريح تحففهم - أي تصرعهم رجلا .. رجلا فقالت امرأة عاد :

ذهب الدهر وعمرو بن حلي والهنيات

ثم بالحرث والهلثام طلاع الثنيات

واللهي سيد مهيب

الريح أيام البليات (٢)

كما ذكر القرطبي : عن محمد بن كعب .. عن ابنه .. قال :

قال النبي - صلى الله عليه وسلم - انتزعت الريح الناس من قبورهم . وقد سميت تلك الريح بالدبور .. لأنها قطعت دابرهم كما في الصحيح .. عن النبي - صلى الله عليه وسلم : « نصرت بالصبا .. وأهلكت عاد بالدبور » (٣) .

وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ما أرسل الله سفينة من ريح .. إلا بمكيال ، ولا قطرة من مطر .. إلا بمكيال ، إلا يوم عاد ونوح .. فان الماء يوم نوح .. طفى على الخزان .. فلم يكن لهم عليه سبيل .. ثم قرأ .. « أنا لما طفى الماء حملناكم في الجارية » .. وان الريح يوم عاد .. عنت على الخزان .. فلم

(١) النسفي والكشاف ١٣ / فصلت .

(٢) القرطبي ٢٠ / القمر .

(٣) القرطبي ٤١ - ٤٢ / الداريات .

(٤) الكشاف ٦ / العاقه .

(٥) النسفي والبيضاوي والكشاف ٧ / الفجر .

في زمانك .. احمر .. أشقر .. قصير ..
على حاجبه خال .. وعلى عقبه خال .. يخرج
في طلب أبيل له .. ثم التفت .. فابصر ابن
قلاية .. فقال : هذا هو والله ذلك الرجل (١) .

وقال مرثد بن سعد - حين بلغه خبر هلاكه
عاد - شعرا منه :

عصت عاد رسولهم فامسوا
عطاشا ما تبلهم السماء
وسير وفدكم شهرا ليسقوا
فاردفهم من العطش النساء
ألى ان قال :

واني سوف الحق آل هود
واخوته اذا جاء المساء

ثم انه لحق بهود ومن معه .

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا
معه برحمة منا » ٥٨/هود .

وأجمع المفسرون .. على ان الناجين معه
.. كانوا أربعة آلاف .. نجاهم الله - سبحانه
- برحمة منه .. ولن ينجو أحد .. الا برحمة
الله تعالى .

وفي صحيح مسلم والخارى وغيرهما ..
عن النبي - صلى الله عليه وسلم .

« لن ينجي أحدا منكم عمله » قالوا : ولا
انت يا رسول الله ؟ قال :

« ولا انا .. الا ان يتفمديني الله برحمته (٢)

● وقال ابو الطفيل .. عامر بن وائلة :
سمعت عليا - رضى الله عنه - يقول لرجل من
حضر موت : هل رأيت كنييا احمر .. يخالطه
مدرة حمراء .. وأراك .. وسدر كثيرة ..
بناحية كذا وكذا من حضر موت ؟ قال : نعم
يا امير المؤمنين .. وانك لتنعتني لى نعت رجل
قد رآه .. قال : لا .. ولكنى حدثت عنه .
قال : الحضرمي : وما شأنه يا امير المؤمنين ؟

فقال : فيه قبر نبي الله هود - عليه
السلام (٣) .

□ □ □

(١) الكشف والبيضاوى والنسفى ٧ / الفجر .

(٢) القرطبي ٥٨ / هود .

(٣) ابو اسحاق الثعلبي - والكثيب : الرمال . والسن : شجر النبق .

بسم الله الرحمن الرحيم

«وإما ثمود فهديناهم فاستجبوا لعمى على الهدى»

(صدق الله العظيم)

○ من نبأ صالح
مع قوم ثمود

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أرضهم بالحجر بين الحجاز والشام الى وادى القرى .. ومدائن صالح .. ظاهرة الى اليوم .. فى مكان يعرف هناك باسم « فج الناقة » ..

يقول المسعودى - رحمه الله : رممهم باقية الى اليوم .. وآثارهم بادية .. فى طريق من ورد من الشام وحجر ثمود .. فى الجنوب الشرقى من الأردن .. وهى مجاورة لخليج العقبة . ولفظ الحجر .. يحتمل بعض المعانى:

فالحجر : حجر الكعبة .. أو الحرام .. لقوله تعالى « وحجرا محجورا » .. أى حراما محرما .. والحجر أيضا : العقل « هل فى ذلك قسم لذى حجر » أى لذى عقل .

كما أن الحجر : حجر القميص .. وكذلك الحجر : أنثى الفرس . والحجر : ديار ثمود .. وهى المدينة التى كانوا فيها .

وقال قتادة : هى ما بين مكة وتبوك .. وهو وادى ثمود (١) .. كما ذكرنا .. وكل تلك الأقوال كما نرى - متفقة على المكان .

ولكن اختلف المفسرون والمستشرقون فى أصلهم .. وانما الأغلب .. والاقرب الى المنطق .. أنهم من نسل بعض من بقى من قوم عاد .. الذين كانوا ضمن الوفد الموفد الى بيت الله الحرام بمكة .. للاستسقاء لقومهم .. كما ذكرنا فى نبأ هود ..

هاجروا الى الشمال من مكة .. بعد هلاك قومهم بالاحتقاف .. واستوطنوا الحجر فى

الدنيا صراع دائم بين الحق والباطل .. كلما انتهت دولة الباطل وقامت كلمة الحق .. دار الزمن دورته .. وأعمل ابليس حيلته ، فما يلبث الباطل أن يزهو ويزدهر .. حتى يظن الناس أن الحق قد انتهى .. والخير قد مضى وانقضى .. ولكن دولة الباطل ساعة .. سرعان أن تتلاشى أمام قوى الحق .. وأهل الخير دائما كشجرة طيبة .. تضرب جذورها فى أعماق الأرض .. فاذا هبت عليها العاصفة عاتية جبارة .. مالت باغصانها الفارهة .. ذات اليمين .. أو ذات اليسار .. دون أن تقتلع جذورها .. أو تتخلخل أصولها .. حتى تمر العاصفة وتهدأ .. ثم تلذّب .. فتعود الشجرة قائمة على سوقها .. شامخة فى أجواز الفضاء .. أشد اعتدالا .. وأقوم عظمة وشموخا .. وصدق رسول الله - عليه الصلاة والسلام - عندما قال « الله يخفض القسط ويرفعه » فكان انخفاض القسط سابقا لارتفاعه .. لتكون النهاية دائما للحق .

ولعل هذا المعنى يتضح من قوله تعالى « ونقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فاذا هو زاهق » ..

وهكذا الدول .. كلما انتهت دولة الجور والظلم .. وحل مكانها حكم القسط والعدل .. عاد التاريخ الى سيرته الأولى والتاريخ قلب يعيد نفسه ..

فبعد هلاك دولة عاد .. قامت دولة ثمود .. وهى عاد الثانية .. من نسل ثمود بن عابر ابن آدم ابن سام بن نوح .. وقيل ثمود بن عاد ابن عوص بن آدم .

(١) القرطبي ٨٠ / الحجر .

فالثابت انهم كانوا قبل موسى - عليه السلام - بزمان كبير .. ولعل هذا يتضح .. من قول - مؤمن فرعون - لقومه .. في زمن موسى « يا قوم اني اخاف عليكم مثل يوم الاحزاب ، مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم » ٣٠ - ٣١ / غافر .

ولقد ظن المستشرقون هذا الظن .. لعثورهم في مدائن صالح على بعض الكتابات الآرامية .. فوق بعض القبور .. وتأريخها في زمن قريب من زمن ميلاد المسيح - عليه السلام - ولا يعتبر هذا دليلا .. على ان هذه القبور من قبور ثمود .. فقد تكون بعدهم بالآلاف السنين .

الطريق الى الشام .. ويقول اهل حضرموت .. ان ديار ثمود كانت مستعمرات عاد .. وهذا غير بعيد .. ويؤيده قول صالح لقومه - قوم ثمود - « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبواكم في الأرض ، تنتحلون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا » ٧٤ / الاعراف .

وخاصة وقد علمنا في نبا هود .. ان شداد ابن عاد ، قد ملك المعمور من الأرض .. ودانت له ملوكها .

واما من قال من المستشرقين .. بانهم من اليهود الذين خرجوا من مصر .. مع موسى .. واقاموا بالحجر .. ولم يدخلوا فلسطين .. فهذا الرأي واضح البطلان ..



١ ناطحات السحاب

والردهات .. وشقت في جوفه الدهاليز
والحجرات .. وتعددت الأدوار والطبقات لاشك
أنها بيوت متناهية في الضخامة .. مترامية في
السموق والعلو .. أين منها تلك العمارات التي
نشيدها من مواد البناء ؟ .. وهل يناسطح
السحاب الا الجبال ؟ ..

وقد فتحت تلك القصور بابا من النقاش
بين ائمتنا وعلمائنا .. حول جواز بناء القصور
الشاهقة والعمارات الفارهة .. فبعضهم
أجازها .. لقوله - صلى الله عليه وسلم -
« إذا نعم الله على عبد - أحب أن يرى أثر النعمة
عليه » (٢) - ومن آثار النعمة .. البناء الحسن
.. والثياب الحسن .

ولقوله تعالى « قل من حرم زينة الله التي
أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ١٣٢ /
الأعراف وبعض العلماء كرهها .. ومنهم ..
الحسن البصرى .. مستشهدين بقوله عليه
الصلاة والسلام « إذا أراد الله بعبد شرا ..
أهلك ماله من اللبن والطين » (٣) .

وأخذ القرطبي بالرأى الأخير .. واستشهد
بقوله - عليه الصلاة والسلام « ليس لابن آدم
حق .. في سوى هذه الخصال الثلاث : - بيت
يسكنه .. وثوب يوارى عورته .. وجلف الخبز
والماء » أخرجه الترمذى .. ونحن نميل الى
الرأى الأول .. مادامت العمائر تقام لأغراض
الخير .. والايواء المباح .. والمتعة الحلال ..
فتلك متطلبات العصر .. وديننا يتمشى مع كل

كان قوم ثمود .. أصحاب زرع وبساتين
وجنات وعيون .. ونخيل جيدة الطلع ..
وانعام كثيرة .. وكانوا قوما عربا .. وجاء في
تفسير النسفى والقرطبي : روى أن عادا ..
لما أهلكت .. عمرت ثمود بلادها .. وخلفوها في
الأرض .. وعمرها أعمارا طوالا .. وكانت
أعمارهم بين الثلاثمائة سنة و ألف سنة (١) ..
حتى أن الواحد منهم .. كان يبني بيته باحكام
ومتانة .. ولكنه يهدم قبل موته .. فنحتوا
البيوت من الجبال خشية هدمها قبل الممات
.. وكانوا في سعة رزق .. ورغد عيش ..

انظر الى قول نبيهم لهم « أتتركون في
ما ههنا آمنين .. في جنات وعيون ، وزروع
ونخل طلوعها هضيم ، وتنتحون من الجبال بيوتا
فارحين » ١٤٦ - ١٤٩ / الشعراء .

ولقد وقفت طويلا .. عند عبارة القرآن
الكريم « وتنتحون من الجبال بيوتا فارحين »
.. فعندما يقول تبارك وتعالى « فارحين » بعد
قوله « وتنتحون من الجبال بيوتا » .. بل وفي
موقع آخر يقول سبحانه - عنهم « تتخذون من
سهولها قصورا ، وتنتحون الجبال بيوتا »
٧٤ / الأعراف ..

بدون ذكر « من » التبعية ، قبل كلمة
الجبال ، .. فلا بد أن تكون تلك البيوت ..
بعيدة العلو .. شاهقة الارتفاع والضخامة ..
ضاربة في كبد السماء . فتخيل معي جبلا -
مهما كان صغيرا وقد نحتت فيه الصالات

(١) النسفى والقرطبي ٦١ / هود .

(٢) الحديث من القرطبي ٧٤ / الأعراف .

(٣) نلس المصدر . القرطبي - ٧٤ / الأعراف .

العصور والمدنيات .. الى يوم أن يرث الله
الأرض ومن عليها ..

اسبغ الله النعمة كاملة .. على قوم ثمود
.. وكعادة الجنس البشرى .. فى الغالب ..
إذا أسبغ الله على انسان نعمة الوافرة ..
وشمله بفضله الوارف .. نسي المنعم وانشغل
بالنعمة ...

وتلك ثفرة ينفذ منها ابليس الى النفس ..
فزين الشيطان لقوم ثمود سوء اعمالهم .. وان
الآخرين اعمالا هم : « الذين ضل سعيهم فى
الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون
صنعا » كما جاء فى آخر سورة الكهف . فوسوس
لهم الشيطان .. باتخاذ اصنام يعبدونها ..
وأوثان يقدسونها .. وهكذا ينوارث الأبناء
الشرك عن الآباء ..



٢ العى

هذا ، اتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، وأنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب « ٦٢ / هود .
قال يا قوم .. اننى على بينة وثقة مما أقول لكم .. ولا أريد الا هدايتكم .. وهذا طريق النور .. واضح جلى أمامكم .. فمالكم تحيدون عنه .. لتتخطوا فى دياجير الظلمات .. وحالك المتاهات .. أنتم موفنون من صدقى .. واثقون من نصحى .. وما عهدتم فى غير ذلك ..

ونرى أن القرآن الكريم .. يقول فى تكذيبهم بصالح عليه السلام - « **كذب أصحاب الحجر المرسلين** » ٨٠ / الحجر .. المرسلين بالجمع .. مع أن الله لم يرسل لهم غير صالح .. ونفهم من هذا التعبير .. أن من كذب رسولا .. فقد كذب الرسل كلهم ..

كما يبدو من خلال تدبرنا .. لقصة صالح .. مع قومه ثمود .. أن أرضهم أجديت فى الوقت الذى بعث الله فيه اليهم .. لقولهم له « **قالوا اطيرنا وبمن معك** » ٤٧ / النمل .. أى تشاء منا .. وبلغت نظرنا أن نفس العبارة .. قالها أهل انطاكية - وهى قرية سورة « يس » « **وأضرب لهم مثلاً أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون** » ١٣ / يس .. فقال أصحاب القرية **لرسل الذين أرسلهم عيسى - عليه السلام -** « **أنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم** » ١٨ / يس ..

وهكذا قال قوم صالح له « اطيرنا بك وبمن معك « **والتطير ..** هو التشاؤم والشؤم نحس .. ولا شئ أضر بالرأى .. ولا أفسد للتدبير .. من اعتقاد الطيرة .. ومن ظن أن خوار بقرة .. أو نعيق غراب .. يرد قضاء محتوما .. ويدفع بلاء مقدورا فقد جهل أشد الجهل ..

اقتضت عدالة الله - سبحانه - الا يترك الضال فى ضلاله .. او الظالم على ظلمه .. حتى يرسل اليه .. من يأخذ بيده فى الظلمات .. ليهديه الى طريق الهدى والنور .. ويفتح له أبواب الرشاد .. حتى لا تكون له الحجة عند ربه « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . وأيضاً « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا » .. فأرسل الى ثمود .. صالحا - عليه السلام .

وصالح هو ابن عبيد بن آسف بن ماشع ابن عبيد بن حاذر بن ثمود .. وكان صالح من أوسطهم نسباً .. وأفضلهم حسباً .. بعثه الله اليهم رسولا .. فدعاهم الى عبادة الله وحده وشكره .. مذكرا لهم بنعمه عليهم .. ومبيناً لهم آياته الدالة على توحيده .. وأنه لا شريك له ..

أقام لهم الحجة تلو الحجة .. والدليل بعد الدليل .. على أن الله وحده ، هو الذى يجب افراده بالعبادة دون سواه .. ويذكرهم بمن سبقهم من قوم عاد .. ويخوفهم بما أصابهم بسبب شركهم من الهلاك والدمار ..

فلم يتبعه الا القليل من المستضعفين .. أما عليه القوم فقالوا له .. مؤننين موبخين : يا صالح .. لقد كنت فينا .. فى مركز السيادة .. تأمر فنتطيع الأمر .. وتنادى فنلبى النداء .. وتشير فنبادر الى تنفيذ ما تريد .. ولكنك بهذا القول الذى تدعيه .. جعلتنا نخرج على طاعتك .. انريد منا .. أن نترك ما كان يعبد آباؤنا ؟ .. أنك لتعرف بما لا تعرف .. ولقد أصبحنا لا نصدق ما تقول .. ولا نؤمن بما تعتقد « **قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل**

وقال الشاعر :

**طيرة الدهر .. لا ترد قصصه .
فاعذر الدهر .. لا تشبه بلوم**

**اي يوم يخصه بسعود
والنبايا ينزلن في كل يوم**

**ليس يوم الا وفيه سـعود
ونحوس تجرى لقوم فقوم**

وقد كانت العرب .. أكثر الناس طيره ..
وكانت اذا ارادت سفرا .. نفرت طائرا .. فاذا
طار يمنه .. سارت وتفاعلت .. وان طار
شمالا .. رجعت وتشاءمت .. فنهى النبي -
صلى الله عليه وسلم - عن ذلك .. وقال
اقروا الطير على وكناتها « اى عشوشها » ..

ولهذا قال صالح لعومه « **قال طائركم
معكم ، بل انتم قوم تغنون** » ١٧ / النمل / اى
ان الله يختبركم ويمتحنكم « وبلوكم بالشر
والخير فتنة فاته - سبحانه - دائما يخبر
الناس بالشر ليصبروا كما يختبرهم بالخير
ليشكروا .. والانسان « اما شاكرا واما
كفورا » .

وعند الربط بين آيتين .. وردتا في القرآن
الكريم .. عن قوم نمود .. الاولى : « واما نمود
فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى » ١٧ /
صلت / والثانية « وعادا وثمود ، وقد تبين
لكم من مساكنهم ، وزين لهم الشيطان اعمالهم ،
فصددهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » ٢٨ /
العنكبوت / . نجد ان الله سبحانه - في الآية
الاولى : قرر هدايتهم .. ولكنهم احبوا العمى
.. وفضلوه على الهدى ..

وفي الآية الثانية : يخبر الله - جل شأنه -
انهم كانوا مستبصرين .. وهذا دليل .. على
ان القوم كانوا متمكنين من النظر والاستبصار
وان الحجة قامت في اذهانهم .. واستساغتها
نفسهم .. ولكنه الكبر والمكابرة .. والعناد
والاصرار على الفى والضلال .. مثل قوم
يوسف - عليه السلام - « ثم بدا لهم من بعد

ما راوا الايات ليسجننه حتى حين » اى بعد ان
راوا آيات براءته ..

كان اهل ثمود .. عقلاء .. ذوى بصائر
.. فلم تنفعهم بصائرهم .. وقد عرفوا الحق
من الباطل .. بظهور البراهين .. « فاستحووا
العمى على الهدى » اختاروا الكفر على الايمان
.. والعمى على البيان .. والمعصية على
الطاعة ..

وهكذا جحدوا بآيات ربهم .. بعد ان
استيقنتها انفسهم ظلما وعلوا .. دعاهم صالح
حتى شطم (١) .. ولم يتبعه الا قليل
مستضعفون .. قالوا : يا صالح .. هيا بنا
نخرج في يوم العيد .. فندعو آلهتنا .. وتدعو
الهك .. فان استجب لنا تبعتنا .. وان
استجب لك تبعناك .. فرضى بهذا الامر ..

وخرجوا جميعا .. ودعوا آلهتهم .. فلم
نستجب لهم .. فقال له « جندع بن عمرو »
وهو يومئذ سيد ثمود .. مشيرا الى صخره
باتنة منفردة عن الجبل .. ناحيه الحجر ..
يقال لها « الكائبة » يا صالح .. ادع ربك ..
يخرج لنا من هذه الصخرة .. ناقه مخرجة
.. وبراء عشاء .. والمخرجة ما شأكلت
البخت من الابل (٢) .. شرب الماء .. فتعطيه
لنا لبنا .. ودعا صالح ربه .. بعد ان صلى
ركعتين .. فتمخضت الصخرة تمخض التوج
بولدها .. ثم تحركت الهضبة .. فصدمت عن
ناقه مخرجة .. وبراء .. عشاء .. كما سألوه
لا يعلم ما بين جنبيها الا الله . تعالى . هذا والملا
ينظرون .. ثم نتجت فصيلا مثلها في العظم (٣)
.. فأمن به جندع . سيدهم . ورهط من قومه
وكاد الاشراف جميعهم ان يؤمنوا بصالح ..
لولا ذؤاب بن عمرو والخباب .. صاحبا اوتابهم
.. ورباب بن صعر كاهنهم (٤) .

فلما خرجت الناقة .. قال صالح لهم
« هذه ناقه ، لها شرب ، ولكم شرب يوم
معلوم ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم
عظيم » ١٥٥ - ١٥٦ / الشعراء . بمعنى ان
الماء قسمة بينها وبينهم .. يوم للناقه وفصيلها ،
ويوم لهم ولانعامهم . وظلت الناقة وفصيلها ..
في أرض ثمود .. ترعى من مراعيها وأشجارها

(١) شطم : شابت لحيته .

(٢) الكشف ٧٣ / الاعراف .

(٣) في جميع كتب التفسير ٧٣ / الاعراف والقرطبي ٥٥ / الشعراء .

(٤) قصص الانبياء - للنجار - نقلا من تفسير الألوسي .

ويقول صاحب الكشاف والنسفي أن صدر
الناقة كان ستين ذراعا (١) .

وقد روى أبو اليزيد عن جابر .. قال :

لما نزلنا الحجر .. في مغزى رسول الله -
صلى الله عليه وسلم . تبوك .. قال :

« يا أيها الناس .. لا تسألوا في هذه
الآيات .. هؤلاء قوم صالح .. سألوا نبيهم أن
يبعث لهم ناقة .. فبعث الله عز وجل - اليهم
الناقة .. فكانت ترد من ذلك الفج .. فتشرب
ماءهم .. يوم وردها « ويحلبون منها .. مثل
الذي كانوا يشربون يوم غبها .. وهو معنى
« ونبتهم أن الماء قسمة بينهم » (٢) .

.. وترد الماء يوماً .. ويوم لهم ولانعامهم ..
فإذا كان يومها .. وضعت رأسها في البئر ..
فبرفع الماء إليها .. فما ترفع رأسها .. إلا وقد
شربت كل ما فيه فتتفجج .. ثم تمر على أبواب
بيوتهم .. « بيتا .. بيتا .. فيحلبون من لبنها
ما شاءوا .. فيشربون .. ويملاؤن أوانيهم .
يقول القرطبي : كانت الناقة تسقيهم .. مثل
الماء الذي تشربه لبنا .. لم يشرب قط الذئ
واحلى منه .. وكان يقدر حاجتهم على
كثرتهم ..

حتى إذا جاء الغد عاد الماء الى البئر ..
فشربوا . وادجروا منه ليوم الناقة .. وكانوا
بهذا الحال .. في سعة ودعة .. حيناً من الدهر
.. يحضرون الماء يوم غبها فيشربون ..
ويحضرون اللبن يوم وردها فيحلبون ..



(١) ١٥٤ / الشعراء - في الكشاف والنسفي .

(٢) القرطبي ٢٨ / القمر .

٣] أشقى الأولين

خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكر الناقة ، وذكر الذي عقرها فقال « اذ انبعث أشقاها » انبعث لها رجل عزيز عارم - أى خبيث شرير .. منيع فى رهطه .. مثل أبى زمعة ثم قال القرطبي بعد ذكر هذا الحديث واسمه قدار بن سالف (١) .

وعن الضحاك بن مزاحم .. قال .. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم . « يا على .. أتدرى من أشقى الأولين ؟ » قال : الله ورسوله أعلم .. قال « عاقر الناقة » . يقصد قدار بن سالف . ثم قال « يا على .. أتدرى من أشقى الآخرين ؟ » قال : الله ورسوله أعلم .. قال « قاتلك » (٢) .

وذكرت كتب التفسير .. عن قدار بن سالف أنه كان رجلاً أشقر أزرق قصيراً ..

كما ذكروا عنه قصة .. لا مانع من إيجازها .. لما له من منزلة كبيرة فى أهل جهنم .. فهو أشقى الأولين .. كما سماه رسولنا - صلى الله عليه وسلم .

قال أولو العلم :

روى أن الله - تبارك وتعالى - أوحى إلى صالح - عليه السلام - أن قومه سيعقرون الناقة .. فأخبر قومه بذلك .. فقالوا : كيف نفعل ذلك .. هى تدر علينا الخير الكثير ؟ فقال لهم : سيولد فى شهركم هذا غلام يعقرها .. وسيكون هلاككم جميعاً على يديه .. فقالوا : كل غلام يولد فى هذا الشهر سنقتله ..

كانت ناقة صالح - عليه السلام - تصيف إذا جاء الحر بظهر الوادى .. فتهرب منها أنعامهم ، وتهبط إلى بطن الوادى فى حره وحدته وقسوته .. وتشتو فى بطن الوادى إذا جاء الشتاء فتهرب الأنعام إلى ظهر الوادى فى برده وجذبه وشدته .. فأضر ذلك بأنعامهم .. ضروا شديداً .. وهذا أمر يريد الله - سبحانه - للابتلاء والاختبار .. فشقى ذلك عليهم .. وعتوا عن أمر رسولهم .. واجمعوا على قتل الناقة ..

وكان من عليه ثمود : امرأتان غنيتان .. ذواتا مال كثير من الأبل والبقر والغنم ..

أولاهما عنيزة بنت غنم .. وتكنى أم غنم .. ولها بنات يضرب بهن المثل فى الجمال ..

والثانية صدقة بنت المختار بن مهر .. وكانت ذات مال وجمال ..

والنساء جبال الشيطان .. أشعل فى قلبيهما بغض صالح وعداوته .. والكيد له .. بسبب الضرر الذى أصاب أنعامهما من الناقة ..

عرضت صدقة نفسها على شاب اسمه « مصدع » ان هو قتل الناقة .. ووعدته بنفسها ومالها .. وفى نفس الوقت أغرت عنيزة شاباً اسمه - قدار بن سالف - بمالها .. وبأجمل بناتها .. وهو شاب عزيز فى قومه .. ذكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى صحيح مسلم .. من حديث عبد الله بن زمعة .. قال :

(١) القرطبي ٧٦ / الأعراف .

(٢) من الكشاف والنسفى والتملى وغيرهم - ٧٧ / الأعراف .

فولد فيه عشرة بنين .. قتل منهم تسعة .. ولم ينج منهم غير قدار بن سالف .. أبى أبوه أن يذبحه (١) .

ونما قدار نموا سريعا .. وكلما مر على أباء التسعة الذين قتلوا .. حزنوا على أولادهم .. وأوغر ذلك صدورهم على صالح .

□ □ □

وجاء في سورة النمل .. حول قصة صالح .
عليه السلام - ومدينته : قوله تعالى « وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، قالوا تقاسموا بالله لنبيته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وأنا لصادقون ، ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرمهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين » (٢) .

والتهييت هو تنفيذ المؤامرات ليلا .. وليس هذا من صفات النبل والشجاعة ..

وعن ذى القرنين .. انه اشير عليه بالبيات - اى مباغة العدو ليلا - فأبى .. وقال : ليس من فخر الملوك استراق الظفر ..

وقد تحدث المفسرون عن هؤلاء التسعة الرهط المفسدين .. وهل هم هؤلاء التسعة الذين قتلوا أبناءهم أطفالا .. أم تسعة سواهم ؟ .. حتى أن بعض السادة المفسرين ذكر أسماءهم .. غير أننى قرأت هذه الاسماء .. بعدة روايات .. ولى عليها ملاحظتان :

الأولى : أن أسماءهم مختلفة تماما في جميع الروايات التى أوردتها .. وهى فى القرطبي وحده أكثر من خمس روايات كلها بأسماء تختلف عن سواها ؟ ..

ونحن لا يهنا أسماءهم فى كثير ولا قليل .. بقدر ما تهنا الملاحظة الثانية .. وهى أن قدار بن سالف ورد اسمه فى جميع الروايات .. مما يدل على أن الرواية التى أوردتها البعض من التسعة الرهط .. أنهم الآباء الحزانى على أبنائهم الذين قتلوهم .. ليست صحيحة مادام قدار أحد التسعة .. وإنما هم ثمانية عتاة كفره

.. - أبى أسماء - تاسعهم وقائدهم - قدار بن سالف - الذى سماه عليه الصلاة والسلام - اشقى الأولين - فى الحديث الذى ذكرناه .. وأجمعت كتب التفسير على اسمه .. ووصفته .. بأنه أحمر أزرق قصير .. ووصفه ابن عباس بأنه أحمر أزرق .. اكشف ألقى (٣) .

وقال عنه الأفوه الأودى :

أو قبله كقدار حين تابعه

على الفوابة أقوام فقد بادوا
والعرب تسمى الجزار قدارا (٤) ..
تشبيها بقدار بن سالف .. مشثوم آل ثمود .. وذكره زهير .. فقال :

**فتنتج لكم غلمان اشمام كلهم
كأحمر عاد ثم ترضع فتعظم**

يريد الحرب .. ويكنى عن ثمود بعاد .. لانهم عاد الثانية ..

جلس قدار بن سالف يوما .. مع بعض ذويه .. يشربون الخمر .. وفى نفسه من الوجد والهيام بالفانية الفاتنة - بنت عنيزة مافيا .. وأرادوا ماء يمزجون به شرابهم .. وكان هذا فى يوم ورد الناقة فلم يجدوا ماء .. فاشتد ذلك عليهم .. وحانت الفرضة لابليس .. ليضرب ضربته القاضية .. فحرك فى نفس قدار لواعج الشوق والهيام .. وذكره بمهر معبودته وهو قتل ناقة صالح ..

فقال قدار لرفاقه : هل لكم أن أعقرها ؟ .. قالوا : نعم (٥) والتقى قدار ومصدع على هدف واحد .. هو التخلص من الناقة .. وتبعهم سبعة من فتيان ثمود .. وأعتاهم .. فكانوا تسعة رصدوا للناقة .. حتى صدرت عن الماء .. وكمن قدار ومصدع .. كل منهما .. فى أصل شجرة فى طريقها .. ومرت الناقة بمصدع أولا .. فرماها بسهم .. أنتظم به عضلة ساقها .. وخرجت عنيزة أم غنم - ومعها ابنتها التى فتن بها قدار .. وأسفرت له .. عن وجهها الفتان .. وحرضته على قتل الناقة .. فشد عليها بالسيف .. فكشف عرقوبها .. فأرداها .. فخرت .. ورفقت رقاعة واحدة .. ثم

(١) القرطبي ١٥٠ / الشعراء - وذكره الثعلبي .

(٢) ٤٨ - ٥١ / النمل .

(٣) القرطبي ٢٩ / القمر .

(٤) القرطبي نفس المصدر السابق .

(٥) القرطبي ٧٦ / الأعراف .

طعنوا في لبتها .. ونحرها .. وخرج أهل
المدينة واقتسموها .. وأكلوا لحمها .. وفر
فصيلها عقب عقرها الى جبل يقال له « قارة » (١)
« فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم » ٧٦ /
الاعراف .

ولما علم صالح .. بما عملوا .. أقبل عليهم
.. أسفاً .. فقابلوه معتذرين .. وقالوا :
يا نبي الله : انما عقرها فلان ..

فقال لهم أنظروا .. هل تدركون فصيلها
.. فان ادركتموه عسى الله ان يرفع عنكم العذاب
.. فلم يتمكنوا (٢)

وقيل في رواية أخرى : ذهب صالح الى
الفصيل بعد قتل الناقة .. وفراره الى الجبل

.. فلما رآه بكى .. ودعا الله ثلاثاً .. فرما
الفصيل ثلاثاً .. وانفجرت الصخرة ..
ودخلها .. وأطبقت عليه ..

فقال لهم صالح : لقد انتهكتم حرمة الله ..
فأبشروا بعذاب الله .. « فعقروها فقال تمتعوا في
داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب »
٦٥ / هود .

والمقر : هو الجرح .. ومنه قول امرئ
القيس :

(تقول وقد مال الفبيط بنا معا

عقرت بعيرى يا امرا القيس فانزل)

وقد حدد لهم صالح الايام الثلاثة .. بعدد
المرات التي رغا فيها الفصيل .. قبل ان يختفى
في داخل الصخرة :

(١) النجار ، والبيضاوى ، والقرطبي ، والكشاف ٧٦ / الاعراف .

(٢) النجار والكشاف والبيضاوى ٧٦ / الاعراف .

٤] وعد غير مكذوب

أو مل ان أعيش وان يومى
بأول أو باهون أو جبار
أو المردى - ديار - فان أفتسه
فمؤنس أو عروبة أو شبار

ونلاحظ هنا .. ان اسماء الأيام قد تغيرت
عنها في أيام قوم عاد .. التى ذكرناها .. في
نبا هود - عليه السلام - ولكنها بهذه الصورة
أقرب نطقا الى اسمائها الآن من سابقتها ..

فأصبحوا يوم الخميس .. وجوهم
مصفرة .. كأنما صبغت بالخلق .. صغيرهم
وكبيرهم . ذكرانهم وأناتهم .. وقاموا يوم
الجمعة .. وقد أحمرت وجوهم .. وكأنها
خضبت بالدماء .. وفي يوم السبت أسودت
وجوهم .. وكأنما طليت بالقار .. ولما وجدوا
صدق صالح . عليه السلام - في نزول العذاب
بهم من يوم الخميس .. طلبوا صالحا ليقتلوه
.. وقالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا بعد ثلاثة
أيام .. فنحن نفرغ منه وأهله قبل الثلاث ..
فخرجوا بقيادة قدار .. واختبأوا في الشعب
.. وقالوا : اذ جاء يصلى قتلناه .. ثم رجعنا
الى أهله فقتلناهم .. فبعث الله صخرة من
الفضة حيالهم .. فسادوا .. كما قيل :
دمفتهم الملائكة بالحجارة وهذا معنى آية النمل
« قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن
لويله ما شهدنا مهلك أهله وأنا لصادقون » ..

بعد قتل الناقة .. وفرار فصيلها ..
يقول بعض المفسرين .. اتبع الفصيل أربعة من
التسعة .. فيهم مصدع وأخوه ذؤاب .. فرماه
مصدع بسهم أنظم قلبه .. ثم جره برجله ..
فأنزله وألقاه مع لحم أمه (١) .. وأعرض
القرطبي على هذا الراى مستشهدا برغاء
الفصيل ثلاث مرات .. قبل انفراج الصخرة
ودخوله فيها .. وقال انه الدابة .. التى تخرج
على الناس في آخر الزمان (٢) .. يقصد قوله
تعالى في آخر سورة النمل « واذا وقع القول
عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » ..

□ □ □

وعندما قال لهم صالح : انتهكتم حرمة الله
.. فأبشروا بالعذاب العاجل القريب .. قالوا
له مستهزئين : ومتى يا صالح هذا العذاب ؟
.. قال : تصفر وجوهكم يوم مؤنس
« الخميس » .. وتحمر يوم العروبة
« الجمعة » .. وتسود يوم شبار « السبت »
ثم تأتاكم الصاعقة يوم الأول « الأحد » .. وكان
عقر الناقة يوم الاربعاء (٣) .

وكانت اسماء الأيام عندهم .. كالآتى :

الأحد « الأول » .. الاثنين « هون » -
الثلاثاء « جبار » . الاربعاء « ديار » -
« الخميس » مؤنس - الجمعة « العروبة »
السبت « شبار » .. وقد جمعها شاعرهم في
هذين البيتين :

(١) الثعلبي والقرطبي ٧٦ / الامراف .

(٢) القرطبي ٧٦ / الامراف .

(٣) جميع كتب التفسير في الامراف وهود .

وجاء يوم السبت .. وقد اسودت وجوههم ..
فأيقنوا بنزول الصاعقة بهم صبيحة
الاحد ..

وخرج صالح - عليه السلام - ومن معه
من المؤمنين - ليلة الاحد - حتى جاءوا الشام
.. فنزلوا رملة فلسطين .. ليتركونا نستعرض
معا طريقة هلاك قومهم .. من خلال .. آيات
الله وتفاسيرها .. بعد أن قال صالح ساعة
رحيله عنهم « يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ،
ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين »
٦٩/الاعراف فنجد أن الله تعالى يقول في آية
الاعراف « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم
جاثمين » ٧٨ . والرجفة هى الزلزلة الشديدة
.. ومنه قول الشاعر :

ولما رأيت الحج قد آن وقتـه
وظلت مطايا القوم بالقوم ترجفـ

وتعبير القرآن الكريم .. فى وصفهم
بالجنوم .. يوحى بمنظر رهيب .. ومشهد
يبعث الخشية فى القلب ، ويحرك الرهبة فى
الأوجدان .. ومكان الجنوم يسمى مجثما ،
ويذكرنى بقول زهير :

بها العين والآرام يمشين خلفـه
وأطلأوها ينهضن من كل مجثم
والعين بكسر العين : هى البقر .. والآرام :
الطباء .. وخلفة : فوج بعد فوج .. والاطلاء :
الأولاد .

□ □ □

**وفى آية هود « وأخذ الذين ظلموا الصيحة
.. فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » ٦٧ - وحول
هذه الآية .. ذكر القرطبي وصفا لعذابهم ..
أذكره بالنص :**

قال : لما أيقنوا العذاب .. قال بعضهم
لبعض .. ما مقامكم .. أن يأتاكم العذاب
بغفـة ؟ ..

قالوا : فما نصنع ؟ .. فأخذوا سيوفهم
ورماحهم وعددهم .. فوقفوا على الطرق
والفجاج ..

زعموا أنهم يلاقون العذاب .. فأوحى الله
تعالى الى الشمس فعذبتهم بحرهما .. فدنت من
رؤوسهم .. فاشتوت أيديهم وتدلّت ألسنتهم

على صدورهم من العطش .. ومات كل ما معهم
من البهائم .. وجعل الماء يغور من العيون ..
من غليانه .. حتى يبلغ السماء .. لا يسقط
على شيء الا اهلكه من شدة حرارته .. فمأزالوا
كذلك .. وأوحى الله الى ملك الموت ..
الا يقبض ارواحهم .. تعذبا لهم .. الى أن
فربت الشمس .. فصيح بهم .. فأهلكوا
« فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » - ه -

اتتهم الصيحة من السماء .. فيها صوت
كل صاعقة .. وصوت كل شيء فى الأرض ..
فقطعت قلوبهم فى صدورهم .. فلم يبق منهم
صغير ولا كبير .. الا هلك ..

□ □ □

ويقول القرطبي .. هلكوا بالصاعقة ..
فأصبحوا ميتين الأرجلا واحدا .. كان فى حرم
الله .. فلما خرج من الحرم .. أصابه ما أصاب
قومه (١) .. فعن جابر بن عبد الله .. قال :
لما مر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
بالحجر .. قال لأصحابه : لا تسألوا رسولكم
الآيات .. فقد سألها قوم صالح .. فأخذتهم
الصيحة ، فلم يبق منهم الا رجل واحد .. كان
فى حرم الله « قالوا : من هو ؟ .. قال :
ذاك أبو رغال ، فلما خرج من الحرم ، أصابه
ما أصاب قومهم » .

وروى أن صالحا كان قد بعثه الى قوم ..
فخالف أمره .. كما روى أنه عليه الصلاة
والسلام - مر بقر أبى رغال .. فقال :
« أتدرون من هذا ؟ .. قالوا : الله ورسوله
أعلم .. فذكر قصة أبى رغال .. وأنه دفن
ها هنا ، ودفن معه غصن من ذهب ، فابتدروه ،
وبحثوا عنه بأسيا ففهم .. فاستخرجوا
الفصن (٢) .

□ □ □

وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم -
يجرنا الى احاديثه حول حجر ثمود .. وقد
ذكر القرطبي منها عددا .. فقال : روى
البخارى عن ابن عمر .. أن رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - لما نزل الحجر .. فى غزوة
تبوك .. أمرهم الا يشربوا من بئرها ..
ولا يستقوا منها .. فقالوا : قد عجننا واستقينا
.. فأمرهم - صلى الله عليه وسلم - أن يهريقوا
الماء .. وأن يطرحوا ذلك العجين .. وذكر هذا
الحديث عن ابن عمر ايضا ولكن على أن الرسول

(١) القرطبي ٧٨ / الاعراف .

(٢) الكشاف ٧٨ / الاعراف .

طلب منهم أن يعلفوا الأبل المعجينة .. وروى أيضا عن ابن عمر .. قال : مررنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الحجر .. فقال لنا « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم .. إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم ما أصابهم » ثم زجر فأصرع . أي زجر ناقته (١) .

□ □ □

وحديث القرطبي .. يجرنا الى تفرعات وتخريجات .. هي من غير شك .. من الضروريات الفقهية .. التي يجب أن يلم بها كل مثقف .. يحرص على الإمام بما يلزمه في دينه .. ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين .. وان الله سبحانه - يعطى الدنيا من يحب ومن لم يحب .. ولا يعطى الدين الا من أحبه .. فقد استنتج القرطبي من الأحاديث السابقة .. أن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب .. يجوز أن نعلفه بهائم .. اذ لا تكليف عليها .. ولهذا .. قال عن العسل النجس نعلفه النحل ..

□ □ □

كما استنتج كراهة دخول تلك المواقع .. وأضاف إليها بعض العلماء .. دخول مقابر الكفار .. الا للاعتبار .. مع الخوف والاسراع حيث قال - عليه الصلاة والسلام - لا تدخلوا أرض بابل فأنها ملعونة .. وقد منع بعض العلماء الصلاة بمثل هذه المواضع .. وقال : ابن العربي .. فأصبحت مستثناة .. من قوله - عليه السلام - « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » فلا يصح التيمم من ترابها .. ولا الوضوء من مائها .. ولا الصلاة فيها ..

وأورد عن ابن عمر : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى عن الصلاة في سبع مواطن : المزبلة ، والمجزرة ، والمقبرة ، وقارعة الطريق ، وفي الحمام ، ومواطن الأبل وفوق بيت الله .. وزاد عليها العلماء : الدار المفصوبة ، والكنيسة ، والبيعة ، والبست الذى فيه تماثيل وأماكن كثيرة غير ما ذكرنا .. مما جعل الإمام حافظ أبو عمر يفعل ويقدم لنا موضوعا جميلا حول هذا المقام فقال : ان تلك البقاع من الأرض جائز ان يصلى فيها ما لم تكن نجاسة متيقنة تمنع من ذلك .. وكل ما قيل منسوخ وموضوع .. لعموم قوله - عليه السلام - « جعلت لى

الأرض مسجدا وطهورا » .. فقد قالها عليه السلام - على أنها من دلائل فصله .. وما خص به .. وتلك عند أهل العلم .. لا يجوز عليها النسخ أو الاستثناء أو النقص .. فقال صلى الله عليه وسلم « أوتيت خمسا » وهى تنتهى الى أكثر من تسعة « لم يؤتني أحد قبلى : بعثت الى الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب ، وجعلت امتى خير الأمم ، وأحلت لى الفنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا وأوتيت الشفاعة ، وبعثت بجوامع الكلم ، وبيننا أنا نائم أوتيت بمفاتيح الأرض .. فوضعت بين يدي ، وأعطيت الكوثر وختم بى النبون » وقد رواه جماعة من الصحابة .. بعضهم يذكر بعضها .. ويذكر بعضهم ما لم يذكره غيره .. وهى صحاح كلها .. وجائز على فضائله الزيادة .. وغير جائز النقصان . وقد ورد عنه « ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » ثم نزلت : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ..

وسمى رجلا يقول له : يا خير البرية .. فقال « ذلك إبراهيم » وقال « لا تقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متى » وقال « السبد .. يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم » ثم قال بعد ذلك كله « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .. بفضل الله . صلى الله عليه وسلم - لم تزل تزداد .. الى أن قبضه الله اليه .. ولهذا قلنا أنه لا يجوز عليها النسخ .. ولا الاستثناء .. ولا النقصان .. وجائز فيها الزيادة .. وقد قال : « جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » وقال عليه الصلاة والسلام لأبى ذر « حيثما أدركت الصلاة فصل .. فان الأرض كلها مسجد » ذكره البخارى .. ولم يخص موضعاً من المواضع ..

وضعف الأحاديث .. التى وردت بغير هذا (٢) .

وبقى صالح ومن معه من المؤمنين فى رملة فلسطين الى أن مات بها .. هو والناجون معه .. وعندهم مائة وعشرون .. أما الهالكون .. فكانوا أهل خمسة آلاف بيت (٣) .

وكما يوجد بمنطقة سانت كاترين .. بسيناء .. موقع يسمى مقام النبى صالح .

ان لنا الآن أن ننتقل الى أبى الفتيان إبراهيم .. خليل الله .

(١) القرطبي ٨٠ / الحجر .

(٢) من القرطبي ٨٠ / الحجر .

(٣) ذكر هذا العدد جميع المفسرين .. الا القرطبي فقد ذكر عددا مبالغا فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك »

(صدق الله العظيم)

○ من نبي إبراهيم
أول المسلمين

١ الوليد البصير

وكانت الاصنام متعددة بتعدد التخصصات
.. فهذا اله النور .. وهذا اله الظلام .. وذاك
اله الخير .. وذاك اله الشر .. وغيره للهواء
او الماء الى غير ذلك من مسميات عوامل الحياة ..
وقد جاء في تفسير الكشاف .. لصاحبه
الزمخشري .. انها كانت سبعين صنما مصطفة
وتم صنم عظيم ... مستقبل الباب وكان من
الذهب .. وفي عينيهِ جوهرة نان تضيئان بالليل.

□ □ □

راى نمرود .. فى منامه .. كأن كوكبا طلع
فى السماء .. فذهب بضوء الشمس .. حنى
لم يبق لها ضوء .. ففزع من ذلك فزعا شديدا
.. ودعا الكهنة والمنجمين لتأويل رؤياه ..
فقالوا له : سيولد فى ناحيك هذا العام غلام
.. يكون هلاكك على يديه .. فأمر بذبح كل
غلام يولد فى تلك الناحية هذه السنة (٢) .

يقول الرواة : لما حملت أم ابراهيم .. قال
الكهان لنمرود : ان الغلام الذى أخبرناك به ..
قد حملت به أمه هذه الليلة ..

فلما دنت ولادة ابراهيم — عليه السلام —
واخذها المخاض .. خرجت هاربة .. مخافة
أن يطلع عليها أحد .. فيقتل ولدها .. ان كان
ذكرا .. فوضعتة فى نهر جاف .. ثم لفته فى

بعد طوفان نوح — عليه السلام — بالف
ومائتين وثلاثة وسبعين عاما .. وذلك بعد
خاق آدم بثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثين سنة (١).

وفى مدينة أسمها « فدام آرام » ببابل ..
يحكمها ملك .. هو نمرود بن كنعان بن
سنحاريب بن كوش ابن سام بن نوح .. استكبر
وطغى .. وعتا وبغى .. دانت له الرقاب ..
وخضعت لسلطوته الجباه .. ورث قومه عن
آبائهم عبادة الأصنام والكواكب .. وجعل له
جنة ونارا .. من أطاعه وتقرب اليه أدخله
جنته .. يتمتع فيها .. بين البساتين الزاهرة
.. والحدائق الغناء .. والشجر المثمر ..
يشرب الخمر .. ويستمتع بالغواني .. أما من
عصاه .. وتمرد على أمره .. أحرقه فى النار ..

□ □ □

وقد روى أنه ملك الأرض أربعة : مؤمنان
وكافران .. أما المؤمنان .. فسلیمان ابن داود
وذو القرنين .. وأما الكافران .. فنمرود ،
وبختنصر (٢) .

ونمرود .. أول من وضع التاج على رأسه .
وتجبر فى الأرض .. ودعا الناس الى عبادته
هو .. وجعل للاصنام هيكلًا خاصا فى قصره
.. تقدم لها القرايين .. وجعل لها سدنة
وكهنة متفرعين لها .. عاكفين عليها ..

(١) القرطبي ٧٥ / الانعام .

(٢) النسفى ٨٣ / الكهف .

(٣) القرطبي ٧٥ / الانعام .

خرقة .. ووضعه في حلفاء .. ورجعت
فاخبرت زوجها - تارح - بمكان وليدها ..
فذهب اليه .. ووضعه في سرداب .. وسد
عليه .. خشية الذئاب والسباع .

وكانت امه تتعهد - خلصة بين الحين
والحين .. حتى كبر ونما .. وكان على سنة
كانه ابن ثلاث سنين .. فلما خرج من السرب
.. توهمه الناس .. وكأنه ولد منذ سنين ..
وجاء في تفسير القرطبي : جعل حين ولد في
سرداب .. وجعل رزقه في أطراف أصابعه ..
فكان يمصها .. قال لامه : من ربى ؟ ..
فقلت : انا .. قال : ومن ربك ؟ قالت : أبوك
.. قال : ومن رب أبى ؟ .. قالت : نمروذ ..
قال : ومن رب نمروذ ؟ .. فلطمته .. وعلمت
انه الذي يذهب ملكهم على يده (١) .

ونسبه : هو ابراهيم بن تارح بن ناحور بن
سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن
قينان بن ارفكشاذ بن سام بن نوح . ويقول
الأستاذ العقاد .. في كتابه عن ابراهيم - عليه
السلام : واسم ابرام من الاسماء التي تنبىء عن
نشأة دينية .. لانه على ارجح معانيه .. يفيد
معنى حسب الله .. وقد كان قدماء السريان ..
يطلقون اسم رأس الأسرة - مجازا - على الاله
العبود .. فسمونه - تارة - الاب .. وتارة
أخرى العم .. وربما كان العم أغلب .. على
هذا المعنى .. لان الرجل ينادى كل شيخ
مبجل « بعام وباعماه » .. ومن هنا .. اسم
عمرام وابرام .. ركب كلاهما .. من العم
والاب مع كلمة « رام » التي تعنى المحبة ..
ثم يقول الأستاذ العقاد : ولعل التغيير الذي
طرا على اسم ابرام بجعله ابراهيم .. انما
استحدث .. لكى يفيد معنى حبيب الله ..
بدلا من حبيب الاله الذي كان بعبدته أبوه في
معابد الوثنية - أه - .

ولنا اعتراض على قول الأستاذ العقاد - في
عبارته الأخيرة - التي هي : « الذي كان يعبد
أبوه في معابد الوثنية » .. فمن هو أبو
ابراهيم ؟ ..

اختلف المؤرخون والعلماء .. في اسم أبى
ابراهيم .. هل هو تارح أو آزر ؟ .. فجاء في
دائرة المعارف الاسلامية .. مانصه آزر : اسم
أبى ابراهيم في القرآن .. سورة الانعام ..
آية ٧٤ ..

ويظهر ان في هذا بعض الخلط .. لان اسم
آزر لم يرد مطلقا على انه أبو ابراهيم في غير هذا
الموضع .. كما ان تارح أو تارخ .. قد ورد في
روايات أغلب المؤرخين والمفسرين على انه أبو
ابراهيم أيضا .. ولذلك لجأوا الى التحايل
للتوفيق بين هاتين الروايتين .. ولكن هذا
التحايل لا قيمة له (٢) .

وجاء في كتب التاريخ : اسم أبىه - تارح -
وقيل : آزر وبارح هما علمان له .. كاسرائيل
ويعقوب .. وقيل : العلم تارح .. وآزر وصف
.. معناه الشيخ الفانى أو المعوج .. وقيل :
آزر اسم صنم يعبد .. فلقب به للزوم
عبادته ..

كما قال أبو بكر الشافعى الأشعرى .. في
تفسيره : وليس بين الناس اختلاف في اسم
والد ابراهيم تارح (٣) .

وليفر لى القارئ الكريم .. اضاعة تلك
الدقائق من وقته في قراءة هذه الروايات ..
فنحن لا يهمنا كل هذا الخلاف .. بقدر ما يهمنا
ان ثبت ان آزر .. المذكور في القرآن الكريم
.. ليس أبا لابراهيم .. وانما هو عمه ..
لأسباب الآتية :

أولا - اذا كانت آية الانعام تقول « واذا قال
ابراهيم لأبيه آزر » ..

فليس معنى هذا ان آزر أبوه .. بل قد
يكون هذا التعبير .. دليلا على انه ليس أباه ..
فمثلا أبى اسمه محمد .. وعمى اسمه حامد
.. فاذا أنت قابلت عمى في مكان ما .. فانك
نقول لى : لقد قابلت أباك حامد في مكان كذا ..
اما اذا قابلت أبى الحقيقى « محمد » فلا تقول
لى قابلت أباك محمد .. وانما تقول قابلت أباك
فقط .. فذكر اسم آزر بعد كلمة « أبىه »
لا تدل على انه أبوه حقيقة .. ولكنها تحتمل
معنى العم ..

ثانيا - لو تدبرنا قول الله تعالى « أم كنتم
شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه
ما تعبدون من بعدى ، قالوا نعبد الهك واله
آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق » فجعلوا
اسماعيل من آباء يعقوب ، مع ان اسماعيل
عمه .

ثالثا - من المعروف ان آزر عبدو لله ..
فكيف يكون أبا لابراهيم ؟ .. وكيف نفسر قول

(١) القرطبي ٧٥ / الانعام .

(٢) من قصص الانبياء للنجاح .

(٣) القرطبي ٧٤ / الانعام .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم « خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح .. لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء ، فأنا خيار من خيار من خيار ، من لدن آدم الى أن ولدني أبي وأمي » .

اليس وجود عدو لله في سلسلة الخيار نفسها ؟ ..

رابعاً - يقول الله لحبيبه محمد - عليه الصلاة والسلام - « وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم ، وتقلبك في الساجدين » أى تقلبك وانتقالك من ظهر ساجد الى ظهر ساجد .. فكيف يكون ظهر آزر من ظهور الساجدين ؟ ..

خامساً - استغفر ابراهيم لابيه آزر .. في أول الأمر . وذلك وفاء منه لوعده آياه .. عندما قال له آزر : « لأرجمنك وأهجرني مليا ، قال : سلام عليك ، سأستغفر لك ربى أنه كان بى حفيضا » ٤٧/ مريم والسين للتنفيس .. وليست للتسويق .. وقد نفذ وعده بعد مناقشة قومه في سورة الشعراء :

« قال أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وأباؤكم الأقدمون فانهم عدولي إلا رب العالمين » الى أن قال « رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين ..

واجعل لى لسان صدق فى الآخرين .. واجعلنى من ورثة جنة النعيم وأغفر لأبى أنه كان من الضالين » من آية ٧٥-٨٦/ الشعراء .. فالدعاء هنا بالمغفرة لابيه آزر .

ولكن ابراهيم - عليه السلام - بعد ذلك وبعد أن تبين له بالروحى .. أو بالتجربة .. أنه لن يؤمن مطلقا .. تبرأ منه .. اقرا « وما كان استغفار ابراهيم لابيه « آزر » الا عن موعدة وعدها آياه ، فلما تبين له أنه عدو لله ، تبرأ منه ، أن ابراهيم لاواه حليم » ١١٤ / التوبة ..

وأما فى نهاية أيام ابراهيم - عليه السلام - وعندما قرب الأجل .. نرى الحقيقة واضحة .. فى قوله من سورة ابراهيم « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل وإسحاق » .. الى أن قال « ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ٣٩-٤١/ ابراهيم .

هنا فى النهاية .. يطلب المغفرة لابيه الحقيقى - تارح - بعد أن تبرأ من آيه آزر .

أعتقد .. أنه لم يعد هناك شك فى أن آزر - عدو الله - ليس أباً لابراهيم .. وقد يكون تارح .. مات وزوجه حامل فى ابراهيم .. أو مات .. وابراهيم صغير .. وتزوج آزر أرملة أخيه .. فنشأ فى كفالة أبيه آزر .. والله تعالى أعلم ..



٢ أبو الفتيان

السكرية .. وهذا يمتص المواد النشوية ..
وذلك يمتص المواد الحريفة .. وهكذا .. بينما
التربة واحدة .. والماء واحد .. وكان الله الهمة
بالفطرة « وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات
من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ،
يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في
الأكل » ٤ / الرعد .

وامتد به الفكر .. الى ما وراء هذه الظواهر
.. الى أساس هذا الامداد المادي .. الذي
يخترق الاثير .. ليصل الى عود أخضر .. على
سطح الأرض فيمده بالشحنات الغذائية ..
اللازمة لحياة الانسان والحيوان والطيور وكل
ذي كبد رطب .. وأصله من السماء .. من
الكواكب .. من المقسمات أمرا ..

والامر .. هو الأساس الروحي .. للأثر
المادي .. فالله سبحانه يقول : « وأوحى في كل
سما أمرها » ١٢ / فصلت ..

ويقول أيضا « وفي السماء رزقكم وما
توعدون » ٢٢ / الذاريات .

ولعل هذا هو المقصود في قوله تعالى في أول
سورة الذاريات : « والذاريات ذروا ، فالحاملات
وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا »
والامر هنا .. هو أمر الرزق .. والفلاحون
يلمسون هذا .. فمثلا تفتح لوز القطن ..
لا يكثر الا في الليالي القمرية .. حتى أنهم
لا يجنونه الا بعد مرور تلك الليالي .. ليكمل
تفتحها .. كما أن الثمار القنابية (١) .. لا يرداد
نموها .. الا في نفس تلك الليالي القمرية أيضا

شب ابراهيم .. في رعاية عمه آزر وكفالاته
.. وكان آزر نجارا .. يصنع الآلهة ويتجر فيها
.. كما نصت على ذلك الأناجيل .. ومن بينها
انجيل برنابا .. وهو أوثق الأناجيل .. التي
يطمئن اليها المؤرخون وكان ابراهيم يساعده في
صنعها ..

ولعل هذا الجو .. الذي نشأ فيه
ابراهيم - عليه السلام - من العوامل التي
دفعته الى الشك .. في تلك العبادة - عبادة
الأصنام - التي كان يصنعها بيديه .. ودفعه
الشك الى النظر والبحث .. فحقق ودقق ..
وفكر ونظر .. وانطلق على وجهه .. هائما في
أحضان الطبيعة .. مع شروق الشمس ينجى
كل ما يقع عليه بصره .. على سطح الأرض ..
من حيوان وطيور ونبات .. من الذي أعطى كل
شيء خلقه ؟ .. من ربه وقومه فأحسن تركيبه
.. وأبدع تقويمه ؟ .. وهذا الشراب الحلو
اللاذئذ .. في البرتقالة .. من أين أتى ؟ .. اذا
كان من الأرض .. فلا بد أن يكون قد مر من
الجذر الى الساق الى الفصن الى العنق الذي
نصب في تلك الثمرة .. فيقطع العنق .. قبل
البرتقالة بقليل .. ثم يتوق العصارة التي
تجري فيه .. فيجدها شديدة المارة ..
لاذعة المذاق .. فيستنتج أن هذه الشجرة
ما هي الا سبب .. تتفاعل مع الجو والكواكب
.. فتمتص هذا الشراب الحلو اللذيذ .. ويحكم
بمقتضى العقل .. بأن كل عود من أعواد النباتات
المختلفة .. ما هو الا سبب أيضا .. لامتصاص
الشحنات الغذائية اللازمة لحياة الانسان
والحيوان .. فهذا عود .. يمتص المواد

(١) كالخيار والفناء والشمام والبطيخ .

.. مما يدل على وجود علاقة بين تلك النباتات وهذا الكوكب ..

خطر كل هذا .. ببال ابراهيم .. وهو لم يردد الا حيرة .. وشكا .. من الذى يدبر كل هذه الامور الدقيقة .. البديعة .. الرائعة ؟ .. ومن الذى يشرف على هذا الكون الواسع الشاسع .. البعيد ؟ ..

ومر به الوقت .. وهو على هذا الحال .. حتى مالت الشمس الى الافق .. رويدا .. رويدا .. ثم ابتلعها الفضاء اللانهائى الرهيب .. وحتى شهد النهار يجرى حثيثا .. امام جحافل الليل الزاحفة من الشرق .. ثم لفته الظلمة بردائها الاسود القاتم ..

وامتد بصره الى السماء .. فرأى كوكبا يتلألأ فى المشرق .. فقال : هذا الكائن المرتفع البعيد المتال .. المشرف على الكون من اعلاه .. انه هو الذى يستحق ان يكون ربا .. فارتبط به بصره .. من درجة .. الى درجة .. ومن منزلة .. الى منزلة .. حتى قطع الكوكب قوسا فى الافق الجنوبى الشرقى .. ثم ابتلعه الافق الجنوبى الغربى : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما افل قال لا احب الاقلىن » ٧٦ / الانعام . قال : لا .. ليس هذا ربى .. ولو كان ربا .. فلماذا غاب واختفى ؟ ومن الذى يرعى الكون فى غيابه ؟ .. ثم رأى القمر .. فقال : هذا ربى .. « فلما رأى القمر نازغا ، قال هذا ربى » ٧٧ / الانعام ..

فلما وجده يميل الى الغروب فى الصباح .. بلغت به الحيرة منتهاها .. وصعد الشك الى ذروته .. فلجأ الى الحقيقة المجهولة .. التى تحرك لها وجدانه .. وتفاعلت بها خلجاته .. ولا مست شفاف قلبه .. فقال « لئن لم يهدنى ربى لاكون من القوم الضالين » ٧٧ / الانعام ..

واطلت الشمس من خدرها .. ترسل اشعتها .. فى الكون الرحيب .. كما ترسل الحسناء شعرها الذهبى المنساب على جيد الزمن .. فانطلقت العصافير تشفق انشودة الصباح .. واتجهت اوراق النباتات الى الشرق .. وكأنها تحتضن تلك الاشعة .. وتتعلق بها .. كما يتعلق الطفل الملتاع بتلابيب امه .. وقد وجدها بعد طول حنين .. ودبت الحياة فى الكون الهامد بعد ليل من السكون طويل .. فقال هذا ربى .. هذا اكبر .. فلما رأى الشمس بازغة ،

قال هذا ربى ، هذا اكبر ٧٨ / الانعام . اكبر حجما ، وقوة وأثرا ..

ومر به النهار الثانى فى الكون وهو على هذا الحال .. الشارد الداهل الملتاع .. وغربت الشمس .. وهنا فقط .. وبعد تلك الجولة الشاقة المضنية .. بعد ست وثلاثين ساعة من الفكر والنظر والتعمق .. فى ملكوت السماوات .. بعد ملكوت الأرض .. بلغ درجة اليقين .. فقال « يا قوم انى برىء مما تشركون .. انى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض خنيفا ، وما انا من المشركين » ٧٨ - ٧٩ / الانعام « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين » ٧٥ / الانعام . والطبيعة ابها الاخ المؤمن .. هى المدرسة الوحيدة .. الموصلة الى الايمان .. وكم حرضنا الله - سبحانه - على النظر فيها .. ولكننا عنها غافلون .. او متغافلون .. فاقرا قوله تعالى « قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض » وللدليل على أهمية هذا الامر .. قوله بعد ذلك استعجلا للنظر والتأمل « او لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض يملكون عليها وهم معرضون » . وامامنا عشرات الآيات التى تحرضنا على النظر .. والتفكير فى كل ما اخرجت لنا يد الله القادر البديع المصور اللطيف .. من سماء مرفوعة .. الى أرض موضوعة .. ومن ابل فى السماء سابحات (١) .. الى جبال فى الأرض ناطحات .. ومن افلاك سارية .. الى انهار جارية ..

ولكنه ابراهيم .. الذى يقول الله عنه « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » نقول صاحب تفسير الكشف : ان الله علم منه احوالا بديعة .. واسراراً عجيبة .. وصفات قد رضىها وحمدها .. حتى أهله لخلته ومخالصته - ا ه - .

وكان ابراهيم فى هذا الحين .. ابن ستة عشر عاما .. حيث يقول الله تبارك وتعالى .. حكاية عن قوم ابراهيم « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » ٦٠ / الانبياء . وسن الفتوة كما نعلم بين الثانية عشر ، والسادسة عشر .. وقد زل بعض المفسرين .. فى معنى تلك الآية التى نستعرضها « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ... الخ » ..

فقال بعضهم : رأى كوكبا .. فعبدته حتى غاب عنه .. وكذلك الشمس والقمر ..

(١) الجمال ابل الصحراء .. والسحب ابل السماء ..

وقال آخرون : ظل يعبدها .. في مهلة النظر .. وحال الطولية .. وقبل فيام الحجة (١) .

وكيف يصح ان نتخيل هذا .. على من عصمه الله .. وآتاه رشده من قبل .. واره ملكوته ليكون من الموقنين ؟ ..

لقد عرف ربه .. من اول النظر ..

وقال الزجاج عن هذا الراى :

انه خطأ وغلط ممن قاله .. ففد اخبر الله عنه « وان من شيعه لابراهيم ، اذ جاء ربه بقلب سليم » ٨٤ / الصافات / والقلب السليم هو الذى لم يشرك قط ..

ومن احسن ما قيل فى هذا .. ما صح عن ابن عباس .. انه قال فى قوله تعالى : « نور على نور » ٣٥ / النور / كذلك قلب المؤمن .. يعرف الله - عز وجل - ويستدل عليه بقلبه .. فادا عرفه ازداد نورا على نور .. وكذا ابراهيم .. عرف الله - عز وجل - بقلبه .. واستدل عليه بدلائله فعلم ان له ربا وخالفا .. فلما عرفه الله بنفسه .. ازداد معرفة .. فقال :

« اتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا اخاف ما شركون به ، الا ان يشاء ربي شيئا ، وسع ربي كل شيء علما ، افلا تتذكرون » ، ٨٠ / الانعام .

وعاد ابراهيم الى عمه آزر وقومه .. بعد ان حل اليقين فى قلبه محل الشك .. الذى كانت يضطرم به نفسه .. ويحترق منه فؤاده .. فلفيه آزر غاضبا ساخطا - امام ملا من قومه - اين كنت يا ابراهيم ؟ ولماذا تركت العمل دون ان تتم صناعة الالهة .. وهى مطلوبة منا ؟

وهنا يجد الفرصة سانحة للتهكم والسخرية بهم وباصنامهم .. فيقول « ما هذه التماثيل التى انتم لها عاكفون » ؟ ٥٢ / الانبياء / فقالوا ببساطة : « وجدنا آباءنا لها عابدين » ٥٣ / الانبياء .

وما اقبح التفليد ، والقول المتقبل بغير برهان .. وما اعظم كيد الشيطان للمقلدين .. حين استدرجهم .. الى ان قلدوا آباءهم فى عبادة التماثيل .. وعمرؤا لها جباههم .. وهم معتقدون انهم على شيء .. ومجادلون اهل الحق عن باطلهم .

وكفى اهل التقليد سبه .. ان عبده الاصنام منهم .. فقال لهم ابراهيم « لقد كنتم انتم وآباؤكم فى ضلال مبين » ٥٤ / الانبياء .

وانتم هنا .. من التاكيد الذى لا يصح الكلام مع الاخلال به .. اراد ان المقلدين والمقلدين بكسر اللام وفتحها .. هم جميعا منخرطون فى سلك ضلال .. لا يخفى على من به مسكة من عقل لاستناد الفريقين الى غير دليل .. بل الى هوى متبع .. وشيطان مطاع ..

ظلوا متعجبين من تضليله اياهم .. وحسبوا ان ما قاله .. انما قاله .. على وجه المزاح والمداعبة .. لا عن طريق الجد .. فقالوا له : - اهذا الذى نقوله يا ابراهيم .. جد وحق .. ام لعب وهزل ؟ « قالوا اجئتكم بالحق .. ام انت من اللاعبين » ؟ ٥٥ / الانبياء .. فانتقل بهم الى الدليل والبرهان .. « قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن ، وانا على ذلكم من الشاهدين » ٥٦ / الانبياء / بتيسر بذلك .. الى ما شاهده فى رحلته الطويلة .. فى ملكوت السماوات والارض ..



٣ ذبح الطيور

ذكرنا في تقديم هذا السلسل الكريم .. أن اليقين على ثلاث درجات :

علم ، وعين ، وحق .. وضرينا لذلك متلا بالتفاحه .. فانا أعلم بعينا بوجود فاكهة اسمها نفاحه .. ولكنني لم أرها .. فهذا « علم اليقين » .. فإذا رايتها بعيني .. ترقى اليقين في نفسي من درجة علم اليقين .. الى درجة « عين اليقين » .. حتى اذا اكلتها .. صار اليقين في درجة « حق اليقين » بالنسبة لهذا النوع من الفاكهة .

وبعد ان احتدم الجدل بين ابراهيم - عليه السلام - وقومه .. اتجه الى أبيه آزر .. قائلا : يا أبت .. كيف تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ؟ .. ولا ينفع ولا يضر ؟ .. يا أبت لقد فتح الله لي من آفاق العلم والمعرفة .. ما لم تصل اليه .. فاتبعني ولا تتبع الشيطان .. يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الذى فطر السماوات والأرض .. فهو وحده الذى نجب عبادته وتقديسه .. وهو القائم على كل نفس .. والمدبر لكل أمر ..

« واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا ، اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفنى عنك شيئا ، يا أبت انى قد جاءني من العلم ما لم ياتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى أخاف .. أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » ٤١ - ٤٥ مريم .

وينفجر آزر غضبا وسخطا .. قائلا : انت كافر بالهتى يا ابراهيم .. أخرج من بيتي

لا تعاشرنى ولا أعاشرك ، ولا تخابرنى في زاد .. ولا أخابرك « قال أراغب ، أنت عن آلهمى يا ابراهيم لئن لم تنته لارجمنك وأهجرنى مليا » (٤٦ / مريم) .

وهنا يبرز القلب الرحيم الحليم الاواه المنيب .. قلب ابراهيم .. ارحم قلب في الوجود وليس ادل على ذلك .. من طلبه من الله - سبحانه - الغاء جهنم .. بعوله - عليه السلام لربه « فمن بعنى فانه منى ، ومن عصانى فانك غفور رحيم » (٣٦ / ابراهيم) اليس هذا .. طلبا صريحا منه .. لالغاء جهنم ؟ ..

غلبت عليه صفة الرحمة .. لآبيه آزر .. بعد ان هددته بالرجم والطرود : « قال .. سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا » (٤٧ / مريم) أى مكرما .. يجيب طلبى ويحقق أربى ويأخذ بيدى .. ويهدينى سواء السبيل . □ □ □

وخرج ابراهيم - عليه السلام - وهو لا يدري الى أين يذهب .. وقد هذه التعب .. وأنهكه الجوع .. يومان متتاليان .. لم يهدا فيهما .. ولم يذق طعاما ... فأوى الى خارج أسوار المدينة .. مدينة « فدام آدم » حيث جلس في ركن هادىء بجانب الأسوار .. ولم يلبث ان أخذته سنة من النوم .. فرأى في منامه .. وجها أبيض كاللبن مستديرا كالقمر .. مشرقا كالصبح .. ينظر اليه فى بسمة عريضة .. تملأ أجواز الفضاء .. وقام من نومه فرعا .. فبرى صاحب هذا الوجه الجميل .. واقفا أمام حديقة فى الجانب المقابل بعد باب السور .. يدعو .. مشيرا اليه بيده .. فينظر اليه ابراهيم فى ذهول .. ودهشة .. واذا بصاحب

وجاء في كتب التفسير ان الطيور كانت : -
طاووسا ، وديكا ، وغرابا ، وحمامة ..

قطعها ابراهيم بعد ذبحها .. ووضع اللحم المختلط فوق قمم التلال الأربعة .. ودعاها باسم الله - واذا به يرى تلاحم القطع لتعود الى أصولها .. ومن غير زمن . فالزمن في تنفيذ شيء .. تعلقت به قدرة القادر العزيز الحكيم .. امر لا محل له ..

فاذا كان امره - سبحانه - للشيء اذا اراده .. ان يقول له كن فيكون .. فذلك الامر غير مقيد بلفظ « كن » فالكاف في النطق لها زمن .. والنون لها زمن ثان فهل أدركه العجز في الزمن الأول .. فاتبعه بالزمن الثاني ؟ .. وهذا محال على الله - جل شأنه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا - ولهذا نقول : « وامره بين الكاف والنون » .

ويظهر ذلك جليا .. في قول الذي عنده علم من الكتاب .. الكتاب الذي حمله الهدهد - سفير سليمان - قوله لسليمان بخصوص احضار عرش بلقيس (من اليمن بجنوب الجزيرة العربية الى اورشليم بفلسطين) « أنا أتيك به قبل ان يترد اليك طرفك أى قبل ان ينزل الجفن العلوى .. ليتلاقى مع الجفن السفلى .. فهذا النزول يحتاج الى زمن .. ولهذا .. قال « قبل ان يترد اليك طرفك » .. وفي نجم آخر يقول - سبحانه - وما امرنا الا واحدة » . ويقول ايضا « كلمح البصر أو هو اقرب » .. يريد الله ان يلفت نظرنا الى ان تنفيذ امره منزه عن القيد الزمنى ..

وهكذا .. رأى ابراهيم « بعيني رأسه » .. كيف عادت الطيور بعد ذبحها وتقطيعها وهنا .. بلغ مرتبة حق اليقين .. وحمل الرسالة ..

واستسمح القارئ الكريم .. لحظة .. قبل ان نبعدنا العرض عن مشهد ذبح الطيور فنحن نذبح الطير لنأكله .. فتلك هي الغاية من وجوده .. أما طيور ابراهيم عليه السلام فقد ذبحت .. ثم عادت اليها الحياة .. ولزم أن تموت بعد ذلك .. مرة ثانية .. فصار هذا الأمر عذابا لها .. تسبب فيه ابراهيم عليه السلام - ليرى كيف يحيى الله الموتى - وكان .. عذاب تلك الطيور .. ظل ذنبا عالقا في عنقه .. من أيام شبابه الأولى الى أن صار شيخا فانيا .. رزقه الله تعالى على كبره بسلام .. شب ونما .. حتى بلغ معه السعى .

« ويريد الله تعالى أن يظهر خليفه من حق الطير عنده قبل ان ينتقل الى الرفيق الأعلى

الوجه يناديه: تعال يا ابراهيم .. فيرداد دهشة وذهولا .. قائلا : - اتعرف اسمى ؟ هل انت ربى ؟ فيقول له يا ابراهيم .. انا عبد مثلك .. أنا جبريل .. قال ومن جبريل ؟ قال : ملك ارسلنى الله اليك .. قال : لماذا ؟ ... قال : لتذهب الى نمرود .. وتخبره انك رسول الله اليه .. وتأمره بالمعروف وتنهيه عن المنكر .. تأمره بعبادة الله وحده .. وتنهيه عن طفيانه وجبروته .. وتضلil قومه بادعاء الالهية ..

□ □ □

.. وقد روى ابو ادريس الخولاني .. عن ابي ذر الغفارى .. من حديث طويل قال : .. « قلت يا رسول الله .. فما كانت صفات ابراهيم ؟ قال : « كانت كلها امثالا : - أيها الملك المفلور المسلط المبتلى .. انى لم أبعثك لتجمع الدنيا .. بعضها على بعض .. ولكنى بعثتك لترد عني دعوة المظلوم .. فاني لا أردّها ولو كانت من كافر » .

وسنذكر الحديث كاملا - ان شاء الله - في حينه .. في نهاية هذا الفصل .

فقال ابراهيم لجبريل - عليهما السلام - وكيف أواجه نمرود بهذا .. وهو ملك جبار ظالم انه يقتلنى ، فيقول له جبريل في بسمته العريضة : « اذا قتلك نمرود .. فان الله يحييك بعد موتك .. فقال : كيف أحيا بعد موتى ؟ أريد أن أرى كيف يحيى الله الموتى ، قال : .. أو لم تؤمن ؟ .. قال : نعم آمنت وأيقنت ان للكون الها قادرا عليهما حكيمًا .. ولكن .. ليطمئن قلبى ..

ولعل ابراهيم - عليه السلام - محق في هذا الطلب .. فهو شاب حديث السن .. سيواجه بمفرده قوما عتاة جبابرة .. وسيلاقونه بكل انواع البطش والعذاب « واذا قال ابراهيم رب ارنى كيف يحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » (الآية ٢٦٠ / البقرة) .

قال له جبريل : خذ هذه الطيور الأربعة .. واذبحها .. وقطعها قطعا صغيرة .. ثم اخلط لحما .. وضع فوق كل تل من تلك التلال الأربعة جزءا .. من هذا اللحم المختلط ثم ادعهم باسم الله لترى أنها عادت حية .. كما كانت قبل ذبحها ، « قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهم يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله عزيز حكيم » (٢٦٠ / البقرة) .

فيأمره بلبح وحيد . . ليديقه هو ألم اللبح . .
ابتلاء له وتكفيرا عن هذا الذي حدث بسببه
من تعذيب الطير .

والله سبحانه وتعالى يقول في هذا المقام :
« ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك
من سيئة فمن نفسك » . ونعود الى حديث
صحف ابراهيم الذي بدأنه من قريب :

فقد روى ادريس الخولاني ، عن أبي ذر الغفاري ،
قال : قلت يا رسول الله . . كم كتابا أنزل الله
تعالى ؟ قال : « أنزل الله تعالى - مائة صحيفة
. . وأربعة كتب . . أنزل الله على آدم عشر
صحائف . . وعلى شيث خمسين صحيفة ،
وعلى ادريس ثلاثين صحيفة ، وعلى ابراهيم
عشر صحائف . . وأنزل التوراة ، والزبور ،
والفرقان » قلت : يا رسول الله . . فما كانت

صحف ابراهيم ؟ قال « كانت أمثالا كلها . .
منها « أيها الملك المبتلى المسلط المغرور . . انى
لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض . .
ولكننى بعثتك لترد عني دعوة المظلوم . . فانى
لا أردّها ولو كانت من كافر . . فيها أمثال : على
العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله . . ان يكون
له أربع ساعات . . ساعة يناجى فيها ربه . .
وساعة يتفكر فيها . . في صنع الله تعالى . .
وساعة يحاسب فيها نفسه على ما قدم وآخر . .
وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال في الطعام
والمشرب وغيرهما .

وعلى العاقل الا يكون طاعنا الا في ثلاث :
نزود لمعاده . . ومؤنه لمعاشه . . ولذة في
غير محرم . . وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه
. . مقبلا على شأنه . . حافظا للسانه . . ومن
علم أن كلامه شر من عمله . . قل كلامه فيما
لا يعنيه . . والله عن محذور يفنيه . .

□ □ □

٤ محكمة

ويظهر أسلوب ابراهيم .. وأدبه .. وعدم غروره .. في قوله لهم : فأى الفريقين أحق بالامن ولم يقل فأينا أحق بالامن .. أنا أم انتم .. احترازا منه في تزكيته نفسه .. فقال : فأى الفريقين .. يقصد فريق الموحدين ، أم فريق المشركين ؟ .. ثم يجيب هو على سؤاله .. بقوله « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (٨٢/ الانعام) .

وفي الصحيح عن ابن مسعود .. لما نزلت « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم .. الخ » شق ذلك على الصحابة .. رضوان الله عليهم - وقالوا : اينما لم يظلم نفسه يارسول الله ؟ .. فقال عليه الصلاة والسلام ليس هو كما تظنون .. انما هو ما قال لقمان لابنه : يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم » (١) .

□ □ □

لم تفد معهم البراهين .. فقرر في نفسه تحديهم .. بما هو أقوى من البرهان الكلامي .. وأراد استفزازهم .. بتحطيم آلهتهم التي يقدسونها .. ويعبدونها .. ويخشون بأسها .. فقال في نفسه « وتالله لا أكيدن أصنامكم بعد ان تولوا مدبرين » (٥٧/ الانبياء) .

وقال « بعد ان تولوا مدبرين » لصعوبة هذا الأمر .. وخاصة في زمن تمرؤذ مع عتوه ، واستكباره وقوة سلطانه ، وتهالكه على نصرته دينه ..

خرجوا يوم عيدهم : .. بعد ان تركوا الطعام عند الآلهة .. ولم يخرج معهم ابراهيم بحجة المرض .. حيث قال : انى سقيم ..

عاد ابراهيم الى قومه .. وقد ملا الايمان قلبه .. واحتوى اليقين نواحيه .. يجادلهم ويجادلونه .. هو يدعوهم الى التوحيد .. وهم يدافعون عن آوثانهم واصنامهم ..

ولقد كان ابراهيم وحده أمة « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » .. لانه فرد .. حارب أطفى أمة .. على رأسها اعظم جبار .. وهو في سن الفتوة « وحاجه قومه ، قال اتحاجوني في الله وقد هددان ، ولا اخاف ما تشركون به ، الا ان يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شيء علما ، افلا تتذكرون » (٨٠/ الانعام) .

□ □ □

ويتضح من النص .. أنهم خوفوه آلهتهم .. وتوعده بفضيها وعذابها .. ولكنه يقيم عليهم الحجة .. بانها لا تسمع ولا تبصر .. ولا تفنى عنهم شيئا .. قائلا لهم : انها لا تستطيع ضرى .. الا اذا اراد ربى ان يصلنى الضر عن طريقها .. ولن يكون ذلك الا بسبب ذنوبى .. فالله ليس بظلام للعبيد ..

وعلى هذا الاساس .. كان ابراهيم يريد اقناعهم .. فقال : يا قوم افلا تميزون بين الصحيح والفساد ؟ والقادر والعاجز ؟ كيف اخاف مأمون الخوف .. الذى لا يتعلق به ضرر بوجه .. وانتم لا تخافون من يتعلق به كل مخوف « وكيف اخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون » (٨١/ الانعام) ..

ولست أدري .. هل كانوا يعتقدون أن الأصنام .. تأكل الطعام .. بينما يستولى عليه الكهنة ؟ .. أم أنهم كانوا يضعون الطعام أمام الآلهة .. بقصد البركة ؟ ..

المهم .. إن إبراهيم عليه السلام - دخل حجرة الهيكل .. ومعه فأس .. ثم نظر إلى الأصنام السبعين المصطفة .. وقال لها .. ساخرا .. شاهرا فأسه في وجوها .. مشيرا إلى الطعام الملقى أمامها .. لماذا لا تأكلون هذا الطعام الفاخر ؟ .. مالكم لا تنطقون أيتها الآلهة الصماء البكماء ؟ ..

« فراغ إلى آلهتهم ، فقال الا تأكلون ، مالكم لا تنطقون » (٩١ - ٩٢ الصافات) ثم انهال عليها ضربا بالفأس .. حتى جعلها .. على الجانبين .. قطعاً صغيرة .. ووصل إلى زعيمها .. المصنوع من الذهب صاحب الجوهرتين في عينيه .. وقد وقف في صدر الهيكل .. فتركه .. وعلق الفأس في عنقه ثم انصرف إلى مأواه « فجعلهم جذاذاً الا كبيراً لهم .. لعلهم إليه يرجعون » (٥٨/الأنبياء)

□ □ □

وعاد القوم من عيدهم .. بعد يوم ممتع .. ملئ بالمرح والصخب .. واللهم واللعب .. أطفالاً وشيوخاً .. وذكرانا وإناثاً .. بين رنين الكاس .. ورقصات الحسان .. وأصوات الفوانى .. ومزامير الشيطان .. وهرول الكهنة .. آخر اليوم .. إلى حجرة الآلهة .. ليقدموا لها القرابين .. ويحرقوا أمامها البخور .. فوجدوها أحجاراً مهشمة .. وقطعاً محطمة .. فقالوا : عجباً « من فعل هذا بالهتنا .. انه لمن الظالمين » (٥٩/الأنبياء) فقال الجميع ان حديث الناس الآن .. عن فتى كافر بالهتنا ظهر في المدينة .. دائم السب فيها .. والتعريض بها .. والتحقير من شأنها .. فلا بد أنه هو الذي فعل تلك الفعل الشنيعة « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » (٦٠/الأنبياء) .. وجن جنون نمرود .. أحضروا هذا الكافر .. المارق عن ديننا .. ودين آبائنا .. لنحاكمه أمام القوم .. « قالوا فاتوا به على أعين الناس ، لعلهم يشهدون » (٦١/الأنبياء) . وتقوم قيامة رجال الأمن .. وتحرك قوات المخابرات .. للقبض على هذا الجاني الأثيم .. الذي سفه أحلامهم .. وأهان آلهتهم .. ودمرها تدميراً .. فوجدوا إبراهيم .. في انتظارهم .. لم يعبأ

بقوتهم .. ولم يخف بأسهم « فأقبلوا إليه يزفون .. قال : اتعبدون ما تنحتون .. والله خلقكم وما تعملون » (٩٤ - ٩٦/الصافات) . فقبضوا عليه .. وحبسوه بالأغلال .. وساقوه إلى مجلس القضاء ..

جلس نمرود في عظمته .. وأبهة ملكه .. وحوله كبار الكهنة .. ورجال الدولة .. في أول محكمة شعبية في تاريخ البشرية .. وأدخلوا إبراهيم - عليه السلام مقبوضاً عليه - لم تهتز في جسمه شعرة .. لأنه أيقن أن الله أكبر .. وبعد ان نظر إليه نمرود ملياً .. بدا محضر التحقيق .. بالسؤال الأول .

« انت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم » (٦٢/الأنبياء) ..

وكانت إجابته : - « بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم ان كانوا ينطقون » (٦٣/الأنبياء) . رد .. أنسبه ما يكون بصدمة كهربيته .. جعلت كل واحد من المستشارين يعود إلى نفسه ..

حفا لماذا لا يقول الآلهة عمن فعل بها هذا الامر ؟ .. فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا . انكم استم الظالمون » (٦٤/الأنبياء) .. واحس نمرود .. ان الزمام .. على وشك الافلات من يده .. ولكن بشيء من نظراته الوعيد والتهديد .. عاد المجلس إلى هدوئه .. ورد نمرود على إبراهيم « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » ٦٥/الأنبياء .. وذلك بعد أن وصف القرآن الكريم .. تكوصهم .. بعد وعيهم بقوله « ثم بكسوا على رؤسهم » ..

□ □ □

ووجد إبراهيم عليه السلام - فرصة يواجه بها نمرود .. وهو في أوج مجده وعظمته : - « قال اتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً .. ولا يضركم ، أف لكم وما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون » (٦٦-٦٧/الأنبياء) وابتلع نمرود .. هذا التحدي .. ليوجه إليه السؤال الثاني : -

الك اله غيري يا إبراهيم ؟ ..

وكان طبيعياً .. أن أول الصفات التي تتبادر إلى ذهن إبراهيم .. هي صفة .. أحياء الموتى .. التي رآها من قريب .. فكان جوابه : نعم « ربى الذى يحيى ويميت » (٢٥٨/البقرة) .. فقال نمرود « أنا أحيى وأميت » .. وورط نفسه .. وكان عليه .. أن يتخلص من المأزق

الذى وضع نفسه فيه .. فعفا عن احد المحكوم
عليهم بالاعدام .. وقتل آخر .. وذلك ليثبت
للملا أنه يحيى ويميت .. وواضح ان الحجة
واهية .. والدليل ضعيف .. فآلقمه ابراهيم
الحجر .. وقال « فان الله يأتى بالشمس من
المشرق فات بها من المغرب » .. حجة دامغة ..
لم يستطع نمرود منها فكاك .. هل يستطيع
ان يقول : نعم .. فيكون قد حدد لنفسه النهاية ..
ليس الصبح بقريب ؟ .. افحمته الحجة ..
وأعجزه المنطق .. فلم يجر جوابا « وتلك حجتنا
آتيناه ابراهيم على قومه » (٨٣ / الانعام) ..
« فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين »
(٢٥٨ / البقرة) ..

ودائما .. اذا عجز الحاكم الظالم .. عن
مبادرة الحجة بالحجة .. ومقارعة الدليل
بالدليل .. استفل جبروته .. واستعمل
سلطانه .. انقاذا لموقفه .. امام شعبه المضلل
.. فقال : « حرقوه وانصروا آلهتكم ، ان كنتم
فاعلين » (٦٨ / الانبياء) .

يعنى انه حكم عليه بالاعدام حرقا ..
وزج بابراهيم - عليه السلام - فى زنزانة
ضيقة .. حتى تجهز له نار ضخمة .. فليق
بقاتل الالهة ..



٥ تبادل بين الجنة والنار

الأعظم .. ؟ على كل حال .. سأصرف في هذا الأمر .. عليك أن تستغفرى مما ألم بك من تمرد وعصيان ..

وذهب هاران أبوها - الى السجن .. حيث دخل على ابن أخيه في زنزانته .. وقال له : يا بني .. أنك مازلت شاباً حدثاً - وقد أخطأت خطأ شنيعاً .. وارتكبت جرماً فظيماً .. فاستغفر الاله الأعظم .. نمرود - وأنا اشفع لك عنده .. ليغفر لك ..

فما كان جواب ابراهيم الا ان قال : ان نمرود عبد مثلى ومثلك .. وأنا لا أستغفر العبيد .. ويثس الرجل منه .. فانصرف دون جدوى ..

وما أن خرج هاران من زنزانه ابراهيم عليه السلام - حتى دخل عليه جبريل .. هاشاً .. باشاً .. قائلاً : ألك حاجة يا ابراهيم ؟ فيقول له : أما اليك فلا .. ألسنت يا جبريل عبداً مثلى ؟ .. ولعلك سمعتنى الآن .. أقول لمن سبقك .. أنا لا أستغفر العبيد .. وأما اليه .. فعلمه بحالى .. يغنى عن سؤالى .. وقد ورد أن جبريل .. قال : يارب عبيدك ابراهيم .. قال كذا .. فقال الله سبحانه .. ألم تعلم أنه الخليل يا جبريل .. وقد حمل ابراهيم لقب الخليل من هذا اليوم ...

يقول ابن اسحاق : كانوا يجمعون الحطب شهراً .. حتى أنه كانت المرأة المريضة تقول : لئن شفيت .. لاجمعن الحطب للنار التى ستحرق ابراهيم .. ولما كثر الحطب .. وجمعوا منه ما أرادوا .. وأشعلوا النار فى كل ناحية .. لم يتمكنوا من القائه من شدة اللهيب .. وعدم استطاعتهم القرب منها .. فأوحى

كان هاران الأكبر بن ناحور - عم ابراهيم - هو سيد الكهنة فى قصر نمرود .. وكانت له فتاة وحيدة .. اسمها « ساراي » .. رباها أفضل تربية .. وعلمها فى أرقى معاهد « فدام آرام » .. وكان فى نفسها .. شئ كثير .. من جهة الأصنام لا تستسيغ عبادتها .. ودعائها .. وتعجب .. كيف تكون تلك الأحجار العمياء البكماء الصماء آلهة تعبد .. وهى لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ؟ .. ولكن ساراي تكتم كل هذا فى نفسها ..

وما أن انتشر خبر الفتى - ابن عمها - الذى حطم الآلهة .. حتى كانت أول الحاضرين الى مجلس المحاكمة الشعبية التى حوكم فيها ابراهيم .. وسمعت كل ما دار بين ابراهيم والاله الأعظم .. نمرود - ورات كيف أن نمرود .. لم يرد على ابراهيم الحجة بالحجة .. بل استعمل سطوته وجبروته .. فى هذا الحكم الظالم عليه .. وعادت الى بيت أبيها .. وفى نفسها أثقال من الأسى .. واحمال من الألم من أجل الفتى المظلوم ..

وما أن عاد أبوها الى المنزل .. حتى لاقتة بعاصفة من الشورة المشتعلة فى صدرها .. يا أبت : لماذا لم يرد الاله الأعظم على ابراهيم الحجة بالحجة .. حينما قال له : « فان الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب » ؟ .. ان ابراهيم مظلوم .. وان هذا الحكم بعيد كل البعد عن الحقيقة .. وإذا نفذ فيه حكم الاعداء فسأقتل نفسى .. ولا حياة لى بعده .. وانهمرت فى البكاء ..

وكان الرجل .. يحب وحيدته حباً يبلغ درجة العبادة .. فقال لها : ما هذا يا ساراي .. أتكفرين ؟ كيف تقولين هذا الكلام على الاله

الشیطان الیهم .. صناعة المنجنيق .. فالقوه
به فی النار ..

وتجمع الناس .. من كل انحاء البلاد ..
لیروا حرق ابراهيم .. قاتل الآلهة ومحطمها
.. وتحصل المعجزة .. الأشجار الضخمة
المشتعلة .. تفقد خاصيتها النارية .. وتعود فی
التو الى الخاصية النباتية .. فتدب الخضرة فی
أصولها .. وتترقرق النضرة فی اغصانها ..
وتورق .. وتزهر .. وتثمر .. كل هذا بدون
زمن مطلقا .. فقدره الله - فوق الزمان « وما
أمرنا الا واحدة » فيسقط ابراهيم - علیه
السلام من منجنيقه فی جنة زاهرة .. وبساتین
ناضرة .. بینما يشم الجمع لحم آدمی يشوی
.. واذا بهم يجدون جنة نمرود .. تتبادل
الطبيعة مع ناره .. فتأخذ كل خاصية الأخرى
.. فانقلبت الجنة الى نار تلتهم كل ما فیها
ومن فیها من الکفرة والعتاة الذین کرمهم نمرود
.. ومعهم كل وسائل ترفهم .. من الراقصات
والفانيات .. وآلات اللهو .. وقواریر الخمر
والعسل ..

وقد روى المفسرون .. أن ابراهيم - علیه
السلام - قال حين أوثقوه ليلقوه فی النار « لا اله
الا انت سبحانك .. رب العالمین .. لك الحمد
ولك الملك .. لا شريك لك » ثم القی به فی
المنجنيق الى النار وفي الخبر .. أن ابراهيم -
علیه السلام - انما نجى بقوله « حسبی الله
ونعم الوکیل » .. فقال الله تعالى « يا نار كونی
بردا وسلاما علی ابراهيم » ..

وقالوا : القی ابراهيم فی النار .. وهو ابن
ست عشرة سنة .. وهذا متفق علیه .. رواية
ونصا .. ومنطقا ..

ويخرج ابراهيم من النار .. امام الملا ..
محمولا علی الأمتاق .. مرفوع الراس ..
شامخ الهامة .. فی رعاية مولاه .. فأمن به ملا
من قومه .. علی خوف من نمرود وملثه ..
ومحن آمن به .. لوط ابن أخيه هاران الأصغر
.. وسارای بنت عمه هاران الأكبر .. حيث
تزوجها .. وهی السيدة سارة التي انجبت له
ابنه اسحاق بأرض فلسطين .. فی نهاية
عمرها ..

وقال اهل العلم بسیر الماضین : لما نجى الله
خليله ابراهيم - علیه السلام - آمن به من أمن
.. وتابعوه علی فراق قومهم .. واظهار البراءة
منهم .. فقالوا « أنا برآء منكم ، ومما تعبدون
من دون الله ، كفرنا بكم » أيها المعبودون « وبدأ
بیننا وبينكم العداوة والبغضاء » أيها العابدون
.. « حتی تؤمنوا بالله وحده » ٤ / المتحنه :
وذلك فی تفسير قوله تعالى « قد كانت لكم أسوة
حسنة فی ابراهيم والذین آمنوا معه » ..
الخ الآية ..

وتبرا ابراهيم من أبيه - آزر - بعد الذي
حدث .. ولم يطب له المقام .. بین اهله وقومه
.. فذهب الى أور الكلدانيين .. وهی مدينة
كانت قرب الشاطئ الغربي لنهر الفرات ..
ومكث بها مدة .. ثم رحل الى حران .. فمكث
بها بما شاء الله أن يمكث ..



٦ الهجرة إلى الله

وبعد حين حدثت مجاعة بأرض الشام .. اضطرت ابراهيم - عليه السلام - إلى الهجرة .. إلى مصر .. حيث المراعى الشاسعة .. والنماء والخصب .. ودخلها مع زوجته سارة ..

ويقول الحافظ بن حجر : أعطى يوسف وامه شطر الحسن - يقصد سارة - وكان سنهما .. في هذا الحين .. سبعا وخمسين سنة .. وكانت مصر .. تحت حكم ملوك الرعاة .. ويسمى الرومان « الهكسوس » وكان ملكها جبارا .. مولعا بالنساء .. وقد قرأت أحاديث كثيرة .. حول هذا الموضوع .. لشدة حساسيته .. وخطورة موضوعه .. منها حديث أبى هريرة .. عن النبى - صلى الله عليه وسلم : أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء .. مرفوعا .. وموقوفا .. وأخرجه مسلم فى الفضائل مرفوعا .. وأخرجه أحمد .. بسياق آخر .. ذكره الحافظ بن كثير .. عن أبى سعيد .. عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويؤيد تلك الروايات .. حديث الشفاعة .. فى فصل القضاء يوم القيامة .. من تخرىج البخارى من عدة طرق ..

ومفهوم تلك الأحاديث ، على ما ورد فى جميع كتب التفسير .. أن ملك مصر الجبار .. أبلغه عيونه .. عن دخول رجل معه امرأة جميلة .. شديدة الجمال .. إلى الديار المصرية .. فاستدعى ابراهيم - عليه السلام - وسأله عن

لما عزم ابراهيم - عليه السلام - على الهجرة .. من حران إلى الشام .. هاجرت معه زوجته ساره .. ولوط ابن أخيه .. ومع لوط زوجته : « فآمن له لوط .. وقال انى مهاجر إلى ربى ، انه هو العزيز الحكيم » ٢٦ / العنكبوت / وقد ورد أن عثمان - رضى الله عنه - لما هاجر بزوجه رقية .. بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الحبشة .. قال النبى : ان عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط / .. ونزلوا الشام .. وأقاموا فى تلك الانحاء .. وكانت أرض الكنعانيين .. أقام فى شكيم وهى مدينة - نابلس - « ونجيناها ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » ٧١ / الأنبياء أى نجيناها من العراق إلى الشام .. وقد بارك الله فيها .. بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب العيش للفنى والفقير .. وعن سفيان : أنه خرج إلى الشام .. فقبل له : إلى أين ؟ فقال : إلى بلد يملأ فيها الجراب بدرهم (١) .

وقال الأستاذ عبد الوهاب النجار .. فى كتابه « قصص الأنبياء » وكان لوط مع ابراهيم .. وكان الرجلان لهما أموال كثيرة .. وكان الرعاة يزدحمون .. على الاسامة والورد .. فاتفق رأيهما .. على أن يفترقا فى الإقامة .. حفظا لعلاقة المودة .. والرحم .. فذهب لوط .. إلى المؤتفكة - سدوم وعمورة - فى الأردن .. وأقام ابراهيم .. حيث كان .. وبينهما مسيرة يوم وليلة ..

(انه حينما يأتى الناس ابراهيم - عليه السلام . يوم الحشر .. يطلبون منه الشفاعة لفصل القضاء .. يقول لست هناك .. انى كذبت ثلاث كذبات : قوله : « انى سقيم » .. وقوله « بل فعله كبيرهم هذا » وقوله لامراته اخبريه « انى اخوك ») ..

وعاد ابراهيم - عليه السلام - مع زوجته
 .. ووصيفتها هاجر .. الى الشام .. وقد ورد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « اذا فتحت مصر .. فاستوصوا باهلها خيرا .. فان لهم ذمة ورحمها » يقول ابن اسحاق : فسالت الزهري .. ما لرحم النبي ذكرها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : كانت هاجر أم اسماعيل منهم . واستقر المقام بهم في بلاد بيت المقدس .. وكانت السيدة سارة عاقرا .. لم تلد .. وتالت اذ لم تجد لابراهيم نسلا .. وهى قد امتد بها العمر .. ولا يرجى لها أن تكون أما .. فانفقت مع ابراهيم .. ووهبته وصيفتها هاجر .. فدخل بها .. وأنجب منها .. اسماعيل - عليه السلام وذكر ابن كثير .. في تاريخه .. نقلا عن اهل الكتاب : انه لما كان لابراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة .. وهبت السيدة ساره له هاجر .. ودخل بها .. وجاءت باسماعيل - عليه السلام وذكر ايضا أن ولادة اسماعيل .. كانت قبل ولادة اسحاق .. بثلاث عشرة سنة .

ونظرا لتداخل قصص ابراهيم واسماعيل واسحاق ولوط - عليهم السلام - في بعضها .. لوجودهم جميعا .. في عصر واحد ..

سأعرض الأحداث بحسب ترتيبها الزمني .. وذلك لاننى لاحظت أن كل من كتب عن ذلك العصر لم يلاحظ هذا .. مما يوجد الشك عند القارئ .. في اى الأحداث كان قبل الآخر ..

صلته بالسيدة التى معه .. ففطن ابراهيم الى غرضه .. فقال له : انها أختى - يقصد أخته فى الاسلام - فالمسلمون أخوة - فقال له : أرسلها لاتزوجها فارسها ابراهيم .. بعد أن أخبرها .. بما حصل .

والانسان فى طفولته .. ينادى أمه .. اذا أفزع امر .. ولكنه اذا شب .. يجد أن نداء الأب أولى فى حالة الفرع .. فاذا بلغ الكمال والرجولة .. لا ينادى عند الفرع إلا الله ..

فعندما توجهت سارة الى لقاء الملك - بأمر زوجها - قام ابراهيم .. يصلى .. فالامر جد خطير .. ولما رآها الملك .. أهوى اليها بيده .. يريد تناولها .. فبيست يده الى صدره .. فعظم عليه الأمر .. وقال لها : سلى ربك أن يطلق يدى .. فوالله لا أذيتك .. فقالت سارة : اللهم أن كان صادقا .. فأطلق يده .. فأطلق الله تعالى - يده .. وفى بعض الروايات .. أنه فعل ذلك ثلاث مرات يريد أن يتناولها .. فتبيس يده .. فلما رأى ذلك .. ردها الى ابراهيم .. ووهب لها هاجر المصرية .. مع بعض الهدايا .. تكريما لها .. فأقبلت الى ابراهيم .. وهو مازال يصلى .. فلما أحس بها .. انفتل من صلاته وسألها .. فقالت : كف الله يد الفاجر .. وأخدمنى هاجر - اى أعطانى هاجر خادمة - .. يقول الرواة : كان أبو هريرة رضى الله عنه .. اذا حدث بهذا الحديث .. عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : فتلك أمكم يا بنى ماء السماء .

وفى بعض الأخبار .. أن الله تعالى .. رفع الحجاب بين ابراهيم وساره .. فى صلاته .. حتى كان ينظر اليها .. من وقت خروجها من عنده .. الى وقت عودتها اليه .. وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - فى حديث الشفاعة .. الذى أخرجه البخارى .. من عدة طرق .. فى أبواب متعددة .. فيما يتعلق بهذا الموقف :

□ □ □

٧ إلى مكة مع إسماعيل عليه السلام

إذا لن يضيعنا .. ثم رجعت .. فانطلق إبراهيم .. حتى إذا كان عند الثانية .. حيث لا يرونه .. استقبل بوجهه البيت .. ثم دعا بهولاء الكلمات .. ورفع يديه .. وقال : « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ٣٧ / إبراهيم .

ولا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في ترك ولده
وعياله بارض مهجورة .. بغير زاد .. اتكالا على العزيز الرحيم .. واقتداء بفعل إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كما تقوله غلاة الصوفية في حقيقة التوكل .. فان إبراهيم .. فعل ذلك بأمر الله تعالى .. لقوله في الحديث : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . وقد تضمنت هذه الآية .. أن الصلاة بمكة .. أفضل من الصلاة بغيرها .. وهذا حديث عبد الله بن الزبير .. قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « صلاة في مسجدى هذا .. أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد .. إلا المسجد الحرام .. وصلاة في المسجد الحرام .. أفضل من صلاة في مسجدى هذا بمائة صلاة » (١) وقد قال إبراهيم « وأجعل أفئدة من الناس ، ولم نقل وأجعل أفئدة الناس .. يقول ابن عباس : لو قال أفئدة الناس .. لزدحمت عليه فارس والروم والترك ، والهند ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس .. ولكن قال « من الناس » .. وهم المسلمون .

ونعود الى ابن عباس لنسمع منه حديث اسماعيل - عليه السلام - فيقول لنا عن رسول

لم يفصل القرآن الكريم .. مسألة ذهاب اسماعيل .. مع أمه الى مكة .. الا في عبارة إبراهيم - عليه السلام - « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » .. وانما فصلتها التوراة ..

وبينت ذهاب اسماعيل عن بلاد أبيه الى - فاران - أى مكة في سفر التكوين الأصحاح الحادى والعشرين في الآيات من ٩ الى ١٠ .

ويظهر في رواية سفر التكوين .. تحريف كثير .. والتحريف عند اليهود معروف ..
والخبث في تفكيرهم مألوف .. مما جعل المفسرين يختلفون في هذا الموضوع اخلافا بينا .. ولذلك رأيت أن نترك هذه القصة لابن عباس - رضى الله عنه - يرويها لنا : - ففى البخارى .. عن ابن عباس .. أن النبى صلى الله عليه وسلم : قال : (أول ما اتخذ النساء المنطق .. من قبل أم اسماعيل .. اتخذت منطلقا لتعفى اثرها على سارة .. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها اسماعيل .. وهى ترضعه .. حتى وضعهما عند البيت .. عند دوحة فوق زمزم .. فى أعلى المسجد .. وليس بمكة يومئذ أحد .. وليس بها ماء .. فوضعها هنالك .. ووضع عندها جرابا فيه تمر .. وسقاء فيه ماء .. ثم قفل إبراهيم منطلقا .. فتبعته أم اسماعيل .. فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنس ولا شيء ؟ .. فقالت له ذلك مرارا .. وجعل لا يلتفت إليها .. فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ .. قال : نعم .. قالت :

بيت الله يبني هذا الفلام وابوه ، وان الله لا يضع أهله) ..

وقد يسأل سائل هنا : وهل يغني الماء عن الغذاء .. في هذا المكان القفر ؟ .. ونحن نحيل الجواب .. على أبي ذر - رضي الله عنه .. ففي الصحيح .. أن أبا ذر .. اجتزا به ثلاثين من يوم وليلة .. قال أبو ذر : ما كان لي من طعام الا ماء زمزم .. فسمعت حني كثر عكني .. وما أجد على كبدي سخفة جوع .. (١) وعن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « ماء زمزم لما شرب له .. ان شربته تشفى به .. شفاك الله . وان شربته لشبعك .. أشبعك الله به .. وان شربته لقطع ظمئك .. قطعه .. وهي هزموه جبريل .. وسقيا الله اسماعيل ..

وكان ابن عباس .. اذا شرب من زمزم قال : اللهم اني أسألك علما نافعا .. ورزقا واسعا .. وشفاء من كل داء . وقال ابن العربي : وهذا موجود فيه الى يوم القيامة .. لمن صحت نيته .. وسلمت طويته .. ولم يكن به مكذبا .. ولا بشربه مجربا .. فان الله مع المتوكلين .. وهو يفضح المجريين .. ويقول أبو عبد الله .. محمد بن علي الترمذي .. حدثني أبي رحمه الله . قال : دخلت للطواف في ليلة ظلماء .. فأخذني من البول ما شغلني .. فجمعت أعصر .. حتى آذاني .. وخفت أن أخرج من المسجد .. ان أطا بعض تلك الأقدام .. وذلك أيام الحج .. فذكرت هذا الحديث .. فدخلت زمزم .. فتضلعت منه (٢) .. وذهب عني الى الصباح (٣) ..

ويكمل لنا ابن عباس حديث اسماعيل .. فيقول .. عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم . (وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية .. تأنيه السيول .. فتأخذ عن يمينه وشماله .. فكانت كذلك .. حتى مرت بهم رفقة من جرهم او أهل بيت من جرهم .. مقبلين عن طريق كداء .. فنزلوا في أسفل مكة .. فرأوا طائراً ، عائقاً .. فقالوا : ان هذا الطائر .. ليدور على ماء .. لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء .. فأرسلوا جرياً .. أو جريين (٤) ..

الله - صلى الله عليه وسلم : - (وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل .. وتشرب من الماء .. حتى اذا نفذ ما في السقاء .. عطشت .. وعطش ابنها .. وجعلت تنظر اليه يتلوى ، او قال بتلبط .. فانطلقت .. كراهية أن تنظر اليه .. فوجدت الصفا اقرب جبل في الأرض يليها .. فقامت عليه .. ثم استقبلت الوادي تنظر .. هل ترى أحدا ، .. فلم تر أحدا .. فهبطت من الصفا .. حتى اذا بلغت الوادي .. رفعت طرف درعها .. ثم سعت سعي الانسان المجهود .. حتى جاوزه الوادي .. ثم أتت البروة .. فقامت عليها .. ونظرت .. هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا .. ففعلت ذلك سبع مرات) .. وكان هاجر - عليها السلام - في حالتها تلك كانت كالغار الذي وقع في المصيدة .. يظل طول الليل .. يجرب الأسلاك .. سلكا .. سلكا .. عليه يجد نقطة ضعف تكون سبيله الى النجاة .. وكلما انتهى من دورة .. عاد كما بدأ .. عسى أن يكون قد فاتته سلك ضعيف في المرة الاولى .. يعثر عليه .. في المرة الثانية وهكذا كانت هاجر تجري مهرولة .. حتى اذا نأى بها المكان .. عادت سيرتها الاولى .. عسى أن تجد فرجا في الجولة التالية .. وهكذا سبع مرات من الصفا الى البروة ومن البروة الى الصفا ..

قال ابن عباس : قال النبي - صلى الله عليه وسلم : (فذلك سعي الناس بينهما .. فلما أشرفت على البروة .. سمعت صوتاً فقالت « صه » .. تريد نفسها .. ثم تسمعت فسمعت ايضاً .. فقالت : قد اسمعت ان كان عندك غوث .. فاذا هي بالملك عند موضع زمزم .. فبحث بعقبه .. او قال : بجناحه .. حتى ظهر الماء .. فجعلت تخوضه .. وتقول بيدها .. هكذا .. وجعلت تغرف من الماء في سقائها .. وهو يفور بعد ما تغرف) ..

قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم .. او قال : لو لم تكن تغرف من الماء .. لكانت زمزم عينا معينا .. وأرضعت ولدها .. فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة .. فانها هنا

(١) المكنة : الطي الذي في البطن من السمنة - وسخفة الجوع : رفته وهزاله .

(٢) تضلع : أكثر من الشرب حتى تمدد جنبه واضلعه .

(٣) من القرطبي ٢٧٤ / ابراهيم .

(٤) البقرة كالكرة : الشجاعة ..

بها اهل ابيات منهم .. وثب الغلام .. وتعلم
العريضة منهم (١) .

وارانى مضطرا للوقوف من حديث ابن عباس .. عند هذا الحد .. لاننا مازلنا مرتبطين
.. بقصة ابراهيم - عليه السلام - حيث يعود
بعد حين من فلسطين .. لزيارة زوجته هاجر
.. وابنها اسماعيل .. بعد ان يبلغ اسماعيل
ثلاثة عشر عاما .. لينفذ امرا صدر اليه من
الله عز وجل ..

فاذا هم بالماء .. فرجعوا .. فأخبروهم
بالماء .. فاقبلوا .. قال : وام اسماعيل عند
الماء .. فقالوا : اتأذنين لنا .. ان ننزل عندك ؟
.. فقالت : نعم .. ولكن لا حق لكم في الماء ..
قالوا : نعم (قال ابن عباس .. قال النبي -
صلى الله عليه وسلم . (فالفى ذلك أم اسماعيل
.. وهى تحب الانس .. فنزلوا .. وارسلوا
الى اهليهم .. فنزلوا معهم .. حتى اذا كان



(١) للحديث بقية احتجزها .. حتى لا نسبق الزمن .. وسنذكره في حينه ان شاء الله تعالى .

٨ أول الذبيحين

وثانيهما : أبوه عبد الله .. فان جده عبد المطلب .. نذر ان يذبح ولدا .. ان رزقه الله عشرة بنين . فلما رزقه الله العشرة .. أقرع بينهم فخرج السهم على عبد الله - ففداه بمائة من الابل - ولذلك سنت الدية .. مائة من الابل .

ثالثا : ولان الذبح .. كان بمكة .. وقد ثبت من عدة روايات أن قرني الكبش .. كانا معلقين بالكعبة .. حتى احترقا معا .. في أيام الزبير (١) ..

رابعا : ولان البشارة بإسحاق .. كانت مقرونة بولادة يعقوب .. اقرأ « فبشرناه بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب » ٧١ / هود . فلا يناسبها .. الأمر بذبح إسحاق مراحقا . فإبراهيم يعلم مسبقا أن يعقوب من نسل إسحاق :

خامسا : جاء في انجيل برنابا : ان الذبيح .. هو اسماعيل .. فذكر على لسان السيد المسيح : « الحق أقول لكم .. اذا أمعنتم النظر .. في كلام الملاك جبريل .. تعلمون خبث كتبنا وفقهائنا .. لأن الملاك .. قال : يا إبراهيم .. سيعلم العالم كله .. كيف يحبك الله .. أجاب إبراهيم .. ها هوذا عبد الله .. مستعد أن بفعل .. كل ما يريد الله .. فكلم الله .. حينئذ إبراهيم .. قائلا : خذ ابنك البكر .. وأصعد الجبل .. لتقدمه ذبيحة » فكيف يكون إسحاق هو البكر .. وقد ثبت ميلاد اسماعيل قبله .. نؤمن ؟

قال إبراهيم .. لابنه اسماعيل « يا بني اني ارى في المنام أني أذبحك .. فانظر ماذا ترى » ١٠٢ / الصفات / قيل : انه رأى .. ليلة التروية .. أن قائلا .. يقول له : ان الله يأمرك بذبح ابنك .. فلما أصبح .. شك أنه من الله .. أو من الشيطان .. فلما أمسى .. رأى مثل ذلك .. فعرف أنه من الله .. ثم رأى مثله في الليلة الثالثة .. فهم بنحره .. وقال له ذلك .. ولهذا سميت الأيام الثلاثة : بالتروية ، وعرفه ، والنحر . وهى الثامن والتاسع والعاشر من ذى الحجة ..

واختلف المفسرون .. في ايهما الذبيح : اسماعيل أم إسحاق ؟ .. ولكن الصحيح .. بل اليقين .. أنه اسماعيل عليه السلام لكثير من الأسباب .. منها :

أولا : لان البشارة بإسحاق .. كانت بعد البشارة بإسماعيل .. وبعد قصة الذبح .. اقرأ .. ان شئت .. من قوله تعالى « فبشرناه بغلام حليم .. فلما بلغ معه السعى قال يا بني اني ارى في المنام أني أذبحك » .. الى قوله تعالى « وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين » ١٠١ - ١١٢ الصفات . ومنه ترى تسلسل النص .. وتتابع الأحداث .. مما يثبت أن التبشير بإسحاق كان بعد حادث الذبح ..

ثانيا : ولقوله عليه الصلاة والسلام « أنا ابن الذبيحين » فأولهما : جده اسماعيل ..

(١) قال ابن عباس : « فوالذى نفسى بيده لقد كان أول الاسلام .. وان راس الكبش لعلق بقرنيه من ميزاب الكعبة وقد يس » من القرطبي ١٠٢ الصفات . ورد مثله في البيضاوي والكشاف .

غير اسماعيل .. فيكون هو الذبيح حتى من
نصوص التوراة نفسها ..

**واما ما روى من انه عليه الصلاة والسلام
سئل : أى النسب أشرف ؟ فقال :**

يوسف صديق الله ، بن يعقوب اسرائيل
الله ، بن اسحاق ذبيح الله ، ابن ابراهيم خليل
الله ... فالصحيح انه قال : يوسف بن يعقوب
ابن اسحاق بن ابراهيم .. والزيادات من
الراوى ..

**وفد سئل معاوية بن أبى سفيان : الذبيح
اسماعيل أو اسحاق ؟ ..**

فقال : على الخير سقطتم ، كنت عند
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاء رجل
فقال يا رسول الله .. اعد على مما آفأه الله عليك
يا ابن الذبيحين .. فضحك رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - فقيل يا امير المؤمنين .. ومن
الذبيحين ؟ فذكر اسماعيل .. وعبد الله (١) ..
كما سئل أبو سعيد الضرير عن الذبيح ..
فأشدد :

**ان الذبيح هديت اسماعيل
نطق الكتاب بذلك والتنزيل
شرف به خص الاله نبينا
وأنى به التفسير والتاويل**

**ان كنت آمنه فلا تنكر له
شرفا به قد خصه التفصيل**

وعن الأصمعي قال : سألت ابا عمرو بن
الغلاء .. عن الذبيح .. فقال :

يا أصمعي - ابن عزب عنك عقلك ..
ومتى كان اسحاق بمكة ؟ ..

وانما كان اسماعيل بمكة .. وهو الذى بنى
البيت مع ابيه .. والمنحر بمكة .

وروى عن النبى .. صلى الله عليه وسلم
« أن الذبيح اسماعيل » (١) .

وليففر لى القارىء .. اذا كنت قد اطلت
قليلا فى هذا الموضوع .. وما ذلك الا لاننى رايت
الكثير قد اخذ برأى التوراة فى أن الذبيح هو
اسحاق .. واظن أن الموضوع الآن لا يحتاج الى

فاذا قال الاخوة المسيحيون .. نحن
لا نمتزج بانجيل برنابا .. قلنا لهم .. هيا
نناقش اسفار التوراة .. المعترف بها من
الكنيسة .. فى الكتاب المقدس .

فان التوراة .. التى قالت : ان الذبيح هو
اسحاق .. قالت بصراحة : ان الذبيح هو ابنه
وحيد .. ص ٢٢ من سفر التكوين :

٢ - فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبه -
اسحاق - واذهب الى ارض الموريا واصعده هناك
محرقة على احد الجبال الذى اقول لك ..
ويظهر هنا التناقض فى قول التوراة .. فكيف
يكون اسحاق وحيد ؟ مع أن التوراة - بصريح
العبارة قالت : ان اسحاق ولد .. ولاسماعيل
اربعة عشرة سنة ، وساعرض عليك فقرة صغيرة
من التوراة .. لترى التناقض : ص ١٦ من
سفر التكوين :

١٥ - فولدت هاجر لابرام ابنا .. ودعا
ابرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر .. اسماعيل .

١٦ - كان ابرام ابن ست وثمانين سنة ..
لما ولدت هاجر اسماعيل لابرام ..

لاحظ هنا .. ان ابراهيم كان سنه ستا
وثمانين سنة عند ولادة اسماعيل .. ثم اقرا
معنى فى سفر التكوين ايضا :
ص ٢١ - من أول السفر :

١ - وافتقد الرب ساره كما قال . وفعل
الرب لسارة كما تكلم .

٢ - فحبلت ساره وولدت لابراهيم ابنا فى
شيخوخته . فى الوقت الذى تكلم الله عنه .

٣ - ودعا ابراهيم اسم ابنه المولود له الذى
ولدته ساره اسحاق .

٤ - وختن ابراهيم اسحاق ابنه وهو ابن
ثمانية أيام « كما أمره الله » .

٥ - وكان ابراهيم ابن مائة سنة حين ولد
له اسحاق ابنه ..

وحصيلة ما ذكرناه من التوراة .. ان
اسماعيل ولد وابراهيم فى سن السادسة
والثمانين واسحاق ولد وهو فى سن المائة ..
فيكون اسماعيل اكبر من اسحاق بأربعة عشر
عاما . ومعنى هذا أنه ليس لابراهيم ابن وحيد

(١) القرطبي ١١٤ / الصفات

(١) القرطبي ١٠٢ الصفات

نقاش .. بعد ان اثبتنا ان كلمة (اسحاق
اضيفت عمدا في الفقرة الثانية من الاصحاح ٢٢
سفر التكوين .. لينال اليهود شرف الانتساب
الى الدببح ..

□ □ □

راى ابراهيم عليه السلام - في منامه .. ان
يدبح ابنه اسماعيل .. فقال له يا بنى خذ هذا
الحبل .. والمدية .. ثم انطلق الى هذا الشعب
.. فلما خلا به .. اخبره بما امر به
.. وقال « يا بنى انى ارى في المنام انى اذبحك
.. فانظر ماذا ترى » ١٠٢/الصفافات .

فقال له اسماعيل : يا ابت .. اشد
رباطى .. حتى لا اضطرب .. واكفف عني
ثيابك .. حتى لا ينضح عليها دمي .. فينقص
اجرى ، وتراه اُمى فتحزن .. واشحذ شفرتك
.. واسرع بجر المدية على حلقى .. ليكون اهون
للموت على ، فان الموت شديد .. فاذا اتيت
امى .. فاقرئها منى السلام .. وان رايت ان
نرد قميصى اليها .. فافعل .. فانه عسى ان
يكون اسلى لها عني .. « قال يا ابت افعل
ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين
١٠٢/الصفافات .

فقال ابراهيم : نعم العون يا بنى انت على
ما امر الله به .. ففعل ابراهيم ما امره ابنه ..
ثم اقبل عليه يبكى .. والا بن يبكى .. حتى
استتبع الدموع تحت خده .. ثم وضع المدية
على حلقه .. وجرها .. فانقلب سنّها الى اعلى
.. فقال اسماعيل : يا ابت اعصب عيني
.. فنظرك اليها يمنعك من الدبح .. فعصب
عينيه .. وجر السكين .. فانقلبت ثانية ..
فقال اسماعيل : كبنى على وجهى .. فانك ان
تنظر الى وجهى رحمتنى .. وادركتك على رقة
تحول بينك وبين امر الله .. ففعل ابراهيم ذلك
.. ثم انه وضع المدية على قفاه .. فانقلبت ..
فتودى : - « يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا »
هذه ذبيحتك فداء لابنك .. فاذبحها دونه ..
واذا هو بجبريل - عليه السلام - ومعه كبش
اعين (١) ، املح ، اقرن .. فكبر ابراهيم
واسماعيل ..

وروى انه لما ذبحه .. قال جبريل : الله اكبر

.. الله اكبر .. فقال الدببح : لا اله الا الله والله
اكبر فقال ابراهيم : الله اكبر والله الحمد ..
فبقى سنة ..

**وروى انه : لما راى ابراهيم في المنام : ان
يدبح ابنه ..** قال الشيطان : والله لئن لم افتن
انا آل ابراهيم .. والا لم افتن احدا منهم ابدا
.. فمثل لهم الشيطان رجلا .. فأتى ام الغلام
.. فقال لها : اتدري اين ذهب ابراهيم بابنك ؟
فقلت : ذهب به ليحطب من هذا الشعب ..
فقال لها : لا والله ما ذهب به الا ليدبحه ..
قالت كلا .. هو ارحم به منى .. واشد حياء
من ذلك ..

فقال لها : انه يزعم .. ان الله امره بذلك
.. فقالت له : ان كان الله امره بذلك .. فقد
احسن .. في امتثال طاعة الله .. وفي
استسلامه لأمر ربه .. فخرج الشيطان من عندها
هاربا .. حتى أدرك الابن .. وهو يمشى على
اثر أبيه .. فقال له : يا غلام .. هل تدري اين
يذهب بك أبوك ؟ .. قال : يحطب لأهلنا من
هذا الشعب .. قال : لا والله .. ما يريد الا
ذبحك .. قال : ولم ؟ قال : يزعم ان الله امره
بذلك .. قال : فليفعل ما أمره الله به ..
فسمعا وطاعة لأمر الله تعالى .. فلما امتنع منه
الغلام .. اقبل على ابراهيم .. فقال : اين تريد
ايها الشيخ ؟ .. قال : اريد هذا الشعب لحاجة
الى .. فقال : والله انى ارى الشيطان قد جاءك
في منامك .. يأمرك بدبح ابنك هذا .. فعرفه
ابراهيم .. فقال له : اليك عني يا ملعون ..
فوالله لأمضين لأمر ربى .. فرجع ابليس بفيظ
.. لم يصب من ابراهيم واهله شيئا (٣) ..

كما روى :

عرض ابليس .. لابراهيم .. عند المشعر
الحرام .. فأسبقه ابراهيم عليه السلام - ثم
ذهب الى جمره العقبة .. فعرض له الشيطان
.. فرماه بسبع حصيات .. ثم ذهب .. ثم
عرض له عند الجمره الوسطى .. فرماه بسبع
حصيات .. ثم ذهب .. ثم أدركه عند الجمره
الكبرى .. فرماه بسبع حصيات .. ثم ذهب
.. ثم مضى ابراهيم - عليه السلام - لأمر
الله تعالى (٣) ..

(١) واسع العينين .

(٢) من الثعلبي والقرطبي وغيرهما .

(٣) البيضاوى والكشاف والقرطبي آية الصفافات ..

٩] البشرى بين إبراهيم ولوط

زوجها .. وهو فى لهفة الى الطعام .. ومنظر
الضيوف .. وهم يتبادلون النظرات .. ورات
علامات الخوف التى ظهرت على وجه إبراهيم -
عليه السلام - واتضح أن هؤلاء الضيوف ملائكة
.. فأخذها العجب .. وضحكت .. وهنا
التفت الملائكة اليها .. وبشروها بأسحاق ..
وينجب اسحاق يعقوب « وامراته قائمة
فضحكت ، فبشرناها بأسحاق ومن وراء
اسحاق يعقوب » ٧١ / هود . وفسر بعض
العلماء « ضحكت » أى حاضت فى التو ..
لقول العرب ضحكت الأرنب اذا حاضت ..
ومنه قول الشاعر :

وانى لآتى العرس عند طهورها

واهجرها يوما اذا تك ضاحكا

امر عجيب .. أن تنجب امرأة عاقر ..
فى التسعين من عمرها .. وزوجها يناهز المائة
.. فيزداد بها العجب .. وتضرب خدها بأصبعيها
.. كتعبير عن غرابة الأمر « فأقبلت امراته فى
صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم » ٢٩ /
الذاريات وفى سورة هود قالت « ياويلتا ألد وأنا
عجوز وهذا بعلى شيخا ، أن هذا لشيء عجيب »
٧٢ / هود .

« قالوا اتعجبين من أمر الله ، رحمة الله
وبركاته عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد »
٧٣ / هود .

واطمانت نفس إبراهيم .. وذهب روعه
وخوفه .. وعاد اليه هدوءه .. فقال للملائكة
.. ولماذا أنتم ذاهبون الى قرية لوط ؟ .. قالوا
لهلاك أهلها .. فحركوا بقولهم هذا أوتار الرحمة
فى قلب إبراهيم - صاحب القلب الرحيم -
فقال : ولماذا ؟ .. قالوا : لقد عصوا أمر ربهم
.. وخالفوا رسولهم ولم تفد معهم النذر ..

كان من عادة إبراهيم - عليه السلام ..
الا ياكل .. الا مع ضيف .. ولهذا أطلق عليه
.. « أبو الضيفان » . فعرض إبليس .. لكل
قادم .. الى القرية .. يخوفه منها .. قيل
لمدة أربعة ايام .. حتى أجهد إبراهيم الجوع ..
وآله الضوى .. وأشرف على الهلاك .. وهو
مصر على عهده الذى التزم به ..

وفجأة طرق الباب ثلاثة ضيوف .. فرح
بلقائهم .. فرحة الصائم عند فطره .. أو أشد
فرحا .. والجائع .. يخيل اليه أن الطعام ..
مهما كثر لا يكفيه .. كما نفعل نحن فى فطور
رمضان .. بعد صوم ساعات فقط .. فما أن
راى إبراهيم الضيوف حتى طلب من أهله ..
احضار عجل سمين حنيد والحنيد هو اللحم
المشوى على الجمر - « ولقد جاءت رسالتنا
إبراهيم بالبشرى ، قالوا : سلاما .. قال :
سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيد »
٦٩ / هود .

ومد إبراهيم يده لياكل باسم الله .. داعيا
ضيوفه الى الطعام .. فقربه اليهم .. ولكنه رآهم
ينظرون الى بعضهم البعض .. ولم تمتد أيديهم
الى شيء منه .. فشك فيهم وخاف منهم ..
لأن الكريم يشك فيمن لا ياكل زاده .. ولا
يشاركه طعامه .. قالوا : لا تخف .. فنحن
ملائكة لا ناكل ولا نشرب .. بل نحن فى طريقنا
الى قرية « سدوم وعمورة » قرية لوط ابن
أخيك .. فلما رأى أيديهم لا تصل اليه « أى
الى الطعام » نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا
لا تخف أنا أرسلنا الى قوم لوط « ٧٠ / هود ..
وكانت امراته سارة .. فى ستر منهم -
لتقوم على خدمتهم .. وتقديم ما يحتاج اليه
الضيوف عادة .. فرأت هذا المنظر .. منظر

فوم لوط . ان ابراهيم لحليم اواه منيب ،
يا ابراهيم اعرض عن هذا « اى عن هذا الجدال ،
« انه قد جاء امر ربك ، وانهم آيتهم عذاب غير
مردود » ٧٤-٧٦/هود .

« قال ان فيها لوطا » اشفاقا منه عليه
« قالوا نحن اعلم بمن فيها . . لننجينه واهله
الا امرانه كانت من الغابرين » ٣٢/العنكبوت .

قال : اليس فى القرية مائة بيت من المسلمين . .
تتركونها من اجلهم لا . . قالوا : ليس فيها . .
قال : اليس فيها خمسون بيتا . . او ثلاثون . .
او عشرة ؟ . . قالوا : « فما وجدنا فيها غير
بيت من المسلمين » ٣٦/الذاريات . .

اقرا معنى تسلسل الحوار « فلما ذهب عن
ابراهيم الروح ، وجاءنه الشرى ، بجادلنا فى



١٠. إلى سدوم وعمورة

.. وعند كل رجل قصعة .. فيها حصي للخذف .. فاذا مر بهم عابر .. قذفوه .. فأيهم أصابه فهو أولى به « يعنى يذهب به للفاحشة .. فذلك قوله « وتأتون في ناديتكم المنكر » .. كما قال ابن عباس : أن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة .. منها : أنهم يتظالمون فيما بينهم .. ويشتم بعضهم بعضا .. ويتضارطون في المجالس .. ويخذفون .. ويلعبون بالنرد والشطرنج .. ويلبسون المصبغات .. ويتنافرون بالديكة .. ويتناطحون بالكباش .. ويطرقون أصابعهم بالحناء .. وتتشبه الرجال بلباس النساء .. والنساء بلباس الرجال .. ويضربون المكوس على كل عابر .. ومع هذا .. كله كانوا شركون بالله .. ودم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسحاق (١) .. يقصد قوله : ماسبقكم بها من أحد من العالمين » ..

وقال بعض العلماء : وقد توجد هذه الأمور في بعض عصاة أمة محمد .. ولهذا وجب التناهي عنها .. فقد قال مكحول : في هذه الأمة .. عشرة من أخلاق قوم لوط .. مضغ العلك .. وتطريف الأصابع بالحناء .. وحل الأزار .. وتنقيض الأصابع .. (٢) والعمامة التي تلف حول الرأس .. والتشابك .. ورمى الجلاهي (٣) والصغير والخذف .. واللوطية (٤) .

ذكرنا أن لوطا - عليه السلام - كان ابن هاران الأصغر - أخ إبراهيم - عليه السلام - وأنه هاجر معه .. من بابل إلى الشام .. حيث استقر في .. المؤتفكة - وهي سدوم وعمورة - من بلاد الأردن .. وكان سكانها .. أهل كفر بالله .. فأرسله الله تعالى إليهم .. يأمرهم بالمعروف .. وينهاهم عن المنكر .. ويحل لهم الطيبات .. ويحرم عليهم الخبائث .. والله عادل رحيم .. لا يعذب قوما .. إلا إذا ذكرهم بالندر .. وأرسل إليهم الرسل « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ..

وفي القرآن الكريم آية واحدة .. جمعت آثام قوم لوط : « أنكم لتأتون الرجال، وتقطعون السبيل ، وتأتون في ناديتكم المنكر » ٢٩/العنكبوت

فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء .. ويقطعون السبيل على كل قادم إلى بلدهم في تجارة أو نحوها .. فيخطفون ما معه .. سخرية .. ومغصا .. وكانوا يجلسون في ناديتهم على الطريق .. يقدفون من يمر بهم بالحصي .. قال مجاهد : كانوا يجامعون الرجال في مجالسهم على قارعة الطريق .. دون حياء .. ولا خجل .. وقال القرطبي .. عن الثعلبي .. عن معاوية .. قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » .. أن قوم لوط .. كانوا يجلسون في مجالسهم

(١) القرطبي ٢٩ / العنكبوت .

(٢) فرقتها .

(٣) الحمى الذي يرمى به .

(٤) القرطبي ٢٩ / العنكبوت .

وأخطر الجرائم هي اللوطية .. لقد روى ابن ماجه .. عن جابر بن عبد الله .. قال .. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم « ان اخوف ما اخاف على امتي عمل قوم لوط (١) » ولهذا كان حد اللواط قاسيا .. فقد ذكر القرطبي .. رواية عن ابي بكر الصديق - رضى الله عنه - انه حرق رجلا .. يسمى الفجاءة .. حين عمل عمل قوم لوط .. بالنار .. وهو راي على بن ابي طالب .. فانه لما كتب خالد ابن الوليد .. الى ابي بكر في ذلك .. جمع ابو بكر - اصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستشارهم فيه .. فقال على : ان هذا الذنب .. لم تعص به امة من الأمم .. الا امة واحدة .. صنع الله بها ما علمتهم .. ارى ان يحرق بالنار .. فاجتمع راي اصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ان يحرق بالنار .. فكتب ابو بكر الى خالد بن الوليد .. أن يحرقه بالنار فحرقه (٢) .

□ □ □

ولعل ابلغ تعبير .. عبر الله به عنهم .. في موقف جهاد لوط معهم .. حين امرهم بترك الآثام المخزية .. والجرائم المفضية .. التي يندى لها جبين الانسانية .. وردهم عليه في وقاحة لا مثيل لها .. « فما كان جواب قومه ، الا ان قالوا اخرجوا آل لوط من قريبتكم انهم اناس يتطهرون » ٥٦/النمل .

ارابت هذا العيب في لوط وآله ؟ عبيهم انهم يتطهرون . يذكرني هذا الموقف منهم .. بموقف فرعون موسى - عليه السلام - عندما قال عن موسى : « ذروني اقتل موسى وليدع ربه اني اخاف ان يبدل دينكم ، او ان يظهر في الارض الفساد » ٢٦/فافر . يخشى فرعون ان يفسد موسى في الأرض ، .. هكذا منطلق اهل الباطل ..

□ □ □

ذكر الاستاذ عبد الوهاب النجار .. في كتابه « قصص الانبياء » انه قرأ في كتاب من كتب الادب العبري .. وصفا عن اهل سدوم وعمورة .. وهو انهم كانوا يتربصون لكل داخل مدينتهم من التجار .. فيجتمعون عليه من كل اوب .. ويمدون ايديهم الى بضاعته .. يأخذ كل واحد منهم شيئا قليلا من بضاعته .. حتى لا يبقى منها شيء فاذا جلس يجار بالشكوى .. يأتي

(١) القرطبي ٨٠ / الاعراف .

(٢) القرطبي ٨٠ / الاعراف .

الواحد منهم .. ويقول له : كل هذا لاني اخذت هذا الشيء اليسير ؟ .. خذه .. فيقول : ما عسى ان يتفنى ما جئت به .. بعد ان ذهبت بضاعتي ؟ .. اذهب عني بهذا الذي جئت به .. فاذا انصرف جاءه آخر بشيء تافه .. يريد رده عليه .. فيتركه ايضا .. وهكذا يخسر الرجل بضاعته .. بتفرقها في الايدي الكثيرة ..

وقيل ان سارة - زوجة ابراهيم - عليه السلام - ارسلت لعاذر .. كبير عبيد ابراهيم .. لياتيها باخبار لوط .. فلما دخل مدينته سدوم .. لقيه رجل من اهلها .. فعمد الى لعاذر بحجر .. فضربه في راسه .. فاسال منه دما كثيرا .. ثم تعلق به قائلا : ان هذا الدم .. لو بقى في راسك .. لسبب لك ضررا كبيرا فاعطني اجري .. ثم آل الامر الى قاضي سدوم .. فلما سمع الخصمين .. حكم على لعاذر بان يعطى السدومي .. اجر ما ضربه بالحجر .. واسال دمه .. فلما راي لعاذر الجور من القاضي والخصم في امره .. عمد الى حجر .. ضرب به راس القاضي .. فاسال دمه .. ثم قال له : اجر الذي وجب عليك باسالة دمك .. عليك ان تعطيه لضاربي .. جزاء ضربه ابائي ، واسالة دمي .. ولعل هذا ما يقصده المعري بقوله :

واي امرئ في الناس القى قاضيا

لم يعض احكاما كحكم سدوم

وهذه الحكاية - مع احتمال وضعها - تفيدنا معرفة الفكر العام في احوال هؤلاء الناس .. وانهم كانوا من الشر .. بحيث يصلحون ان تسند اليهم امثالها .

□ □ □

كانوا يقطعون الطريق على السابلة .. وقد ذهب الحياء من وجوههم .. فلا يستقبحون قبيحا .. ولا يرغبون في حق .. ابتدعوا من المنكر .. ما لم يسبقهم اليه بشر .. فكانوا يأتون الذكران من العالمين .. شهوة من دون النساء .. يستعلنون بذلك .. ولا يرون فيه قبيحا او سوا .. وعظهم لوط ونصحهم .. ونهاهم وخوفهم غضب الله تعالى .. فلم يابهاوا به .. ولم يرتدعوا .. فلما ألح عليهم .. بالعظاات والزواجر .. هددوه بالرجم والطرد من ديارهم .. ثم تحدرو بقولهم « اثنتا بعد الله ان كنت من الصادقين » ٢٩/العنكبوت ..

ويتطلع لوط - عليه السلام - الى السماء .. بعد ان يؤس من هداهم : « قال رب انصرني على القوم المفسدين » ٣٠/العنكبوت .. وتستجيب السماء ...

□ □ □

ويصل ركب العذاب . ترك الملائكة ابراهيم عليه السلام ووفدوا على قرية سدوم .. ودخلوها .. على هيئة غلمان .. مرد .. حسان الوجوه .. وقصدوا بيت لوط - عليه السلام - يطرقون بابه .. ويفتح لوط لهم الباب .. والمفروض ان يلقى المؤمن ضيفه بالبشاشة والترحاب .. ولكن لوطا ما أن رأهم .. على تلك الصورة من الحسن والبهاء .. حتى قال لهم .. بصريح النص : تلك ليلة سوداء غبراء « ولما جاءت رسلنا لوطا ، سئء بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال هذا يوم عصيب » ٧٧/هود .. واليوم العصيب هو اليوم الأسود الأغبر الشديد ..

وله عذره .. فهو يعلم قومه .. وما هم عليه من فسق وفجور .. وضيوفه غلمان على درجة كبيرة من الجمال والفتنة .. والفرج دائما .. لا يكون الا عند اشتداد اليأس .. ولا يظهر النور .. الا بعد شدة ظلمة الليل .. واذا كانت تلك الليلة .. بدأت بالنسبة الى لوط .. كأسود ليلة .. فلأنها ستكون في نهايتها له اسعد ليلة .. انها ليلة النجاة ..

□ □ □

ودخل الضيوف بيت لوط . وفي قلبه من الأسى والهم .. ما فيه .. ولا أعلم سببا .. دفع زوجته الى الاسراع .. للقاء القوم .. ناديهم .. لتخبرهم ان صيدا ثميناً الليلة .. في بيت زوجها .. وظلت تحرضهم .. وتغريهم .. وتصف لهم جمال ضيوفهم وفتنتهم .. حتى تسابق القوم .. رجالاً ونساء .. شيبا .. وشبابا .. الى بيت لوط .. يطرقون الباب .. في جفوة واصرار .. يالوط .. سلمنا ضيوفك .. للزومهم لنا في النادي .. « وجاءه قومه يهرعون اليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات » قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أظهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي اليس منكم رجل رشيد » ٧٨/هود / ومن الغريب أن يقول بعض المفسرين: أن لوطا .. قدم بنتيه لقومه . والمفروض .. أن يدافع المؤمن عن عرضه الى آخر قطرة في دمه .. واين الطهارة .. في تقديم بنتين ..

لقوم فسقه فجرة ؟ .. وان كان بعضهم يقول : انه قدم بنتيه لهم .. بقصد الزواج .. وهذا رأى ظاهر التكلف فليس من المعقول أن يتزوج قوم بنتين اثنتين . والاغرب ان الاستاذ عبد الوهاب النجار .. يستمسك .. بأن لوطا عرض على القوم بنتيه .. ولكنه يقول : عرضهما عرضا سابريا .. أى بدون جدية .. ونحن لا نقره على هذا الرأى مطلقا .. وإنما كان لوطا .. يوجه القوم .. ويحيلهم الى نسائهم المتجمهرات معهم أمام بيته .. فالرجل الكبير في القرية .. عندما يخاطب قومه .. يقول : ابنائي وبناتي .. فهو يقول لهم : هؤلاء نسائكم أظهر وأزكى وأولى بهذا الأمر .. من الذكران المالين ..

□ □ □

وقد قال بعض أولى العلم .. منهم مجاهد .. وسعيد بن جبیر : أشار بقوله « بناتي » الى النساء جملة .. اذ نبى القوم .. أب لهم .. ويقوى هذا قراءة ابن مسعود « النبى أولى بالمؤمنين من انفسهم ، وازواجه امهاتهم وهو أب لهم » (١) .

فلما قال لهم لوط « هن أظهر لكم » قالوا : لقد أخبرتنا يا لوط بأن هجر الزوجة بدون عذر لمدة شهرين متتابعين .. يجعل الزوجة في حكم البينونة .. فأصبح نساءنا .. حرام علينا لهجرنا لهن من زمن بعيد .. « قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق ، وانك لتعلم ما نريد » ٧٩/هود .

وبلغ اليأس من نفس لوط .. منتهاه .. فتطلع الى ضيوفه .. والحسرة تملأ نفسه .. والهم يغشى نواحيه .. قائلا « لو أن لى بكم قوة ، أو أوى الى ركن شديد » ٨٠/هود .

أى لو أنكم اقوياء الأجسام .. ومن الكثرة بحيث تقفون معى في الدفاع عنكم .. أو لو اننى انتسب الى أسرة كبيرة .. تحمينى وتسند ظهري .. لقاتلتهم دفاعا عنكم .. ولا أسلمكم لهم أبدا .. عبارة نطقها لوط ، وهو لا يدرى إبعادها .. ولا يسبر أغوارها .. بسبب ما هو فيه من الاضطراب والحيرة وقد ورد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قوله « رحم الله أخى لوطا .. لقد كان يأوى - فعلا - الى ركن شديد » .. وهل هناك ركن .. أشد وأقوى من ركن الله ؟ ..

وأحس الملائكة .. ان لوطا بدا يتخبط ويربك .. فقالوا له : لا تخف « قالوا يا لوط ، انا رسل ربك ، لن يصلوا اليك ، فأسر باهلك تقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم احد الا امراتك ، انه مصيبها ما اصابهم ، ان موعدهم المصبح ، اليس الصبح قريب « ٨١/هود .

□ □ □

ويروى ان لوطا عليه السلام - لما اشتد به الأمر .. وقال ما قال .. وقد غلبه قومه .. وهما بكسر الباب .. وهو يمسه .. قالت له الرسل : تنح عن الباب . فتنحى عنه .. وانفتح الباب .. فضربهم جبريل بجناحه - كما قال بعض المفسرين .. أو قبض قبضة من التراب .. واذراها في وجوههم .. فأوصل الله الى عين من بعد .. ومن قرب .. من ذلك التراب .. فطمس أعينهم .. فلم يعرفوا طريقا .. ولا اهتدوا الى بيوتهم .. وجعلوا بصرخون قائلين : النجاء .. النجاء .. فان في بيت لوط قوما .. هم اسحر من على ظهر الأرض .. وقد سحرونا .. فاعموا ابصارنا .. وجعلوا يقولون يا لوط .. كما انت حتى نصبح .. فسترى .. نتوعدونه بقولهم هذا .. « ولقد راودوه عن ضغفه فطمسنا أعينهم « ٣٧/القمر .

□ □ □

وبعد انتصاف الليل .. خرج لوط وبناته .. تحرسهم عناية الله .. ولم تخرج معهم زوجته .. فقد طمس الله عنها .. مثل قومها .. ويقول بعض المفسرين .. ان زوجة لوط .. خرجت مع زوجها ونبتها .. ولكنها لم تنفذ امر السماء .. بعدم الالتفات خلفها .. فتلفتت لترى العذاب الواقع بالقوم .. فأخذها العذاب معهم .. وهذا رأى لا نطمئن اليه .. لأن خروجهم .. كان بقطع من الليل .. أى في منتصفه أو بعد منتصفه .. بينما العذاب .. نزل بالقوم في الصباح .. لقول الملائكة له « ان موعدهم المصبح » .. وفي نجم آخر « فأخذتهم الصيحة مشرقين « ٧٣/الحجر وقوله ايضا « وقضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين « ٦٦/الحجر .

وقيل الشروق .. نزل الملك الموكل بهذا الأمر .. وكان في يده مقصا قصر به القشرة

الأرضية .. من حول القرية .. حتى اذا تمت الدائرة .. رفع هذا القرص بما عليه .. ومن عليه .. الى السماء .. ثم نكس ليستقر منكفئا .. في اعماق الأعماق .. ثم أمطرتهم السماء بحجارة من سجيل .. « فلما جاء امرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود « وهذه الحجازة .. موجودة الآن .. فوق رأس كل ظالم .. تلازمه أينما سار .. وتتبعه حيثما اتجه .. حتى اذا جاء وقت هبوطها عليه .. سحقته ومحقته « مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد « ٨٣/هود .

يقول القرطبي : سرى لوط باهله .. كما وصف الله تعالى « بقطع من الليل » ثم امر جبريل عليه السلام . فادخل جناحه تحت مدائنهم .. فاقتلعها .. ورفعها .. حتى سمع اهل السماء صياح الديكة .. ونباح الكلاب .. لم تنكفى لهم جرة ، ولم ينكسر لهم اناء .. ثم جعل عاليها سافلها .. وأمطرت عليهم حجارة من سجيل .. وكانت خمس قرى .. عاصمتها - سدوم - وكان عدد اهلها .. أربعمائة الف (١) .

وقيل ان لوطا هاجر مع بنتيه الى قرية تسمى « صوعر » أى الصغيرة .. ونجوا من القرية الظالمة .. ويعتقد البعض أن البحر الميت .. لم يكن موجودا .. قبل هذا الحادث الذى جعل أعالي البلاد سافلها .. وصارت اعماق من سطح البحر .. بنحو أربعمائة متر ..

« وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل افلا تعقلون « ١٣٧/الصافات .

وستل بعض أولى العلم : -

اعذب الله النساء من قوم لوط .. بفعل رجالهم ؟

فقال : الله تعالى .. اعدل من ذلك .. بل استغنى الرجال بالرجال .. والنساء بالنساء .. فوجب عليهم العذاب جميعا .. كما روى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال :

« سيكون فى آخر أمتى قوم يكتفى رجالهم بالرجال .. ونساؤهم بالنساء فاذا كان ذلك .. فارتقبوا عذاب قوم لوط .. ان يرسل الله عليهم حجارة من سجيل « ثم تلا « وما هي من الظالمين ببعيد (٢) » ..

(١) القرطبي ٨٢ / الإعراف .

(٢) القرطبي ٨٢ / هود .

١١ عودٌ إلى إسماعيل

وانما الصحيح .. انهم اعتبروه علامة تسليم
لربهم ..

وجاء في الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر
التكوين .. ان ابناء يعقوب .. اوجبوا على
الرجل .. الذي اغتصب اختهم دينا - أن يختتن
هو وقومه الكنعانيين .

ونعود الى اسماعيل - عليه السلام -

فنستمع الى ابن عباس - رضى الله عنه - يكمل
لنا قصته .. حيث تركناه .. وقد تعلم العربية
.. من الجرحميين .. الذين نزلوا بجواره هو
وامه .. يقول ابن عباس : ان رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - قال : (فلما أدرك
- يقصد اسماعيل - زوجه امرأه منهم ..
وماتت أم اسماعيل .. فجاء ابراهيم .. بعد
ما تزوج اسماعيل .. يطالع تركته .. فلم
يجد اسماعيل .. فسأل امرأته عنه .. فقالت:
خرج يتغى لنا .. ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم
.. فقالت نحن بشر .. نحن في ضيق وشدة
.. فشكت اليه قال : اذا جاء زوجك .. فاقرئى
عليه السلام .. وقولى له : يغير عتبة بابي ..
فلما جاء اسماعيل .. كانه آنس شيئا .. قال :
هل جاءكم أحد ؟ .. قالت : نعم .. جاءنا شيخ
كذا وكذا .. فسألنى عنك .. فأخبرته ..
وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا في جهد
وشدة .. قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت :
نعم امرئى ان اقرا عليك السلام .. ويقول غير
عتبة بابك .. قال : ذاك أبى .. وقد امرنى
أن أفارقك .. الحقى بأهلك .. فطلقها ..
وتزوج أخرى .. فلبث عنهم ابراهيم .. ما شاء
الله .. ثم اتاهم بعد .. فلم يجده .. فدخل
على امرأته .. فسألها عنه .. فقالت : خرج
يتغى لنا .. قال كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشتهم
.. فقالت : نحن بخير وسعة .. وأثنت على

عهد الله الى ابراهيم - عليه السلام - بالختان

.. وكانت سنه مائة عام .. وقد بلغ اسماعيل
.. أربعة عشر عاما .. فاختتن ابراهيم واسماعيل
.. ومن كان معهما من العبيد .. وذلك بعد
ان ختن اسحاق في الشام في اليوم الثامن من
ولادته .. كما قدمنا .

وقد جاء في انجيل برنابا .. عن سبب الختان
ان آدم لما عصى ربه .. نذر أن يقطع جزءا من
جسمه .. اذا تاب الله عليه .. وبعد التوبة
احتار ماذا يقطع .. فدله جبريل على هذا الموضع
فقطعه .. ولعل ابناءه .. تركوا هذه السنة حتى
امر الله تعالى .. ابراهيم باحيائها ..

ويقول الاستاذ عباس محمود العقاد - عن
الختان .. فى كتابه .. عن خليل الرحمن : -
روى هيرودوت - أبو التاريخ - أنه سأل الفينيقيين
.. والسوريين .. عن عادة الختان .. فقالوا :
انهم أخذوه عن المصريين .. وان المصريين كانوا
يتحرون به النظافة والطهارة .. وحقيقته التى
تدل عليها المقارنة بين العادات .. انه اختصار
لعادة الضحية البشرية .. نشأ مع تقدم الانسان
في الحضارة والمدنية .. ففي أقدم العصور ..
كان الفاتح المنتصر .. يقتل الأسرى .. قربانا
على مجرأب الهة .. ثم تدرجوا من قتلهم .. الى
قطع غلفتهم .. وجعلوا ذلك علامة على تسليم الأعداء
بالهزيمة .. ومن بقايا عاداته الأولى .. أن شاول
- نبي الله طالوت - اشترط على داود .. ان
يقدم له مائة غلفة من الفلسطينيين .. مهرا لبنته
« ميكال » فقدم له مائتين .. كما جاء في
الاصحاح الثامن عشر . من سفر صمويل الأول
.. وليس بالصحيح ان الاسرائيليين .. اعتبروه
علامة لقبيلتهم .. تميز الاسرائيلي على غيره ..

الله .. فقال : ما طعامكم ؟ .. قالت اللحم ..
قال فما شربكم ؟ .. قالت ؟ : الماء .. قال :
اللهم بارك لهم في اللحم والماء ..

قال النبي - صلى الله عليه وسلم : (ولم
يكن لهم يومئذ حب .. ولو كان لهم .. دعا لهم
فيه .. قال : فإذا جاء زوجك .. فاقرئي عليه
السلام .. ومريه يشرب عتبة بابه .. فلما جاء
اسماعيل قال : هل أناكم أحد ؟ .. قالت نعم
.. اتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه ..
فسألني عنك .. فأخبرته — فسألني كيف
عيشنا .. فأخبرته أنا بخير .. قال فأوصاك

بشيء ؟ .. قالت نعم .. هو يقرأ عليك السلام
.. ويأمرك أن تثبت عتبة بابك .. قال : ذلك
أبى .. وأنت العتبة .. أمرني أن أمسكك ..
ثم لبث عنهم ما شاء الله .. ثم جاء بعد ذلك ..
واسماعيل يرى نبلا له .. قريبا من زمزم ..
فلما رآه .. قام إليه .. فصنع كما يصنع
الوالد بالولد .. والولد بالوالد .. ثم قال :
يا اسماعيل ان الله أمرني بأمر .. قال : فاصنع
ما أمرك ربك .. قال : وتعينني ؟ .. قال :
وأعينك .. قال : فإن الله أمرني .. أن أبني
بيتا هنا .. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها
أ. ه .



١٢ بيت الله

السلام - مكان اول بيت وضعه للناس .. دفعا للتمويه والالتباس .. ليعبد الله وحده فيه .. مطهراً من أدناس الشرك .. بعيداً عن مقام الشك .. ولعل الضيف الكريم - ابراهيم - كان يقول في نفسه : امن بساتين نابل .. وسلطان الحكم فيها .. وحدثتها العناء .. وأنهارها الجارية .. الى مكان .. نحيط به الجبال .. وصحراوات مترامية الرمال .. حيث تنقطع الاسباب المادية .. للحياة الجسمية ؟ .. قال ابراهيم : انا ضيف متجرد يارب .. بدأتني بتوحيديك .. وزودتني بتفريدك .. لانهدأ أماً من الضلالة .. ولاعلمهم بعد جهالة .. وأحركهم بعد كسل وخمالة .. فأبن مكان بيت أبى آدم ؟ .. ها هو البيت يا ابراهيم .. دفين صحراء .. لا نبات فيها ولا ماء .. لك اعراض على مشيئتى ؟ .. كيف اعترض نارب على مشيئتكم ؟ .. وانت الحنان المنان .. الرؤوف الرحيم ؟ .. ما تزال جنات نابل .. وارقة الظلال .. فيها فاكهة وازاهير .. وغير ذلك من مشاهد الجمال .. ولكن حكمتك .. التى حركت ارادتك بالتخصيص .. شاءت لى ان اتجرد من جميع الاسباب .. الا من ناحية رب الارباب .. فهو وحده .. مسبب الاسباب .. ومالك الرقاب .. فانا عبدك وأبن عبدك .. لا ازال اذكر فنائى بجانب حمدك ..

ها هو ذا مكان أبىك آدم .. وستفهم قواعده
يا ابراهيم .. وقد أمرنا الرياح السافيات .. أن تنتزع الرمال التى قرت على مكان البيت الاول .. الذى عبد الله فيه .. لأول مرة .. واحداً واحداً .. فرداً صمداً .. لا شريك له .. فطهره بعد اقامته للطائفين والدين يطوفون حوله سبعة اشواط .. مقرونة بدعوات .. دعوات العبد الضعيف الضئيل التافه .. بمنح الكرامة

غاب عن بعض المفسرين .. ان الكعبة موجوده من آدم - عليه السلام - وابها اول بيت عبد الله فيه .. من آدم » ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً » .. ويبادر الى كثير من الاذهان - خطأ - ان ابراهيم - عليه السلام - هو اول من بنى البيت .. ولعل هذا اللبس .. هو الذى جعل الأستاذ عبد الوهاب النجار .. فى كتابه « قصص الانبياء » يقول تعليقا على قوله تعالى .. على لسان ابراهيم « ربنا ابى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند سترك المحرم » يقول فضيلته بالنص : -

« ويظهر لى ان ابراهيم دعا بهذا الدعاء . بعد بناء البيت » (١) بينما الحقيقة .. ان ابراهيم .. قال هذه العبارة .. بعد ان ترك زوجه هاجر وولدها .. فى هذا المكان القفر .. كما هو واضح فى حديث ابن عباس .. الذى اخرج به البخارى .. وكان لديه علم من الله .. بأن هنا مكان البيت .. المغمور تحت الرمال .. وقد قدمنا ان سفينة نوح طافت بركابها .. حول البيت سبع مرات .. وقد ذكر البخارى فى صحيحه قال : حدثنى عمر بن حفص .. حدثنا أبى .. حدثنا الأعمش حدثنا ابراهيم التيمى عن أبيه .. عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال :

قلت يا رسول الله اى مسجد وضع اول ؟ قال « المسجد الحرام » .. قلت ثم اى ؟ قال « ثم المسجد الاقصى » .. قلت كم بينهما ؟ قال « اربعون » ..

« واذا بوانا لابراهيم مكان البيت ، الا تشرك بى شيئاً ، وظهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود » ٢٦/الحج / والآية واضحة .. فى ان الله تعالى .. هياً لضيفه ابراهيم - عليه

(١) قصص الانبياء « للنجار ص ١٠٣ طبعة ثالثة » .

والمطلب الثاني : « ربنا واجعلنا مسلمين لك » .. وهنا وقفة .. أمام الاسلام .. الاسلام لله .. والاذعان لقضائه وقدره ومشيبته « فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعني » .. وليس الوجه هنا من الناحية المادية أو الشكلية أو الصورية .. ومنتجه بانفسنا واذهاننا وادراكنا .. الى الناحية المعنوية الروحية .. فهذا دعاء يدعو به العبد ربه .. ويؤكد حبه « ربنا واجعلنا مسلمين لك » حل بيننا وبين ما يربغ قلوبنا عن الثقة بك .. والاستمسك بعروة الأدب بين يديك .. فاجعلنا بالهامك الذي أوحيت به الى النحل .. وما تأتي به من رحيق .. أمنحنا منحة من فضلك .. تجعلنا مسلمين لك .. وعلامة التثنية هنا : ابراهيم واسماعيل ..

ثم يأتي المطلب الثالث « ومن ذرئنا أمة مسلمة لك » أى واجعل من ذرئنا أمة مسلمة لك .. لم يكتف ابراهيم واسماعيل - عليهما الصلاة والسلام بحصر الدعاء في نفسيهما .. بل تجاوزا بمظهر البصيرة .. الذى تغفل الى نهاية أحقاب الإنسانية .. وطلبا من ربهما .. أن يجعلهما أصلا لأمة مسلمة لله « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا » والآية تقول بصراحة : « ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل .. وفي هذا » أى فى هذا القرآن .. فى هذا الموحى به .. كآخر رسالة .. تفضل بها عظمة العرش الأعلى .. على البشرية والجنية معا .. وعلى الملائكة قبل ذلك ، وبين ذلك ، وبعد ذلك ..

ويكون المطلب الرابع « وأرنا مناسكنا » .. نحن حجبك يا ربنا .. ولكن لا ندرى كيف نعبدك .. نظهر لك خضوعنا وطاعتنا .. ونسكب بين يديك دموعنا .. لنجعلها غسولا طيبا لذنوبنا .. ونطفيء بها حرائق الآثام التى نشعلها فى أنفسنا .. فأرنا مناسكنا .. والمنسك هو منهج العبادة .. ومحل التقدير « ولكل أمة جعلنا منسكا ليعلموا اسم الله على ما رزقهم » وهذا كله مرتبط بالقسم الأعلى .. وهو المعنويات الروحانية .. وليس الحجر والرمال .. حتى الهدى الذى تقدمه عند البيت .. ما هو الا رمز معنوى « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها » هذا هو القسم المادى الأدنى « ولكن يناله التقوى منكم » وهذا هو القسم المعنوى الأعلى .

ويتضح فى المطلب الخامس « وتب علينا أنك أنت التواب الرحيم » ..

وان التوبة .. اذا لم تأت من الله .. فلا توبة .. والهدى أن لم يكن منه .. فلا هدى « من يهد الله فهو المهتدى » فالتوبة ذخيرة ..

من الله الأعلى .. وتلك الكرامة تسمح له بأن يدعو ربه .. ويوثق عرا حبه .. وأن يطهر قلبه .. فانا هنا قلب .. والعمل مزدوج : المادة تحدد المكان .. والفلك يحدد الزمان .. بينما القلب يحرر البيان .. أنت يا ابراهيم .. قد رزقت اسماعيل .. وقد بلغ معك السعى .. فهو يد عاملة مع يديك .. وقلب مخلص منيب مخبى الى واليك ..

ويلمع نجم آخر .. بعد « واذ بوانا لابراهيم مكان البيت » .. حيث يتضح بجلاء .. الصلة بين المباني والمعاني .. البيت من حجر .. أو صخر ، أو ما شئت .. ولكن نفى الشرك .. مقترن فى النية بالقيام بالعمل المسمى لرفع القواعد « واذا يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » ووجه العلاقة واضح كل الوضوح .. فى الربط بين المباني والمعاني : « ربنا تقبل منا » هل يتقبل الحجارة أو الصخر ؟ .. لا .. بل يتقبل النية ، والروح ، والاخلاق ، وحسن الانابة ، وتمام الطاعة ، والاستجابة .. **قم يا ابراهيم من بابل** .. ومن قصور الشام حيث كنت منعما فى بلهنة من أبهة الملك .. الى هذا المكان الموحش القفر ، لا عود من النيات الاخضر حولك .. ولا نهر يجرى ولا قناة ..

هناك أسباب .. وهنا تجرد تام عن الأسباب « ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » .. هل يتقبل القوة والعمل ؟ .. لا .. ان القوة لله جميعا .. فهو الذى بوا المكان .. وأمر برفع القواعد .. وبقوته تحركت السواعد .. طاعة لأمره .. وتنفيذا لمشيبته .. ولتكون هذه الدعوات .. آيات بينات .. للعلاقة بين المعاني .. باعتبارها الناحية العليا .. وبين المباني .. باعتبارها الناحية الدنيا .. فالمعاني دائما أعلى من المباني ..

والملاحظ .. الذى يجب أن يذكره الحجيح

.. هو اقتران المبنى بالمعنى .. فهنا ننادى .. وهنا نلقى .. نعم .. أننا نعلم ان الله مطلق حتى عن قيد الاطلاق فهو - سبحانه - ليس هنا فقط .. وانما هو فى كل مكان .. ونحن نتوجه اليه مشفقين مما لا نستطيع بلوغه من تمثيل عظمته .. فهو العلى الأعلى .. وعلمنا هذا .. ليس صادرا عنا .. فما علينا الا أن نسأله .. أن يتقبل ما فى قلوبنا .. مما تمثله أبدننا وتشكله .. بقوته هو .. لا بقوة سواه اذ لا قوة الا بالله .. هذا هو المطلب الأول .. من القواعد الستة .. ويكون البيت على أساس سداسى الاضلاع .. وهو اكمل بناء هندسى .. حتى أن النحلة تصنع بيوتها على هذه القاعدة .. حتى لا يكون بينها فراغ ما ..

تدل على ان العبد .. يعلم انه مجبول على الخطا .. وانه اذا كان يخشى الله في المعجز والخطا .. فان عروة صلته بمولاه لا تنقسم ابدا .. لان الله سميع عليم .. تب علينا .. من ان نظن .. ان الأعمال التي نأتيها .. هي صادرة منا .. فالموحد يعلم .. ان الحركة التي يتحركها .. انما هي باستخدام القوة التي هي من الله .. فان احسن استعمال الحركة فله .. وان اساء استخداما فله عليه .. « كل نفس بما كسبت رهينة الا اصحاب اليمين » .. فقد ترفعوا عن النظر الى النفس .. واحسن كل منهم .. بانه مخلوق ضئيل جدا .. بدا خطوات الوجود .. من النطفة .. الى العلقة .. الى المضغة المخلقة وغير المخلقة .. وجعل يتقلب بتقدير مولاه .. في ظلمات ثلاث .. حتى انشأ خلقا آخر .. فآثر في أعماقه « فتبارك الله احسن الخالقين » ..

هذه مشاعر المؤمن .. وهي في الواقع .. شعائر الالهية .. وهي المقصودة في قوله تعالى « ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب » فيشعر العبد بفضل من جعل له عينين .. ولسانا وشفقتين .. وهداه بالوحي النجدين .. فقال له : هذا طريق الخير فاسلكه .. وذلك طريق الشر فاتركه .. وهل تظن انك لو كان أمرك بيدك .. اكننت تصنع شيئا ؟ لا .

« وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، انك انت التواب الرحيم » .. انت وحدك بيدك ملكوت كل شيء .. مومنها حسن الالهام .. وكمال التوفيق .. وتعليم خالص التوكل .. فقد انكرنا ذاتنا في نور ذاتك ..

والمطلب السادس .. والاخير « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم » .. في تلك الامة المسلمة من ذريتنا .. لا تدعهم ربنا .. بعد تولى آلاف السنين .. من غير قيادة حكيمة عليا .. مرسلة من عندك .. فانت وحدك المنزه عن الهوى ، وعن الخطأ والضلال والتورط والارتجال .. فانت القائل « انا كل شيء خلقناه بقدر » .. ابعث في هذه الامة .. التي تمنيناها في المطلب الثالث .. « رسولا منهم » من انفسهم ومن انفسهم - بضم الفاء وفتحها - .. قلبا كاملا .. تاما .. نزيها .. كصفحة بيضاء .. جرى فيها قلم القدرة الالهية .. فكتب في هذا القلب اللائق المستعد .. المتقبل المستقبل المستمد .. ما شاء سبحانه مفتتحا بسم الله الرحمن الرحيم .. ليكون هذا الوحي اليه .. رحمة للعالمين « يتلو عليهم آياتك » .. وأثر التلاوة .. على نفس المؤمن .. يبيكه

حتى النصرى .. الذين وفدوا من الحبشة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد ان طلبوا ان يسمعو بعض ما انزل عليه .. فكان عليه الصلاة والسلام يتلوه وهم يبكون .. وعندما انتهى .. خروا ساجدين وقالوا « آمنا فاكتملنا مع الشاهدين » .. هذا هو موقف النصرى عند سماع الآيات تتلى .. فما بالك والقرآن يتلى علينا .. كأننا لم نسمع .. او كأن في آذاننا وقرا .. الا نسمع كلام من خلقنا ورزقنا وامرنا بيده ، وقلوبنا تنبض بمعرفته وفيضه .. ولو شاء لسكن القلب .. وهمد الجسد .. ووقفت امام الواحد الاحد .. لا تملك لنفسك نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .. « يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة » وكتاب من غير حكمة .. لا يكون الا دردشة .. سمتها أم المؤمنين السيدة عائشة .. هزيمة / جاءها رجل يقول : يا أم المؤمنين .. قرأت القرآن في .. ثلاثة ايام .. فقالت لا بأس .. فقال : فاذا قرأته في يومين ؟ .. قالت : تكون هزيمة - وذلك لعدم القدرة على التدبر في المعاني .. والقرآن ذاته - يقول « ليدبروا آياته » .. والجن ايضا .. تقول هذا « فلما حضروه قالوا انصتوا » والامر صريح « واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا » أى استمعوا .. وتدبروا ما تستمعون له .. ليتنبه القلب .. الى ما في المعاني من بشرى او زجر .. او نهى او امر .. او ارشاد او تحذير .. انما يبشر الذين آمنوا .. وعملوا بالانذار .. وتجنبوا النواهي .. هو مبشر للذين قاموا بتنفيذ الاوامر العليا .. التي خططها وحددها وقدرها من خلق السموات والارض ، وجعل الظلمات والنور .. وكذلك « ويزكيهم » والتزكية بمعنى الزيادة .. وزكت النفس أى طهرت .. وطهرهم من الادران والأوساخ .. من النفاق والرياء .. من التملق والمداينة .. والكذب .. والخداع « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، ما زكى منكم من أحد ابدا » ..

هنا ملة ابراهيم .. ست قواعد للبيت ..

المادى متعلق بالبناء .. لكن رفع القواعد .. المقترن بهذا الدعاء .. معنوى بحث فيكون هنا « آيات بينات » ويكون هنا معنى « مقام ابراهيم » و « من دخله » دخل على أساس هذه القواعد « كان آمنا » يحق له أن يفيض من عرفات .. بعد تلبية صادقة « لبيك » أى يارب .. لقد استجبت لما امرت به .. واجتنبت ما نهيت عنه .. تجردت من ثيابي وذنوبي .. وها أنا ذا يارب في ثوب أشبه بالكفن .. لا يعلو واحد على واحد .. لا بالصورة .. ولا بالثياب .. نحن مجردون امامك .. يارب عرفات .. نلبيك .. ونرفض كل من سواك ..

١٣ وبعد :

هذه حنيفية ؟ .. هل بعدها حرية ؟ .. هل بعدها انطلاق نفسي ؟ .. هل بعدها ثبات قدم ؟ .. هل بعدها رفعة وعظمة ومجد ؟ ..

في بعض كتب التفسير :

استقبل ابراهيم - عليه السلام - اليمن والمشرق والمغرب والشام فدعا الى الحج .. فقيل : ليك اللهم لييك .. وذلك قوله عز وجل : « وأذن في الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

وروى أنه .. لما قال الله له : « وأذن في الناس بالحج » قال يارب وما مدى صوتي ؟ فقال الله تعالى له : يا ابراهيم عليك الاذان .. وعلينا البلاغ ..

ولم يزل البيت .. على ما بناه ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام - الى سنة خمسة وثلاثين .. من مولد نبينا محمداً - صلى الله عليه وسلم - وذلك قبل مبعضه بخمس سنين .. فهدمت قريش الكعبة ثم بنتها .. (١) ..

وقد عاش ابراهيم مائة وخمسا وسبعين سنة .. فيكون اسماعيل .. قد عاصر أباه .. تسعا وثمانين سنة .. أما اسحاق .. فولد لابراهيم .. وسنه مائة سنة .. فيكون قد عاصر أباه خمسا وسبعين سنة (٢) ..

فقد ورد في الاصحاح الخامس والعشرين .. من سفر التكوين .. من ٧ : ١٠ ما ملخصه : ان ابراهيم عاش مائة وخمسا وسبعين عاما ..

راى ابراهيم عليه السلام - ذرية اسماعيل .. وقد انجب اثني عشر ولدا .. اولهم نابت ابن اسماعيل .. كما تقول العربية : وقائلة والد مع سكب مبادر وقد شرقت بالدمع منها المحاجر الى ان قالت :

وكننا ولاة البيت من عهد نابت نطوف بهذا البيت .. والفضل ظاهر

فدارت افاعيل الزمان ولم نزل بما عندنا يسمى الينا المكاثر

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا اهلها .. فازالنا صروف الليالى والجنود العواقر

فهذا اذا مكان .. والدين كانوا متمكين فيه .. كانوا يعلمون الله .. ويعبدون الله ويقدمون الفدية رمزا الى اننا لا نبخل باجسادنا على الله .. عند الطلب .. هو اشترى .. ونحن بعنا .. واستبشرنا بما بعنا ..

النار يا ابراهيم .. أم التوحيد ؟ .. النار ولا اترك التوحيد .. نفسك .. ولذلك ؟ .. ولا ولدي .. مالك .. حدائقك ؟ .. ولا شيء الا الله ..

كلمة واحدة .. ليقول رب العرش العظيم : أشهدكم يا ملائكتي .. أنه خليلي .. رجل .. لم يستعن .. حتى ولا بجبريل .. هل بعد

(١) من كتاب الانوار المهدية للنبهاني .. وغيره .

(٢) من سفر التكوين .

- ٦ - دومه
- ٧ - مسا
- ٨ - حدار
- ٩ - تيما
- ١٠ - يطور
- ١١ - ناقيش
- ١٢ - قدمه .

وعاش اسماعيل مائة وسبعة وثلاثين عاما .

وتقول التوراة انه مات ودفن بفلسطين ..
ولكن اجمع مؤرخو العرب .. على انه مات
بمكة .. ودفن بالحجر الذي بجوار البيت ..
مع امه هاجر .. وهذا هو الصحيح بعيدا عن
تحريف التوراة .. التي يحاول اليهود دائما ..
ان يحرفوا فيها الكلم عن مواضعه .

ولما مات دفنه اسماعيل واسحاق في مفارة -
المكفيلة - في حقل عفرون بن صرصر الحثي ..
وفيها دفنت سارة .. من قبل .. وهو الموضع
الذي عليه مقام الخليل في حبرون .. وتسمى
مدينة الخليل .. وكان اسمها اصلا .. « قرية
اربع » .

**كما ذكر ابناء اسماعيل في الاصحاح الخامس
والعشرين .. من سفر التكوين .. وهم اثنا
عشر ولدا .. وكلهم رؤساء قبائل .. وهم على
الترتيب :**

- ١ - نايوت - نابت -
- ٢ - قيذار
- ٣ - ادثيل
- ٤ - مبسام
- ٥ - مشماع



طواف الختام

معانيها .. فان ابدينا .. تعود صفرا من
فريضة الحج .. وقلوبنا لا تزال منطوية على
ما فيها .. وجزاؤها عند الله رهيب .. لذلك
نقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

((يوشك ان تداعى عليكم الامم ، كما تتداعى
الأكلة الى قصبتها - او قال : الأكلة الى قصبتها))
فارتجف الصحابة ، وقالوا : او من قلة نحن
بارسول الله ؟ .. قال : « بل انتم كثير ، ولكنكم
كفء السيل » قش .. هش .. يسير مع الماء
ايضا سار .. لا ارادة له .. فهو من ناحية
الفكر - امعة - لا رأى له .. واكد - عليه
الصلاة والسلام - باللام ونون التوكيد الثقيلة
« ولينزعن الله من قلوب اعدائكم المهابة منكم »
يا للكارثة ، .. احتقرنا اعداؤنا .. وهم احط
من الحقارة .. وادنى من الصغار .. لاننا تركنا
القواعد .. قواعد الاسلام .. قواعد البيت ..
فلم يبق لنا سند ولا نصير ..

□ □ □

واذكر يوم ان رفعنا علم الاسلام خفاقا فوق
رمال سيناء ونحن صائمون في رمضان ١٣٩٢ هـ
- فتحت كتاب الله على آية .. وجدت فيها
وصفا دقيقا لتلك المعركة .. حيث تقول :
« هو الذى اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب
من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم ان يخرجوا ،
وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فاتاهم الله
من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب .
يخربون بيوتهم بايديهم وايدى المؤمنين ، فاعتبروا
يا اولى الابصار » ٢/الحشر .

فاليهود اهل كتاب .. وما كنا نظن - باقل
نسبة من الظن انهم يخرجون من خط بارليف ..
وظنوا هم ايضا ان هذا الخط يحميهم من غضب

بين انوار هذه الايات البينات .. وعلى مقام
ابراهيم .. بقواعده الروحية الست .. طافت
الرسول حول البيت .

وقد سبق ان بينا .. في نبا نوح .. ان
السفينة بركابها .. مروت بالبيت .. فطافت
به سبعا .. وقد نجاه الله من الفرق .. فلم
تغمره المياه ..

فماذا كانت الانبياء والرسول .. تصنع
بالطواف ؟ .

((ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن
حج البيت او اعتمر ، فلا جناح عليه ان يطوف
بهما ، ومن تطوع خيرا ، فان الله شاكر عليم)) .

مناسك بينها .. وشعائر حددها .. فمن
طريق الرضى .. عن يمين الحى .. تقدم من
باب السلام .. ولا تنس وائت في عرفات ..
قبل الافاضة .. الى مزدلفة .. ان تحمل
رجمات الشيطان .. ماديا ومعنويا ايضا ..

ولا تنس جبل الرحمة .. لتتعلم الرحمة ..
ولتتمكن في نفسك آثارها .. فلا تكون فظا
ولا غلبطا .. ولا ندلا ولا بخيلا .. ولا جبانا ..
ولا كسولا ..

ان دين الاسلام .. وملة ابراهيم .. تدعو
الى هذا .. وهذا هو الحياة .. ولا شيء من
الحياة سواه .. وما الحياة مآكل ومشارب .

« ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ،
ذرهم ياكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل ، فسوف
يعلمون » .. اما اذا تهاونا .. في رعاية ذلك ..
واكتفينا بالمظاهر .. ودعا عنا المطوفون ..
ووقفنا جامدين .. لا نقول الا الفاظا .. لا نفعه

الله .. وكانت النتيجة المموسة .. المحسوسة ..
.. وكان خليقا بنا .. ان نستمسك بالله ..
بعد تلك المعركة .. التي راينا الله ظاهرا فيها ..

وحقا « القرآن بعموم اللفظ .. لا بخصوص
السبب » وان سلفنا الصالح - رضوان الله
عليهم - ما اكتسبوا المهابة في جميع الميادين ..
الا بالالهام من رب العالمين « اذ يوحى ربك الى
الملائكة اني معكم فثبوا الدين آمنوا » ومن ناحية
كثرة العتاد والسلاح « سألقى في قلوب الدين
كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا
منهم كل بنان » ١٢/ الأنفال .

□ □ □

يا للوضوح .. ويا للقوة .. يا اقوى الاقوياء

.. ويا طبيب الاطباء .. ويا نور النور ..
نعوذ بك من غفلتنا وهفواتنا وذنوبنا ..

ونعود الى حديث رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - الذى نحن بصددده .. وليقدفن
في قلوبكم الوهن « وبنفس التاكيد المزدوج باللام
والنون الثقيلة .. بعد ان نزع المهابة من قلوب
الأعداء قذف الوهن في قلوبنا .. قالوا :
وما الوهن يا رسول الله ؟ .. قال : حب الدنيا
وكرهية الموت » .. نعم سبب البلاء حب
الدنيا ..

□ □ □

فاللهم اعنا على نفوسنا .. حتى تجعلها
نحت طاعتك .. وانصرنا على أهوائنا .. حتى
تنصرنا على أعدائنا .. ويسر لنا طريق الحج ..
الى بيتك الذى وضعت في مكة مع آدم .. وبوات
مكانه لابراهيم .. ليقيم قواعده مع اسماعيل
.. وهياته هدمه في قريش .. ليضع حبيبك
المصطفى ، وخليك المجتبى - محمد - حجره
الأسعد بيده في البناء ..

ووفق اللهم .. ولاية امور المسلمين .. الى
اللقاء حوله على الحق .. ليأتى وعدك الحق :
« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ،
ليستخلفنهم في الأرض ، كما استخلف الذين من
قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ،
وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » واشترط -
سبحانه - شرطا جزائيا واحدا .. نظير
الاستخلاف في الأرض .. وتمكين الدين ..
وابدال الخوف بالأمن .. هذا الشرط .. هو
« يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد
ذلك فأولئك هم الفاسقون » ٥٥/النور .

□ □ □

ولنتتبع خطوات ابراهيم .. على رمال
التاريخ .. لنجد الاستقامة ، والقوة ، والفداء ،
والحق ..

والى اللقاء - ان شاء الله - في رحلة الزمن
.. مع المجموعة الثالثة :

اسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب ، ثم
يوسف والاسباط . عليهم السلام .

□ □ □

فهرس الجزء الثانى

صفحة

٦٧	من نبا هود مع قوم عاد	□□
٦٨	مقدمة	□
٧٠	١ - من اشد مناقرة	□
٧٢	٢ - رسول	□
٧٤	٣ - وفد عاد الى البيت الحرام	□
٧٦	٤ - ربح صرصر عالية	□
٨١	من نبا صالح مع قوم ثمود	□□
٨٢	مقدمة	□
٨٤	١ - ناطحات السحاب	□
٨٦	٢ - العمى	□
٨٩	٣ - أشقى الاولين	□
٩٢	٤ - وعد غير مكذوب	□
٩٥	من نبا ابراهيم اول المسلمين	□□
٩٦	١ - الوليد البصر	□
٩٩	٢ - ابو الفتيان	□
١٠٢	٣ - ذبح الطيور	□
١٠٥	٤ - محكمة	□
١٠٨	٥ - نبادل بين الجنة والنار	□
١١٠	٦ - الهجرة الى الله	□
١١٢	٧ - الى مكة مع اسماعيل عليه السلام	□
١١٥	٨ - اول الذبحين	□
١١٨	٩ - البشرى بين ابراهيم ولوط	□
١٢٠	١٠ - الى سدوم وعمورة	□
١٢٤	١١ - عود الى اسماعيل	□
١٢٦	١٢ - بيت الله	□
١٢٩	١٣ - وبعد	□
١٣١	طواف الختام	□

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ووهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا

ايه ٤٩ من سورة مريم

صدق الله العظيم

○ من نبياء
إسحاق ويعقوب

١] وبشروه بغلام عليم

« ووهسا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبينا »
٤٩ - مريم وأنه مبارك عليه « وباركنا عليه وعلى
اسحاق » ١١٣ - الصافات .

ولكن جاء ذكره في التوراة .. وان كان فيها
بحريف واضح ، وتبدل بين في مثل قولهم ان
اسحاق هو الذبيح - وقد تعرضنا لتلك الفرية
بأدلة لا ندع مجالا للنسك في أن الذبيح هو
اسماعيل عليه السلام .

**ومن بين هذه الأدلة وتلك البراهين ، ما هو
من نص التوراة نفسها في الإصحاح الثاني
والعشرين من سفر التكوين ، حيث تقول
التوراة :**

« قال الرب خذ ابنك وحيدك الذي تحبه -
اسحاق - واذهب به الى ارض الموريا ، وأصعده
المحرقة على احد الجبال الذي اقول لك » - أ هـ -
ولم يكن لابراهيم - في يوم ما ابنا وحيدا غير
اسماعيل ، لأن اسحاق ولد ولاسماعيل أربع
عشرة سنة - كما هو صريح التوراة نفسها (١) -
وقد عاش اسماعيل حتى دفن أباه ، فكيف كان
اسحاق ابنا وحيدا لابراهيم ؟ .

ومن شاء فليرجع الى الأدلة التي ذكرناها
بالتفصيل في قصتنا عن « نأ اسماعيل » في هذا
المسلسل .. وفي فصل « أول الذبيحين » .

**ولد اسحاق ولاييه ابراهيم - عليهما السلام
- مائة عام .**

جاء في مقدم قصه لوط ، أن ابراهيم - عليه
السلام - بعد أن عضه الجوع .. وآله الضوى
.. بعد أربعة أيام لم يانه فيها ضيق .. وكان
قد نذر ألا ينوق طعاما الا مع ضيف - فهو
أبو الضيفان .. فرح الله عنه ثلاثة ضيوف
يطرقون بابه .. فطلب نجلا سمنا حينذا -
والحنيد هو اللحم المنوى - ولما رأى ضيوفه
لا يمدون أيديهم الى الطعام .. أوجس منهم
خيفة .. وسألهم عن أنفسهم .. فقالوا نحن
ملائكة .. في طرقتنا الى قوم لوط لهلاكهم ..
وكانت زوجته سارة وافقة بالناب لخدمة
الضيوف .. فضحكت .. فشروها « باسمحاق
ومن وراء اسحاق يعقوب » ولكنها عجبت ..
وقالت « ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا
لشيء عجيب » قالوا :

« أتعجبين من أمر الله .. رحمة الله وبركاته
عليكم أهل البيت انه حميد مجيد » ..

**وحملت السيدة سارة باسمحاق ... وهي في
التسعين من عمرها ..** حيث كان أخوه اسماعيل
ابن السيدة هاجر .. في عامه الرابع عشر من
عمره كما ورد في التوراة .. ولم يذكر القرآن
الكريم عن اسحاق - عليه السلام - سوى بعض
صفات امتاز بها وهي :

أنه غلام عليم .. « وبشروه بغلام عليم »
٢٨ - الذاريات ، والبشرى هنا لابراهيم عليه
السلام من ضيفه المكرمين .

وأنه نبي من الصالحين « وبشروا باسمحاق
نبيا من الصالحين » ١١٢ - الصافات وأيضا

(١) اقرأ في سفر التكوين : الإصحاح السادس عشر فقرتي ١٥ ، ١٦ ، وفي الإصحاح الحادي والعشرين من ١ الى ٥ .

واسم اسحاق في العبرية بمعنى الضاحك ، وكان في وجهه صباحة ورثها عن امه السيدة سارة وليكون وسيلة من وسائل نقل تلك الصباحة الى وجه يوسف - فيما بعد - بقول الحافظ بن حجر : اعطى يوسف وامه شطر الحسن . يقصد سارة ولما شب اسحاق وبلغ مبلغ الفتيان، وكان ابوه ابراهيم - لما كبر واقعه الكبر - . قد اوصى كبير عبيده وامين ماله « لعازر » بالازواج ابنته اسحاق من بنات الكنعانيين الموجودين بفلسطين . بل يزوجه من اهله وعشيرته وبني ابيه ببابل ، على الا بقيم اسحاق بارضهم وهى ارض سبق أن هاجر هو منها فرارا بدينه .

وجهنز لعازر للرحلة من الشام الى قدام آرام (١) لبحث هناك عن زوجة صالحة لابن سيده . . وأخذ معه الكثير من الهدايا ، والتحف ، والجمال ، والاموال ، وكان سيده ابراهيم صاحب مال وانعام كثيرة .

ونزل لعازر صباح يوم جميل خارج المدينة انز، بها ناحور - أخو ابراهيم . . وفي عصر نفس اليوم . . رأى فتاة جميلة رشيقة . . داعبت نسيمات الأصيل خضلة من شعرها الذهبى . . تبدو من تحت جرة فوق رأسها كما يبدو الهلال من تحت سحابة رقيقة في ليلة صيف . . فلفت نظره جمالها وحسنها ، وترك بصره يتابعها حتى وجدها ملأت جرتها وعادت في أدب ووقار . . وعندما اقتربت منه طلب منها شربة ماء فسقته ، وطلبت منه ان يسقى جماله ايضا ، وظل يتأملها حتى انتهت من سقى

الجمال . . فاعجب بها اشد العجب . . وسألها عن اهلها . . فأخبرته ان اسمها رفقة بنت توثيل بن ناحور . . ثم سألها عن دارهم . . هل فيها متسع لجمالها . . فنالت في دارها متسع لكم ولانعامكم . . وزادت ان لديهم غلفا كثيرا لها . . فاهداها خزاما ذهبيا لأنفها . . وسوارين ذهبيين ليدها .

واسرعت الفتاة في خفة الطير . . الى البيت . . وأخبرت اهلها بما رأت . . فقام اخوها « لابل » فهروا الى « لعازر » ودعاه لاستضافته واكرم مثواه . . فأخبرهم بما جاء من اجله . . وطلب يد رفقة لان سيده - ابراهيم - فوافقوا جميعا . . واهداهم الكثير من آتية الذهب والفضة . . ونادر التحف لأخيها وأمها .

وعاد الى فلسطين ومعه « رفقة » . . لتعير زوجة لاسحاق .

وكانت رفقة - فيما بعد - خير عزاء لاسحاق . . بعد موت أبيه

وولدت له في البطن الاول نتا . . وفي البطن الثانى توأمين : احدهما « عيسو » أو اسمه « عيص » . . وتوامه « يعقوب » وكان أولهما في الولادة عيص .

وشب التوامان في رعاية ابوين كريمين . . يعيشان في امن من سعة الحياة . . ورغد العيش .

□ □ □

(١) بلد ابراهيم - عليه السلام - ببابل .

٢ هجرة إسحاق إلى جوار

ذكرت التوراة في الإصحاح السادس والعشرين/سفر التكوين :

ان اسحاق - عليه السلام - خرج بزوجته رفقة من ارض الشام بسبب حصول مجاعة فيها .. ، وذهبوا بأنعامهم وأموالهم الى ارض جرار (١) .. عند ابي مالك .. وان رفقة قالت عن اسحاق انه اخوها .. وقال هو انها اخنى .. ولكن ابا مالك رأى اسحاق بداعبها .. فعرف انه زوجها .. فعاتب اسحاق في ذلك .. وحصل كما حصل في شأن ابراهيم وسارة من قبل .. كما ذكرنا في « بآ ابراهيم عليه السلام » . وقالت التوراة .. ان ابا مالك هذا هو الذي كان في عهد ابراهيم .

وهذا رأى واضح البطلان لأن صاحب ابراهيم .. كان كبيرا عندما أهدى السيدة هاجر الى السيدة سارة وهي لم تهدها لابراهيم الا بعد مضي عشرين عاما - ولم تحمل سارة باسحاق

الا بعد أن صار اسماعيل بن هاجر في سن الرابعة عشر .. واسحاق الآن بعد موت أبيه يزيد عمره على خمسة وسبعين عاما .. فلو حسبنا فرق الزمن بين رحيل ابراهيم من الشام .. بسبب الجذب .. ورحيل اسحاق عنها .. لنفس السبب .. لوجدناه لا يقل عن مائة سنة تزداد تسعا .. وهذا زمن يجعل الولدان شببا .. فليس من المنطق ان يكون ابو مالك هذا .. هو نفس الرجل الذي تعامل مع ابراهيم - عليه السلام -

وروى ان اسحاق كثرت أمواله وعبيده .. وأنه حفر آبارا كثيرة في ارض جرار .. وكلما حفر بئرا .. نازعه عليها أهلها .. فيتركها لهم .. ويحفر بئرا أخرى .. وان الملك ورؤساء جنده .. صالحوا اسحاق اخيرا .. وعقدوا معه صلحا .

□ □ □

(١) جوار مدينة على البحر الأبيض قرب غزة .

٣ هجرة يعقوب إلى بابل

فراء الحمل فوق راسه .. وهو يقدم اللحم
لأبيه ..

فقال له أبوه : من أنت ؟ قال : انا عيص ..
فمد اسحاق يده على راس يعقوب .. وقال :
المس مس عيص .. والريح ريح يعقوب ..
وكانت أمه واقفة .. فقالت : يا بني الله .. انه
عيص .. فادع له .. فقال وهو واضع يده على
راس يعقوب : اللهم اجعل في ذرته الأنبياء
والملوك ..

وجاء بعده عيص بالصييد .. وجهزه ..
وقدمه إلى أبيه .. فقال له : لقد سقك بها
يعقوب .. فغضب عيص .. ووجد الشيطان
ثغرة نفذ منها إلى قلبه ، فأوغر صدره على
أخيه .. واشتد حقه عليه .. وتوعده بالقتل
.. وخافت رفقة على ابنها يعقوب ، لما تعلم من
شراسة أخيه .. فطلبت منه أن يهاجر عند
خاله « لابان » في فدام آرام سابل .. وخرج
يعقوب من الشام ليلا .. موليا وجهه شطر
العراق .. وهو خائف يترقب .. يسرى ليلا
فهاق رمال الصحراء .. وبكمن نهارا في كهوف
التلال المحيطة به .. ولهذا سماه الله اسرائيل
.. فهو أول من سرى في الليل ..

كما وجدت أن كلمة « اسر » معناها في
العبرية : عبد أو صفوة وكلمة « ابل » معناها :
الله ، فاسرائيل : أي عبد الله أو صفوة الله ..

تزوج عيص بن اسحاق - نسيمة - بنت
عمه اسماعيل بن ابراهيم .. عليهم جميعا سلام
الله ورحمته .. فولدت له الروم بن عيص ..
فكل بنو الأصفر من ولده .. وبنو الأصفر ..
هم الروم ..

وكان عيص مغرما بالصييد .. مولعا
بالمغامرات .. بينما كان يعقوب وديعا .. رقيق
الطبع .. وبالتالي كان اسحاق يحب عيص
.. بينما كانت زوجته رفقة تحب يعقوب ..

ويظهر أن هذه طبيعة بشرية .. فالأب غالبا
.. يحب أحسن أبنائه .. وأشداهم بأسا ..
أما الأم فانها تحب أرقهم وأودعهم ..

وأوهن الزمن عظم اسحاق .. وولى ببصره
.. وأقعده الشيخوخة .. فدعا ابنه عيص
.. وقال له : يا عيص .. اذهب إلى الصحراء
.. وأنتني بصيد أذبحه وقدمه لي مشويا ..
لأدعوك لك دعة دعاها لي أبي ابراهيم قبل موته
.. لتكون لك ولذريتك من بعدك ، وسمعت
زوجته رفقة كلام زوجها لابنها عيص ، فتركته
حتى خرج إلى الصحراء .. لاحضار الصيد
لأبيه .. ونادت ابنها يعقوب .. وأخبرته بما
حصل من أبيه لأخيه .. وأشارت عليه .. أن
يذهب إلى حظيرة الغنم .. فيذبح حملا ..
ويقدمه إلى أبيه على اعتبار أنه عيص .. وكان
عيص أشعر - كث شعر الرأس - أما يعقوب
فكان أجلحا .. فاضطر إلى وضع قطعة من

وصل يعقوب .. الى خاله لا بان .. في ارض
فدام آرام .. وبقي عنده يخدمه ويرعى له ..
ثم طلب منه ان يزوجه من راحيل .. صغرى
نتنيه .. وكانت الكبرى اسمها ليثة .

فقال له : وهل معك مال للزواج منها ؟ ..
قال : لا .. ولكنى اخدمك مدة ترضاه ..
واتفقا على سبع سنين .

ولما انقضى الاجل .. ودخل بعروسه ليلاً
.. اكتشف في الصباح ان خاله زوجه من
ليثة - البنت الكبرى - فغضب .. وعاتب
خاله عتاباً جارحاً .. امام ملا من قومه ..
وقال له : لقد فررتنى .. وخذعتنى ..
واستحللت عملى سبع سنين .. ودلست على
غير امرأتى .. التى خطبتها .. فرد عليه خاله
.. برمد استرضاءه : يا ابن اختى .. اتريد ان
يلحقتنى العار والخزى والشنار وانا خالك ..
وفي منزلة ابيك .. فازوج الصغرى قبل زواج
الكبرى - وكيف اواجه الناس .. ولم يحصل
هذا من قبل ؟ .. ولكن اذا شئت .. فلا مانع
عندى .. ان تخدمنى سبع سنين اخرى ..
وتتزوج راحيل .. وكانت شريعتهم تجبز
الجمع بين الاختين .. وقد فعل .

فرعى يعقوب سبع سنين اخرى .. فدفع
اليه راحيل .. وتزوجا .. مع اختها ليثة .
وكان لابان قد دفع الى انتنه .. حين جهزهما
الى يعقوب ايتين .. اسم احدهما زلفى ..
والثانية بلها . وقد انجب يعقوب من زوجته
.. وجاريتهما . اثني عشر ولداً : (١) فأنجبت
له ليثة ١ - راوبين وكان اكبرهم ٢ - بهوذا
٣ - شمعون ٤ - لاوى ٥ - بشجر ٦ - روبالون .

وانجبت له راحيل : ١ - يوسف
٢ - بنامين .

وانجبت له زلفا : ١ - دان ٢ - نفتال .
وانجبت له بلها : ١ - جاد ٢ - اشير .

اي ستة من ليثة .. واثنين من كل من
راحيل وزلفا وبلها . ويقول النيسابورى
الثعلبى صاحب كتاب قصص الانبياء ان ليثة
.. انجبت اربعة فقط .. فبقول ان روبالون
من زلفا .. ويشجر من بلها .. ولكن لم اجد
هذا الراى فى غير كتاب الثعلبى .

وقد ولد ابناؤه جميعا فى فدام آرام بالعراق
.. الا بنيامين .. فأنه ولد بعد عودة يعقوب
الى كنعان بفلسطين .

وقد سماهم الله - سبحانه .. الاسباط
لان كل واحد منهم .. كان رأسا لقبيلة .

والسبط فى كلام العرب .. اى الشجرة
الملتفة .. الكثيرة الأغصان .. والاسباط فى
بنى اسرائيل ... كالشعوب عند العجم ..
والقبائل عند العرب .

وخرج يعقوب بأسرته تلك .. من قدام آرام
عائدا الى فلسطين .. بعد ان أخذ من خاله
نتاح عام .. من الانعام ..

عاد بعد هذا الزمن .. ومازال فى نفسه
شيء من الخوف .. من أخيه عيص .. بحمل
الكثير من المال والنعمة والهدايا .. ولكنه وجد
ترحابا وجبا من أخيه .. فعاشره معاشرة
كرامة .. حتى مات ابوهما اسحاق .. واشتركا
فى دفنه .. عند قبر أبيه ابراهيم .

مات اسحاق .. وسنه مائة وسبعين
بعد ولادة يعقوب وعصى مائة عام .

وترك عيص البلاد .. لأخيه يعقوب ..
وتنقل بزوجه نسيمة بنت عمه اسماعيل ..
وابنائهما فى أرجاء الشام .. ثم عبر الى الروم
واستوطنها .. وصار ذلك لولده من بعده ..
فهو اصل الروم .



بسم الله الرحمن الرحيم
نحن نقص عليك أحسن القصص
صدق الله العظيم

○ من نبأ
يوسف الصديق

١] أحسن القصص

الله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص »
فهى أحسن القصص :

فيها ذكر الانبياء والصالحين .. والملائكة
والشياطين .. وسير الملوك والماليك .. والعلماء
والتجار .. والعقلاء والجهلاء .. وحال الرجال
والنساء ومكرهن وحيلهن .. والعدل والظلم ..
والعفو والحق .

وفيها ذكر العقبة والتوحيد .. وعلم السير ..
وتعير الرؤيا .. وآداب السياسة وحسن
المعاشرة .. وتدير المعاش .. فصارت بحق
أحسن القصص ...

قال الامام عبد الله بن احمد بن محمود
النسفى ، صاحب التفسير المسمى باسمه :
« مدارك التنزيل ، وحقائق التأويل » .. عن
سبب نزول هذه القصة .. ان كفار مكة ..
لقى بعضهم اليهود .. وتباحثوا فى ذكر محمد
عليه الصلاة والسلام - فقال لهم اليهود : سلوه
لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر ؟ ..
وعن قصة يوسف ؟ .. فنزلت .

وروى مقاتل .. عن سعيد بن جبير ..
قال : اجتمع اصحاب رسول الله . صلى الله
عليه وسلم - الى سلمان الفارسى .. قالوا :
حدثنا عن التوراة بأحسن ما فيها .. فأنزل



٢ رؤيا يوسف

اللون .. ونقاء البشرة .. ما لم يعط احدا غيره .

□ □ □

وفي ليلة من ليالى الجمعة .. قام يوسف من نومه .. فزعا مدعورا .. وكان بنام لصيق أبيه يعقوب ، فضمه الى صدره سائلا : ماذا افزعك يا بنى ؟ قال : رايت كأن ابواب السماء فتحت ، وقد اشرق منها النور .. فاستنارت النجوم .. واشرفت الجبال .. وزخرفت البحار .. وعلت الامواج .. وسيحت الحيتان .. ورايت كأنى البست رداء .. اشرقت الأرض بنوره .. وكان مفاتيح خزائن الأرض القيت بين يدي .. فبينما انا كذلك اذ رايت احد عشر كوكبا .. انقضت من السماء .. ومعه الشمس والقمر .

فقال يعقوب : وكيف رايتها ؟ .. قال : رايتهم لى ساجدين « اذ قال يوسف لآبيه يا ابي انى رايت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رايتهم لى ساجدين » ٤/يوسف .

وقال رايتهم بصيغة العاقل ، لأنها فى موقف السجود .. وهو من سمة العقل .

وكانت زوجة ابيه - خالته - واقفة وسمعت الرؤيا .. فطلب منها يعقوب كتمان هذه الرؤيا عن اولاده .. ولكنها طبعه المرأة .. فأخبرتهم بها .. ولهذا يقول الأثر الحكيم : لا تأمن قارئا على صحيفة .. ولا شاعرا على امرأة .. ولا امرأة على سر .

عاش يعقوب فى فلسطين مع أسرته .. فى رغد من العيش .. وسعة من الحياة .. آناه الله النبوة والمال والولد .. فجمع بين سعادة الدنيا .. ونعيم الآخرة .. علاقة طيبة بربه ومولاه .. واموال وفيرة .. وانعام كثيرة .. وابناء اشداء ... يضرب المثل بقوة شمعون ويهوذا .. حتى ان أبا اسحاق النيسابورى .. فى كتابه « قصص الانبياء » قد بالغ فى وصف قوتهم .. مبالغة .. قد لا يغفلها العقل فى سهولة .. حيث قال ان شمعون .. كان اذا غضب .. لا يسكن غضبه حتى يصبح .. فاذا صاح لا تسمعه حامل الا وضعت مافى بطنها .. وان يهوذا كان اذا غضب شق السبع لصفين .. وقال القرطبي : كان يهوذا اذا غضب وأخذ السيف .. فلا برد وجهه مائة ألف .. يقوم شعره فى صدره مثل المسال .. فتنفذ من ثيابه (١) .

وكان يعقوب عليه السلام - يحب يوسف واخاه الشقيق بنيامين .. بعد ان ماتت امهما راحيل احب نسائه اليه - ماتت .. وهى تضع بنيامين .

فكان يؤثرهما بحبه .. ويفيض على يوسف .. بكل عطفه ورعايته والاهتمام به .. لما توسم فيه .. من دلائل النبوة والشرف والعظمة .. فكان يوسف دائما ينام فى أحضانه ولا يسكن فؤاد الشيخ .. الا اذا احتك بجلده .. فى هدأة الليل .. وغفوة النوم .. وبلغ يوسف سبع عشرة سنة حسب أغلب الروايات وقد أعطاه الله من الحسن والجمال وصفاء

(١) القرطبي ٨٠/يوسف .

بالله من شرها .. ولتفضل ثلاث مرات (٦) ولا يحدث بها احدا .. فانها لن تضره » .
والرؤيا الصادقة عبارة عن انطلاق الروح .. حال فراغها .. من مشاغل الجسم .. وهو نائم .. فتري في الملكوت .. معاني تعكسها المتخيلة - وهى من حواس الروح - الى الحس المشترك بما يناسب تلك المعاني ، فتبلغ درجة المشاهدة بطريقة رمزية ، وقد يكون هذا مع روح انسان كافر .. كما حصل من رؤيا ملك مصر - سبع نقرات وسبع سنبلات - وكلما كانت الرموز شديدة المناسبة لهذه المعاني .. استغنت الرؤيا عن العبور .. والا احتاجت الى .

وقال صلى الله عليه وسلم « لم يبق بعدى من المشرات الا الرؤيا الصالحة الصادقة براها الرجل الصالح او يرى له (٧) وغير يعقوب عليه السلام - رؤيا انه الحبيب يوسف .. وعرف مرامها .. وعلم ان الله سبحانه سيلفه مبالغاً من الحكمة .. وبصطفية بالنبوة .. وينعم عليه بالشرف الكبير .. فى الدنيا والآخرة .. كما فعل بابائه من قبل ، وطلب منه عدم ذكر هذه الرؤيا لأخوته .. لانه يشعر بما تكنه قلوبهم .. وبحس بما تختلج به حناياهم .. من الحقد على يوسف .. والغيرة منه .. فخشى ان يستغل الشيطان حقدهم .. فيدبرون له أمراً .. وبكيدون له كيداً .. للتخلص منه « يابنى لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيداً ، ان الشيطان للانسان عدو مبين » ه/ يوسف .

والنص فى تلك الآية .. صريح فى الاقتصار رؤياك الا على ناصح أمين .. يحسن التأويل .. وقد روى رزين العقيلي أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال « الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها .. صاحبها .. فاذا حدث بها وقعت .. فلا تحدث بها الا عاقلاً او محباً او ناصحاً » أخرجه الترمذى .. وقال فيه : حديث حسن صحيح .

وفرق بين الرؤيا والحلم .. فالحلم من الشيطان لقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا والحلم من الشيطان (٨) فهو هواجس يوحىها الى النفس لا ارتباط بينها .. ولا وضوح فى أحداثها .. وما هى الا أضغاث أحلام .. اما الرؤيا ، فقالوا : انها جزء من ستة وأربعين جزءاً من الوحي (٩) بمعنى ان الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان تتلقى بالرؤيا ستة شهور .. فكانت رؤياه كقلق الصبح .. ومدة رسالته ثلاث وعشرون سنة بالوحي .. فكانت هذه هى النسبة بين الرؤيا والوحي وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا - الى أقساما تغنى عن كل قول : فروى عوف بن مالك عنه .. قال « الرؤيا ثلاثة : منها أهول الشيطان لحزن ابن آدم .. ومنها ما يهتم به فى بقائه .. فراه فى منامه .. ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » قال : قلت : أسمعت هذا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : نعم : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى صحيح مسلم وغيره .. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « رأت سوداء (١٠) ثائرة الرأس تخرج من المدينة الى مهجة (١١) .. فأولتها الحمى » .

وقال « رأت فى يدى سوارين » فأولتهما كذابين يخرجان بعدى « وقد تحقق وقال ايضا « رأت انى ادخلت يدى فى درع حصينة ، فأولتها المدينة (١٢) وقد بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طريقة التخلص من الرؤيا المكروهة فروى البخارى عن أبى سلمة .. قال لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضنى .. حتى سمعت انا قتادة .. يقول : وأنا كنت أرى الرؤيا فتمرضنى .. حتى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول « الرؤيا من الله .. فاذا رأى أحدكم ما يحب .. فلا يحدث به الا من يحب .. واذا رأى ما يكره .. فليتعوذ

(١) القرطبي ه/ يوسف .

(٢) عن ابن عباس من القرطبي ه/ يوسف .

(٣) امرأة سوداء .

(٤) ميقات أهل الشام .. وهى الجحفة .

(٥) القرطبي ه/ يوسف .

(٦) فى رواية جابر : فليصق عن يساره ثلاثا - القرطبي .

(٧) القرطبي ه/ يوسف .

وقيل للإمام مالك : ايعبر الرؤيا كل أحد ؟
فقال : أيلعب بالنبوة ؟ .. وقال مالك : لا يعبر
الرؤيا إلا من يحسنها .. فإن رأى خيرا ..
.. أخبر به .. وأن رأى مكروها .. فليقل
خيرا .. أو ليصمت .

.. فليل : فهل يعبر على الخير .. وهي
عنده على المكروه لقول من قال : أنها على
ما تأولت عليه ؟

.. فقال : لا : ثم قال الرؤيا جزء من النبوة
.. فلا يتلاعب بالنبوة .. (١) .

ومن أجل هذا .. طلب يعقوب من يوسف
– عليهما السلام – عدم ذكر رؤياه لآخوته ..
فكتمان النعمة جائز عن تخشى غائلته حسدا
وكيدا .. ولهذا يقول .. عليه الصلاة والسلام
« استعينوا على النجاح حوائجكم بالكتمان ..
فان كل ذي نعمة محسود » (٢) .

ثم قال يعقوب لابنه : –

وكذلك يا يوسف .. سينم الله عليك نعمته
ويصطفيك .. ويعلمك تأويل الرؤيا .. ونفسه
معاني صحف الله وسنن الأنبياء .. وما غمض
واشتمته على الناس .. من أغراضها
ومقاصدها ، وسميت أحاديث .. لأنه يحدث
فيها عن الله ورسوله « فبأى حديث بعده
يؤمنون » « والله نزل احسن الحديث كتابا
متشابهها مثاني » ٢٣ الزمر « وكذلك يجتبيك
ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث ، ويتم نعمته
عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من
قبل ابراهيم واسحاق ان ربك عليم حكيم »
٦/يوسف .

وعن جابر – رضى الله عنه – ان يهودي
اسمه نستار .. سأل رسول الله صلى الله
عليه وسلم – عن اسماء النجوم التي رآها
يوسف .. فسكت .. فنزل جبريل عليه
السلام – وأخبره بذلك ، فقال اذا أخبرتك
بها هل تسلم ؟ قال : نعم .. فقال عليه الصلاة

والسلام : « جريان ، والطارق ، والدليل ،
وقابس ، وعمودان ، والفيلق ، والمصبح ،
والضروح ، والفرغ ، ووثاب ، وذو الكتفين ..
رآها يوسف والشمس والقمر .. نزلن من
السماء وسجدن له « فقال نستار اليهودي اى
والله وانها لاسماؤها (٣) .

وزادت الرؤيا حب يوسف في قلب يعقوب
عليهما السلام .. وأصبح ملازما له كظله ..
وبحرك الحسد في صدور الاخوة العشرة ..
فبعد ان كان ما في القلب في القلب .. بدأت
الجمعيات والأمرات .. ابنا أحق بحب هذا
الرجل : يوسف واخوه .. وهما عاله لا حيلة
لهما في جلب نفع او دفع ضرر .. ام نحن العصابة
الأشداء .. الذين نعمه ونعمهما عناء الحياة
وكفاحها ؟ ..

« اذ قالوا ليوسف واحوه احب الى ابينا منا
ونحن عصبه ان ابانا لى صلال مبين ٨/يوسف .
وفيل الحس . إيحسد المؤمن لـ .. قال :
ما انسك بنى يعقوب .. ولهذا قيل : الاب
جلاب . والآخر سلاب .

والعصبة والعصابه عتره فكثرت الى اربعين
.. قالوا : لن يلبث هذا الرجل ابنا ..
وبعض عليما من حبه وحماه .. الا اذا ذهب
هذا الابن المدلل .

فقال سمعون « افعلوا يوسف او اطرحوه
أرضا » بمعنى القتل او البقي « محل لكم وجه
أبيكم ونكونوا من بعده فوما سالحين »
٩/يوسف .

قالوا . ألم يكفه سجودنا له حتى يسجد له
أبوه أيضا ؟ . هيا بخلصوا منه .. وبعدها
سبوا الى الله .. ويساء الرجل بعد حين ..
ثم يستقيم حالنا .. ونعيش في رحاب أبينا ..
صالحين .

(١) القرطبي ٥/يوسف .

(٢) من نفس المصدر .

(٣) القرطبي والشملي ٤/يوسف .

يُقصد الحفرة التي يدفن فيها .

وبدأوا يدبرون أمرهم .. ويكيدون كيدهم ..
يوما بعد يوم .. حتى هداهم شيطانهم ..
الى اقامة مباريات بينهم على مرأى من يوسف ..
تسابق في الجرى .. ونضال بالنبال ..
ويوسف فيه جراءة الايمان .. وشجاعة النبوة ..
فتاقت نفسه الى ما يفعلون ..
وسالهم .. هل تفعلون هذا كل يوم في الصحراء ؟ .. قالوا : نعم .. فرجاهم ان يطلبوا من ابيه .. ان يسمح له بالخروج معهم .

فقال يهوذا ، وثمان احسنهم رأيا في يوسف : مادام الهدف ابعاده عن ابيه ، فلاداعى لقتله ، ويهوذا هو الذى قال فيما بعد « فلن ابرح الارض حتى يأذن لى ابنى .. » وقال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين » ١٠/ يوسف ، وغيابة الجب .. غوره .. وماغاب منه عن عين الناظر .

ويقول الشاعر : -

اذا انا يوما غيبتنى غيباتى
فسيروا بسيرى في العشرة والاهل



٣ رؤيا يعقوب

يا بى اوصيكم بنوى الله وب يوسف .. اسالكم بالله .. ان جشاع فاطعموه .. وان ظمى فاسقوه .. وقوموا عليه ولا تبيعوه ولا تخذلوه .. وكونوا متواصلين متراحمين .. ثم اقبل على يوسف .. وضمه الى صدره وقبله .. ثم قال : استودعك الله رب العالمين .. وانصرف راجعا .

ويقول كل كتب التفسير نفريا ان اخوته اعتسوا عليه بالضرب .. وانه كلما استغاث بأحدهم ضربه .. حتى اوشكوا على قتله .. فجعل يصيح يا انا .. لو تعلم ما يصنع بى اناء الاماء .. أو قال بنو الآباء ؟ وقال يهوذا : ما على هذا انفقنا .

فاخذوا قميصه .. ليكون وسيلتهم فى الاعتذار الى ابيهم .. والقوه عاريا فى الجب .. وهو يستغيث ويتعلق بملاسهم .. فشدوا وثاق يديه .. والقوه فيه مكتوفا .

وكان الجب فى بلاد الاردن بين مدن ومصر .. وقيل : على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وأوحى الله الى يوسف فى الجب « وأوحينا اليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » ١٥/ يوسف/ أوحى الى يوسف صغيرا ، كما أوحى الى يحيى وعيسى ، وكما أوحى الى ابراهيم من قبل .

ويروى أن ابراهيم - عليه السلام - حين القى فى النار .. كان مجردا من ثيابه .. فاتاه جبريل - عليه السلام - بقميص من حرر الجنة .. والبسه إياه .. فدفعه ابراهيم الى اسحاق .. ومن اسحاق الى يعقوب ..

يقول ابن عباس وغيره : رأى يعقوب عليه السلام فى منامه .. كان يوسف على رأس جبل .. وكان عشرة من الذئاب شدوا عليه ليأكلوه .. واذا بذئب يدافع عنه .. وكان الأرض انشقت .. فدخل فيها يوسف .. ولم يخرج منها الا بعد ثلاث .. فشغلته تلك الرؤيا .. على يوسف (١) .

وفوجئ الرجل .. بأبنائه يقولون له : يا أبانا مالك لا تأمننا على يوسف وانا له لناصحون ، أرسله معنا غدا يرنع ويلعب ، وانا له لحافظون (١١ - ١٢ : يوسف .

والحوا عليه فى هذا الأمر .. وطلب يوسف من ابيه .. بعد الحاح اخوته .. أن يخرج معهم فى القيد .. ووافق الرجل مرغما تحت رغبة يوسف . ولكنه قال لهم (انى ليحزننى ان تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب ، وأنتم عنه غافلون » قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصاة انا اذا لخاسرون (١٣ - ١٤/ يوسف .

وفى خبر نبدأ روايته بالحسن بن محمد بن فتحويه ، وتنتهى بيافع عن عمر قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تلقنوا الناس الكذب فيكذبوا .. فان بنى يعقوب .. لم يعلموا أن الذئب يأكل الإنسان .. حتى لقنهم أبوه .. فلما لقنهم .. وقال : انى أخاف أن يأكله الذئب .. قالوا آكلة الذئب »

وفى الصباح .. خرج يوسف مع اخوته .. وخرج معهم يعقوب - عليه السلام - مسافة من الطريق ، حتى قال له ابنائوه : أرجع يا بنى الله .. ولا تخف على يوسف .. فنحن معه نحمله ونحفظه من كل شر .. فقال لهم أبوه :

(١) القرطبي وغيره ١٣/ يوسف .

« وجاؤا أباهم عشاء يبكون ، قالوا يا أبانا
أنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا
فاكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا
صادقين » ١٦ - ١٧ يوسف / وروى أن يعقوب
لما سمع بخبر يوسف والذئب ، صاح بأعلى
صوته ، وقال أين قميصه ؟ .. فأخذه وألقاه
على وجهه ..

وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص ..
وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا
الذى أكل ابني .. ولم يمزق عليه قميصه .

« قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر
جميل والله المستعان على ما تصفون » ١٨
يوسف .

والصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه .

وسروى أن امرأة تحاكت الى شريح ..
فكت .. فقال الشعبي .. وكان حاضرا في
مجلس شريح : يا أبا أميه .. أما تراها تبكى ؟
فقال له : لقد جاء أخوة يوسف يبكون وهم
ظلمة . لا ينبغي لأحد أن يقضى الا بما أمر أن
يقضى به من السنة المرضية ..

والملاحظ أن قميص يوسف فيه ثلاث آيات ،
على ما ذكر الماوردي (٢) :

اولا : كان دليلا ليعقوب على كذب أبنائه ..
ثانيا : كان دليلا على براءته عندما وجدوه قد
من دبر .. ثالثا : القوه على وجه يعقوب فارثد
صبرا .

ولكن هذا الراى مردود .. لأن القميص
الذى جاؤا عليه بالدم .. غير القميص الذى
قد من دبر .

فلفه يعقوب في تميمة وعلقه في عنق يوسف ،
فأخرجه جبريل .. وألبسه آياه في الجب (١) .

وصار جبريل يؤنسه في وحشته ..
وكان ماء البئر ملحا .. فعذب بعد اللقاء يوسف
فيه .. وأصبح يغنيه عن الطعام .

وتختلف رواية التوراة عن القرآن الكريم
في هذا الحادث ، حيث قالت : أن يوسف ذكر
الرؤيا لأبيه .. في وجود أخوته .. وأن أباه
انتهره على ذلك .

وتقول ان أباه هو الذى أرسله الى أخوته
.. ليذهب اليهم في المرعى .. ثم يعود ..
ويخبره عن حالهم .. فلما جاءهم .. وعليه
قميص مخطط .. حياه أبوه به - قالوا : جاء
صاحب الاحلام .. ولاس الجاد المخطط ..
ثم اثتمروا به .. ولكن رواية القرآن الكريم
أقوم قيلا ..

أتى الأخوة المؤتمرون بسخلة من الغنم ..
فذبوها .. ولطخوا القميص بدمها وأكلوا
لحمها .. وعادوا عشاء . الى أبيهم يبكون
ويصرخون .. وكان في انتظارهم .. على أحر
من الجمر ولقد اختاروا وقت العشاء ..
ليكونوا في الظلمة اجرا على الاعتذار .. وتزوير
ما مكروا .. وقد قيل : لا تطلب الحاجة في
الليل .. فان الحياء في العنين .. ولا تعتذر
في النهار .. فتتلجلج في الاعتذار .. فلا تقدر
على اتمامه .

ويقول ابو اسحاق الثعلبي - على لسان
ابن عباس أنما كان سبب ابتلاء يعقوب .. أنه
ذبح شاة .. فاستطعمه جار له فلم يطعمه ..
فابتلاه الله - تعالى - بأمر يوسف .. وأنا أن
كان قلبى لم يطمئن الى حصول هذا من نبي الله
يعقوب - عليه السلام - ألا اننى لا أجزم بعدم
حصوله .. فالله سبحانه - يقول « ما أصابك
من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن
نفسك » .

□ □ □

(١) من تفسير النسفي والكناف والبيضاوى والثعلبي والقرطبي .
(٢) القرطبي ١٨/يوسف .

٤ الأسباط

اقول عندما بلغ وكيع تفسير هذا الحديث
قال :

لقد اجتمعت هذه الخصال الثلاث في أبناء
يعقوب : حسدوا أباهم فكذبوه .. ووعدوه
فأخافوه .. وأتمنهم فخاؤوه .. ومع هذا
جعلهم الله أنبياء .. ثم تلا قوله تعالى « قولوا
أما بالله وما أنزل البنا . وما أنزل إلي إبراهيم
واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط » وما
أوتى موسى وعيسى « ١٣٦ - القره .

* * *

فعندما بلغ رأى وكيع إلى هذا العالم -
مفسر الحديث - قال : حقا « وفوق كل ذي
علم عليم » .

* * *

وانما المعروف أنهم صنعوا ما صنعوا
بيوسف .. قبل أن يجعلهم الله - تعالى -
أنبياء .

* * *

والأسباط هم أخوة يوسف - عليهم
السلام - ولعل المتبادر إلى أذهان أغلب الناس
.. كره أبناء يعقوب .. لما حصل منهم من
إبداء يوسف .. وتأمرهم عليه .. وضرره ..
والتنكيل به في قسوة ظاهرة .. وغلظة سافرة .

ويحضرني في هذا الموقف مما قرأت : أن
بعض العلماء كان يفسر حديث رسول الله -
صلى الله عليه وسلم فقال « آية المنافق ثلاث :
إذا حدث كذب .. وإذا وعد أخلف .. وإذا
أؤتمن خان » وزاد عليها من عنده « ومن كانت
فيه واحدة منها فليتبوا مقعده من النار » .

فبلغ هذا التفسير ، الامام وكيع .. وكان
وكيع هذا استاذا للامام الشافعي رضي الله
عنهما - وهو الذي يقول عنه الشافعي :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي

فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور

ونور الله لا يهدى لعاصي

□ □ □

○ إلى مصر مع الصديق

١] خروجه من الحب

حتى تمكن من رؤيته .. فوجد غلاما جميل
الصوره ، مشرق الوجه ، فنادى : يا بشرى أى
يا بشرى ، وهكذا يقرؤها غير الكوفيين بمعنى
أنه كان ينادى يبشر نفسه ببضاعة غالية .

وقيل انه كان ينادى صديقا له اسمه بشرى
ليساعدته في اخراجه ، ولهذا أسروه - أى
أخفوه - بضاعة لهم ، وقالوا للتجار الذين معهم
في القافلة ، لقد اشتريناه من أصحاب الماء
لنبيعه في مصر . « وجاءت سياره ، فأرسلوا
وأردهم ، فأدلى دلوه ، قال يا بشرى هذا غلام ،
وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون » ١٩
يوسف - والسيارة أى القافلة .

وقد ذكر كثير من العلماء والمفسرين .. ان
أخوته هم الذين أنتشلوه من الحب وباعوه
للسيارة .

وهذا يخالف تسلسل القصة في القرآن
الكريم بصريح آياته . ولعل الدافع لهم إلى
هذا الظن قول الله . تبارك وتعالى - بعد
الآية السابقة « وشروه بثمن بخس دارهم
معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين » ٢٠
يوسف .

فلعل عبارة « وكانوا فيه من الزاهدين » هى
التي دفعتهم إلى أن يعتقدوا أن الزاهدين فيه
هم أخوته .. وهم الذين شروه - وشري
بمعنى باع .. ولكن الزاهدين فيه .. هم رجال

روى ابن يوسف - عليه السلام - .. نادى
من البشر .. فقال : يا أخوتاه .. إذا اجتمعتم
كلكم فأنس بعضكم بعضا .. فاذكرو وحشتى
وإذا اكلتم فاذكروا جوعى .. وإذا شربتم فاذكروا
ظمئى .. وإذا رأيتم غريبا فاذكروا غربتى ..
وإذا رأيتم شابا .. فاذكروا شبابى .. فقال له
جبريل : يا يوسف ، كف عن هذا واشتغل
بالدعاء .. فإن الدعاء عند الله بمكان .. ثم
علمه فقال : قل اللهم يامؤنس كل غريب ..
وياصاحب كل وحيد .. ويا ملجأ كل خائف ..
ويا كاشف كل كرب .. أسألك أن تقذف رجاءك
في قلبى .. حتى لا يكون لى هم ولا شغل
غيرك .. وأن تجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا
أنك على كل شيء قدير .. فقالت الملائكة :
الهنأ ، نسمع صوتا ودعاء .. الصوت صوت
صبى .. والدعاء دعاء نبي ..

وقيل : ردها يوسف في ليلته مرارا ..
فأخرجه الله في صبيحة يومه ذلك من الحب .
جاءت قافلة في طريقها إلى مصر .. قادمة
من مدين .. ونزلوا بقرب الحب ، بعد ثلاثة
أيام من اللقاء يوسف فيه .. وأرسلوا وأردهم
وهو الساقى الذى يستقى لهم وكان اسمه -
مالك بن ذعر الخزامى « ١ » - قيل أنه من مدين
فأدلى دلوه في البئر ، وتعلق به يوسف - عليه
السلام وظل مالك يرفع الدلو بمجهود كبير ..

(١) القرطبي والكشاف وغيرهما ١٩/يوسف .

القافلة .. لأسباب سندكرها قريبا في صحبتنا
له في الرحلة الى مصر .

وجاء في التوراة .. ان اخوة يوسف ..
جلسوا للطعام .. بعد القائه في الجب ..
ووجدوا قافلة من الاسماعيليين .. تقصد
مصر ، ومعهم الكثيراء ، والبلسان ، والطيب ..
وجاءت قافلة اخرى من المديانيين .. فسحبوا
يوسف من الجب .. وبأهوه للاسماعيليين ولم

يعلم اخوة يوسف بما حصل ، وقالت ان يهوذا
أشار على أخوته الا يتركوا يوسف في الجب
.. وأن يبيعوه .

ولما جاء راوبين الى الجب .. ولم يجد
يوسف .. مرق ثيابه وبكى . وتقول التوراة ،
ان راوبين هذا .. هو الذي أشار عليهم بالقائه
في الجب .. حتى يختلف اليه ويخرجه ..
ويرده الى أبيه .



٢) الكريم ابن الأكرمين

« ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا » .

ولعل هذا الإحساس عند المؤمن فقط ، هو الذى يجعله سعيدا .. فى السراء والضراء بينه وبين ربه - فهو يعلم أن ربه به رءوف رحيم .. فاذا كان الشر فى ظاهر الحال .. الا أنه يرى الخير كامنا فيه .

وهكذا بدأ يوسف - عليه السلام - يبلغ القوم رسالة الاسلام لله خالق السماوات والأرض .. ومدبر ما بين السماوات والأرض .. والمحيط بما فوق أو تحت السماوات والأرض .

وقد ضرب القرآن الكريم لنا مثلا من مواقف يوسف - عليه السلام - عندما دخل معه السجن فتيان .. وطلبا منه تفسيرا لرؤيا كل منهما .. وكان رده عليهما .. لا صلة له مطلقا بما سألاه عنه ، فبعد أن سرد كل منهما رؤياه « قال لا يأتيكما طعام تروقانه الا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله . وهم بالآخرة هم كافرون وأتبع ملة أبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون .. يا صاحبي السجن انى تفرقون خير أم الله الواحد القهار .. ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله امر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وبعد كل هذا قال « يا صاحبي السجن أما أحدكما فيستقى ربه .. الخ الآيات ردا على سؤالهما فى تفسير رؤياهما » ..

أن يوسف عليه السلام - هو النبی الوحيد، الذى جمع من تسلسل نسبه مربعا كاملا متصلا .. من صفوة البشرية .. فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم .

أوحى اليه فى الحب .. وبدأت رسالته .. ليبدأ معها حياة كلها كفاح وصراع وبلاء .. وحملة الرسائل .. كالذهب بين معادن الناس .. والذهب لا يزيد جلاء ونقاء وصفاء .. الا اذا ادخل النار .. لتبخير ما علق به من ادران الحياة واقذارها وصدئها .. فيخرج بعد كل مرة .. اشد صفاء ونقاء وطهرا .

سار يوسف مع السيارة .. بعد ان اخرجته مالك بن ذعر الخزاعى .. مع قوم لا يعرفون الله ، ولا يؤمنون ببعث ولا حساب .. ولا ثواب ولا عقاب .. يقصدون آلهة .. صنعوها بأيديهم .. لا تضر ولا تنفع .. ولا تبصر ولا تسمع .. فما هم الا اصنام قد هامت فى اصنام .. وكانوا اول محنة له فى حياته الرسالية .. بعد محنته مع اخوته .. قبل نزول الوحي اليه .. ولكن قيل « ربما كمننت المنن فى المحن » فلولا كبد اخوته له .. لما القى فى الحب .. ولو لم يلق فى الحب .. لما وصل الى ما وصل اليه من ملك مصر .

والانسان مجرد من معرفة نتائج الأحداث فى حياته ، وهل هى خير له أم شر له !

والله سبحانه وتعالى - يقول « عسى ان تکرهوا شيئا وهو خير لكم » .. والعكس .. بل ويقول جل شأنه « فعمى ان تکرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .. ويقول ايضا ،

وقال قطفير لامراته « اكرمي مثواه عسي ان
بنفعنا او نتخذله ولدا » ٢١ يوسف .

وعن عبد الله ابن مسعود :

افرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس
في يوسف وقال لامراته اكرمي مثواه .. والمرأة
التي انت موسى ، فقلت لابيها يا ابت استاجرته
.. وابو بكر حين استخلف عمر (٢) .

وكان قطفير هادئا وديعا .. لم يرزق ولدا
ولا بنتا .. فاتخذله ولدا (٣) .. وكان يوسف
اثرا عنده .. فجعله صاحب امره ونهيه ..
والرئيس على خدمه .. والمتصرف في بيته .

وفي نفس الوقت ، رعاه الله برعايته ..
وافاض عليه من علمه وحكمته .. واسبغ عليه
من نوره وبركته .. « وكذلك مكنا ليوسف في
الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله
ثالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون »
٢١ يوسف .

وقال الحكماء حول تلك الآية :

حفا الله « غالب على أمره » حيث أمره أبوه
الا يفص رؤياه على أخوته .. فغلب أمر الله حتى
« ص .. وأراد أخوته قتله .. فغلب أمر الله حتى
صار ملكا وسجدوا بين يديه .. وأراد أخوته ان
يخلوا لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق
عليهم قلب أبيهم .. وذكره بعد عشرات السنين
فقال « يا اسفا على يوسف » .. وظننت امرأة
العزيز أنها غلبته عندما سبقته بالاتهام أمام
زوجها .. فغلب أمر الله وقال لها زوجها
« واستغفري لذنبيك أنك كنت من الخاطئين » ..
ثم دبر يوسف لنفسه للتخلص من السجن بذكر
الساقى .. فغلب أمر الله .. ونسي الساقى ..
ولم يث يوسف في السجن بضع سنين ..

وبتلك الطريقة هاجم يوسف - عليه السلام -
اصحاب القافلة - بعد اخراجه من الحب
مباشرة - مهاجمة لا هوادة فيها ولا لين ..
واصحاب العقائد الفاسدة .. ليس من السهل
جلاء الصدا العالق بأفكارهم .. والران المخيم
على افئدتهم .. والاكنة المحيطة بقلوبهم ..
فاعتبروه بلاء لم ينزل عليهم من السماء .. وانما
انشقت لهم عنه الارض .. فزهدوا فيه ..
وكرهوا بقاءه معهم .. فباعوه بدرهم قليلة .
قال ابن عباس بعشرين درهما .

وتعددت الروايات عن الثمن الذي بيع به ..
فبعضهم قال عشرين دينارا وزوجا من النعال
وثوبين أبيضين .. وقال آخرون : أدخلوه السوق
.. فتوافعوا في ثمنه .. حتى بلغ وزنه مسكا
وحريرا .. حيث اشتراه قطفير (١) أو إطفير ..
وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر .. جاءت
هذه الآراء في جميع كتب التفسير ، فكيف نلائم
بين الرايين الآخرين .. وبين أخبار الله بأنهم
باعوه بثمن بخس ؟ « وشروه بثمن بخس دراهم
معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » .

اللهم الا اذا فهمنا .. ان مالك الخزاعي ..
تخلص منه بعشرين درهما كما قرر ابن عباس
والسدي - بمجرد دخوله مصر .. وأن الذي
اشتراه عرضه بسوق الرقيق .. فاشتراه
العزيز بهذا الثمن الغالي من المسك والفضة
والحرير .

**وجاء في قصص الأنبياء ، للأستاذ عبد الوهاب
النجار ،** ان الذي اشتراه في مصر هو رئيس
شرطة المدينة ، وهو الذي قال لامراته اكرمي
مثواه .. واسمه « فوطيفار » واسم منصبه
في العبرية « سرهاطياحيم » أي رئيس الشرطة .
والواضح ان فوطيفار هذا هو نفسه « طليم
.. وهو صاحب لقب العزيز .



(١) القرطبي ٢١/يوسف .

(٢) القرطبي ٢١/يوسف .

(٣) ذكر هذا ابن عباس وابن اسحاق - القرطبي ٢١/

٣ قصة الحب المجنون

الباهر .. وكلما شب .. شبت معه تلك البذرة
حتى نبتت وأورقت وامتدت جذورها الى أعماق
أعماق قلبها .. واستطالت أغصانها الى شاهر
خيالها وأفكارها .

ثلاثة عشر عاما ، لاهم لها .. الا النظر الى
أجمل جسم وأكمل قوام أبصرته عينها ، والا
انفناء في أشف روح تغفلت في شفاف قلبها .
كل هذا وهو سايح في بحار من العلم والحكمة
« ولما بلغ أشده آتيناها حكما وعلمنا » ٢٢
يوسف .

وعن الحسن : من أحسن عباده ربه في
شبيبته .. آتاه الله الحكمة في اكتهاله .

**وكلما ارادت راعيل أن تفتح له بابا من أبواب
الفرح والفرام .. طمعا منها في أن يبادلها حبا
بحب .. وهياما بهيام .. لم تجد منه غير النصع
والاعراض .. والتذكير بالمثل والقيم والعفة
والوفاء .**

وقد روى السدي وابن اسحاق : لما ارادت
امراة العزيز مراودة يوسف عن نفسه ..
وتشويقه الى نفسها قالت له : يا يوسف ،
ما أحسن شعرك : قال : هو أول شيء ينثر من
جسدي ، قالت : ما أجمل عينيك : قال : هما
أول ما يسيل على الأرض من جسmy ، قالت :

**وبلغ يوسف أشده ، ونما عوده في بيت
قطفير .. وكان رائع الحسن .. ساطع الجمال
وقالوا : أن نسبة الجمال بينه وبين الناس ..
كالنسبة بين القمر ليلة البدر وبين الكواكب .**

وقيل : كان يوسف اذا سار في أزقة مصر ..
يرى تلالؤ وجهه على الجدران .. كما يرى تلالؤ
نور الشمس من الماء عليها . كان حسن الوجه ..
جعد الشعر .. ضخم العينين .. مستوى الخلق
أبيض اللون .. غليظ الساعدين والعضدين
خميص البطن .. اذا ابتسم رأيت النور من
ضواحه .. واذا تكلم رأيت في كلامه شعاع
الشمس من ثناياه .. لا يستطيع أحد وصفه ..
وكان حسنه كضوء النهار عند الليل .. وكان
يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله ونفخ فيه
من روحه قبل أن يصيب المعصية .. وقيل أنه
ورث ذلك الجمال من جدته ساره .. وكانت قد
أعطيت سدس الحسن وقال - صلى الله عليه
وسلم : في حديث الاسراء من صحيح مسلم
« فاذا أنا بيوسف .. اذا هو قد أعطى شطر
الحسن » (١) .

**وعلفت بذرة حب صغيرة .. بقلب راعيل
زوجة العزيز قطفير .. من يوم أن وقع بصرها
على يوسف وبسببها بعض المفسرين - زليخا .
دخل منزلها في مقتبل شبابه .. وهو على
تلك الصورة من الحسن الفاتن .. والجمال**

(١) القرطبي ١٩/يوسف .

(٢) من التعلبي والقرطبي وغيرهما ٢٢/يوسف .

ما أبهى وجهك : قال : أنه طعام الدود . فلم
تزل تأمره مرة على استحياء .. ومرة في جلاء ..
وتدعوه الى اللذة .. وهو شاب شبى الشباب
وهى جميلة رائعة الحسن ..

ظلت بطول هذه السنين تعرض عليه مفاتيح
جسمها بين الحين والحين .. وتلاحقه في الليل
والنهار .. عله يتأثر أو يلين .. ولكنه في حصن
حصين .. وركن ركين .. يدعوها دائما الى
العفة والوقار .. والبعد عن الدنس والصفار ..
بل ويطمع في قرارة نفسه .. ان يتشأها من
سوق الفسوق .. ويذكرها بالوفاء لسيدها
الذى أكرم مثواه .. ورعاه واجتباها .. ونبهها
الى عالم السر والنجوى ، والمحجب لا يفيد النصيح
ولا يزيده أعراض الحبيب الا اشعالا لنار حبه ..
واذكاء للوجد في قلبه .. وخاصة النساء ..
وهن حبايل الشيطان ..

ادركت انه لافائدة تجدى مع هذا الانسان
وذهبت كل حيلها .. ووسائل اغرائها سدى ..
وتحطمت أمواج عواطفها الجياشة .. أمام هذا
الجبل الراسخ .. والطود الشامخ .. فقررت
في نفسها أمرا ..

هيات نفسها ، معلنة الحرب عليه .. في غير
هواذة ولا لين .. وغلفت الأبواب بالانفال ..
وكانت سبعة متتابعة .. على الطريقة الفرعونية ..
وبدأت المعركة شرسة قاسية .. في وحشية شهوانية
وسجال مجنون .. ولكنه استعان بإيمانه ..
وتحصن بيقينه .. واستعاذ بربه .. ومن استعاذ
بالله فقد استعاذ بمعاذ .. ونظر اليها في أنفة
وأشمئزاز .. قائلا : كيف يكون هذا ، وزوجك
ربى أكرم مثواى ؟ اذا أكون خائنا له .. ظاننا
لنفسى « وغلفت الأبواب وقالت هيت لك ، قال
معاذ الله أنه ربى أحسن مثواى ، أنه لا يفلح
الظالمون » ٢٣ / يوسف .

**وذكر الثعلبي والقرطبي رواية عن علي بن
أبي طالب :** قال : قامت امرأة العزيز الى الصنم
فظللت دونه بثوب .. فسألها يوسف عن ذلك ..
قالت : أستحي أن يرانا .. فقال لها : أتستحين
مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه .. ولا أستحي من
السميع البصير .. العليم بذوات الصدور ؟ ..
ولكنها أصرت على تنفيذ غرضها مهما كان الثمن
وعلى أية نتيجة تكون . وهمت به لتحتويه في
أحضانها ، ولتأخذ بين شعبها .. ولكنه يوسف
المعصوم الذى قال الله عنه « أنه من عباده

المخلصين » بفتح اللام ، أى ن الله هو الذى
استخلصه لنفسه .. فكيف يستخلص الله من
البشر من في قلبه ذرة من غفلة .. او لحظة من
تردد ؟ .. فلم يجد يوسف مناصا من البطش
بها .. ليمنعها عن نفسه .. ويمنع نفسه منها
وهم يرفع يده فعلا ليضربها ولكن الله الذى
استعاذ به .. اراد أن يصرف عنه سوء ..
دون أن يرتكب شيئا قد يكون سببا في اتهامه ..
او الإيحاء بشبهة في هدفه من ضربها . فسرع
في التو حركة بالخارج .. توحى بمقدم ربه -
العزى - فجرى الى الباب مسرعا للقائه ..
وجرت هى خلفه لتحول بينه وبين الفرار منها ..
ولحقته من قمصه من الخلف .. فقطع القميص
في يدها .. ووصل الى الباب ليجد ربه وابن
عمها هناك « ولقد همت به ، وهم بها لولا أن
راى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء
والفحشاء أنه من عبادنا المخلصين » ٢٤ يوسف .

**وقد ورد لفظ « رب » في هذه القصة بمعنى
العزى أو الملك ، في عدة مواقع .. فمثلا « أنه
ربى أحسن مثواى » تقصد العزى لأنه قال
لامراته أكرمى منواه .**

وايضا عند تفسيره رؤيتى صاحبي السجن ،
فال « اما احكما فبسقى ربه خمر » يقصد
الملك .. وكذلك « قال للذى ظن أنه ناج منهما
اذكرنى عند ربك » ومثلها عندما جاءه امر العفو
الملكى لخروجه من السجن .. قال لصاحبه :
« أرجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة » .

ليس معنى الرب في كل هذه الآيات هو
الملك ؟

فكان المقصود بالبرهان .. في قوله تعالى :
« وهم بها لولا أن راى برهان ربه » هو الدليل
الحركى والصوتى .. الذى يحدث عادة عند
وصول العزيز الى القصر - كما بينا سابقا ..
وان كان هذا المعنى لم يرد صراحة في أى من
التفسير .. ولكن يؤيده كل من المنطق ، والواقع
ومكانة الصديق ، وصريح النص .

**وقد قرأت تعليقا على هذا الموقف ، للامام
حافظ الدين عبد الله بن أحمد النسفى في كتابه
« مدارك التنزيل وحقائق التأويل » يقول فيه :**
ومن حق القارئ - يقصد قارئ القرآن - ان
يقف على : « وهمت به » ثم يبدأ قراءته ب « وهم
بها لولا أن راى برهان ربه » وفيه أشعار بالفرق
بين الهمين .. أه .

وقد ورد لفظ « الهم » في كثير من آيات الله
بمعنى الاعتداء والضرب مثل « اذ هم قوم يبسطوا
اليكم ايديهم فكف ايديهم عنكم » و « وهمت كل
امة برسولهم » و « وهموا باخراج الرسول » .
فكان هم يوسف - عليه السلام - اى همه
بضربها دفاعا عن نفسه .

وقد سماه الله مخلصا . . فعلم بالقطع . .
انه ثبت في ذلك المقام . . وجاهد نفسه مجاهدة
ولى العزم . . ناظرا في دلائل التحريم . . حتى
استحق من الله البناء . . وخاصة ان ثناء الله
عليه في نفس هذا الموقف « لولا ان راى برهان
ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه
من عبادنا المخلصين »

فكيف يتبادر الى اذهاننا غير هذا ؟ . . كيف
نسمح للشيطان ان يزغ في قلوبنا عن يوسف -

عليه السلام - اقل هفوة . . او ادنى خطره . .
وقد قال الشاعر : -

هممت ولم افعل ، وكدت وليتنى
تركت على عثمان تبكى حلاله
وقال جميل بثينه :

هممت بهم من بشينه لو بدا
شفيت غليلات الهوى من قواديا

وهذه ام موسى يقول الله عنها « ان كادت
تبدى به لولا ان ربطنا على قلبها » والمعروف
انها لم تبد به ، وهذا يؤدى بنا الى معنى جديد
هو انه لم يهم بها مطلقا ، حتى ولا بالضرب بسبب
ظهور امارات وصول العزيز . .

□ □ □

٤ أباطيل وحقائق

جاء في أغلب كتب التفسير عن « وهمت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » تأولات يستحى قلم الأديب أن يخطها . . . وإن كان البعض قد أورد « هم يوسف » بطريقة يكون فيها شيء من التأدب في حقه عليه السلام مثل : -

قول النسفي : هم بها هم الطباع مع الامتناع وقال : قاله الحسن . وقال الشيخ أبو منصور وهم بها هم خطرة . . . ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب . . . ولا مؤاخذه عليه . . . ولو كان همه كهمها . . . لما مدحه الله - تعالى - بأنه من عباده المخلصين .

وقول القاضي ناصر الشيرازي صاحب تفسير البيضاوي : المراد بهمه عليه السلام . . . مبل الطبع . . . ومنازعة الشهوة . . . لا القصد الاختياري . . . وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالملاح . . . والاجر الجزيل من الله . . . من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم . . . او مشاركة الهم .

غير أن هؤلاء المفسرين ، ومعهم غيرهم كثير ، مثل الإمام الزمخشري صاحب تفسير الكشاف ، والالوس صاحب « روح المعاني » والقرطبي . . . كتبوا أيضا آراء مفسوسة على يوسف عليه السلام - وهي بالتأكيد مفسوسة عليهم في كتبهم ومازال قلمي الى هذه اللحظة يستحى من ذكرها ، ولكنني سأجبره على كتابة بعضها موجزا - في استحياء - حتى نتحرز في أفهامنا ، اذا عرضت لنا . . . فمنها مثلا : بعد استغفار الله تعالى . ان يوسف حل تكة سراويله . . . وقعد بين شعبها الأربع . . . وفسروا البرهان . . . بأنه سمع صوتا اياك واياها . . . فلم يكثر له . . . فسمعه ثانيا

فلم يعمل به . . . فسمع ثالثا : اعرض عنها ، فلم ينجع فيه . . . حتى مثل له يعقوب عاضا على أنامله . . . وفيل : ضرب يده في ظهره ، فخرجت الشهوة من أنامله .

وقالوا كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولدا ، الا يوسف . . . فإنه ولد له أحد عشر ولدا من أجل ما نقص من شهوته . . . حين هم بها . . . وقيل : صيح به يايوسف . . . لا تكن كالطائر . . . كان له ربش . . . فلما زنا قعد لا ربش له .

أي والله وردت كل هذه الآراء في أغلب كتب التفسير ، وأبى القلم أن يكتب آراء أشد فسقا . . . وأكبر فجورا . . . وإن كان الإمام الزمخشري - صاحب الكشاف - بعد أن ذكر هذه الآراء . . . عاد وكذبها . . . بعبارات قوية . . . شكرها له العلم والدين .

ولكن من المؤلم أكثر وأكثر . . . ويؤلم كل مؤمن غيور على رسل . . . وعلى كرامتهم . . . وعلى تفكير المسلمين ومنطقهم . . . رواية وردت في كثير من كتب التفسير أيضا . . . ولكن كتاب النسابوري أوردتها منسوبة الى ابن عباس . . . وهو منها براء ، وهذه الرواية تقول : عندما همت به وهم بها . . . فإذا بكف قد بدت فيما بينهما . . . ليس لها عضد ولا معصم . . . مكتوب فيها « وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون . . . فقام هاربا فارا . . . فلما ذهب عنهما الروح والرعب . . . عادته وعاد . . . وإذا بالكف قد بدت بينهما . . . ليس لها عضد ولا معصم . . . مكتوب فيها « وانقوا يوما ترجعون فيه الى الله » . . . فقام هاربا وقامت . . . فلما ذهب عنهما الرعب . . . عادت وعاد . . . وإذا الكف بدت بينهما ليس لها عضد ولا معصم . . . مكتوب

نبيها « ولا تقرنوا الزنا انه كان فاحشة ومعت
وساء سبيلا » ثم قال الله تعالى « كذلك لنصرف
عنه السوء والفحشاء » انه من عبادنا
المخلصين » اهـ .

الى ابن مذهب يقولنا وافكارنا . ونذهب
بنور هذا الهراء والسحف . . في كتب مدرس
وبدأنا فيما يسا . . بل ويتحدث بها الكبير ممن
يدعون العلم . . ويباشرون الوعظ والارشاد .

وقد قال صاحب الكشاف

فهل هذا الكلام يقال من اهل العلم والوحيدة .
. . ولو وجد من يوسف عليه السلام . . الذي
رله لتعيت عليه . . ودُرب نوته واستغفاره
. . كما بعيت على غيره من الانبياء . . كيف وقد
اثنى الله عليه . . وسمى مخلصا . . واستحسن
من الله الثناء فيما ابرل من كتب الاولين . . ثم
في القرآن وهو حجة على سائر الكتب . .
ومصادق لها . . وقد نزل فيه سورة كاملة عن
قصته . . عليه السلام . . ليجعل له لسان صدق
في الآخرين . . كما جعله لجده ابراهيم . . عليه
السلام . . وليعتدى به الصالحون الى آخر الدهر
. . في العفة وطيب الازار . . والتثبت في مواقف
العشار . . فأخزى الله اولئك في ابرادهم ما
يؤدي الى ان يكون انزال الله السورة . . التي
هي احسن القصص . . في القرآن العربي المبين
. . ليقتي نبي من انبياء الله في القعود بين
شعب الزانية ، وفي حل تكة سراويله للوقوع
عليها . . وفي ان بنهاه الله ثلاث كرات . . ويصاح
به من عنده ثلاث صحاح . . بقوارع القرآن
. . وبالتوبيخ العظيم . . وبالوعيد الشديد . .
ولو ان اوقع الزناة . . واحدهم حذقة . .
واجلحهم وجها . . لقي بادن ما لقي به نبي الله
. . مما ذكروا . . لما بقي له عرق نضر ،
ولا عضو يتحرك .

فياله من مذهب ما افحشه . . ومن ضلال
ما ابينه . .

واعجبتني لطيفة ذكرها الأستاذ عبد الوهاب
النجار في كتابه « قصص الانبياء » عن الامام
الفخر الرازي خلاصتها : ان يوسف شهد الله
تعالى ببراءته بقوله تعالى : « انه من عبادنا
المخلصين » .

وشهد الشيطان ببراءته بقوله : « فبعزتك
لاغويتهم اجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين » .
وشهد ببراءته الشاهد من اهل العزيز اذ

قال : « فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من
كيدكن ان كيدكن عظيم » . .
وشهد ببراءته النسوة اللاتي قطعن ايديهن
عولهن « ما علمنا عليه من سوء » .
وشهد ببراءته زوجة العزيز بقولها « الان
حسبني الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن
الصادقين » .

ونحن نضيف الى كل تلك الشهادات . .
اعتراف زوجة العزيز امام النسوة في الوليمة . .
التي دعتهن اليها . . بعد انتشار الشائعات . .
« فالت فذلك الذي لمتني فيه ، ولقد راودته
عن نفسه فاستعصم »

فالذي يريد ان يتهم يوسف بالهم . . عليه
ان حار ان يكون من حزب الله . . او من حزب
السيطان . . وكلاهما شهد ببراءة يوسف . .

روى تعب انه لما هرب يوسف . . جعل
فرائس الفعل تتائر ويتساقط . . حتى خرج
من الانوب السبعة . . ووصل الى باب المدخل
. . وهي تجري حلفة لاهثة . . يحاول منعه من
الخروج . . هو يسعى الى الهرب . . وهي تجدد
في الطلب . . ووجدا قطير - زوجها - قد
وصل الى الباب ومعه ابن عمها . . فراباهما على
هذا الحال . . فارتبكت برهة . . ثم انفجرت
بالبكاء والنحيب . . والدمعة اكبر اسلحة المرأة . .
فقال لها زوجها . . ماذا جرى يا راعيل ؟ . .
قالت « ما جزاء من اراد باهلك سوءا ، الا ان
سجن او عذاب اليم » ٢٥ / يوسف .

فهى تطلب له السجن او الضرب بالسياط
. . لتتفى منه غليلها . . ونهدهد من لوايح
فؤادها . . وفي نفس الوقت تبرر موقفها . . امام
زوجها وابن عمها .

وقد قال بعض العلماء : أنا أخاف من
النساء . . أكثر مما أخاف من الشيطان . . لأن
الله تعالى قال : « ان كيد الشيطان كان ضعيفا »
وقال للنساء : « ان كيدكن عظيم » .

وجهت راميل اليه الاتهام . . بأنه كان يريد
منها الفحشاء . . وانها ابت وامتنعت وتعففت
. . وتطلب له عقابا صارما . . فاتهمته بخيانة
سيده وولي نعمته . . فلم يجد مناصا من الدفاع
عن نفسه . . ولو لم تقل هي هذا لعصم يوسف
نفسه عن اظهار جرمها . . فقال « هي راودتني
عن نفسي » ونازعته قميصي فقطعته . . قالهم
الله ابن عمها الفصل في الامر ، لمعرفة ايهما

الصادق في دعواه . وقد التى الله الشهادة ..
على لسان ابن عم لها .. من أهلها .. لتكون
أوجب للحجة عليها .. وأوثق في براءة يوسف
فقال ابن عمها « ان كان قميصه قد من قبل
فصدقت وهو من الكاذبين ، وان كان قميصه قد
من دبر فكذبت وهو من الصادقين » ٢٦ - ٢٧
يوسف / بمعنى ان كان قميصه مقطوعا من أمام
.. دل ذلك على انه هو الذي كان يواجهها
لارتكاب الفحشاء .. اما ان كان قطع القميص
من الخلف .. دل على انه كان بهرب منها ..
وهي تلاحقه .. فوجدوا القميص مقطوعا من
خلف .. ودل هذا على براءته .. فقال لها ابن
عمها انه من كيدكن « ان كيدكن عظيم » ٢٨ /
يوسف / وسمى كيد النسساء عظيما .. لان
كيدهن الطف وأعلق بالقلب .. واشد تأثيرا على
النفس .. ولانهن يواجهن به الرجال ..
بالشيطان ساعدهن في التخطيط ..

الصادق في دعواه . وقد التى الله الشهادة ..
على لسان ابن عم لها .. من أهلها .. لتكون
أوجب للحجة عليها .. وأوثق في براءة يوسف
فقال ابن عمها « ان كان قميصه قد من قبل
فصدقت وهو من الكاذبين ، وان كان قميصه قد
من دبر فكذبت وهو من الصادقين » ٢٦ - ٢٧
يوسف / بمعنى ان كان قميصه مقطوعا من أمام
.. دل ذلك على انه هو الذي كان يواجهها
لارتكاب الفحشاء .. اما ان كان قطع القميص
من الخلف .. دل على انه كان بهرب منها ..
وهي تلاحقه .. فوجدوا القميص مقطوعا من
خلف .. ودل هذا على براءته .. فقال لها ابن
عمها انه من كيدكن « ان كيدكن عظيم » ٢٨ /
يوسف / وسمى كيد النسساء عظيما .. لان
كيدهن الطف وأعلق بالقلب .. واشد تأثيرا على
النفس .. ولانهن يواجهن به الرجال ..
بالشيطان ساعدهن في التخطيط ..

نم اتجه الى يوسف قائلا : اكتم هذا الامر
في نفسك .. ولا داعي للتحدث به .. حفاظا على

وسمعه رجل اكرم مثواه .. اما انت يا راعيل ،
فاستغفري للذنبك ، وعودي الى ربك ، عسى ان
يففر لك هذا الخطأ .. » يوسف اعرض عن هذا
واستغفري للذنبك انك كنت من الخاطئين »
٢٩ / يوسف .

وقيل ان العزيز كان رجلا حليما ، وروى انه
كان قليل الغيرة ، وتلك صفة لا تجوز في حق
المؤمن .. فالمعصوم عليه الصلاة والسلام يقول :
« المؤمن يفار .. وانا اغار .. والله اشد غيرة »
.. ولكن العزيز لم يكن مسلما .. وقال صاحب
تفسير النسفي : كان العزيز مطوعا لزوجته ..
وحملها ذلولا .. زمامه في يدها .

اما ما قيل من ان الشاهد كان طفلا رضيعا
انطقه الله .. فهذا رأى لا يقبل نسكلا ولا موضوعا
.. ولا يستحق شرف النقاش .. لظهور التكلف
فيه .. بلا سبب .. ولا دليل .. تطمئن اليه
النفس .. ويستسيغه العقل ..



٥ شائعات ووثيمة

وقال مجاهد : المتكا هو الطعام الذى لا يؤكل الا بالسكين .. أعدت راعيل متكاً للنساء من النمارق الفاخرة وقصدت بتلك الهيئة .. وهى جلوسهن متكئات .. والسكاكين فى أيديهن .. أن يدهشن عند رؤية يوسف .. ويشغلن عن نفوسهن .. فنقع الأيدى على الأيدى فيجرحنها .. لأن المتكىء اذا بهت لشيء .. وقعت يده على يده .

واتكا النسوة فى مجلسهن .. ومع كل واحدة سكيناً وفاكهة .. يقطعنها .. وأدخلت عليهن يوسف .. وهن على هذا الحال فكان دخوله كصدمة كهربية .. أصابت قلوبهن .. فأكبرنه وأعظمنه .. وهبن ذلك الحسن الرائع .. والجمال الساطع .. وصارت السكاكين تجرح فى أيديهن .. دون احساس منهن أو شعور .

« فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقان حاش لله ما هذا بشراً ان هذا الا ملك كريم » ٣١/ يوسف / وقيل « أكبرن » بمعنى حضن ، والهاء للسكت .. يقال أكبرت المرأة أى حاضت .. وحقيقته .. دخلت فى الكبر .. فهى بالحض تخرج من حد الصفر الى حد الكبر ، وأخذ أبو الطيب هذا المعنى فى قوله :

خف الله واسترذا الجمال ببرقع
فان لحت حاضت فى الخدور العوائق

وقال شاعر آخر :

نأتى النساء على أطهارهن ولا
نأتى النساء اذا أكبرن اكبارا
نفين عنه البشرية .. لغرابة جماله ..
وفتنة حسنه .

بدا الحديث همسا بين خمس نسوة ، هن : زوجات الحاجب والساقى والخباز والسجان وصاحب الدواب .. ولهن اتصال بالقصر .. فعلمن الخبر .. ثم انتقل الحديث رويدا رويدا .. حتى صار حديث النساء فى المدينة .. فى منازل اكابر القوم .. وفى أحفالهن .

قالتوا : امرأة العزيز .. أحبت عبدها الكنعانى .. وأصبحت والهبة به .. مفتونة بجماله .. وكيف يبلغ الأمر بها الى هذا التردى .. وهى زوجة عزيز مصر .. فحب عبدا حفسيراً ؟ والعزيز هو الملك بلسان العرب .. انها لفى غر وضلال .. ما كان لها ان تتردى فيه .

« وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه .. قد شغفها حباً .. انا لنراها فى ضلال مبين ٣٠ / يوسف .

« وشغفها » أى خرق حه شفاف قلبها ، حتى وصل الى الفؤاد ، والشفاف حجاب القلب .. وقيل جلدة رقيقة .. يقال لها لسان القلب .. **وقال النابغة :**

وقد حال هم دون ذلك والنج

مكان الشفاف تبغيه الأصابع

وبلغ راعيل نبا الأحاديث التى تعصر شرفها عصراً .. وتمزق كرامتها تمزيقاً .. فدعتهن الى وليمة بقصرها وقيل دعت أربعين .. منهن الخمس المذكورات .. وجهزت لهن مكاناً .. يتكئن فيه للطعام .. وكانت تلك عادة المنرفين .. ولهذا نهى ان يأكل الرجل متكئاً .

وقال جميل :

فظللنا بنعمة واتكنا
وشربنا الحلال من قلله

وهنا قالت راعيل « فذلكن الذى لمتننى فيه » ولم تقل فهذا الذى .. مع انه حاضر بينهم .. رفعا لمنزلته فى الحسن .. واستحقاق أن يحب ويفتن به .. وقد كن يقلن عنها : انها عشقت عبدا كنعانيا حقيرا .

ثم اعترفت وباحت بذات نفسها .. امنه النسيمة عليها بعد أن قطعن ايديهن .. كما قال الشاعر :

لا تخف ما فعلت بك الاشواق

واشرح هواك فكلنا عشاق

واسترسلت قائلة « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » والاستعصام بقاء المبالغة دليل على الامتناع البليغ .. والتحفظ الشديد .. كانه فى عصمة .. وهو يجتهد فى الاستزادة منها .. وهذا بيان جلى واضح على أن يوسف برزء « فاسر به أولئك الفريق من الهم والبرهان . فترجع النساء فقالوا : اطع مولاتك .. من الصائرين » ٣٢ / يوسف .

عاودته المراودة اذامن .. وهتكت جانيب الحياء .. واوعدته بالسجن ان لم يفعل .. له تخش لوما ولا مقالا ..

أى ليكون مع اللصوص والابقين والقتلة .. كما سرق نبيى .. وأبق منى .. وسفك دمي بعدم استجابته لى .. كما تمنى من كل ذاك .. ونم برض بمنلى فى الحرير على السرير .. يكون جزاؤه فى السجن على الحصر .. فلما سمع تهديدها ووعددها .. قال « رب السجن احب الى مما يدعوننى اليه » وان كان الاولى به أن يسأل الله العافية .

وقد حكى أن يوسف - عليه السلام - لما قال « السجن احب الى » اوحى الله اليه « يا يوسف أنت حبست نفسك حيث قلت ، السجن احب الى ولو قلت العافية احب الى لعوفيت » (١) .

واذكر فيها قرات ان رسول الله صلى الله عليه وسلم زار مريضا صار مثل الفرخ من تسدة المرض فحزن من أجله الرسول ، وقال له : (يا فلان أما كنت تدعو الله بشيء) ؟ قال : يا رسول الله كنت أقول : اللهم ان كنت كتبت على عذابي فى الآخرة .. فعجله لى فى الدنيا .. فغضب - عليه الصلاة والسلام - وقال

(١) القرطبي ٣٣/يوسف .

« يا سبحان الله لا تطبق » وكررها ثلاثا ثم قال « أما كنت تقول ربنا انا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وفنا عذاب النار » لا فرع يوسف الى الله فى طلب العصمة قال « والا بصرف عنى كيدهن أصب البهن واكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم » ٣٣ - ٣٤ / يوسف .

« وصبا » أى مال واشتاق .. قال زيد ابن ضبة :

الى هند صبا قلبى

وهند مثلها يصيبى

أى ان لم يلفظ بى فى اجتناب المعصية .. وقعت فيها .. وهذا منتهى انكار الذات .. فان احدا .. لا يمسح عن معصيه الله .. الا بعون الله .

ثم بدا لهم من بعد تأكيدهم من آيات براءته وهى العميص .. وقطع الأيدي .. والاعتراؤ الصريح منها أمام ضيعانها .. بدا لهم بعد كل هذه الدلالات .. التى بشر الى براءته .. ان يدخلته السجن لابداء عذر الحال .. وارخاء الستر على القيل والقال .. وقطعا لدابر الشاعات التى سرت فى التسعب مسرى الريح .

وما كان ذلك الا بالحاج المرأة على زوجها .. وكان مطواعا لها .. وقد طمعت فى أن يذللها السجن ويسخره لها .. أو خافت عليه العيون .. وظننت فيه الظنون .. فالجأها الخجل من الناس .. والوجل من البأس .. ان رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب .. لتشتفى بخبرة .. اذا منعت من نظره .

« ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » ٣٥ / يوسف .

وقال الأستاذ عبد الوهاب النجار : استعانوا بالقوة القضائية .. لوجه فى السجن .. لأن رؤية الآيات على براءته .. تكون امام القضاء .. وهذا إما رسمى أو عرفى .. ولعلمهم استعملوا النوع الآخر .. وهو قضاء خير منه الاستبداد لأن الاستبداد يجور فاعله .. على أن عمله جور سافر غير مقنع .. ولكن القضاء الذى يجور .. ولبس ثوب العدل .. هو شر أنواع القضاء .

○ يوسف
خلف الأسوار

١] بلاء الحب

الخباز ووضع السم .. ولكن الساقى نكل
وراجع فلم يفعل .
ولما حضر الطعام امام الملك .. قال له
الساقى : لا تأكل فالطعام مسموم ، وهنا قال
الخباز لا تشرب .. فالشراب مسموم .. فطلب
الملك من الساقى ان يشرب فشرب .. ولم يصبه
شيء .. كما طلب من الخباز ان يأكل فامتنع
وابى .. ولكن الملك جرب الطعام في بعض الدواب
فماتت . فأمر بهما ان يدخلوا السجن تحت
التحقيق .

فلما وجدا يوسف في السجن التفأ حوله ،
وقالا له نحن نجيبك من اول لحظة رايناك فيها ..
وذكر صاحب تفسير الكشاف ، انه قال لهما :
« أناشدكما الله الا تحباني .. فوالله ما أحبني
أحد قط الا دخل على من حبه بلاء .. أحبني
عمتى فدخل على من حبها بلاء الرق (١) ثم أحبني
أبى فدخل على من حبه بلاء الحب .. ثم أحبني
زوجة صاحبي فدخل على من حبها .. بلاء
السجن فلا تحباني » .. فقالا : انا لنرى فيك
خلقا وخلقا .. ما رأيناها من قبل ..
وقال الساقى : لقد رأيت بالأمس اننى في
بستان .. فاذا بأصل كرمة عليها ثلاثة عناقيد
من عنب فقطفتها وعصرتها في كأس الملك .. وكان
الكأس ملى في الرؤيا .. وقال الخباز : أرانى
فوق رأس ثلاث سلال .. فيها انواع الاطعمة ..
واذا سباع الطير تنهش منها .. فما تأويل
رؤيانا ايها المحسن الكريم ؟

ودخل يوسف السجن مظلوما .. ولكنه
مرتاح النفس .. منشرح الفؤاد .. مطمئن ..
القلب .. حيث وفقه الله مع اول خطوة خطاها
داخل الأسوار فيقول :

« رب ادخلنى مدخل صدق واخرجنى مخرج
صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » .
وحرص فى قرارة نفسه ان عين الله ترعاه ..
وان السماء تحنو عليه .. ووجد لها فرصة لانعام
رسالته .. وبدأ بالتطبيق العملى مع البيئة التى
ضم اليها .. بيئة المسجونين .

وروى انه كان اذا مرض رجل منهم قام عليه
واذا ضاق اوسع له .. واذا احتاج جمع له ..
وقال قتاده « كان فى السجن ناس قد انقطع
رجاؤهم ، وطال حزنهم .. واشتد بلاؤهم »
فجعل يقول : « ابشروا واصبروا تؤجروا .. ان
لهذا اجرا » ..

فقالوا : بارك الله عليك .. ما أحسن وجهك
وما أعظم خلقك لقد بورك لنا فى جوارك ... فمن
انت ؟

قال : انا يوسف بن يعقوب بن اسحاق ابن
ابراهيم . فقال له عامل السجن : « لو
استطعت خليت سبيلك .. ولكن أحسن جوارك
فكن فى أى بيوت السجن شئت ..

وحاول جماعة من اعداء الملك ان يسموه ..
فاتفقوا مع خبازه واسمه « مجلب » وساقيه
واسمه « بيوض » ان يدسا السم للملك فى الطعام
والشراب .. واغروهما بأموال كثيرة .. فوافق.

(١) أحبته عنته صغيرا .. فدنست عليه شيئا فى ملابسه .. وادعت انه سرقه .. ليكون لها حق استرقاقه سنة .. كما كانت
شريعتهم فى هذا الحين .. وهذا سبب قول اخوته فيها بعد « قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل » القرطبي
٧٧/يوسف .

« ودخل معه السجن فتيان قال احدهما :
انى ارانى اعصر خمرًا .. وقال الآخر : انى ارانى
احمل فوق راسى خبزًا تأكل الطير منه نبشنا
بتأويله انا نراك من المحسنين » ٣٦ / يوسف .

وقبل ان يجيبهما عن تأويل رؤياهما ..
اراد ان يدعوهم ومن معهما فى السجن الى
التوحيد .. ويرشدهما الى الطريق المستقيم ..
ودين الله القويم .. وتلك طريقة حملة الرسالات
واصحاب المبادئ والدعوات .. يستغلون كل
فرصة تسنح لهم لنشر كلمة الله .. طمعا منهم
فى ان تحقق اعلام لا اله الا الله .. على جميع
بقاع الدنيا .. حتى فى اعماق السجون ..
واتبع يوسف فى تحقيق هدفه عدة خطوات :

بدا باخبارهم بالطعام الذى سيأتيهم ...
وصدق فى خبره « قال لا ياتيكم طعام ترزقانه
الا نباتكم بتأويله قبل ان ياتيكم » ...

فقال : هذا فعل السحرة والكهنة قال : ما
انا بساحر ولا بكاهن ، وانما ذلك مما علمنى ربى .
« انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة
هم كافرون » ٣٧ / يوسف .

وانتقل بهم الى الخطوة التالية .. وهى
خطوة التوحيد .. التى تظهر واضحة فى قوله
« واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب
ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ : ذلك من فضل
الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس
لا يشكرون » ٣٨ / يوسف .

أظهر لهم ان هذا ابوحى يوحى اليه .. لانه
حفيد الانبياء وسليل المرسلين .. وانتهى الموقف
الخطابى ليقم الحجة عليهم بالدليل المنطقى ..
والبرهان العقلى .. فقال : يا صاحبي السجن
أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ٣٩ /
يوسف .

وبرهن لهم ان ما يسمونه آلهة يعبدونها ..
لا تستحق الالهية .. ثم دعاهم الى الدين القيم
دين ابراهيم (ما تعبدون من دونه الا أسماء
سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من
سلطان ، ان الحكم الا لله امر ألا تعبدوا الا اياه
ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون
(٤٠ / يوسف) ..

(١) القرطبي ٤١/يوسف :

**ثم قال للساقى ستخرج من سجنك هذا بعد
ثلاثة أيام ، وتعود الى عملك فى قصر ربك - الملك
وجعل عدد العناقيد الثلاثة .. هى عدد الايام
التى يقضيها فى السجن .. وقال للخباز ان
السلال هى مدة بقاءه ايضا فى السجن . ولكنه
سيصلب .. وتأكل كواسر الطير من راسه ..
فقال الخباز : والله ما رأيت شيئا قال : رأيت
او لم تر « قضى الامر الذى فيه تستفتيان » (١) .**

وقال بعض المفسرون : ايهما رايًا هاتين
الرؤيتين حقًا .. وقال البعض الآخر انهما لم يريا
شيئا .. ولكنهما كانا يريدان اختباره فقط ..
فعندما فسرهما لهما قالا : اننا لم نر من ذلك
شيئا .. ولكننا كنا نجرب علمك .. فقال لهما
« قضى الامر الذى فيه تستفتيان » ٤١ /
يوسف .

ولكن المتبادر الى الذهن .. ان الساقى
صادق فى رؤياه .. واما الخباز .. فانه اختلق
رؤياه اسوة بصاحبه .. متوهما انها اكثر فائدة
وأحسن تأويلا .. وذكر النيسابورى فى كتابه
والقرطبي فى تفسيره رواية يبدأ روايتها بعداته
ابن حامد بن محمد الوزان .. وتنتهى بأبى رزين
العقيلي .. انه سمع رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول « ان الرؤيا على رجل طائر مالم
تعبر .. فاذا عبرت وقعت .. ان الرؤيا جزء
من ستة وأربعين جزءا من النبوة » واحسبه
قال « لا نقصها الا على ذى رأى وعقل » وقال
ايضا « الرؤيا لاول عابر » .

ثم اتجه يوسف - عليه السلام - الى الساقى
وقال له « اذكرنى عند ربك » بمعنى تذكير الملك
بانه سجن ظلما « فأنساه الشيطان ذكره فلث
فى السجن بضع سنين » ٤٢ / يوسف ..

وصدق التأويل حيث خرج الساقى والخباز
بعد ثلاثة أيام ليحكم على الخباز بالاعدام -
صلبا - ويعود الساقى الى خدمة الملك ..

فمن الذى أنساه الشيطان ذكره ؟ هل هو
الساقى ؟ أم يوسف ؟

يقول البعض ان يوسف رفع شكواه الى الملك
وبذلك نسى الله .. ويكون المعنى هنا انسى
الشيطان يوسف ذكر الله ، وهذا المعنى لا نظمتن
اليه النفس .. ولا يرتاح اليه الضمير .. فالتكلف
ظاهر فيه .. وانما سياق الآية يدل على ان

الشيطان ادعى الساقى ذكر يوسف عند الملك -
فالعصر في اللغة يعود الى اقرب مذكور .

هي لو فرضنا جدلا ان يوسف اخلا ..
عندما طلب من الساقى تذكر المذبح .. يكون
هذا هو السبب الذي مكن الشيطان من ان ينسى
الساقى ذكر يوسف عند ربه بصيغ سنين ..
والصبيغ بين الثلاث والتسيع .. والمفق عا ..
انه لم يبق في السجن سبع سنين من تاريخ رؤي
رؤي الساقى والحجاز ..

وقد روي عن الحسن قال .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله
أخي يوسف لولا كلمته ما لبث في السجن

ما لبث » يقصد اذكرني عند ربك .. وقد جاء
هذا الحديث في تفسير البيضاوى « رحم الله
أخي يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك لما لبث
في السجن سيعا » كما قال وهب بن منبه
اسباب ايوب البلاء سبع سنين .. وعذب
بحجر بالمسخ سبع سنين .. وترك يوسف
في السجن سبع سنين « (٢) .

**وذكرت التوراة ان يوسف ارتفع شأنه في
السجن .. وصار كشخص رئيسه .. وله الامر
والنهي في كل النازلين في بيت السجن .**

□ □ □

(١) القرطبي والبيضاوى ٤٢/يوسف .

(٢) الثعلبي والقرطبي ٤٢/يوسف .

٢ رؤيا الفرج

والصفث لفة .. هو ما جمع من اخلاط
النبات .. ومنه « وخذ بيدك صفثا فاضرب به
ولا تحث » أى خذ حزمة من خليط القش .

وكان فى مجلس الملك .. ذلك الساقى
(بيوص) صاحب السجن « فتذكر يوسف بعد
هذا الزمن الطويل .. وقال للملك : فى السجن
يامولاي .. من يستطيع ان يخبرك بالتأويل
الحق .. والرمز الصدق فى رؤياك .. وقد
جربته بنفسى .. وصدق ما قاله لى وكأنه كان
برى الغيب ، ويقرا صفحة المستقبل » وقال
الذى نجا منهما وادكر بعد امة انا أنبؤكم بتأويله
فؤسلون « ٤٥ / يوسف / فارسله الملك الى
يوسف فى سجنه .. ليأنيه بتأويل رؤياه .

وذهب الساقى - بيوص - الى السجن ،
ودخل على يوسف معتذرا اليه عن نسيانه
وصيته ولكنه الشيطان .. ومشغل الحياة
ومشاكلها .. وأمالها وآلامها .. وأحوالها
وأحوالها .. تنسى الانسان أحيانا كل أمر حتى
أمر نفسه .. وقبل يوسف العذر .

فقص عليه رؤيا الملك قائلا « يوسف أيها
الصدىق افتنا فى سبع بقرات » .. الخ ٤٦ /
يوسف وغاص يوسف فى أعماقها .. بعين البصيرة
التي وهبها أباه موله .. ثم قال : أن البقرات
السبع السمان ، والسنبلات السبع الخضر ..
ترمز الى سبع سنين من الرخاء الوفير .. والخير
الكثير .. يأتى بعدها سبع سنين من الجذب
والفقر والمجاعة .. ورمزيتها البقرات العجاف
والسنبلات اليابسات .. وبانتهاء تلك السنوات
المجدبة يكون عام كله زرع ونماء ورغد ورخاء ..
فعليكم بالادخار من فترة الغنى لفترة الفقر ..

ورأى الملك رؤيا أفزعته .. ودعا الكهنة
وأهل العلم فى بلده وقال لهم : رأيت سبع بقرات
.. مان .. خرجن من النهر .. وخرج بعدهن ..
.. بقرات هزال ضعاف .. فأكل الضعاف
السمان .. ورأيت أيضا سبع سنبلات خضراء
مثمرة .. تخرج بجانبها سبع سنبلات جافة
.. تلتف حول الخضراء المثمرة فتهلكها (وقال
الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع
عجاف ، وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات
يا أيها الملا أفتنونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا
تعبرون) ٤٣ / يوسف .

واللاحظ هنا ان الملك قال لهم : ان كنتم
للرؤيا تعبرون .. قالها الملك بضم الباء ولم
يقلها بتشديد الباء وكسرها .

ونفهم من هذا ان تأويل الرؤيا وليس تعبيرا
.. بمعنى ان العالم الذى يتصدى لتأويل الرؤيا
.. يجب ان تكون لديه القدرة على العبور
والسباحة والفوص فى أعماقها .. ليصل الى
رمزياتها ومراميها .. وليعبر بها من الصور
الخيالية .. الى المعانى النفسانية وليست هذه
القدرة موجودة عند الكهنة والعلماء .. الذين
دعاهم الملك لعبور رؤياه ..

فقلوا ما هى الا اضعاف احلام .. والاحلام
غير الرؤيا .. فما هى الا اخلاط من الافكار
والأوهام والهواجس .. ونحن لا نعلم للاحلام
تأويلا (قالوا اضعاف احلام وما نحن بتأويل
الاحلام بما لى) ٤٤ / يوسف .

والاكتناز من منحة الرخاء .. لمحنة الجذب
والبلاء » قال تزرعون سبع سنين دابا فما
حصدتهم فدروه في سنبله الا قليلا مما تاكلون .
ثم ياتي من بعد ذلك سبع شداد بان ما قدمتم
لهن الا قليلا مما تحصنون . ياتي من بعد ذلك
عام فيه يفاث الناس وفيه يعصرون « ٤٧ - ٤٩
يوسف .

وعاد ييوص .. ليخبر الملك بما سمع من
يوسف .. ووجد الملك تأويلا منطقيا .. مقبولا
معقولا .. له اثر كبير في اقتصاديات البلاد ..
والحفاظ على استقرار العيش فيها .. فحمله
أمر العفو الملكي عن يوسف .. ليخرج من
السجن ، وليشرف بمقابلته شخصا « وقال
الملك أئتوني به « ٥٠ / يوسف .

واسرع الساقى حاملا البشري الى يوسف
عليه السلام .. ولم يكن يتوقع أن يمتنع عن قبول
هذا العفو ويرفض نسمة الحرية .. أمام كرامته
التي انتهكت ظلما .. وشرفه الذي عصر عدوانا
.. وحريته التي صودرت جورا وبهتانا وبكل
اياه وشتم وعزة « فلما جاءه الرسول قال ارجع
الى ربك فاسأله مايل النسوة اللاتي قطعن
أيديهن ، ان ربي يكيدهن عليهم « ٥٠ / يوسف

ويقول عليه الصلاة والسلام (لقد عجبت من
يوسف وكرمه وصبره .. والله يغفر له حين
سئل عن البقرات السماء والعجاف .. ولو كنت
مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط أن يخرجوني ..
ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول .. فقال :
ارجع الى ربك فاسأله .. ولو كنت مكانه ..
ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الاجابة ..
وبادرتهم الباب ، ولما ابتغيت العذر .. ان كان
لحليما ذا أتاه (١) .

□ □ □

(١) القرطبي وغيره ٥٠/يوسف .

٣ محكمه

النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي
غفور رحيم « ٥٢ / يوسف .

واستسمح القارئ الكريم في الوقوف برهة
.. لامر خطير في هذا الموقف بالذات .. فقد
جاء في كثير من كتب التفسير .. في هذا المقام
.. منها تفسير الكشاف للزمخشري .. والبيضاوي
للقاضي ناصر الشيرازي .. وروح المعاني للالوس
.. اقوال بعيدة عن المنطق .. لا يقبلها العقل ،
ولا تستسيغها الافهام .. ولا تنسير تسلسل
العبارات القرآنية : حيث زعم هواة الحشو في
تلك الكتب .. ان يوسف عليه السلام .. هو
الذي قال « وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة
بالسوء » (١) .

ولست ادري .. هل هم يجهلون قواعد
التحقيق الجنائي ؟ او يتجاهلون عدم وجود
يوسف في مجلس التحقيق عندما قالت امرأة
العزير ا الآن حصحص الحق انا راودته عن
نفسه ؟ أم أنهم - عفا الله عنهم - لم يقرأوا بعد
هذا النص « قال الملك ائتوني به استخلصه
لنفسى » بضمير الغائب ، بعد عبارة وما أبرئ
نفسى مما يدل دلالة قطعية على عدم وجود
يوسف بمجلس التحقيق الأخير .. وعلى انه كان
في السجن .. عندما كان هذا القول يقال ..
لانه عندما جاءه الرسول .. من الملك ، للذهاب
اليه بسبب تأويل الرؤيا .. قال يوسف لرسول
الملك بعد أن رفض الخروج « أرجع الى ربك
فاسأله ما بال النسوة » .. الخ فعاد رسول

لقد كان يوسف نبيلاً عندما قال « فاسأله
ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن » ولم يتعرض
لسيدته .. مع ما صنعت به - كرماً ومراعاة
للادب . ولعل يوسف قد ذكر للساقى أسماء
هؤلاء النسوة .. فاستدعاهن الملك .. ومعهن
راعيل زوجة العزيز .. وبدأت المحاكمة بالسؤال
الاتى : « قال ما خطبك اذ راودتن يوسف عن
نفسه » ؟ .

ونص السؤال .. صريح في انهن جميعاً قد
راودن يوسف .. وانه كان محل منازعتهم ..
في حفل امرأة العزيز .. وكان ردهن صريحاً
ايضاً .. لا يشمل لفا ولا مراوغة .. ولا مكراً
ولا دهاء فقلن بلسان واحد قوله الحق .. وكلمة
الصدق « قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء »
وهنا وجدت امرأة العزيز .. الا مناص أمامها من
الاعتراف .. فقالت : « قالت امرأة العزيز الآن
حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن
الصادقين » ٥١ / يوسف .

وحصحص الحق : اى ظهر وثبت .. وقال
الشاعر : -

الا من مبلغ عنى خدasha فانه
كدوب اذا ما حصحص الحق ظالم

ثم ارفأ : .. الملك ليعلم انى لم أخنه بالغيب)
وهو غائب عنها .. وليس موجوداً معنا « وان
الله لا يهدي كيد الخائنين » ٥٢ / يوسف .

وعلت موقفها هذا بانها بشر .. والبشر
معرضون للخطأ فقالت : « وما أبرئ نفسي ان

(١) الالوس والكشاف ، والبيضاوي ٥٢/يوسف .

عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن ينوبنا عنهم .

وأما أصحاب النفوس المطمئنة .. فهؤلاء هم الذين يعطي الله كل واحد منهم من التواب والأجر والنعيم يوم القيامة .. حتى يقول له : هل رضيت عني يا عبدي ؟ .. وحتى يقول العبد رضيت عنك يارب .. « رضى الله عنهم ، ورضوا عنه » .

أمن الجانز أن نقول عن يوسف - عليه السلام - أنه من النوع الأول .. من أصحاب النفوس الأمانة بالسوء . لا شك أن تلك أقوال ممدوسة على أئمتنا الكرام في كتبهم .

ويقول الملك « وقال الملك أئتوني به استخلصه لنفسى » ٥٤ / يوسف .

ولعلنا نلاحظ .. أن الملك في المرة الأولى .. قال « أئتوني به » فقط .. أما في تلك المرة .. فقال « أئتوني به استخلصه لنفسى » ويعود الساقى الى السجن حاملا حكم براءة يوسف .. طالبا منه مقابلة الملك ويخرج من السجن واضح الوجه مستقيم المحجة .

الملك وحده ليلع ما سمع ، وعلى هذا قام التحقيق في غيبه يوسف .. الذى أرادت امرأه العزيز أن تعلن حقه في البراءة .. والا نخونه بالغيب في تأكيد الاتهام .

وإذا كانت هذه المسألة البسيطة قد عميت على الالوس صاحب روح المعاني - واستغفر الله - فما بالنا إذا باشرنا امرأ دقيقا من نواحي روح معاني القرآن الكريم ؟ لا اعتقد مطلقا أن شيوخنا الأفاضل يقولون مثل هذا الهراء .. وإنما هو ممدوس عليهم في كتبهم .

وكيف يكون يوسف من أصحاب النفوس الأمانة بالسوء ؟ وقد علمنا من روح القرآن الكريم .. أن النفوس على ثلاثة أنواع : نفس أمانة بالسوء .. ونفس لوامه .. ونفس مطمئنة فأصحاب النفوس الأمانة بالسوء .. هم المفضون عليهم .. كلهم ذنوب وعيوب .. ولكنهم يعتقدون أنهم يحسنون صنعا .. فهم الأخسرون أعمالا « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

وأصحاب النفوس اللوامه .. هم الذين يخطئون .. ولكنهم يحسنون بأخطائهم فتتوبون من قريب .. فأولئك يتوب الله عليهم « خلطوا

□ □ □

(١) من حصير السجن إلى سرير الملك

سمان .. شهب حسان .. غير عجاف .. كشف
عنهن نهر النيل .. فظلمن عليك من شاطئه ..
تشخب أخلاقهن لبنا .. فبينما أنت كذلك ..
تنظر اليهن .. وقد أعجبك حسنهن .. إذا
غضب النيل .. ففار مأؤه .. وبدأ قهره ..
فخرج من حمئه ووحله سبع بقرات عجاف شعت
غير ملصقات البطون .. ليس لهن ضروع ولا
أخلاف .. ولهن أنياب واضراس .. وأكف كأكف
الكلاب .. وخراطيم كخراطيم السباع ..
فاختلطن بالسمان .. واقتربسنهن أفتراس
السباع .. واكلن لحمهن .. وفرقن جلودهن ..
وحطمن عظامهن .. ومششن مخهن ..

فبينما أنت تنظر وتتعجب .. كيف غلبتهن
وهن مهازيل .. لم يظهر فيهن سمن ولا زيادة
بعد أكلهن .. إذا بسبع سنبلات خضر .. وسبع
آخر سود يابسات في منبع واحد .. عروقهن
في الثرى والماء .. فبينما أنت تقول في نفسك
ما هذا ؟ .. هؤلاء خضر مثمرات .. وهؤلاء
سود يابسات .. والمنبت واحد .. وأصلولهما
في الماء .. اذ هبت ريح فردت أوراق السود
اليابسات .. على الخضر المثمرات .. فأشعلت
فيهن نارا .. فأحرقتهن .. وصرن سودا
متغيرات ثم أنك انتبهت مدعورا :

فقال الملك : والله ما شأن هذه الرؤيا وان
كان عجباً .. بأعجب مما سمعت منك : -
فما ترى في رؤيا أيها الصديق ؟ فقال له :
من حقل أن تحتفظ بخمس ما تنتجه الأرض ..

قال صاحب تفسير الكشف : روى أن
الرسول جاءه .. فقال : أجب الملك .. فخرج
من السجن .. ودعا لأهله : فقال اللهم أعطف
عليهم قلوب الأخيار .. ولا تعم عليهم الأخبار -
فهم أعلم الناس بالأخبار في الواقعات - وكتب
على باب السجن هذه منازل البلوى .. وقبور
الأحياء .. وشماتة الأعداء .. ونجربة
الأصدقاء (١) اهـ .

وقيل أنه دعا الله لأهل السجن فقال :
اللهم أحل طعامه .. وقصر أيامه .. واكثر
أحلامه .. ثم اغتسل وتنظف من أدران السجن
ولبس ثياباً جديداً .. وذهب مع صاحبه إلى
الملك .. فوقف بالباب .. ثم قال « حسبى ربى
من خلقه .. عز جاره .. وجل ثناءؤه .. ولا إله
غيره » .. وقال وهو داخل عليه : اللهم انى
أسألك بخيرك من خيره .. وأعوذ بعزتك وقدرتك
من شره .. ثم سلم عليه .

وقال النسفى : سلم على الملك .. ودعا له
بالعبرانية .. فقال الملك : ما هذا اللسان ؟
قال : لسان آبائى .. وكان الملك يتكلم بعدة
السنن .. فكلمه بها .. فأجابه بجميعها ..
فأعجب به وبذكائه وعلمه (٢) .. وقال له : أيها
الصديق .. أنى أحب أن اسمع رؤياى منك ..
فوصف له الرؤيا .. وكأنه كان معه فيها .

**ولا مانع أن أورد هنا وصف يوسف - عليه
السلام - لرؤيا الملك كما أورده القرطبي في
تفسيره وأبو إسحاق النيسابورى في كتابه
العرائس (٣) قال :** رأيت أيها الملك سبع بقرات

(١) الكشف ٥٤/يوسف .

(٢) النسفى ٥٤/يوسف .

(٣) القرطبي ٥٤/يوسف .

في المخازن والاهراء اغلغته .. حتى لا يتسرب اليه التلف .

ورى ان برقع ورعا كنه في هذه السنين المحسية .. فك لو ورع، الى حجر او مدر لنبت .. واطهر الله فيه الثمار والبركة .. ثم رفع الررع في فسه وسنبله .. تبني له المخازن العظام .. فتون العصب والسنبيل - فيما بعد - علفا للدواب .. والحب للناس فاذا اتت سنوات الجذب .. ياتيك الخلق من جميع النواحي .. ويمارون منك .. ويجمع الك من الكنوز .. مالم يجمع لاحد قبلك .

قال الملك : ومن لي بهذا ؟ ومن يجمعه . قال يوسف : « اجعلني على خزائن الأرض » اي ارض مصر « اني حفيظ عليم » ٥٥/ يوسف . ويقول مالك بن اسي : مصر خزانه الارض اما سمعت الى قول يوسف « اجعلني على خزائن الارض » ؟ ..

ووصف نفسه بالحفظ والعلم .. وهما صفتان تشترطان فيمن يلي امور المال .

واما قال ذلك لما قال الامام النسفي - ليتوصل الى امضاء احكام الله .. واقامه الحق .. وبسط العدل .. والتمكن مما لاجله بعث الانبياء الى العباد .. ولعلمه ان احدا غيره لا يقوم مقامه في ذلك .. فطلبه ابتغاء وجه الله .. لاحب الملك والدنيا ..

وفي الحديث « رحم الله اخي يوسف لو لم يقل : اجعلني على خزائن الارض ، لا ستعمله من ساعته ، ولكنه اخر ذلك عنه سنة » (١) .

قالوا : وفي هذا دلالة على انه يجوز ان يتولى الانسان عماله من يد سلطان جائر .. وكان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة ، ولكن بشرط ان يعلم انه يفوض اليه في عمل لا يعارضه فيه .. فيصلح منه ما شاء .. واما اذا كان عمله بحسب اختيار الظالم وشهواته وفجوره .. فلا يجوز ذلك .

قال بن عباس : ولما انصرفت السنة .. من يوم سأل الامارة .. دعاه الملك .. وراه بسيفه (٢) .. ووضع له سريرا من ذهب .. مكللا بادر والياقوت .. وضرب عليه حلة من استبرق .. وكان طول السرير ثلاثين ذراعا .. وعرضه عشرة اذرع .. عليه ثلاثون فراشا ..

وسور مرفعه (٣) .. ثم امره ان يخرج .. فخرج متوجا .. لونه كالثلج .. ووجهه كالقمر .. رى الناظر وجهه من صفاء وجهه (٤) .

واستكمالا لهذا المقام نورد ما ذكرته التوراة في الاصحاح الحادى والاربعين من سفر التكوين مختصرا وهو ان رئيس السقافة .. اخبر فرعون مصر .. بان يوسف قادر على تعبير الرؤيا .. وسبق تجربته في ذلك .. وانه عبر له رؤيا الملك .. وقال لهم : ادخروا خمس غلة الارض .. في السنوات الخصبة .. ليستغل هذا في سنوات القحط .. وان تقوم على ذلك نظار في ارجاء البلاد ..

فقال فرعون لجنوده : هل نجد مثل هذا رجلا فيه روح الله ؟ .. ثم التفت الى يوسف وقال له : بعد ما اعلمك الله كل هذا .. ليس بصير وحكيم مثلك .. انت تكون على بيتى .. وعلى فمك يقبل جميع شعبى .. الا ان الكرسي اكون فيه اعظم منك .. وقال له ايضا : قد جعلتك على كل ارض مصر .. وخلع خاتمه من يده .. وجعله في يد يوسف .. واليسه ثياب بوص .. ووضع طوق ذهب في عنقه .. واركبه مركبته الثانية .. ونادوا على الناس امامه بالركوع .. وجعله صاحب الامر والنهى المطاع .. والكلمة النافذة .. وسمى يوسف « صفات فعنيح » واعطاه زوجة « أسنات بنت فوطى فارع » كاهن أون .

هذا ما ذكرته التوراة .. وقد ورد في كتب التفسير .. ما يؤدى هذا المعنى .. الا في مسألة زواجه .

فقد عزل الملك وزيره قطفير .. وشغل يوسف منصبه .. ثم مات قطفير .. وتزوج يوسف امراته - راعيل - فولدت له ولدين هما افرايم ، ومنشا ..

وقد ذكر القرطبي وغيره من ائمتنا .. موقفا بين يوسف - عليه السلام - وزوجته - صاحبة الحب المجنون .. يبين لنا .. ان الله سبحانه يحقق للانسان بوجه الحلال .. ما كان يمد بصره اليه بوجه الحرام .. اذا ما اناب الى الله .. وعادت اليه روحه الشاردة .. بعد عصيان وكفران .. فقالوا : لما دخل عليها .. قال :

(٢) قلده به .

(٤) القرطبي ٥٥/يوسف .

(١) القرطبي والنسفي ٥٥/يوسف .

(٢) المرفقة « بالكسر » المتكا والوسادة .

أليس هذا خيراً مما كنت تريد؟ .. فقالت :
أيها الصديق .. لا تلمني ، فاني كنت امرأة
حسنة ناعمة .. كما ترى .. وكان صاحبي
لا يأتي النساء .. وكنت كما جعلك الله من
الحسن .. ففلبتني نفسي .. فوجدها يوسف
عذراء .. فاصابها .. فولدت له رجلين : أفرائيم
بن يوسف .. ومنشا بن يوسف (١) .

واسلم معه الملك .. وكثير من الناس ..
فاقام العدل .. واجتهد في تكثير الزراعات
وضبط الفلات .. وجلس على سرير الملك ..
ودانت له الملوك .. ودخل الملك بيته .. مع
نسائه وفوض اليه امر مصر .. حتى دخلت
السنون الجديدة .. وعم القحط مصر والشام
ونواحيهما .. وتوجه اليه الناس .. فباعهم
أولاً بالنقود .. حتى لم يبق منها شيء .. فباعهم
بالحلى والجواهر .. ثم بالدواب .. ثم بالضياع
والعقار .. ثم برقابهم .. حتى أسترقتهم جميعاً
.. ثم عرض الأمر على الملك .. فقال له : لك
الرأى .. فأعتقهم .. ورد عليهم أموالهم .

وكان لا يزيد على بيع حمل بعير .. تقسيطاً
بن الناس ..

وروى أن يوسف كان لا يشبع من الطعام ..
في تلك السنين المجاف .. فقبل له : انجوع
وبيدك خزائن الأرض ؟ .. فقال : اني أخاف أن
شبت .. أن انسى الجوع .

وقال سفيان بن عيينة :

المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة

.. والفاجر .. يجعل له الجزاء في الدنيا ..
وماله في الآخرة من خلاق .. ثم روى الآية
« وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوا منها
حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولانضيجه
أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا
وكانوا يتقون » ٥٦ - ٥٧ يوسف .

وصدق الشاعر الذي يقول : -

أما في رسول الله يوسف أسوة
لمثلك محبوساً على الظلم والافك
أقام جميل الصبر في السجن برهة
فأل به الصبر الجميل إلى الملك

نعم أقام يوسف جميل الصبر .. في الحب
.. وفي الرق .. وفي السجن .. وفي صبره عن
محارم الله .. لما دعت المرأة إلى نفسها .

وكتب بعضهم إلى صديق له :

وراء مضيق الخوف متسع الامن
وأول مفروح به آخر الحزن
فلا تيأسن فإله ملك يوسف
خزائنه بعد الخلاص من السجن



(١) القرطبي وغيره - ٥٥/يوسف ،

٢ الفخط يسوق إخوته

فقال لهم : من أنتم وما شأنكم ؟ قالوا : نحن قوم من أهل الشام .. رعاة أصابنا الجهد .. فجئنا نمتار لنا ولاهنا .. والميرة هي الطعام الذي تشتريه من غير بلدك - فقال لهم : لفتكم مخالفة للفتنا .. وزيكم مخالف لزينا .. فلملكم جئتم عيونا تتجسسون علينا .. وتنظرون عورة بلادى ؟ .. قالوا : معاذ الله : نحن بنو نبي حزين لفقد ابن كان أحبنا إليه .. وقد أمسك أخا له من أمه .. يستأنس به .. فقد كنا اثني عشر أخا فقال من يشهد على صدقكم ؟ .. قالوا : نحن الآن في بلد لا يعرفنا فيها أحد .. قال : عليكم أن تأتونى بأخيكم الذى تركتموه مع أبيه .. لاتأكد من صدق كلامكم هذا .. وان لم تأتوا به في المرة القادمة .. فلا داعى لحضوركم .. لأننى لن أعطيكم حبا ولا طعاما .. قالوا رضيينا .. وسنفعل أن شاء الله ..

فاكرم وفادتهم .. وعاملهم معاملة خاصة .. كلها حب وود وتكريم .. وأمر غلماننا .. فزادوا لهم الكيل .. من أجود أنواع الحبوب وأزكاها ..

« ولما جهزهم بجهازهم ، قال اثنتونى باخ لكم من أبيكم ، الا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ، فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون ، قالوا سنراود عنه أباه وأنا لفاعلون » ٥٩ - ٦١ / يوسف .

.....

عم الفخط جميع منطقة الشرق الأوسط - مصر وما حولها - وأجهد الناس البلاء .. وهددهم الجوع بالفناء .. وتحدث الركبان عن وزير تموين مصر .. يبيع الناس الحب .. لكل فرد حمل بعير وذراع أمر يوسف - عليه السلام في الأفاق .. للينه ولطفه .. ورافته .. وعدله .. وسيرته .. وكان يجلس عند البيع بنفسه .. فيعطيه من الطعام .. على عدد رؤسهم .. لكل رأس وسقا (١) .

وبلغ هذا الحديث يعقوب في كنعان بأرض الشام .. وقد ألمهم الضوى .. وعضهم الجوع .. وحطمهم الجذب .. فأرسل بنيه العشرة الى مصر .. ومعهم جمالهم .. وثمن أحمالهم .. ولم يرسل معهم بنيامين .. ليأنس به ويسليه عن أخيه المفقود .. الذى مازالت ذاكره تراوده بين الحين والحين .. وثن ضلوعه بين حناياه من شدة الشوق والحنين اليه ..

وخرج ركب الاسباط العشرة من الشام حتى دخلوا مصر .. واتجهوا الى العزيز .

وكان بين القائه في الجيب .. ودخولهم عليه أرض مصر .. ثلاثون سنة .. فأرقهم أمر غص الأهاب .. وهو الآن في كمال رجولته .. وأوج أبهته وعظمته .. راوه على زى فرعون .. عليه ثياب الحرير .. جالسا على سرير الملك .. في عنقه طوق من الذهب .. وهم بعيدون عنه .. في موقف أصحاب الحاجات .. فلم يعرفوه .. ولكنه عرفهم .. « وجاء أخوة يوسف - فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون » ٥٨ / يوسف .

(١) الوسق - بفتح الواو وسكون السين : حمل البعير .

وقد جاء في بعض كتب التفسير منها :
البيضاوى والكشاف وقصص الانبياء للاستاذ
عبد الوهاب النجار والقرطبي أن يوسف احتجز
عنده اخاهم شمعون .. ليكون رهينة عنده ..
حتى ياتوه بينامين .. وانهم اقترحوا على ذلك
.. واصابت القرعة شمعون .

وقد حاولت أن اعرف المصدر الذى اتوامنه
بهذا النبا .. فلم أجده الا فى الاصحاح الثانى
والاربعين من سفر التكوين ..

وسياق القصة فى القرآن الكريم لا يفيد هذا
.. ولا يشير اليه من قريب او بعيد .. وانما
يفيد أن يوسف - عليه السلام - أسر الى غلمانه
أن يدسوا الثمن الذى دفعوه فى رحالهم داخل
الحب .. ليضمن بذلك عودتهم ثانية « وقال
لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها
اذا انقلبوا الى اهلهم لعلهم يرجعون » ٦٢ /
يوسف .

.....

وقيل ان فكرة يوسف فى رد الثمن اليهم ..
بدون علمهم .. خشية الا يكون عند أبيه مال
يردهم به للشراء فى المرة الثانية .. أو أنه كبر
عليه أن يأخذ ثمن الطعام من أبيه واخوته ..

ولكننا نرتاح الى الراى الذى يقول : بان
يوسف يعلم من دينهم ما لا يجيز لهم استحلال
هذا الثمن .. ويوقن أن ايمانهم سيدفعهم الى
العودة لرده اليه .. وسيعتبرونه مالا حراما ،
ولهذا قال : « لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى
اهلهم لعلهم يرجعون » .

ويقول كثير من المفسرين .. ان الثمن الذى
كان معهم نعالا وأدما .. وقال بعضهم أنه كان
فضة .. وهذا أقرب الى المنطق .. فالفضة
هى التى يمكن أن تدس فى الرحال .

.....

وعادوا باحمالهم الى أبيهم فى كنعان ..
وإبلغوه طلب العزيز أحضار بنيامين اخيهم معهم
فى المرة القادمة .. بعد أن قصوا عليه .. أنه
أكرم وفادتهم .. وأنه عاملهم معاملة طيبة ..
فيها الكثير من الحب والود والتكريم .. فقال
لهم يعقوب - عليه السلام - لن أمنكم عليه
ابدا .. ولن أرسله معكم .. فقد قلت عن يوسف
« وأنا له لحافظون » كما تقولون الآن عن بنيامين
« فلما رجعوا الى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا
الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وأنا له لحافظون،
قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من

قبل فانه خير حافظا وهو أرحم الراحمين » ٦٣ -
٦٤ / يوسف ..

فلم يجادلوه فى هذا الامر .. رحمه بالشيخ
الفانى .. ومنعا لاثارة اشجانه .. وقاموا الى
رحالهم .. وفكوا أربطتها .. وأفرغوا ما فيها
من الزاد والحب .. وكانت مفاجأة لهم .. أن
وجدوا فضتهم ردت اليهم .. وأنها مدسوسة
داخل أوعيتهم .. فرجعوا الى أبيهم قائلين :
يا أبانا اننا لم نكذب عليك عندما أخبرناك بما
فعل عزيز مصر معنا .. من ووسائل التكريم
وخالص الحب والود .. وهذه بضاعتنا ردت
الينا ، فأرسل معنا بنيامين ليزيدنا أكراما ..
ونحمل معنا حملا آخر له ، « ولما فتحوا متاعهم
وجدوا بضاعتهم ردت اليهم ، قالوا يا أبانا ما نبغى
هذه بضاعتنا ردت الينا ، ونمير أهلنا ، ونحفظ
أخانا ، ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير » ٦٥ /
يوسف .

وأن لم يذهب معنا فلن نستطيع العودة اليه ،
وسنموت جوعا ..

ويظهر ان القحط كان شديدا .. اجبر يعقوب
.. على الاستجابة لابنائه .. بأرسال بنيامين
معهم .. فطلب منهم القسم بالله .. ليكون عهدا
وميثاقا .. بأنهم لن يفرطوا فيه .. الا أن غلبوا
على امرهم .. أو هلكوا جميعا ..

وهذا يدل على ثقة الرجل بان ابنائه .. هم
سلالة النبوة .. لا يحشون بيمين الله مطلقا ..
« قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من أنه
لتأتننى به الا ان يحاط بكم ، فلما أتوه موثقيهم
قال الله على ما نقول وكيل » ٦٦ / يوسف .

وتقول التوراة فى الاصحاح الثانى والاربعين
من سفر التكوين ما معناه : أن يعقوب لا مئة
على أخبار العزيز بوجود أخ لهم تخلف .. فقالوا
عذرنا أن الرجل اتهمنا بالجاسوسية ، وسألنا
هل أبوكم حى ؟ .. هل لكم أخ ؟ .. وما كنا
نحسب أنه سيطلب منا .

والح يهوذا على أبيه .. وضمنه له فسمح
بذلك .. وأمرهم أن يأخذوا هدية لهذا الرجل
الذى أكرمهم .. تكون من البلسان والعسل
والكثيراء والألأذن واللوز والفستق .. ويردوا له
الفضة .. ثمن الطعام الأول .. ويأخذوا فضة
أخرى .. ثمنا للطعام الجديد . أه .

الصلاة والسلام « ان العين لتدخل الرجل القبر
والجمل القدر » (١) .

ونحن نستبعد هذا الراى لان يعقوب لو كان
يخاف عليهم من الحسد .. لامرهم بالتفرقة في
المرّة الاولى .. ولكنه اكتشف هذه المرّة انهم
يلفتون النظر بجمالهم .. وفراة أحسامهم ..
بدليل اكرامهم عند الملك دون غيرهم .. وقد
يؤدى دخولهم مجتمعين في هذه المرّة الى وجود
الشك فيهم .. والحق عليهم .. والكيد لهم ..
اما في المرّة الاولى فقد كانوا مجهولين .

وقيل احب الا يظن بهم أعداؤه ...
فيحتالون لهلاكهم .

وما كان يغنى عنهم راي يعقوب بدخولهم
متفرقين شيئاً قط .. حيث أصابهم ما ساءهم
مع تفرقهم .. من اضافة السرقة اليهم ..
وافتضاحهم بذلك .. وأخذ أخيه بضبط
الصواع في رحله .. وتضاعف المصيبة على
أبيهم ..

ويعقوب - عليه السلام - .. موقن .. ان
امر الله لا بد نافذ .. ولكنها شفقة الآباء ..
وخوفهم على أبنائهم .. والحكمة تقول : « الأبناء
يأكلون الحصرم .. والآباء يضرسون » والحصرم
هو العنب في أول ظهوره في العنقود قبل نضجه .

والحذر كما قالوا - لا يغنى من قدر ..
« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوه ، ما كان
يغنى عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس
يعقوب قضاها « وأنه لنوع علم لا علمناه ، ولكن
أكثر الناس لا يعلمون » ٦٨ / يوسف ..

وجاء في تفسير النسفي واليسابورى ..

انه حلفهم بالله رب محمد عليه الصلاة والسلام
.. واذا صح هذا فيكون قد حلفهم بالله رب
أحمد - عليه السلام - لان « أحمد » اسم
الحقيفة الروحية التي كان بها محمد في أيام
يعقوب .. اما اسم « محمد » فهو الاسم الأدمى
للجسم الطينى ولهذا قيل اسمه في السماء أحمد
وفي الأرض محمد .. وجاء على لسان عيسى -
عليه السلام - « ومبشرا برسول يأتي من بعدى
اسمه أحمد » أى في زمن عيسى كان مازال اسمه
أحمد بحقيقته الروحية .. ولم يوجد الجسم
بعد ..

« وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا
من ابواب متفرقة » وما أغنى عنكم من الله من
شيء ان الحكم الا الله عليه توكلت وعليه فليتكفل
الموكلون » ٦٧ / يوسف .

فلماذا امرهم في هذه المرّة بالدخول متفرقين
.. ولم يامرهم بذلك في المرّة الاولى .. الجمهور
على أن ذلك خوفا عليهم من الحسد .. وقد
استبعد الأستاذ عبد الوهاب النجار وهذا الراى
.. ونحن وان كنا نستبعده ايضا .. الا ان ديننا
يؤمن بوجود الحسد ، فالعين عند النظر الى
شيء .. والاعجاب به .. مع حقد القلب ..
توجد في هذا الشيء نقصانا وخللا .. ولهذا كان
آخر سورة الفلق .. الاستعاذة من شر حاسد
إذا حسد .. كما ثبت عن النبى - صلى الله عليه
وسلم - انه كان يعوذ الحسن والحسين فيقول
« أعيدكما بكلمات الله التامة .. من كل عين لامة
.. ومن كل شيطان وهامة » .. ويقول عليه

□ □ □

(١) القرطبي ٦٧/ يوسف .

٢ لقاء الحبيين

وفي الليل أمر أن يناموا كل اثنين في فراش واحد .. وبقي بنيامين وحيدا .. فأخذه إلى فراشه ليأمن معه . ويقول صاحب الكشاف : أنه بات يضمنه إليه .. ويشتم رائحته حتى أصبح (١) .

وقال النيسابوري : لما خلا بأخيه ليلا ، قال له : ما اسمك ؟ قال اسمي بنيامين . قال له : وما بنيامين ؟ قال معناها المشكل . - وذلك أنه لما ولد ماتت أمه - قال : وما اسم أمك ؟ قال : راحيل بنت لئان بن ناحور .. قال : فهل لك من ولد ؟ قال : عشرة بنين ، قال : فما أسماؤهم ؟ قال لقد اشتقت أسماؤهم من اسم أخي المفقود ، فقال يوسف : لقد اضطررت ذلك إلى حزن شديد .. وبكى وضمنه إليه .. وقال له : أنا أخوك يوسف .

ولا يستطيع القلم أن يصف فرحة بنيامين لهذا الأمر الذي لم يكن يتوقعه .. مع لواعج قلبه .. وحنين فؤاده إلى أخيه الحبيب .. الذي لقيه فجأة بعد عشرات السنين .. « ولما دخلوا على يوسف أوى إليه أخاه قال انى أنا أخوك ، فلا تتشس بما كانوا يعملون » ٦٩ / يوسف .

ومرت فترة تلاحقت فيها خفقات القلوب .. وتتابع دقات الفرح في حنايا الضلوع .. ثم قال بنيامين : أنا لن أترك أبدا .. ولن أعود مع أخوتي إلى كنعان . فقال له يوسف : لقد علمت اهتمام والدي بى .. فإذا حسنت أزداد غمه .. ولا سبيل إلى ذلك .. إلا أن أنسب إليك السرقة لأحتجزك عندي عاما .. قال :

ودخلوا على يوسف قائلين : لقد جئنا بأخيها بنيامين .. حسب ما طلبت منا في المرة السابقة .. لتعلم صدقنا .. وتتأكد من قولنا .

ففرح يوسف - عليه السلام - وأمر غلمانه بإضافتهم .. وإكرامهم غاية الإكرام .. وأن يذبحوا لهم .. ويهيئوا طعاما لأكله معهم بعد الظهر . وبعد تجهيز الطعام .. دعاهم الداعي إلى بيت العزيز .. فتناجوا خائفين .. وقالوا إن دخولنا بيت العزيز وراءه أمر .. وقد يكون ذلك بسبب الفضة التي وجدناها في رحالنا في المرة الأولى .. وسياخذنا العزيز عبيدا له بسببها .. وكان هذا جزاء السارق في شريعتهم .. فكلّم يهوذا بعض الخدم في هذا الأمر .. قائلا له : أننا جئنا بالفضة معنا لنردها إلى العزيز .. ولا ندرى كيف دست علينا في رحالنا .. ولكن الخادم طمانهم .. وهذا من روعهم .. وأخبرهم بأنه أعد لهم حفل تكريم كبير .

ولما التقوا بيوسف في منزله قبل الفداء .. قدموا إليه الهدايا فقبلها .. ونظر إلى بنيامين وقال : أهذا أخوكم الذي كان عند أبيكم ؟ .. قالوا نعم .

وأجلسهم على المائدة اثنين اثنين .. ويقال أنهم عجبوا لأنه أجلسهم بترتيب السن .. فبقى بنيامين وحده .. فبكى وقال : لو كان يوسف حيا لجلس معي ! فقال له يوسف : أنا أجلس معك .. أما ترضى بى أخا بدل أخيك المفقود ؟ .. فقال : نعم الأخ أنت ياسيدى .. ولكن لم يلدك يعقوب وراحيل .. فطفرت دموعه من عين يوسف .. ولم يلحظها أخوته .

(١) المشاف ٦٩/ يوسف .

اعمل ما شئت .. فقد فررت الا اعود معهم
وانتركك هنا .

ودبر يوسف حيلته .. كما دبرتها له عمته
وهو صغير .. لتحتجزه عندها عاما (١) ..

طلب من الكياليين ان يدسوا سقايته التي
يشرب منها .. في رجل بنيامين .. بعد ان
يقفونهم جميعا كيلهم .. ويندقوا عليهم العطاء
.. وكانت السفانة من الذهب المرصع بالجواهر .

وتحرك ركب ابناء معوب .. بما معهم من
الاحمال الكثيره .. والحب الوفير .. وسارت
قافلته .. حتى قطعت مسافة في طريقهم الى
سيناء .. واذا سعاد بناديبهم من قبل العزيز ..
ان انظروا .. لقد فقد شيء يخص الملك .. ولم
يسرقه غيركم .. فعادوا اليه قائلين : ماذا فقد
ابها المنادي ؟ .. فقال : فقد صواع الملك .. وهذا
امر خطير .. وانا كفيل ان نعطي من يأتي به
حمل بعير من الحب .. قالوا : كيف تنهموننا
بالسرقة .. ونحن من اطهر سلالات البشرية
نسبا .. واکرمهم حسبا .. وانبلم اخلاقا ؟
.. نحن ابناء يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ..
وما يجوز لنا ان نسرق شيئا .

فقال المنادي : عليكم ان تعودوا الى العزيز
.. ليقوم بتفتيش رجالكم .. ليستوثق بنفسه
من هذا الامر . « فلما جهزهم بجهازهم جمل
السقاية في رجل اخيه ثم اذن مؤذن ايتها العر
انكم لسارقون ، قالوا واقلوا عليهم ماذا تفقدون
قالوا تفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير
وانا به زعيم قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد
في الارض وما كنا سارقين » ٧٠ - ٧٣ / يوسف .

وعادت القافلة الى يوسف .. باحمالها
واوعيتها .. فسألهم عن جزاء من يوجد الصواع
في رحله .. فأخبروه ان شريعتهم تقضي باسترقاق
السارق سنة لصاحب الشيء المسروق ..
« قالوا فما جزاءوه ان كنتم كاذبين ، قالوا
جزاءوه من وجد في رحله فهو جزاءوه وكذلك
نجزى الظالمين » ٧٤ - ٧٥ / يوسف .

وبدا يفتش رجالهم واحدا واحدا .. وبدا
ماكبرهم .. ثم الذي يليه .. حتى لم يبق الا

رجل بنيامين .. فظهر انه لا يريد تفتيشه ..
مبديا لهم اسفه على هذا الاتهام .. ولكن بهودا
اصر على تفتيش الرجل الباقي .. حتى يثبت
انهم جميعا برآء .. من تلك الجريمة النكراء ..
« فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء اخيه » ٧٦ / يوسف .

ولما استخرج يوسف الصواع من رجل
بنيامين .. نكسوا رؤسهم حياء وخجلاً ..
واقلوا على اخيهم قائلين بالعبرانية .. ما الذي
صنعت ؟ .. فضحتنا وسودت وجوهنا ..
يا بني راحيل .. ما يزال لنا منك بلاء .. متى
أخذت هذا الصواع ؟ .. لقد سرق أخوك يوسف
من قبل .. كل هذا وهم يعتقدون ان العزيز
لا يفهم لغتهم هذه .. وكنتم يوسف هذا الامر في
نفسه .. ولم يعرفهم انه يفهم كلامهم : « قالوا
ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل فاسرها يوسف
في نفسه ولم يدها لهم » ٧٧ / يوسف .

وهم يقصدون بسرقة يوسف .. ان عمته
احتضنته .. وأحبته حبا شديدا .. وأراد
يعقوب ان يأخذه منها .. فدست له شيئا في
ملابسه (٢) ، وادعت انه سرق منها .. ليكون
من حقها استرقاقه لمدة سنة (٣) .

وقال بعض المفسرين انه كان يسرق الطعام
ليعطيه للفقراء والمساكين ولكننا لا نؤيد هذا
الراى لظهور التكلف فيه .

وسقط في أيديهم .. لا يدرون ماذا يفعلون
.. قالوا : ياأيها العزيز .. انت لا تدري ماذا
سيحصل لأبيه .. لو عدنا اليه بدونه .. فخذ
أى واحد تختاره منا .. ل نكون عبدا وخادما لك
بدلا منه .. فقال وكيف أخالف شريعتكم التي
تحدثتم عنها .. وناخذ غير السارق .. فنكون
ظالمين في حكمكم .. قاسطين في نظركم ؟ . وبدلوا
كل ما يستطيعون بدله في استرضاء العزيز فلم
يستجب لهم . فخرجوا من عنده نالسين ،
بدبرون أمرهم ، ويفكرون فيما أصابهم ..

(١) سبب في فصل « بلاد الحب » بالهامش ، وسياتي في الآية التالية ...

(٢) كان هذا الشيء هو منطقة ابراهيم ورثتها عن ابيها اسحاق .. واتهمت يوسف بسرقتها .. حبا فيه .

(٣) القرطبي ٧٧/يوسف .

« قالوا يا ابيها العزيز ان له ابا شيخا كبيرا
فخذ احدا مكانه انا نراك من المحسنين ، قال
معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده
انا اذا لظالمون ، فلما استيا سوا منه خلصوا
نجيا » ٧٨ - ٧٩ / يوسف .

ولعل قائلا يقول : كيف رضى بنيامين بالعمود
طوعا - وفيه عقوق الاب بزيادة الحزن؟؟ ووافقه
على ذلك يوسف ؟ .. وكيف نسب يوسف
السرقه الى اخوته وهم براء ؟ ..

والواضح ان الحزن .. قد غلب على يعقوب
عليه السلام - بحيث لم يؤثر فيه فقد بنيامين
كل التأثير .. اولاه تراه لما ففده قال « يا اسفا
على يوسف » ولم يذكر بنيامين .. ولعل يوسف
انما وافقه على القعود وحي ، فلا اعتراض ..
واما نسبة يوسف - عليه السلام - السرقه

الى اخوته .. فقد سرقوه من ابيه .. فالعمود
في الجب .. فاستحقوا هذا الاسم .. بذلك
العمل .. فصدق في اطلاق ذلك عليهم ..

وكان كل ذلك بأمر من الله تعالى .. ويؤيد
قوله تعالى « وكذلك كدنا ليوسف ما كان لياخذ
اخاه في دين الملك الا ان يشاء الله » ٧٦/ يوسف .
وكدنا .. معناه : صنعنا .. او دبرنا ..
او اردنا ..

ومنه قول الشاعر :-

كادت وكدت وبلك خير ارادة
لو عاد من عهد الصبا ماقد مضى
وفه جواز الوصول الى الأغراض بالحينه
.. اذا لم يخالف شريعة .. ولم تهدم اصلا ..



٤ قيمة محنة يعقوب

وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - : « لم تعط أمة من الأمم أنا الله وأنا إليه راجعون عند المصيبة إلا أمتي .. ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع .. وإنما قال يا أسفى ؟ »

وقيل ما جفت عيننا يعقوب .. من وقت فراق يوسف . إلى حين لقائه .. وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب .

وجاء في تفسير الكشاف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه سأل جبريل - عليه السلام - ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف ؟ قال : وجد سبعين ثكلى .. قال : فما أجره ؟ قال : أجر مائة شهيد .. وما ساء ظنه بالله ساعة قط (١) .

ولم يذكر يعقوب في أسفه غير يوسف .. وهذا دليل على شدة الرزء فيه مع تقادم عهده .. أو كان احساسه بعودة يوسف إليه .. مازال غضا طريا .

وقالوا : كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟ .. ولكن .. من الطبيعة البشرية .. عدم القدرة على امتلاك النفس عند الشدائد من الحزن .. ويكون محمود الصبر .. إذا لم يخرج منه ما لا يحسن ولا يليق بالمؤمن .. وقد بكى عليه الصلاة والسلام على ولده إبراهيم وقال : « القلب يجزع .. والعين تدمع .. ولا نقول ما يسخط الرب .. وأنا عليك

اخذوا يتشاورون فيما بينهم .. فقال كبيرهم واختلف المفسرون فيمن هو - فقال البعض كبيرهم سنا « راوبين » .. وقال آخرون : كبيرهم عقلا « يهوذا » .. وقال غيرهم : هو رئيسهم « شمعون » .

ولكن جمهور المفسرين أجمع على أن يهوذا أكبرهم عقلاً .. قال : لن أخرج من أرض مصر بدون أخى بنيامين .. فقد قدمت العهد لأبى إلا أعود بدونه أبدا .. وعليكم أن تذهبوا بأجمالكم .. إلى أبيكم وأهلكم .. وقولوا له حقيقة الأمر .. وارووا له ما حصل .. وليفعل الله بنا ما يشاء .. فهو أحكم الحاكمين .. واثبتوا لأبيكم صدقكم بشهادة أصحاب العير .. وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب .

« أرجعوا إلى أبيكم ، فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين .. واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وأنا لصادقون » ٨١ - ٨٢ / يوسف .

وعادوا إلى أبيهم .. وقد نقصوا أكبرهم وأصغرهم .. وقصوا عليه قصصهم .. وكانت صدمة للشيخ .. ولكنه استمسك بالصبر الجميل « قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ، عسى الله أن ياتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » ٨٣ - ٨٤ يوسف .

(١) الكشاف / ٨٤ / يوسف .

شئ وحزنى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون «
٨٥ - ٨٦ يوسف .

وجاء في كثير من كتب التفسير .. ان يعقوب
كان اشترى جارية وولدها .. فباع ولدها ..
فبكت الام حتى عميت .. فكانت محتته في
يوسف .

ولكن يعقوب كان يعلم من لطف الله ورحمته
.. ان الفرج سيأتيه من حيث لا يحتسب ..
وقال بعضهم في تفسير « وأعلم من الله ما لا
تعلمون » انه رأى عزرائيل في منامه فسأله : هل
قبضت روح يوسف ؟ فقال لا والله هو حي
فاطلبه .. ولهذا قال لهم : « يا بني اذهبوا
فاحسسوا من يوسف واخيه ولا تياسوا من
روح الله انه لا يبأس من روح الله الا القوم
الكافرون » ٨٧ يوسف .

كما يروى ان ملك الموت قال له : اطلبه من
هاهنا .. وأشار الى ناحية مصر .. فلذلك
وجههم الى جهة مصر .. دون غيرها (١) ..

يا ابراهيم لحزونون « وانما الجزع المدموم ما يقع
من الجهلة من الصباح والنيحاة ولطم الوجوه
والصدور وتمزيق الثياب .. وعن النبي -
صلى الله عليه وسلم - انه بكى على ولد بعض
بناته وهو وجود بنفسه ..

ف قيل يا رسول الله تبكى .. وقد نهيتنا عن
البكاء ؟ فقال : « ما نهيتكم عن البكاء .. وانما
نهيتكم عن صوتين احمقين : صوت عند الفرح
.. وصوت عند الترح » .

وقيل دخل على يعقوب جاره له .. فقال :
يا يعقوب ، قد تهشمت وفنيت .. وما بلغت من
السن ما بلغ ابوك .. فقال هشمنى وأفنانى
ما ابتلانى الله به من هم يوسف .. فاوحى الله
اليه : يا يعقوب اتركنى الى خلقى ؟ قال : يارب
.. خطيئة اخطأتها .. فاغفر لى .. فغفر له
فكان بعد ذلك اذا سئل قال « انما اشكو بنى
وحزنى الى الله » ..

« قالوا تالله تفتسا تذكر يوسف حتى تكون
حرضا او تكون من الهالكين . قال انما اشكو



٥ كتاب من يعقوب

وقد ذكر صاحب تفسير البيضاوى : انهم كلموا العزيز في رد أخيه . . وأن أحدهم يقصد شمعون قال : أيها الملك والله لتتركنا أو لأصبحن صيحة تزع منها الحوامل . . ووقف شعر جسده فخرج من ثيابه . . فقال يوسف لابنه : قم الى جنبه فمسه . . وكان أبناء يعقوب اذا غضب أحدهم ومس جلده واحد منهم ذهب الغضب - فقال الذي كان غاضبا : من هذا ؟ ان في هذا البلد لبزرا من بزر يعقوب (١) . وسلموا يوسف كتابا من أبيهم هذا نصه :

من يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم - خليل الله - الى عزيز مصر . . أما بعد : -

فأنا أهل بيت موكل بنا البلاء ، أما جدى فشدت يداه ورجلاه ورمى به في النار ليحرق ، فنجاه الله وجعلت النار عليه بردا وسلاما ، وأما أبى فوضعت المدينة في قفاه ليذبح ففداه الله (٢) وأما أنا فكان لى ابن . . وكان أحب أولادى الى . . فذهب به أخوته الى البرية . . ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم . . وقالوا أكله الذئب . . فذهبت عينائى من بكائى عليه . . ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه . . وكنت أنسلى به . . فذهبوا به ثم رجموا . . وقالوا انه سرق . . وانك حسسته لذلك . . وأنا أهل بيت لا نسرق . . ولا نلد سارقا . . فان رددته على . . والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك . . والسلام (٢) ثم قالوا ليوسف « مسنا واهلنا

رد يعقوب أبناءه للمرة الثالثة لشراء التموين من مصر . . وأوصاهم بالتجسس على يوسف وأخيه بنيامين . . وأمرهم بعدم اليأس من رحمة الله وفرجه . . فلا يجوز اليأس في حق المؤمن لأن المؤمن يرجو فرج الله . . أما الكافر فيقنط عند الشدة . . واخذوا معهم ثمن ما يشترون . . وعندما وصلوا الى يوسف . . قالوا له « فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز . . مسنا واهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين » ٨٨ / يوسف .

ونفهم من هذا . . ان الشكوى جائزة عند الجوع . . بل واجبة اذا خاف المرء على نفسه الضر . . كما هو واجب عليه ان يشكو الله للطبيب ليعالجه . . ولا يكون ذلك قدحا في التوكل . . ما لم تكن الشكوى تسخطا . . والصبر والتجمل أحسن . . والتعفف أفضل . . والبضاعة المزجاة هي المدفوعة ثمنها لما يأخذونه من الحب والطعام . . فما معنى الصدقة هنا ؟ في قولهم « وتصدق علينا » . .

والتبادر الى الذهن أنهم يقصدون بالصدقة . . العفو عن بنيامين أخيه واطلاق سراحه ليعود معهم الى أبيه الذى أصابه من الضر ما أصابه بسبب فقدته . . وقد كان سلوته عن أخيه المفقود .

(١) البيضاوى والقرطبي ٨٠/يوسف . وبزرا : يعنى نسلا وذرية .

(٢) يقصد أباه اسماعيل فقد اثبتنا ان العم يطلق عليه الاب .

(٣) عن ابن عباس . ذكره القرطبي والثعلبي ٩٠/يوسف .

الضرر « وتضرعوا اليه .. فارفضت عيناه ..
وقال لهم بالعبرية « هل علمتم ما فعلتم بيوسف
واخيه اذ انتم جاهلون » ٨٩ / يوسف ..

فلما كلمهم بالعبرية عرفوه وقالوا « ائتلك
لانت يوسف قال انا يوسف » ٩٠ / يوسف .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس
قال لهم يوسف « هل علمتم ما فعلتم بيوسف
.. الآية » ثم تبسم .. وكان اذا تبسم .. كان
ثناياه المألول المنظوم .. فلما أبصروا ثناياه
شبهوه بيوسف .. فقالوا له مستفهمين ..
ائتك يوسف ؟ « قال انا يوسف وهذا اخي قد
من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع
اجر المحسنين » ٩١ / يوسف .

وهنا لفظة جميلة من يوسف حين قال لآخوته
« هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه » حيث
أبهمها بقوله « اذ انتم جاهلون » .. وكأنه يقول
لهم أخطأتم ثم تبتم .. فكان كلامه شفقة عليهم
.. وتنصحا لهم في الدين .. لا معاتبة وتثريبا
.. اشارا لحق الله على حق نفسه في ذلك المقام
.. الذي يتنفس فيه المكروب .. وينفث
المصدور .. ويتشفى المغيظ المحنق .. ويدرك
تارة الموتور فله اخلاق الأنبياء .. فيقول لهم :
اذ كنتم صبيانا في حد السفه والطيش .. قبل
ان تبلغوا أوان الحلم والرزانة .. « قالوا تالله
لقد اترك الله علينا وان كنا لخاطئين »
٩١ / يوسف .

ولهذا قال لهم « لا تثريب عليكم اليوم يغفر
الله لكم وهو ارحم الراحمين » ٢٠ / يوسف .
ولا تثريب عليكم : أى لا لوم ولا توبيخ ولا تعيير
لكم اليوم .. ولهذا يقول - عليه الصلاة
والسلام و « اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد
.. ولا يشرب عليها » أى لا يعيرها .. وقال بشر :

فغفوت عنهم عفو غير مثرب

وتركتهم لعقاب يوم سرمد

وهكذا يضرب لنا رسول الله وصفوته ..
المثل العليا .. في العفو والتسامح ..
وعلى رأسهم السراج المنير .. خاتم النبيين
وامام المرسلين .. فقد روى انه عليه الصلاة
والسلام - اخذ بمضادتي الكعبة يوم الفتح وقد
لاذ الناس بالبيت .. فقال « الحمد لله الذي
صدق وعده .. ونصر عبده .. وأعز جنده ..
وهزم الأحزاب وحده » ثم قال لقريش : ما
تروني فاعل بكم ؟ قالوا نظن خيرا ، اخ كريم
وابن اخ كريم .. وقد قدرت .. فقال : « اقول
ما قال اخي يوسف » لا تثريب عليكم اليوم
« اذهبوا فانتم الطلقاء » .. فقال عمر - رضى
الله عنه - ففضت عرقا .. من الحياء من قول
رسول الله .. ذلك انى قلت لهم - حين دخلت
مكة - اليوم ننتقم منكم ونفعل .. فلما قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ..
استحييت من قولى .

كما روى ان ابا سفيان لما جاء ليسلم ، قال
له العباس : اذا آتيت الرسول .. فاتل عليه
« قال لا تثريب عليكم » ففعل .. فقال عليه
الصلاة والسلام - « غفر الله لك ولمن علمك » ..

ولما عرفهم يوسف بنفسه .. سألهم عن ابيه
.. فقال : ما فعل ابي من بعدى ؟ قالوا : ذهب
عيناه .. فاعطاهم قميصه .. وقال : « اذهبوا
بقميصي هذا فالقوه على وجه ابي يات بصيرا ،
واتونى بأهلكم اجمعين » ٩٣ / يوسف ..
وكان القميص قميص الجنة لا يقع على سقيم
او مبتلى الا عوفى

وكرمهم يوسف .. فارسلوا اليه وقالوا :
انك تدعونا بالبكرة والعشى الى الطعام .. ونحن
نستحي منك لما فرط منا فيك .. فقال لا .. :
ان اهل مصر كانوا ينظرون الى ويقولون :
سبحان الله .. بلغ عبد ثمنه عشرون درهما
ما بلغ .. ولقد شرفت بكم .. وعظمت في أعينهم
.. فاعلموا انكم أخوتى واننى من حفدة ابراهيم .



٦ ربح الجنة

وقال آخر:

يا عاذلى دعا الملام واقصرا
طال الهوى واطلتما التفتيدا
قالوا تائه انك لفى ضلالك القديم ٩٥/ يوسف
ووصل يهوذا لاهتا .. والقى القميص على

وجه ابيه .. فارتد بصيرا .. وقال الضحك:
رجع اليه بصره بعد العمى .. وقوته بعد
الضعف .. وسروره بعد الحزن « فلما أن جاء
البشير القاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال ألم
أقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون » ٩٦ /
يوسف / وسال يعقوب البشير « يهوذا » كيف
يوسف ؟ فقال : هو ملك مصر : قال : ما اصنع
بالمملك .. على أى دين تركته ؟ قال : على دين
الاسلام .. قال : تمت النعمة ..

وقال الحسن - رضى الله عنه - لما ورد
البشير على يعقوب .. لم يجد عنده شيئا ..
يشبه به .. فقال : والله ما أصبت عندنا شيئا
.. وما خبزنا شيئا منذ سبع ليال .. ولكن
هون الله عليك سكرات الموت .. « قالوا يا ابانا
استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين ، قال سوف
استغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم »
٩٧ - ٩٨ / يوسف .

واللاحظ هنا انه قال لهم « سوف استغفر
لكم ربى » ولم يقل ساستغفر بسين التنفيس ..
وانها قالها بسوف .. وسوف للتسويق ..
وقال اكثر المفسرين انه آخر الاستغفار لهم الى

سبق ان ذكرنا ان قميص يوسف كان قميص
ابراهيم - عليهما السلام - احضره له جبريل -
عليه السلام - عندما القى به عاريا فى النار ..
وكان من حرير الجنة .. وورثه عنه اسحاق ..
ثم يعقوب .. ثم يوسف .

اصر يهوذا على الذهاب بالقميص الى ابيه
وقال انا احزنته بحمل القميص اليه ملطخا
بالدم .. فأفرجه كما احزنتيه . وقال ابن
عباس : حمله يهوذا وخرج ماشيا حاسرا حافيا
.. وحمل يمدو حتى اتى اياه .. وكان معه
سبعة أرغفة .. فلم يستوف اكلها حتى بلغ
كنعان وكانت المسافة ثمانين فرسخا (١) وقد
وجد يعقوب ربح يوسف من مسيرة ثمان ليال
.. ويقول النسفى والقرطبى فى هذا المقام -
قال مجاهد : هبت ربح فصفت القميص ..
فاحتملت الصبار ربحه الى يعقوب .. حيث وجد
ربح الجنة .. فعلم انه ليس فى الأرض من رباح
الجنة الا ما كان من ذلك القميص (٢) .

فقال لمن حوله من قومه .. ومن ولد ولده
« ولما فصلت العير قال أبوه انى لأجد ربح
يوسف ، لولا أن تفندون » ٩٤ / يوسف .. أى
لولا أن تنسبونى الى الفند .. وهو الخبل
ونقص العقل .

قال الشاعر :

يا صاحبى دعا لومى وتفتيدى
فليس ما فات من أمرى بمردود

(١) الفرسخ ٣٥٠٠ مترا .

(٢) النسفى والقرطبى ٩٤/ يوسف .

السحر من ليلة الجمعة ووافق ذلك ليلة
عشوراء .

وقال في دعائه : اللهم اغفر لي جزعى على
يوسف .. وقلة صبرى عنه .. واغفر لولدى
ما جنوا على أخيهم .. فاوحى الله انى قد غفرت
لك ولهم أجمعين .

والدعاء في ليلة الجمعة وفي وقت السحر
فضل كبير .. فقد جاء في دعاء الحفظ - من
كتاب الترمذى - عن ابن عباس .. انه قال :
بينما نحن عند رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - اذ جاءه على بن ابي طالب - رضى الله
عنه - فقال : يا بنى انت وامى - تفلت هذا القرآن
.. من صدرى فما اجدنى اقدر عليه .. فقال
له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « افلا
اعلمك كلمات ينفعك الله بهن .. وينفع بهن من
علمته .. ويثبت ما تعلمت في صدرك » قال
اجل يا رسول الله .. فعلمنى .. قال « اذا كان
ليلة الجمعة .. فان استطعت ان تقوم في ثلث

الليل الآخر .. فابها ساعة مشهودة ..
والدعاء فيها مستجاب .. وقد قال اخى
يعقوب لبنيه (سوف استغفر لكم ربى) يقول
حتى نأتى ليلة الجمعة » .. كما ورد عن محارب
ابن دثار عن عمه .. قال : كنت ابنى المسجد
في السحر .. فأمر بدار ابن مسعود .. فاسمعه
يقول : اللهم انك امرتنى فاطعت .. ودعوتنى
فأجبت .. وهذا سحر فأغفر لى فقلت ان
مسعود .. فقلت : كلمات اسمعك تقولهن في
السحر .. فقال : ان يعقوب اخبر بنبيه الى
السحر بقوله « سوف استغفر لكم ربى » .

وقال وهب : كان يستغفر لهم كل ليلة
جمعه في سبعمائة وعشرين سنة .

وعن عطاء الحرساني .. قال . طلب الحوائج
الى الشباب يسر منها الى الشيوخ .. الا ترى
الى قول يوسف لاختونه « لا تثريب عليكم اليوم
يفقر انه لكم » وقول يعقوب لهم « سوف
استغفر لكم ربى » ؟ ..



٧ رحلة يعقوب إلى مصر

« ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ... إلى آخر الآية » ١٠٠ / يوسف / وابوا هنا هما أبوه وخالته - زوجة أبيه - لأن الرابة تدعى أما لقيامها مقام الأم .. أو لأن الخالة أم كما أن العم أب .. ومنه قوله تعالى : « واله أبائك إبراهيم واسماعيل واسحاق » ..

ولعل ملاحظة لا تخفى على القارئ اللبيب .. وهى أن قوله « ادخلوا مصر ان شاء الله » بعد أن قال « آوى إليه أبويه » .. فما معنى دخولهم عليه وايوا أبويه قبل دخولهم مصر ؟ .. والمعنى الذى يتبادر إلى أذهاننا .. أنهم دخلوا عليه في خيمة الملك .. عندما قابلهم على حدود الديار المصرية .. فأوى إليه أبويه .. ضما وتعانقا وتقبيلا .. ثم قال : « ادخلوا مصر ان شاء الله آمين » . وبعد وصول الركب إلى عاصمة الديار .. رفع أبويه على سريرته تكريما لهما وتبجيلا .. وخر أخوته له سجدا .. « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا » ١٠٠ / يوسف .

فكيف يجوز أن يكون السجود لغير الله ؟ .. قبل كانت السجدة جارية عندهم مجرى التحية والتكريم .. كالعناق والتقبيل وغير ذلك .. مما جرى عليه عرف المجتمع ..

وقيل ما كانت السجدة إلا انحناء .. دون تعفير الجباه .. ولكن هذا المعنى لا يتفق مع قوله تعالى « وخروا له سجدا » فالخروج لا يكون بالانحناء ..

ارسل يوسف إلى أبيه جهازا .. ومائتي راحلة .. ليتجهز إليه بمن معه .. طالبا منهم الحضور إلى مصر .

وخرج ومعه الملك في أربعة آلاف من الجنود والعظماء وأهل مصر بأجمعهم للقاء أبيه وأهله .

ووصل يعقوب يتوكأ على يهوذا .. فنظر إلى الخيل والجمع الكبير من الناس .. فقال يا يهوذا .. أهذا فرعون مصر ؟ .. قال : لا .. هذا ولدك يوسف .. فلما لقيه ، قال يعقوب : السلام عليك يا مذهب الأحزان (١) .. وبكى .. وبكى معه يوسف .. بكى يعقوب فرحا .. وبكى يوسف لما رأى من حزن أبيه .. ثم قال يعقوب : الحمد لله الذى أقر عينى بعد الهوم والأحزان .. وقيل ان يوسف قال لأبيه .. لما التقيا .. يا ابت بكيت على حتى ذهب بصرك .. ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ .. فقال لى .. ولكن خشيت أن تسلب دينك .. فيحال بينى وبينك ..

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه : وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمين » ٩٩ / يوسف .

وقيل دخل يعقوب وولده مصر وعددهم تسعون انسانا .. ما بين رجل وامرأة وصغير .. ولم يخرجوا منها .. إلا مع موسى .. وكان عددهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الدربة الذين كان عددهم ألف ألف أو يزيدون (٢) .

(١) القرطبي ١٠٠ / يوسف .

(٢) القرطبي ١٠٠ / يوسف - ..

وهناك رأى يقول وخروا لاجل يوسف سجدا لله .. شكرا له على تكريمه .. وجعله ملكا على مصر .. وهذا المعنى أيضا لا يتفق مع رؤياه « رأيتهم لى ساجدين » فكان السجود له هو شخصا ..

كلم يبق أماننا الا الراى الاول .. وهو ان يكون السجود فى ايامهم علامه على شدة النوفير والتبجيل والتكريم . وفى راى ان ابويه لم يسجدا له .. وانما الذين سجدوا هم اخوانه الاحد عشر ، فالسجود حصل بعد ان « رفع ابويه على العرش » فان قال فائل ان الرؤيا يقول « انى رايت احد عشر كوكبا ، والشمس والقمر ، رأيتهم لى ساجدين » وقد يفهم من هذا ان السجود شمل الكواكب والشمس والقمر ، يقول . ان الضمير فى « رأيتهم » يجوز ان يعود على الكواكب فقط دون الشمس والقمر .. والا فما هو المقصود من تكرار كلمة رأيتهم « مع انه فى اول كلامه قال « انى رايت احد عشر كوكبا » ؟

« وقال يا ايت هذا تاويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد احسن بى اذ اخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم ١٠٠/ يوسف/ . ولا يفوتنا هذا الادب الرفيع .. والاحساس المرهف .. من يوسف - عليه السلام - لما قال « وقد احسن بى اذ اخرجنى من السجن » ولم يقل من الحب .. لئلا يذكر اخوته صنيعهم .. بعد عفوه وصفحه بقوله « لا تثريب عليكم » .. ولهذا قيل : ذكر الجفاء فى وقت الصفاء جفاء ..

اخذ يوسف بيد ابيه يعقوب .. وطاف به فى خزائنه .. فادخله خزائن الذهب والفضة . وخزائن الحلى .. وخزائن الثياب .. وخزائن السلاح .. وغير ذلك .. فلما ادخله خزانة القراطيس .. قال : يا بنى ما أعفك .. عندك كل هذه القراطيس .. وما كتبت الى على ثمان مراحل .. قال : امرنى جبريل بهذا .. قال : او ما سألته عن السبب .. قال : انت ابسط اليه منى فسله ..

قال جبريل - عليه السلام - الله تعالى امرنى بذلك لقولك « وأخاف أن يأكله الذئب » . قال : فهلا خفتنى ؟

(١) القرطبي ١٠٠/ يوسف .

(٢) القرطبي ١٠١/ يوسف .

واقام يعقوب بمصر بعد موافاته باهله وولده اربعة وعشرين سنة باحسن حال .. واهنا عيش .. واتم راحة .. وادوم سلامة .. ثم حضرته الوفاة .. فلما احتضر جمع بين بنيه .. وقال « ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من عدى قالوا نعبد الهك واله آباءك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا نحن لمسلمون » ١٣٣/ البقرة . قال « يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون » ١٣٢/ البقرة . واوصى الى يوسف .. ان يحمل جسده الى الارض المقدسة .. ويدفنه عند ابيه اسحاق وجده ابراهيم ..

ووضع يوسف جثمان ابيه فى صندوق من الساج .. وخرج به فى موكب كبير .. حتى دفنه بنفسه فى مقبرة المكفلة .. فى الخليل فلسطين مع ابيه وجده .

وقال الثعلبى والقرطبي : مات فى نفس اليوم اخوه عيص .. وسنهما مائة وسبعاً واربعين سنة ..

ولدا فى بطن واحد .. وماتا فى يوم واحد .. ودفنا فى قبر حدا .

وعاد يوسف بعد ان دفن اباه الى مصر (١)

ولد ليوسف افرائيم وميشا .. وولد لافرائيم نون .. وولد لنون يوشع - فتى موسى - ورحمة امرأة ايوب (٢) وقال بعض ائمتنا .. لما جمع الله ليوسف شمله .. واقصر له عينه .. واتم له تفسير رؤياه .. وكان موسعا عليه فى ملك الدنيا ونعيمها .. وهو يعلم ان ذلك لا يدوم له .. وانه لابد له من فراقه .. فاراد نعيم الجنة .. اذ هو افضل منه واخلد .. فتأقت نفسه الى الجنة .. فتمنى الموت ودعا به .. ولم يتمن نبى قبله ولا بعده الموت .. فقال « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تاويل الاحاديث فاطر السماوات والارض انت ولى فى الدنيا والاخرة ، توفنى مسلما والحقنى بالصالحين » ١٠١/ يوسف ..

وروى عن عمر بن عبد العزيز : ان ميمون ابن مهران بات عنده ليلة .. فراه كثير البكاء والمسألة للموت ..

العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ، ثم جمع له شمله فعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة (٢) .

ولقد توارثت العرانة - العماليق - ملك مصر من بعد يوسف . . ولم يزل بنو اسرائيل تحت ايديهم . . على بقايا دين يوسف وآبائه . . الى ان بعث الله موسى - عليه السلام -

وروى يونس بن عمران عن ابي موسى قال :
نزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - باعرا بى فأكرمه . . فقال رسول الله ا « اكرمتنا فأحسنتم . . سل حاجتك » فقال : ناقة نرحلها . . وعنزة يجلبها أهلى . . فقال عليه الصلاة والسلام : « أعجز هذا أن يكون مثل عجوز بنى اسرائيل فقالوا : يا رسول الله : وما عجوز بنى اسرائيل ؟ فقال : « ان بنى اسرائيل لما خرجوا مع موسى من مصر ضلوا الطريق . . وأظلم عليهم الليل . . فقالوا : ما هذا ؟ فقال علمائهم : ان يوسف لما حضرته الوفاة . . اخذ علينا مونفا من الله الا نخرج من مصر . . حتى ننقل عظامه معنا . . قال موسى : فمن يعلم موضع قبره ؟ . . قالوا عجوز بنى اسرائيل . . فبعث اليها موسى فأتت . . فقال دلينى على قبر يوسف . . فقالت له : تعطينى حكى ! قال : وما حكمك ؟ قالت : أن اكون معك فى الجنة ، فكره أن يعطيها حكمها . . فأوحى الله اليه ان اعطها حكمها ، ففعل » (٢) .

وروى ابو اسحاق الثعلبى رواية اخرى عن طريق آخر . . أن هذه العجوز كانت مقعدة عمياء . . فقالت لموسى : الا أخبرك بموضع قبر يوسف ؟ قال : نعم ، فقالت : لا أخبرك حتى تعطينى اربعا : تطلق رجلى . . وتعييد الى بصرى . . وشبابى . . وتجعلنى معك فى الجنة . . فكبر ذلك على موسى . . فأوحى الله اليه أن اعطها ما سألت . . فأتت تعطى على . . ففعل . . فأنطلقت بهم الى موضع عين فى ماء فاستخرجوه من شاطئ النيل . . فى صندوق من مرمر . . فلما حملوا تابوته طلع القمر . . وأضاء الطريق مثل النهار . . فاهتدوا به الى ساحل البحر .

فقال له ا صنع الله على يدك خيرا كثيرا . . احييت سننا . . وامت بدعا . . وفى حياتك خير وراحة للمسلمين . . فلماذا تطلب الموت ؟ قال . . افلا اكون كالعبد الصالح - يوسف - لما أقر الله عينه . . وجمع له أمره . . قال « توفنى مسلما والحقنى بالصالحين » . (٤) .

ولكن رأى الجمهور على ان يوسف - عليه السلام - لم يتمن الموت . . وإنما تمنى الوفاة على الاسلام . . أى اذا جاء أجله يوفنى مسلما . . قال سهل بن عبد الله السمرى : لا يتمنى الموت الا ثلاث : رجل جاعل بما بعد الموت . . أو رجل عر من أمدار الله تعالى عليه . . أو مشتاق محب للقاء الله عز وجل . . وثبت فى الصحيح عن انس . . قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به . . فاذا كان لابد متمنيا فليقل : اللهم احيى ما كانت الحياة خيرا لى . . وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى » . . رواه مسلم . . وفيه عن ابي هريرة . . قال . . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدع به . . من قبل ان يأتية . . انه اذا مات أحدكم . . انقطع عمله . . وأنه لا يزيد المؤمن الا خيرا (١) .

ولهذا نرجح ان يوسف عليه السلام . . تمنى الوفاة على الاسلام . . وهو ظاهر النص . .

وروى ان يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة . . جمع اليه قومه من بنى اسرائيل وهم ثمانون رجلا ، واخبرهم بنو اجله ، وأوصى الى أخيه يهوذا . . واستخلفه على بنى اسرائيل .
عاش بعد موت أبيه ثلاثا وعشرين سنة . . وتوفاه الله طيبا ظاهرا . . فتخاصم أهل مصر فى دفنه . . حتى هموا بالقفال . . فأرأوا أن يجعلوه فى صندوق من المرمر . . ويدفنوه فى النيل . . بحيث يمر عليه الماء . . وكان سنه مائة وعشرين سنة . . وظل مدفونا فى مصر . . حتى نقله موسى - عليه السلام - الى مدافن آبائه بالشام .

وعن الحسن قال : الفى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة . . وكان فى

(١) القرطبى ٦٨/الشعراء .

(٢) القرطبى ١٠١/يوسف .

(٣) القرطبى ١٠١/يوسف .

« إنا وجدناه صابرا نعم العبد أنه أواب »

« صدق الله العظيم »

○ من نبأ
أيوب

« أمم الصابرين »

١] أيوب الرومي - عليه السلام «

لم يستطع إبليس .. أن يصيب منه ما
أصاب من أهل الفنى .. من الفلة والافترار ..
والشغل والنسيان لأمر الله - تعالى .. بما
هو فيه من متعة الدنيا وزخارفها وأموالها
.. واليها ..

وكان أولاده - كما قال الزمخشري صاحب
تفسير الكشاف - سبعة ذكور وسبع أناث :
أو ثلاث أناث *

كما روى الشيرازي - صاحب تفسير
البيضاوي - أن امرأته ما خير .. بنت منشا
ابن يوسف .. لكن الجمهور على أنها رحمة ..
بنت أفرائيم بن يوسف - عليه السلام .
وآمن معه ثلاثة .. وصدقوه .. وعرفوا
فضله وقربه من الله .. وذكر النيسابوري
التلعلي أن أحدهم رجل من أهل اليمن اسمه
« اليفن » ورجلان من أهل بلاده يقال لأحدهما
« مالك » وللثاني « ظافر » ، وكان الثلاثة
كهولا .. ولنا لقاء مع هؤلاء الثلاثة في فصل
لاحق إن شاء الله تعالى ..

ذكر أيوب - عليه السلام - في القرآن
الكريم ، بأنه من المحسنين : « ونوحا هدينا من
قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف
وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين » ٨٤/
الأنعام ..

- والضمير في « ومن ذريته » يعود إلى نوح
.. وأن كان بعض المفسرين يقولون : أنه يعود
إلى إبراهيم .. كما ذكر أيوب أيضا في القرآن
الكريم بأنه من الموحى إليهم :
« وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق
يعقوب والأسباط وعيسى وأيوب » ١٦٣/
النساء .

ذكرنا في نبأ إسحاق ويعقوب - عليهما
السلام - أن عيص بن إسحاق .. ترك بلاد
الشام لأخيه يعقوب .. وتنقل بزوجه نسيمة
بنت عمه إسماعيل وأبنائهما في أرجائها .. ثم
عبر إلى الروم واستوطنها .. وصار ذلك لولده
من بعده .. فكل بنى الأصغر - الروم - من
ولده .. وكثرت ذريته في تلك البلاد ..

واستنبأ الله منهم .. أيوب بن أموص بن
تارخ بن روم بن عيص بن إسحاق .. وكانت
أمه من ولد لوط بن هاران .. أخى إبراهيم -
عليهما السلام - وقيل في وصفه : أنه كان رجلا
طويلا .. عظيم الرأس .. جعد الشعر .. حسن
العنبن والخلق .. قصير العنق .. غليظ
الساقين والساعدين .

اصطفاه الله ونباه وبسط عليه الدنيا ..

قيل كان له التنية ١١ من أرض الشام كلها
.. سهلها وجبلها .. وما كان فيها .. وكان
له من جميع أصناف المال .. من الإبل والبقر
والغنم والخيول والحمير .. ما لا يكون لرجل
أفضل منه .. في العدة والكثرة .. وكان له بها
خمسمائة فدان .. يتبعها خمسمائة عبد ..
لكل عبد امرأة وولد ومال ونخيل .. وحمل
آلة كل فدان اتان (٢) .. ولكل اتان ولد من
الاثنين إلى فوق الخمسة . وأعطاه الله أهلا
وولدا .. من رجال ونساء .

وكان رجلا تقيا .. رحيفا بالمساكين ..
يكمل الأراميل والأيتم .. وقيل أنه لم يأكل
قط إلا مع يتييم .. يكرم الضيف .. ويبلغ ابن
السبيل .. وكان شاعرا بأنعم الله عليه ..
مؤديا لحقه .. عبادة واحسانا وشكرا .

(١) التنية : طريق العنبة .

(٢) الاتان : الحمار .

٢ إمام الصابرين

وفيله محجوبون عن جميع السماوات .. الى يوم القيامة .

وقال الله تعالى على لسان الجن « وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وانا كنا نفعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » ٨ - ٩ / الجن .. ويقول أيضا - جل شأنه - « الا من استرق السمع بأتبعه شهاب مبين » ١٨ / الحجر .

كان ابليس يعقد مقعده في السماء .. فسمع تجاوب الملائكة بالصلاة على ايوب .. حين ذكره الله بالخير واثني عليه .. فاشتعلت في قلبه نيران الحقد والبقى والحسد .. فلم يطق على ذلك صبرا .. ودبر في نفسه امرا ...

فصعد سريعا في السماء .. حتى بلغ موقفا منها .. كان يقفه من الله تعالى .. وقال :

يا الهى : نظرت في امر عبدك ايوب .. فوجدته عبدا .. اتممت عليه نعمك فشكرك وعافيته فحمدك .. ثم لم تخسره لا بشدة ولا بلاء .. وانا لك يارب زعيم .. لئس ضرته بلاء .. ليكفرن بك ولينسينك .. فقال الله تعالى : انطلق اليه فقد سلطتك على ماله . فانقض عدو الله حتى بلغ الأرض .. ثم جمع قادة الشياطين وزعماءهم وعظماءهم .. فقال : ماذا عندكم من القوة والحيلة والمعرفة .. حال هذا العبد ايوب ؟ فقد سلطني الله على ماله .. وزوال المال هو المصيبة الفادحة .. والفتنة التي لا يصبر عليها الرجال .. هيا اعدوا عدتكم

قال وهب : ان لجبريل - عليه السلام - بين يدي الله .. مقاماً ليس لاحد من الملائكة مثله .. في القربة والفضيلة .. وان جبريل هو الذي يتلقى الكلام من الله - سبحانه - فاذا ذكر الله عبدا بخير تلقاه جبريل .. ثم ميكائيل .. ثم من حوله من الملائكة المقربين .. والحافين من حول العرش .. فاذا شاع ذلك في الملائكة المقربين .. صارت الصلاة على ذلك العبد .. من اهل السماوات :

« هو الذي يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما » ٤٣ / الاحزاب .

وافرا « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا .. الخ » ٧ / غافر .

فاذا صلت على العبد ملائكة السماوات .. واستغفروا له .. هبط عليه بالصلاة الى ملائكة الأرض ..

وكان ابليس .. يقف من السماوات حيث شاء (١) .. لا يحجب عنها .. ولا يعوقه شيء عن التجول في أرجائها .. ومن هناك وصل الى آدم .. حين أخرجه من الجنة .. ولم يزل يصعد الى السماء حيثما أراد .. حتى رفع الله تعالى عيسى - عليه السلام - فحجب ابليس عن اربع سماوات .. فكان لا يقعد الا في ثلاث .

فلما بعث الله محمدا - عليه الصلاة والسلام - حجب عن الثلاث الباقية .. فهو

(١) التعلبي والقرطبي ٤١/ص .

.. واسنجمعوا كل قوتكم .. وسخروا كيدكم
.. لزوال مال هذا الرجل .

فقال احدهم : لقد أعطيت من الفسود ..
ما لو شئت تحولت أعداءنا من نار .. وحرقت
كل شيء يمتلكه ..

فقال له إبليس : فت الابل فاحرقها ورعاتها ..
.. فانطلق يوم الابل .. حتى وضعت رعوسها ..
.. وثبتت في مراعيها .. فما شعر الناس ..
الا وقد ثار من باطن الارض اعتصار من نار ..
تنفخ فيه رياح السموم .. لا يدنو منه أحد
الا احترق .. فلم يزل يحرقها .. حتى أتى
على آخرها .. ومعها رعاتها .

**فلما فرغ منها . تمثل إبليس .. على فعود
من الابل .. في صفة راعيها .. ثم انطلق إلى
أيوب .. فوجده قائما بصلى .**

فقال له : يا أيوب

قال : لبيك ..

قال : هل ندري ما لدى صنع ربك - الذى
اخترته وعبدته - بإهلك ورعاتها ؟

قال له أيوب : انها ماله اعارني اياه ..
وهو اولى بها .. ان شاء تركها .. وان شاء
أخذها .. وقد طيب نفسي .. انى ومالى للفناء
والزوال .. فقال له إبليس ان ربك أرسل اليها
نارا من السماء .. فاحترقت كلها .. وبقي
الناس مبهورين ذاهلين .. من هذا الذى حدث
.. فمنهم من يقول : ما كان أيوب يعبد شيئا
.. وما كان الا في غرور .. ومنهم من يقول :
لو كان اله أيوب .. يقدر على ان يصنع شيئا
.. لمنع وليه من احراق ماشيته .. ومنهم من
يقول : بل هو الذى فعل ما فعل .. فشمت به
عدوه .. وفجع به صديقه .. ولعلك تذكر
يا أيوب قول الشاعر :

كل المصائب قد تمر على الفتى

فتهون غير شماتة الحساد

ان المصائب تنقضى أيامها

وشماتة الأعداء بالمرصاد

فقال أيوب : الحمد لله الذى أعطانى ..
وحيث شاء نزع منى .. عريانا خرجت من بطن
أمى .. وعريانا أعود إلى قبرى .. وعريانا
أحشر إلى ربى .

ليس ينبغي لك ان تفرح حين اعارك الله ..
وجزع حين قبض عاريته .. فهو اولى بك
وما أعطاك .. ولو علم الله فيك ايها العبد
خيرا .. لنقل روحك مع تلك الأرواح ..
وصيرك شهيدا مع الشهداء .. ولكنه علم
فيك شرا .. فأخرجك وخلصك من البلاء ..
كما يخلص الزوان (١) من الفمخ الخالص .

**فعاد إبليس إلى اصحابه .. مذءوما مدحورا
.. خائبا ذليلا ..**

وكلما انتهى خبر إلى أيوب .. هلاك مال من
ماله .. حمد الله وأحسن الثناء عليه .. ورضى
بالفضاء .. ووطن نفسه بالصبر على السلاء
.. حتى لم يبق له مال .

**فلما رأى إبليس .. انه قد أفسى ماله ..
ولم يزل منه شيئا .. ولا نفع في أمر من أفعاله
معه .. شق ذلك عليه .. وصعد بائسة ..
إلى الموقف الذى كان يقفه من الله في السماء
.. وقال يا الهى : ان أيوب برى أنك طالما تمتعه
بنفسه وولده .. فأنت معطيه المال ..**

فهل تسلطنى على والده .. فانها الفتنة
المضلة .. والمصيبة التى لا تقوم لها قلوب
الرجال .. ولا يقوى عليها صبرهم ؟ ..

فقال الله تعالى : انطلق فعد سلطتك على
ولده .. فانقض عدو الله .. حتى جاء أبناء
أيوب - عليه السلام - وهم في قصرهم .. فلم
يزل بزلزل القصر .. حتى تداعى من قواعده
.. وجعل ينطح بجدرانه بعضها بعضا .. ثم
رفع بهم القصر وقلبه .

**ثم انطلق إلى أيوب .. متمثلا بالمعلم ..
الذى كان يعلمهم الحكمة .. وهو جريح مشدوخ
الراس والوجه .. يسبل دمه من رأسه ..
فأخبره بذلك .. وقال له : يا أيوب .. لورايت
بنيك كيف عذبوا .. وكيف قلب بهم القصر ..
وكيف نكسوا على رعوسهم .. تسيل دماؤهم
من أنوفهم وشفاههم .. ولو رأيت كيف شقت
بطونهم .. فتناثرت أمعاؤهم .. لتقطع قلبك ..
وتمزق وجدانك .. ولم يزل يقول هذا ..
ويردده .. حتى رق أيوب .. وكاد أن يفلبه
الوجد والأسى .. ولكنه احتسبهم عند الله
واستغفر وشكر ..**

(١) الزوان حب يغالط حب القمع .

ويقول بعض المفسرين : ان ايوب .. عندما
تحركت اشجانه بما سمع من ابليس .. غلبته
عاطفة الأبوة .. فبكى وقبض قبضة من التراب
فوضعها على راسه .. فاغتتم ابليس الفرصة
منه لذلك .. وصعد سريعا بالذى كان من جزع
ايوب مسرورا .. ثم لم يلبث ايوب .. ان
انصر فاسففر .. وشكر .. فصعد قرناؤه من
الملائكة باسمغفاره وتوبته .. فبدروا ابليس
وسقوه الى الله تعالى ..

ونحن لا نقر ان ايوب الذى قال الله عنه
.. « انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب »
بضع الراب على راسه جزعا وهلعا .. ولست
هذه من افعال الانبياء والمقربين .. ولا يجوز
في حقهم .. الا ما يكون من الحزن والبكاء فقط
.. وانما هي من الدسوس الاسرائيلى ..
فما رأينا نبيا من انبياء الله .. سلم من افكهم
او نحا من طعنهم واتهامهم .

ويعود ابليس .. ليقف موقفه بين يدي الله
.. خاسئا ذليلا .. مذموما مدحورا .. فيقول
الهي : انما هون على ايوب خطر المال والولد ..
انه يرى انك طالما تمتعه بنفسه وصحته ..
فستعد اليه المال والولد .. فهل انت مسلط
على نفسه وبدنه ؟ .. فانى لك زعيم .. لئ
انليته في جسده لينسينك .. وليكفرن بك ..
وليحجذن نعمتك .

فقال الله تعالى : انطلق ففد سلطانك على
جميع جسده .. ولكن ليس لك سلطان على
لسانه وقلبه .. ولا على عقله .

وان الله - سبحانه - لم يسلط ابليس على
الايوب واولاده وجسده .. الا ليزيد له
الاجر .. ويجزل له العطاء .. ويجعله اماما
للسابرين .. وذكرى للعابدين .. وا يكون اسوة
للمبتائين .. في الصبر والرجاء ..

وانقض عدو الله الى ايوب .. فوجده
ساجدا .. فأتاه من قبل الارض .. في موضع
وجهه .. ونفخ في منخريه .. نفخة اشعل منها
جسده .. وأحرق كبده فاصيب بالاستسقاء

وقيل كانت مدة مرضه .. سبع سنين
وسبعة اشهر وسبع ساعات .

كما قيل عن سبب بلائه .. انه استغاث به
مظلوم فلم يقم .. وقيل انه اعجب بكثرة ماله
.. كما قيل ان ماشيته كانت في ناحية ملك
كافر فداراه ولم يغره ٢

ولكن النفس ترتاح لراى يقول : انه سأل
الله امتحانا لصبره .. عندما اتم الله عليه نعمته
.. فتلك طبيعة المقربين . يتلذذون بالبلاء ..
لانه يزيد قلوبهم نقاء .. وافسدتهم جلاء ..
ونصرهم اشعاعا وسقاء .

ورسولنا - صلى الله عليه وسلم يقول :
« اشدكم بلاء الانبياء ، ثم الشهداء : ثم الاولياء
ثم الامثل فالامثل » ..

واشتد به المرض .. فهزل جسمه ..
وضمر عوده .. ووهت قواه .. حتى صار
هيكلًا من العظم .. لا حول له ولا قوة .. تقوم
زوجته رحمة بنت افرائيم بن يوسف - عليه
السلام - بكل حوائجه .. تسعى لكسب قوته
وقوبها .. وتقوم على خدمته ليلا ونهارها ..
صابرة هي ايضا على قضاء الله وقدره ..
راضية لمبتئنه وارادته .. لتكون مثالا صالحا
للزوجة الصالحة .. وهو لم يزد الا قربا من
الله .. وانجاها اليه بكل خلجاته وسكنانه
وحركانه .. اعجزه المرض .. عن الصلاة لله
.. قائما او قاعدا .. فكان يصلى اتجاها الى
مولاه براسه .. ثم بأجفان عينيه من شدة
المرض ..

وجاء في كثير من كتب التفسير كالبياضى
والكشاف ان امراته رحمة .. قالت له يوما :
يا ايوب . او دعوت الله .. ليرفع عك البلاء ؟
فقال لها : كم مدة الرخاء ؟ قالت ستين عاما ..
قال : اسحى من الله ان ادعوه .. وما بلغت
مدى بلائى مدة رخائى ..

كما روى ان اخوانه الثلاثة الذين آمنوا به
وصدقوه .. انقطع عنه احدهم .. فسأل عنه
.. فقيل : القى اليه الشيطان .. ان الله لا يبتلى
الانبياء .. فانقطع عنك .. فزاده ذلك الما ..
ولكنه لم ينقص من ايمانه وصبره شيئا ..

(١) القرطبي وغيره عن ابن عباس ٤١/ص .

(٢) القرطبي وغيره ٤١/ص .

٣ اقتراءات

سداد .. بل احدهما يرى من الاخرى
وان دماغى ليسيل من فمى .. الهى ..
تساقط شعرى عينى .. كأنما احرق بالنار
وجهى .. وحدقتاى مدليتان على حدى ..
وورم لسانى حتى ملأ فمى .. فما ادخل فيه
طعاما الا غصنى .. وورمت شفتاى حتى
غطت العليا انفى .. والسفلى ذقنى .. وتعطمت
امعائى فى بطنى .. وانى لادخل الطعام ..
فيخرج كما دخل .. ما احسه .. ولا نفعنى
.. وذهبت قوة رجلى .. فكانهما قد بيستا
ولا اطيع حملهما .. وذهب المال .. فصرت
اسأل بكفى .. ويطعمنى من كنت اعوله اللقمة
الواحدة .. فيمن على بها وبعميرى .. الهى !
هلك اولادى .. ولو بقى واحد منهم .. لاعائى
على بلائى ونفعنى .. الى أن قال - كما زعموا -
أن قضاءك هو الذى اذلنى .. وادنانى واهاننى
.. وان سلطانك هو الذى اسقمنى .. وانحل
جسمى ..

فهل يعقل أن يتلى الله عبده أيوب - عليه
السلام - بهذا المرض القذر .. المثنى المنفر ..
الذى يؤذى الاعين .. ويزكم الأنوف .. ويقزز
النفوس .. وينفر الاصدقاء .. فيتناثر البدن
من جسمه وينأى عنه الاخلاء لعدم قدرتهم على
تحمل تنه ؟

مع أن اول الصفات الواجبة للانبياء ..
الطهارة .. والنظافة .. والدوق الجميل ..
والصورة الحسنه .

وهل يجوز أن تتصور .. ان النبى النقى
الصابر أيوب .. ينجى ربه بهذا الاسلوب

شطح خيال بعض المفسرين - سامحهم
الله - فى وصف مرضه .. فقالوا عنه اشياء
غير معقولة .. ومنفرات ليست مقبولة .. فانه
- سبحانه - اجل من أن يتلى احبابه واصفياءه
.. بأمراض تشمئز منها النفوس .. وتزكم
الأنوف .. وانا انقل هنا بعض تلك الروايات ،
ليكون القارىء حذرا فى قراءته ..

يقول ابو اسحاق النيسابورى الثعلبى
صاحب كتاب « العرائس » :

نفخ ابليس فى منخريه نفخة أشعل منها
جسده .. فذهل .. وخرج به من راسه الى
قدمه .. ثاليل .. مثل اليات الفنى .. ووقعت
فيه حكة لا يملكها .. ولا يتماسك عن حكها ..
فحك باظفاره .. حتى سقطت كلها .. ثم حكها
بالحجارة الخشنة .. فلم يزل يحكها .. حتى
نزل لحمه .. وتقطع وتغير وانتن .. فأخرجه
اهل القرية .. فجعلوه على كناسة وجعلوا له
عريشا .. فرفضه خلق الله كلهم .. غير
امراته .

وقالوا : وقعت دودة من فخذة على الارض
.. فأخذها .. وردها الى موضعها .. وقال
لها : كلى ، فقد جعلنى الله طعاما لك ..

وقالوا : كان لايوب اخوان .. فاتياه ..
وقاما من بعيد .. لا يقدران على الدنو منه ..
من تنن ريحه .. فقال احدهما لصاحبه :
لو كان الله علم فى ايوب خيرا .. ما ابتلاه بماترى
ونسبوا اليه انه قال فى دعائه : الهى :
تقطعت اصابعى .. فانى لا ارفع الاكلة من الطعام
.. الا على الجهد منى .. الهى ، تساقطت
لهواتى .. ولحم راسى .. فما بين اذنى من

اليائس القانط .. وقد قال الله عنه « أنا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب » ٤٤/ص ١ وكيف سيغ الفهم .. هذه الدعوات من ابوب .. وقد دال لزوجته عندما طلبت منه ان يدعو الله .. يكشف عنه البلاء : استحي من الله ان ادعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي ؟

هل يشطح بنا الخيال .. كل هذه الشطحات الكاذبة .. والتاولات المفتريات .. بسبب قوله « رب انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين » ٨٣ / الانبياء ؟ .

مع ان تلك العبارة من ابوب .. تبين شدة ادبه مع مولاه .. وتلطفه فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة .. وذكر ربه بفاية الرحمة .. ولم يصرح بالطلوب .. وهذا هو منتهى اللطف فى السؤال ..

ويحكى ان امرأة عجوزا .. تعرضت لسليمان بن عبد الملك .. فعالت : يا امير المؤمنين .. مشيت جرذان بيتى على العصي (١) .. فقال لها ! لقد الطعت فى السؤال .. لاجرم لاردنها شب وثب اليهود .. ثم ملا بيتها حبا .

ارابت تادبه فى سؤال ربه .. ولطفه فى حسن رجائه ؟ ثم ارابت قول الله على لسانه « واذكر عبدا اوب اذ نادى ربه انى مسنى الشيطان ننصب وعذاب » ٤١/ص .. وانظر كيف راعى الادب فى نسبة ذلك الى الشيطان .. ولم ينسبه الى الله تادبا منه ؟ ..



(١) تفحص ان البيت لبس فيه طعام ابدا .. تاكله الغثران .

٤] مناجاة

وقوله « انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان » ٩٠ / المائدة / كذلك قول لبيد في داليته المعلقة .

وما اربق على الانصاب من جسد

وأدى بنا هذا الى معنى جديد .. يقرب لنا معنى قول أيوب - عليه السلام - « مسنى الشيطان بنصب وعذاب » حيث لا سلطان للشيطان على المؤمن .. فبعد ان يشن ابليس .. من أن ينال منه فتىلا .. او يشفى غيلا .. اراد ان يشغله عن الصلاة .. فاذا اتجه أيوب بعينه الى الصلاة .. شكل امامه انصابا وتمائيل وصورا .. عسى أن تشغله عنها .. وهنا فقط .. لم يطق أيوب على ذلك صبرا .. فقال : الهى لقد صبرت على ذهاب مالى وولدى وجسمى فى سبيلك .. وتحملت كل ذلك فى صبر ورضى .. اما ان يحال بينى وبينك .. فهذا ما لا طاقة لى به « رب انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » أى بتمائيل تشغلنى وتحول بينى وبينك .. وهذا يعذبنى أشد العذاب .

وجاء فى دعائه ومناجاته : الهى لقد علمت انه لم يخالف لسانى قلبى .. ولم يتبع قلبى بصرى .. ولم يهينى ما ملكت يمينى .. ولم أكل الا مع يتيم .. ولم ابت شعبانا ولا كاسيا .. ومعى جائع أو عريان .

وقد اورد ابو اسحاق الثعلبى مناقشة نذكرها .. فهى تخاطب النفوس فى صدق ..

هل للشيطان سلطان على المؤمن .. حتى يقول أيوب - عليه السلام - « انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » ؟

والنصب أو النصب «بضم النون أو فتحها»: هو التعب والشر والبلاء .. ولعله كان يقصد ما يوسوس به الشيطان اليه .. من تعظيم المرض .. وتضخيم ما نزل به من بلاء .. ويفريه على السخط والجزع .. فالتجأ الى الله تعالى : .. ليكفيه ذلك بكشف البلاء .. وبالتوفيق فى دفعه وردة بالصبر الجميل .

وهناك رأى يقول : انه يقصد بالنصب .. تعب البدن .. وبالعذاب .. زوال الامل والمال

وجاء فى تفسير الكشاف : كيف يكون أيوب صابرا .. وقد شكنا الى الله واسترحمه ؟ وأجاب الشيخ على السؤال .. فقال : طلب الشفاء .. خيفة الفتنة على اهله وقومه .. حيث كان الشيطان يوسوس اليهم .. كما كان يوسوس اليه .. انه لو كان نبيا .. لما ابتلى بمثل ما ابتلى به .. وطلب منحه القدرة على الطاعة .. فقد بلغ أمره الى أن لم يبق منه الا القلب واللسان .

وقد وجدنا ان النصب « بضم النون وتسكين الصاد » أو النصب « بفتح النون وتسكين الصاد » أو النصب (١) « بضم النون والصاد » تؤدى معنى التمثال الذى يصنع ويعبد .. وجميعها انصاب ومنه قوله تعالى « وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب ٣ / المائدة / وقوله أيضا « يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون » ٤٣ / المعارج /

(١) مختار الصحاح ولسان العرب .

وتدعو الى الوفاء والصبر .. ونوجزها بتعديل خفيف :

قال علي لسان وهب : لما رأى اصحابه الثلاثة الكهول .. ما ابتلاه الله به .. اتهموه ورفضوه .. من غير ان يتركوا دينه .. فلما طال به البلاء .. انطلقوا اليه .. وهو في بلائه فبكثوه ولاموه .. وقالوا له : تب الى الله من الذنب ، الذى عوقبت به .

وكان معهم فنى حديث السن .. كان قد آمن بأيوب .. وصدقه .. فقال الفتى :

انكم تكلمتم ايها الكهول .. وكنتم احق بالكلام لأسنانكم .. ولكنكم تركتم من القول احسن من الذى قلتم .. ومن الراى اصوب من الذى رايتم .. ومن الأمر أجمل من الذى اتيتم .. وقد كان لأيوب عليكم من الحق والدمام .. أفضل من الذى وصفتم .. فهل تدرون حق من انقصتم .. وحرمة من انتهكتم .. ومن الرجل الذى عبتم وانهمتم ؟ ألم تعلموا .. أن ايوب نبي الله وحبيبه .. وخيرته وصفوته من اهل الأرض .. فى يومكم هذا ؟ ثم انكم لم تعلموا .. ولا اطلعكم الله تعالى .. على انه سخط تسبًا من امره .. منذ آتاه ما آتاه .. الى يومكم هذا .. ولا علمتم انه نزع منه شئًا من الكرامة التى اكرمه الله لها .. فان كان البلاء هو الذى ازرى به عندكم .. ووضعته فى انفسكم .. فقد علمتم ان الله تعالى يبلى النبين والصدقين والشهداء والصالحين .. به ان بلاهم .. ليس دليلا على سخطه عليهم .. ولا هوانهم عليه .. ولكنه خيرة وكرامة لهم ..

ولو كان ايوب .. ليس هو من الله بهذه المنزلة .. الا انكم آخيتموه على وجه الصحة .. لكان لا يجمل بالحكيم .. ان يعذل أخاه عند البلاء .. ولا يعيره بالمصيبة .. ولا يعاتبه وهو مكروب حزين .. ولكن برحمته ويكفى معه ويستغفر الله له .. ويحزن لحزنه .. ويدله على أرشد امره .. وليس بحكيم ولا رشيد .. من جهل هذا .. فإله : الله : ايها الكهول .. فقد كان لكم فى عظم الله وجلاله .. وذكر الموت .. ما نفعا السننكم .. ويكسر قلوبكم ..

ألم تعلموا .. أن لله عبادا .. اسكنتهم خشيته من غير عى ولا بكم .. وانهم لهم الفصحاء النبلاء .. البلغاء الأولياء .. العالمون بالله وآياته؟ ولكنهم اذا ذكروا عظمة الله .. انقطعت السننهم .. واقشعرت جلودهم .. وانكسرت قلوبهم .. وطاشت عقولهم .. اعظاما لله تعالى .. واعزازا

واجلالا .. فاذا استغافوا .. استمعوا الى الله تعالى بالاعمال الزاكية الصالحة .. بعدون انفسهم مع الخاطئين العاصين .. وانهم براء .. ويحسبون انفسهم مع المفرطين المقصرين .. وانهم لا كياس أقوياء ..

وانهم لا يستكثرون لله الكثير .. ولا يرضون له بالقليل .. ولا يدلون عليه بالاعمال .. فهم مروعون مفزعون .. خاشعون مستكينون ؟ .

فقال ايوب : ان الله تعالى .. يزرع الحكمة بالرحمة .. فى قلب المؤمن الكبير والصغير .. فمتى نبئت فى القلب .. اظهرها الله تعالى على اللسان .. وليست الحكمة من قبل السن والشيب وطول التجربة .. فاذا جعل الله العبد حكما فى الصبا .. لم تسقط منزلته عند الحكماء .. وهم يرون من الله تعالى عليه نور الكرامة .

ثم ان ايوب أقبل على الثلاثة وقال : اتيموني غضابا .. رهبن قبل أن تسترهبوا .. ورعيتم قبل أن تسترعبوا .. وكيتم قبل أن تضربوا .

كيف بكم لو قلت لكم .. تصدقوا عني بأموالكم .. لعل الله بخلصنى .. وقربوا عني قربانا .. لعل الله يتقبلها .. وبرضى عني ؟ .

انكم قد اعجبتمكم انفسكم وظننتم انكم قد عوفيتم باحسانكم .. فبهناكم بغيتم وتعزّزتم .. ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم .. ثم صدقتم لو جدتم لكم عيونا سترها الله عليكم بالعافية التى البسكم اياها .. وقد كنت فيما خلا : الرجال توقرنى .. وانا مسموع كلامى .. معروف حقى .. منتصف من خصمى .. فأصبحت اليوم .. وليس لى راى ولا كلام معكم .. فأنتم الآن اشد على من مصيبتى .

ثم انه اعرض عنهم ، واقبل على ربه مستغثا متضرعا اليه .. فقال : رب : لاى شئ خلقتنى ؟ لستنى اذ كرهتنى ما خلقتنى .. ياليتنى كنت حضة القتنى امى .. او لستنى قد عرفت الذنب الذى اذنبت .. والعمل الذى عملت .. فصرفت وجهك الكريم عني .. لو كنت امتنى .. والحقتنى ابائى .. فالوت كان أجمل لى .

يا لهي : ألم أكن للغريب دارا ؟ .. وللمسكين قرارا ؟ .. ولليتيم وليا ؟ .. وللارملة قيما ؟ الهى : انا عبد ذليل .. ان احسنت فالمنة لك .. وان اسأت فبيدك عقوبتى .. جعلتنى للبلاء غرضا .. وللفتنة نصبا .. « رب انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » ..

٥ إجابة

الآلة . ويعول البعض ان الله لم يحي أنشاءه . .
وانما ولدت له زوجه ضعهم .

وكأن قد اقسم أن يضرب زوجته مائة جلده
ان شفاه الله . . واختلف المفسرون في سبب هذا
اليمين . . فقال كثير منهم : انه أرسلها في قضاء
حاجة فأبطأت عليه . . ولكننا نسبعد هذا الرأي
لصغر الذنب اذا قارناه بضخامة العقوبة . . فلا
يعمل أن يكون ابطاؤها في قضاء حاجة . . مبررا
للضرب مائة جلدة . . اللهم الا اذا وضعنا في
تقديرنا حالته النفسية . . وشططه في الحكم . .
سبب شدة مرضه .

وقال بعض المفسرين افوالا اخرى . .
مثل قول كعب : لما غلب أيوب ابليس - لعنه
الله - ولم يستطع له على شيء . . اعترض امرأته
على هيئة ليست كهية نبي آدم . . في العظم
والجسم والجمال . . على مركب . . لبس من
مراكب الناس . . له عظم وبهاء وجمال . .
فقال لها : انت صاحبة أيوب المبتلى ؟ . .
قالت : نعم . . قال : فهل تعرفيني ؟ قالت :
لا . . قال : انا اله الأرض . . وأنا الذي صنعت
بصاحبك ما صنعت . . وذلك أنه عبد اله
السماء . . وتركني وأغضبني . . ولو سجد
سجدة واحدة لي . . رددت عليكما ما كان لكما
من مال وولد (١) .

وقال وهب : وقد سمعت أنه قال لها : ان
شئت اسجدي لي سجدة واحدة . . حتى أرد
عليك الاولاد والمال وأعافى زوجك . . ويقول

أوحى الله - سبحانه - اليه : يا أيوب نفذ
فيك حكمتي . . وسبقت رحمتي غضبي . . اذا
أخطأت فقد غفرت لك . . ورحمتك . . ورددت
عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم . . لتكون لمن خلفك
آية . . وتكون عبرة لأهل البلاء . . وعزاء
للصابرين « فاركض برجلك هذا مفتسل بارد
وشراب » ٤٢ / ص . . فيه شفاء . . وقرب عن
أصحابك قربانا واستغفر لهم . . فقد عصوني
فيك . .

فركض برجله في الأرض . . فانفجرت له
عين . . فاغتسل منها وشرب فاذهب الله عنه
ما كان فيه من المرض . . وعادت صحته في التو
أقوى مما كانت . . فالحمد سبحانه - بقول الشيء
كن فيكون . . بدون تعلق زمني .

وقيل أنه خرج من بيتيه . . وجلس في
الشارع . . فأقبلت امرأته رحمة . . والتمسته
في مضجعه فلم تجده . . فخرجت والهة تبحث
عنه . . ومرت به . . فقالت له : يا عبد الله . . هل
لك علم بالرجل المبتلى الذي كان هنا ؟ فقال
لها : وهل تعرفينه اذا رأيته ؟ فقالت : نعم
وكيف لا أعرفه ؟ . . فتبسم وقال : ها أنا هو .
فعرفته من ابتسامته واعتنقه .

« ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا
وذكرى لأولئ الألباب » ٤٣ / ص قال ابن مسعود
وابن عباس وقتادة وكعب : ان الله أحيا له أبناءه
بأعيانهم وأتاه مثلهم . . وهذا أشبه بظاهر

(١) القرطبي ٤١ / ص .

صاحب تفسير الكشاف .. فهتت بذلك لولا ان
ادركتها العصمة .. فذكرت ذلك لايوب ..
فحلف ليضربها مائة سوط اذا برا ..

كما ذكر صاحب الكشاف ايضا ان الشيطان
اوهمها ان ايوب اذا شرب الخمر برا فعرضت له
بذلك (١) .. غير اننا نميل الى الراى الذى يقوله
ابن عباس : وهو ان ابليس لقيها فى صورة طبيب
فدعته لمعالج ايوب .

فقال : اداويه .. على انه اذا برا يقول
انت شفيتنى ، لا اريد جزاء سواه .

قالت : نعم .. فاشارت على ايوب بذلك ..
فحلف ليضربنها .. وقال : ويحك .. ذلك
الشيطان ..

فحلل الله يمينه باهون شئ عليه وعليها
.. لحسن خدمتها اياه .. ورضاه عنها ..
فقال له : احضر حزمة من النبات .. بها مائة
عود خفاف لطاف .. واضربها بتلك الحزمة ..
ضربة واحدة .. تنفيذا ليمينك الذى حلفته ..
« وخذ بيدك ضفتا فاضرب به ولا تحنث ، انا
وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب » ٤٤/ص .

ولعلنا نأخذ من تلك الآية .. استعمال الرافة
.. فى ضرب النساء لتأديبهم .. ولهذا يقول -
صلى الله عليه وسلم - « واضربوهن ضربا
غير مبرح » (٢) .

وقد اختلف العلماء .. فى اقامة الحد بهذه
الصورة .. فانكرها المالكية .. وقال بعضهم :

هذا خاص بايوب وحده .. وروى عن مالك :
من حلف ليضربن عبده مائة .. فجمعها فضربه
بها ضربة واحدة .. لم يبر . اما الامام الشافعى
.. فقد قرر ان هذا الحكم باق .. مستشهدا
بحديث .. خرج به ابو داود فى سننه عن ابى
امامة بن سهل بن حنيف .. انه اخبره بعض
اصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - من
الانصار .. انه اشتكى رجل منهم .. حتى
اضنى .. فعاد جلده .. على عظم .. فدخلت
عليه جارية لبعضهم .. فهش لها .. فوقع
عليها .. فلما دخل عليه رجال قومه يهودونه
.. اخبرهم بذلك .. وقال : استفتوا لى رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - فانى قد وقعت
على جارية دخلت على .. فذكروا ذلك لرسول
الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا : ما راينا
نأخذ من الناس من الضر .. مثل الذى هو به
.. لو حملناه اليك لنفسخت عظامه .. ما هو
الا جلد على عظم .. فامر رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - ان يأخذوا له مائة شمراخ ..
فيضربوه بها ضربة واحدة (٣) .. وأخذ بهذا
الراى كثير من العلماء ..

وعندما بلغ ايوب خمسا وتسعين سنة ..
حضرتة الوفاة بالشام .. حيث أمضى كل عمره
بها .. وبعث الله بعده بشر بن ايوب نبيا ..
وسماه الله ذا الكفل .



(١) الكشاف ٤٤/ص .

(٢) القرطبي ٤٤/ص .

(٣) القرطبي ١/ص .

الفهرست

صفحة

٣٥	من نبأ اسحاق ويعقوب ...	□□
١٣٦	(١) وبشروه بفلام عليم ...	□□
١٣٨	(٢) هجرة اسحاق الى جرار	□□
١٣٩	(٣) هجرة يعقوب الى بابل	□□
	من نبأ يوسف الصديق ...	□□
١٤٢	(١) أحسن القصص .	□□
١٤٣	(٢) رؤيا يوسف ...	□□
١٤٧	(٣) رؤيا يعقوب ...	□□
١٤٩	(٤) الأسباط ...	□□
	الى مصر مع الصديق :	□□
١٥٠	(١) خروجه من الحب	□□
١٥٢	(٢) الكريم ابن الاكرمين	□□
١٥٤	(٣) قصة الحب الحنون ..	□□
١٥٧	(٤) اباطل محققين	□□
١٦٠	(٥) شائعات ووليمة	□□
١٦٣	يوسف خلف الاسوار	□□
١٦٤	(١) سلاء الحب	□□
١٦٧	(٢) رؤيا الفرج	□□
١٦٩	(٣) محكمة ..	□□
١٧١	(١) من حصر السجن الى سرير الملك	□□
١٧٤	(٢) القحط سوق اخوته	□□
١٧٧	(٣) لقاء الحسين ..	□□
١٨٠	(٤) قمة محنة يعقوب	□□
١٨٢	(٥) كتاب من يعقوب	□□
١٨٤	(٦) ربح الجنة ...	□□
١٨٦	(٧) رحلة يعقوب الى مصر	□□
١٨٩	من نبأ ايوب امام الصابرين	□□
١٩٠	(١) ايوب الرومي - عليه السلام	□□
١٩١	(٢) امام الصابرين	□□
١٩٤	(٣) افتراءات	□□
١٩٦	(٤) مناجاة ...	□□
١٩٨	(٥) احياة ...	□□

« والى مدين اخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره »

(آية ٨٤ هود)

صدق الله العظيم

○ من نبا
شعيب خطيب الأنبياء

١) مدين بن إبراهيم

مكاسين .. لا يدعون شيئا الا مكسوه .. سواء كان جليلا او حقيرا .. قليلا او كثيرا .. وفي الحدب « لا يدخل صاحب مكس الجنة » كما كانوا اهل كفر بالله .. وبخس لحقوق الناس .. يقطعون السبيل على الغرباء .. فهم أشبه بأهل سدوم - قوم لوط في هذا .. وقد قال الزمخشري - صاحب تفسير الكشاف - انهم كانوا اذا دخل الغريب بلدهم .. اخذوا دراهمه .. وقالوا له انها مزيفة وقطعوها .. ثم اخذوها منه بنقصان ظاهر .. واعطوه بدلها زبونا .

وقطع الطريق على الغرباء بالاذى جريمة لا برضاها دين .. ولا تقبلها انسانية او ضمير . وقد روى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رايت ليلة اسرى بى خشبة على الطريق .. لا يمر بها ثوب احد الا شقته .. ولا شيء الا خرخته .. فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا اقوام من امتك .. بقعدون على الطريق فبقطعونه » ثم تلا : « ولا تقعدوا نكل صراط تواعدون .. الخ الآية » (١) .

فارسل الله سبحانه - اليهم رجلا منهم ، هو شعيب بن ميكائيل ابن يشجر بن مدين ابن ابراهيم . اطلق عليه جميع العلماء والمفسرين اسم « **خطيب الانبياء** » **لحسن مراجعته قومه ..** وبراعته في اقامة الحجة عليهم .. ودحض مفترياتهم .. وبلاغته في تسلسل العظات وترتيبها .. وتبيان الايات وحسن تبويبها .. فكان بدا بالاهم ثم المهم .. وبيادلهم منطقا بمنطق .. وحجة بحجة .. كما سنرى من دعوته قومه الى التوحيد .

لم يرد في القرآن الكريم من اولاد ابراهيم - عليه السلام - غير اسماعيل من السيدة هاجر .. واسحاق من السيدة سارة .

ولكن جاء في التوراة .. في الاصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين : عاد ابراهيم .. فاخذ زوجة .. اسمها « قطورة » فولدت له : زمران ، وبفشان . ومدان ، ومديان ، ويشباق ، وشوفا . واجمع المفسرون على ان مديان - الابن الرابع من قطورة - هو مدين .. الذى نسب اليه قوم شعيب - عليه السلام - لانهم نسله .

مكانهم شمال الحجاز .. فيما يلى الشام .. كانوا في سعة من العيش : رزق وفير .. وخير كثير .. زادهم الله عددا وعدة » واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم « هذا من قول شعيب لهم .

فقد تزوج مدين بن ابراهيم من ابنة لوط (١) .. فولدت له .. ورمى الله في نسلها البركة والنماء .. فكثروا وفشوا .. كانوا مقلين فقراء .. فكثروهم وجعلهم مكثرين موسرين .. وكانوا اقله اذلة .. فاعزهم بكثرة العدد والمال الوفير .

اشتغلوا بالتجارة .. فارضهم وسط بين الشمال والجنوب والشرق والغرب .. بأتيهم الناس من كل فج .. فيبيعون ويشتررون .. حتى زادت اموالهم .. وكثرت خيراتهم .. ولكنها سنة الله « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » فطفوا وبغوا .. وغشوا وسرقوا .. وسخروا من كل خير .. ينقصون الكيال والميزان عندما يبيعون .. ويزيدونها عندما يتاعون .. وكانوا عشارين .. والعشار هو الذى يأخذ العشور في المعاملات .. ويسمى الماكس .. فكانوا

(١) قصص الانبياء للثعلبي والقرطبي ٨٦ / الاعراف .

٢ الدعوة

والا لم يصح دعواه .. ولم تذكر معجزته في القرآن الكريم .. كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا - صلى الله عليه وسلم ١٠٠ هـ

وقد جاء في كثير من كتب التفسير انه من معجزات شعيب .. محاربة عصا موسى الثنين حين دفع اليه غنمه .. وولادة الفم الدرع خاصة .. حين وعده ان تكون له الدرع من اولادها عاما (١) ، وهذه كلها كانت قبل ان يستنبا موسى .. فكانت من معجزات شعيب .. حسب قواهم . ولنا رأى في هذا الموضوع ..

وقبل ان نذكر هذا الراى نذكر احاديث تتعلق بمسألة العصا وولادة الفم .. اوردها الحافظ بن كثير .. حيث كتب رواية من حديث عتبة بن المنذر .. تبدأ روايتها بأبي نكر البزار وتنتهى بعلي بن رباح اللخمي : قال سمعت عتبة بن المنذر يقول ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم سئل : اى الاجلين قضى موسى ؟ فقال « ابرهما واوفاهما » ثم قال النبى - صلى الله عليه وسلم - « أن موسى - عليه السلام امر امراته ان تسال أباهما .. أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاهما ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالب لون » قال : « فما مرت شاة الاضرب جنبها بعصاه .. فولدت قوالب الوان كلها .. وولدت اثنتين وثلاثا كل شاة .. وليس فيها فشوش ، ولا ضبوب ، ولا كمينه تفوت الكف .. ولا ثغول » وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم « اذا فتحتم الشام .. فانكم ستجدون بقانا منها .. وهى السامرية .. هكذا اورده البزار .

دعاهم شعيب عليه السلام . اول ما دعاهم الى التوحيد .. فهو ملاك الامر .. وسبب الخلق .. وركيزة الحياة .. ثم طالبهم باعطاء كل ذى حق حقه .. قال « يا قوم اعبنو الله مالكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان . انى اراكم بخير ، وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط » - (٨٤ هود) .. ولعل بلاغته - عليه السلام - تظهر في قوله « انى اراكم بخير » ويقصد بها .. انكم في سعة من الرزق الحلال .. الذى وهبه لكم ربكم .. وكان يستحق بهذا منكم الشكر والبدل والانفاق .. فلماذا تلجأون الى الجحود والنكران .. والكسب الحرام .. الذى يلوث اموالكم .. ويعرضكم لعذاب الله وغضبه .. وسخطة ومقته .. بدلا من رحمته ورضاه .. اللتين تعيشون فيهما الآن ؟ ..

ثم كرر الامر بالوفاء فى الكيل والميزان .. فقال « يا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط » اى بدون نقص عند البيع .. او زيادة عند الشراء .. « ولا تبخسوا الناس اشيائهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » (٨٥ - هود) وقال اشيائهم تنبيه على أنهم ببخسون الجليل والحقير والقليل والكثير ..

وفى هذا المقام من سورة الاعراف يقول لهم : « وقد جاءتكم بينة من ربكم »

فما هى بينة نبى الله شعيب ؟ ..

يقول صاحب الكشاف :

وقع العلم بأنه كانت لشعيب - عليه السلام معجزة لقوله « وقد جاءتكم بينة من ربكم » ولأنه لاند للمدى النبوة من معجزة تشهد له وتصدقته ..

(١) الدرع : القوالب الملونة من الفم .. وسندكر هذا الحادث فى سياق الحديث .

الحديثين ... شكك في صحه رفعهما .. لا المدار في روايتهما على عبد الله بن لهيعة المصري .. وقد اهتمه بسوء الحفظ .

ولا بهما من هذين الحديثين في هذا المقام الا معرفة السبب الذي جعل اغلب المفسرين يقولون : ان معجزة شعيب .. هي تلك العصا .. والتكلف ظاهر في هذا التأويل .. لان الذي حدث من العصا - ان صح هذا الحديث - كان بعد فناء قوم مدين بزمان .. وظاهر النص القرآني ان شعيبا كان يقول لهم « وقد جاءكم بينة من ربكم » ..

كما ان المعجزات التي حصلت من العصا .. حصلت وهي في يد موسى وليس في يد شعيب .. وكما ان هناك شك .. في هل صهر موسى هو شعيب او هو رجل آخر ؟ وسنعرض لهذا الامر في حينه .. ان شاء الله تعالى . اذا فما هي بينة شعيب ؟

الأقرب الى المنطق .. ان البينة التي يقصدها شعيب عليه السلام . هي الطريقة الواضحة .. المقبولة عقلا ومنطقا وبرهانا .. وهي الشريعة الغراء .. والمحجة البيضاء .. التي ارسله الله بها .. ولهذا كان يقول لهم « قال يا قوم ارايتم ان كنت على بينة من ربي .. » (٨٨ - هود)

كما روى هذا الحديث .. ابن ابي حاتم .. برواية تبدأ بابي زرعه .. وتنهي بعلى بن رباح اللخمي أيضا .. قال : سمعت عتبة بن المنذر السلمى صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال « ان موسى - عليه السلام اجر نفسه بعفة فرجه .. وطعمة بطنه .. فلما اراد فراق شعيب .. امر امراته ان تسال اباه .. ان يعطيها من غنمه ما يعيشون به فاعطاها ما ولدت غنمه من قالب لون .. من ولد ذلك العام .. وكانت غنمه سوداء حسناء فانطلق موسى - عليه السلام - الى عصاه فسمها من طرفها .. ثم وضعها في ادنى الحوض ثم اورد الغنم فسقاها .. ووقف موسى بازاء الحوض .. فما تصدر منها شاة الا ضرب جنبها شاة شاة قال :

فانامت (١) والبنت ، ووضعت كلها قوالب الوان ، الاشارة او شائين ليس فيها فشوش « قال يحيى « ولا ضبوب « وقال صفوان « ولا صبوب « وقال ابو زرعة الصواب « ظنوب « . ويحيى وصفوان وابو زرعه .. هؤلاء من رواة هذا الحديث .. وتكملته « ولا عزوز ، ولا ثغول ، ولا كميشة تفوت الكف « قال النبي - صلى الله عليه وسلم - « لو فتحتم الشام ، وجدتم نقابا تلك الغنم ، وهي السامرية « ا هـ

ولكن بعد ان ذكر الحافظ بن كثير هذين



(١) انامت المرأة اذا ولدت اثنين .

٣ المكابرة

البينة واضحة جلية .. وأدلة صدق شعيب - عليه السلام - لالبس فيها ولا غموض .. فهو يأمرهم بعبادة الله وحده .. وعدم بخس أحد في حقه .. والبعد عن الأذى في الطرقات ..

منطق لا يحتاج الى برهان .. ولكنه عناد الكفر .. أو كفر العناد .. فكانوا تارة يتوعدونه .. هو والمؤمنين معه .. بالطرد من قريتهم .. أو العودة الى ملتهم « لنخرجنك يا شعيب والذين امنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا (٨٨ - الاعراف)

وتارة يتهددونه بالرجم « وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزير » (٩٠ - هود) .

يقعدون في الطريق المؤدى الى بيته .. يصدون اى قادم اليه .. كما كانت تفعل قريش - ويقولون لهم انه كذاب .. فلا يفتننكم عن دين آبائكم واجدادكم .. ولا تستمعوا الى كلامه .. فانه يأمر بعدم المماكسة وتلك خسارة عليكم .. ويطلب من أتباعه عدم التطفيف في الكيل والميزان وفي هذا نقص لاموالكم .. وضياح لبضاعتمكم « وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون » (٩٠ - الاعراف) .

قال يا قوم .. ما هذا المنطق المعكوس .. والمكابرة بالباطل « ارايتم ان كنت على بينة من ربي ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ، ان اريد الا اصلاح ما استطعت » (٨٨ - هود) وظاهر في مخاطبته هذه مع قومه ، عرض رائع لحقائق ثلاث :

الحقيقة الأولى : حديثه عن ربه .. فهو على بينة منه .. وثقة ويقين .. وانه رزقه رزقا حسنا .. لا مكس فيه .. ولا بخس

ولا تطفيف .. ومع هذا فماله مبارك عن اموالهم وثروته تنمو اكثر من ثروتهم .. فلماذا العناد والمكابرة !!

« ارايتم ان كنت على بينة من ربي ورزقنى منه رزقا حسنا » .

والحقيقة الثانية : حديثه عن نفسه .. وانه ملتزم بما يقول لهم .. يطبقه على نفسه .. قبل ان يطالبهم بتطبيقه على نفوسهم .. فما سبب المخالفة والكران ؟ « وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه »

والحقيقة الثالثة : انه يتحدث عن المجتمع الذى يعيش حوله .. لا يريد له الا اصلاح .. ولا ينشد غير الهدى والرشاد .. فكيف يكون الرد بالجحود والكفران ؟ « ان اريد الا اصلاح ما استطعت » .

تدرج معهم من حقيقة الله .. الى حقيقة النفس .. الى حقيقة المجتمع .. وتلك علاقات ثلاث .. ركزها من اوتى جوامع الكلم .. محمد عليه الصلاة والسلام .. في حديث صغير المبني .. شامل المعنى .. فيقول « اتق الله حيثما كنت .. واتبع السيئة الحسنة تمحها .. وخالف الناس بخلق حسن » فبين اولا : العلاقة بالله .. ووجوب ان تكون قائمة على التقوى .. فهو الرقيب الدائم .. والمفتش المقيم .. في اعماق اصماق النفس .. فان لم تكن تراه فانه يراك . ثم بين ثانيا : العلاقة بالنفس .. وحددها بعمل الصالحات .. لتمحو السيئات ، فالنفس البشرية معرضة للخطا .. ولا سبيل لمحو هذا الخطا الا بعمل حسنة تمحوه .. فالحسنات يذهب السيئات . وبين اخيرا : العلاقة بالناس .. على ان تكون مبنية على الخلق الحسن ..

والبَيْع والشراء والأخذ والعطاء .. والمعامل
المنعشة .. والحب والإيثار ..

كان شعيب - عليه السلام كثير الصلاة ..
لله ونهاره .. صبحه ومساءه .. ولهذا خاطبوه
.. سخريه واستهزاء .. محددين الصلاة بالذات
اصلا لك تأمرك أن تشرك ما يعبد آباؤنا أو أن
تفعل في أموالنا ما نشاء أنك لانت الحليم
الرشيذ « (٨٧ - هود) ..

فكانوا كلما راوه يصلى .. تفامزوا به ..
وتضاحكوا عليه .. فجعلوا الصلاة أمرة على
سبيل التهكم بها .. وقالوا : ان هذا الذى
تأمرنا به .. من ترك عبادة الاوثان .. وترك
فوائد البخش والمكس والتطفيف .. باطل لاوجه
لصحته .. وان مثل هذا الامر .. لا يدعوك اليه
دامى العقل .. ولا يأمر بك به أمر فطنه .. فلم
يق الا ان يأمر بك به أمر هذيان .. او وسوسة
شيطان .. وهو صلاتك التى تداوم عليها ..
فى ليلى ونهارك .. وعندهم انها باب من الجنون
كيف هذا وانت العاقل الفطن الحليم الرشيد ..
المعروف بسعة عقلك .. واتساع افقك ؟ ..
ويقول اغلب المفسرين : انهم قالوا « أنك

لات الحليم الرشيد » .. سخريه منه ..
بمعنى السفية الضال .. وهو على الاضداد ..
كما يقال للحبش با ابيض .. وكقوله تعالى عن
اهل جهنم « ذق أنك انت العزيز الكريم » .

واستمروا على كبرهم وضلالهم ..
وجلسهم فى الطرقات .. وصد المؤمنين عنه
.. وتطفيف الكيل والميزان .. والافساد فى
الارض .. وهو صابر على تذكيرهم .. وتخوينهم
من بطش الله وغضبه .. وجبروته ونقمته .
ولما لم يفلح معهم النصيح .. ولم تجد فيهم
الموعظة .

قال « وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى
ارسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم
الله بيننا وهو خير الحاكمين » (٨٧ - الاعراف)
.. اى خير الحاكمين بين الفريقين .. بان
ينصر اهل الحق على اهل الباطل .. ويظهرهم
عليهم .. وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله ..
وحث للمؤمنين على الصبر .. واحتمال ما يلحقهم
من اذى المشركين .. الى ان يحكم الله بينهم ..
وينتقم لهم منهم ..



٤ الفتح

اصر القوم على تهديد شعيب والذين آمنوا معه بالطرد والعذاب .. ان لم يعودوا الى ملتهم التي كانوا عليها .

فقال لهم شعيب : « قد افتربنا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها » .. فهل كان شعيب على ملتهم - ملة الكفر - قبل بعثه ؟ كلا .. فالانبياء - عليهم السلام - لا يجوز عليهم من الصفات الا ما ليس فيه تنفير .. فضلا عن الكبائر .. فما بالك بالكفر ؟ . ولكن حديثهم وحديثه هنا عن المؤمنين معه وهو معهم على حكم التغليب .

كيف نعود يا قوم الى ظلمة الكفر .. بعد ان عشنا في نور الايمان ؟ « وما يكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا » فالكائنات كلها بمشيئته خيرا وشرها « وسع ربنا كل شيء علما » فهو عالم بكل شيء مما كان وما يكون .. يعلم احوال عبادته كيف تتحول .. وقلوبهم كيف تنقلب .. وكيف تقسو بعد الرقة .. وتمرض بعد الصحة .. وترجع الى الكفر بعد الايمان .. ويوفقنا لازدياد اليقين .

ثم لجأ الى الله في صلاته .. رافعا يديه الى مولاه « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين » (٨٩ الاعراف) .

والفتح بمعنى القضاء بالحق .. فهو يفتح الامر المغلق .. ولذلك سمي القضاء فتحا .. وسميت الحكومة فتاحة .. وسمى القاضي

ساحا .. وما زال اهل عمان يسمون القاضي ساحا الى اليوم .

انذروهم شعيب - عليه السلام - وخوفهم .. وذكرهم بما اصاب قوم نوح .. وقوم هود .. وقوم صالح .. وقوم لوط .. « ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح او قوم هود او قوم صالح وما قوم لوط منكم بعيد (٨٩ هود) .. ولكن الوقر في آذانهم .. والفشاة على عيونهم .. والحجاب الحائل بينه وبين قلوبهم .. جعلهم يقولون : « يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول » والا فكيف لا نفهم كلام خطيب الانبياء ؟ « وانا لتركنا فسادا ضعيفا » (٩١ - هود) .

وقد ذكر بعض المفسرين : ان شعيبا كان اعمى (١) .. بحجة ان لغة حمير تقول ان الضعيف هو الضرب .. ولكننا لا نقر هذا الراى .. فلا يجوز ان يكون الرسول اعمى .. بحيث لا تحقق له الشهادة .. والرسول شهيد على قومه .

لجأ الضعيف الى القوى .. والمخلوق الى الخالق .. والعبد الى مولاه .. ليقتضى بينه وبينهم .. ويفتح مغاليق الباطل بمفاتيح الحق .. فكانت الصيحة .. كما جاء في سورة هود - او الرجفة .. كما جاء في سورة الاعراف .. صيحة صاعقة من السماء .. وزلزلة راجفة من الارض .. جعلتهم هالكين جائمين على ركبهم جميعا .. ونجى الله شعيبا والذين آمنوا معه يقول تعالى « فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جائمين ، الذين كذبوا شعيبا كان لم يفنوا فيها ،

(١) من القرطبي وغيره ٩١/هود .

بمستأسد الغربان عاف نباته

وكانت نهاية هذا التعليق القرآني السامي
« ولو أن أهل العري آمنوا واثقوا لفتحنا عليهم
بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا
فأخذناهم بما كانوا يكسبون » (٩٦ الاعراف) .

وهذا التعليق من الله - سبحانه وتعالى
في آخر تلك القصة .. يستلزم منا وقفة
قصيرة .. لتحقيق العبرة .. وتتم الفائدة ..
ولنرى أن الله جل شأنه - لا يهلك قوما
عاصين .. الا اذا ذكرهم بالبلاء .. عليهم يرجعون
عن عصيانهم .. ويتضرعون اليه لزوال بلائهم ..
مرة ومرات .. فاذا نسوا ولم يتذكروا ..
بعد تلك النذر .. وهذه البلايا .. ابتلاهم
بالحسنات والخيرات .. فيكون ذلك استدراجا
لهم .. ثم اخذهم اخذ عزيز مقتدر .. والامثلة
على ذلك في القرآن الكريم كثيرة والآيات واضحة
وفيرة :

« ما أصابك من حسنة فمن الله ..
وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .. وايضا
« ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا
قارعة أو تحل فريبا من دارهم حتى يأتي وعد
الله » .

وكذلك « أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام
مرة أو مرتين ، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون » .

واقرا ايضا « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا
عليهم أبواب كل شيء ، حتى اذا فرحوا بما اوتوا
اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون » وغيرها كثير
وكثير .. فعلينا أن نفتح عيوننا .. ونكون على
بصيرة من امرنا .. ونتعظ بكل بلاء ينزل بنا
ونعلم انها نذر .. فلنكن على حذر .. ولكن هل
من مدكر .

الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين »
(٩٦ - ٩٧ الاعراف) لا من قالوا لهم من قبل
كم اذا لخاسرون » .. نعم .. كان لم يفتنوا
.. وغنى الغوم في دارهم .. اى طال مقامهم
ها .. وفي هذا المعنى .. يقول حاتم طي :

فثيننا زمانا بالتصملك والفنى

كما الدهر في أيامه العسر واليسر

وهب اسف شعيب من اجلهم .. وتملكه
الحزن والاسى رحمة بهم .. فقال : « يا قوم
لقد ابلفنكم رسالات ربى ونصحت لكم » وهذا
يدل على طيب عنصره .. وكرم محتده .. ورقة
قلبه .. ولكنه عاد فقال « فكيف اسى على قوم
كافرين » (٩٣ الاعراف) .

ونبل أن نترك أهل مدين .. في عذابهم
وبلائهم وهلاكهم .. وقد صارت اجسامهم هياكل
هامدة .. لا حراك فيها ولا حياة .. « كان لم
يفنوا فيها » يلفت نظرنا تعليق من الله سبحانه
- حول قصتهم تلك :

« وما ارسلنا في قرية من نبي الا اخذنا اهلها
بالباساء والضراء لعلهم يضرعون ثم بدلنا مكان
السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا
الضراء والسرء فاخذناهم بغتة وهم لا يشعرون »
(٩٤ - ٩٥ الاعراف) .

والباساء هي البؤس والفقر .. والضراء هي
الضر والمرض . ويضرعون اى يتضرعون « بدلنا
مكان السيئة الحسنة « بدل البلاء والمحنة ..
الرخاء والصحة والسعة .. مثل « وبلوناهم
بالحسنات والسيئات » « حتى عفوا » اى كثروا
ونموا في انفسهم واموالهم .. من قولهم : عفا
النبات اذا زاد وكثر .. وقوله صلى الله عليه
وسلم « واعفوا للحي » .. وقول : الحطيئة



٥ أصحاب الأيكة

ونعمهم من هذا ان شعيبا .. كان غريبا عن اصحاب الأيكة .. وبالتالي فهم ان اصحاب الأيكة غير اهل مدين .. وفي الحديث «ان شعيبا اخا مدين ارسل اليهم والى اصحاب الأيكة ..»

كما ان العذاب في اهل مدين كان بالرجفة وبالصيحة .. كما هو واضح في سورتي الاعراف وهود .. اما عذاب اصحاب الأيكة .. فكان بالظلة (١) كما هو ظاهر ايضا في سورة الشعراء.

كانوا على طريقة سابقهم - اهل مدين - من نطفيف الكيل والميزان .. ويخس الناس اشيائهم .. والافساد في الأرض .

نهامهم شعيب عن كل هذا « او فوا الكيل ولا تكونوا من الخسرين . ورنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا بحسوا الناس اشيائهم ، ولا تعشوا في الأرض معسدين » (١٨١ - ١٨٣ الشعراء) .

قال لهم : لا اريد منكم اجرا على هذا .. فأجرى عند رب العالمين .. وذكرهم بالله الذي خلقهم كما خلق من قبلهم « واتقوا الذي خلقكم والعجيلة الأولين » (١٨٤ الشعراء) .

فكان ردهم ايضا .. عنادا وكفرا ومكابرة .. « قالوا انما انت من المسحرين وما انت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين » (١٨٥ - ١٨٦ الشعراء) ولم يكتفوا بهذا بل تحدوه فقالوا « فاسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين » (١٨٧ الشعراء) .

ارسل الله - جل شأنه - شعيبا بعد هلاك قوم مدين .. الى اصحاب الأيكة .. وهي غيضة تنبت ناعم الشجر - قيل هو شجر الدوم - كانت بقرب مدين .. يسكنها طائفة من الناس .. وقيل : انهم كانوا بادية مدين .

وقد قال بعض المفسرين ان اصحاب الأيكة .. هم اهل مدين .

ولكن لو امعنا النظر .. فيما عرضه الله علينا من امر اهل مدين .. واصحاب الأيكة .. لوجدنا ان الله - سبحانه - قد عرض قصه اهل مدين في سورتي الاعراف وهود .. بينما عرض قصة اصحاب الأيكة في سورة الشعراء .

ففي الاعراف وهود يقول « والى مدين اخاهم شعيبا » كما قال « والى عاد اخاهم هودا » « والى نمود اخاهم صالحا » وهذا يدل على ان شعيبا كان من قوم مدين .

اما في سورة الشعراء التي عرض فيها قصة اصحاب الأيكة .. فقد قال تعالى « كذب اصحاب الأيكة المرسلين ، اذا قال لهم شعيب الا نتقون » (١٧٦ - ١٧٧ الشعراء) ، ولم يقل اذا قال لهم اخوهم شعيب .. مع انه في نفس سورة الشعراء .. وقبل ذكر اصحاب الأيكة .. قال عن نوح « اذا قال لهم اخوهم نوح » .. وعن هود « اذا قال لهم اخوهم هود » .. وعن صالح « اذا قال لهم اخوهم صالح » .. ولما جاء دور اصحاب الأيكة :

قال : « اذا قال لهم شعيب » بدون لفظ اخيهم .

(١) الظلة : غيم تحته سموم .

ونحن نرى الآن انهم كانوا اشد عتوا ومجورا .. من اهل مدين .. فلما من ان يطلبوا الهداية من الله .. طلبوا العذاب .. فقال « ربى اعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم » (١٨٨ - ١٨٩ الشعراء) .. وبلاحظ هنا ان العذاب اتاهم من السماء - حسب طلبهم - « وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون » .

قال ابن عباس وعيره . فتح الله عليهم نارا من ابواب جهنم .. فأرسل عليهم حرا شديدا .. فأخذ انفاسهم .. فدخلوا في أجواف البيوت .. فلم ينفعهم ظل ولا ماء .. فأنضجهم الحر .. فخرجوا هربا الى البرية .. فبعث الله عليهم سحابة أظلتهم .. ووجدوا لها بردا .. وجاءت ريح طيبة .. فنادى بعضهم بعضا .. فلما اجتمعوا تحت السحابة الهبها الله عليهم نارا .. فاحترقوا كما يحترق الجراد في المفلاة .. فصاروا رمادا .. وقال « فأخذهم عذاب يوم الظلة ، انه كان عذاب يوم عظيم » .

وروى الثعلبي في كتابه قصص الأنبياء عن ابن عباس ، قال : بلغنى أن رجلا من اهل مدين يقال له : عمرو بن جلهم .. ولعله من الناجين مع شعيب .. لما رأى الظلة فيها العذاب .. افشعر جلده وقال :

يا قوم ان شعيبا مرسل فذروا
عنكم شميرا ، وعمران بن شداد
انى ارى غيمة يا قوم قد طلعت
تدعو بصوت على حنانة الوادى
فانه لن يرى فيها ضحاء غد
الا الرقيم سيمشى بين أنجاد
وشمير وعمران كاهنان لهم .. والرقيم
كلبهم .

والآن نسرع الخطى .. ونجد السير ..
للتلقى مع كليم الله موسى بن عمران .. على
رمال التاريخ .. في ظلال القرآن ..



والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني

(الآية ٢٩ - طه)

صدق الله العظيم

○ من نبا
موسى كليم الله

الفصل الأول

○ الوليد

١] بعد يوسف

الاساذ النجار من بلادها « فكوسة » وقال معناها - سعط الحنة - وانا لا ادري معنى لهذه الترجمة .. بل الأقرب الى « فكوسة » في اللفظ هي « فاقوس » .. وهي في نفس المنطقة تقريبا .

مات - الفرعون الأول ليوسف - الذي آمن به .. وولاه خزائن مصر .. وملك بعده « قابوس » (١) .. وهو الفرعون الثاني ليوسف فعلاه يوسف الى الاسلام .. فأبى .. وقبض الله يوسف في ملكه .. وطال ملكه ثم هلك .. وقام بالملك بعده اخوه .. وكان هذا الأخير فاجرا متكبرا .. امتد ملكه زمنا كبيرا .

واقام بنو اسرائيل بعد وفاته يوسف .. على بقايا من دينهم .. الذي تلقوه عن يوسف ويعقوب واسحاق وابراهيم .. والتزموا بالتشريع الذي شرعوه لهم من الاسلام .. فتمسكوا به .. حتى كان فرعون وموسى الذي بعثه الله اليه ..

ولم يكن في الفراعنة .. من هو اعنى منه على الله .. ولا اعظم طفبانا .. ولا اشد قسوة .. ولا اطول عمرا في ملكه .

ويقول الله عنه « ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعة » (٢) وفي هذا التعبير القرآني ..

لم ينزل في الكتاب الكريم شيء عن بني اسرائيل بمصر .. بعد الأحداث التي ذكرت عن يوسف - عليه السلام - الى عهد ولادة موسى - عليه السلام - ولكن التوراة .. ذكرت ان يعقوب وذريته .. نزلوا - بناء على تعليمات من يوسف - في ارض جاسان .. وهي تقع شمال بلبيس . واجمع المفسرون على هذا الموقع .. وقالوا انها نواحي الصالحية ..

ولعل الفرض من اختيار هذا المكان .. انها ارض مراعى .. وهم رعاة .. غير اننا لا نستبعد ايضا .. ان يوسف يعصد نافاسهم في هذا المكان .. ان يكونوا بعيدين عن المصريين - وهؤلاء على غير دينهم - وفي نفس الوقت .. يكونوا على قرب من سيناء .. فهم متعلقون بالشرق .. بدليل ان يوسف اوصى قبل موته .. بعدم خروج بني اسرائيل من مصر الا ومعهم رفاته .

وذكر الأستاذ النجار في « قصص الانبياء »

ان له صديقا عرض عليه اطلسا به ارض جاسان شمالي بلبيس .. وقد رايت انا ايضا ارض جاسان في هذا الموقع في مصور جغرافي في نهاية كتاب العهد القديم من الكتاب المقدس .. ويقول

نكتة كلها جمال : فكلمة « علا » تشير الى العلو والارتفاع .. وبعدها مباشرة « في الأرض » تشير الى السفول والوضاعة .. فكانه ارتفاع الى اسفل .. وفي هذا المعنى ما فيه من سخريه مطوية .. واحتقار مكنون في ظاهر التعبير ..

طفى في الأرض .. وجاوز الحد في الظلم
والعسف .. فكان يعذب بنى اسرائيل .. ويسومهم سوء العذاب .. وجعلهم شعا واصنافا .. فمنهم من خصصه للبناء .. ومنهم للحرث والزرع .. ومنهم للحفر وقطع الاحجار ونقلها .. ومن لم يستطع العمل منهم .. كان يأخذ منه جزية .. وجعل سكان مصر نوعين : القبط .. والاسرائيليين .. ثم استضعف الاسرائيليين واستذلهم .. ويخاطب الله - سبحانه - بنى اسرائيل بقوله : « واذا نجيناكم من آل فرعون يسموونكم سوء العذاب ، يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم » (٤٩ البقرة) .

وتزوج فرعون امراه من خيار النساء ..
هي آسية .. وقال الثعلبي أنها بنت مزاحم ابن عبيد بن الريان بن الوليد - فرعون يوسف - الذى أسلم معه .. وآمن به .

وفي هذا الجو الخانق .. والظلام الحالك ..
الذى تقيم سحبه على بنى اسرائيل في مصر .. وبين تلك المواصف العاتية .. التى تطحنهم طحنا .. ونهدهم هذا .. من استعباد احسادهم .. واستحياء نسائهم .. وتذبيح ابناءهم .. في هذا البلاء النازل .. والشقاء المائل .. تزوج عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب من عمته يوكابد بنت لاوى ..

وجاء هذا المعنى في الفقرة ٢٠ من الاصحاح السادس من سفر الخروج : ونصها : واخذ عمرا م يوكابد عمته زوجة له فولدت له تارموس وموسى . ولم يكن زواج العمات محرما في شريعتهم الى هذا الحين .. ولكن التحريم جاء في شريعة موسى .. بعد خروجهم من مصر .

□ □ □

٢] رؤيا وميلاد

ويقول تفسير الكشاف والقرطبي -
في هذا المقام : ان القابلة بعد خروجها من عند
ام موسى .. دخل عيون فرعون .. فلفته في خرقة
.. ووضعت في نور مسجور .. لم تعلم ماتصنع
.. لما طاش من عقلها .. فلم يلقوا شيئا ..
فخرجوا وهي لا تدري مكانه .. فسمعت بكاءه
من التنور .. فانطلقت اليه .. وقد جعل الله
النار عليه بردا وسلاما (٣) .

ونحن لا نجزم بانكار هذا الراى .. وانما
نقبله بشيء من التحفظ .

« واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه ، فاذا
خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافى ولا تحزنى ،
انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » (٧
القصص) وهذه الآية الكريمة على قصرها .
شملت امرين .. ونهين .. وبشارتين ..
فالامر ان الارضاع والالقاء في اليم .. والنهيان
عدم الخوف والحزن .. والبشارتان عودته
اليها وجعله رسولا .

والوحى الى ام موسى كان مناما او الهاما ..
ومن الوحى الالهامى قوله تعالى :

« واوحى ربك الى النحل » فأرضعته ثلاثة
شهور .. وهى تجتهد في اخفائه عن العيون ولكن
زاد خوفها .. لما زاد ضغط فرعون بعيونه
وجواسيسه على بيوت بنى اسرائيل .. لحصر
مواليدهم الذكور لذبهم .. والح فرعون في
طلبهم .. واجتهد الجواسيس في البحث عنهم .

فاحضرت له تابوتا من ورق البردى ..
وضعت فيه كتانا مخلوجا ، وطلته بالقار ..

قال السدى : ان فرعون راي في منامه ..
كان نارا قد اقبلت من بيت المقدس .. حتى
اشتملت على بيوت مصر .. فاحرقتها ..
واحرقت القبط .. وتركت بنى اسرائيل ..
قدما فرعون الكهنة والمبرين والمنجمين ..
فقالوا يولد في بنى اسرائيل غلام .. سلبك الملك
.. ويفلبك على سلطانك .. ويخرجك وقومك
من ارضك .. ويبدل دينك .. وقد اظلك زمانه
الذى يولد فيه (١) .

فامر القوابل بمراقبة حبالى بنى اسرائيل ..
والتبليغ عن كل ذكر يولد فيهم فيقتل .

وجاء في تفسير الكشاف والمرطبي ان فرعون
ذبح في طاب موسى تسعين الف وليد .. وفي
هذا دليل على حمق فرعون .. فانه ان صدق
الkehنة فلن يجديه قتل المواليد شيئا .. وان
كذبهم .. فما سبب القتل ؟

وحملت يوكابد زوجة عمران بهوسى ..
ومرت بالحمل .. فلما انقلت لازمتها احدى
قوابل فرعون .. وتمت بينهما صداقة .. ولما
آلها الطلق .. وكالت القابلة مصاحبة لها ..
قالت لها لينفمنى حبك اليوم .. فعالجتها حتى
وضعت .. فلما اشرق وجهه على سطح الارض
.. هال القابلة نور بين عينيه .. وارتمش كل
مفصل في جسدها .. ودخل جبه قلبها .. فقالت
ما جئت الا لاقبل مولودك .. واخبر به فرعون
.. ولكنى وجدت لابنك حبا ما وجدت مثله ..
فاحتفظ به (٢)

(٣) القرطبي ٧ / القصص .

(١) القرطبي ٤ / القصص .

(٢) القرطبي ٧ / القصص .

فلمحن التابوت وقد احتضنته أبصال من ورق
البردى .. كما تحتضن الأم الرءوم ولدها
الحبيب .. فحملته مسرعات الى سيدتهن آسية
امراة فرعون .. وهن يعتقدن ان به مالا .

وروى أنهم حين التقطوا التابوت .. عالجوا
فتحه .. فلم يقدروا عليه .. فعالجوا كسره
فأعياهم .. ورائهم السيدة آسية .. فدنت منهم
.. فرأت في جوف التابوت نورا .. فعالجته
ففتحته .. فاذا بصبي نوره بين عينيه .. وهو
يمص ابهامه لبنا .. فأحبه جميعا .
وجاء في البيضاوى والكشاف .. انه كانت
لفرعون ابنة برصاء .. قال الأطباء الذين
يعالجونها .. ان علاجها لا يأتى .. الا من قبل
البحر .. يوجد فيه شبه أنسان .. دواؤها
ريقه .. فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرأت
.. وقيل لما نظرت في وجهه برأت .. فقالت ان
هذه النسمة مباركة .. ولعل هذا من أسس
حبهام له .

فلما سمع النبأحون بأمره .. أقبلوا :
آسية بشفارهم .. ليلذبحوا الطفل .. وقالوا :
هذا هو الصبي الذى نحذر منه .. فهاتيه
لنذبحه .. فقالت لهم : ان هذا الغلام لا يزيد
العبرانيين شيئا .. ساتى فرعون واستوهمه
اياهم .. ثم أتت فرعون .. وقالت « قررة عين
لى ولك لا نقلوه » فقال فرعون : قررة عين لك
انت .. اما انا فلا حاجة لى فيه .

وقال عليه الصلاة والسلام « الذى يتلف
به لو أقر فرعون ان يكون له قررة عين - كما
أقرت - لهداه الله تعالى به .. كما هدى به
امراته .. ولكن الله تعالى حرمه ذلك (١) ..
وأراد فرعون ان يذبحه .. ولكن تحت الحاج
السيدة آسية .. تركه ووجه لها .. وسهته
موسى .. وفي العبرية موسى .. لانه وجد بين
الماء والشجر و « مو » بلفة القبط أى الماء
و « شى » أى الشجر .

وروى انه لما فرغ النجار من صنعة التابوت -
ثم الى فرعون يخبره .. فبعث معه من يأخذه ..
فطمس الله عينيه وقلبه فلم يعرف الطريق فأيقن
انه المولود الذى يخاف منه فرعون .. فأمن من
ذلك الوقت .. وهو مؤمن آل فرعون (١) .. ثم
لفته .. ووضعته فيه .. وخرجت به مع اخته
مريم .. فى سكون الليل .. وهجعة الكرى ..
ثم ألقت الصندوق فى اليم - فى نهر النيل -
وهى مطمئنة النفس .. واثقة القلب .. بأن الله
راده عليها .. وجاعله رسولا ثم نظرت الى
التابوت .. نظرات كلها لهفة ورهبة .. وخوف
وحزن .. والله يقول لها « ولا تخافى ولا تحزنى »
.. والخوف هو الغم من توقع شئ سيحدث ..
اما الحزن فهو الغم بسبب شئ حدث .

فاستغل الشيطان ضعفها .. بعد ان غاب
التابوت عن ناظرها .. حيث حمله التيار الى
بعيد فوسوس اليها الشيطان .. فقالت فى
نفسها : ماذا صنعت بابنى ؟ لو ذبح عندى لرايته
وكفنته .. وكان أحب الى من ان ألقيه فى البحر
.. وأرميه الى الحيتان والأسماك .. ثم عصمها
الله تعالى « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان
كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون
من المؤمنين » (١٠ القصص) .

وانطلق الماء بموسى .. برفعه موجة ..
وتخفضه أخرى .. حتى انتهى به بين الأشجار
عند دار فرعون .. الى روضة تحت القصر ..
هى مستقى الجوارى .. وكان بالقرب منها نهر
يدخل بستان فرعون .

وقام الجوارى مكرات .. مع اشراقه
الشمس على سفح النيل .. ونزلن فى غمرة من
نشوة الصبح .. ونسمات البكور .. حيث
رفرفت الحمائم .. وغردت البلابل ..
وشقشقت العصافير فوق أشجار البستان ..
حتى وصلن الى روضتهن ليغتسلن ويستقن ..



٣] وثى عهد مصر

وكلفت ام موسى اخته مريم .. بأن تتبع
اثره .. وتعرف خيره .. دون أن يشعر بها
أحد من الناس .. وبدأت مريم تبشر عملها ..
وتقوم بما كلفت به .. فى تلصص وتجسس ..
عليها تعلم عنه شيئاً « وقالت لاخته قصيه
فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون » (١١)
القصص) .

وبعثت السيدة آسياه فى طلب المراضع
لموسى .. وكلما أتت مرضعة وحملت وكشفت
عن صدرها أمام الرجال .. وأخرجت ثديها
لتلقمه إياه باسم فرعون .. لوى وجهه عنها
وبكى .. وامتنع كلية عن التقام أى ثدى يقدم
إليه باسم فرعون .. وظلوا وقتاً .. كلما
خرجت مرضع .. دخلت أخرى .. لتخرج
بعد قليل بدون جدوى .

ولحظت مريم هذا الأمر .. ووجدت فيه
فرصة لتدخلها .. فدخلت القصر وقالت لهم :
أنا أدلكم على مرضع ترضعه .. وتكفله لكم ..
وهم ناصحون له « وحرمنا عليه المراضع من
قبل ، ففالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه
لكم وهم له ناصحون » (١٢) القصص) .

وكان هامان موجوداً عندما قالت مريم
أخت موسى « يكفلونه لكم وهم له ناصحون »
فقال :

إنها تعرفه وتعرف أهله .. فخذوها حتى
تخبر عنهم .. فقالت : إنما أردت من قولى هذا
« أنهم للملك ناصحون » وليس للطفل .. فأمرها
فرعون أن تأتى بمن يرضعه ويكفله .

فأتت بأمها .. وموسى على يد فرعون يبكى
.. وهو يعلله .. .

وكان على وجه موسى وهو طفل مسحة
جمال .. وفى عينيه ملاحه .. لا يكاد يصبر عنه

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً
ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين »
(٨١ - القصص) .

كانوا خاطئين اكبر الخطا .. فسد سحر منهم
الفدر .. حيث قتلوا الوفا من أجله .. ثم
أخذوه ليربوه حتى يكبر .. ويفعل بهم ما كانوا
يحذرون .. فكان عقابهم من الله .. نريية عدوهم
على أيديهم .. ليكون لهم عدواً وحزناً ..
وهما وغما .

أخذوه ليكون لهم قسرة عين .. فكانت
الماقية أن كان لهم هما وحزناً .. كما قال
الشاعر :

وللمنايا نربى كل مرصعة
ودورنا لخراب الدهر نبينها
فذكر الحال بالمال

وعلمت أمه يوكابد بوصوله الى قصر فرعون
.. فجن جنونها .. وطاش عقلها .. وكادت أن
تبدي بما فى نفسها .. فتظهر أمره .. وبغى
سره .. لولا أن ربط الله على قلبها .. لتزداد
إيماناً به .. وثقة فيه .. حتى يتحقق وعده ..
والله دائماً مع عباده المؤمنين شئون وشجون ..
تتدخل إرادته معهم فى الشدائد « ويزداد الدين
آمنوا إيماناً » .. « وأصبح فؤاد أم موسى
فارغاً أن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها
لتكون من المؤمنين » (١٠) القصص) . ومعنى
كلمة فارغاً .. أى صفراً من العقل .. كقوله
تعالى « وأثدتهم هواء » أى جوفاء لا عقول
فيها .. ومنه بيت لحسان :

ألا ابلغ أبا سفيان عنى
بأنك أجوف نخب هواء

من راد حتى يحبه .. ولعل سبب هذا .. قول
الله تعالى عنه .. في هذا المقام « والعنت عليك
محبته مني » أي اني احببك .. ومن احبه الله
.. احبه جميع العالوب .

وروى التعلبي انه : سئل ابلّيس هل احببت
احدا من العالمين ؟ .. قال لا .. الا موسى
ابن عمران .. فقيل له وكيف ذلك ؟ .. قال :
لان الله تعالى قال له « والفيت عليك محبة مني »
.. فلم املك ان احبته .

غير اني لا ادرى من الذي سأل ابلّيس هذا
السؤال ؟ .

وعلى اي حال يكفى ان الله المهي علمه محبة
منه .. ليحبه كل من يراه .

ودخلت ام موسى القصر الملكي مع ابنتها ..
فوجدت ابنها يبكي .. على ذراع فرعون ..
وهو يعلله .. فلما وجد ريحها .. استانس ..
والقى بنفسه بين ذراعيها فانتحى به جانبا ..
فسترت صدرها .. واخرجت تديها .. والفم
اياها باسم اله ابراهيم همسا .. فالتفمه ..
فقال لها فرعون : من انت منه ؟ .. فقد ابى
كل ندى الا اتيك ؟ .. فقالت : اني امرأة طيبة
الريح .. طيبة اللبن .. لا اوتى بصبي الا قبلنى
.. « ا » فدفعه اليها .. واجرى عليها راتبا ..
فرجعت به الى بيتها من يومها « فرددناه الى
امه كي تفر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله
حق ولكن اكثرهم لا يعلمون » (١٣ القصص) .
وما كان هذا الا تدبير من الله لموسى وامه ..
لترد اليه ويعود اليها .. لترضعه وتكفله .

**وبعد ان اتمت بوكابد رضاعته .. انت به
الى بيت فرعون .. وتولى البلاط الملكي تربيته
وتنشئته .**

**وقد ورد في بعض كتب التفسير والقصص
القرآني بعض أحداث حدثت بين موسى - عليه
السلام - وهو صغير .. وبين فرعون منها**
ما ذكره التعلبي انه كان يلعب بين يدي فرعون
وبيده قضيب صغير .. فضرب به راس فرعون
.. فغضب غضبا شديدا .. وتطير منه .. وقال
هذا عدوى المطلوب .. فارسل الى الدباحين
ليذبحوه .. وبلغ ذلك امرأة فرعون .. فقالت
له : ماذا بدا لك في هذا الصبي الذي وهبته
لي ؟ .. فأخبرها بما فعل .. فقالت له انما هو
صبي لا يعقل .. وانما صنع هذا من صاه ..
وانا اجعل فيه بيني وبينك امرا تعرف به
الحق .. واضع له حلما من الذهب والياقوت

.. وامد به نه خمر .. وان حلد اليافوت وهو
عقرب ودججه .. وان احسد الجمرود .. علمت
انه سى لا عقرب .. ولم يسطر رأى فرعون ..
وحضرت طسبا من الذهب .. وضعت فيه
اليافوت .. وطسبا اخر فيه الجمر .. فمد
موسى يده الى حلد الجوهري .. فحصل
جبريل يده الى الخمر .. فقبض على الجمرة
.. ووسعها في فميه .. فجاءت على لسانه
وحرقة .

**ثم يقول النيسابوري ان ذلك سبب قوله
« واحلل عقده من لساني بفهما قولى » .**

كما ذكر هذه الواقعة بعض المفسرين ..
ولكن السبب يحلف .. فقالوا :

ان فرعون كان يداعبه وهو صغير .. فمد
يده وجذبه جذبة شديدة من لحيته آلمته جدا
فصمم على دنجه لولا تدخل امرائه .. واجرت
معه التجربة السابقة .. ولكن بالمر والجر
ونحن نفوض امر هذه الواقعة الى الله .. وان
كما ننكر حصولها .. فحياة موسى عليه السلام
كلها معجزات .. ولكن لان لنا رأيا في عقدة
لسانه .. التي طلب من الله سبحانه - حلها لما
ارسله .. حيث قال له « واحلل عقدة من
لساني » بالنكير .. ولو كان يعصد عقدة معروفة
في لسانه .. لكان قوله بالعرف لا بالنكير ..
فنقول : واحلل العقدة من لساني .. وسنعرض
لنلك العقدة في موضعها ان شاء الله تعالى .

وسبب موسى - عليه السلام - في بيت
فرعون وربى فيه كما يربى اساء الملوك .. تحت
رعاية السيدة آسية وعنايتها .. ورتبوا له
المعلمين .. والعنونه علوم الدنيا والدين ..
ويؤهلونه لولى امور الحكم .. عند عدم وجود
احد من اصلاص الاسرة المالكة .. باعتباره ابن
فرعون بالتبني .. فهو ولى عهد البلاد .

**فتعلم القراءة والكتابة .. والفلسفة ..
والصيدلة .. والطب .. وعلوم الفلك ..
والحساب والهيئة .. وعلوم الكهنوت .**

رضع موسى عقيدة الايمان مع لبن امه ..
وعرف انه عبراني من بنى اسرائيل .. وانه
ليس من آل فرعون .. وامده الله بالعلم والحكمة
« ولما بلغ اشده واستوى آسنه حكما وعلمنا
وكذلك نجزي المحسنين » (١٤ القصص)
فجمع بين علمي الدين والدنيا .. وافاض الله
عليه من لدنه .. مهانة ووقارا .

**وكان رجلا قوى الجسم .. آدم اللون ..
جعدا .. طويلا .. في لسانه قفل وسرعة وعجلة .**

الفصل الثاني

○ التمهيد

(ثم جئت على قدر ياموسى واصطنعتك لنفسى)
({ ١ } طه)
صدق الله العظيم

١ جريمة قتل

.. والقيظ شديدا حيث اغلق الناس متاجرهم
.. واوى الجميع الى مضاجعهم .. وخلت
الشوارع من الناس » ودخل المدينة على حين
غفلة من اهلها « (١٥ القصص) .

وقال بعض المفسرين ان الوقت كان بين
العشائين .. وقال بعض آخر انه كان يوم عيد
لهم .. وكانوا منشغلين في لهوهم .. وهناك
راى آخر يقول ان موسى لما كبر وشب .. وعرف
انه عبرانى .. اخذ يهاجم الناس في عقائدهم ..
وبدعواهم الى دين ابراهيم .. فأخذوه وهددوه
فلم يكن يدخل المدينة الا في غفلة من اهلها ..
وهذا تأول فيه تكلف ظاهر .. لانه :

اولا : لم يكن قد اوحى اليه بعد .

وثانيا : لان هذا لا يتفق مع ما هو فيه من
ملازمة فرعون .. وتكريمه برفع القبن والظلم
عن بنى اسرائيل بسبب رضاعه منهم .

وبينما هو يسير في شوارع منف .. فى تلك
القيلوله القائظة .. وقد خلت من المارة ..
وسكنت فيها الحياة الى حين .. اذ راى خباز
الملك وكان اسمه « فاتون » يمسك بتلابيب
اسرائيلى اسمه « السامرى » « ٢ » يريد

اعطى الله موسى - عليه السلام - حكما
وعلما .. فاتاه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم
قبل البعث .. فكان لا يفعل فعلا يستجمل فيه:
حكم وعلم ودين .. بالاضافة الى قوة جسميه
خارقة .. ومركز اجتماعى خطير .. يلى مركز
فرعون مباشرة .

فكان يركب مراكب فرعون .. ويلبس
ملابسه .. وكان يدعى - موسى بن فرعون - « ١ »
فامتنع به عن العبرانيين الكثير من الظلم
والاستعباد والسخرة .. وفى نظر الشعب ان
هذا بسبب رابطة الرضاع فقط .

وكان طبيعيا ان يرى فيه بنو اسرائيل
الظهير والنصير .. وان يلجأ اليه المظلومون
منهم .

وذات يوم ركب فرعون مركبا .. ولم يكن
موسى موجودا .. فلما جاء موسى .. وعلم
بسير موكب الملك .. ركب فى اثره وادركته
القيلوله بمنف من ارض مصر - وكان الحرقاسيا

لعله يقصد انعام الله عليه بالمعفرة .. ا .
والغفر الجسميه انجازه .. او بهما معا .

فلن اكون بعد السوم عونا ونظيرا .. لا
لنبيائك .. واهل طاعتك والامان بك .. ولن
استعمل قوتي في نصرة المحرمن الظالمين ..
والاحاف بي ما يحق بهم من غضبك وسخطك
.. وعذابك ونعمتك .

وفي الحديث « ينادي مناد يوم القيامة ..
ابن الظلمه .. واشهاد الظلمه .. واعوان الظلمه
حسبي من لاق لهم دواه .. اوبرى لهم قلما ..
فجمعون في تابوت من حديد .. فيرمى بهم في
جهنم » (١)

وقبه ايضا « من مشى مع ظالم فقد احرم » .

وقد اخذ بن عباس - رضي الله عنه - على
موسى - عليه السلام - انه لم يستثن في قوله
« فلن اكون ظهيرا للمجرمين » بمعنى انه لم يقل
ان شاء الله .. ولهذا ابتلى صاحبه الاسرائيلي
- مرة ثانية (١) .. ونام موسى تلك الليلة ..
بنتابه الظنون .. وتباد له الشكوك .. وتتنازع
الهواجس .. هل يظهر امره ؟ .. وهل يعرف
القوم انه القاتل ؟ وماذا يكون موقفه من فرعون
.. والقتل من موظفي القصر ؟ .. « فاصبح
في المدينة خائفا مترقبا » يتلصص الاخبار ..
ويسترق الانباء .. وبينما هو يسير خائفا وحلا
مترقبا .. اذ به يجد صاحب الامس السامري
- يستغيث به ضد مصري آخر .. امسك
ببلايه .. وكان موسى مضطرب الفكر .. نائر
الاعصاب .. فقال له غاضبا .. انك لغوى
مبين « فاذا الذي استنصره بالامس يستصرخه
قال له انك لغوى مبين فتملكه الذعر والرب
ورفع يده لبطش بالمصري ولكن الاسرائيلي
خاف .. وظن ان الضربة موجهة اليه هو .. لما
قال له انك لغوى مبين فتملكه الذعر والرب
.. لعلمه ان ضربة موسى قاتلة .. فقال صارخا
« يا موسى انريد ان تقتلني كما قتلت نفسك
بالامس .. ان تريد الا ان تكون حبارا في الارض
.. وما تريد ان تكون من الصالحين »
(١٩ القصص) .

وافتضح امر موسى .. وعرف المصري ..
انه هو الذي قتل الخباز بالامس .. وهكذا

تسخره بالقوة .. ليحمل خطا سقته الى مخز
الملك .. والاسرائيلي يحاول التخلص منه مفسعا
عن تنفيذ هذا الامر .. وما ان رأى موسى حيا
استغاث به طالبا منه انفاذه من يدى القوي
.. ولكن فاتون الخباز لم يستجب لموسى في
اطلاق سراح الاسرائيلي ، قائلا انما اريد منه
عملا لانيك .. واسمور في اجباره على تنفيذ
المطلوب بالقوة .. غير مكترث بطلب موسى .

واغتاظ موسى وغضب .. فذكره بجمع
كفه وكرة لم يتحملها الخباز .. فخر صريعا
« فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته
وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته
على الذي من عدوه فذكره موسى فقضى عليه »
(١٥ القصص) وهرب موسى وصاحبه
الاسرائيلي .. تاركين القتل ملقى في الشارع
.. فلم يعرف الناس القاتل .. حيث لم يرهما
غير الله .

لم يكن موسى يتوقع ان تؤدي الضربة الى
قتل المصري .. ولهذا تملكه الاسى والالام ..
واخذ الاسف والندم .. فقال « هذا من عمل
الشیطان انه عدو مضل مبين » (١٥ القصص) .
ومادام الشيطان قد استطاع تنفيذ امر خطير
كهذا القتل - على يد انسان .. كانت الجريمة
لاصقة بهذا الانسان .. حتى يتوب الى الله
.. ويرجع اليه آسفا نادما مستغفرا .. فقال
موسى « رب انى ظلمت نفسي فاغفر لي ، فغفر
له انه هو الغفور الرحيم » (١٦ القصص) .

وفي النيسابوري عن وهب .. انه قال :
اوحى الله الى موسى بن عمران :

« وعزني وجلالي .. لو كانت النفس التي
قتلت اقرت لي طرفة عين انى اله خالق رازق
.. لاذتكم طعم العذاب .. وانما عفوت عنك
.. لانها لم تقر لي ساعة واحدة انى اله خالق
رازق » فان صحت هذه الرواية يكون المفهوم
ان الانحاء بها من الله الى موسى بعد رسالته ..
او بطريق الالهام كما اوحى الى امه من قبل .

وعلى اى حال .. بعد اطمأن قلب موسى
الى ان الله تعالى غفر له هذا الجرم .. ولذلك
قال « رب بما انعمت على فلن اكون ظهيرا
للمجرمين » (١٧ القصص) .

(١) الفرقبى ١٧ / القصص .

(١) لاق اللواء . اى اصلح مدادها . الحديث من
الفرقبى وغيره ١٧ / القصص .

يصدق المثل القائل «عدو عاقل ، خير من صديق جاهل» وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى وهو
ان اللبيب اذا تزايد بفطنته
اخرى عليك من الصديق الاحمق

ودكر الطبري سنده عن انس عباس . . ان
المصريين . . لما عثروا على ممل موسى . . ولم
يعلموا له قابلا . . سبوا الي فكرهم ان ي
اسرائيل هم فالود . . فقالوا لفرعون ذلك
وطلبوا منه الاخذ بحقهم . . والرخيص اثم
ناخذه فقال : انغوى قائله . . ومن يشهد علمه
. . لانه لا يستقيم ان نقضى بغير بينه . . فطلبوا
له ذلك .

ويستمر الطبري في رواية ابن عباس فيقول:

فبينما هم يطوفون ولا يجدون . . اذ مر
موسى من الغد . . فوجد ذلك الاسرائيلي يقاتل
فرعونيا . . فاستفاته الاسرائيلي . . وهو الذي

من سمعته . . على الفرعوني الذي هو من عدوه
. . فصادف موسى . . وقد ندم على ماكان منه
بالامس . . وكره انذى راى . . وغضب موسى
. . بمد يده وهو يريد ان يبطش بالفرعوني وفي
الوقت ذاته . . قال للاسرائيلي « انك لغوى
مبين » . . قال : فاذا هو غصان كفضبه بالامس
. . الذي قتل فيه الفرعوني . . فضاف
الاسرائيلي ان يكون اباه اراد . . بعد ما قال له
« انك لغوى مبين » فحاز الاسرائيلي الفرعوني
. . وقال لموسى « اريد ان تقتلنى كما قتلت
نفسا بالامس » وانما قال ذلك مخافة ان يكون
موسى اباه اراد قتله . ١ هـ

وانطلق المصري ليخبر فومه . . ان قاتل
الامس هو موسى . . ورفع القوم الخبر الي
فرعون الذي رخص لهم في القصاص . . واخذوا
يتآمرون لقتله والثار منه .

□ □ □

« هجرة »

والسلا .. بض اليد ناعم القدم .. وجسم كهذا .. لا يصلح لتحمل الرسائل السماوية .. وما يصيب صاحبها من صراع وجهاد وكفاح .. فكان لابد من التمحيص (١) « ولیمحص الله الذين آمنوا » .. فهل يستطيع ان يسوس الامم .. الا من برعى الغنم ؟

وخرج موسى من مصر مهاجرا الى مدين .. ولعله اختارها مراعىا صلة القرابة بين مدين ابن ابراهيم .. وجده اسحاق بن ابراهيم فهم ابناء عمومته .

وارض مدين .. بلاد واقعة حول خليج العقبة .. من نهاية الشمالية .. شمال الحجاز وجنوب فلسطين .

خرج هاربا خائفا .. قبل ان يدركه المؤتمرون .. ويلحقه الظالمون .. ولكن امله في الله لم ينقطع .. « فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين » (٢١ القصص) ويقول ابن عباس : خرج وليس له علم بالطريق .. الا حسن ظنه بربه . « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى ان يهدينى سواء السبيل » (٢٢ القصص) فمن له ثلاثة طرق ... اخذ اوسطها .. وضل طالبيه .. فسلخوا طريقا غير طريقه وسار موسى في صحراء مترامية .. وساسب غير متناهية .. يرتفع مع التلال كلما ارتفعت .. ويهبط الى الوديان اينما انخفضت

روى عن النبى - صلى الله عليه وسلم - « ساقوا الامم ثلاثة .. لم يكفروا بالله طرفة عين : حزقييل مؤمن آل فرعون .. وحبيب النجار صاحب يس .. وعلى بن ابي طالب .. وهو افضلهم » .

فوجيء موسى بحزقييل - مؤمن آل فرعون - يخرج عليه مسرعا لاهثا .. من طريق مختصر .. فأخبره بتأمر القوم عليه .. وأنهم في الطريق اليه الآن ليقتلوه .. ونصحه بالخروج من مصر في الحال خشية على حياته منهم - واستمع موسى الى نصيحة حزقييل « وجاء رجل من اقصى المدينة يسمى فال ياموسى ان الملاء ياتمرون بك ليقتلوك فأخرج انى لك من الناصحين » (٢٠ القصص) .

ويروى ان جزفيل هذا هو الذى صنع التابوت .. الذى وضع فيه موسى - عليه السلام والقي في النيل .

كما قال مقاتل : لم يسلم من اهل مصر الا ثلاثة : آسية امرأة فرعون وحزقييل مؤمن آل فرعون ، ومريم بنت تاموس التى دلت موسى - عليه السلام - على قبر يوسف .

ومن هنا تبدأ مرحلة التمحيص .. بالنسبة لموسى - عليه السلام - وقد مضى من عمره ثلاثون عاما .. قضاه في بلهنية من العيش .. ورغد الحياة .. ولما للعهد .. في اكبر دولة على سطح الارض .. في هذا الحين .. فهو وان كان قوى الجسم .. الا انه مترف .. لم تعود شظف الحياة والشقاء .. ولم يذق مر الكفاح

(١) التمحيص : الابتلاء والاختبار . ومعص الذهب بالنار : اخلصه من الشوائب .

.. لاراد معه ولا ماء .. ولا مدرسى ولا غطاء كل
همه ان يسرع الحطى نحو الشرق فقيه مدين
التي يستفيها .. وجهة السجاة التي يرتجيهها ..
حتى حفت قدماه .. وكلت ساقاه ..
واصبحت ملابسه اسما لالية .. من قسوة
الصحراء وشظفها .. ولهب الرمال وقسطها .

وفي الطبرى وغرد ٥ عر سعيد بن جبير
خرج موسى الى مدين وبين مصر وبينها مسير
نعمان لبال .. ولم يكن له طعام الا ورق الشجر

.. وانه خرج حافيا .. فما وصل الى مدين
.. حتى وقع حف قدمه .. اى سقطت الجلدة
الملاصقة للارض من رجليه .

وقد ذكر الكشاف واليسابورى والقرطبي
رواية تقول : ان موسى لما اخبره حزقييل بالوامرة
التي دبروها لقتله .. تحير ماذا يفعل ؟ ولم يدر
ابن يذهب .. فجاء ملك على فرس بيده عنزة (١)
.. فقال له : ابعني فتعه .. فهداه الطريق
الى مدين .

□ □ □

(١) عنزة : بفتح العين والنون اطول من الممسا واقصر من الرمح .. وفيها زج تزعج الرمح .

٣] بؤس وفقر

ورصانة جبلته .. فقال لهما : ولماذا تسقيان
الأغنام .. اليس عندكم رجل يقوم بهذا العمل
الذي تتزاحم فيه الأجسام .. وتبأري
السواعد ؟ .. نقالتا : ليس في بيتنا من الرجال
غير أبينا .. وهو شيخ فان كبير .. لا قدرة له
على الخروج والسعى .. فتقدم في عزم وبأس ..
ومنع الرعاة .. حتى سقى لهما أغنامهما ..
ولم يقدر أحد منهم على منعه .. فالناس تحترم
الأقوياء .. وقد رأوا من قوته واقدامه ما ألهمهم
حد الأدب معه .

((ولما ورد ماء مدين وجد عليه امه من
الناس يسقون ، ووجد من دونهم امراةين تزدودان
قال ما خطبكما قالتا لا نستى حتى يصدر الرعاة
وابونا شيخ كبير)) (٢٣ القصص) .

والدود هو المنع والكف والطرء .. ويقول
جرير .. وهو يهجو الفرزدق :

لقد سلبت عصاك بنو تهيم

فما تدري باى عصا تلود ..

وانما فعل ذلك رغبة في المعروف .. واغالة
للملحوف .. وقد انتهز هذه الفرصة .. احتسابا
عند الله .. وترغيبا في الخير .. وبعثا على
الاقتداء بالصالحين .. والاخذ بسيرهم ومروءتهم .

وقد اثار صاحب تفسير الكشاف سؤالا :
كيف ساغ لنبي الله شعيب أن يرضى لابنتيه
بسقى الماشية ؟ .. والأمر ليس . محظور ..
فالدين لا ياباه .. وأما العرف فالناس مختلفون
في ذلك .. والعادات متباينة فيه .. فأحوال
العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل
البدو غير مذهب أهل الحضرة .. وخاصة أن
هناك حالة الضرورة .

بعد جهد جهيد .. وصل موسى الى بئر
مدين .. ورآه على البعد .. وقد تزاحم على
شجرة جمع كبير من الناس .. يسقون انعامهم
.. ويكاد يدب بينهم صراع .. أيهم يرد الماء
قبل أخيه ومن المعروف أن التقدم في ورد الماء
لسقى الماشية .. في مثل تلك البلاد .. انما
يكون لأولى العزم والقوة .. وأما أهل الضعف
.. فحظهم التأخر .. حتى اذا لم يبق وارد
ولا صادر سواهم .. أو ردوا ماشيتهم .. فهم
لضعفهم وذلتهم يتأخرون عن الناس في ورود الماء
.. وأهل القوة والعزة .. يطلبون السبق في
الورود .. لأن الماء في هذه الحال يكون صافيا ..
أما الذي يرد أخيرا .. انما يرد بعد بضوب الماء
ويكون كدرا .. ويقول عمرو بن كلثوم التغلبي :

ونشرب ان وردنا الماء صفوا

ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ووجد موسى في طريقه قبل بلوغ البئر ..
تاتين تزدان أغنامهما عن الورد .. فسألها
عن سبب ذلك .. لماذا تزدودان اغنامكما عن
الماء؟ .. فقالتا في حياء .. وهما تحاولان ستر
نفسيهما عنه بقدر المستطاع .. اننا ننتظر أن
يفرغ الرجال من سقى انعامهم ويصدروا - فنحن
كما ترى لا قدرة لنا على مساجلة الرجال ..
ومسابقتهم الى البئر ..

فلم تخطيء همته في دين الله تلك الفرصة ..
مع ما كان به من التعب والنصب وسقوط خف
قدمه .. مع شدة الجوع .. ولكنه رحمهما
واغاثهما .. وعزم على أن يكفيهما أمر السقى في
مثل تلك الزحمة .. بعزم قلبه .. وقوة يده
.. وما آتاه الله من الفضل في متانة فطرته ..

« فسقى لهما ثم تولى الى الظل .. فقال رب انى لما انزلت الى من خير فقير » (٢٤ القصص) وهكذا يربى الله - سبحانه - انبياءه واصفياءه .. فمن قصر الملك .. وابهة العز .. ورماهة العيش .. الى ظل شجرة فوق بئر فى صحراء .. جسما مرهقا .. وقدا مشققا .. ويطنا خاويا .. يقول سعيد بن جبير .. عن ابن عباس .. تعليقا على قوله : « انى لما انزلت الى من خير فقير » لقد قال موسى ذلك .. ولو شاء انسان ان ينظر الى خضرة امعائه من شدة الجوع لنظرها .. وما سأل الله تعالى إلا اكلة .. وقال أبو جعفر الباقر .. لقد قالها .. وانه لمحتاج الى شق ثمرة .

واغلب المفسرين حمل هذا القول من موسى على الطعام فقالوا : لم يطلب من الله الا اكلة .

ولكن التفحص فى التعبير يرى انه يقول « انى لما انزلت الى من خير فقير » .

وكلمة « خير » شاملة .. فكانه يقول : انا جائع فقير الى الطعام .. عار فقير الى الكساء .. متعب فقير الى الراحة .. وحيد فقير الى زوجة تؤنس وحشتى .. وتقضى حاجتى .

وكانت ابواب السماء مفتحة للاجابة بعد هذا البلاء والشقاء .. وليستقر بعد قلق وخوف وعناء .

وقد اختلف المفسرون فى مسألة البئر .. وانه كنت فوقه صخره رفعها موسى وحده ليسقى للمرايين وقال بعضهم انه لا يستطيع رفعها اقل من عشرة رجال .. وقيل اربعين رجلا .. بل وقال الكشاف مائة .. ولست ادرى سببا لتلك التاويلات والتكهنات والمبالغات .. مع ان البئر كانت مكشوفة .. ندليل وجود امة عليها من الناس يسمون انعامهم .. مع وجود المراتين قريبا منهم .. نذودان اغنامهما .. وتردائها عن الماء .. فليس من المنطق .. ان يغطى الرعاة البئر بتلك الصخرة الضخمة .. بينما المراتان لم تسقيا غنمهما بعد .

ولعل بعض هواة الحشو اراد ان يتخلص من هذا المازق .. مع الاحتفاظ بتلك المبالغات .. بادعى انها كانت بئرين .. وان البئر التى رفع موسى غطاءها كانت غير البئر التى يسقى منها الرعاة . فقد ذكر أبو اسحاق النيسابورى التعلبى .. ان ابا سعيد عبد الملك بن ابي عثمان الواعظ .. قال : ان تلك البئر غير التى تسقى منها الرعاة .. قال : وقد حضرتها .. ورايتها ونحن وان صدق هذا الواعظ فى رؤيا البئر الثانية بنفسه .. فليس هذا دليلا على وجودها فى ايام هذه الواقعة .. حيث لا يعقل ان يتجمع امة من الناس - وهذا اللفظ « امة » قد يدل على كثرة العدد .. يتزاحمون بالاكثاف والسواعد على بئر .. ويجوارها بئر اخرى مغطاة .



٤ راعى الفنم

فيه .. والا لقال - سبحانه - تمنى على حياء
« فالت ان ابى يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت
لنا » (٢٥ الفصص) .

فلما سمع موسى قولها « ليجزيك اجر
ما سقيت لنا » كره ذلك .. وتردد في الإجابة ..
فهو لا يقبل ان يأخذ اجرا على زكاة قوته ..
وهو ما عمل الا ما توجبه المروءة .. وتقتضيه
الشهامة والرجولة . وجاء في الكشف عن عطاء
ابن السائب .. انه اسمع الفتاتين قوله : « انى
لما انزلت الى من خير فقير » لما سقى لهما ..
تعريضا منه .. حتى يكون له منهما ما يقوته ..
وليس معه درهم ولا دينار .. ولا شيء
يأكله .. ا هـ .

فان صح هذا من موسى عليه السلام -
فيكون الله هو الذى ساق تلك العبارة على لسان
الفتاة .. لبؤله نظير اتجاه فكره الى غيره ..
وهكذا يريد الله - جل شأنه ان يظهر اصفياءه
حتى من اقل الخطرات .. التى تخطر عفوا في
اذهانهم .. وحتى تظل صفحات قلوبهم ..
بيضاء ناصعة البياض .. صافية نقية من ادنى
شائبة .. أو اقل غبرة .

واجاب موسى الطلب مرغما من شدة الجوع
.. وتقدمته صفورة وهو يليها .. فهبت ريح
الصقّت ثوبها بردفها .. فكره موسى ان يرى
ذلك منها .. فقال لها : امشى خلفى .. ودلبنى
على الطريق .. ويقول البعض انه تحرز من
سماع صوتها .. فقال لها : اذا اخطأت الطريق
فارمى قدامى بحصاة .. حتى أهبج نهجا ..
فانا بنى يعقوب لانتظر الى اعجاز النساء فنعنت
له الطريق الى منزل ابينا .. ومشت خلفه
حتى دخل على الشيخ .

عادت الفتاتان بالفنم الى ابيهما - الشيخ
الكبير - على غير عادتهما .. مبكرتين عن
ميعادهما في العودة كل يوم .. مما دعا الشيخ
الى سؤالهما عن سبب ذلك .. فاخبرته ان
رجلا صالحا غريبا عن الديار .. رحم ضعفهما
.. واشفق على حالهما .. وسقى لهما الفنم ..
فطلب من صفراها .. ان تذهب اليه ..
وتدعوه لاستضافته عنده .

ويقول صاحب تفسير الكشف : ان الكبرى
اسمها صفراء .. والصفري اسمها صفراء ..
وان صفراء هى التى دعته وهى التى قالت
يا ابت استأجره .. وهى التى تزوجته .. ولكن
الاجماع على ان اسمها « صفورة » وانها هى
الصفري .. وقد وجدت حديثا يتردد في أغلب
كتب التفسير عن النبى صلى الله عليه وسلم ..
لما سئل : اى الاجلين قضى موسى ؟ قال « قضى
اوفاهما وتزوج صفراها » .

وجاءته الفتاة .. وهو جالس تحت الشجرة
.. تمشى مستحيية متخففة .. تستتر بكم
درعها .. وليس هذا منها بعجيب .. فالخفر
والحياء اول سمات الحرائر .. فما بالك بسليمة
المصطفين من النبيين والمرسلين ؟ .. وكأنى
بصوت على - رضى الله عنه وكرم وجهه - بدوى
في أحقاب التاريخ .. واعقاب الأجيال يقول :
كل امرأة خراجة ولاجة متبدلة سلفع ، فهى
أمة « والخراجة الولاجة .. هى كثيرة الخروج
من منزلها .. والولوج في منازل الآخرين .. أما
المتبدلة السلفع .. فهى التى تكشف عن أجزاء
من جسمها بقصد الفتنة فهذه لايعتبرها الاسلام
امراة حرة .. وانما اعتبرها أمة . « وجاءته
احدهما تمشى على استحياء » ولعلنا نلاحظ في
وجود السين والتاء في كلمة « استحياء » معنى
عميقا في شدة الحياء .. ومحاولة الاستزادة

أطعماهم .. لأن طلبهم موسى قصاصا منه لعتله
القطي .. ليس فيه ما يسبب أسناد الظلم
السهة » .

ويحرك في قلب صفوره خفقة جارفة من
خفقات الحب نحو موسى فهو شاب قوى الجسم
.. آدم اللون .. فيه وقار ومهابة .. ومروءة
وامانة فلم تتمالك نفسها .. عندما دخلت
عليهما لترفع بغايا الطعام .. ان عرضت على
ابيهما اقتراحا .. فطن الرجل الى ما يخفيه هذا
الاقتراح مما يعتمل في فؤادهما من لواعج الحب
.. حيث قالت « يا ابت استأجره ان خير من
استأجرت القوى الامين » (٢٦ القصص) .

وجاء في كتاب قصص الانبياء لصاحبه ابي
اسحاق النيسابورى الثعلبي قال النبي صلى الله
عليه وسلم : « اصدق الناس فراسة .. امرأتان
.. كلتاها تفرستا في موسى .. فأصابتا :
احدهما امرأة فرعون .. حيث قالت :

« قرة عين لى ولك لا تقتلوه » والاخرى
بنت شعيب .. حين قالت « يا ابت استأجره
ان خير من استأجرت القوى الامين » .

وروى صاحب الكشف حديثا آخر بسنده
عن ابن مسعود « أفرس الناس ثلاثة » .

بنت شعيب .. وصاحب يوسف في قوله
« عسى ان ينفعنا » .. وابو بكر في عمر .

وواضح ان قولها « القوى الامين » كلام
حكيم جامع لا يزداد عليه .. لانه اذا اجتمعت
هاتان الخصلتان .. اعنى الكفاية والامانة في
القائم بامرك .. والمشرف على عملك .. فقد
فرغ بالك .. واطمان خاطرک .

وقال ابو جعفر الطبرى : فاحفظته الغيرة
.. فقال : وما يدريك ما قوته وما امانته ؟ ..
فقلت : اما قوته .. فما رايت منه حين سقى
لنا .. لم تر رجلا قط اقوى منه في السقى ..
واما امانته فانه نظر حين اقبلت اليه وشخصت
له .. فلما علم انى امرأه .. صوب رأسه فلم
يرفعه .. ولم ينظر الى حتى بلفته رسالتك ..
ثم قال امشى خلفى .. وانعتى لى الطريق ..
ولم يفعل ذلك الا وهو امين .. فسرى عن ابيهما
وصدقها .. وظن به الذى قالت .

ونشط الشيخ الى تنفيذ اقتراحهما ..
وتحقيق نبضات فؤادهما .. فهم في حاجة الى

وقال ابو حارم سلمه ربه .. يسمي العموى
« معالم التنزيل » عند تفسيره : « لجريك اجر
ما سقيت لنا » قال لما سمع ذلك موسى ..
اراد الا يذهب .. ولكنه كان جائعا .. فلم يحك
بدا من الذهب .. فمشى المرأة .. ومشى
موسى خلفها .. فكانت الريح تضرب ثوبها
فتصف ردفها .. فكره موسى ان يرى ذلك منها
.. فقال لها : امشى خلفى ودلىنى على الطريق
ان اخطأت .. ففعلت ذلك .. فلما دخل ابي
شعيب .. اذا هو بالعشاء مهنا فقال له الشيخ
اجلس ابها الشاب فتعش .. فقال موسى اعود
بالله .. فقال شعيب : ولم ذاك .. السيت
بجائع ؟ .. قال : لى .. ولكن اخاف ان
يكون ذلك عوضا لما سقيت لهما .. وانا اهل
بيت لا نطلب على عمل من اعمال الاحر عوضا
من الدنيا .. فقال شعيب لا والله ابها الشاب
.. ولكنها عادتي وعادة آبائى تقرى الضيف ..
ونظم الطعام .. فجلس موسى واكل .

وقد نقد الاستاذ عبد الوهاب النجار في
كتابه - قصص الانبياء - هذه الرواية نقوله :

انها حكاية جميلة .. لولا ان موسى كان
موقنا انه انما دعاه ليجزيه اجر ما سقى لابنته
.. فما كان له ان يتجاهل ذلك .. وفي هذا
النقد شيء من التزايد على موسى او على الرواية
فلولا ان الشيخ قال له : انما هى عادتي وعادة
آبائى .. تقرى الضيف .. ونظم الطعام لما اكل
موسى مهما غصه الجوع وآلمه الضوى .

فحقيقة الأمر .. انه لما قدم له الطعام ..
امتنع عن تناوله .. وقال : انا اهل بيت لا
نبيع ديننا وصنيعنا .. بطلاع الارض ذهبنا ..
ولا نأخذ على المعروف ثمنا .. بقصد بهذا القول
العبارة التى سمعها من الفتاة « لجريك اجر
ما سقيت لنا » فقال له الشيخ : تلك عادتنا ..
تقرى الضيف .. ونظم الطعام .. فاكل معه .

ولما سكنت ثورة الجوع في موسى ..
واطمانت نفسه .. سأل الشيخ عن حاله فقص
عليه قصته كلها .. « فلما جاءه وقص عليه
القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين »
(٢٥ القصص) .

ونفهم من قول الشيخ له نجوت من القوم
الظالمين « ان موسى حدثه عن كفر فرعون وظلمه
.. وتسخير بنى اسرائيل .. وقتل الذكور من

من يرعى لهم العنم .. بدلا من خروج الغناتين
في هذا العمل الشاق ... الذي لا يصلح له
غير الرجال .

فقال لموسى « انى ارد ان اكحك احدى
ابنتى هاتين ، على ان تأجرنى تمايى حجج فان
اتممت عشرا فمن عندك وما ارد ان اشقى
عليك ، ستجدنى ان شاء الله من الصالحين »
(٢٧ الفصل) .

وفى هذا دليل على جوار عرص الولى ابنته
على الرجل .. وهذه سنة فائمة .. عرض
شعيب ابنته على موسى - وعرض عمر
ابن الخطاب ابنته على ابي بكر وعثمان ..
وعرضت الموهوبة نفسها على النبى - صلى الله
عليه وسلم - فهى عادة حسنة ..

فحدد شعيب لموسى صداق ابنته .. ان
يرعى لهم ثمان سنين .. وان شاء ان يتم عشرا
.. فيكون ذلك منه فضل .

وكان العبول من موسى .. فقال « ذلك بينى
وبينك ايما الاجلين فضمت فلا عدوار على والله
ماى ما يقول وكلل » (٢٨ الفصل) ..

نمت الصعفه بين الرجلين .

ويعول بعض المفسرين : انه اخرجها معه من
حين العقد .

واستكمالا لهذا المعام .. وحتى لا نعود اليه
ذكر الورد ان الشيخ هو الذى طلب
استنصار موسى ابتداء .. ولكن القرآن اسدى
.. فهو المهيم على البوراة والانجيل .. كما
قالت البوراة : كانت البنات سبعاً لا اثنتين ..
ويد جمع الحافظ بن كثير بين القولين .. فقال
ان المخطبتين لموسى كانتا اثنتين .. وهما
المباشران للرعى .. اما سواهما فلم يباشر
الرعى .

□ □ □

٥ العصا والشيخ

ويقول هؤلاء المخرفون أن هذا المفهوم من وصف العصا « فاذا هي نعبان مبین » « وكأنها جان » « فاذا هي حية تسعى » .

وفاتهم أن موسى - بعد ذلك - عندما سأل الله . . عن عصاه في الوادى المقدس وطلب منه القاءها . . وانقلبت حية « ولى مدبرا ولم يعقب » خوفا منها . . مما يدل على أن هذا الأمر جديد عليه وعليها .

وأنما أذكر هنا رواية عن العصا . . وردت في أكثر من كتاب من كتب التفسير . . ومنها النيسابورى التعلبى . . والكشاف وابن كثير والقرطبى . . وهذه الرواية تبين لنا مسألة تعرضنا لها في بيان بيئة شعيب - عليه السلام التى يعينها عندما قال لقومه « قد جاءكم بيئة من ربكم » حيث قال المفسرون أن معجزة شعيب . . هي محاربة عصا موسى التين (١) . . حيث دفع اليه غنمه . . وولادة الغنم الدرع خاصة . . حين وعده أن تكون له الدرع (٢) من أولادها عاما . . واليك هذه الرواية :

أمر شعيب ابنته أن تأتية بعصا . . يعطيها لموسى . . فبستعين بها في رعيه . . فجاءته بعصا وديعة عنده . . دفعها اليه ملك على صورة رجل . . فردها عليها شعيب . . وأمرها أن تأتية بعصا أخرى فمازالت ترجع وتأتية بها بعينها . . كلما ردتها الى مكانها وأرادت أن تأخذ غيرها . . سقطت هي في يدها . . فمازالت كذلك . . حتى أخذها شعيب . . وأعطاه موسى . . ثم ندم على

أن الذى يقرأ في كتب تفسير القرآن الكريم . . كمن يجول في حدائق غناء . . ورياض فيحاء . . فيجد الكثير من الثمار الناضرة . . والورود الزاهرة . . ولكنه لا يسلم من بعض أشواك تدميه . . وزوائد تؤذيه . . أن لم يكن حريصا في سيره . . حذرا في تجواله .

ومن تلك الاشواك والزوائد . . ما وجدته في بعض الكتب عن عصا موسى - عليه السلام - من اشياء تفوق الخيال . . وتجاوز المحال .

وسأذكر بعضا مما دسه المفرضون في كتاب أبى اسحاق النيسابورى المسمى بالعرائس ولا استطع أن أقول « ما ذكره النيسابورى » لأنه لا يمكن أن يكتب هذه الخرافات والخزعبلات التى لا يقبلها عقل . . ولا يرضاها منطق . . ولا تسائر منطق القرآن الكريم ومفهومه .

فهل يعقل أن يذكر النيسابورى عن عصا موسى - عليه السلام - وقبل أن يبعث . . انها كانت تضيئ له ليلا في المغارات ؟ . . واذا أعوزه الماء دلاها في البئر . . فتمتد الى قاعه ويصير في رأسها ما يشبه الدلو فيستقى بها ؟ . . واذا احتاج الطعام ضرب الأرض . . فتنبت في التو الشجرة التى يشتهى ثمرها . . وقد اثمرت وطاب ثمرها ؟ وأنه كان يضرب بها الجبل فينشق له فيه طريق ؟ . . ويعبر عليها الأنهار وكأنها سفينة ؟ . . ويشرب من إحدى شعبها عسلا . . ومن الثانية لبنا ؟ ويركبها فتوصله الى المكان الذى يبتغيه ؟ - وغير هذا كثير وكثير مما لا يدخل في نطاق العقل . . بل ولا الخيال . .

(١) التين : الثمان .

(٢) الدرع من الغنم : القوالب الملونة .

ويستشهد ابن كثير بهذه الرواية على ان البصري من القائلين بأن صاحب موسى هو شعيب النبی .. ولكن الأستاذ عبد الوهاب النجار يعترض على تلك الرواية بقوله : لو كان سيد أهل الماء .. ما أخر الرعاة ابتتيه عن الورد .. ولكانتا نصدران قبل ورد الرعاة .. كما ان « يقولون » لا تفيد الحزم .. وقال آخرون ان صاحب موسى اسمه « يثرون » ابن أخى شعيب - عليه السلام - حيث قال أبو جعفر جريز الطبرى .. بسنده الى ابن عبيده .. قال : الذى استأجر موسى « يثرون » ابن أخى شعيب.

وهذه كلها روايات تميل الى ان الشيخ ليس شعيبا ، وانما هو شخص آخر قد يكون أخاه أو ابن أخيه .. أو شخص آخر .. كما ذكره ابن كثير في تفسيره .. رنص عبارته « وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب » ..

كما تحرز بعض المفسرين .. فوكل الامر في هذا الى الله - سبحانه - ومن هؤلاء الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه « قصص الأنبياء » كما يختتم الطبرى هذا الموضوع بقوله : « وهذا مما لا يدرك علمه الا بخبر .. ولا خبر بذلك توجب حجته .. فلا قول في ذلك اولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه « يقصد قول الله على لسان المرأتين وأبونا شيخ كبير » ..

كما ذكر البعض انه شعيب النبی .. ومنهم الحافظ بن كثير في رواية عن أبى حاتم .. بسنده الى مالك بن أنس .. قال : « بلغنى ان شعيبا هو الذى قص عليه موسى القصص » وان كان هناك اعتراض على قوله بلغنى فهو لا تفيد الحزم .

ولكننا رأينا الكثير من الأحاديث الواردة عن الرسول عليه الصلاة والسلام .. تفيد ان شعيبا .. هو صاحب موسى .. وهى التى ذكرناها في قصته نقلا من كتب التفسير .. وان كان بعضهم يشكك في صحة رفعها ..

كما رأينا ان الذين يقولون ان صاحب موسى ليس شعيبا .. يحتجون بأن شعيبا كان قبل موسى بزمن كبير .. لقوله « وما قوم لوط منكهم بعيد » وكان هلاك قوم لوط في زمن ابراهيم .. وبين ابراهيم وموسى اربعمئة سنة ، كما قال أكثر من واحد ..

ذلك .. لأنها وديعة .. فطلب من موسى ردها .. فأبى .. وتنازعا .. ثم رضيا حكم أول قادم عليهما .. فأتاهما ملك يسمى فتحاكما اليه .. فقال لموسى ضعها على الأرض فمن حملها فهي له .. فوضعها .. وعالجها الشيخ .. فلم يطق حملها .. فأخذها موسى .

كما ذكر الكشاف ايضا عن الحسن : ما كانت الا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا .

غير اننا لا نستطيع ان ننكر ان تلك العصا معجزة .. فيها بعض الاسرار التى ذكرها الله تعالى - عنها .

وجاء في تفسير الكشاف والقرطبي وغيرهما .. ان موسى عليه السلام - أخذ العصا .. ولما أصبح .. دفع اليه شعيب غنمه .. وقال له : اذهب الى الوادى .. فاذا بلغت مفترق الطريق .. فلا تأخذ على يمينك .. فان الكلاوان كان بها أكثر .. الا أن فيها ثنيينا اخشاه عليك وعلى الغنم .. فأخذت الغنم ذات اليمين .. ولم يقدر على كفها .. فمشى على اثرها .. فاذا عشب وريف لم ير مثله .. فنام .. فاذا بالثنين قد أقبل .. فحاربتة العصا حتى قتلتها .. وعادت الى جنب موسى دامية .. فلما ابصرها دامة .. والثنين مقتولا .. ارتاح لذلك .. ولما رجع الى شعيب .. مس الغنم فوجدها ملأى البطون .. غزيرة اللبن فأخبره موسى .. ففرح .. وعلم ان لموسى والعصا شأننا ..

ولما قرب الأجل المتفق عليه بينهما .. قال الشيخ لموسى .. انى وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل ادرع (١) ودرعاء .. فأوحى اليه في المنام .. ان اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل .. ثم سقى .. فما أخطأت واحدة الا وضعت ادرع ودرعاء .. فوقى له بشرطه .

هذا عن العصا .. واما عن الشيخ .. فقد اختلف فيه المفسرون ، هل هو شعيب النبی ام هو شخص آخر ؟ .

وقد اورد الطبرى عدة روايات منها رواية مسندة الى ابن عباس .. ان الذى استأجر موسى « يثرى » صاحب مدين .. وفي رواية أخرى مسندة الى قرّة بن خالد قال : سمعت الحسن البصري يقول يقولون شعيب صاحب موسى .. وهو سيد أهل الماء يومئذ .

(١) الدرع : هى اللونة .

كنت موسى وافته بنت شعيب
غير ان ليس فيكما من فقير

وفي الكشف :

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم - اي
الأجلين قضى موسى ؟

فقال « أبعدهما وأبطأهما » .. وروى انه
قال « قضى أوفاهما .. وتزوج صفراهما » ..
وهذه الرواية غير الرواية السابقة .

فمسألة فرق الزمن هذه فيها نظر .. حيث
ان مدين بن ابراهيم هو الجد الثاني لشعيب
واسحاق بن ابراهيم هو الجد الرابع لموسى ..
كما بينا ذلك سابقا .. فلو علمنا ان مدين ولد
لابراهيم بعد اسحاق بزمان .. لا يمكن ان يكون
شعيب في شيخوخته قد عاصر موسى وهو ابن
الثلاثين .

وعلى اي حال .. فلا مانع من ان لكل هذا
الامر الى الله - سبحانه - كما وكله غيرنا من
أئمتنا السابقين .. وليس في ذلك اي ضرر .

ولكن المشهور والمعروف .. انه شعيب النبي
وقد انتشر ذلك : حتى ان أبى العلاء يقول في
مدح عظيم .. زفت اليه عروسه :

□ □ □

الفصل الثالث

« اذهبا الى فرعون انه طفى »

٤٣ / طه

صدق الله العظيم

الرسالة

١ في الوادى المقدس

ليضمها الى القطيع .. بينما سار هو رائدا
للقافلة بمن فيها وما فيها .. يسوق امامه
حمارا .. حمل عليه خيمته وجهازه ومتاعه ..
ومخلاته ومقلاعه .. وكساءه وطعامه وشرابه ..
اما زوجته صفورا .. فقد كانت في اواخر ايام
حملها .. لا تدري هل تضع مولودها اليوم او
غدا .. صباحا او مساء .. ليلا او نهارا .. ومع
هذا فهي تؤدي واجبها مع زوجها في رحلتهم تلك
.. فهي تسير تارة خلف القطيع .. وطورا عن
يمين او شمال .. حذبا منها على الغنم ..
وخشية عليها من سباع الصحراء .

ولقد كان موسى راهبا لتلك العودة .. خائفا
من مصيرها .. وما زالت ذكرى جريمته في مصر
تراوده بين الحين والحين .. فلذنب المؤمن كالجبل
فوق ظهره .. بعكس الفاسق الذى يتخيل
جريمته كدبابة هشها فطارت .

ولعل هذا الخاطر .. هو الذى دفع موسى
الى السير بعيدا عن المدائن الواقعة في الطريق
بين مدين ومصر .. وفضل ان يجتاز بادية
الشام من جنوبها . بعيدا عن المدن وسكانها
وحكامها .

وكان ذلك الطريق غير مالوف له . فاستعان
بالله ليهديه السبيل .. ويرشده الى الطريق ..
لا يهتدى الا بالنجم ليلا .. ليحدد اتجاهه الى
الغرب في صبيحة اليوم التالى .. وكان كلما
ادركه الليل .. انزل خيمته من فوق حمارة ..

كان طبيعيا ان يستأذن موسى حماه في
الرحيل بزوجته من مدين الى مصر .. فقد زاد
حنينه الى اخيه هارون وامه واهله .. وقد
فارقهم عشر سنين .. ولا يدرى ماذا فعلت بهم
الايام .

وكان انقضاء اوفى الاجلين .. في خدمة
الشيخ .. قد حرك في نفسه ذكريات ساكنة ..
واشعل في قواده حنينا كامنا .. فقد ترك اخاه
وامه واهله تحت سلطان جائر وملك ظالم ..
يذبح الابناء ويستحقى النساء .. ويسومهم
سوء العذاب .. وقد تكون جريمته التى ارتكبها
وفراره من فرعون واهله .. قد زادت الامر
سوءا .. وجعلت التنكيل بهم ادهى وامر .

وعزم في قرارة نفسه .. على اخراج اخيه
من مصر .. وبأى ثمن يكون .

ووافق الشيخ بعد ان وفى له بوعده ..
ومنحه كل ما انتجت غنمه في العام العاشر ..
مبرة من الشيخ بموسى .. ووفاء له .. وصلة
الى ابنته صفورا .. حسب وعده لها .

جاء موسى الى مدين .. ففيرا الى شسق
تمرة .. وخرج منها يسوق قطيعا كبيرا من
الغنم يملأ العين بهجة .. ويفعم القلب سرورا
وانشراحا .. وقد سار بجوار الغنم كلب مدرب
على رعيها .. والجري خلف الشاردة منها ..

المعجم في طرف الفتيل فبللته بالماء .. ومتى
ابنل هذا الجزء .. فلا حيلة مطلقا فيه لاستقبال
الشراره من الزبده السفلية .. الا بعد جفافه .

وغلّب موسى على امره .. وسقط في يده ..
فماذا يصنع ؟ الطلق يزداد بزوجه الحاحا ..
والرجفة نهز كل مفاصلها .. فهي في اشد الحاجة
الى بصيص من النار .

واخذته الالم .. واحاط به الهم من كل جانب
.. وبينما هو في اضطرابه وحيرته .. وذهوله
وشرود فكره .. وكلما رآها في ظلمة الخيمة
تناوه وترتجف ازداد حيرة واضطرابا .. اذ
راى على البعد نارا مشتعلة .. كانت له
امل النجاة في تلك المتهات المترامية ..
وبصيص النور في هذه الظلمات المترابكة ..
فقال لزوجته فرحا مسرورا .. لقد لاح الفرج
ياصفورا .. هاهى نار لاحت لى على البعد في
جنب الوادي .. وسأسرع اليها لانيك بقيس
تصطلين به من شدة البرد وقشعريرة الوضع ..
ونسستعين به على انضاج الغذاء .. او تسخين
الماء .

**وهل يوجد في الصحراء متاع الزم وافضل
من النار ..** حقا « نحن جعلناها تذكرة ومتاعا
للمقوين » والمقوين هم القوم الذين صاروا بارض
قفر لا انيس فيها .

« وهل اتاك حديث موسى : اذ رأى نارافقال
لا اله الاكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها
بقيس او اجد على النار هدى » (٩ - ١٠ طه)
فوجود النار دليل على وجود قوم اشعلوها ..
فاهتدى بنسائهم في مساعدتك على الوضع ..
واشترشد برجالهم في معرفة الطريق .. فقد
مرت بنا امام لم نر فيها بشرا ..

وانطلق موسى يجرى نحو الامل الذى لاح له
.. كما يلوح السراب الخادع امام نظر التائه
الصادى .. الذى أشرف على الموت من شدة
الظما في قبظ الصحراء .. ولهيب البداء .

وساعده زوجته في رفع قوائمه .. ودق
اونادها .. وقضوا ليلتهم داخلها .. حيث
ترقد الغنم حولها .. حتى اذا بدا الحيط الابيض
يلوح في الأفق الشرقى .. استأنفت القافلة
رحلتها .. في رعاية الله .. وتحت رحمته .

**والجاء الطريق الذى سلكه الى جانب الطور
الأيمن ..** وبدأ قرص الشمس ينحدر مسرعا
ليغوص في افاق الصحراء المترامية .. وفي نفس
الوقت هبت نسمة .. بدات خفيفة .. ثم اخذت
تشتد شيئا فشيئا .

فاختار مكانا قريبا تحتضنه تبة لا تكاد
ترتفع عن الأرض الا بضع امتار ! .. وأخذ يقيم
خيمته في هذا المكان .. الا انه لاحظ بعض فتور
في نفسه شيئا غامضا .. لا يدري ما هو .
جهدا لا يكاد يخفى ما تعانيه من الالم .. فأحس
في زوجته شيئا غامضا .. لا يدري ما هو .

وجاء في تفسير البيضاوى .. انها كانت ليلة
جمعة .

وانتشرت الاغنام حول الخيمة لتنام .. بعد
ان عقل الحمار في أحد اونادها .. وبدأ في تناول
طعامه .. بعد ان غابت الشمس في الأفق تحت
سطح الرمال .. وظهرت جحافل الليل تطلب
النهار حثيثا حثيثا .. وهو يفر منها مستقرا
بالافق الغربى .. ومازالت الرياح تشتد قليلا
قليلا .. فتجمعت بسببها بعض السحب الداكنة
في السماء .. واشتدت الظلمة في الخيمة وما
حولها .. واذا به يجد زوجته .. وقد تكومت
تحت غطائها .. وارنعشبت كل مفاصل جسدها
.. وخرجت من صدرها اول انة من اناب
الطلق ..

انها اذن وشيكة ان تضع مولودها ..
واخذته شىء من الاضطراب في اول الامر .. فكان
اول همه ان يشعل نارا يستضيء شعاعها ..
وتستدفئ الولود بلهبها .. واخرج زنده من
جرابه .. وقبل ان يقدح الزندين لاشعال الفتيل
.. سقطت اول قطرة من السحاب فوق الجزء

وكانت ليلة ليلاء لم ير موسى في حياته -
المليئة بالكفاح والصراع - ليلة أشد منها واقسى
.. فقد تكتلت الطبيعة ضده بكل جنودها وعنادها
.. ليل عابس .. وظلام دامس .. واشباح
مائلة .. وأمطار هائلة .. تزعجه أصوات
مزمجرة : عواء الذئاب .. وزئير السباع ..
وأزيز الرعد .. وصفير الرياح .. ووقع
الصواعق .

وكلما ازداد جريا .. ازدادت صفعات الرياح
تلهب وجهه بقذائف من الماء البارد .. وتكاد
تصم أذنيه بصفيرها الحاد المزعج الرهيب وقطع
على هذا الحال مسافة ليست بقصيرة .. ولكنه
لم يجد للنار قربا ولا بعدا .. فمازالت المسافة
بينه وبينها - بمقياس نظر البدوى - على
ما كانت عليه من وقت قيامه من خيمته ..
وكانها تجري أمامه .. لتحفظ - بالمسافة فلا
تنقص ولا تزيد .

فأخذه العجب الممزوج بشدة الخوف والرغبة
.. وبدأ اليأس يدب الى قلبه .. ليرجع ولو
بغير خفى حنين .. فقد صار بين همين .. هم
الزوجة التى بعد عنها .. وأمله الذى خاب .

والفرج يكون قريباً اذا بلغ الكرب منتهاه ..
واليسر دائما ملازم للعسر .. وما دامت تلك
الليلة في حياة موسى - عليه السلام - هى أسعد
لبالبه في نهايتها .. لزم ان تكون كذلك اسود
واقسى لياليه في بدايتها .

واقتربت منه النار رويدا رويدا .. حتى
صار في رحابها .. فعادت اشراقة الأمل الى
نفسه .. فاقرب منها .. ولكنها بعدت .. وهم
بالعودة خوفا ورهبة .. فدنت .. حتى صارت
على بعد أمتار قليلة منه .. فرأى امرأ عجبا ..
وحالا مستغربا .. رأى شجرة عوسج خضراء ،
أشد ما تكون اخضرارا من أسفلها الى أعلاها ..
تشع منها نار بيضاء .. تتقد بغير لهب ولا دخان
.. فلم يجد فيها جدوة ولا قبسا .. ولا جمرة
ولاشهانا .. فماذا يأخذ منها .. ليعود الى
أهله .. فمد عصاه .. عسى أن يشتعل طرفها
ليعود به مشتملا .. ولكن النار تهجم عليه فيعود
خائفا مدعورا .. فتحطمت أعصابه .. وانهارت
قواه .

فاذا بصوت من الشجرة يناديه :
ياموسى .. فأنس به .



٢. موسى الحكيم

.. فالقرآن الكريم حمال معان لا عد لها ولا
حصر .. ولا يمكن حياله كمال التأويل .. أو
تمام التفسير .. ويتضح هذا من قوله تعالى
« هل ينظرون الا تأويله .. يوم يأتي تأويله يقول
الذين نسوه من قبل .. الخ » الآية وهذا اليوم
طبعاً هو يوم القيامة .. وانما هي تأولات ..
كل على حسب اجتهاده .. وعلى مقدار قدرته
على الغوص في اعماق المعاني .. لمن شاء تدبرها
.. كما قال تعالى « كتاب انزلناه اليك مبارك
ليدبروا آياته » (٢٩ ص) .

وفي الخبر عنه - عليه الصلاة والسلام -
« ان للقرآن معنى ظاهراً .. ومعنى باطناً ..
وحداً .. ومطلقاً » فظاهره اسماء وكلمات
وسور .. وباطنه معان واسرار .. وحده تفصيل
واحكام .. ومطلعه شهود وكشف .

وفد فرات لبعض الادباء .. ولعله على ما
اذكر .. الدكتور عبد الله دراز .. في وصف
الفاظ القرآن الكريم ... يقول : انها اشبه
بقص من الماس .. يعطيك كل ضلع منه شعاعاً
.. فاذا نظرت الى اضلاعه كلها .. بهرتك بالوان
الطيبف كلها .. فلا تدري ماذا تأخذ عينك ..
وماذا يدع .

وفد روى ان رجلاً من نجد .. سال رسول
الله - صلى الله عليه وسلم : لماذا امر الله تعالى
موسى ان يخلع نعليه ؟ .. وكان في المجلس
على - رضى الله عنه - فقال عليه السلام : لانهما
كانتا من جلد حمار ميت .. ومن المعلوم
بداهة .. أنه لا يوجد نعلان من جلد حمار حي ..

« فلما أتاها نودى يا موسى . انى انا ربك
فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى . وانا
خترتك فاستمع لما يوحى » (١١ - ١٣ طه) .

جاء في الطبري : لما دنا من النار ..
استأخرت عنه .. فلما رأى استخارها ..
رجع عنها .. وأوجس في نفسه خيفة .. فلما
أراد الرجعة .. دنت منه .. ثم كلم من الشجرة
.. فاستأنس .

وجاء في الكشف للزمخشري : روى انه لما
نودى ياموسى .. قال : من المتكلم ؟ .. فقال :
الله - عز وجل - انا ربك .. وان ابليس وسوس
اليه .. فقال له : لعلك تسمع كلام شيطان ..
فقال : انا عرفت انه كلام الله .. بانى اسمعه من
جميع جهاتى الست .. واسمعه بجميع
اعضائى (١) .

وقد اصر بعض المفسرين .. على ان نعل
موسى .. كانتا من جلد حمار ميت .. ولست
أدرى لهذا معنى .. فهو الان في الوادي المقدس
.. فاذا خلع نعليه .. فابن يضعهما ؟ .. والمكان
كله واد مقدس .. فهل يخرجهما من الوادي ..
ثم يعود ؟ .. ولم يثبت هذا .

كما أتى بعضهم بتعليلات مختلفة .. منها :
لبياشر الوادي المقدس بقدميه .. تبركا به ..
وقيل لان الحفوة تواضع لله وقيل ان السلف
طافوا بالكعبة حافين .. ومنهم من استعظم
دخول المسجد نعليه .. وكان اذا نذر منه
الدخول منتعلاً .. تصدق عن ذلك .

ونحن لا ننكر على هؤلاء آراءهم عن نعل
موسى - عليه السلام - وقد تكون كلها صائبة

(١) الفرطى ٣٠ / القصص .. والكشاف ١٢ / طه .

الامر الذى ابتسم من اجله وجه على - كرم الله وجهه - وكانت نظرته الى الرسول - عليه الصلاة والسلام - تحمل معنى الاستفهام .. فرد عليه « يا على امرت أن اخاطب الناس على قدر عقولهم » .

وهذا ولا شك حديث عظيم .. يحمل الكثير من المعاني الطوية « وفوق كل ذى علم عليم » .

ويذكرنى هذا المقام بموقف مشابه لرسول الله - محمد - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول فى حديثه عن المعراج « لما دنوت من بساط ربه .. هممت أن أخلع نعلى .. فنوديت .. يا محمد : لم نعليك تخلع ؟ .. قلت يارب خشيت مرارة الطرد وألم الرد .. أن يقال لى كما قيل لأخى موسى من قبل .. فنوديت : يا محمد اذا كان موسى أحب .. فانت المحبوب .. واذا كان كان الطالب .. فانت المطلوب .. وهذا هو المعنى الظاهرى للفتلين .

اما المعنى الذى يشير اليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى قوله لعلى ابن أبى طالب - رضى الله عنه - « يا على انما امرت أن اخاطب الناس على قدر عقولهم » فهو معنى اشد عمقا .. وأعلى مقاما .. من نعلى القدم .. فما هى الا متعلقات الأفكار والهموم فى الاهل والمال .. ليفرغ ذهنه .. ويحدد فكره .. لما سيتلقاه من عبء ثقیل تنوء بحمله الجبال .. وهو حمل الرسالة وتبليغها .

بدأ الله تعالى كلامه مع موسى .. وهو منهار الاعصاب .. خائف القوى .. بسبب ما لاقى وما قاس من أهوال حتى بلغ الشجرة .. بقوله له « انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالسوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى . ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » (١٢ - ١٦ طه) .

نزلت عليه هذه العبارات كالصواعق .. من حيث لا يدرى .. فلا جهة تصدر منها .. وانما هى تأنيه من جميع الجهات .. ولا يتلقاها عن طريق الاذن .. وانما يسمعها بكل جوارحه وأعضائه .. ويعيها بأحاسيسه ووجدانه .

بدامعه بالتوحيد المجرد المطلق .. فلا معبود سواه .. ولا ممد غيره .. « اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى » وثنى بالعبادة التى هى كمال العمل الدال على مظاهر التوحيد « واقم الصلاة لذكرى » ثم بين سبحانه - فناء تلك الحياة .. وقيام الساعة للجزاء ثوابا وعقابا .. « ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » .. ثم حذرته من اتباع الهوى المردى .. المضل عن سواء السبيل .. « فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » .

فجاءته تلك الصواعق قوية .. ذات اثر عميق فى نفسه .. يتغلغل الى سويداء فؤاده .. بينما هو من قبلها .. كان منهار الاعصاب .. خائف القوى .. فلم تزداد اعصابه الا انهيارا .. وقواه خوارا ..

فأراد - سبحانه - أن يخفف عليه هذا الامر .. بمبادلته التخاطب والكلام .. وفى هذا تطمين للنفس وتسكين للفؤاد .. فقال له « وما تلك بيمينك يا موسى » (١٧ طه) .

وكانه عليه السلام - يحس أنه خارج من قرار سحيق .. ليرد على ربه : « قال هى عصا اتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » (١٨ طه) ولعله يقصد بالمآرب الأخرى .. غير التوكؤ عليها . والهش بها على الغنم .. أنها كانت ذات شعبتين ومحجن .. فاذا طال الفصن جناها بالمحجن .. واذا طلب كسره لواه بالشعبتين .. واذا سار القاها على عاتقه .. فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها .. واذا كان فى البرية دافع بها الوحوش عن غنمه .

وقد ذكرت بعض كتب التفسير مبالغات كثيرة عن العصا ، تعرضنا لها فى فصل سابق (١)

فقال له - تبارك وتعالى - « ألقها يا موسى » على الارض « فآلقاها فاذا هى حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » (١٩ - ٢١ طه) .

ويظهر جليا ان موسى دب في قلبه الخوف والرعب .. عندما وجد عصاه قد انقلبت ثعبانا ضخما .. واتجه اليه فاغرا فاه يريد ابتلاعه .. حتى انت يا عصاى .. تحاربينى في تلك الليلة الليلية ؟ .. اما يكفينى ما اصابنى من بلاء وعناء وشقاء ؟ .. فلم يجد غير الهروب سبيلا .. فاطلق لرجليه العنان فرارا .. لا يلوى على شيء .

يقول ابن عباس - رضى الله عنه - انقلبت ثعبانا ذكرا .. يبتلع الصخور والشجر .. فلما رآه يبتلع كل شيء ... خاف ونفر .

ويبدو هذا المنظر اشد وضوحا في آية القصص .. عن هذا الموقف : في قوله تعالى « وان القى عصاك .. فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، ياموسى اقبل ولا تخف انك من الامنين » (٣١ القصص) .

وبنفس الوضوح في آية النمل « والقى عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، ياموسى لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون ، الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم » (١٠ - ١١ النمل) .

وكان الله - سبحانه - في قوله له « الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء .. يذكره بجريمة اقترفها من عشر سنين مضت .. حيث قبل المصرى بوكرة وقال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى » .

ولقد تحقق موسى الآن فقط .. ان الله قد غفر له هذا الذنب .. لما قال - جل شأنه - « ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم » وكان هذا كافيا لذهاب الخوف من قلبه .. فعاد حيث كان .

وروى انه كلما دنا او بعد .. لم يختلف ما كان يسمع من الصوت .

فقال : يا رب كيف آخذ عصاى .. وقد صارت ثعبانا شرسا .. ووحشا كاسرا ؟ .. ولكن الله - عز ثناؤه - يريد ان يقوى في قلبه اليقين .. فقال له خذها .. ولن تعود عصا كما كانت الا اذا وضعت يدك بين فكي الثعبان . ويقول ابو جعفر الطبرى : لما القى العصا ، صارت شعبتها فمها .. وصار محجبتها عرفا لها في ظهرها .. تهتز ولها انياب .. فهى كما شاء الله ان تكون .

وعندما قال الله له خذها ولا تخف .. وعلى موسى جبة من صوف فلف يده بكمه .. وهو لها هائب .. فتودى ان الق كملك عن يدك .. ارايت ان اراد الله ان يصيبك بما تحاذر اينفك لك يدك ؟ .. قال لا .. ولكنى ضعيف خلقت من ضعف .. (١) فالتقاها عنها .

ثم ادخل يده بين لحبيها .. فلما ادخلها قبض عليها .. فاذا هى عصاه في يده .

ثم قال الله له « واضمم يدك الى جناحك » اى الى جنبك تحت العصد « تخرج بيضاء من غير سوء آية اخرى . لنريك من آياتنا الكبرى » (٢٢ - ٢٣ طه) .

ويروى انه كان آدم اللون .. فأخرج يده من مدرعته بيضاء .. لها اشعاع فسفورى .. اشد من ومضات البرق في الظلمات .. يخطف البصر .. (من غير سوء) اى يغير برص .. ثم ردها فعادت الى طبيعتها الاولى . وأعجبنى هنا تعليق لطيف .. للاستاذ محمود بن عمر الزمخشري - صاحب تفسير الكشاف .. يقول : وتلك كنايةات القرآن وآدابه .. لان العرب تنفر من اسم البرص لشدة بفضه .. فقال « من غير سوء » .

وفي هذا الموقف من سورة القصص « اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب » (٣٢ القصص) .

والرهب هو الخوف .. ويحكى عن عمر ابن عبد العزيز - رحمه الله - ان كاتبه كان يكتب بين يديه .. فانفلتت منه فلتة ربح .. فحجل وانكسر .. فقام وضرب بقلمه الارض .. فقال له عمر : خذ قلمك .. واضمم اليك جناحك .. وليفرخ روعك .. فانى ما سمعتها من أحد اكثر مما سمعتها من نفسى .. ولهذا يقول ابن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى - عليه السلام - ثم يدخل يده فيضمها على صدره الا ذهب عنه الرعب .

ثم كلفه الله - تعالى - بالامر « اذهب الى فرعون انه طغى » (٢٤ طه) .

كلف موسى - عليه السلام - بالذهاب الى الطاغى .. فعرف انه كلف امرا عظيما .. وخطبا جسيما .. يحتاج معه الى احتمال مالا يحتمله الا ذو جاش رابط .. وقلب كبير .

٣ طلبات وموافقة

انت يارب مثل هذه الأمور .. وتيسر وسائل الحياة ومشاكلها .. وامالها والامها .. واحوالها واوحالها .. فانت بكل هذا كفيل .. وعلى كل شيء وكيل .

والمطلب الثالث : « واحلل عقدة من لساني

يفقهوا قولي » (٢٧ - ٢٨ طه) .

ولنا وقفة قصيرة امام هذا المطلب .. فبعض المفسرين اتجهوا الى عقدة كانت في لسانه بسبب حادث ذكرناه من قبل .. حين كان وليدا يربى في منزل فرعون .. نتجت عن جمرة وضعها في فمه .. فأحرقت طرف لسانه .. وقد وقفوا بهذا المعنى عند المعاني السطحية .. بدون تعمق او امعان نظر .. وقلنا انها لو كانت عقدة بالمعنى الذي يقصدون .. وانها عقدة معروفة .. لكان التعبير بالتعريف .. وتكون العبارة . واحلل العقدة من لساني .. وبما ان التعبير هنا بالتذكير .. بدون الالف واللام .. كان المقصود عقدة غير معروفة بالتعريف المادي .. فما المقصود اذا بتلك العقدة ؟ .

وخير ما اطمأن له القلب بعض الاطمئنان .. مما ذكره المفسرون حول هذه العقدة .. ما اورده الاستاذ عبد الوهاب النجار .. صاحب « قصص الانبياء » تعليقا على قول موسى - عليه السلام - « واخى هارون هو افصح مني لسانا » وقوله مرة اخرى « واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » .

قال : لهذا سببان : الاول تاخر رضاعته

بعد الفائه في اليم .. ومكث مدة في بيت فرعون بغير رضاع .. ومعروف ان تاخر الرضاعة .. تورث حبسة في اللسان .. وقد رانا ذلك في حياتنا العامة . والسبب الثاني الذي اورده

قال موسى - عليه السلام - في نفسه .. او هي كانت خواطر ومضت بذهنه كما يومض البرق الخاطف لحظة ثم ينوب :

ما هذا الذي يجرى ؟ - . خرجت من خيمتي تاركا زوجتي في اشد حالات الكرب .. واقسى ظواهر الطبيعة .. لاتيها بقبس من نار تصطلي به .. ليبت في الحياة وليكون عوننا لها على ما هي فيه من آلام الطلق .. وآلام الوضع .. فأجد في انتظاري هذا الامر الخطير ؟ ..

فقال : ياوب .. مادام الامر كذلك .. ومادمت قد اخترتني لك كليما ورسولا .. فلي بعض طلبات .. ارجو ان تمن على بقبولها .. فقال له : سل يا موسى ، قال :

المطلب الاول : « رب اشرح لي صدري » (٢٥ طه) .

فانشراح الصدر للمؤمن .. يجعل قلبه كشفا .. ينير له سبيل الحياة .. يرى به اشياء لم يرها سواه .. وقيس به قلوب الناس كما يقيس « الترمومتر » درجات الحرارة .. ويقرأ به صفحات الواقع .. فيعرف الفث من التسمين .. ويميز الكذب من الصدق .. ويحس الباطل من الحق .. وفي الحديث « انقوا فراسة المؤمن .. فانه يرى بنور الله » .. والله - سبحانه يقول « ومن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام » ..

والمطلب الثاني : « ويسر لي امري »

(٢٦ طه) .

ولعله يقصد طلب التيسير في امور الدنيا مثل الامر الذي كنت قادما من اجله .. فتول

الاستاذ النجار ، هو ان طول العهد به في مدين
 .. وقد انساه الانطلاقة في لغة القبط .. ونحن
 نرى ذلك في ابنائنا الذين يسافرون الى اوربا
 خمس او سبع سنوات .. ثم يعودون وقد ثقلت
 سنتهم في اللغة العربية ١٠ هـ. ولدنا الدليل
 واضح في كتاب الله تعالى .. فلماذا نبحت عن
 ادلة من سواه ؟ .. فلو ان هذه العقدة في لسانه
 بسبب الحرق .. كما يزعمون .. وقد طلب من
 الله في تلك الليلة حلها .. والقرآن الكريم يقول
 ان الله استجاب له في طلباته .. بقوله تعالى
 « قال قد اوتيت سؤلك يا موسى » عقب تقديم
 الطلبات مباشرة .. ومعنى هذا ان العقدة تكون
 قد حلت .. فما قولهم في تعبير فرعون له بعد
 ذلك .. بعدم فصاحته بقوله لقومه « ام انا خير
 من هذا الذي هو مهين ، ولا يكاد يبين » اى انه
 ليس عنده بيان ولا فصاحة ؟ .

والان يتضح ان العقدة .. هي حبسة لسانه
 عن الانطلاقية في لغة القبط .. بسبب بعده عن
 التحدث بها عشر سنين .. ويتضح هذا المعنى

اكثر في قوله لمولاه « واخى هارون هو افصح
 منى لسانا » اى في لغة القبط .. فهو مازال
 مقيما معهم .. كما انه ليس بمعقول ان يمسك
 موسى - عليه السلام - وهو طفل - بقطعة من
 الجمر .. وتظل في يده حتى يضعها في فمه .

ومن اجل هذا .. كان المطلب الرابع
 « واجعل لى وزيرا من اهلى . هارون اخى .
 اشدد به ازرى . واشركه في امرى »
 : ٢٩ - ٣٢ طه) .

ثم اراد موسى ان يختتم طلباته تلك بخاتمة
 فيها شيء من التقرب والرجاء .. كما نختم
 نحن طلباتنا التى نقدمها الى المسئولين بوافر
 احترامنا .. وخالص تقديرنا .. فقال لربه
 « كى نسبحك كثيرا . ونذكرك كثيرا انك كنت
 بنا بصيرا » (٣٣ - ٣٥ طه) .

ويحصل موسى - عليه السلام - على موافقة
 صريحة من الله على كل طلباته . « قال قد
 اوتيت سؤلك يا موسى » (٣٦ طه) ..

□ □ □

٤ ذكريات

آتاه الله كل ما سال .. واستجاب له في مطالبه الأربعة ..

سنشرح لك صدرك فترى بنورنا .. ونيسر لك أمورك الدنيوية بتدبيرنا وتقديرنا .. وسنطلق لك لسانك .. لتستطيع أن تبلغ رسالتنا الى فرعون مصر .. وتضرب على يد الطاغى .. وتقيم عليه الحجج .. حتى لا يكون له عذر عند لقائنا .. وسنجعل اخاك هارون عوناً لك وعضداً .. يساعدك في حمل الامانة .. وتبليغ الرسالة .

وليست هذه أولى المرات التى مننا عليك فيها .. فلنا عندك ايام كثيرة .. وافضل جهه « لقد مننا عليك مرة أخرى » (٣٧ طه) .

فلوعدت ياموسى بذاكرتك قليلا .. لوجدت ان عيننا ترعاك .. وعنايتنا تحرسك وتصونك . هل نسيت « اذ اوحينا الى امك ما يوحى ان اقدفيه فى التابوت فاقدفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل ياخذة عدوا لى وعدو له والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ، » ؟ (٣٨-٣٩ طه) فخر موسى ساجداً شكراً لله .

والوحى الى امه عليه السلام - اما ان يكون على لسان نبي فى حينها مثل :

« واذا اوجبت الى الحواريين » واذا صح ذلك .. واغلب الظن انه الحق .. فلن يكون هذا النبى غير حزقيل - مؤمن آل فرعون - وقد روى انه هو الذى صنع التابوت الذىلقى بموسى فى النيل .. وهو الذى اخبر موسى بتأمر القوم لقتله .. بعد ان قتل المصرى .. كما ان سورة فى القرآن الكريم باسمه .. وهى سورة غافر « ويسمونها أيضاً سورة المؤمن »

لحزقيل فيها صولات وجولات .. ونفاس واقناع .. مع فرعون وقومه .. لا يفل عن نقاش موسى معهم .. واذا شئت ياخى .. فاقرأ .. ربعا كاملا او يزيد فى هذه السورة - بجرى كله على لسان حزقيل .. مؤمن آل فرعون .. من قوله تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) الى « وحاق بال فرعون سوء العذاب » (٢٨ - ٤٦ غافر) .

كما قد يكون الوحى اليها بالانسام .. او بالالهام مثل « واوحى ربك الى النحل » .

وهل نسيت ايضا يا موسى « اذ تمشى اختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى امك كى تقر عينها ولا تحزن » (٤٠ طه) .

فخر موسى ساجداً شكراً لله .

وهل نسيت ايضا ياموسى « وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا » (٤٠ طه) . فخر موسى ساجداً شكراً لله .

وقد سأل سعيد بن جبیر .. ابن عباس - رضى الله عنهما - عن معنى « وفتناك فتونا » فقال له خلصناك من محنة الى محنة .. ولد فى عام كان يقتل فيه الولدان .. فهذه فتنة با ابن جبیر .. والقتله امه فى البحر .. وهم فرعون بقتله .. وقتل قبطيا .. واجر نفسه عشر سنين وضل الطريق .. وتفرقت غنمه فى ليلة - مظلمة .. وكان ابن عباس يقول عند كل واحدة .. فهذه فتنة يا ابن جبیر .

والفتنة هى المحنة والابتلاء « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .

وهل نسيت ياموسى « ولبثت سنين فى اهل
مدين ثم جئت على قدر ياموسى . واصطنعتك
لنفسى » (٤٠ - ٤١ طه) .

فخر موسى ساجدا باكيا من خشية الله ..
الى ان قال له ربه - تبارك وتعالى . « اذهب
انت واخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى .. اذهبا
الى فرعون انه طغى .. فقولوا له قولنا لعله
يتذكر او يخشى » (٤٢ - ٤٤ طه) .

وروى ان الله اوحى بذلك الى هارون وهو
بمصر .

ونلاحظ هنا ان الله سبحانه - يطلب من
موسى وهارون .. ان يذهبا الى الطاغى منفتح
بن رعميس الثانى فرعون مصر .. وطلب منهما
ان يقولوا له قولنا لعله .. والمع تحت لفظ «لينا»
كثيرا من المعانى السامية .. والأهداف النبيلة
والمثالية التى لا حد لها فى الوفاء .. طلب منهما
اللطيف معه فى القول .. لما له من حق تربية
موسى .. ولما ثبت له من حق الابوة . وقيل فى
رواية اتى بها الزمخشري صاحب تفسير
الكشاف .. والشيرازى صاحب تفسير
البيضاوى .. ان الله - تعالى - طلب منهما ان
يكنياه .. وهو من ذوى الكنى الثلاث أبو
العباس ، وابو الوليد ، وابو مرة .

كما اجد امامى فى هذا المقام .. لفظة فى قوله
تعالى « لعله يتذكر او يخشى » وان الله يعلم
مسبقا انه لا يؤمن .. ولكنه - سبحانه - طلب
منهما القيام بتبليغ الرسالة على رجائهما
وطمعهما فى هداه .. وحدد لهما سبيل الاجتهاد
معه بكافة السبل ليلزمه حجته .. ويقطع
معدرته .. والتذكير يكون للموقن المتحقق ..
والخشية للمتخيل المتوهم .

ويقول البيضاوى : ان لم يتحقق تصديقكما

ولم يتذكر .. فلا اقل من ان يتوهمه فيخشى ؛
وتقشعت السحب فصفت السماء .. وسكنت
الرياح فخشع الكون .. وامتصت الرمال مياه
الامطار فاستوت الصحراء .. واشرق القمر
فاكسب الجوبهاء وجمالا وروعة وجلالا .. وسار
موسى عائدا الى خيمته .. وقد عاد انسانا
آخر .. جسمه على الأرض .. وقلبه برئوف
تحت ساق العرش .

والصحراء فى وقت السحر .. وفى هذا
الجو الخلاب .. لها حسننها وبهاؤها .. وعظمتها
وشموخها .. فهو هائم بين جمال الملك .. وجلال
الملوكوت .. الى ان وجد نفسه قريبا من الخيمة
.. فيصل الى انفه رائحة شواء .. ويلمس
على البعد حركة غير عادية .

وما ان دخل حتى راي منظرا غريبا ..
وامرا عجيبا .. فهذه زوجته وقد لبست
وازينت .. تبدو على وجهها البهجة والفرحة
.. وقد حملت وليدها على يديها .. وقد لف
بلفائف من الحرير .. ووجد عندها لحما حنيذا
.. وشرابا لذيذا ..

وتفجاه زوجه قائلة .. هل حضرت ياموسى؟
.. اين ذهبت السيدات اللاتى كن هنا حالا ؟ ..
ففهم ان الله تعالى .. قد يسر هذا الامر ..
فقال لها : لقد ارسلتهن اليك .. فلما رايننى
ذهبن .. هل ساعدتك ياصفورا ؟ .. قالت :
ماكنت اظن ياموسى .. ان فى البادية كل هذا
الجمال والركة .. والكرم والنجدة ..
ما احسست بأى ألم من لحظة دخولهن خيمتى
.. لقد قمن بكل شئ فى خفة الطير .. ورقة
النسيم .

وسمى ابنه « جرشوما » وهو اسم يؤدى
معنى الغربة .. فى اللغة العبرية .

الفصل الرابع

○ المودة

(قال لا تخافا اننى معكما اسمع وارى)

(٤٦ طه)

صدق الله العظيم

١] فرحة اللقاء

قولا لنا لعله يتذكر او يخشى . قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا او ان يطغى . قال لا تخافا اننى معكما اسمع وارى » (٤٣ - ٤٦ طه) .

كانت كل هذه العوامل .. تتجاوب في جوانح موسى طول الطريق .. من الوادى المقدس الى ان دخل مصر .

وتوجه مباشرة الى منزل اهله .. حيث وصله ليلا .. ونزل بجوارهم ضيفا .. ولم تعرفه امه .. حتى قدم اخوه هارون فعرفه . وتعانقا .

وتنقل الطبرى عن السدى : واقتل موسى الى اهله .. فسار بهم نحو مصر .. حتى اتاها ليلا فتضيف على امه .. وهى لاتعرفه .. فأتاهم فى ليلة كانوا ياكلون فيها الطفيل - اى المرق - فنزل فى جانب الدار .. وجاء هارون .. فلما ابصر ضيفه .. سأل عنه امه .. فأخبرته انه ضيف .. فدعاه .. فلما ان قعدا تحدثا .. فسأله هارون : من انت ؟ فقال انا موسى .. فقام كل منهما الى صاحبه فاعتنقه .

واخبر موسى اخاه هارون ان الله جعله وزيرا له .. ليذهبا الى فرعون .. فيطلب منه اطلاق سراح بنى اسرائيل .. ليمودوا الى بلادهم فلسطين .. فيعبدوا الله رب العالمين .

بحرك الركب من طور سيناء متجها الى مصر .. وقد زادت القافلة فردا هو - جرشوم ابن موسى عليه السلام - وكان سلوة امه .. بعد ان شرد عنها فكر زوجها .. هائما فى ملكوت السماوات والارض مع رب السماوات والارض .. رب العالمين :

فقد اصبح بعد ان صار كلم الله ورسوله الى فرعون وقومه .. دائم التفكير فى هذا الامر العظيم .. وذلك الخطب الجليل .. فهو فى طريقه الى لقاء ملك ظالم طاغ .. يقول لقومه « انا ربكم الاعلى » .. لا اله غيرى ولا رب سواى غلف الشيطان قلبه بغلاف سميك .. لا ينفذ فيه اى بصيص من نور الايمان .. ولا يخترقه شعاع من اشعة العقل والبصيرة .

وهذا حديث موسى مع ربه .. يوحى بما يعتمل فى نفسه من خواطر .. وما يضطرم فى وجدانه من توجسات .. « قال رب انى اخاف ان يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى ، فارسل الى هارون . ولهم على ذنب فأخاف ان يقتلوني . قال كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون » (١٢-١٥ الشعراء) .

كما ان الله سبحانه - يخاطبه ويخاطب فيه هارون معا .. لان هارون .. مكمل لموسى . عليهما السلام - فهو وزيره وساعده ، ومقوى ازره « اذهبا الى فرعون انه طغى . فقلوا له

وقيل ان الله اوحى الى هارون بهذا ..
في نفس الوقت الذى بعث فيه موسى .
وبدا الرسولان في القيام بما كلفا به ..
وتنفيذ امر الله .. بالذهاب الى فرعون ..
تبليغا للرسالة .. واداء للامانة .

ويقول بعض المفسرين ان امهما حاولت
منعهما .. خوفا عليهما من بطش فرعون ..
ولا يبعد ان يكون هذا صحيحا .. فهي وان
كانت قد اوحى اليها من قبل .. ان موسى
سيكون من المرسلين .. عندما اخبرها الله تعالى
« انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » ..
الا انها عاطفة الامومة الجارفة .. وحنانها الذى
ينسى الانسان كل شيء .

ووصل موسى وهارون الى منزل فرعون ..
وكانت ليلة الاثنين .. ووقفا بالباب .. وكلمهما

احد الحراس قائلا : اتدريان لمن هذا الباب ؟
.. فقال موسى - عليه السلام - هذا الباب
.. وصاحب الباب .. والارض كلها .. لله رب
العالمين .. فعجب الحارس من هذا الكلام ..
الذى لم يسمعه من قبل .. فقال : ماذا
تريدان ؟ .. قال موسى اخبر فرعون اننا رسولا
رب العالمين .. ونريد لقاءه لابلغه الرسالة
التي نحملها له .

فلم يجرؤ الحارس على تبليغ هذا الطلب .

وقال ابن اسحاق : ظل موسى واخوه يطلبان
مقابلة فرعون .. وهما يقولان نحن رسولا رب
العالمين .. ومكثا سنتين على هذا الحال ..
وفرعون لا يعلم بهما .. حتى اخبره مضحكه
بهما .. فقال له : ايها الملك .. ان على بابك
رجلين يقولان امرا عجبا .. يزعمان ان لهما الها
غيرك .. وانه ارسلهما اليك . فاذن فرعون لهما



٢ هذا خلق الله

من الكافرين « (١٨ - ١٩ الشعراء) . اى من الكافرين بالآلئنا . . الجاحدين لافضلنا . فرد عليه موسى « فعلتها اذا وانا من الضالين » اى قبل رسالتى « ففرت منكم لما خفتكم ، فوهب لى ربي حكما وجعلنى من المرسلين » (٢٠ - ٢١ الشعراء) .

وبيدا حوار حاد بين موسى - عليه السلام - وفرعون . . صورته لنا سورة طه . . عندما عرضت علينا قول فرعون لهما « قال فمن ربكما ياموسى » (٤٩ طه) « قال ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (٥٠ طه) .

وفى هذا التفسير . . ادق تصوير واحكمه واشمله . . لاستواء الكمال المطلق لله فى كل شىء . . لنفهم معنى « الرحمن على العرش استوى » فقد اعطى كل شىء خلقه وتكوينه وابداعه . . سواء كان انسانا أو حيوانا . . أو نباتا أو مائعا . . أو جامدا . . ولم يتركه سدى . . وانما جعل هذا الاعطاء مقترنا بالهداية المتصلة الدائمة . . ومعنى هذا كمال تجلى صفاته الذاتية - سبحانه - على جميع المخلوقات . . وهذا هو استواء الرحمن على عرش الممكنات .

قال موسى ههنا القول . . عسى ان يتذكر فرعون . . فيعلم انه خلق من خلق الله . . تجلى عليه بصفة البصر فأبصر . . وبصفة السمع فسمع . . وبصفة الكلام فتكلم . . وبصفة الارادة فأراد .

ولكنها مكابرة الكفر . . وعناد الكبر . . ووساوس الشك . . فقال لموسى « فما بال القرون الاولى » ؟ (٥١ طه) . . وكان فرعون

روى عمرو بن عبيد عن الحسن البصرى . . قال : فلما اذن فرعون لموسى وهارون دخلا عليه . . فلما وقفا عنده . . دعا موسى بدعاء هو :

لا اله الا الله الحليم الكبير . . لا اله الا الله العلى العظيم . . سبحان رب السماوات ورب الارضين وما فيهن وما بينهن ورب العرش العظيم . . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . . اللهم انى ادراكك فى نحره . . واعوذ بك من شره . . واستعين بك عليه . . فاكفنيه بما شئت .

قال فتحول ما فى قلب موسى من الخوف امنا . . وكذلك كل من دعا بهذا الدعاء وهو حائف امن الله خوفه . . ونفس به كربته .

قال فرعون لموسى : من انت ؟ . . قال : انا رسول رب العالمين . . ارسلنا اليك خالقا السماوات والارض . . لترسل معنا بنى اسرائيل ليعبدوه فى البرية . . كما كان يعبد آباؤهم من قبل . . فنحن لا نعبد الا الله . . ولا نتخذ الها سوا . . « فقولوا انا رسول رب العالمين . ان ارسل معنا بنى اسرائيل » (١٦ - ١٧ الشعراء) .

وتامله فرعون فعرفه . . فقال : الست انت موسى ؟ . . قال انا موسى وهذا اخى هارون . . قال اسببت باموسى فضلنا عليك . . وقد ربيناك فينا وليدا . . فكنت عندنا مكسرما معززا . . حتى قتلت خبازنا . . وفررت بجريمتهك النكراء . . وفعلتك الشنعاء . . ثم جئتنا بهذا القول الذى تدعبه ؟

« قال الم نريك فينا وليدا ولبثت فينا من عمره سنين . . وفعلت فعلتك التى فعلت وانت

فلقد فهم الكثير من الناس ((منها خلقناكم))
أى من هذه الأرض .. للأجر والثواب .. وهذا
صحيح .

« وفيها نعيدكم » .. أى الى الأرض ..
للدود والتراب .. وهذا غير صحيح .

فكيف تكون الاعادة بمعنى الموت والفناء ؟
مع ان الله - سبحانه - لم يقل واليها نعيدكم
.. بل قال « وفيها نعيدكم » بالظرفية ! ..
وهذا يدعونا الى معرفة معنى الاعادة فى
آيات اخرى من كتاب الله الكريم .. فلا شك
أن خير تفسير لانفاظه .. هو ما فسر به بعضه
بعضا .

فخذ مثلا « كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا
علينا انا كنا فاعلين » (١٠٤ الانبياء) أى كما
بدأنا أول خلق من لا شيء .. نعيده يوم البعث
من لا شيء .

وهو نفس المعنى فى قوله تعالى « وادعوه
مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون »
(٢٩ الاعراف) .

ويتضح هذا المعنى أكثر فى قوله - سبحانه
« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون
عليه » (٢٧ الروم) .

ويتضح أكثر وأكثر .. فى قوله « فسيقولون
من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة » (٥١
الاسراء) أى من الذى يستطيع اعادة خلقنا
للبعث الذى تتحدث عنه ؟ .. قل الذى خلقكم
أول مرة .

ليس المعنى واضحا فى أن الاعادة خلق
وليست فناء ؟

وان الله جل شأنه - يقول على لسان
المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث .. « يقولون
اننا لمردودون فى الحافرة ، انذا كنا عظاما نخرة ،
قالوا تلك اذا كرة خاسرة » (١٠ النازعات)
ارأيت معنى الرد فى الحسافة .. أى القبر
الأرضى .. اليسست هى الاعادة للروح بالجسم
الجديد ؟ .. فاذا ثبت فى أذهاننا أن معنى
الاعادة هو البعث بالأجسام الجديدة .. فما
معنى « ومنها نخرجكم تارة أخرى » اذا ؟

فنقول ان البعث الجديد بأجسام جديدة ..
لا نعلم عناصرها أو تكوينها الآن ، لأن الله يقول
« ولقد علمتم النشأة الأولى » فقط (٦٢
الواقعة) .. فلا علم لكم بالنشأة الأخرى ..
ويلمع نجم قرآنى آخر لينير لنا الطريق
« وننشئكم فيما لا تعلمون » (٦١ الواقعة)
ففى أجسام من عناصر أخرى غير عناصر الطين

يريد أن يثبت امام الملا المجتمع عنده .. وهم
أشراف القوم .. وكانوا خمسمائة رجل ..
عليهم الاساور .. وكانت للملوك خاصة .. أراد
فرعون أن يختبر موسى امامهم عن مدى علمه
بالأجيال السابقة .. ولكن موسى احوال الرد على
الله - سبحانه - فقال : « علمها عند ربى فى
كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » (٥٢ طه) ..
الذى خلق لنا الأرض .. وجعلها لنا مهدا و فراشا
.. وشق فيها الطرق « الذى جعل لكم الأرض
مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء
ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا
وأرعوا انعامكم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى »
(٥٣ - ٥٤ طه) . ويقول عليه الصلاة والسلام
« تمسحوا بالأرض فانها بكم برة » .

**والح لفته جميلة فى قول موسى - عليه
السلام - « فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى »**
وأزواج النبات .. عبارة شاملة لكل شئ حتى
« وجعلنا من الماء كل شئ حى » والانسان
نفسه نبات « والله انبتكم من الأرض نباتا » .

وقد خلق الله كل شئ أزواجا من ذكر وانثى
.. حتى الكليات .. فالأرض أنثى والماء ذكرها
.. صور الله لنا هذا المعنى فى قوله تعالى :
« وترى الأرض هامدة » وهى الأنثى فاذا أنزلنا
عليها الماء .. « وهو الذكر » اهتزت وربت « أى
حملت » « وأنبتت من كل زوج بهيج » . وينطبق
هذا المعنى ايضا على الليل والنهار .. فالليل
أنثى والنهار ذكره .. والله - سبحانه - هو
الذى « ينفث الليل النهار يطلبه حثيثا » كما
ينفث الذكر أنثاه .. وفى هذا المعنى يقول
الشاعر :

والليالى من الزمان حبالى

مثقلات تلدن كل عجيبة

فسبحانه لا فرد سواه ولا واحد الاه

ولعل هذا هو الذى جعل موسى يذكر فرعون
وملاه .. بأنهم أزواج من نبات الأرض .. فقال
« منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم
تارة أخرى » (٥٥ طه) .

ولنا وقفة قصيرة . حول تلك الآية ، ففد
نرى فيها معنى جديدا .. غير المعنى المعروف
عنها .

بنوء بثقلها كوكب الطين .. فتضطرب الأرض ..
ويختل توازنها .. وتلقى من عليها الى الأرض
الجديدة .. « يوم ترجف الراجفة . تتبعها
الرادفة » (٦ النازعات) .

والرادفة : امر عظيم يعقب الراجفة ..
حيث تدفع الأرض الناس الى الساهرة ..
وسمها القرآن الكريم زجرة يخرج بها الناس
اخراجا « فلنما هي زجرة واحدة فاذا هم
بالساهرة » (١٣ النازعات) والساهرة اسم
الأرض الجديدة التى لم يعص الله عليها قط .

ويكون المعنى الجديد الذى وصلنا اليه لتلك
الآية الكريمة :

« منها خلقناكم » من الأرض « وفيها نعبدكم »
بالبعث « ومنها نخرجكم تارة أخرى » بالزجرة
الواحدة او بالرادفة الى الأرض الجديدة ..
للنعيم أو العذاب .

واذا نظرنا الى خلق الانسان .. من خلال
كلام الله - سبحانه - فى سورة يس « سبحان
الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض « هذه
واحدة » ومن أنفسهم « وهذه الثانية ..
« ومما لا يعلمون » وهذه الثالثة .. فهذا الذى
لا يعلمه أحد .. هو السر العاوى الخالد ..
الذى تتبدل الاجسام .. ثابت ثبونا ذاتيا ..
وتساقا جذريا .

وقد زعم الضالون .. بان الله تعالى .. اذا
شاء أعادة الناس .. أعادهم من أعجاب أذنانهم
.. وهو رأى مافون آفك .. لوضوح غنى الله
تعالى .. ولقوله « كما بدأنا أول خلق نعبده »
فهل بدا الناس من أعجاب أذنان ؟ .

وقد دفعهم افكهم وضلالهم الى افتراء
حديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم
وهو منه براء .. نصه « كل ابن آدم يفنى الا
عجب الذنب » وقد نسوا قوله تعالى « كل شيء
هالك الا وجهه » ..

ومن أجل هذا .. كان رد موسى - عليه
السلام - على فرعون .. عندما قال له : « وما
رب العالمين » ؟ فقال موسى « رب السماوات
والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين » (٢٤
الشعراء) .

ويتجه فرعون بنظره الى أشراف قومه ..
وقد دعاهم لحضور مقابلته لموسى .. فقال لهم

« قال لمن حوله الا تسمعون » (٢٥ الشعراء)
واستمر هجوم موسى « قال ربكم ورب آبائكم
الأولين » (٢٦ الشعراء) . فانتقل بهم موسى
من النعم في عرض السماوات والأرض .. الى
الخصص في أنفسهم .. وفي آباءهم من قبل ..
اى من قبل ان يوجد فرعون هذا .. مما جعل
فرعون يفقد أعصابه .. فيقول « ان رسولكم
الذى ارسل اليكم لمجنون » (٢٧ الشعراء) .

ويظل موسى مهاجما .. فينقل بهم الى
اثبات قدره القادر .. وعلم العليم .. وحكمة
الحكيم .. فى استقامة الحياة وسيرها على
طريقة دقيقة محكمة .. فى عاقب الليل والنهار
.. فقال « رب المشرق والمغرب ان كنتم تعقلون »
(٢٨ الشعراء) فهل عندكم انتم عقول تعقلون
بها .. حتى تنهموننى بالجنون ! ..

وتلك الحجة هي التى استعملها ابراهيم -
عليه السلام - فى القام المروذ الحجر الذى
الجمه .. بقوله للنمرود « قال ابراهيم فان الله
يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب »
وجعل القرآن الكريم يعبر عنه بقوله « فبهت
الذى كفر » وكذلك بهت فرعون .. وفرغت
الذى كفر » وكذلك بهت فرعون .. وفرغت

واذا عجز الطاغى عن مبادلة الحجة بالحجة
.. والمنطق بالمنطق .. استعمل جبروته ..
واستغل طاغوته .. فاتخذ الهدد سبيلا ..
وقال « لئن اتخذت ألها غرى لأجعلنك من
المسجونين » (٢٩ الشعراء) .

وكان موسى يعلم ان السجين عند فرعون ..
يلقى فى جب شديد العمق فى باطن الأرض ..
وحبدا .. لا يسمع فيه ولا يبصر .. وهذا
امر أشد على النفس من القتل .. فقال له
« أولو جئتك بتىء مبین » (٣٠ الشعراء) اى
بمعجزة تثبت صدقى .. وتؤكد بها انى رسول
من الله اليك .. فقال « فأت به ان كنت من
الصادقين » (٣١ الشعراء) .

« فالتقى موسى عصاه فاذا هي نعبان مبین »
(٣٢ الشعراء) .

ولعل كلمه مبین نبين انها كانت نعبان حفيفيا
.. لا نوهما ولا خيالا .. كما يفعل السحرة
والمشعوذون .

فاخذه موسى فعاد عصا .. كما قال القرطبي
مثل ذلك في آية الأعراف .

ونحن نقبل تلك الرواية بكثير من التحفظ
.. فلا شك أن بها بعض المبالغات في عدد القتلى
.. لأنه لم يكن موقف مبارزة .. حتى يتجمع
عدد من الناس يقتل منه خمس وعشرون الفا
.. كما أن سعة فمه فوق التصور الممكن ..

ولما هدا فرعون من هول الثعبان وضخامته
.. قال لموسى - عليه السلام - فهل معك غيرها؟
.. فمد له يده .. فقال : ماذا فيها ؟ فادخل
يده تحت ابطه .. ثم نزعها .. ولها شعاع
فسمورى يكاد يفتى الأبصار .. ويسد الأفق
.. وكانت اشد وقعا على عين فرعون من وقع
العصى .. ينفذ شعاعها الى أعماق عينيه وهى
مغمضة .. فصرخ خشية العمى .. فرد موسى
يده .. فعادت كما كانت .

« فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبین . ونزع
يده فاذا هى بيضاء للناظرين » (٣٢ - ٣٣
الشعراء) .

وقد روى الزمخشري صاحب تفسير
الكشاف أنها انقلبت حية .. ارتفعت في السماء
قدر ميل .. ثم انحطت مقبلة الى فرعون ..
فصرخ وقال لموسى أسالك بمن أرسلك الا اخذتها
.. فاخذها فعادت .

وقال الكشاف ايضا ، وقاله مثله عبد الله
ابن احمد النسفى - صاحب تفسير « مدارك
التنزيل » **والقاضى ناصر الشيرازى - صاحب**
تفسير البيضاوى ، فقالوا :

انقلبت العصا ثعبانا .. اشعر فاغرا فاه ..
بين لحييه ثمانون ذراعا .. وضع لحيه الأسفل
في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر .. ثم
لوجه الى فرعون ليأخذه .. فوثب فرعون من
سريره .. وهرب وأحدث .. ولم يكن أحدث
من قبل ذلك .. وهرب الناس وصاحوا ..
وحمل على الناس فانهزموا .. ومات منهم
خمس وعشرون الفا .. قتل بعضهم بعضا ..
ودخل فرعون البيت .. وصاح ياموسى خذه
وانا آو من بك .. وارسل معك بنى اسرائيل ..



٣ واهتز الصنم

متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » (٢٧ المؤمن) .
وكان من بين ملا فرعون . . خازنه - هز قيل -
وهو مؤمن من آل فرعون يكتنم إيمانه . فقال
« اتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم
بالبينات من ربكم ، وأن يك كاذبا فعليه كذبه ،
وأن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم أن
الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » (٢٨ المؤمن)

وقيل أن فرعون أصر على قتل موسى ، فما
كان من موسى إلا أن أخرج يده من تحت إبطه
فاغشى أبصارهم ، وأبصار الحراس في طريقه
حتى لا ذك كل منهم فرارا من شدة برقه ، وهو
يكاد يخطف الأبصار حتى خرج هو وأخوه من
القصر ، في رعاية من قال لهما « أنى معكما أسمع
وأرى » .

ويعود موسى وهارون إلى فرعون ثانية ،
يدعوانه إلى الله ، ويطلبان منه إطلاق سراح بني
إسرائيل . . ولكنه لم يردد الاعتوا واستكبارا
. . وعنادا وأصرارا . . ويقول الله عنه في سياق
هذه القصة . . وفي هذا المقام من سورة طه
« ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » (٥٦ طه) .

وقد حصر الله تلك الآيات التي أراها فرعون
في سورة الاسراء « ولقد آتينا موسى تسع آيات
بينات » (١٠١ الاسراء) .

أراها الله - جل شأنه - فرعون قبل هلاكه
. . فكذب بها واستكبر وأبى وطفى وتجبى .

وينفرد فرعون بأشراف قومه . . وزعماء
ملته . . يشاورهم في الأمر - ويظهر أنه قد نزلت
عنه دعوى الألوهية . . وحط عن منكبيه كبرياء
الربوبية . . وارتعدت فرائصه خوفا وفرقا .
وبلغت به الدلة والاستكانة أن يطلب من عباده
أن يأمره . . ماذا يصنع ؟ فجعل العبيد آمرين
ربهم مأمور .

« قال للملا حوله : أن هذا لساحر عليم ،
يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا
تأمرون » ؟ (٢٥ الشعراء) .

ويأتى هذا المشهد في سورة المؤمن (١) :

« وقال فرعون ذرونى اقتل موسى . . وليدع
ربه أنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في
الأرض الفساد » (٢٦ المؤمن) .

ولعل مغالطة فرعون مكشوفة في قوله :
أنه يخاف أن يفسد موسى في الأرض . . فذلك
حجج المكابرين . . يجعلون الباطل حقا . . والحق
باطلا .

ويذكرنى هذا بقوم لوط « فما كان جواب
قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم
أنهم أناس يتطهرون » (٥٦ النمل) .

أرايت كيف تكون الطهارة والنظافة عيبا
يستوجب الطرد والنفى ، ولكنه منطق المكابرة
والعناد والكفر .

« وقال موسى أنى عدت بربى وربكم من كل

(١) لهذه السورة اسمان . المؤمن وغافر .

ويمكن حصرها حسب ترتيبها الزمني فيما يأتي :

- ١ - أن تكون عصاه حية تسعى .
- ٢ - أن تكون يده اذا أخرجها من جيبه مشعة بسناء قهار للابصار الا لبصر موسى ولا الدين آمنوا .
- ٣ - الطوفان .
- ٤ - الجراد .
- ٥ - القمل .
- ٦ - الضفادع .
- ٧ - الدم .

٨ - أن يضرب بعصاه البحر فينفلق فيكون كل فرق كالطود العظيم مجمدا مأؤه .

٩ - أن يضرب بعصاه الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا .

وقد رأى فرعون الثمان آيات الأولى
وستتعرض لها في حينها أن شاء الله تعالى .

تلك الآيات سماها الله - سبحانه - بصائر .. في الآية التالية من سورة الاسراء بعد أن قال « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » - .. الخ الآيات .

قال على لسان موسى « لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السماوات والأرض بصائر . واني لأظنك يا فرعون متبورا » (١٠٢ الاسراء) .

وهذه الآيات البيانات .. هي البصائر التي
لو أمعن فرعون فيها النظر .. لدفع عن نفسه
شرا وخيما .. وعداها اليما .. ولكن غاشية

الكبر طمست على بصيرته .. ففاته الإدراك .. وضاعت منه فرصة الحكمة فهوى .. وكان مستبصرا عالما .. ولكنه غير حكيم .

قال فرعون : « اجئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى » (٥٧ طه) والله ما اراد موسى اخراج فرعون ولا ملئه من مصر .. كما يقول فرعون لهم « ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » وانما يطلب أن يخرج هو وبنو اسرائيل .. فهذا قلب للحقائق كما ذكرنا .

ثم أردف فرعون « فلنأتينك بسحر مثله ، فأجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا انت مكابا سوى » (٥٨ طه) .

وانتهزها موسى فرصة .. فحدد لهم ضحى يوم الزينة .. حيث يتجمع الناس من جهات مصر .. ومن جميع انحائها .

وقيل يوم عاشوراء .. او يوم النيروز .. يجتمعون فيه كل عام .. ويتزينون في أبهى حللهم وأفخر زينتهم « قال موعدكم يوم الزينة، وان يحشر الناس ضحى » (٥٩ طه) .

وقد حدد لهم موسى هذا اليوم بالذات .. ليظهر الحق .. ويزهق الباطل .. على رؤوس الأشهاد .. ويشيع ذلك في جميع الاقطار .

بدأ فرعون يجمع كبار السحرة من جميع الانحاء .. ويعددهم بأسمى الأجر ويمنيهم الآمانى العظام .. ان هم استطاعوا هزيمة موسى .. وأبطال عمله على مشهد من الناس .

٢ هامان بنى الصرح

السموات فأطلع الى اله موسى واني لأظنه كاذبا » . (٣٦ - ٣٧ المؤمن) .

ونفس المعنى في الموقع السادس بسورة

القصص « وقال فرعون يا ايها الملا ما علمت لكم من اله غيري ، فأوقد لن ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا ، لعلنى اطلع الى اله موسى ، واني لأظنه من الكاذبين » (٣٨ القصص) .

فهل هناك سفسه اكبر من هذا السفسه ..
وهل يوجد خبل اشد من ذلك الخبل ؟ .. لقد كشف فرعون نفسه .. انه يطلب من هامان ان يبنى له صرحا عاليا .. يصعد فوقه .. ليرى اله موسى في السماء .. والاغرب من هذا وأعجب .. ان هامان .. وافق فرعون على هذا الرأي .. وبدأ فعلا في بناء هذا الصرح ..

فقد قيل انه جمع من العمال خمسين ألفا .. سوى الاتباع والاجراء .. وامر بطبخ الاجر والحب ونجر الخشب وضرب المسامير .. فشيدوه حتى بلغ مالا يبلغه بنيان احد من الناس .

وروى صاحب تفسير الكشاف وغيره : ان فرعون ارتقى فوق هذا الصرح ورمى بسهم الى السماء .. واراد الله ان يفتنهم .. فرد النصل اليه مخضبا بالدم .. فقال : لقد قتلت اله موسى .. وعندها بعث الله جبريل عليه السلام .. عند غروب الشمس ف ضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع .. وقعت قطعة على عسكر فرعون .. فلم يبق احد من العمال الا وقد هلك .

وهامان هذا كان من وزراء الملك .. ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار - صاحب « قصص الانبياء » ..

كل وزير الصهارات .. وهي طبعا وزارة تعادل وزارة الاسكان عندنا الآن .. ويقول انه هامان بن همدانا الاجاجى ..

وعلى اى حال ، فقد كان هامان اقرب المقربين الى فرعون .. فهو محط سره .. وعلى درجته في الكفر .. وهذا يتضح من مثل قوله تعالى : « ان فرعون وهامان وجنودهما .. كانوا خاطئين » فجعلهما - سبحانه - متساويين في الخطا .

وقد ذكر هامان كمدو لله مع فرعون في ستة مواقع .. منها موقعان بسورة القصص .. احدهما في الآية السابقة .. والثاني في قوله جل شأنه يتوعدهما معا « ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » . والموقع الثالث في سورة العنكبوت .. ومعهما قارون في هذه المرة :

« وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات ، فاستكبروا في الارض وماكانوا سابقين » .

وفي سورة المؤمن .. عندما يقول - سبحانه - « ولقد ارسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان » . وهذا هو الموقع الرابع ، اما الموقع الخامس .. وفيه « وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلنى ابلغ الاسباب . اسباب

الخوف أشبه بالانعام المذلة .. والبهائم المسخرة .. تؤمر فتطيع .. وتستعبد فتعبد .

وقد ذكر القاضى الشيرازى - صاحب تفسير البيضاوى .. رأيا فى تفسير قوله تعالى « فاجعل لى صرحا » قال : أراد أن يبنى له رصدًا يترصد منه أوضاع الكواكب .. فىرى : هل فيها ما يدل على بعثة رسول .. وتبذل دولة ؟ ..

ولعل هذا اقرب الأفكار التى كانت تجول بذهن فرعون عند طلبه من هامان بناء الصرح . وخاصة أن آثار الفراعنة تثبت قدرتهم فى رصد الكواكب .. ومعرفة أسرارها .. وقد كان فرعون رجل علم ولكن بغير حكمة .. ولو كان حكيما لمارمى السماء بسهم .. عندما وجد نفسه فوق مرصده .. ولكنه تخبط الشيطان .. فمثله كمثله الذى يتخبطه الشيطان من المس .. فهو يتشبث بأى خيط يزينة له شيطانه .. . عليه يكون وسيلته إلى الاحتفاظ بالوحيته .. . والتمسك برؤوسه .. . ولكنه كان خيلا أو هى من خيط العنكبوت « وان أوهر البيوت ليت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

ولقد بعد بنا حديث الصرح على مدى سبع سنين .. وقد كنا فى أول بنائه .. حين أرسل فرعون الرسل لجمع زعماء السحرة .. وأقواهم قدرة على السحر من جميع أقاصى مصر .. وأقام لهم المعسكرات يتجمعون فيها .. ويتداولون فنونهم ومكرهم . وأفكارهم وكيدهم .. ووعدهم الوعود ومناهم الامانى .. حتى جعل لهم امتيازات خاصة .. فى المثل بين يديه .. فجعلهم أول الداخلين .. وآخر الخارجين .

حتى قبل يوم الزينة .

وقيل ان بناءه استغرق سبع سنين عملا متواصلا . وعن عمر رضى الله عنه .. أنه حين سافر الى الشام .. ورأى القصور المشيدة بالأجر .. فقال : ما علمت أن احدا بنى بالأجر غير فرعون .

لقد صور الخبل والجهل لفرعون انه من الممكن ان يصعد الى السماء .. على بناء يبنيه .. او صرح يشيده .. ليرى اله موسى وينازله .. ويرميه بسهم ليقتله ..

واذا كان هذا الخبل قد صور لفرعون هذا التصور .. فما موقف هامان من هذا الأمر ؟ .. وهل كان القوم فى درجة من الغباء والبله .. حتى تستسيغ عقولهم هذا الهراء الواضح .. وتقبل ذلك الجنون الصارخ ؟ أم ان فرعون تشبثا منه بالربوبية .. أراد ان يشبث لهم ان لديه من القدرة .. ما يجعله يحارب كل من يراحمه فى التاله والربوبية حتى ولو كان فى السماء ؟ .

لقد صدق الله عندما قال « فاستخف قومه فاطاعوه » استخف عقولهم وامتنع أحلامهم .. ولم يجرؤ أحد ان يقول له كما قال موسى - عليه السلام - له ..

وان بناء الصرح ليرى هل هناك اله ام لا .. يناقض ما يدعيه من العلم واليقين .. . ونلك بينة واضحة .. على افراط جهله وغبائه .. وجهل قومه وغبائهم .. . ولاشك أنه كان يسخر من عقولهم .. وقد وجدهم لا يكادون يفقهون قولا .. او يدركون عملا .. . ولا سبب لذلك غير خوفهم من سوطه وسيفه .. فجعلهم هذا

□ □ □

٥ سحر ومعجزة

فسالوهم : اين كنتم من ساعتين ؟ .. قالوا : كنا بمكان كذا .. قالوا الم تروا ظاهرة غريبة في السماء هناك ؟ قالوا نعم - واللات - لقد راينا امرا عجا .. راينا القمر وقد شق نصفين .. نصف ذهب الى الشرق .. ونصف ذهب الى الغرب .. فقالوا : سحر مستمر .

ولهذا نزل قوله تعالى « اقتربت الساعة وانشق القمر .. وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » ..

وقد ورد في تلك المعجزة احاديث كثيرة ..
منها في الصحيحين .. من حديث انس رضى الله عنه - ان اهل مكة سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ان يريهم آية .. فاراهم انشقاق القمر شقتين .. حتى راوا حراء بينهما .

وفي حديث ابن مسعود : لما انشق القمر .. قالوا : هذا سحر ابن ابي كبشة قال : فقالوا انظروا ماياتيكم به السفار .. فان محمدا لا يستطيع ان يسحر الناس كلهم .. قال : فجاء السفار .. فأخبروهم بذلك .

رواه ابو داوود وغيره .

وقد بدأت موضوع السحر في قصة موسى

.. بتلك المعجزة لرسولنا - صلى الله عليه وسلم - لنعلم ان السحر لا يكون مفعوله الا في الاعين .. ولا اثر له في نفس الشيء المسحور .. اما المعجزة .. فيكون اثرها في الشيء نفسه .. كما حصل في انشقاق القمر .. رآه من في الكعبة .. كما رآه من في البيداء .

ذات ليلة .. كان القمر فيها بدرا .. وقف رسولنا - صلى الله عليه وسلم - ينطلع الى السماء .. والقمر في كبدها .. يمالأ نبيها جمالا .. ويكسوها بهجة وجلالا .. ولقد كان - عليه الصلاة والسلام - دائم النظر في المكوت .. يعشق الطبيعة حبا في طابعها .. ويغنى في الكون ولها في صانعه وخالقه ومبدعه .. وكان بالقرب منه مجموعة من زعماء المشركين .. وععاة الكافرين ، منهم : الوليد بن المغيرة .. وابو جهل بن هشام .. والعاص بن وائل .. والاسود بن المطلب .. والنضر بن الحارث ، ونظراؤهم .. فانتهزوها فرصة للهزء به .. والسخرية منه .. فقال له الوليد : يا محمد .. فقال له - عليه الصلاة والسلام : نعم يا ابن المغيرة .. قال : هل يستطيع ربك ان يشق هذا القمر نصفين ؟ ...

وجالت خطرات وآمال في نفسه - عليه السلام - فقال : وهل تؤمن لو شق ربى القمر نصفين ؟ .. فقالوا جميعا : نعم : في نفس واحد .. استعظاما منهم لهذا الامر .. ولتيقنهم بأنه لن يكون وتفاعلت الخطرات والامال في القلب الكبير .. واتجه ببصره وفؤاده الى خالق القمر مشيرا الى القمر .. فانفلق فلقتين .. فلقة اتجهت الى الشرق .. واتجهت الثانية الى الغرب فقال : اشهدوا .. فقالوا : جميعا بعد زوال دهشتهم : هذا سحر .. ولما كانوا يعلمون ان مفعول السحر لا ينصب على الشيء المسحور .. وانما ينصب على اعين الناظرين .. فقال احدهم .. ولعله الوليد : اذا كان هذا سحرا فنكون نحن فقط الذين راينا تلك الظاهرة في القمر .. ولم يرها غيرنا فلننظر .. حتى يصل اول قادم من البيداء .. فنسأله .. فوقفوا ساعتين حتى وصل بعض السفار

وكما سنرى فى حفل المناظرة بين موسى -
عليه السلام - وبين سحرة فرعون .

كان منظرا فريدا حقا .. ان يجتمع من
السحرة بضع وثلاثون الفا .. حسب تقدير
اغلب المفسرين .. ومنهم : تفسير النسفى ..
والكشاف .. والبيضاوى .. والنيسابورى ..
وان كان القاضى ناصر الشيرازى صاحب
البيضاوى زاد على ذلك فقال إنهم كانوا سبعين
الفا .

فلا بد ان يكون التجمع ضخما ضخامة
تفوق حد التصور .

وقال الله تعالى « موعدكم يوم الزينة وان
يحشر الناس ضحى » فتلمع فى هذا التعبير
منظر الحشر .

وقف هذا العدد الضخم ضحى يوم الزينة -
عيد النوروز - وهو عندهم عيد وفاء النيل ..
وقد تجمع الناس من كل فج .. من انحاء
البلاد .. قاصيها ودانيها .. يوم يعدون له
من شهور مضت .. ويستعدون من زمن بعيد
.. لحضور مباراة عجيبة .. بين سحرة مصر
كلها .. وبين رجل عبرانى .. يدعى انه مرسل
من عند اله آخر .. غير الهم المقدس .. الذى
يعبدونه ابناء عن اباء .. ويعدون لهذا اليوم
باللبالى والساعات .

ويظهر هذا من قوله تبارك وتعالى « فجمع
السحرة ليقات يوم معلوم . وقبل للناس هل
انتم مجتمعون . لعلنا نتبع السحرة ان كانوا
هم الغالبين . (٣٨ - ٤٠ الشعراء) .

فمباراة « هل انتم مجتمعون » ؟ .. فيها
استعجال لبدء تلك المباراة العجيبة .

ويدخل موسى عليه السلام - الى الميدان
متكئا على عصاه .. ومعه اخوه هارون .. وقد
جلس فرعون مع اشراف قومه .. فى مكان
الصدارة .. واصطف السحرة صفوفًا متلاصقة
.. وكثلا متلاحمة .. جعلت المكان اشبه بساحة
من ساحات الحرب .. فى اكبر معارك التاريخ .
ويستمر موسى سائرا .. وهو يتكىء على
عصاه .. حتى توسط السحرة .. وصار
اقرب ما يكون من فرعون .. وقد اتجهت اليه
جميع الانظار .. انظار السحرة .. وانظار
الجمهور .. ثم اتجه الى السحرة قائلا لهم ..

فى قوة هزت اعصابهم .. وادعشت مفاصلهم
.. « قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله
كذبا فيسحقكم بعذاب وقد خاب من افترى »
(٦١ طه) .

اي لا تقولوا على الآيات والمعجزات سحرا
.. والا سحقكم الله واهلككم .. وكان لهذا
القول تاثير عميق فى نفوسهم .. « فتنزعوا
امرهم بينهم ، واسروا النجوى » (٦٢ طه) .

تجمع زعمائهم فى الحال .. وتشاوروا
سرا وتجادبوا اطراف القول .. فقالوا : ما هذا
بساحر .. ولكن علينا ان نثبت .. ونقول للناس
قولا يرفع من روح السحرة ويثبط الناس عن
اتباعه اذا انتصر علينا .. وقالوا « ان هذان
لساحران يريدان ان يخرجاكم من ارضكم
بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى . فاجمعوا
كيدهم ثم انتوا صفا وقد افلح اليوم من
استعلى » (٦٣ - ٦٤ طه) .

قالوا هذا مخاطبين الالف المؤلفة من
الجماهير المجتمعة .. او لعلهم يتوجهون بكلامهم
هذا الى اخوانهم السحرة .. ليقوا من
ارادتهم .. ويشدوا فى عزمهم .. حيث يقولون
لهم « ويذهبا بطريقتكم المثلى » فى السحر .

ثم توجهوا بحديثهم الى موسى - عليه السلام -
فخاطبوه خطابا فيه الكثير من حسن الادب
معه .. والتواضع له .. وخفض الجناح ..
وفيه تنبيه على اعطائهم النصفة من انفسهم ..
فقالوا : « يا موسى اما ان تلقى واما ان تكون اول
منلقى » (٦٥ طه) .

وكانت مقابلة موسى لهم ادبا بادب ..
ومجاملة بمجاملة .. فقال لهم : « بل القوا »
اولا .. حتى يبرزوا ما معهم من مكائد السحر
.. ويستنفدوا اقصى طاقتهم ومجهودهم ..
وحتى يكون الباطل سابقا للحق .. فكون قدف
الحق ازهاقا للباطل .

وكان اتفاقهم فى تأمرهم .. عندما اسروا
النجوى .. ان يلقوا جميعا حبالهم وعصيتهم فى
لحظة واحدة .. ارهابا له وارعادا .. حيث
قالوا « فاجمعوا كيدكم ثم انتوا صفا .. وقد
افلح اليوم من استعلى » واستعلى لا تفيد العلو
.. وانما تفيد محاولة العلو .

« فالتقوا حبالهم وعصيتهم وقالوا بغزة
فرعون انا لنحن الغالبون » (٤٤ الشعراء) .

وقد التقوا حبالا غليظة .. وعصيا ضخمة
.. وامتلا الميدان على ضخامته وسعته بالاف
الحيات والثعابين .. يركب بعضها بعضا ..
« فسحروا اعين الناس واسترهبوهم وجاءوا
بسحر مبين » .

وقيل ان العصي والحبال كانت حمولة
ستين بعيرا ..

ويظهر هنا جليا ان تفاعل السحر يكون في
العين .. لا في الشيء المسحور - كما قدمنا
« فسحروا اعين الناس » وكان موسى - عليه
السلام - ايضا من بين الناس .. فسحرت
عينيه هو ايضا . « فاذا حبالهم وعصيتهم يخيل
اليه من سحرهم انها تسعى » (٦٦ طه) .

وتملكه الخوف ورهبة الموقف .. ولكن الله
معه .. ومن كان الله معه .. فكيف يهزم ؟ .

ان الله سبحانه وجل شأنه - يقول « وكان
حقا علينا نصر المؤمنين » فهل بعد ان يلزم الله
نفسه حقاً .. وهو نصر المؤمن .. يجوز ان
يتسرب الى خواطرنا اى شك في ان المهزوم في
اى شيء غير مؤمن .. وان المنتصر هو المؤمن ؟ .
وانا ان هزمت في اى امر من أمور الدنيا .. فهل
لهذا معنى غير ان أعيد النظر في ايماني ؟ ..
لان الله هو الحق .. وقوله الصدق ؟ .

وكان الله مع موسى « فاوحس في نفسه
خيفة موسى . قلنا لا تخف انك انت الاعلى .
والق ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا
كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث اتى »
(٦٧ - ٦٩ طه) .

ولا يخفى على اللبيب .. لماذا قال الله له
« والق ما في يمينك » ولم يقل له هنا والق
عصاك .. كما قالها في هذا المقام .. من سورتي
الاعراف والشعراء ؟ .

وذلك لان الله - سبحانه - ذكر هنا في
سورة طه - خوف موسى - فكان الامر يستدعي
تصغير العصا والتقليل من شأنها .. اى لانهتم
ياموسى .. ولا تبال بكثرة حبالهم وغلظها ..
والاف عصيتهم وضخامتها .. والق تلك العصا

الصغيرة التى بيمينك وستراه تبتلع كل
ما يصنعون .. وتظهر ما يافكون .. والقى موسى
عصاه ..

وقد اوردت كتب التفسير الكثير عن
وصف العصا بعد ان القاها .

ولكنى انقل هنا وصفها من كتاب ابنى
اسحاق النيسابورى الثعلبى وذكر مثله
القرطبى وغيره .. قال : صارت العصا لعبانا
مبيناً أسود مدلهم .. يدب على اربع فوائم .
قصار غلاظ شداد .. أعظم وأطول من بختى (١)
عظيم .. وله ذنب يقوم عليه .. ليشرف على
حيطان المدينة براسه ومنقه وكاهله .. لا يضرب
بذنبه شيئاً الا حطمه وقصمه .. ويكسر بقوامه
الصخر الصم الصلاب .. ويطحن كل شيء ..
له عينان تلتهبان ثارا .. ومنخره ينفثان
السموم .. وعلى معرفته شعر كأمثال الرياح
.. وصارت الشعبتان له قما واسعا سعته
اثنى عشر ذراعا .. فيه اثنياب واضراس .. له
فحيح وصرير وصرير .. فاستعرضت ماالقت
السحرة من حبالهم وعصيتهم ..

وهى تخيل في عين الناس وعين فرعون انها
تسعى .. فجعلت تلقفها وتبتلعها واحدا واحدا
.. حتى لم ير فى الوادى منها شيء . ا ه .

وانهزم قوم فرعون هاربين منقلبين ..
فتزاحموا وتضافعوا .. ووطئ بعضهم بعضا
.. حتى مات منهم عدد كبير .. وانهزم معهم
فرعون خائفا مرتعبا .. ذاهلا عقله .. وعن
سعيد بن جبير .. قال : كان فرعون قد ملئ
من موسى رعبا . فكان اذا رآه بال كما يبول
الحمار (٢) ولهذا قال لقومه « قال سنقتل
ابناءهم ونستحي نساءهم » (١٢٧ الاعراف) .
ولم يقل ساقتل موسى ..

ونظر السحرة الى بعضهم البعض ..
وقالوا : اذا كان هذا سحرا .. فابن حبالنا
وعصيتنا ؟ .. « فلقى السحرة سجدا .. قالوا
امنا برب هارون وموسى » (٧٠ طه) ولعلمهم
بداوا برب هارون ثم موسى .. اعتساراً لكبر
السن .. او تحرزا منهم لان فرعون قد ربي
موسى من قبل .. فلم يقولوا امنا برب موسى

وهارون .. حتى لا يلتبس الامر .

ما اعجب امر هؤلاء السحرة .. فقد القوا
حبالهم وعصيهم للكفر والجحود .. وبعد ساعة
القوا رءوسهم للشكر والسجود .

ويكون ردهم اعظم .. لما هددهم فرعون
بقطع طرفين من اطرافهم عكسا .. وقتلهم صلبا
فيقولون « لن نؤثر على ما جاءنا من البيئات
والذى فطرنا .. فاقض ما انت قاض .. انما
تقضى هذه الحياة الدنيا » (٧٢ طه) .

فانتقلوا من احط درجات الكفر .. الى
اسمى درجات الايمان فى لحظة .. كشف الله
عن بصيرتهم .. فراوا أن الاجسام ما هى الا الحياة
الدنيا .. والحياة الدنيا بالذة فانية .. ولا قدرة
لفرعون الا عليها .. اما الحقيقة الروحية ..
فهى الحياة العليا والحياة العليا هى الباقية
الخالدة .. ولا سلطان له عليها .. ولهذا قالوا
« انما تقضى هذه الحياة الدنيا » .. ويعلق
الحسن رضى الله عنه - على هذا الموقف فيقول
تراه قد ولد فى الاسلام .. ونشأ بين المسلمين
.. يبيع دنياه بكذا وكذا .. وهؤلاء كفار نشأوا
فى الكفر .. بدلوا انفسهم لله .

وروى انهم لم يرفعوا رءوسهم من السجود
حتى راوا الجنة والنار .. وراوا اثواب اهلها .
وعن عكرمة : لما خروا سجدا .. اراهم الله فى
سجودهم منازلهم التى يصيرون اليها فى الجنة .

وروى ان زعماء السحرة ليلة الزينة ..
.. قالوا لفرعون : آرنا موسى نائما .. فوجدوا
عصاه حية تحرسه وهو نائم .. فقالوا لفرعون :
ما هذا بسحر .. فان السحار اذا تام بطل
سحره .. فابى الا ان يعارضوه .. ولعل هذا
هو سبب قولهم له بعد ذلك :

« انا امنا بربنا ليفر لنا خطايانا وما اكرهتنا
عليه من السحر والله خير وابقى » (٧٣ طه)

وظلوا فى سجودهم .. فلم يرفعوا رءوسهم
.. الا على صوت فرعون يقول لهم .. بعد ان
استرد انفاسه .. « قال آمنتم له قبل ان اذن
لكم ، انه لكبيركم الذى علمكم السحر » اى
معلمكم .. وهذه لغة مكة .. يقولون : طلب
منى كبرى كذا وكذا .. اى معلمى فى القرآن
وفى كل ما يقرأ .. يقصد فرعون رئيس السحرة
ومعلمهم الاكبر .

وقد روى صاحب تفسير الكشاف أن
موسى قال للساحر الاكبر .. قبل المبارزة :
اتؤمن بى ان غلبتك ؟ .. قال : لا نين بسحر
لا يقلبه سحر .. وان غلبتنى لاؤمن بك ..
وكان فرعون يسمع هذا الحوار .. ولذلك اتهمه
بانه آمن قبلهم .. فآمنوا معه بموسى وهارون .

وكان فرعون يوحى اليهم بقوله « آمنتم له
قبل ان اذن لكم » انه يعلم سرائرهم .. وخطرات
كفوسهم .. وانه كان بسبيل الاذن لهم بالايمان
بموسى .. وما هى الا تغلب المغلوب .. ولا بد
للمغلوب من بادر العذر .. ولهذا توعدهم -
نظير موعدهم بالايمان - بالعذاب والقتل بقوله
لهم : « فلا تقطن ايديكم وارجلكم من خلاف ،
ولا صلبنكم فى جدوع النخل وتعلمن ايننا اشد
عذابا وابقى » (٧١ طه) .

والصورة واضحة .. فى قطع اليد اليمنى
.. مع الرجل اليسرى .. او العكس فيكون
الجسم فى استقامة تيسر الوثاق والصلب فى
جلود النخل .. وقال ابن عباس : كان فرعون
اول من صلب .. واول من قطع الايدى
والارجل من خلاف (١) .

فسبحان الله - مقلب القلوب - وصدق
رسول الله عندما يقول : « القلب بين اصبعي
الرحمن يقلبه كيف شاء » .

(١) القرطبي ١٢٥/ الامراء .

« يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين »
(١٢٨ الاعراف) .

وهنا تظهر الروح الخبيثة في الاسرائيليين ..
فيظفرون الشجر .. ويبدون اليأس « قالوا
اوذينا من قبل ان تأتينا ومن بعد ما جئتنا » ..
منتهى اليأس وغاية الضجر « قال عسى ربكم
ان يهلك عدوكم ، ويستخلفكم في الأرض فينظر
كيف تعماون » (١٢٩ الاعراف) ..

وقد استخلفوا في الأرض .. في زمن داود
وسليمان - عليهما السلام - أى فينظر مدى
شكركم نعمته .. لأن الله سبحانه - لا يجزى
على ما يعلمه من العبد .. وانما يجازى على
ما يقع منه .. وعن عمرو بن عبيد : انه دخل
على المنصور قل الخلافة .. وعلى مائدته رغيف
او رغيفان .. وطلب المنصور زيادة لعمرو ..
فلم يجد .. فقرأ عمرو هذه الآية « عسى ربكم
ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض » ثم دخل
عليه بعد ما استخلف .. فذكر له ذلك .. وقال
قد بقى « فينظر كيف نعلمون » .

وفي هذا الموقف من سورة الاعراف « قالوا
انا الى ربنا منقلبون . وما تنقم منا الا ان آمننا
بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا افرغ علينا صبرا
وتوفنا مسلمين » (١٢٥ - ١٢٦ الاعراف) .
اى وما يعيب منا الا الايمان .. يفصدون
قوله لهم « آمنتم له قبل ان اذن لكم » ..
والايمان اصل المناقب والمفاخر كلها .. وهذا
الموقف من فرعون كقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم

بهن فلول من قراع الكتاب

ونفذ فرعون وعيده في رعاء السحرة ..
احدهم فقطعهم عاى شاطئ النهر .. وقتل
آمن بموسى عند ايمان السحرة ستمائة الف (١)
.. واصر فرعون على كفره وعناده بعد هذا
الذى حدث .. ولكنه عناد الكفر او كفر العناد ..
فازداد في الانتقام من الاسرائيليين .. نسخيرا
للآباء .. وتقتيلا للأبناء .. واستحياء للنساء ..
فجأروا بالشكوى الى موسى - عليه السلام -
« فقال لهم استعينوا بالله واصبروا ، ان الأرض

□ □ □

٦ هذه نذر

وهذا اغراق منهم في الغباء والقسوة ..
فان السدائد تصقل الروح وتشف راحة
القلب .. وبذل النفس .. وخاصة بعد ان
شاهدوا تلك البيئات التي لم تؤثر فيهم .. بل
زادوا عندها عتوا واستكبارا .. وغيا وضللا
.. وقالوا لموسى : الآن عرفنا انك ساحر ..
ولكن : « مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها ،
فما نحن لك بمؤمنين » (١٣٢ الاعراف) .

ولجأ موسى الى ربه فقال : يارب ان عبدك
هذا قد علا في الأرض .. فخذ به عقوبة تجعلها
له ولقومه نعمة .. ولقومى عظة .. ولن بعدى
آية .

فحينئذ بعث عليهم الطوفان .. ثم الآيات
الأخرى :
..

« فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والفمل
والضفادع والدم ، آيات مفصلات ، فاستكبروا
وكانوا قوما مجرمين » (١٣٣ الاعراف) .

فأما الطوفان .. فقال بعض المفسرين : انه
الجدري أو الطاعون بلغة أهل اليمن .. ولكن
هذا تحميل للفظ فوق ما يحتمل .

والأغلب على انه المصاء .. فأمطرهم الله
نمائية ابام متتابعة .. في ظلمة شديدة .. لا يرون
فيها شمسا ولا قمرا .. ولا يقدر أحد ان يخرج
من داره .. فوقفوا في منازلهم في المصاء الى
تراقبهم .. من جلس منهم يفرق .. وأتلف
الطوفان حرثهم .. حتى جهدوا .. وازداد بهم
البلاء .. وأرسل فرعون الى موسى « يا موسى
ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا
الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل »
(١٣٤ الاعراف) .

فدعا موسى ربه .. ليرفع عنهم الطوفان ..
ولم يؤمنوا وعادوا الى ما كانوا عليه .. فأنبت

أخطهم الله - سبحانه - بعد تكذيبهم بالعصا
واليد .. بالجذب ونقص الثمرات : « ولقد
أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات
لعلهم يذكرون » (١٣٥ الاعراف) .

وصدق الله العظيم عندما يقول « ما أصابك
من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن
نفسك » فلانزال الله يذكر العبد بأخطائه بين الحين
والحين .. بأى ألم في نفسه أو ماله .. أو زرعه
أو ضرعه .. كلما حصلت منه زلة .. أو كبا
به شيطانه كبوة .. عسى أن تصحو فيه النفس
اللوامة .. فيبحث عن سبب هذا البلاء .. وهنا
يهديه الله الى السبب « والذين اهتدوا زادهم
هدى » ويكون الألم في تلك الحالة خيرا .. مابعده
خير .. ويصير نورا .. يهدى في ظلمات هذه
الحياة .. فهو تذكير وتكفير .. اما اذا كان
العبد من الذين نسوا ما ذكروا به .. وغفلت
بصيرتهم .. فتح الله عليه كل ابواب الخير « حتى
اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم
مبلسون » .

وعن ابن عباس : اما السنون فكانت لباديتهم
واهل مواشيتهم .. واما نقص الثمرات فكانت
لامصارهم وبساتينهم .

وعن كعب كانت النخلة لا تحمل الا سرة
واحدة .. وكانوا يتطيرون بموسى وقومه ..
فيقولون هذا كله من شؤمهم وشرهم .. فزادوا
بهم تعديبا وتنكيلا وسخرة .. وكان القبطى
يسخر الاسرائيلى في العمل .. ولا يعطيه اجرا
.. ويقول له : ليس عندنا شيء بسبب وجوهكم
وشؤمكم الذى حاق بنا ..

« فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وان
تصبهم سيئة يطبروا بموسى ومن معه ، الا انما
طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعملون »
(١٣٦ الاعراف) .

الله لهم في تلك السنة من الزرع والكلأ والثلث ما لم يحصل من قبل .. فأعشبت الأرض وأخصبت .. ففرحوا لذلك .. وقالوا : لقد كان المطر نعمة لا تقمة .. وازدادوا طغيانا وكفرا .

فارسل الله عليهم الجراد .. فأكل زرعهم وثمارهم .. وأوراق أشجارهم وزهرها .. حتى ألبها كانت تأكل الأبواب والثلثاب والامتعة وسقوف المنازل والأخشاب .. وابتلى الله الجراد بالجوع الدائم .. فهو لا يشبع .

وكان لا يدخل بيوت الاسرائيليين .. ولا يصيبهم من ذلك شيء .. فضجوا الى موسى وقالوا « يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كثيفت عنا الرجز .. الخ » وبرز موسى الى الفضاء .. فأشار بعصاه الى المشرق والمغرب .. فذهب الجراد من حيث أتى .. كأنه لم يكن .

وقد أورد بعض المفسرين عدة أخبار غريبة عن الجراد .. منها ما ذكره الثعلبي والقرطبي وغيرهما : أخبرني الحسن بن محمد بإسناد جابر .. عن أنس بن مالك .. عن النبي صلى الله عليه وسلم .. أنه كان يدعو على الجراد ويقول « اللهم اقطع الجراد .. اللهم اقطع دابره .. اللهم اقتل كباره .. وأهلك صفاره .. وأفسد بيضه .. وخذ بأفواهه عن معاشنا وارزاقنا .. أنك أنت سميع الدعاء » . فقال رجل من القوم .. كيف ذلك يا رسول الله .. تدعو على جند من جنود الله بهلاكه وقطع دابره ؟ .. فقال « إنما الجراد نثرة (١) الجوث في البحر (٢) » وبإسناد من أبي أمامة الباهلي .. يحدث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « أن مريم ابنة عمران سألت ربها أن يطعمها لحما لا دم له .. فاطعمها الجراد .. فقالت : اللهم اعشه بغير رضاع .. وتابع بينه بغير شياخ فقلت : يا أبا المظيء ما الشياخ ؟ قال : الصوت (٣) » .

وبعد ذهاب الجراد عنهم .. نسوا عهدهم .. وعادوا الى سوء أفعالهم .. فأرسل الله عليهم القمل .

وروى أن موسى - عليه السلام - أمر أن يمضى الى كتيب أعفر .. بقرية من قرى مصر ..

وكان كتيباً مهيلاً عظيماً .. فضربه بعصاه .. فخرج عليهم القمل من كل جانب .. وهو صفار الجراد قبل أن تنبت أجنحتها .. فأكل ما بقى من زروعهم وأشجارهم ونباتهم .. حتى لم يبق في الأرض عود أخضر ولا جاف .. وكان يدخل بين ثوب الرجل وجلده فيمص دمه .

وقال سعيد بن جبير : أن موسى لما ضرب الكتيب الأعفر بعصاه صار قملاً .. فأخذت في إبطارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم .. ولزم جلودهم كأنه الجدرى ..

وكعادتهم لجأوا الى موسى - عليه السلام - « ادع لنا ربك بما عهد عندك .. الخ » ودعا موسى ربه .. فانتشر هذا الوباء في أقطار الأرض وأطراف البلاد ثم نكثوا بعهدهم .. ولم يؤمنوا . **قالوا :** لقد تحقق لنا الآن بغير شك أن موسى ساحر خطر .. عنده من القدرة ما يجعله يسحر حبات الرمال .. فيحيلها الى ذواب تسمى وتنتشر .. فعلى أى شيء تؤمن به .. ونرسل معه بنى اسرائيل .. وقد أهلك حرثنا وزرعنا .. وأذهب مالكنا وضرعنا .. فما عسى أن يفعل أكثر من ذلك .. وعزة فرعون لن تؤمن به ولن نتبعه .. وقالوا ثانية « مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين » .

فدعا موسى عليهم .. ياسا من هدايتهم .. فأمره الله - سبحانه - أن يذهب الى النيل فيفرز عصاه فيه .. ثم يشير بها نحو أدناه وأقصاه وأعلاه وأسفله ففعل ذلك وإذا بالضفادع تتابع من كل جانب .. وقد خرجت من النيل مثل الليل الدامس .. سراعا تؤم المدينة من جميع جهاتها .. ففاجأتهم في منازلهم نفة .. فملأت أفئدتهم وآنيتهم .. وكان أحدهم لا يكشف ثوباً ولا إناء ولا طعاماً ولا شراباً .. الا وجد فيه الضفادع

وحقا « وما يعلم جنود ربك الا هو ، وماهى الا ذكرى للبشر » . وقيل كانت الضفادع تتقيء صديداً في أطباق الأطعمة أمامهم .. وروى عكرمة عن ابن عباس : أن الضفادع كانت تقذف نفسها في القدور وهى تغور .. وفي التنانير وهى مسجورة .

فضجوا الى فرعون من ذلك .. وضاق عليهم أمرهم .. حتى كادوا يهلكون .. وصارت المدينة وطرقتها مملوءة جيهاً .. من كثرة ما يطاؤونها

(٣) من القرطبي ١٣٢/الامراف .

(١) النثرة : شبه العنسة .

(٢) الثعلبي في العرائس .

قان .. يقومان الى جرة الماء .. فيخرج
للإسرائيلى ماء .. وللمصرى دم .. تلجأ المصرية
الى الاسرائيلية حين يجهدا العطش .. فتقول
لها ضعى الماء فى فمك ومجيه فى فمى .. فتمجه
فى فمها دما نتنا .

وهذا النيل يسقى الزرع والشجر ماء

فاذا ذهبوا ليطفئوا لهيب ظمئهم .. من بين
سيقان النبات .. يصل الى شفاهم دما .

واجد فرعون العطش .. فكان يرى الكوب
فى يد زوجته - السيدة آسية - فيه الماء عذبا
صافيا .. فيمد فمه ليشرب من الكوب .. وهو
فى يدها .. فيجد عروق الدم .. وهى تنبع من
بين صفاء الماء .. فلا يصل الا الدم .. فاضطر
الى مضغ الاشجار الرطبة .. فاذا مضغها احس
بعصارتها فى فمه دما ..

ارأيت اشد من هذا العذاب - سبعة ايام -
لا يأكلون ولا يشربون غير الدم ؟

« وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم بظلمون » .

يقول زيد بن أسلم : كما ورد فى كثير من
كتب التفسير - كان الدم الذى سلب عليهم -
الرعاف - ولكن هذا لا يتناسب مع قوله تعالى
« وما يريهم من آية الا هى اكبر من اختها » لاننا
نعلم من هذا .. ان آية الدم - وهى آخر
الآيات - اشد واكبر من الآيات السابقة .. ولن
يكون الرعاف اشد من الضفادع فى طعامهم
وشرابهم وفراشهم وعلى اجسادهم .. « فارسلنا
عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم
آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما
مجرمين » (١٣٣ الاعراف) .

باقدامهم .. واروحت البقاى كلها منها .. فكوا
وشدوا الى موسى .. وقالوا اكشف عنا هذا
البلاء .. فاننا نتوب هذه المرة ولا نعود .. فاخذ
على هذا عهدهم ومواثيقهم .. ثم دعا موسى
ربه .. وباشارة من عصاه .. انقشع ما كان
منها حيا فلحق بالنيل من حيث اتى .

ثم نقضوا العهد .. ولم يؤمنوا .. ولم
يرسلوا معه بنى اسرائيل .

وكانت الآية الأخيرة لتذكيرهم هى آية الدم .

وهى اقصى الآيات واشدها « وما نريهم من
آية الا هى اكبر من اختها » واخذناهم بالعذاب
لعلهم يرجعون . وقالوا ياايها الساحر ادع لنا
ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون . فلما كشفنا
عنهم العذاب اذا هم ينكتون » (٤٨ - ٥٠
الزخرف) .. فكانوا - كما راينا - فى كل آية
من آيات العذاب يهرعون الى موسى ليدعو ربه
.. على انهم سيهتدون بعد هذه المرة .. وكلما
كشف الله عنهم العذاب .. اذا هم ينكتون بعدهم
.. ويعودون الى غيرهم .. فكانت اقصى آيات
التذكير والتحميم والابتلاء .. هى آية الدم .

صارت مياههم كلها دما .. لا يستقون من
الانهار والآبار .. الا وجدوه دما احمر قاليا نتنا
فشكوا الى فرعون .. فقال لهم : كل هذا من
افانين السحر عند موسى . يجلس القبطى مع
الاسرائيلى على اناء واحد .. فيكون مايلى
الاسرائيلى ماء صاف .. ومايلى القبطى دم

٧ مؤمن آل فرعون

اخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم انى اخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضل الله فما له من هاد « (٣٠ - ٣٣ المؤمن) .

وبعد جولة طويلة بين المؤمن وبين فرعون وقومه .. ختم نقاشه معهم بقوله (لا جرم انما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) يقصد بهذا فرعون « وأن مردنا الى الله وأن المسرفين هم اصحاب النار . فستذكرون ما اقول لكم وافوض امرى الى الله ان الله بصير بالعباد » (٤٣ - ٤٤ المؤمن) .

ويقول بعض المفسرين ان فرعون قتله .. كما قتل السيدة آسية .. لما ظهر له انها مؤمنة برب هارون وموسى .

ولكن هذا الراى يناقض ما جاء فى الآية التالية .. بعد قوله « وافوض امرى الى الله ان الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » (٤٥ المؤمن) .

وانما من الجائز ان يكون فرعون قد قتل زوجة حزقييل .. وقالوا انها كانت ماشطة بنت فرعون .. وكانت مؤمنة من اماء الله الصالحات .

وقد اورد النيسلورى حديثا بالاسانيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس .. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال :

« لما أسرى بى مرت برائحة طيبة .. فقلت لجبريل - عليه السلام - ما هذه الرائحة ؟ .. قال هذه ماشطة آل فرعون وأولادها .. كانت تمشط ذات يوم شعر بنت

انها حقا - كما راينا - آيات معجزات - ونذر مفصلات بينات .. لا يخفى على ذى عقل انها آيات من الله .. ولكنها لم تزد فرعون وهامان وجنودهما الا عنادا واصراراً على الكفر .. ولعلنا نذكر حزقييل - مؤمن آل فرعون - الذى يكتم ايمانه .. وكان خازنا لفرعون مائة عام .. عندما عارض فرعون .. لما تأمر على قتل موسى قبل يوم الزينة .. حيث قال له « اتقتلون رجلا أن يقول ربي الله » ؟ ..

فلما لم يؤمن فرعون وعلية القوم بموسى .. بعد تلك الآيات الناطقة .. ووجد حزقييل أن الفسادة الكاسية على أعينهم .. والوقر الرابض في اذانهم .. ولكن المغلف لقلوبهم .. كل هذا جعل تفكيرهم منصبا على فعل ما يرضى فرعون الطاغى .. وسسوا كل ما ذكرتهم به السماء .. من عذاب وشقاء .. وبلاء ما بعده بلاء .. كشف حزقييل عن ايمانه .. وهاجم القوم في ناديبهم ومجالسهم واحفالهم .. بمناقشة قوية مخلصه .. منطقية مقنعة .. عرضتها علينا سورة المؤمن فى عرض طويل .. استغرق صفحتين كاملتين متتاليتين من كتاب الله العزيز .. نذكر منها مشهدا .. عندما قال لقومه على مسمع من فرعون .

« يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض .. فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا » (٢٩ المؤمن) .

ويرد عليه فرعون يذكره بأنه الاله الاعظم .. والأمر الذى لا امر لغيره .. وصاحب الراى فلا رأى لسواه .. « قال فرعون ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد » (٢٩ المؤمن) .

ومع هذا يستمر صاحبنا - المؤمن - فى اندارهم ووعيدهم « وقال الذى آمن يا قوم انى

(اعلّموا انما الحياه الدنيا لعب ولهو وزينة
ونفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد) .

نجد ان تلك خمس مراحل .. تتمشى مع
طبيعة الانسان وحالته النفسية .. من يوم
نشأه الاولى .. فيمر بها مرحلة بعد مرحلة ..
قبل ان يبلغ أشده .. ويصل الى درجة الكمال
المقدورة له في حياته الدنيا ..

وكل مرحلة منها تستغرق ثمان سنوات :

المرحلة الاولى : وهى مرحلة اللعب الى
الثامنة من عمر الانسان .. ثم تليها مرحلة اللهو
الى السادسة عشر .. وهناك فرق بين اللعب
واللهو .. فاللعب طبعى في نفس الطفل ..
فينزل من بطن أمه يحرك يديه ورجليه .. فهو
الطبيعة الاولى من طبائع الطفولة .. أما اللهو ..
فقد دخلت فيه الصناعة والتكلف .. فلو ترك
الطفل بعد الثامنة من عمره .. دون أن تستغل
فيه طبيعة اللهو بتوجيهها الى العلم والمعرفة
والسلوك الحميد .. انحرف هو بنفسه الى
لعب ماز .. وركوب القطارات .. ودخول
أماكن اللهو .. واستعمال مواهبه في السلوك
السيء الضار .

ثم ينتقل الى المرحلة الثالثة : وهى مرحلة
الزينة .. فهو يحب بفطرته في هذه السن ان
يكون انيقا في ملبسه ومظهره على قدر استطاعته
.. حتى يبلغ الرابعة والعشرين .

ثم تليها المرحلة الرابعة : مرحلة التفاخر
والنباهى .. ببطولة أو ذكاء أو غنى أو حسب
أو نسب .. وقد يتفاخر بالشر .. فاذا بلغ
الثالثة والثلاثين ، انتقل بفطرته الى حب التكاثر
في الاموال والاولاد ... وهنا فقط نستطيع ان
نقول عن هذا الانسان انه قد بلغ أشده ..
حيث لعب ولها وتزين وتفاخر وتكاثر « بلغ أشده
ولم يبلغ أربعين سنة » .

والانسان حال مروره بتلك المراحل الخمس
.. يكون قابلا لتغيير الصفات والعادات
والعقائد .. حيث مازال الفص غضا طريا ..
قابلا للأنواء .. اما بعدها .. فتكون الشجرة
قد بس عودها .. وجفت أغصانها .. ولا امكان
لنيتها أو تغيير اتجاهها .

ان الفصون اذا قومتها اعتدلت

ولا يلين اذا قومته الخشب

فرعون .. فوقع المشط من يدها .. فقالت :
باسم الله .. فقالت بنت فرعون : ابى ! قالت :
لا .. بل ربى ورب أبىك .. فقالت : لآخرى ..
بذلك أبى .. فلما أخبرته .. دعاها وبولدها ..
وقال لها .. من ربك ؟ فقالت : ان ربى وربك
الله .. فامر بتنوير من نحاس فاحمر بالنار ..
وامر بها وبولدها ان يلقوا فيه .. فقالت له :
ان لى اليك حاجة .. فقال : وما هى ؟ .. قال
تجمع عظامى وعظام ولدى فتدفنهما .. قال :
فلان ذلك .. لما لك علينا من الحق .. ثم امر
بأولاده .. فآلقوا واحد واحدا في التنور ..
وآلقوا بها مع صغيرها .

وكانت السيدة آسية تتعلل في قضاء
حاجتها .. فتبرز فتصلى يومها في مئزرها خوفا
من فرعون .. فمندا ما رأت ما فعلت بامرأة
حز قيل .. قالت له : الويل لك يا فرعون ..
ما أجراك على الله تعالى .. فقال لها : لعلك قد
اعتراك من الجنون ما اعترى صاحبتك ؟ ..
فقالت : ما اعترانى جنون .. ولكنى آمنت بالله
ربى وربك ورب العالمين .. فأقسم ليذيقن الموت
ان لم تكفر بالله موسى واحال عليها أمها ..
فأبت فعذبها .

ويقول بعض المفسرين انه عذبها حتى
استشهدت .. وانها قالت وهى في العذاب
« رب ابن لى عندك بيتا في الجنة ، ونجنى من
فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين » (١١)
التحريم) .

فاوحى الله اليها .. ان ارفعى راسك ..
ففعلت فرائت البيت في الجنة من الدر ..
فضحكت .. فقال فرعون : انظروا الى الجور
الذى بها .. تضحك وهى في العذاب .

وهذا الراى لا يطابق مفهوم الآية السابقة،
« ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم
الظالمين » فقد نجاهها الله من فرعون . حيث القي
الله في قلبه الرهبة منها .. برغم علمه بأجائنها
من أيام آيات العذاب .. فلم يكن يصيبها منه
شيء مثل الاسرائيليين .. وهى التى سعمل على
اخراج بدنه من البحر غريقا .. وهى التى
ستأمر بتحنيطه .. كمل سياى في حننه ان سماء
الله تعالى .

ونحن اذا نظرنا بعين البصيرة .. الى الآية
الكريمة .. التى يدور حولها علم النفس القرآنى:

ولهذا كان النص صريحا في قوله تعالى
« فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من
فرعون وملئهم ان يفتنهم ، وان فرعون لعال في
الأرض وانه لمن السرفين » (٨٣ يونس) .

ويقول بعض المفسرين ان المعصود : ذرية
من قوم فرعون .. وهذا مخالف لمنطوق النص
ومفهومه فالضمير يعود الى اقرب مذكور .

فلم يؤمن بموسى من قومه بنى اسرائيل -
لا بعض الشباب .. وهم خائفون من فتنة
فرعون وظلمه .. أما الشيوخ فقد ضربت عليهم
الدلة والمسكنة .. تحجرت قلوبهم .. وذلك
نفوسهم .. وقلت هممتهم .. فلا أمل فيهم .

وهذا يدل على ان الشباب دائما اقرب الى
الايمان .. واحق بالاهتمام .. وذلك واضح في
الاغلب الاعيم عند قيام الدعوات .

وقد ورد في الخبر عن النبي - صلى الله
عليه وسلم - قوله « أتيت بدعوتي فحالفني
الشباب .. وخالفني الشيوخ » ..

**وهكذا رأى موسى انه لا سبيل الى هداية
فرعون وملئه ..** وقد شئت الله شمله .. ولم
يجد الى موسى سبيلا . واعتزل موسى المدينة ،
ولحق بقومه في عسكرهم . وأوحى الله -
سبحانه - الى موسى وأخيه .. ان يتخذا لقومهما
اماكن خاصة لاستماع العظات .. وأقام الصلوات
.. ومباشرة العبادات .. يلتقى معهم بها كل
ليلة .. فيحدثهم عن دين آبائهم : ابراهيم
واسحاق ويعقوب .. « وأوحينا الى موسى
وأخيه ، ان تبوا لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا
بيوتكم قبلة ، واقيموا الصلاة وبشر المؤمنين »
(٨٧ يونس) .

وكانت قبلتهم الكعبة .. التي بناها جداهم
ابراهيم - عليه السلام - وأذن في الناس ..
بأنها بيت الله وحرمة .. وكانت صلاة موسى -
عليه السلام - الى الكعبة (١) ..

**« ربنا انك أتيت فرعون وملاه زينة واموالا
في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا
اطمس على اموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا
يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم » (٨٨ يونس) .**

هكذا كان موسى يدعو .. وهارون يؤمن على
دعائه .. واستجاب الله لهما .. « قال قد
اجيبت دعوتكما فاستغيما ولا تتبعان سبيل الذين
لا يعلمون » (٨٩ يونس) .

والنامين بعد الدعاء مما خص به نبينا
محمد - صلى الله عليه وسلم - وموسى
وهارون - عليهما السلام - فقد روى انس ابن
مالك .. قال .. قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - « ان الله قد اعطى امتي ثلاثا لم
تعط احدا قبلهم : السلام .. وهى تحية أهل
الجنة .. وصفوف الملائكة .. وآمين الا ما كان
من موسى وهارون » ذكره الترمذى الحكيم في
« نوادر الأصول » (٢) .

وكان تحت يد فرعون من زخارف الدنيا
وزينتها وزهرتها من الذهب والفضة والياقوت
وانواع الحلى والجواهر .. ما لا يحصى الا الله
تعالى .. وكان أصله مما جمعه يوسف - عليه
السلام - في أيام القحط .. حسب ما ذكرنا في
نبأ يوسف - أحسن القصص .

وعن ابن عباس : كانت لهم من فسطاط
مصر الى أرض الحبشة .. جبال فيها معادن
من ذهب وفضة .. وزبرجد وياقوت .

وقالوا : بلغنا ان الدنانير والدراهم صارت
حجارة منقوشة كهيئتها .. صحاحا وأنصافا
وارباعا .. وقد يكون الطمس على الاموال
معنونا .. بعدم نفعها .. وقلة بركتها ..

بقى موسى في مصر ثلاثين عاما بعد يوم
الزينة .. كالت كلها آيات .

(٢) القرطبي وغيره - ٨٧ يونس .

(١) القرطبي وغيره - ٨٧ يونس .

الفصل الخامس

○ الخروج .

(وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها)

صدق الله العظيم

(١٢٧ - الأعراف)

□ العبر

خليج السويس .. تنفيذا لتوجيهات الله التي
أوحاها الى موسى - عليه السلام ..

وكانت نساء بنى اسرائيل قد جمعن الحلي
والجواهر من المصريين .. بطريق الاستعارة
والحيل والخدعة .. قبل يوم الرحيل بقليل ..
ندبر محكم وتكتم شديد . وجاء في التوراة
٢ - تكلم في مسامع الشعب ان يطلب كل
رجل من صاحبه وكل امراه من صاحبها امتعه
فضة وامتعة ذهب (١) .

ويصل الخبر الى فرعون .. فيطلبهم في
جحافل من الجيوش المصرية .. نحت قيادته

كانوا ستمائة الف او يزيدون .. خرجوا مع
مى اول الليل .. بعد ان أوحى الله اليه
ك .. وأعدوا لهذا الخروج في كتمان
سديد ..

« فاسر بعبادى ليلا انكم متبعون » (٢٣
الدخان) - وفي سورة الشعراء « وأوحينا الى
موسى ان اسر بعبادى انكم متبعون » (٥٢
الشعراء) ..

وروى الكشف ان الله - سبحانه وتعالى -
قال له إخبزوا خبزا فطيرا .. فانه اسرع لكم ..
ثم اسر بعبادى حتى تنتهى الى البحر فياتيكم
امرى ..

وشاء الله ان يكون في كل اسرة من اسر
المصريين في تلك الليلة ماتما .. فانشفوا
بموتاهم .. حتى خرج موسى بقومه متجهين الى

(١) سفر الخروج - ١ ص ١١ .

شخصيا .. وقد جن جنونه .. وثارت ثأثرته ..
وحان حينه .

وفي سرعة عجيبة .. تجمع له ألف ألف
وخمسمائة ألف من الجيوش المجهزة المعدة في
مدائن مصر كلها « فأرسل فرعون في المدائن
حاشرين ، إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا
لفائضون .. وأنا لجميع حاذرون » (٥٣ - ٥٦
الشعراء) .

ولعل كلمة حاذرون « توحى بالتأهب
والاستعداد السابقين » .

وكان مع فرعون أكثر من مائة ألف جواد ..
ولهذا قال عن بنى إسرائيل .. أنهم « شرذمة
قليلون مع أنهم كانوا أكثر من ستمائة ألف » .

**وقد وجد علماء الآثار هذا مكتوبا على حجر
من الجرانيت القاتم .. كتب عنه الأستاذ
عبد الوهاب النجار :**

وعثر عليه العلامة « فلندرس بترى »
مكتوب في وجه منه عن منفتح بن رعمسيس
الثاني - وهو فرعون موسى - من الأسرة التاسعة
عشر .. وجاء من ضمنها عبارة تشير الى بنى
إسرائيل . ونصها الحرفي « لقد سحق بنى
إسرائيل ولم يبق لهم بدر » .

ومن الواضح ان منفتح - فرعون موسى -
لم يعلم بهذا التاريخ على هذا الحجر الذى
وجدوه بطيبة الأقصر .. وإنما الذى كتبه هم
ال كهنة الذين بقوا بمصر بعد هلاك فرعون
وجيوشه .. لايهام المصريين بأن فرعون انتصر
على اله موسى .. وأباد الاسرائيليين .. وأنه في
رحلة بجيشه في نشوة الانتصار .. بقصد التمويه
على الشعب المغلوب .. وليخفوا عنه خذلانهم
وهلاك الههم .. وليبق الشعب على ولائه لهم
ولكهانتهم .

**وسار موسى - عليه السلام - بقومه من
أول الليل .. تخفضهم الوهاد .. وترفعهم**

النجاد يجدون السير .. ويسرعون الخطى ..
حتى بدأ النهار يطرد الليل .. وظهر الخيط
الأبيض من الفجر .. وقد لاح أمامهم ساحل
البحر .. ومع صخب الأمواج انتهى الى سمعهم
أصوات سنابك الخيل تطلبهم .. يعلوها صرخات
فرعون يحث الجيش على اللحاق ببنى إسرائيل
.. وأبادتهم عن آخرهم .. لترتاح مصر من
شرهم الى الأبد .

وأصبح الجمعان - مع شروق الشمس -
على مرأى البصر ..

وبلغ موسى ساحل البحر .. وبين يديه
حزقييل - مؤمن آل فرعون - ويوشع بن نون
سبط يوسف عليه السلام - فالتفتا اليه ..
وقالا : أين أمرت يا كريم الله ؟ وهذا البحر
أمامك .. وقد غشيك فرعون وجنوده ؟ ..
قال : أمرت بالبحر .. وهو لا يدرى ماذا
يصنع .

**وإزداد الرعب ببنى إسرائيل .. وهم أحرص
الناس على الحياة .. فقالوا : لقد هلكنا يا موسى
ها هو الطاغى بجنده خلفنا .. وهذا البحر
أمامنا .. فأين المفر ؟ » فلما تراءى الجمعان
قال أصحاب موسى أنا لمدركون » (٦١ الشعراء) .**

ولكن موسى واثق من ربه .. مطمئن الى
معينه .. فقال « كلا أن معى ربي سيهدين »
(٦٢ الشعراء) .

وتكون العناية الالهية اقرب اليه من طلب
الهداية من ربه « فأوحينا الى موسى ان اضرب
بعصاك البحر » (٦٣ الشعراء) .

**وضرب موسى البحر بعصاه .. في المكان
الواجه لعيون موسى .. في الشاطئ الشرقى
لخليج السويس .. وقد كان الخليج يمتد الى
البحيرات المرة .. وقال وهو يضرب البحر ..
دأعيا ربه : يامن كنت قبل كل شيء .. والمكون
لكل شيء .. والكائن بعد كل شيء .. اجعل
لنا فرجا ومخرجا .**

وراوا عجباً .. راوا في البحر طريقاً ممتداً ..
.. اتساعه أربعمائة متراً .. وقد تجمد الماء على
جانبه .. بارتفاع يعادل سعة الطريق .. فكلنا
جيلين عظيمين من الثلج يحيطان به « فانطلق
فكان كل فرق كالطود العظيم » (٦٣ الشعراء)
أي كل جانب صار جبلاً ضخماً عظيماً . وانساب
موسى مع قومه على هذا الدرب العجيب .

ووصل فرعون ومعه مشيره هامان الى شاطئ
البحر .. وخلفهما الوزراء والقواد والساكر
والدساكر وما زال في نفس فرعون عزة التاله ..
ورداء الكبر .. فقال لقد هابنى البحر فانشق
لى .. لادرك هؤلاء المارقين عن طاعتي ..
الخارجين على العبودية لى .. ثم ضرب حصانة
الذى يجر مجلته الحربية .. لينزل في البحر
امام جنوده .. فينطلقوا خلفه لآبادة الاسرائيليين
.. ولكن الحصان جمع وتراجع .. وكأنه يرى

الموت رابضاً له على راس هذا الطريق .. فحاول
فرعون دفعه الى النزول .. فلم يزد الا آباء
وجموحاً .. على غير عادته في المعارك السابقة ..
وأصر الجواد على التقهقر .. ولكن « سنستدرجهم
من حيث لا يعلمون » .

هبط جبريل - عليه السلام - راكباً فرساً
انثى مشتهية لفحلها (١) .. وعليه عمامة سوداء
.. فتقدمهم وخاض البحر .. وظنوه فارساً
منهم .. فلما شم الحصان ريحها .. اقتحم
بفرعون البحر في أثرها .. ونزلت خلفه تلك
الآلاف المؤلفة من جند مصر وقادتهم وامرائهم
ويروى صاحب الكشاف ، عن عطاء بن السائب :

ان جبريل - عليه السلام - كان بين بني
اسرائيل .. وبين فرعون .. فكان يقول لبني
اسرائيل ليلاحق آخركم بأولكم .. ويستقبل
القبض فيقول رويدكم .. حتى يلاحق بكم آخركم .



(١) القرطبي وغيره ٩٠ / يونس .

٢ الفرق

بيده .. وقد ورد ذكر هذه الورقة في كثير من كتب التفسير .. وانقل لك نصها من تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل للامام عبد الله النسفي :

روى ابن جبريل آتاه بغتيا - يقصد فرعون - : ما قول الأمير في عبد رجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه .. وادعى السيادة دونه ؟ (١) ..

فكتب فيه يقول :

يقول ابو العباس الوليد بن مصعب (٢) :

جزاء العبد الخارج على سيده .. الكافر نعمائه .. أن يفرق في البحر .. فلما الجمه الفرق .. ناوله جبريل - عليه السلام - خطه فعرفه .. « حتى اذا أدركه الفرق قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين » (٩٠ يونس) .

لقد خيل له أنه يستطيع ان يخدع موسى وربه

.. كما كان يخدعهم من قبل .. عند نزول آيات العذاب السابقة .. فجعل جبريل يدس في فمه من حما البحر .. مخافة أن ينطق كلمة التوحيد .. وقال له « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » (٩١ يونس) .

وفي الحديث أن جبريل - عليه السلام - قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -

« ما أبغضت أحدا من الخلق .. ما أبغضت رجلين : أما أحدهما فمن الجن .. وهو ابليس

في الوقت الذي خرجت فيه مؤخره بني اسرائيل من البحر .. نزلت مقدمة جيش فرعون اليه .. يقودهم جبريل بفرسه .. وخلفه عجلة فرعون الحربية .. وأراد موسى أن يضرب بعصاه نارية ليطلق الطريق .. ولكن جبريل - عليه السلام - طلب منه أن يتركه مفتوحا ليقتحمه أعداء الله فقد كتب عليهم الفرق والهالك جميعا . « واترك البحر رهوا أنهم جند مفروقون » (٢٤ الدخان) .

والرهو معناها : الساكن الهادي .. وفي هذا يقول الاعشى :

يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة

ولا الصدور على الأعجاز تتكل

أي اترك البحر ساكنا هادئا على حاله .. حتى يضم جيش الشيطان بمن فيه وما فيه .. ويكون الهلاك عاما شاملا .. لا يدر فيهم طافية .. ولا يبقى منهم باقية .

ووقف موسى وقومه ينظرون .. واذا بجبال الثلج تنهار .. فتنحط تلك الكتل الضخمة من عل لتدفن هؤلاء تحتها في قاع البحر بخيولهم ومركباتهم .. وعددهم وآلاتهم الحربية « وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنتظرون » (٥٠ البقرة) .

وانفرد جبريل - عليه السلام بفرعون بين تلك الجبال المتلاطمة .. وهذه الصخور المتصارعة وعرض عليه ورقة كتبها بخطه .. ووقع عليها

(٢) ذكرنا ان هذا اسم فرعون وكنيته .

(١) القرطبي وغيره ٩٠/يونس .

كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون « تكلمة آية (٩٢ يونس) » .

وقد جمع علماء الآثار جثة منفتاح مع غيرها في قبر امنحتب الثاني بالاقصر .. وظهر من آثار قهر منفتاح .. انه لم يكن مهيئا كما يجب لدفن ملك مثله في عظمته ومجده .. لان موته لم يكن منتظرا .. فلم يهيا له قبر خاص وجاء في موسوعة تاريخ العالم « التي اصدرها وليم لانجر .. نشر مؤسسة فرانكلين .. في الاسرة التاسعة عشرة .. أن رمسيس الثاني حكم من عام ١٩٥٢ ق م - وان منفتاح حكم من ١٢٢٥ - ١٢١٥ ق م (٧) .. فيكون مدة حكم منفتاح عشر سنين فقط .. ومعنى هذا أن رمسيس الثاني هو الذي ربي موسى .. وان منفتاح وهو صغير قد غاصر موسى وهو يربي في بيت أبيه .. ويكون ايضا منفتاح هو الذي أراه الله - سبحانه - الآيات ليهتدى فلم يهتد .. فأدركه الفرق .

ويقول سعيد بن جبير : أرسل معاوية الى ابن عباس .. يسأله عن مكان لم تطلع فيه الشمس الا مرة واحدة .. فأرسل اليه : انه المكان الذي انفلق عنه البحر لبنى اسرائيل .

وجاء في الاصحاح الخامس عشر من سفر الخروج :

فرح بنو اسرائيل .. وأجلنوا فرحهم .. مترنمين بتسبيح الله - تعالى واخذت مريم أخت هارون الدف .. وخرج جميع النساء وراءها يدفنن ويرقصن لنجاتهم .. وهلاك عدوهم .

ولقد كان العبور يوم عاشوراء .. قصاموه شكرا لله .

□ □ □

لعنه الله - حين أبى أن يسجد لآدم وقال : « انا خير منه » والآخر من الانس .. وهو فرعون ، حين قال « انا ربكم الاعلى » .. ولو رأيتني يا محمد .. وأنا آخذ من حمأ البحر .. وأدسه في فيه مخافة أن يقول كلمة التوحيد .. فيرحمه الله بها (١) ..

واللاحظ أن فرعون لم يقل - في ايمانه عند الفرق - كلمة التوحيد « وهى لا اله الا الله » وانما قال « لا اله الا الذى آمننت به بنو اسرائيل » ولو قالها .. لرحمه الله بها .

وقد قرأت رأيا لجلال الدوانى .. يقول : أن فرعون ناج لانه آمن قبل موته .. وهذا الراى يناقض قول الله تبارك وتعالى « وليست التوبة للذين يعلمون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن » .

وقوله ايضا « يوم يأتى بعض آيات ربك .. لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل او كسبت في ايمانها خيرا » وفرعون لم يكسب في ايمانه خيرا .. بفرض أنه آمن قبل موته .

ثم قال جبريل لفرعون « فاليوم ننجيك ببندك لتكون لمن خلفك آية » (٩٢ يونس) .

فلم يخرج من جثثهم غير جثته .. أما باقى الجثث فقد دفنتها الثلوج . فى أعماق البحر .

ورأت السيدة آسية - امرأة فرعون - فى منامها .. المكان الذى لفظ فيه البحر جثة منفتاح زوجها .. فأرسلت من ينتشلها .. ثم استدعت الحانوطية - وهم الذين يقومون بتحنيط أجساد الموتى .. ولعل اسم « الحانوتى » الذى مازال ساريا فى مصر الى الآن .. اسم موروث من أبام الفراعنة . فأمرتهم بتحنيط جثة منفتاح - وقامت بدفنه .. ومازال هذا البدن آية لنا فى دار الآثار المصرية .. » وان

(١) نلاحظ أن كلا من إبليس وفرعون قال « انا » فإبليس قال انا خير منه وفرعون قال « انا ربكم الاعلى » ولا يجوز لخلوق أن يقول انا فى مواقف التنفيل وقد ورد هذا الحديث فى القرطبي وغيره . ٩٠/يونس .

(٢) موسوعة تاريخ العالم - الجزء الاول ص ٥٠ .

٣ الورثة المستضعفون

المادى : فيقول الله - سبحانه - عنه « وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

« وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها .. وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون » (١٢٧ الاعراف) .

قيل ان موسى بعد غرق فرعون وقومه .. ونجاته بمن معه أرسل جيشين كبيرين .. بكل منهما اثنا عشر الفا .. بقيادة يوشع بن نون - وهو فتى موسى - فدخل مدائن فرعون .. وغنم منها الكثير من الخيرات التي لا تحصى .. والأموال التي لا تستقصى .. ثم استخلف على مصر رجلا منها .. وعاد بجيوشه ثانية الى موسى - عليه السلام - في سيناء .. غانمين شاكرين .

لقد حقق الله وعده الذى قرر فيه « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الأرض » فورث هؤلاء المستضعفون الأرض التي بارك الله فيها بالخصب والنماء .. وكثرة الأشجار والأنهار .. والحب والثمار .. فدانت لهم مصر والسلام بعد العماقة والفراعنة .. جزاء صبرهم على البلاء .. ورضائهم بالقضاء .. ومن قابل البلاء بالجزع .. وكله الله اليه .. ومن قابله بالصبر .. أثبت له سبحانه - أن الفرج حق مكفول عليه .

ودكت العمارات الفارحة .. والمصانع الشامخة .. والعرائش المتراسة من الجنات والبساتين ذات الأزهار والرياحين .. « كذلك وأورثناها قوما آخرين » (٢٨ الدخان) .

سبحانك ربنا .. تؤتى الملك من تشاء .. وتنزعه ممن تشاء .. تعز وتذل وتغنى وتفقر .. وترفع وتخفض .. لا معقب لحكمك .. ولا راد لأمرك .. ولا سلطان لمخلوق فى ملكك وملكوتك ولا قوة لطاغ أو ظالم أمام عظمتك وجبروتك .. شئت أرادتك وعدلك .. أن تسبق رحمتك غضبك .. وحلمك سخطك .. فكم أرسلت الى فرعون وآله آيات مفصلات .. ونلوا بينات .. علمهم يتفكرون أو يعقلون .. ويتذكرون ولا ينسون فلما انتهت الوسائل وذابت جميع العوامل أخذتهم أخذ عزيز مقتدر .. جبار منتقم .. وحقا : « ان الله ليملى للظالم .. حتى اذا أخذه لم يفلته » ..

فاخرجتهم من قصور عالية .. وعمارات فارحة .. وحدائق وجنات .. وبساتين زاهرات وأنهار جارية .. وأموال زاخرة ..

« كم تركوا من جنات وعيون .. وزروع ومقام كريم .. ونعمة كانوا فيها فاكهين » (٢٥ - ٢٧ الدخان) .

وكلمة نعمة بفتح النون .. تلفت نظر القارىء الحصيف .. حيث لم يسمها الله - سبحانه - وتعالى - نعمة بكسر النون .. حسب المنطق المألوف .. وقد أتى هذا اللفظ بفتح النون أيضا فى قوله تعالى : « ذرى والكليبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » (١١ الزمل) .

ولعلنا نلمس المقصود فى المقامين .. فكل متاع الدنيل المادى .. لا يسميه الله نعمة .. وإنما النعمة بفتح النون لا بكسرها .. فهو مشتق من الإثعام والنعم .. وأما النعيم غير

ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء .. كانوا مسخرين مستعبدين في أيديهم .. فكان هلاكهم أيضا على أيديهم .. وورثوا ملكهم وديارهم .. « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » (٢٩ الدخان) .

ولعل المقصود بكاء السماء والأرض ..
ماروى في الحديث :

« ما من مؤمن مات في غربة .. غابت فيها بواكيه .. إلا بكت عليه السماء والأرض » وقد ورد هذا في قول جرير أيضا :

تبكى عليك نجوم الليل والقمر .. مبالغة في وجوب البكاء على العزيز المفقود .

فنفى البكاء عليهم تهكما بهم .. وسخرية منهم .

وقد روى ابن عباس - رضى الله عنه - أن المؤمن عند موته .. تبكى عليه مصلاه .. وآثاره في الأرض .. ومساعد عمله . ومهابط رزقه . لم يحزن على فقدهم أهل السماوات .. وهم الملائكة .. ولا أهل الأرض وهم المؤمنون .. فمن يبكيهم ؟ .

لقد كان هلاكهم عيدا .. فرح فيه المؤمنون بنصر الله .. وفرح فيه الملائكة بالقضاء على أعداء الله .. وفرح فيه الشيطان باكتساب أئمة يدمون إلى النار .. وجعلناهم أئمة يدمون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون » (٤١ القصص) .

وطويت صفحة من صفحات الظلم في تاريخ البشرية .. وللظلم في سفر الحياة صفحات وصفحات . فكم روى التاريخ عن رجال من الأنس .. نفخ الشيطان في دوسهم نفثات الكبر والطاغوت .. فخيّل اليهم أنهم خلّفوا ليأمروا .. ويأمرون ليسمعوا .. ويسمعون ليطيعوا .. حتى إذا دالت لهم الدنيا .. وخضعت أمامهم رقاب العباد .. يظنون منها ما يشاءون .. سواء كان فجأ أو جنيا .. فلا هم لهم إلا أزالة المقبات التي تحول بينهم وبين ما يشتهون ..

وزين لهم الشيطان سوء ما كانوا يعملون .. وإذا بتلك الصفحة القائمة السوداء .. تطوى بما فيها فجأة .. ثم تضمها أضيال السنين بين دفتيها « ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » (٦٧ الشعراء) « وأنبهناهم في هذه الدنيا لعنة .. ويوم القيامة هم من المقبوحين » (٤٢ القصص) .



2 [الإبتلاء بالنعم بعد النقم]

ويظهر هذا في التعبير القرآني « وجاوزنا بنى إسرائيل البحر .. فاتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم .. قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » قال أنكم قوم تجهلون » (١٣٨ الأعراف) .

فالتعبير بالفاء قبل اتوا .. والفاء كما أعلم للترتيب مع التعقيب .. يدل على أنهم طلبوا هذا من موسى عقب خروجهم من البحر مباشرة .
قوم عميت قلوبهم .. وعميت أبصارهم .. وتحجرت قلوبهم .. وصيدت أرواحهم .. فلم تؤثر فيهم عظة .. ولم تنبه نفوسهم عبرة .

راوا بأعينهم كيف نجوا بمعجزة لا تخطر ببال .. وشهدوا آية هي أشبه بالمحال .. فمشوا في اليم في طريق ييس لا يخافون فيه دركا .. ولا يخشون غرقا .. ثم بعد هذا يطلبون من موسى إلها يعبدونه .. وصنما يقدسونه ؟ ان دل هذا على شيء فانما يدل على أنهم لم يكونوا قد آمنوا بدين موسى - عليه السلام - وانما رضوه زعيما لهم وقائدا لركبهم فقط .. فلم يخالط الايمان بشاشة قلوبهم .. ولم يسكن اليقين اعماق ضمائرهم .. ويظهر هنا بلادة طبيعهم وسوء تفكيرهم .. والله أدرى بقسوة قلوبهم .. وأعلم بجحود سليقتهم .. فما كان هلاك فرعون تكريما لهم .. بل كانوا خليقين بما أصابهم به فرعون .. من عذاب وتنكيل .. وتسخير وتقتيل .. فهم أهل فتنة في أى مكان يحلون .. ورسل شر في كل بلد ينزلون .. ولم يكن ما أصابهم على يد فرعون .. الا جزاء لهم على سوء فعالهم .

جاء يهودى الى على بن ابي طالب - رضى الله عنه وكرم وجهه - فقال له : يا ابا الحسن ما صبرتم بعد نبيكم خمسا وعشرين سنة .. حتى قتل بعضكم بعضا ..

فقال : بلى قد كان صبر وخير ولكنكم ما جفت أقدامكم من حمى البحر .. حتى قلتم يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة .

وذلك أنهم بعد نجاتهم من فرعون وغرقه .. مروا في طريقهم بقوم من الصمالة انقطعوا وتفرغوا لعبادة تماثيل للبقر .. فطلبوا من موسى أن يصنع لهم إلها يعبدونه .. كما يعبد هؤلاء ..

وهذا كما قال بعض جهال الأعراب .. وقد راوا شجرة خضراء للكفار تسمى ذات أنواط (١) .. يعظمونها في كل سنة يوما : يا رسول الله .. اجعل لنا ذات أنواط .. كما لهم ذات أنواط .. (١) فقال عليه الصلاة والسلام « الله أكبر قلتم - والذي نفسى بيده - كما قال قوم موسى .. اجعل لنا إلها كما لهم آلهة .. قال أنكم قوم تجهلون .. لتركبن سنن من قبلكم .. جدو القذة بالقذة (٢) حتى أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .. وكان هذا في مخرجه الى حنين (٣) ..

طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها .. جحود فوق التصور .. وكفر لا يحده فكر .. ولا يحصره خيال .. فما زالت الأحداث قريبة .. والآيات واضحة .. والأدلة بينة .. ولم تجف أقدامهم بعد من حمى البحر .. كما قال على - رضى الله عنه - لليهودي .

(١) ينوطون بها أسلحتهم .. أى يملقونها .

(٢) القذة : ريش السهم .. قال ابن الأثير : يضرب مثلا للشئين يستويان ولا يتفاوتان .

(٣) من القرطبى ١٣٨/الأعراف .

والتاريخ ملء بمثل هذا التنكيل بهم ..
من أيام جالوت وبختنصر وابطرة الرومان في
العصر القديم .. وما عانوه من المذابح التي
اكلت رجالهم ونساءهم في روسيا واسبانيا
والمانيا في العصر الحديث .

فهم خلف كل فتنة .. ووراء كل محنة
انسانية في كل عصر ودهر .. وانما كان هلاك
فرعون .. بسبب ما آل اليه امره كفرا وعنادا
بقوله : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غیری » .

ولهذا كان رد موسى عليهم .. لما طلبوا منه
الها يعبدونه .. وصنما يقدسونه :

« قال اغیر الله ابغیکم الها وهو فضلكم على
العالمین . واذا انجیناکم من آل فرعون بسومونکم
سوء العذاب یقتلون ابناءکم ویستحيون نساءکم ،
وفي ذلکم بلاء من ربکم عظیم » (١٤٠ - ١٤١
الاعراف) یدکرهم موسى بأن الله فضلهم على
العالمین فی زمنهم .. ویدکرهم بأن الله اختارهم
لاظهار آیاته . وابرار معجزاته .. لينجیهم من
سوم العذاب .. وقتل الأبناء .. واستحباء
النساء .. ویدکرهم بأن ابتلاءهم بالنقم كان
عظیما . ولكن انی لهم الذکری ؟ .

فما كان صبرهم على هذا الابتلاء عن رضا
وتسليم لله .. وانما كان صبر الضعیف المستکین
المغلوب على امره .. دون ان يتأثر بذلك وجدانه
.. او تنفعل خواطره .. او يصحو ایمانه .

ویزدهر امامنا نجم قرآنی .. تسطع
اشعاعاته .. وتتلالا انواره .. فیملأ الأفق سنا
وبریقا .. لیزید المؤمن ایمانا وتصديقا ..

« فلولاً اذا جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن
قست قلوبهم ووزین لهم الشیطان ما كانوا یعملون .
فلما نسوا ما ذکرنا به فتحنا علیهم ابواب کل
شیء ، حتی اذا فرحوا بما اوتوا اخلدناهم بغته
فاذا هم مبلسون » (٤٣ - ٤٤ الانعام) .

وكما یكون الابتلاء بالنقم وكثرة الآلام ..
یكون بالنعم وتحقيق الآمال .. ففتح الله لهم
ابواب كل شیء .. لیفرحوا بما اوتوا ..
ولیقولوا نحن شعب الله المختار .. حتی يأخذهم
بفتة .. فاذا هم مبلسون » .. والابلاس هو
الیاس المطلق من رحمة الله .. ومنه سمی
عزازیل ابلیسا .

وبخهم موسى وانبهم قبل ان یدکرهم بالآء
الله التي كفروها .. ونعمه التي جحدوها ..
فقال لهم « انکم قوم تجهلون .. ان هؤلاء متبر
ما هم فیہ ، وباطل ما كانوا یعملون » (١٣٨ -
١٣٩ الاعراف) .. ان تلك الالهة التي تتمنونها
.. ما هی الا مادة زائلة .. وعقیده باطلة ..
وقد رأیتم بأعینکم کیف دمرنا هذا الملك العریض
.. واهلکنا ذلك الطافی العنید .

وانطلقوا مع موسى - علیه السلام - فی ذلة
ومسکنة « وضربت علیهم الذلة والمسکنة ، وباءوا
بغضب من الله » (٦١ البقرة) .. قاصدين جهة
الشرق .. حیث ادرکتهم القیلولة فی صحراء
جرداء .. لاطل فیها ولا ماء .. وأدرکهم العطش
.. فاستغاثوا بموسی .. فضرب بعصاه الحجر
الناتیء فی الجبل .. فتفجرت جوانبه بماء عذب
زلال .. جرى من اثنتی عشرة عینا .. لیكون لكل
قبيلة عین منها .. لانهم أحفاد الاسباط -
یوسف واخوته - وقد سماهم الله - سبحانه -
الاسباط لأن كل واحد منهم رأس لقبيلة من
قبائل بنی اسرائیل .

وشربوا واستمتعوا « وقطعناهم اثنتی عشرة
اسباطا أمما ، وأوحینا الى موسى اذ استسقاء
قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه
اثنتا عشرة عینا قد علم کل أناس مشربهم »
(١٦٠ الاعراف) .

بنفس العصا التي ضرب بها البحر فجمد ..
وصار جبلین عظیمین .. ضرب بها الجبل
فسال وصار ماء سلسبیل ..

فسبحان الله القادر العلیم .. البر الرحیم .

ثم شكوا اليه شمس البیداء ولهیها ..
وقیظ الصحراء وجحیمها .. فأشار بعصاه نحو
السماء واذا بسحابة لینة رخية .. تحول بینهم
وبین أشعة الشمس اللاذعة .. فتهدد من
حدتها وترطب الرمال تحت أقدامهم فتخفف من
حرارتها .. واحسوا بالجوع ، فسألوا موسى
.. وسأل موسى ربه .. فأرسل الیهم افواجا
افواجا من طائر السلوی - وهو السمانی -
فیمسك الواحد منهم ما یشاء ثم یدبجه طعاما
طیبا .. وتخرج لهم الأشجار الجبلية المحیطة
بهم أقراسا من المن كأقراص العسل .

□ □ □

٥ الميقات

وقد ذكر الكشاف أنه اختار من اثني عشر سبطا .. من كل سبط ستة .. حتى تتأموا اثنين وسبعين فقال : ليتخلف منكم رجلان .. فتشاحوا .. فقال : لمن تعد اجر من خرج .. فتعد كالب ويوشع وكان جميعهم بين العشرين والأربعين .. فقد ذهب عنهم الجبل والصبا .. فأمرهم موسى أن يصوموا ويتطهروا .. ويطهروا ثيابهم .. ثم خرج بهم الى طور سيناء لميقات ربه .

وعند ما قرب من الجبل .. أسرع الخطى لهفة الى لقاء مولاه .. والطريق دائما عند سعى الحبيب الى الحبيب طويل .. والزمن في مثل هذا الحال بطيء ثقيل .. فسبق القوم متمجلا لحظة اللقاء .. فقال الله تعالى له : -

« وما أعطاك عن قومك ياموسى .. قال هم أولاء على اثرى وعجلت اليك رب لترضى » (٨٣ طه ٨٤) .

وروى أنهم عندما صعدوا الجبل .. اهتز بهم .. ورجف من تحتهم .. فقال موسى : يارب .. لم تلك الرجفة ؟ .. هؤلاء هم صفوة القوم .. أكثرهم إيمانا وأقواهم يقينا .. فقال الله له : « ياموسى ان بين قومك نماما » فأخذ موسى العجب والدهشة .. وقال : من هو يارب ؟ .. فقال الله له : هل أنهى عن النسيمة وأنم يا موسى ؟

« واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا .. فلما أخذتهم الرجفة .. قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، أنت ولينا فأفقر لنا وارحمنا وأنت خير الفافرين » (١٥٥ الأعراف) .

بعد ان استقر بهم المقام .. وهبات الأمور .. طلب موسى من أخيه هارون .. أن يخلفه في القوم ثلاثين ليلة .. وعده الله - سبحانه - بها ليتلقى فيها الواح التوراة .. التى تكون لهم عهدا وميثاقا .. يبين الله لهم فيها ما يأمرهم به من محامد ومناقب .. وما ينهاهم عنه من نقائص ومثالب .

« وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة : وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » (١٤٢ الأعراف) .

وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص .. قال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لعلى حين خلفه فى بعض مغازيه « أما ترضى ان تكون منى بمنزلة هارون من موسى .. الا انه لا نبي بعدى » .

ويقول المفسرون عن سبب زيادة الثلاثين ليلة - الى أربعين .. ان موسى صام شهر ذى القعدة وهو المدة التى واعده الله بها .. ولكنه أنكر خلوف فمه بعدها بالسواك .. فأوحى الله اليه : ياموسى لا أكلمك حتى يعود فوك الى ما كان عليه قبل .. أما علمت أن خلوف فم الصائم اطيب عندى من ريح المسك (١) .. وأمره أن يزيد عليها .. صوم عشرة أيام من ذى الحجة .. كما يحتمل المعنى .. أن الله تعالى - كلفه اختيار سبعين رجلا من اخلص القوم .. وأشهدهم إيماننا وقدرة على مرافقته فوق الجبل .. لتلقى الألواح وحدد له من أجل ذلك مدة ثلاثين يوما .. ولكن المدة أنقضت دون أن ينتقى منهم العدد المطلوب فأنمها الله سبحانه - بعشر فيال أخرى .

(١) القرطبي ١٤٢/الأعراف .

ما تجلّى للجبل الا قدر جناح بعوضة ، فصار الجبل دكا ، وقال ابن عباس : صار ترابا .

فهل كان موسى - عليه السلام - وهو من اولى العزم من الرسل - يجهل الفرق بين النظر والبصر ؟ موسى الذى يقول عنه نبينا عليه الصلاة والسلام .. فى الحديث الصحيح .. من حديث ابي هريرة وغيره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تخيروا بين الانبياء فان الناس يصعقون يوم القيامة فارفع رأسى .. فاذا انا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش .. فلا أدري .. أصعق فيمن صعق فأفاق قبلى أو حوسب بصعقته الاولى » أو قال « كفته صعقته الاولى » (١) .

اعتقد ان هذا غير حائز فى حقه عليه السلام .. وانما قال هكذا كما قال له النقياء اربنا الله جهرة فطلب من ربه الرؤية ليروا النتيجة بأنفسهم .. وكانت الصاعقة التى اخذتهم جميعا .

« واذا قلت يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة » ولفظ « جهرة » يحدد لنا المعنى المقصود من الرؤية بأنهم يطلبون النظر اليه - سبحانه - بأعينهم المادية « فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون » (٥٥ البقرة)

ويقول بعض المفسرين انهم ماتوا خمسة ايام .. ثم بعثهم الله بعد موتهم .. مستشهدين على ذلك بالآية الثانية : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » وهذا المعنى جائز .. ولكن المعنى الذى ترتاح اليه النفس ، ان الكفر موت .. والحياة ايمان .. وهذا ظاهر فى قوله تعالى « استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم »

فكان موقفهم فى طلب الرؤية كفر ما بعده كفر .. خاصة انه طلب مصحوب بالتحدى بقولهم : « لن تؤمن لك حتى نرى الله » .

فأخذتهم الصاعقة التى خروا منها مغشيا عليهم .. ومعهم موسى كذلك .. « فلما افاق قال سبحانهك تبت اليك » .. الخ الآية .

يقول الترمذى صاحب تفسير الكشاف :
خر مغشيا عليه غشية الموت .. وقيل خر موسى صعقا يوم عرفة ، وأعطى التوراة يوم النحر .

ثم وقع على الجبل عمود الغمام حتى تغشاه كله .. ودنا موسى منه ودخل فيه ، وقال للقوم ادنوا .. فدنا حتى اذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجدا ..

فلما كشف الغمام أقبلوا الى موسى .. فطلبوا منه رؤية الله - جل شأنه فقال « رب ارنى انظر اليك » .

وللمفسرين فى هذا المقام مناقشات واسعة .. وآراء مختلفة .. صال فيها وجال كل من اهل السنة والمعتزلة .. فى هل تجوز رؤية الله أم لا تجوز ؟ ولا يهمنى فى هذا الأمر الا ما اتفق عليه الجميع من انه لا تجوز رؤيته - سبحانه جل شأنه - بالعين المحسوسة .

واذا كان موسى - عليه السلام - قال « رب ارنى انظر اليك » فالنظر غير البصر فمثلا « وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون » فقرر لهم النظر ونفى عنهم البصر .. كما أن نفس المعنى فى قوله تعالى « فلو لا اذا بلغت الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون » ونحن اقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون .

ونلمح هذا ايضا فى قوله - سبحانه - « ومنهم من ينظر اليك افانت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » .. ومن هذا نرى أن النظر متعلق بالناحية المادية . وفى الآية التى نحن بصددنا .. نرى موسى - عليه السلام - يقول « رب ارنى انظر اليك » .. فهل يكون الله جل شأنه - محلا لوقوع النظر المادى .. بالعين المادية المحسوسة المموسة ؟ .. هذا مجال على الله - جل شأنه - ولهذا كان رد العلى العظيم عليه « لن ترانى ، ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلّى ربه الجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما افاق قال سبحانهك تبت اليك وانا اول المؤمنين (١٤٣ الاعراف) ..

وقد روى ثابت عن أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - انه قرأ « فلما تجلّى ربه للجبل » فقال « هكذا » ، ووضع الابهام على المفصل الأعلى من الخنصر .. وقال السدى :

« وظللنا عليهم الغمام ، وانزلنا عليهم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون » تكملة آية (١٦٠ الاعراف) ..

وعاشوا في هذا المكان من سيناء آمنين ..
توافرت لهم فيه كل اسباب الحياة من ظل وماء ..
وطعام وغذاء .. وامن وراحة بعد طول خوف وشقاء .

ويبدو جليا بعد هذا .. ما اتسمت به طباعهم .. من جحود وطمع .. وجحود وجشع .. وما جبلت عليه فطرتهم .. من شيث وكفر .. وسخط وغدر .. فقد جعل الله سبحانه لهم تلك الصحراء الجرداء .. جنة فيحاء . ظل ظليل .. وماء عذب سلسبيل . غذاؤهم

لحم طير مما يشتهون .. وحلواهم اقراص من العسل المصفى في كل حين ..

ولكن لم يعجبهم هذا الحال .. فقالوا « يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقشائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال اتستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير ، اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم » (٦١ البقرة) .

فلا تصلح الصحراء لانبات البقول والخضر التي تطلبونها .. مع انها ادنى مما حباكم الله به من خير ورزق طيب .. وانما هذه لاتوجد الا في مصر من الامصار .. حيث تخصب الأرض .. وتجرى الانهار .. فهيا اعدوا انفسكم لدخول الأرض المقدسة ولكم فيها ما تشتهون .



٦ الألواح

- ٨ - ولا تسرق .. فأحجب عنك وجهي ..
وأغلق دون دعوتك أبواب السماوات .
- ٩ - ولا تذبح لغيري .. فإنه لا يصعد الى
من قربان اهل الأرض الا ما ذكر عليه اسمي .
- ١٠ - وأحجب للناس ما تحب لنفسك ..
وأكره لهم ما تكره لنفسك .

وقد وردت تلك الوصايا العشر في القرآن
الكريم .. في قوله تعالى « وقضى ربك ألا تعبدوا
الا اياه » الى « ذلك مما أوحى اليك ربك من
الحكمة » (٢٣ - ٣٨ الاسراء) كما وردت أيضا
في قوله « قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم »
الى قوله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (١٥١ -
١٥٣ الأنعام) .

وقد قرأت فيما قرأت خبرا مؤداه .. ان
كسب الأخبار .. رأى خبرا من اليهود يبكى .
فقال له كعب : أنشدك الله .. لئن أخبرتك بما
أبكاك .. تصدقنى ؟
قال : نعم .

ثم سأله عن أشياء في التوراة منها :

أنشدك الله .. هل تجد في كتاب الله المنزل
.. أن موسى نظر في التوراة .. فقال : يارب ..
انى أجد أمة اذا أشرف أحدهم على شرف كبير
الله تعالى .. واذا هبط الى واد حمد الله
تعالى .. الصعيد لهم ظهور .. والأرض لهم
مسجد حيثما كانوا .. يتطهرون من الجنابة ..
طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء ، حيث
لا يجدون الماء .. فمأخوذ من آثار الوضوء
.. فاجعلهم أمتي .. قال : هي أمة أحمد
باموسى ؟ قال الحب : نعم .

تلقى موسى الواح التوراة .. وقيل كانت
عشرة الواح .. او سبعة .. وكانت من خشب .
كما يقول الحسن - رضى الله عنه - نزلت من
السما .. وكان طولها عشرة أذرع .

واذكر هنا الوصايا العشر التى وردت في
الواح موسى . ، لنرى انها هى التى وردت في
انجيل عيسى .. ثم جاءت مفصلة في القرآن
الكريم المهيمن على الكتب كلها . ، ولنعلم ان
المنبع واحد .. والمصدر واحد .. والدين
واحد .. فقد جاء فيها :

١ - لا اله الا أنا فاعبدنى .. ولا تشرك

بى شيئا .

٢ - واشكر لى ولوالديك الى المصير ..
أحييك حياة طيبة .

٣ - ولا تقتل النفس التى حرمت عليك ..
فأضيق عليك السماء بأقطارها .. والأرض
برحبها .

٤ - ولا تحلف باسمى كاذبا .. فأنى
لا أظهر ولا أذكى من لا يعظم اسمى .

٥ - ولا تشهد بما لا يعى سمعك ..
ولا تنظر عينك .. ولا يقف عليك قلبك .. فأنى
أوقف أهل الشهادات على شهادتهم يوم القيامة
.. وأسألهم عنها .

٦ - ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من
فضلى ورزقى .. فان الحاسد عدو نعمتى ..
ساخط لقسمتى .

٧ - ولا تزن .. ولا تفجرن بحليلة جارك
.. فإنه أكبر مقتا عندى .

حسنة .. تتطابق مع قوله تعالى « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها » ..

وهكذا نرى كيف يطبع الله على قلوب المتكبرين .. وكيف يخذلهم .. فلا تبصر أعينهم .. ولا تسمع آذانهم .. ولا تفقه قلوبهم .. ونهر بهم الآيات نلوا الآيات .. وتشملهم العبر بعد العبر ..

فلا تصل الى أفئدتهم .. ولا تنفعل بها خواطرهم .. الا للحظات قصيرات .. ثم تذوب وتلاشى كأن لم تكن ..

ولهذا يقول سبحانه لموسى « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الحق يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » (١٤٦ الأعراف) .

ولا سبب لهذا غير حب الدنيا .. والانشغال بمتاعها .. والانهماك في زينتها وشهواتها .

وعن الفضيل بن عياض قال : ذكر لنا رسول الله . صلى الله عليه وسلم « اذا عظمت أمتي الدنيا نزع عنها هبة الاسلام .. واذا تركوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .. حرمت بركة الوحي » .

وقبل ان يعود موسى بالألواح ، قال الله له : « فانا قد فتننا قومك من بعدك واضلهم السامري . فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا » (٨٥ - ٨٦ طه) .

قال كعب : أنشدك الله .. هل تجد في التوراة ان موسى نظر فيها .. فقال : يارب انى اجد أمة .. اذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها .. كتبت له حسنه .. واذا عملها .. كتبت له عثرا الى سبعمئة ضعف .. واذا هم أحدهم بسيئة ولم يعملها .. كتبت عليه سيئة مثلها فاجعلها يارب أمتى .. قال : هم أمة أحمد يا موسى ؟

قال الحبر : نعم .

قال كعب : أنشدك الله .. هل تجد في كتاب الله المنزل ان موسى نظر في التوراة .. فقال : يارب انى اجد أمة مرحومة أصفياء .. يرثون الكتاب .. فمنهم ظالم لنفسه .. ومنهم مقتصد .. ومنهم سابق بالخيرات .. فلا اجد احدا منهم الا مرحوما .. فاجعلهم أمتى . قال : هم أمة أحمد يا موسى .. فقال موسى : باليتنى من أمة أحمد ؟ .

وقال الله له « يا موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخلدما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين » (١٤٤ - ١٤٥ الأعراف) .

ودار الفاسقين .. كما قال قتادة .. هى ارض الجبابة والعمالة بالشام .. رآها بنو اسرائيل ولم يدخلوها .. وانما دخلها أبناؤهم مع يوشع بن نون - فتى موسى - ويقول الكشاف في قراءة « ساوركم دار الفاسقين » وهى قراءة



((فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية))
(١٢ - المائة)

○ النكسة

الفصل السادس

١] موسى السامري

وفي هذا حكمة بالغة .. وآية بينة .. يراها
المبصرون .. ويلمسها المتفكرون ..

يعلم جبريل .. وهو الأقرب الى الله - أن
في هذا اليوم سيولد في بني اسرائيل من يكون
هلاك فرعون على يديه .. فيظنه هذا الوليد
خبىء الكهف .. فيتولى تربيته .. والعناية به
والحذب عليه .. بينما يساق الآخر الى بيت
فرعون ليتولى له ذلك .. ولا يعلم الغيب الا الله
حتى جبريل - وهو الى درجة القرب يصعد ..
لا يعلم غيب الله في هذا الأمر . كما قال بعضهم
والله ما موسى الكليم ولا المسيح ولا محمد
عرفوا ولا النفس البسيطة لا ولا الروح المجرد
كلا ولا جبريل وهو الى مقام القرب يصعد
من كنه ذاتك غير أنك اوحى الذات سرمد.

وقد أورد الأستاذ عبد الوهاب النجار في
كتابه « قصص الانبياء » بحثا حول تسمية موسى
هذا بالسامري .. فذكر سؤالا لانه البعض في
الصحف .. وهو :

كيف يكون السامري هذا هو الذي اضل
بني اسرائيل بالعجل .. مع أن السامري نسبة
الى سامرة وهي بلد بفلسطين لم تكن موجودة أيام
موسى .. وانما الذي اسسها « عمري » وهو
الملك الرابع من ملوك بني اسرائيل .. بعد أن
أنشقت مملكة اليهود الى قسمين : أحدهما نسل
يهوذا .. ومقره اورشليم .. وملوكه من ذرية
داود وسليمان .. وكان رابعهم عمري اشترى
جبل السامرة وبني تلك المدينة .. وجعلها مقرا
لمملكته .. وذلك بعد موسى بنحو ثلاث وعشرين
وخمسمائة سنة .

ويريد أهل الكتاب أن ينفوا عن السامري
صناعة العجل .. الذي ضل به بنو اسرائيل
لأنهم يدعون أن الذي صنعه هو هارون - عليه
السلام - وتلك طبيعتهم في ذم أنبياء الله ورسله

نعود بذاكرتنا قليلا .. الى الليلة التي ولد فيها
موسى بن عمران - عليه السلام - حيث كان
حصار فرعون شديدا حول حبالى بني اسرائيل
.. حتى لا يفلت غلام يولد فيهم من الذبح
.. خشية على نفسه من نبوءة الكهان والمنجمين
له بأن غلاما سيولد من نسلهم .. يكون هلاكه
وهلاك قومه على يديه .

وكان طبعيا أمام هذا البلاء .. أن تبذل
عديد من المحاولات .. لاختفاء بعض المواليد
الذكور .. عن عيون فرعون ونجواسيسه ..
مهما بلغت شدة الحصار واحكامه .

ومن بين من حاول هذا الأمر وبيج فيه
اسرائيلي اسمه ظفر بن سامر .. ولد له غلام
في نفس الليلة التي ولد فيها موسى بن عمران ..
ولم يستطع اخفائه في بيته .. كما فعلت يوكابد
زوجة عمران في ولدها - موسى - حيث أخفته
في بيتها ثلاثة شهور .. لما أوحى الله اليها
« أن ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه في اليم
ولا تخافي ولا تحزني » .

فقام ظفر باخفاء وليده في كهف من كهوف
الجبل القريب من ديارهم .. ويقول المفسرون
أن جبريل عليه السلام - قد رعاه في كهفه حتى
بلغ مبلغ السعى (١) .. وقد جعل الله له في
أصابه رزقا .. وكان هذا الوليد هو موسى
السامري .. الذي استغل غياب موسى في ميقات
ربه على الطور يتلقى الألواح .. فصنع لهم عجلا
من حليهم .. وقال لهم « هذا الهكم وآله
موسى » .

ويصدق قول الشاعر :

فموسى الذى رباه فرعون مرسل
وموسى الذى رباه جبريل كافر

(١) القرطبي وغيره - ١٤٨ - الأعراف .

.. واختلاق الأكاذيب .. وافتراء المفتريات
ضدهم .

ولكن نسبة موسى السامري ليست الى
مدينة سامرة .. وانما الى جده سامر .. وهو
في العبرية شامر .. « والشين » في العبرية
« سين » في العربية .. كما ينطقها أيضا نسل
افرائيم بن يوسف « سينا » .

وقد كان رجال من نسل يهوذا في بعض
الحروب .. يمتحنون الرجل .. ليعرفوا هل
هو من نسل يهوذا أو من نسل يوسف .. بأن
يأمره بنطق كلمة « شبولت » أى سنبله ..
فاذا قال « شبولت » بالسين .. عرفوا أنه من
نسل افرائيم بن يوسف .

وكلمة شامر أو سامر بمعنى .. ونطقها في
العبرية « شومير » كما جاء في الآية التاسعة
من الأصحاح الرابع من سفر التكوين ونصها .

« فقال الرب لقاين ابن هابيل أخوك ؟ فقال
لا أعلم » هشومير أى أنو أخى وترجمتها
أحارس أنا لأخى » ؟ .

راى موسى السامري يوم انفلاق البحر
لعبور بنى اسرائيل .. بعد أن وقف على الساحل
.. ليرى ما يصنع فرعون وجنوده .. راى
جبريل بعمامته السوداء يخوض البحر .. بفرسه
حيزوم .. استدراجا لفرس فرعون .

قال المفسرون : جاء جبريل على فرس الحياة
.. وهى بقاء أنثى .. لا تصيب شيئا الا حى -
بمعنى اذا مست التراب بحافرها دبت الحياة
في التراب .. فلما رآه السامري على تلك
الفرسة عرفه .. وقال : أن لهذه الفرس
لسانا عظيما .. وأخذ قبضة من التراب الحى

.. لاستغلاله في أغراضه السحرية .. والاعيبه
الخداعية .. ثم انطلق كالريح فلحق بينى
اسرائيل .

ولما صعد موسى بعد ذلك الى الجبل بنقباؤه
.. ولم يعد بعد انقضاء الاجل الذى واعدهم
عليه .. وهو ثلاثون ليلة .. قال لهم السامري:
انما أخلف موسى ميعادكم .. لما معكم من الحلى
المسروقة من المصريين .. فهى حرام عليكم
.. لانكم حصلتم عليها بطرق غير مشروعة ..
وطالبهم بالتخلص منها .. والقائها في النار ..
وألقوها فعلا .. فصنع من تلك السبيكة عجلا
جسدا (١) .. والجسد هو الاسم الفنى لخام
الذهب وقد ورد هذا اللفظ في ذكر كرسى
سليمان - عليه السلام - بقوله تعالى :

« والقينا على كرسيه جسدا » أى ذهباً .

والقى السامري قبضة التراب الحى ..
في قم العجل الذهبى .. الذى صنعه من حليهم
.. فخار خوار البقر .. واستزلهم الشيطان
.. وغلبتهم طبيعة الوثنية .. التى اشربوها
في قلوبهم .. فقالوا : هذا الهنا .. نسيه
موسى هنا .. وخرج للقائه على الجبل ..
فعبدوه ورقصوا حوله .. وكانت تلك امنيتهم
التي ابدوها لموسى - عليه السلام يوم نجاتهم
وهلاك فرعون .. عندما مروا يقوم يعكفون
على اصنام لهم .. وقالوا له : ياموسى « اجعل
لنا الها كما لهم آلهة » .

اقرا « حملنا أوزارا ما زينة الثوم
فقدفناها .. فكنلك القى السامري فاخرج
لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله
موسى فنسى (٨٧ - ٨٨ طه)

□ □ □

٢] الوثنية

الله تعالى لموسى : ان القوم قد فتنوا .. فلم يلق الاواح .. فلما عين القى الاواح » .

وعن نعيم الدارى قال : قلت يا رسول الله مررت بمدينة صفتها كيت وكيت .. قريبة من ساحل البحر .. فقال عليه الصلاة والسلام « تلك انطاكية » .. اما ان فى غار من غيرانها رضاضا من ألواح موسى .. وما من سحابة شرقية ولا غربية تمر بها الا ألقت عليها من بركتها .

واخذ موسى - وهو فى ثورته - برأس اخيه هارون بيمينه .. ولحيته بشماله فى عنف وقسوة قائلا « ما منعك اذ رأيتهم ضلوا الا تتبعن اف عصيت امرى » (٩٢ - ٩٣ طه)

لماذا لم تقتلهم بمن ظل على الايمان معك ؟ .. ولو كنت هنا لقاتلتهم على كفرهم .. قال خشيت ان يكون هذا تفريقا بينهم .. ومخالفة لما امرتني به .. عندما قلت لى : « اخلفنى فى قومى واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » . « قال يا ابن ام لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى انى خشيت ان تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى » (٩٤ طه) .

واتجه موسى - عليه السلام - الى السامرى « قال فما خطبك يا سامرى . قال بصرت بما لم يبصروا به » يقصد فرس جبريل « فقبضت قبضة من اثر الرسول » اى من اثر موطىء الفرس .. ويقول الكشاف : ان ابن مسعود قرأ « فقبضت قبضة من اثر فرس الرسول » .. « فنبذتها » اى القيتها فى فم العجل الذهبى . وكذلك سولت لى نفسى « (٩٥ - ٩٦ طه)

وعاد موسى - عليه السلام - الى قومه غضبان اسفا . بعد ان تلقى الاواح .. وبعد ان قال الله له « فانما قد فتننا قومك من بعدك ، واضلهم السامرى »

وكان - عليه السلام - رجلا حاد الطبع .. مجبولا على الخشونة .. والتصلب فى كل شىء .. شديد الغضب .. لله ولدينه .. قال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : كان موسى عليه السلام - اذا غضب طلع الدخان من قلنسوته .. ورفع شعر بدنه جيبته .. وذلك ان الغضب جمره تتقد فى القلب .. ومن اجل هذا .. امر النبى - صلى الله عليه وسلم - من غضب ان يضطجع .. فان لم يذهب غضبه اغتسل .. فيخمدوا اضطجاعه - ويطفئها اغتساله .. وراهم موسى على البعد يكفون على العجل يعبدونه .. ويرقصون حوله مكاء وتصدية .. فاستولى عليه غضب شديد .. وثار ثورة عارمة .. والتقى الاواح من يده على الارض فى ثورته .. وقيل انها كسرت .

وعن الحسن البصرى : ان اسم العجل بهيموت .. وقد عكفوا على عبادته .. واحبوه حبا ما احبوا شيئا مثله .. فقال لهم هارون « يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى واطيعوا امرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى » (٩٠ - ٩١ طه) ولم يسلم من عبادة العجل غير اثنى عشر الفا من ستمائة ألف .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس المعادين كالمخبر .. قال

رحمة بالبقية الباقية من قومهم ، فاستجاب الله لهما وكشف عنهم هذا البلاء ، وعفا عنهم « فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم » (٥٤ البقرة) .

واستسبح القاريء في وقفة قصيرة ..
عند هذا المقام .. لنرى الفرق بين توبة بني اسرائيل عندما اخطأوا .. وتوبتنا نحن المسلمين اذا اخطانا .. ولنعلم ان الله سبحانه ميز امة محمد - عليه الصلاة والسلام .. بميزات لم تتمتع بها امة من الامم .

فهؤلاء قد اخطأوا .. واضلهم الشيطان .. وحاد بهم عن طريق الحق .. فكان سلى من يريد التوبة منهم ان يقتل نفسه .. او يقتل اهله واصدقائه وجيرانه .. كما يقول بعض المفسرين حتى قيل : انه قتل منهم بسبب هذا الجرم عشرات الالوف .. ولولا تضرع موسى وهارون الى الله لظهرت الارض منهم جميعا .. وليدق بعضهم بأس بعض .

توبة كلها قسوة .. وما بعدها قسوة .. واوية جلها شدة .. لا تعادلها شدة .. فهل بعد ازهاق الارواح قسوة وشدة ؟ ..

بينما توبة المؤمن من آل محمد .. الذي سلك سبيله واهتدى بأصحابه .. واقتدى باتباعه .. ان يقول : استغفر الله العظيم واتوب اليه .. بقلب خاشع .. وجنان خاضع ونفس لوامة .. فيقبل الله توبته .

« قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم ٥٣ - الزمر وحق موسى ان يقول : ياليتني من امة احمد ..

وهي نفس خبيثة امارة بالسوء .. لا يقبل لصاحبها عذر .. ولا تصلح له توبة فقال له موسى « فاذهب فان لك في الحياة ان تقول لا مساس ، وان لك موعدا لن تخلفه » (٩٧ طه) .

ما من احد مسه الا حم الماس والمسوس .. فتحاشاه الناس .. وتحاشى الناس .. وكان يصيح كالمجنون : لا مساس .. اى لا يمسنى احد .. وصار اوحيش من القاتل اللاجئ الى حى ومن الوحش النافر في البرية . ويقال : ان نسله باق فيهم ذلك الى اليوم .

وكسر موسى - عليه السلام - الهمم .. وذراه في البحر .. فشرب بعضهم من مائه جبا فيه .. فظهرت على شفاههم صغرة الذهب .

« وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقه (١) ثم لننسفنه في اليوم نسفا . انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علما » (٩٧ - ٩٨ طه) .

وعرف القوم انهم قد ضلوا .. وخسروا .. وانحرفوا بفعلتهم تلك عن دعوة التوحيد .. وزاغوا عن عقيدة التوحيد .. فندموا واستغفروا .. وطلبوا من الله ان يتوب عليهم .

« ولما سقط في ايديهم وراوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرجعنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين » (١٤٩ الاعراف) .

وكان اختبار التوبة لهم قاسيا حيث طلب منهم موسى ان يقتلوا انفسهم ان كانوا صادقين في توبتهم .. جادين في اوبتهم .

« واذا قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باخذكم العجل ، فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم » (٥٤ البقرة) .

واستسلموا للأمر ، وقتل منهم عدد كبير ، ثم دعا موسى وهارون ربهما ان يرفع عنهم البلاء

□ □ □

٣ نق الجبل

رءوسهم .. نتيجة زلزال مدمر وخافوا ان تسقط عليهم .. وهو يؤيد بذلك قول السيد / رشيد رضا - صاحب تفسير المنار - الذي اعترض على مفهوم رفع الجبل فوقهم .. لان في هذا اكراها على الايمان .. وذلك ينفي التكليف - حسب قوله - ونعتقد انه لا داعي لمثل هذه التأولات والاستنتاجات .. ولا يجدر بنا ان نحيد عن ظاهر النص .. فهو صريح في قوله « كانه ظلة وظنوا انه واقع بهم » .. والظن في القرآن يحمل معنى اليقين .. وفي آية البقرة « ورفعنا فوقكم الطور » .

وقال الامام الشيخ محمد عبده : لا حاجة بنا في فهم كتاب الله .. الى غير ما يدل عليه بأسلوبه الفصيح .. فهو لا يحتاج في فهمه الى اضافات او ملحقات .. وقد ذكر لنا مسألة رفع الطور فوق بنى اسرائيل .. ولم يقل انه اراد بذلك الاكراه على الايمان .. وانما حكى عنهم انهم ظنوا انه واقع بهم .. فقد قال تعالى في سورة الاعراف : « واذا نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة ... الخ » .

وروى الثعلبي عن عطاء عن ابن عباس :

رفع الله تعالى فوق رءوسهم الطور .. وقيل لهم خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا .. فان قبلتموه وفعلتم ما امرتكم به .. والا رضختم بهذا الجبل .. فلما رأوا ان لا مهرب لهم منها .. قبلوا ذلك .. وسجدوا على شق وجوههم يلاحظون الجبل وهم سجدود .. فصارت سنة اليهود .. لا يسجدون الا على انصاف وجوههم .

فلما زال الجبل .. قالوا لموسى سمعنا واطعنا .. ولولا الجبل ما اطعناك .

استقرت الامور .. وهذات الاحوال .. بعد تلك المذبحة الرهيبة .. وجمعهم موسى عليه السلام - ليلقى عليهم الألواح بما فيها من أوامر ونواه .. وتعاليم ومبادئ .. وعبادات والتزامات .. وكانت غليظة ثقيلة بأصارها وإغلالها .. فأبوا احتمالها .. وامتنعوا عن الالتزام بما فيها ..

وحاول موسى ان يفريهم بما لهذا من جزاء كبير عند الله .. وثواب جزيل في الدنيا والآخرة .. ولكنهم أصروا على رفضها .. وتمسكوا بنبذها .. وعدم التقيد بعهودها ومواثيقها .

واذا بهم فجأة .. عند قيامهم من النوم .. يجدون جبل الطور فوق رءوسهم .. مقدار مسكرهم .. وكان فرسखा في فرسخ .. وناداهم موسى .. وقد بلغ به الفيض منتهاه : ليس لكم خيار في هذا الأمر .. فاما ان تقبلوا التوراة بما فيها .. وتلتزموا بما كلفكم به ربكم .. من تكاليف وعبادات ومشقات .. والا ليسقطن عليكم الجبل فيسويكم بالارض .

وازداد بهم الرعب .. واستولى عليهم الفزع .. فخر كل منهم ساجدا على حاجبه الايسر .. وهو يتطلع هلما بعينه خشية سقوطه .. ولذلك لا يسجد اليهودى الى اليوم الا على حاجبه الايسر .. ويقولون : هي السجدة التي رفعت عنا العقوبة .. وعاهدوا موسى على قبول الألواح بما فيها ومن آصار واغللال .. وعبادات وتكاليف . « واذا نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة ، وظنوا انه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » (١٧١ الاعراف) . وقد آثار الاستاذ عبد الوهاب النجار ..

حول هذا الموضوع .. نقاشا طويلا .. يريد ان يثبت فيه ان رفع الجبل لم يكن بالمعنى المفهوم .. وانما بمعنى أنهم كانوا بمنعطف من الجبل .. وقد نتأت منه قطعة ضخمة فوق

٤ التيه

.. أرسل موسى النقباء .. لاستطلاع الأرض .. ومعرفة أحوال أهلها .
وعاد النقباء .. ليجسروا موسى أنهم رأوا فيها قوما جبارين .. صخام الأحسام .. أقوياء الأبدان .. أقرب إلى الوحوش منهم إلى بني الإنسان .. فأخذ عليهم عهدا وميثاقا .. ألا يحدثوا قومهم بما رأوا .. فبوهنوا من عزيمتهم .. ويضعفوا من قوتهم .. وبشوا في قلوبهم الخوف والفرع .. ولكنهم نكثوا العهد .. وبقضوا الميثاق .. وتحدثوا مع قومهم عن تجبر القوم وبأسهم وقوتهم .

فقالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين، وأنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فانا داخلون» (٢٢ المائدة).

صفاقة وجبن . وضعف وذل .. وخور ووهن .. يقولون لموسى :
« لن ندخلها حتى يخرجوا منها » .. ثم يؤكدون هراءهم وصفافتهم وحننهم بقولهم :
« فان يخرجوا منها فإنا داخلون » .

فقال لهم موسى :

إن الله سيفتحها عليكم .. وإن الذي أنجاهم من آل فرعون .. وخلق لكم البحر .. هو الذي بنصركم .. وبظفركم عليهم .. فلم يقللوا نصحه .. وهموا بالإعراض عنه ..

ويقوم فيهم رجلا . .. أنعم الله عليهما بعمه الأيمان .. لم بتحملا ما رأوا من سخف القوم وجبنهم .. وهما : يوشع بن نون من نسل يوسف بن يعقوب .. والثاني كaleb بن يوقا من نسل يهوذا ابن يعقوب (١) وكانا من النقباء الأئس

وجمع موسى قومه في مؤتمر ضخم كبير .. ووقف فيهم متحدثا .. يذكرهم بأفضال الله ونعمه التي لا يحصيها عد .. ولا يستوعبها حد .. اذ جعل في نسلهم الأنبياء والملوك .. وأتاهم من الفضل ما لم يؤت احدا غيرهم .. كانفلاق البحر وانبجاس الحجر بالماء .. وتظليل الغمام .. وأنزال المن والسلوى .

واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم، اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا، وأتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين» (٢٠ المائدة).

وذكرهم موسى عليه السلام .. بنهذفهم الأساسي من خروجهم من مصر .. وهو دخولهم الأرض المقدسة .. التي كتبها الله لهم . فقد وعد الله ابراهيم واسحاق ويعقوب .. بأن أرض الموعد فلسطين - ستكون ملكا لهم ولأودهم .. ووعدهم النصر على الأمم التي يسكنونها في ذلك الوقت .

وكان سكانها من الكنعانيين الجبارين .. وهم العمالقة .. من ولد عملاق ابن لاوذ بن سام ابن نوح .

يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا تتردوا على أديباركم فتقلبوا خاسرين» (٢١ المائدة).

واختار موسى منهم اثني عشر رجلا .. من كل سبط نقيبا .. امره عليهم .. وسار هذا الجيش الضخم .. متجها إلى أريحاء .. عاصمة الشام في هذا الحين .. ولما اقتربوا منها

(١) القرطبي ٢٣ / المائدة

استهانة بالله واستهزاء .. لجهلهم وقسوة
قلوبهم .

وغلب موسى على أمره .. وضيق لذلك
صدره .. فاتجه ببصره الى السماء ودعا عليهم
قائلا :

« رب انى لا املك الا نفسى وأخى .. فافرق
بيننا وبين القوم الفاسقين » (٢٥ المائدة) .

قالها بنا وحزنا .. وشكوى الى الله ..
وحسرة ورقة قلب .. بمثلها تستجلب الرحمة
.. وتستنزل النصرة .. كما يقول يعقوب -
عليه السلام - « انما اشكو بشى وحزنى الى الله »

وروى عن على - رضى الله عنه وكرم وجهه
انه كان يدعو الناس على منبر الكوفة .. الى
قتال البقاة .. فما أجابه الا رجلا .. فتنفس
الصعداء .. ودعا لهما .. وقال أين تقعان بما
أريد ؟ ..

ويذكرنى هذا الموقف من بنى اسرائيل ..
بموقف مماثل .. حدث لرسول الله - صلى الله
عليه وسلم - عندما قال لأصحابه - رضوان الله
عليهم - يوم الحديبية - حين صد عن البيت .
« انى ذاهب بالهدى فناحره عند البيت » يستشير
أصحابه فى ذلك فقال المقداد بن الاسود :

انا والله لا نقول لك كما قال قوم موسى
« اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ههنا قاعدون »
ولكننا نقول : انا معك مقاتلون .. والله لنقاتلن
عن يمينك وشمالك وبين يديك .. ولو خضت
بنا بحرا لخضناه .. ولو تسنمت جبلا لعلواناه
.. ولو ذهبنا بنا الى برك الغماد - يعنى مدينة
بالحبشة - لتبعناك .

فلما سمع أصحاب النبى .. تابعوه على
ذلك .. فأشرق لذلك وجه النبى - صلى الله
عليه وسلم - يقول ابن عباس : لأن أكون صاحب
هذا المشهد .. أحب الى من الدنيا وما فيها .

ولكن هؤلاء امتنعوا وتمردوا .. فاستجاب
الله دعوة موسى .. وحرم عليهم دخول الأرض
المقدسة أربعين سنة .. يتيهون خلالها فى صحراء
سيناء عقابا لهم .

« قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون
فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين »
(٢٦ المائدة) .

عشر .. فقالا لهم لا تخافوا من ضخامة
اجسامهم .. ولا تفرعوا من قوة ابدانهم .. فهم
ضخام الاجسام .. اقوياء الابدان .. ولكن
قلوبهم واهية .. وارواحهم ضعيفة .. ويكفى
فقط ان تدخلوا عليهم الباب .. واثقين من
نصر الله مطمئنين الى معيته ..

« قال رجلا من الذين يخافون انعم الله
عليهما ، ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه ،
فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم
مؤمنين » (٢٣ المائدة) .

فالايمان يقطع الملاقى .. وينبذ التعلق
بالخلائق ..

والح فى ثنايا تلك الآية .. قوات حربية
ضخمة .. لا يغلبها غالب .. ولا ينال منها
طالب .. « ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه
فانكم غالبون » ..

فان مجرد الدخول على العدو .. مقترنا
بالمية الالهية .. كفيل بتحقيق النصر .. وبلوغ
الظفر .. فليست المسألة عدة وفيرة .. وعددا
كبيرا « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن
الله » .. وان الله - سبحانه - عندما قال
« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » لم يزد فى
الاعداد عن حدود الاستطاعة فقط .. مع حقيقة
الاسلام له .. والاعتماد عليه .. فقد الزم
نفسه - جل شأنه - بالنصر .. حيث قال :
« وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

واستولى الهلع على قلوبهم .. وتمكن الفرع
من نفوسهم .. وهموا برجم يوشع وكالب
بالحجارة .. لولا ما رأوا من الغضب فى وجه
موسى عليه السلام .

فرفعوا اصواتهم بالبكاء .. وقالوا : ليتنا
متنا بمصر .. ثم اتجهوا الى موسى ، معلنين
التمرد عليه .. خارجين على طاعته .. فى
دخولهم الأرض المقدسة .

قالوا « يا موسى انا لن ندخلها ابدا ماداموا
فيها .. فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا
قاعدون » (٢٤ المائدة) .

مطلقا بالنسبة للقوم الذين تمردوا على موسى ..
وخرجوا عن طاعته .. فلم يدخلها منهم أحد ..
وانما دخلها ابناؤهم .. بعد مضي اربعين سنة ..
بقيادة يوشع بن نون .. كما سنذكر ذلك في
حينه ان شاء الله تعالى .

ولم يذكر في التوراة عن هذا الموقف .. غير
ما جاء في سفر الخروج من وجود صراع شديد
بين موسى وقومه .. ووصفهم بصلابة الاعناق
.. وغلظة القلب .. وأن الله عوفهم في البرية
مدة اربعين سنة .

وقد اختلف المفسرون في :

هل كان موسى وهارون معهم في التيه :
فيقول بعضهم : انهما لم يكونا معهم .. لان
موسى طلب من الله التفريق بينهما وبينهم ..
بقوله « فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين »

ويقول البعض الآخر : انهما كانا معهم ..
ولكنه كان لهما روحا وسلاما .. كما كانت نار
ابراهيم - عليه السلام - وموقف ملائكة العذاب
في جهنم .

ونحن نميل الى هذا الرأي الأخير لسببين :
الأول : أن قول موسى « فافرق بيننا وبين
القوم الفاسقين » أى احكم بيننا وبينهم .. وقد
حكم سبحانه بحرمانهم من دخول الأرض المقدسة
.. وليست بمعنى التفريق .

الثاني : أن احداثا حصلت بعد ذلك بين
موسى وبينهم في فترة التيه .. ومنها : حادث
ذبح البقرة .. وموقف .. قارون .. وذهاب
يوشع بن نون مع موسى للقاء العبد الصالح .

عوقبوا بالحبس .. لاختيارهم القعود ..
فكانوا مع شدة سيرهم .. يصبحون حيث امسوا
.. ويمسون حيث أصبحوا .. في ستة فراسخ
لم يبرحوها .. يظلمهم الغمام .. وينزل عليهم
المن والسلوى .. ويشربون من ماء الحجر ..
ولم تبيل ملابسهم طوال هذا الزمن .

ولم يدخل الأرض المقدسة احد ممن قال
انا لن ندخلها .. بل هلكوا في التيه .. ويقول
ابن خلدون في مقدمته : انهم تاهوا في قفر من
الأرض .. ما بين الشام ومصر اربعين سنة ..
لم يابوا فيها الى العمران .. ولا نزلوا مصرا ..
ولا خالطوا بشرا ..

وقال ان الحكمة في ذلك هى افناء الجيل
الذين خرجوا من قبضة الدل والقهر والقسوة
.. وانشاء جيل آخر عزيز .. لا يعرف الظلم
والقهر .. ولا يسام الدل والهوان .

وقال مثل ذلك الاستاذ عبد الوهاب النجار
في « قصص الأنبياء » ،

فلذلك ان العلماء يقررون أن حضارة العلم
خمس عشرة سنة .. وحضارته الاخلاق اربعين
سنة فاذا ابتدأت أمة في التعلم .. تجنى ثمره
العلم بعد خمس عشرة سنة .. أما حضارة الاخلاق
فانها لا تجنى الثمرة الا بعد اربعين سنة .. حتى
يفنى الجيل الذى نشأ في الدل والاستعباد ..
وينشأ جيل ألف الحرية .. ولم تدلهم العبودية .

**واذا وقف القارئ من آية التيه .. عند
قوله تعالى « فانها محرمة عليهم » .. ثم بدأ بقوله
« اربعين سنة يتيهون في الأرض » .. دل ذلك
على تحريم دخولهم الأرض المقدسة .. تحريما**



٥ البقرة

يضرب بها الميت فيحيا ؟ .. فلا بد أن تكون من نوع خاص من البقر .. فقالوا : يا موسى اسأل ربك عن صفة تلك البقرة العجيبة .. « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون » ٦٨ ص البقرة .. والفارض هي كبيرة السن .. سميت فارضا لانها فرضت سنها .. اى قطعها وبلغت نهايتها .. وفي هذا المعنى يقول احد الشعراء :

لعمري لقد اعطيت ضيفك فارضا
تساق اليه ما تقوم على رجل
والبكر هي الصغيرة السن ..

اما العوان فهي الوسط بين الفارض والبكر .. كقول بعضهم يصف فتيات جميلات : -
« نواعم بين ابكار وعون » اى ليس فيهن عجز ..
ثم عادوا لسؤاله في اليوم الثانى ،
عن لونها ؟ ..

قال هي صفراء .. فاتحة الصفرة .. تسر الناظر اليها .. واللون الاصفر .. يبعث في النفس البهجة .. ويشرح الصدر .. ويزيل الهم ويقول على - كرم الله وجهه - من لبس نعلا صفراء .. قل همه .. لقوله تعالى « تسر الناظرين » .. « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ، قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » (٦٩ ص البقرة) .

يقول وهب اذا نظرت اليها خيل اليك ان شعاع الشمس يخرج من جلدها .. وتقل الكشاف عن الحسن البصرى .. تفسيراً لقوله

كان في بنى اسرائيل رجل موسر اسمه عاميل .. قتله ابنا عمه ليرثاه (١) .. حيث لم يكن له ولد .. ولكى يخفوا جريمتهم .. حملوه قتيلا والقوه امام بيوت سبط آخر غير سبطهم .. ثم طالبوهم بدية ابن عمهم القتل .. متهمين لهم بقتله .. فانكروا ذلك وتشاحنوا .. ثم لجأ الجميع الى موسى ليفصل بينهم في تلك القضية .. والتبس الامر على موسى - عليه السلام .. فالقاتل مجهول .. هؤلاء ينكرون انهم قتلوه .. وابنا عمه يطالبان بديته .. فماذا يفعل ليمرف الحقيقة ؟

لجأ الى الله ليبين له ما خفى في هذه الجريمة .. فطلب الله منه ان يكلفهم بذبح بقرة .. ويضروه ببعض اجزائها .. فيحيا ويخبرهم عن قاتله .. فقال لهم موسى ان الله يطلب منكم ان تذبحوا بقرة .. امر عجيب بالنسبة لهم .. جاعوا يسألونه عن القاتل .. فيامرهم بذبح بقرة ؟ .. ما علاقة هذا بذلك ؟ فقالوا اتهاونا بنا .. وتتخذنا سخرية ؟ فقال : كيف اهزأ بكم ؟ .. ان الذى يهزأ بعباد الله ويسخر منهم .. هو الانسان الجاهل الذى لا يخشى الله .. ولا يخاف غضبه .. ولا يعلم انه قد يكون المستهزأ به - بفتح الزاى - افضل عند الله من المستهزئ بكسرها - « واذا قال موسى لقومه ان الله يامركم ان تذبحوا بقرة ، قالوا اتخذنا هزوا ؟ قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين » ٦٧ ص البقرة .

وتأكدوا ان الله هو الذى يامرهم بهذا .. ولكنهم عجبوا .. ما هذه البقرة الميتة .. التى

(١) النسفى والبيهضاوى وغيرهما - ٦٧ - البقرة .

الصفرة الفاقعة .. « قالوا الآن جئت بالحق »
(٧١ البقرة) .

ولهذه البقرة قصة ، تقول :

ان شيخا صالحا من بنى اسرائيل .. كانت له عجلة صغيرة .. وأحس انه على وشك الانتقال الى جوار ربه .. وكان له طفل صغير .. فأخذ عجلته وأطلقها في غيضة نائية .. وقال منفلا يخاطب ربه : اللهم استودعك هذه العجلة لابنى حتى يكبر .

وشب الطفل بارا بأمه .. صالحا كأيها .. يقسم الليل ثلاثة اثلث : الثلث الاول للصلاة والثاني للنوم .. والثالث لرعاية أمه ..

فاذا أصبح .. حمل قاسه وحبله .. وذهب يحتطب .. ثم يبيع ما جمعه من الحطب آخر النهار .. فيتصدق بالثلث .. ويشتري طعاما بالثلث الثاني .. ويعطى أمه الثالث الباقي .. وممر الزمن بالعجلة تأكل من أعشاب الغيضة وتشرب من مائها .. وقد أعمى الله عنها العيون : عيون الناس والوحوش ..

وأخبرت الأم ولدها بما ترك له أبوه في الغيضة .. فذهب إليها وأحضرها .. وقد كبرت وسمنت .. وكانت هي صاحبة الصفات التي وصل إليها بنو اسرائيل عن البقرة المطلوب ذبحها .. فساوموا المرأة وولدها في ثمنها حتى بلغ ملء مسكها ذهباً .. أى ملء جلدتها .. « فذبحوها ، وما كادوا يفعلون » ٧١ البقرة

وما كادوا ينقلون الامر . « أما خشية الفضيحة بظهور القاتل وأما لفلو ثمنها .. وأما وردت هذه العبارة تبكيها لهم لكثرة أسئلتهم واستقصائهم ..

وضرب القاتل بجزء منها .. فعادت إليه الحياة ..

وروى انهم لما ضربوه .. قام باذن الله .. وأوداجه تشخب دما .. وقال قتلى فلان وفلان .. ابنا عمه .. ثم سقط ميتا . فأخذوا وقتلوا .. وحرما من الميراث .. ولم يورث قاتل بعد ذلك .

وقد اختلف المفسرون في الجزء الذي ضربوا به القاتل .. فقيل : فخذها اليمنى .. وقيل عظم الغضروف وهو اصل الاذن ..

تعالى « صفراء فاقع لونها » أى سوداء شديدة السواد .. ولعله مستعار من صفة الابل لأن سوادها تعلوه صفرة .. وبهذا رأى فسر قوله تعالى في وصف لهب جهنم في سورة المرسلات « كأنه جمالة صفر » ..

ويقول الاعشى في هذا المعنى ايضا :

تلك خيلى منه وتلك ركابى

هن صفر اولادها كالزبيب

غير ان هذا المعنى لا يتناسب مع قوله تعالى « تسر الناظرين » فليس من المنطق ان تقول اسود يسر الناظرين اليه ..

ثم عادوا ايضا لسؤاله في اليوم الثالث ، عن صفتها مرة أخرى ؟ .. فقد اشتبه عليهم الامر .. حيث يوجد تحت انظارهم الكثير من البقر العوان الصفر .. فأبها يذبحون ؟ .
ويقول -- عليه الصلاة والسلام --
« لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم » ..

وكثرة السؤال والاستقصاء شؤم في كل قضية من قضايا المجتمع ، وعن عمر بن عبد العزيز ، بقول : اذا امرتك ان تعطى فلانا شاة .. سالتنى أضان ام ماعز ؟ .. فان بينت لك قلت : أذكر أم انثى ؟ .. فان أخبرتك .. قلت : اسوداء ام بيضاء ؟ .. فاذا أمرتك بشيء فلا تراجعنى .. وفي الحديث « أعظم الناس جرما .. من يسأل عن شيء لم يحرم .. فحرم لأجل مسأله » .

« قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وأنا ان شاء الله لمهندون » (٧٠ البقرة) في هذه المرة قالوا ان شاء الله .. وفي الحديث : « لولم يستثنوا لما بينت لهم آخر الابد »

وكلمة « لمهندون » تحمل معنى الهداية الى البقرة او الى القائل .. وقال لهم موسى « انه يقول انها بقرة لاذلول تثير الأرض ، ولا تسقى الحراث مسلمة لا شيء فيها » (٧١ ص البقرة) .

لم تدلل ولم تعلم ولم تستعمل بعد في حراث الارض أو سقيها .. ولا شيء فيها من عيب .. أو علامة مميزة .. أو لون يخالف

وقيل عجب ذنبها .. وقيل لسانها .. ويقول الضحاك : ضرب القنبل بلسانها .. ويقول : ان هذا اصبح الآراء ... ولعله يقصد أن المطلوب من الضرب هو أن تتكلم القنبل ، واللسان وسيلة الكلام

ولكن على أية حال .. فأية الله بارزة جلية .. فحصول الحياة بمس الميت للميت .. يدل على ان المؤثر هو المسبب .. وليست الاسباب .. لان الموتين الحاصلين في الجسمين .. لا يعقل ان تتولد منهما حياة ..

» فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى .. ويريككم آياته لعلكم تعقلون « (٧٣ البقرة) .

ولا يخفى ما في تلك القصة من اهداف سامية .. واغراض نبيلة .. وكان الله سبحانه - قادرا على احياء القتيل بدون بقرة او غيرها .. ولكن فيها : تقرب .. ونفع لليتيم .. وتنبيه على بركة التوكل .. وشفقة على الابناء .. وبر بالوالدين .. وبيان ان الطالب عليه تقديم القربات .. وتحري الأحسن من هذه القربات . وقد اورد الشيرازي في تفسيره معنى روحيا جميلا حول هذا الحادث ، فقال :

من اراد ان يعرف أعدى أعدائه .. الساعى في موته موتا حقيقيا .. فليذبح بقرة نفسه .. وهى الشهوات .. حين يزول عنها شره الصبا .. ولم يلحقها ضعف الكبر .. وكانت معجبة رائعة المنظر .. غير مدللة في طلب الدنيا .. مسلمة من دنسها .. لاسمة فيها من مقابحها .. فيصل الاثر الى النفس .. فتحيى حياة طيبة .. وتعرب عما به ينكشف الحال .. ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والنزاع .

ولقد قرأت حول هذه البقرة .. الكثير من الخرافات التى لا يصدقها عقل .. ولا يستسيغها منطق .. ولا شك انها مذبذبة على كتب الاثمة الافاضل .. الذين اجتهدوا

وفسروا لنا هذا القصص الكريم .. دسها عليهم قوم موسى من بعد موسى .. فتلك سجيتهن المألوفة .. وهذه طريقتهم المعروفة .. فليس من اللازم ان نقول : ان البقرة كلمت الفلام عدة مرات .. وان ابليس اختطفها منه .. الى آخر هذه الترهات الباطلة .. والأقوال التى تبرز فيها مبالغات لم ترد في كتاب ولا سنة .. ولبس لها هدف ظاهر .. ولاغرض مستتر .. والله سبحانه وجل شأنه - منزه عن ابراز شيء لا هدف له .. ولا غرض منه ..

كما قرأت في كثير من كتب التفسير .. انهم ظلوا يطلبون هذه البقرة اربعين سنة .. وهذا طبعا رأى ظاهر البطلان .. فليس بمعقول ان يظل القتيل اربعين سنة في انتظار الجزء الذى سيضرب به ليحيا .. وبخبر عن قاتله .

اما الاستاذ / عبد الوهاب النجار - في قصص الانبياء - فقد رأى ان المضروب هو المتهم .. ضربه بجزء من جسم القتيل .. بيده أو رجله مثلا .. فحصلت له انفعالات عرفوا منها انه القاتل .

وقد ادى به هذا الراى الى بحوث مستفيضة في علم النفس .. وعلم التحقيق الجنائى .. لاشك انها بحوث قيمة يشكرها له العلم .. وبحمدها له الدين والله جازيه عنها بقدر ما بذل فيها من جهد وعناء .

ولكننا لا نميل الى رايه هذا .. ولا نحيد عن ظاهر النص .. فى احياء الميت .. وخاصة ان الآية صريحة في قوله تعالى : -

» فقلنا اضربوه ببعضها .. كذلك يحيى الله الموتى ، ويريكهم آياته ، لعلكم تعقلون « .. وليس هذا فقط .. و' ما قال على اثرها « ثم قسنت قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة او اشد قسوة » (٧٤ البقرة) مما يدل على انها كانت معجزة بيينة واثمة واضحة .

□ □ □

٦ موسى وقارون

ذكرنا سابقا ان موسى عليه السلام - كان ابن عمران بن قاهت بن لاوى بن يعقوب .

وبما ان قارون بن يصهر بن قاهت (١) .. فهو ابن عم نبي الله موسى .. اظهر الايمان به .. ولكنه كان منافقا .. كما نافق السامري من قبل .. وكان بنو اسرائيل يسمونه المنور لحسن صورته وناقته .. وقد اجمع المفسرون على انه اقرا بنو اسرائيل للتوراة .

وما اقبل النفاق وما احطه .. فانه يهوى بصاحبه من اعلى عليين الى اسفل سافلين .. وكان خليقا بالمنافقين ان يكونوا في « بدرومات » جهنم « ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار » .. فهم ليسوا اهلا لان يكونوا في ادوارها العليا .. مع ائمة الكفر .. الذين اظهروا كفرهم .. واعلنوا تمردهم على الله .. كالنمروذ وفرعون وهامان .. فهؤلاء اظهروا موقفهم حيال الايمان .. واثبات السنتهم عما تكنه قلوبهم من عصيان .. اما المنافقون فهم اشد ضررا .. واقوى خطرا .. باطنهم غير ظاهرهم .. والسنتهم تنطق بعكس ما في قلوبهم .

وهكذا انحط النفاق بقارون حتى اورده مصارع الهالكين .. كان فرعون قد ولاه على بنو اسرائيل فظلمهم متجبرا .. وبغى عليهم مستكبرا « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم (٧٦ القصص) .

ولما جاوز موسى البحر بينى اسرائيل .. كانت الرسالة لموسى .. والدبح والقربان لهارون

.. فاوجد ذلك ضفينة في هذا القلب المحترق بنار النفاق .. فلم يستطع كتمان ما بنفسه .. فصرح لموسى بذلك قائلا : النبوة لك .. والحبارة لهارون .. فماذا يبقى لى ؟ .. فقال له موسى ليس هذا من عندى .. وانما هو تقدير العزيز العليم .. (٢) وكان قارون كثير الاذى لموسى .. فياخذ هذا نفسه بالصبر حياله .. تقديسا لحرمة القرابة .

اسبغ الله نعمته على قارون .. فأتاه أموالا لاحصر لها .. ويكفى ان نرى العرض القرآنى الكريم « وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة » (٧٦ القصص) .

يقول ابو رزين : يكفى الكوفة مفتاح ... وقد بولغ في ذكر ذلك بلفظ الكنوز والمفاتيح والنوء والعصبة وأولى القوة والعزم ...

حتى ان بعض المفسرين قال : ان هذه المفاتيح كانت حمولة ستين بغلا ... وقرا بديل ابن ميسرة « لينوء » بالياء .. ويقصد ان يفسر المفاتيح بالخزائن .. وعلى اى حال فالتعبير القرآنى يوحى بكثرة الاموال وضخامتها .

فملاه الغرور .. واطفاه الكبر .. وشمله المعجب والفخر .. فهؤلاء بنو اسرائيل وهم عبدة المال .. يقدمون له فروض الطاعة والولاء .. يتملقونه ويتقربون اليه يأمر فيطاع ..

(١) القرطبي وغيره - ٧٦/القصص .

(٢) نفس المصدر السابق .

ويشير بأصبعه فيتسابقون الى تنفيذ ما يريد
.. فزاده ذلك غرورا واستكبارا .

وفي القوم مؤمنون لم يرهبهم قارون بماله
.. ولم يمنهم كثرة اعوانه وانصاره من توجيه
النصح اليه .. عله يهتدى .. ويعرف ان هذا
فضل من الله عليه يستحق التواضع والشكر
.. بدل الكبر والكفر .. فقالوا له : « لا تفرح
ان الله لا يحب الفرحين » (٧٦ القصص) وقد
نهى الله عن الفرح بالعرض الزائل .. فقال
« ولا تفرحوا بما آتاكم » وانما الفرح يكون
بالتوفيق الى العمل الذي يقرب العبد الى الله
« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ،
هو خير مما يجمعون » ٥٨ يونس كما قال بعض
الشعراء :

« ولست بمفراح اذا الدهر سرنى

ولا جازع عن صرفه المتحول »

فلا يفرح بالدينا الا من رضى بها ...
واطمان اليها .. واما صاحب القلب المشغول
بالآخرة . فانه يعلم ان كل هذا المتاع الدنيوى
سيفارقه عن قريب .. فلا تحدثه نفسه بالفرح
.. وقد أجاد الشاعر الذى يقول :

أشد الغم عندى فى سرور

تيقن عنه صاحبه انتقلا .

ثم قالوا : يا قارون » وابتغ فيما آتاك الله
الدار الآخرة « بالذل وصلة الرحم .. ولين
الجانب .. وعمل الخير .. « ولا تنس نصيبك
من الدنيا » فاطلب آخرتك بدنياك .. والمخ
نجما قرآنيا .. بتللا فى سماء الوجود مشرقا
.. من منطوق أهل الجنة « وقالوا الحمد لله
الذى صدقنا وعدوه وأورثنا الأرض ننبأ من
الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين » الزمر
فنحن نعلم يقينا ان الدنيا ليست بدار قرار
.. وان الآخرة هى دار القرار .. وان الله سبحانه
– قد أورثنا الأرض .. ليجهز كل منا مكانه فى
الدار الباقية .. التى لا نهاية لها .. فمن جهز
لاقامته الأبدية وردا وريحانا .. وجد هناك
وردا وريحانا .. ومن جهز شوكا وصابا .. وجد
شوكا وصابا « انما هى اعمالكم احصياها لكم
.. فمن وجد خيرا فليحمد الله .. ومن وجد
شرا فلا يلومن الا نفسه » .. ولو كان النفاق
انقر فى قلب قارون نصصا من النور لتنهت

مشاعره .. وتفتحت بصيرته لنصيحة المؤمنين
من قومه .. ولكن غلاف النفاق حول قلبه
جعله أشد من الحجارة قسوة .. فلم يصل
اليه قولهم : « ولا تنس نصيبك من الدنيا
وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد
فى الأرض ان الله لا يحب المفسدين »
٧٧ – لقصص .

يقول الحكماء : ما نظر أحد الى نفسه
فأفلح .. والسعيد من صرف بصره عن أفعاله
وأقواله .. وفتح له سبيل رؤية نعمة الله عليه
فى جميع الأفعال والأقوال .. والشقى من زين
فى عينه أفعاله وأقواله وأحواله .. ولم يفتح
سبيل رؤية نعمة الله .. فافتخر بها ..
وادمها لنفسه .. فشؤمه يهلكه يوما .. كما
خسف بقارون لما ادعى لنفسه فضلا .. حيث
قال « انما أوتيته على علم عندى » ٧٨ –
القصص .

وقيل ان موسى كان قد علم قارون علم
الكيمياء .. فكان يحيل الرصاص والنحاس
الى ذهب .

وقد أورد صاحب تفسير الكشاف عن
سعيد بن المسيب :

كان موسى يعلم علم الكيمياء .. فأفاد
يوشع بن نون ثلثه .. وكالب بن يوقنا ثلثه ..
وقارون ثلثه .. فخدمهما قارون حتى أضاف
علمهما الى علمه (١) .. فكان يحول الرصاص
والنحاس ذهباً .. وأدى به علمه وماله أن يقول
كلمة الكفر « انما أوتيته على علم عندى » ..
وكثيرا ما نقول مثل هذه العبارة ببساطة ..
ونحن لا ندري أبعادها .. ولا نسبر أغوارها ..
كأن يقول أحدا : لقد كونت ثروتى بدارى ..
ونميت مالى بشطارتى .. وهزمت أعدائى
بشجاعتى .. فينسب التكوين والنماء والانتصار
الى ذراعه وشطارته وشجاعته .. ناسيا ان الله
هو المحرك والمدبر والمقدر .. وتلك طبيعة
الإنسان « ثم اذا خولناه نعمة منا قال إنما
أوتيته على علم ، بل هى فتنة ولكن أكثرهم
لا يعلمون » – الزمر .

ولهذا كان تعليق القرآن على قول قارون

« أولم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون
من هو أشد قوة وأكثر جمعا ، ولا يسأل عن
ذنوبهم المجرمون » (٧٨ القصص) ..

(١) الكشاف والفرطى ٧٨/القصص .

وما فرعون وهامان منه ببعيد ..

وتحدى قارون ناصحيه .. وقد أعماه
الشیطان .. فلم يعلم أنه بذلك إنما يتحدى نفسه الأماره بالسوء .. التي أعماها البطر .. وأضلها الفی .. وأفسدتها النعمة .. ففي يوم السبت خرج عليهم فی موكب من الزينة لا حد له « فخرج على قومه فی زينتسه » (٧٩ - القصص) .. زينة الحياة الدنيا .. التي حددها الله لنا بسورة آل عمران فی ستة عناصر هي : النساء والبنین ، والقناطیر المقنطرة من الذهب والفضة ، والخیل المسومة ، والأنعام والحرث ، وسماها متاعا .. تحقیرا لقيمتها .. وتصغیرا لشأنها . قال الحسن : خرج فی الحمرة والصفرة .. وقيل : خرج على بغلة شهباء .. عليها الأرجوان .. وعليها سرج من الذهب .. ومعه أربعة آلاف على زيه .. وحوله الفللمان والجواری الحسان ... ويسيل لعاب هؤلاء الذين يعشقون الحياة الدنيا .. وتبهر أعينهم

بزینتها وترفها ومتاعها .. فقالوا « یا ليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لدو حظ عظیم » (٧٩ القصص) . حظ عظیم فی الغنى والبذخ والثراء .. تمنوا أن يكون لهم مثله .. على سبيل الرغبة فی اليسار ورغد العیش ، ... ولأموأخدة عليهم فی هذا التمنى .. فتلك طبيعة البشرية .. وقد تمنوا مثل نعمته دون أن تزول عنه .. فتكون منهم غبطة لا حسدا .. لان الحاسد يتمنى نعمة صاحبه له دونه .

وقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - هل يضر الفبط ؟ قال : « لا .. الا كما يضر المؤمنة الخبط » (١) .

ولكن فريق المؤمنین قالوا لهم : لو كان الايمان قد لامس شفاف قلوبكم .. لعلمتم ان هذا كله عرض زائل .. ومتاع مؤقت .. لا قيمة له بجانب ما عند الله من ثواب دائم ونعيم مقيم : « وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها الا الصابرون » (٨٠ القصص) .



(١) العضاه : الشجر الذى يعظم وله شوك .. واحدها عضاهه .. والخبط : اى الضرب بالعضاه .

٧ قارون يؤذى موسى

وحسبها قارون .. فوجدها تمثل أموالا كثيرة .. ومبالغ ضخمة .. فشحت بها نفسه ..

واراد الكيد لموسى - عليه السلام - ليتخلص من دفعها ... جمع قومه .. وكانوا يخشونه لغناه وبذخه وسطوته .. وقال لهم : ان موسى يريد اخذ أموالكم اغتصابا وبهتاناً .. وظلما وعدوانا .. فماذا ترون ؟ فقالوا الامر لك يا قارون .. فادل برأيك .. ونحن موافقون جميعا على ما ترى . ورأى قارون ان يسلك في هذا الامر طريقا خسيسا .. ويتبع سبيلا دنيا .. أو هكذا أوحى اليه شيطانه .. وصور له حقه ونفاقه .. فأصر في نفسه أمرا .. فاستدعى غانية بغيا .. وأغراها بالمال .. والفواني يفرهن الذهب الرنان .. وروى أنه جعل لها طستا من ذهب .. وقيل طستا من ذهب مملوءا ذهباً .. على أن تتهم موسى - عليه السلام - بالزنا معها على ملا من بنى اسرائيل ..

وقف موسى يوم عيدهم خطيبا فيهم .. يعظهم ويرشدهم ويعلمهم ما أوحى الله اليهم في التوراة .. من شريعة ابراهيم واسحاق ويعقوب .. يأمرهم بالخير والمعروف .. وينهاهم عن الشر والمنكر .. الى ان قال : يا بنى اسرائيل : من سرق قطعناه ومن افترى جلدناه .. ومن زنى وهو غير محصن جلدناه .. وان أحسن رجمناه ..

ووجد قارون الفرصة سانحة لبث سمومه التي أعدها .. وتنفيذ حيلته التي كادها .. فقال : وان كنت انت يا موسى ؟ قال : وان كنت أنا .. قال : فان بنى اسرائيل يزعمون أنك نجرت بفلانة المومس ..

تحدث المفسرون وفاضوا في اذى قوم موسى له تفسيرا لقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبراه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيها » (٦٩ الاحزاب) . ويمكن تلخيص هذه الآراء في ثلاثة اقوال :

الاول : ان بنى اسرائيل اتهموا موسى بغيب في جسمه .. كالآدره « الدوالي » أو البرص .. وجرى الحجر بملابسه وهو يستحم .. وجرى هو خلفه عاريا .. يقول ثوبى حجر .. ثوبى حجر .. حتى راوه بريثا من تلك العيوب المزعومة .

والثاني : - لما مات هارون اتهموا موسى بقتله .. فأمر الله سبحانه - الملائكة بحمل هارون على سرير والطواف به على مجالسهم .. حتى راوه لا اثر فيه للقتل .

والثالث : - ان قارون دس على موسى - عليه السلام - بغيا لتتهمه بالزنا معها فاعترفت بالحقيقة .. وبراه الله من هذا الاتهام .

ولكل رأى من تلك الآراء احاديث تعززه .. وردت بعنة اسانيد ...

ولكن الرأى الذى ارتاحت اليه نفسى .. عملا بما ورد في الحديث « استفت قلبك وإن افتوك وافتوك » هو الرأى الاخير .. وقد رآه أغلب المفسرين .. ومنهم الألوسى والبيضاوى وابن الاثير والكشاف والقرطبى والنسفى .. وأخذ به ودافع عنه بحرارة الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الانبياء .

وذلك انه لما نزلت فريضة الزكاة على بنى اسرائيل .. اتفق موسى مع قارون على كل ألف دينار دينارا .. وعلى كل ألف درهم درهما ..

ويقول ابن جريج بلغنا انه يخسف بهم كل
يوم قامة .. فلا يبلغون أسفل الأرض الى يوم
القيامة وفي الخبر « اذا وصل قارون الى قرار
الأرض .. نفخ اسرافيل في الصور » ..

وتنبه هؤلاء الغافلون .. الذين كانوا يغبطون
قارون على ترفه وزينته .. وأمواله وابتهته ..
وعرفوا ان ما عند الله أبقى وأخلد ...

« واصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون
ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده
ويقدر ، لولا ان من الله علينا لخسف بنا ويكأنه
لا يفلح الكافرون » (٨٢ القصص) . ولعل
العبرة واضحة ايما وضوح .. والعظة جليلة
اقوى جلاء ...

« تلك الدار الآخرة تجعلها للذين لا يريدون
علوا في الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين »
(٨٣ القصص) .

ونجى الله موسى وهارون والمؤمنين معهما ..
وأهلك أعداءهم .. فرعون هامان وقارون ،
كما قال تعالى :

« وقارون وفرعون وهامان ، ولقد جاءهم
موسى بالبينات ، فاستكبروا في الأرض
وما كانوا سابقين » (٣٩ العنكبوت) ..

ووقف موسى والقوم مبهورين من اثر
الصدمة .. ولكن موسى تدارك الموقف بطلبها
للحضور امام القوم .. وحضرت ...

فناشدها موسى بالذى فلق البحر .. وفجر
الحجر .. وأنزل التوراة .. أن تصدق في
قولها .. « والقلب بين اصبعي الرحمن يقره
كيف شاء » فتداركها الله بلطفه .. ووجه قلبها
الى الحق .. وحرك لسانها بالصدق ..
فقالت : كذب والله فارون .. لقد جعل لي
جعلا على ان أؤذفك يا رسول الله بنفسى ..
فخر موسى ساجدا يبكي .. ثم قال : يا رب
ان كنت رسولك - وهذا حق فاغضب لي ...

وغاصت الأرض بقارون الى ركبته ..
فصرخ واستغاث بموسى .. فلم يلتفت اليه ..
ثم ابتلعه الى وسطه فصرخ واستغاث
بموسى .. فلم يلتفت اليه .. ثم ابتلعه الى
عنقه فصرخ واستغاث بموسى .. فلم يلتفت
اليه .. ثم أطبقت عليه الأرض ...

وروى أن الله أوحى الى موسى :
استغاث بك مرارا فلم ترحمه .. اما وعزتي
لو إياى دعا مرة واحدة لوجدنى قريبا مجيبا (١).

وقيل : ان بنى اسرائيل .. لما خسف الله
الأرض بقارون قالوا : لقد دعا موسى ربه ليهلك
قارون .. حتى يرث ماله ودياره .. فدعا الله
حتى خسف بداره وأمواله الأرض .

« فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان
له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من
المنتصرين » (٨١ القصص) .



((قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا))

(٦٦ - الكهف)

○ موسى طالب علم

الفصل السابع

١] رحلة اللقاء

البحرين ... وهو لا يدري .. اى بحرين
سيانقى عندهما بهذا العبد الصالح .. يطلب
العلم على يديه .. لانه اعلم منه ..

وانطلق موسى .. ليبدأ رحلة طلب العلم ..
مسلمًا وجهه الله .. ليهديه سواء السبيل ..
ويسلكه الطريق .. وذلك بعد أن استدعى فتاه
يوشع .. هذا الفتى التقى الصالح المطيع ..
فهو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف - عليه
السلام - الذى القطع لخدمة نبي الله موسى ..
وملازمته ليله ونهاره .. يخدمه ويتعلم منه
علم الله .. قال له : يا يوشع .. احضر حوتا
مملحا .. وضعه فى مكمل .. واتبعنى .. ولم
يكن من عادة يوشع أن يسأل موسى عليه
السلام - عن شيء حتى يحدّثه هو به .. فلم
يقبل له الى أين نتجه ؟ .. أو ما هو الهدف من
سيرنا ؟ ..

وكفاه موسى هذه الاسئلة .. فقال له :
يا يوشع .. سأظل ضاربا فى الارض حتى ابلغ
مجمع البحرين ... ولو مضيت فى سبرى على
هذا الحال احقابا من الزمن .. أعواما وقرونا ..
حتى اصل الى المكان الموعد للقاء عبد من
عباد الله ...

« واذ قال موسى لفتاه ، لا أبرح حتى ابلغ
مجمع البحرين أو أمضى حقبا » (٦٠ الكهف) .

ويكاد المفسرون يجمعون على أن البحرين
هما بحر الفرس وبحر الروم .. وان كان محمد

روى أن موسى سأل ربه : اى عبادك احب
اليك ؟ .. قال الذى يذكرنى ولا ينساني ..
قال فإى عبادك اقضى ؟ .. قال الذى يقضى
بالحق .. ولا يتبع الهوى ... قال : فإى
عبادك اعلم ؟ .. قال الذى يتغنى علم الناس
الى علمه .. عسى أن يصيب كلمة تدله على
هدى .. أو ترده عن ردىء .

فقال موسى : يا رب ، ان كان فى عبادك من
هو اعلم منى .. فدلنى عليه .. قال : اعلم
منك الخضر قال : أين اطلبه ؟ .. قال :
على الساحل .. عند الصخرة .. قال يا رب
كيف لى به ؟ .. قال : تأخذ حوتا مملحا فى
مكمل .. فحيث فقدته فهو هناك (١) .. وانشغل
موسى بهذا الأمر .. وأصر فى نفسه على لقاء
هذا العبد .. ولم يعد يملا عليه تفكيره .. غير
رؤيته .. والتحدث اليه .. والاستماع منه ..

فما كان موسى يعلم أن على الأرض من هو
اعلم منه .. فقد روى أن رجلا من بنى اسرائيل
سأله : هل على وجه الأرض من هو اعلم منك
يا نبي الله ؟ .. قال : لا .. فعتب الله عليه ..
حيث لم يرد العلم اليه - سبحانه (٢) .

فبعث اليه جبريل - عليه السلام - فقال
له : ما يدريك أين أضع علمى : ... بل أن لى
عبدا عند مجمع البحرين .. اعلم منك ..
فسأل موسى ربه أن يريه اياه ...

ولكن أين هو ؟ .. وكيف القاه ؟ .. فالمكان
مجهول .. لا يعرف عنه الا أنه عند مجمع

(١) تفسير النسفى والبيضاوى وغيرهما ٦٠ الكهف .

(٢) البيضاوى وغيره ٦٠/الكهف .

وفي المرحلة التالية : القى الله التعب والجوع على موسى .. فطلب من فتاه أن يأتي بالحوث ليأكله ...

« فلما جاوزا قال لفتاه اتنا غداً لنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصيبا . قال أرايت اذ أوينا إلى الصخرة فاني نسيت الحوت ومنا أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجباً » (٦٢ - ٦٣ الكهف) .

فسبيل الحوت سرب بالنسبة اليه وعجب بالنسبة الى يوشع وموسى .. وقد اسند يوشع النسيان الى الشيطان .. تادبا منه مع نفسه وهضما لها .. مع أن نسيانه كان من شدة انفعاله وتعجبه وانشغاله بمحدث الحادث عن الحادث نفسه .. كما أن في هذا القول اعتذارا لطيفا منه لسيفده ومعلمه .. فقال موسى « ذلك ما كنا نبغ » فهذا هو المكان الموعود الذي ابتغيه .. حيث أخبرني ربي .. اننى سألقى العبد الصالح عند مكان سيحصل فيه امر خارق للعادة .. فعد بنا يا يوشع الى هذا المكان .. وعادا يقصان اثرهما على الرمال خطوة خطوة .. « فارتدا على آثارهما قصصا » (٦٤ الكهف) .

ووصلا الى الموقع المنشود .. ووجد موسى طريق الحوت ظاهرا في البحر .. وقد انكشف عنه الماء .. متجمدا على جانبيه .. ورأى نفسه يسير فيه على اثره .. ولكن الماء صار يلتئم خلفه مباشرة .. فسد الطريق أمام يوشع الذى ظل واقفا بالشطآن .. ومشي موسى في طريق الحوت حتى انتهى به الطريق الى جزيرة صغيرة .. جلس بها رجل وقور .. عليه هبة وجلال لم يرها موسى في انسان من قبل .. يرنو بناظريه الى السماء .. « فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » (٦٥ الكهف) .

وجد موسى العبد الصالح في الجزيرة .. كما رآه يوشع على البعد .. وهو واقف بالشطآن وروى أبى بن كعب عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال « انجاب الماء من مسلك الحوت » .. فصار كوة لم يلتئم ..

ابن كعب قال : « طنجة » .. أى ملتقى البحر الأبيض بالمحيط الاطلسى .. وهذا بعيد الاحتمال ... لبعده المسافة بين سيناء وطنجة ... ولمقولية ملتقى بحرى الفرس والروم لقربهما من مكان الاحداث ... ولا يبعد حدوث تغيرات جغرافية في هذا المكان .

وقال بعض آخر ان البحر بين هما موسى والخضر .. فيقولون : موسى بحر علم الظاهر .. والخضر بحر علم الباطن .. وأرى في هذا الراى شيئا من التكلف الظاهر والباطن ...

فاذا كان الحديث يقول « ان للقرآن معنى ظاهرا .. ومعنى باطنا .. وحدا .. ومطلعا » فالظاهر : أسماء وكلمات وسور ... والباطن : معان وأسرار .. والحد : تفصيل واحكام .. والمطلع : شهود وكشف .. فكيف نقول : أن موسى - عليه السلام - لم يخرج عن منطقة الظاهر ؟ .. اظن أن هذا غير جائز في حقه مطلقا ...

سائر موسى وفتاه لا يلويان على شيء .. وامتد بهما السفر .. وطال عليهما الطريق .. يجلسان للراحة ساعة أو ساعات .. ثم يستأنفان رحلتهم في علم الواسع العليم ...

وذات ليلة مقمرة ... أدركهما المساء عند صخرة على ساحل البحر .. وغلب النوم موسى فنام .. وجلس يوشع بجانبه حارسا أمينا .. ووليا مخلصا .. فرأى أمرا عجبا ... رأى الحوت يضطرب في المكثل .. وقد دب فيه الحياة .. ثم انسأب في البحر متسريا .. لا تغطى المياه طريقه فيه .. فقد أمسك الله جرية الماء على الحوت .. فصار كالطلق عليه .. يقول وهب بن منبه : ظهر في الماء من أثر جرى الحوت .. أخذود أشبه بنهر .. من حيث دخل الى حيث انتهى .. وأخذ يوشع من هول المنظر .. واعجاز الآية .. فظل ساهما مشدوها .. متأملا قدرة الله في أحياء هذا الحوت الميت .. حتى استيقظ موسى - عليه السلام من نومه .. واستأنفا رحلتهم من جديد ..

« فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرياً » (٦٦ الكهف) ...

نسى موسى أن يسأل يوشع عن الحوت .. ونسى يوشع أن يخبر موسى بما حصل ..

فدخل موسى الكوة على اثر الحوت .. فاذا هو بالعبد الصالح .. فقال موسى : السلام عليك أيها العبد الصالح .. وملتفت هذا الى موسى ، قائلا وأنى بارضك السلام .. ياموسى ؟ ..

وعجب موسى لمناداته له باسمه .. فقال : من اعلمك باسمى ؟ قال : اعلمنى الذى ارسلك الى .. وفى البخارى : فوجدا خضرا على طنفسة خضراء .. على كبد البحر .. مسجى بثوبه .. (١) . قد جعل طرفه تحت رجليه - وطرفه تحت راسه .. فسلم عليه موسى .. فكشف عن وجهه . قال : هل بارضك من سلام ؟ قال « قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا » (٦٦ الكهف) .

موسى - عليه السلام - يطلب العلم على يد هذا المعلم الغريب العجيب .. وقد امتلأ قلبه له اجلالا واعظاما .. ورهبة واحتراما .. وقد راعى في طلبه غاية التواضع والادب .. فاستجمل نفسه .. واستأذن ان يكون تابعا له .. وسأله ان يرشده .. وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه .

موسى الذى قال الله له « ولتصنع على عيني »
ويقول له أيضا « واصطنعتك لنفسى » يطلب العلم في ادب وخشوع .. وذلة وخضوع .. مما يدل على انه لا ينبغي لاحد ان يترك طلب العلم .. مهما بلغت درجته فيه لان العلم صفة من صفات الله - سبحانه - وصفات الله لا نهاية لها .. وان يتواضع لمن هو أعلم منه .

فمن هو هذا العبد الصالح .. الذى يكون موسى الكليم منه في منزلة الطالب من استاذة ؟ .. ارجو ان يوفقنا الله في تسليط الأضواء عليه حتى نراه .. ونتعرف عليه قبل نهاية هذا الفصل ان شاء الله تعالى .

ويبدأ حوار بين الطالب والاستاذ ..
فيقول الاستاذ ردا على سؤال موسى الذى قال فيه « هل أتبعك على أن تعلمنى » .. ؟ - « قال انك لن تستطيع معى صبرا » ٦٧/الكهف فنفى عنه استطاعة الصبر معه .. مع وجوه من التاكيد .. كأنها من غير الممكنات .. ثم علن السبب في ذلك بقوله « وكيف تصبر على

ما لم تحط به خبرا » (٦٨ الكهف) أى كيف تصبر وانت نبي - على ما اتولى من أمور .. ظواهرها منكرة .. ويواطنها لم يحط بها خبرك وعلمك ؟ ..

ويكون رد موسى اشد وقعا في الطاعة والولاء .. فيقول « سنجدنى ان شاء الله صابرا ، ولا أعصى لك أمرا » (٦٩ الكهف) .

وقبل العبد الصالح مرافقة موسى .. لما رآه قد قدم المشيئة .. بعد أن اشترط عليه عدم السؤال عن أى عمل يباشره .. حتى يحدثه هو عنه .. « قال فان أتبعننى ، فلا تسألننى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » (٧٠ الكهف) .

وقبل موسى - عليه السلام - هذا الشرط .

وبدا رحلة العلم الجديد على موسى ..
رحلة العلم اللدنى .. المجرد عن الاستتاب والمسببات .. لأن ميرزه هو خالق الاسباب والمسببات .. فانطلقا بسيران على شاطئ الجزيرة .. فيلمح موسى عصفورا .. يسقط على سطح الماء فيأخذ تمنقزه قطرة ثم يظير .. ويتسم العبد الصالح .. قائلا : ياموسى .. لقد خطر ببالك أنك أعلم أهل الأرض .. ما لمى وعلمك .. وعلم الاولين والاخرين في جنب علم الله تعالى .. الا أقل من الماء الذى حملته الخطافة بمنقارها .. ثم رايا سفينة مقبلة من بعيد .. فطلب من موسى أن يشير اليها ليركبا فيها وركبا فيها ..

وانطلقت السفينة الى عرض البحر .. وقد ازدحمت بركابها .. تتهاذى بين الأمواج في هدوء ويسر .. حيث استقام معها الريح .. وهدأت حولها الأمواج .. واذا بموسى يجد صاحبه وقد امسك بقطعة من الحديد .. يعمل بها في قاع السفينة .. حتى أوجد فيها خرقا .. بدأ الماء يتسرب منه الى داخلها .. فأسرع موسى بهلبسه يسد بها الخرق .. ليمنع الماء خشية الفرق .. وقال له فرعا « أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا أمرا » (٧١ الكهف) .

والشيء الامر .. هو الذى يعود ضرره على مجتمع لا على فرد .. ومنه أخذت كلمة

المؤامرة .. ويفاجئه العبد الصالح بقوله ..
« ألم أقل لك لن تستطيع معي صبرا » (٧٢
الكهف) .

ويتذكر موسى انه خالف الشرط المتفق
عليه .. فيقول في لهفة وتذلل : « قال
لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري
عسرا » (٣٧ الكهف) ومرة أخرى .. من هذا
العبد الذي يتذلل له موسى - عليه السلام -
ويطلب منه ألا يرهقه من أمره عسرا ؟ .. من
ذا الذي يستطيع أن يرهق موسى كليم الرحمن ؟
.. ويففر العبد الصالح لموسى هذا الخطأ ..
فيمسكه من يده .. وإذا بهما واقفان على
الشاطئ .. ورأى موسى السفينة في البحر
على البعد .. تضطرب بأشرعتها قليلا .. ثم
تعود الى اعتدالها واستقامتها .. منطلقة الى
غاياتها .. فعلم أن القوم قد أصلحوا الخرق
الذي حصل بها .

وانطلقا معا .. فوجد موسى غلاما جميلا
الصورة .. حسن القسمات .. ما زال في عمر
الزهور .. قتله العبد الصالح .. وكثرت الآراء
في الطريقة التي قتل بها العبد الصالح هذا الغلام
.. فقال بعضهم : قتل عنقه بيده .. وقال
آخرون : رضح رأسه في الحائط فتناثر مخه ..
وقال البعض : أضجمه على الأرض وذبحه ..
وكلها مناظر تقشعر منها الأنفس .. وتتناهى مع
الرحمة التي اتصف بها هذا العبد الصالح ..
حيث قال الله عنه « آتيناه رحمة من عندنا »
فأين الرحمة الظاهرة في أي من الحالات الثلاث ؟
.. قتل العنق .. أو رضح الرأس أو الذبح ؟

كل ما في الأمر أنه أشار الى الغلام بيده ..
على مراءى من موسى .. وكأنه قد سلط عليه
أشعاعا ذريا .. فخر الغلام ميتا .. لأن علم
الخضر لدنى .. « وعلمناه من لدنا علما » والعلم
اللدنى لا تعلق له بالأسباب .

فألم ذلك الأمر موسى .. فقال : ياسيدي
لم قتلت هذه النفس الطاهرة الزكية .. التي لم
ترتكب ذنبا .. ولم تفعل جرما .. تستحق عليه
القصاص بالقتل .. « فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما

فقتله ، قال اقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد
جئت شيئا نكرا » (٧٤ الكهف) .

وفي تلك المرة .. قال « شيئا نكرا » ولم
يقبل امرا .. لأن الضرر هنا فردى بالنسبة
للطفل وأهله فقط .

ويتسم العبد الصالح .. متطلعا الى موسى
قائلا : ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبرا
(٧٥ الكهف) .

ويضطرب امر موسى .. فقد نقض الاتفاق
مرتين .. فأسف وقال « ان سالتك عن شيء
بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا »
(٧٦ الكهف) .

وأسند الطبري قال كان رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - اذا دعا لأحد بدأ بنفسه .

فقال يوما : « رحمة الله علينا وعلى موسى
.. لو صبر على صاحبه لرأى العجب .. ولكنه
قال « فلا تصاحبني » والذي في صحيح مسلم
.. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
« رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أن عجل لرأى
العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة ..
ولو صبر لرأى العجب .

وفي البخاري عن النبي - صلى الله عليه
وسلم - قال : « يرحم الله موسى .. لوددنا أنه
صبر حتى يقص علينا من أمرهما » (١) والذمامة:
الركة والعاو .. وكأنه استنحيا من تكرار
مخالفته .

واستأنفا رحلتها ، وادرك موسى الجوع ..
فهو لم يأكل من قبل ان يلقي العبد الصالح ..
ودخلا قرية .. وصفها رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - بقوله في حديث أورده الإمام
النسفي في تفسيره يقول « كانوا أهل قرية لثاما »
وقيل شر القرى في البخلي بالقرى .. وأسمها
انطاكية .. أو إيلة البصرة .. فهي لا تضيف
الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه ..

قالوا : فلم يجدا تلك الليلة في تلك القرية
قرى ولا ماء ولا مأوى .. وكانت ليلة باردة ..
فالتجأ الى حائط على الطريق .. يكاد ينهدم
ويسقط .. يتحاشاه الناس خوفا من انهياره ..
قال ابن عباس : هدمه وبناءه .. وقال
سعيد بن جبیر : مسح الجدار وسواه بيده
ومنكبیه فاستقام .. وراى ابن عباس اقرب الى
المنطق .. لقول موسى « لو شئت لاتخذت عليه
اجرا » فانطلقا حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما
اهلها ، فابوا ان يضيفوهما ، فوجدا فيها جدارا
يريد ان ينقض فاقامه « (٧٧ الكهف) .
وتظهر بلاغة القرآن في اسناد الارادة الى

الجدار .. وقد استعارها بعض الشعراء في
قوله :

يريد الرمح صـدر أبى براء
ويعدل من دماء بنى عقيـل

اقام العبد الصالح الجدار بمساعدة موسى
.. وقد آلم موسى الجوع .. فلم يطق صبرا ..
فنسى .. وقال : « لو شئت لاتخذت عليه اجرا »
(٧٧ الكهف) .. نستعين به في شراء طعام على
الاقل .. فقد عضنى الجوع ..
ويصدر الامر بانتهاء الرحلة عند هذا الحد
.. « قال هذا فراق بيني وبينك ، سانبئك
بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » (٧٨ الكهف)
.. فمن انت ايها العبد الصالح ؟ ..



٢ قصور العلم البشري

صلى وراءك منهم كل ذي خطر
ومن يفسر بحبيب الله ياتم
فاذا كانت وراء .. تفيد معنى امام .. فقد
هدم البيت .. فكيف نبنيه ؟ قالوا بناؤه .
وقام خلفك منهم كل ذي خطر

ولتؤدى ايضا معنى اقام الصلاة
فاذا اردنا ان نذكر كلمة (ورائى) بمعنى
خلفى .. وجب ان نقول : وراء ظهري .. اى
امام ظهري .

ثم يأتى المشهد الثانى : لنرى الحكمة فى قتل
غلام صغير .. لا حول له ولا قوة .. فيقول
العبد الصالح .. « واما الغلام فكان ابواه
مؤمنين .. فخشيوا ان يرهقهما طغيانا وكفرا
فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة واقرب
رحما » (٨٠ - ٨١ الكهف) .

فان الله سبحانه - يعلم ان هذا الغلام مطبوع
على الكفر .. ولكن لايمان ابويه .. وخشية
عليهما من طغيان هذا الغلام .. عندما يشب
ويكبر .. هيت نسمة رحمة بهذين الابوين
المؤمنين .. لتطيح بهذا الغلام .. فيحسبانه
صابرين عند الله .. فيبدلهما خيرا منه صلاحا
وتقوى .. وصلوة رحم .. فيكرمهما عند
شيخوختهما ..

الظاهر فى الحادث شر مستطير .. اب وام
يجدان وحيدهما الغلام الجميل ميتا .. بعد
ان بلغ السعى .. لا شك انها كانت بالنسبة
لهما ليلة ليلاء .. احتملاها فى عزة الصبر ..
ونور الايمان .. فهي منحة فى الباطن .. محنة
فى الظاهر .

وعن ابن عباس ان نجدة الخورى .. كتب
اليه : كيف جاز لعالم موسى ان يقتل الغلام ..

حقا « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » فعلم
الانسان كثر .. مهما بلغ من ارتقاء .. فهو
متعلق بالظاهر فقط .. « يعلمون ظاهرا من
الحياة الدنيا » .. والله - سبحانه - علينا نعم
ظاهرة .. واخرى باطنة « واسبغ عليكم نعمه
ظاهرة وباطنة » .. لا ندرىها الا بما شاء ..
« وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم .. وعسى
ان تحبوا شيئا وهو شر لكم » .. فمن كان يظن
ان خرق سفينة تشق عباب البحر .. وقد
ازدحمت بركابها .. واوشكت على الفرق بمن
فيها وما فيها .. اقول من كان يظن ان فى باطن
هذا الشر الكبير خيرا كثيرا لاصحابها ..

« اما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى
البحر فاردت ان اعيبها ، وكان وراءهم ملك
ياخذ كل سفينة غصبا » (٧٩ الكهف) .

ستمر السفينة فى طريقها بملك ظالم ..
يقول النسفى : ان اسمه جلندى .. اذا اعجبته
سفينة اغتصبها من اصحابها بغير ثمن او تعويض
.. ويقول العبد الصالح .. « فاردت ان
اعيبها » .. بهذا الخرق .. حتى لا نفتصبها
من اصحابها وهم مساكين .. والله ولى المساكين
.. اتاهم الله باطن الخير فى ظاهر الشر .. وجاءت
كلمة وراءهم « وكان وراءهم ملك » تفيد معنى
امامهم .. مثل قوله تعالى : « من ورائهم
برزخ » اى امامهم .. وقول زكريا - عليه
السلام : « وانى خفت الموالى من ورائى » ..
وقوله : « من ورائهم جهنم » .. وكانت كلمة
وراء محل نقد علمى لبيت من الشعر .. قاله
امير الشعراء احمد شوقى .. فى مدح الرسول -
عليه الصلاة والسلام - هو :

وقد نهانا النبي - صلى الله عليه وسلم - عن قتل الولدان ؟ .

فكتب اليه يقول : ان كنت علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى .. فلك ان تقتل الولدان (١) .

وقال بعض المفسرين : ولدت لهما جارية فتزوجها نبي .. فولدت له نبيا هدى الله به أمة من الأمم ..

ولكن الأغلب على أن الله رزقهما ولنا صالحا تقيا .. أكرمهما الله به في كبرهما ..

أما المشهد الأخير .. فنرى فيه قرية .. ضرب بها المثل في البخل والشح .. لا يوجد فيها غير بيت واحد من بيوت الكرم .. مات عائلته تاركا ولدين يتيمين .. لا حول لهما ولا قوة .. ومال جدار البيت نحو السقوط .. ولو سقط لظهر تحته كنز .. تركه لهما أبوهما الصالح .. ولا غتصبه منهما هؤلاء القوم اللثام .. كما وصفهم رسولنا - صلى الله عليه وسلم - « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة .. وكان تحته كنز لهما .. وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما .. ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك » (٨٢ الكهف) .

ومن فتادة : أحل الكنز لمن قبلنا وحرّم علينا .. وحرمت الغنيمة عليهم وأحلّت لنا .. ويقول المفسرون كان الكنز لوحا من ذهب .. مكتوب فيه :

عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن .. ولمن يؤمن بالرزق كيف يتعب .. ولمن يؤمن بالحساب كيف يغفل .. ولمن يؤمن بالموت كيف يفرح .. ولمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها .. لا إله إلا الله .. محمد رسول الله (٢) .. رواه عثمان بن عفان عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وهكذا ينفع الابناء صلاح الاناء .. بل قيل في بعض روايات المفسرين : ان أباهما المقصود بالصلاح .. هو جدهما السابع .. أكرمهما الله سبحانه - من أجله .. وروى عن سعيد بن المسيب .. أنه كان إذا رأى ابنه .. قال : يا بني لا زيدن في صلاتي من أجلك لعلّي أحفظ فيك .. وتلا الآية « وكان أبوهما صالحا » ..

كما يحكى عن بعض العالوية .. له دخل على هارون الرشيد .. وقد أمر بقتله .. فلما دخل عليه أكرمه وخلي سبيله .. فقيل له : لم حصل معك هذا ؟ قال : لجأت الى الله وقلت : يا من حفظت الكنز على الصبيين لصلاح أبيهما أحفظني منه لصلاح آبائي ..

وعن الحسن بن علي - رضى الله عنهما - انه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما .. بم حفظ الله الغلامين ؟ قال الخارجي : بصلاح أبيهما .. قال الحسن فأبى وجدى خير منه .

واتجه العبد الصالح الى موسى قائلا .. بعد ان بين له خفى النعم في ظاهر النقم .. « وما فعلته عن امرى .. ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا » (٨٢ الكهف) .

ولعل الملاحظ في تعبير العبد انه قال في خرق السفينة « فارتدت » لانه هو المباشر لايجاد عيب فيها .. وهو افساد في الظاهر ...

وفي قتل الغلام ، قال فآردنا « لانه افساد منه من حيث القتل .. وانعام من الله من حيث التبديل » ..

وأما في الجدار فقال « فأراد ربك » لأن الله وحده هو مبلغ الولدين أشدهما وهو انعام محض .. ثم يقول لموسى : اتلومنى على خرق السفينة .. مخافة غرق أهلها .. ونسيت نفسك حين القتك أمك وأنت صغير ضعيف في اليم .. فحفظك الله ؟ .. وتلومنى على قتل الغلام الكافر بلا أمر .. ونسيت نفسك حين قتلت القبطى بغير أمر ؟ ..

وتلومنى على ترك اخذ الاجر في اقامة الجدار .. ونسيت نفسك حين سقيت غنم شعيب محتسبا ؟ .. ياموسى عد الى قومك .. فلن تستطيع معى صبرا .. وأعلم ان العلم صفة من صفات الله - تعالى - وصفات الله لا نهاية لها ..

وروى ان العبد الصالح .. لما ذهب يفارق موسى .. قال له موسى : اوصنى .. قال كن بساما ولا تكن ضحاكاً .. ودع اللجاجة .. ولا تمش في غير حاجة ولا تعب على الخطائين خطاياهم .. وأبك على خطيئتك يا ابن عمران (٣)

(٢) القرطبي والبيضاوى والنسفى وغيرهما ٨٢/الكهف .

(١) النسفى والبيضاوى وغيرهما ٧٤/الكهف .

(١) القرطبي ٨٢/الكهف .

وقد تركنا يوشع واقفاً بالشاطئ عند
الصخرة .. لما لم يعد إليه موسى .. واوشك
النهار على الغروب .. عاد وحده .. وكان سيمر
في طريق العودة بوادٍ مخيف اسمه وادى السباع
.. فأمر الله الشمس أن تقف فوق الأفق الغربى
.. حتى يعبر يوشع ذلك الوادى ..

ولعل هذا هو السبب الذى جعل احمد
شوقى يسمي الشمس : أخت يرشع .. وهو
يخاطبها في قوله :

قفى يا أخت يوشع حديثنا

احاديث القرون الغابرينا

ونعود الى السؤال الحائر : من أنت ايها

العبد الصالح .. يامعلم موسى الكليم ؟ ..

ويعود موسى الى قومه .. وقد احس ان
صبر يوشع في صحبته كان اكبر من صبره مع
صاحبه .. وقد قال الحكماء : **لوسى خمسة**
اسفار (٢) :

الاول : سفر الهرب « ففررت منكم لما
خفتكم » ..

الثاني : سفر الطور « فلما اتاها نودى ان
بورك من في النار ومن حولها » ..

الثالث : سفر الطلب « واوحينا الى موسى
ان اسر بعبادى »

الرابع : سفر الحرب « فاذهب انت وربك
فقاتلا »

الخامس : سفر النصب « لقد لقينا من
سفرنا هذا نصبا »



٤ المعلم الأول

لم يرد في القرآن الكريم اسم الخضر ..
ولولا حديث البخارى .. ما صدقت بوجود
صاحب هذا الاسم .

وقبل أن نعزم باسمه .. يجب علينا أن
نبحث عن شخصه أولا .. من هو ؟ .. فالسنة
ذكرت لنا عن طريق حديث البخارى أن اسمه
الخضر .. وبين لنا الحديث دروسا تلقاها موسى
- عليه السلام - على يديه ...

فبقى أن نتفحص القرآن الكريم .. فهو
المصدر الاول من مصدرى التشريع والتأويل ..
فنجد أن الصفات التى ذكرها عن العبد الصالح
ثلاث صفات :

عبدا من عبادنا .. آتيناه رحمة من عندنا
.. وعلمناه من لدنا علما .. فلم يرد عنه غير
هذا

اولا : عبوديته لله ...

ثانيا : أنه رحمة من عند الله .. بمعنى
آتيناه لكم رحمة ...

ثالثا : أن معلمه هو الله - سبحانه - ...
فاذا بحثنا في كتاب الله عن صاحب تلك
الصفات الثلاث .. التى ذكرها عن العبد
الصالح ، نجد :

اولا : أن العبودية وهى اشرف مقامات
العبد .. وهذا الشرف هو الذى عينه تعالى
بالتجلى الكامل على محمد - عليه الصلاة
والسلام - فى مثل الايات :

« سبحانه الذى اسرى بعبده » و « الحمد
لله الذى انزل على عبده » « وما انزلنا على
عبدنا » و « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على
عبدنا » تماما كما قال عن العبد الصالح « عبدا
من عبادنا »

**كثرت الاقاويل عن اسم العبد الصالح -
معلم موسى - وعن صفات خاصة به .. وعن
رسالته .. او نبوته .. او ولايته**

ففى حديث البخارى من سميد بن جبر
عن ابن عباس أن اسمه الخضر ، واوردت كتب
التفسير : أن اسمه بليابن ملكان .. وان اسم
الخضر لقب له .. وقالوا : هو اليسع أو
الياس .. وقال بعضهم هو ملك من الملائكة ..

وذكر سفيان عن منصور عن مجاهد ..
قال : انما سمي الخضر لانه أينما صلى اخضر
ماحوله .. وذكر الاستاذ عبد الوهاب النجار فى
قصص الانبياء : قيل اسمه « عامر » وقيل
« احمد » (١)

**وتورط البعض ، فقال انه ولى شرب من
عين الحياة .. فهو حى الى وقتنا هذا ..
ونسوا قول الله تبارك وتعالى « وما جعلنا لبشر
من قبلك الخلد » .. وسئل شيخ الاسلام ابن
تيمية عنه .. فقال ا لو كان حيا لوجب عليه
ان يأتى الى النبى - صلى الله عليه وسلم -
ويجاهد بين يديه .. ويتعلم منه كما
سئل ابراهيم الحربى عن بقاءه حيا .. فقال :
من حال على غائب لم ينتصف منه .. وما القى
هذا بين الناس الا الشيطان ...**

وقد اعترض الامام النسفى فى تفسيره ..
على كونه وليا فقال :

وقد زلت اقدام قوم من الضلال فى تفضيل
الولى على النبى .. وهو كفر جلى .. حيث
قالوا : امر موسى بالتعلم من الخضر وهو ولى
.. ومن المحال أن يكون الولى وليا .. الا
بإيمانه بالنبى .. ثم يكون النبى دون الولى -
ا ه -

ويقول الاستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه
« قصص الانبياء » :

(١) قصص الانبياء للنجار ص ٢٩٦ الطبعة الثالثة .

ثانيا : ان العبد الصالح آتاه الله لنا رحمة ... وهى واضحة عن محمد : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » تماما كما قال عن العبد الصالح : « آتيناه رحمة من عندنا » بمعنى آتيناكموه ...

ثالثا : ان معلمه هو الله - سبحانه - وتلك صريحة .. فى قوله له « وعلمك ما لم تكن تعلم » .. تماما كما قال عن العبد الصالح ... وعلمناه من لدنا علما » .. وكلمة من لدنا تفيد ان علمه علم لدنى .. والعلم اللدنى هو العلم المجرد عن الاسباب .. واول اسباب العلم القراءة والكتابة .. وقد جعل الله - تعالى - محمدا أميا لا يقرأ ولا يكتب فعلمه علما لدنيا من غير شك .

فاذا كانت تلك الصفات الثلاث .. التى ذكرها الله تعالى عن العبد الصالح .. هى التى ذكرت عن محمد - عليه الصلاة والسلام - فهل معنى هذا .. أن محمدا هو العبد الصالح .. صاحب موسى ؟ ...

نكاد تجزم بأنه هو .. فليس بعد كتاب الله من دليل ... ولكن علينا ان نزيد هذا الامر توضيحا .. لانه رأى جديد .. أو على الأقل لم نقرأه من قبل .. فقد ظن موسى أنه لا يوجد من هو اعلم منه .. أو سأل الله عن شخص اعلم منه .. حسب اختلاف الروايات - فأخبره الله ان عبدا اعلم منه عند مجمع البحرين ... فسمى الله ... والتقى به .. وتعلم منه .. فكيف التقى موسى بمحمد ... مع أن محمدا لم يولد بعد : ...

ولرد على هذا السؤال نقول :

ان اسم محمد - عليه السلام - هو اسم الجسد .. هو الاسم الآدمي .. اما اسم الروح .. اسم الحقيقة : فهو احمد .. كما قال عيسى - عليه السلام - عنه « ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه احمد » فكان اسمه فى هذا الحين احمد بالحقيقة والروح .. لا بالجسد والصورة ... وذلك أيام وجود عيسى - عليه السلام .. فان الله تعالى أوجد الأرواح قبل خلق الأجساد .. وجاء فى الحديث (كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد) وفى حديث آخر (كنت وآدم بين الماء والطين .. وكنت وآدم ولا ماء ولا طين) يشير الى الحقيقة التى أتاها الله وصف

النبوة من قبل خلق آدم .. وأفاض عليها هذا الوصف من ذلك الوقت فصار نبيا .. وأخذ له العهد على الرسل جميعا فى آية الميثاق .. ولهذا جاء فى الخبر عنه أنه فى السماء أحمد وفى الأرض محمد .

تلك الحقيقة الاحمدية .. هى التى التقى بها موسى .. وتعلم منها .. ومنطقيا .. هل كان العبد الصالح ظاهرا للناس ... عند ارتكابه جريمتين ظاهرهما الفساد .. همتا : خرق السفينة .. وقتل الغلام ؟ ...

فاذا قبل العقل مسألة قتل الغلام ..

بفرض ان الطريق كان خاليا .. فلم يره احد من الناس وهو يقتله غير موسى .. فكيف يقبل العقل ان رجلا يحمل فأسا - كما يقول المفسرون - ويقتلع من قاع السفينة لوحا أو لوحين .. ليفرقها بمن فيها .. ويتركه الركاب سالما ؟ ..

وفى التفسير .. عن ابى العالية : لم ير الخضر حين خرق السفينة غير موسى .. وكان عبدا لا تراه الا عين من اراد الله له ان يريه .. ولو رآه القوم لمنعوه من خرق السفينة .

وقال ابن عباس : لما خرق الخضر السفينة .. قال موسى فى نفسه : ما كنت اصنع بمصاحبة هذا الرجل .. كنت فى بنى اسرائيل .. اتلو كتاب الله عليهم غدوة وعشية .. فيطيعونى : قال له الخضر يا موسى اترى ان اخبرك بما حدثت به نفسك ؟ .. قال : كذا وكذا .. قال صدقت (١) ..

وقال ابو العالية .. فى قتل الغلام : لم يره الا موسى ولو راوه لحاولوا بينه وبين الغلام (٢) .. لاشك انه لم يكن ظاهرا الا لموسى فقط .. كشف الله عن بصيرته .. فرأى حقيقته الاحمدية .. وتحدث اليه .. وسار معه .. وتعلم منه ولم يظهر مع موسى امام الناس الا فى استطعام اهل القرية .. وكان يطلب الطعام من اجل موسى .. لما اصابه من شدة الجوع .. بفقد فقده الحوت الذى كان مع يوشع .. وهل نقول لموسى « انك لن تستطيع معى صبرا » .. غير أحمد ؟ .

وهل يتدلل موسى بقوله « لا تؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من امرى عسرا » الا لأحمد ؟ ..

ومن الذى يكون له موسى تلميذا طيعا لا يعصى له امرا .. غير البشير النذير .. والسراج المنير .. صاحب الحوض المورود .. وحامل اللواء المعقود .. قائد الفر المحجلين ، وامام النبيين والمرسلين ؟ ..

ولا مانع ان يكون اسم الخضر من اسماء حقيقته الروحية - عليه الصلاة والسلام - مادام هذا الاسم قد ورد في حديث سعيد بن جبير .. في البخارى ..

ولقد آمن الرسل جميعا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - كما هو نص آية الميثاق : « واذا اخذ الله ميثاق النبيين ، لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال اقررتم واخذتم على ذلك اصرى (١) ، قالوا اقرنا ، قال فاشهدوا واتا معكم من الشاهدين » (٨١ آل عمران) وآمن موسى به بالتخصيص .. كما هو واضح في قوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبي الامى ، الذى يجدهم مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل » (١٥٧ الاعراف) ..

وقد سأل بعضهم انا جعفر محمد بن على : كيف صار محمد - صلى الله عليه وسلم - نتقدم الانبياء وهو آخر من بعث ؟

قال : ان الله تعالى لما اخذ من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ؟ .. كان محمد - صلى الله عليه وسلم - اول من قال : بلى .. ولذلك صار يتقدم الانبياء .. وهو آخر من بعث (٢) .

كما اتفقت ثلاثة اناجيل من الاناجيل الرسمية الاربعة هى : انجيل متى في الاصحاح السابع عشر .. وانجيل مرقس في الاصحاح التاسع .. وانجيل لوقا في الاصحاح التاسع .. على ظهور موسى وايلياء مع عيسى - عليهم جميعا السلام - على جبل الزيتون وراهم بطرس ويوحنا ويعقوب - وهم من الحواريين - وقال بطرس لعيسى : يا معلم .. جيد ان نكون ههنا .. فلنصنع ثلاث مظال .. لك واحدة .. وموسى واحدة .. ولايلياء واحدة (٣) .

وقد اثبتنا بالادلة القاطعة ان ايلياء هو احمد - عليه الصلاة والسلام - ومن شاء فليرجع الى تلك البراهين في كتابنا - مريم البتول (٤) .

هذا ما اطمأن اليه القلب عن احمد الخضر - كما جاء في كتاب - النجار - والقارىء الكريم في حل من ناحية قبول هذا الراى او رفضه . والله تعالى اعلم بحقيقته .



٣] النهاية

وانما دخلها يوشع بن نون بعد موت موسى عليه السلام ..

وقد مات النقباء كلهم في مدة التيه .. ولم يبق منهم غير يوشع وكالب بن يوفنا .. وأخبر يوشع من بقى من بنى اسرائيل انه نبي أرسله الله اليهم .. وأن الله يأمره بقتال الجبابرة ساكنى الشام .. فلبوا نداءه وبايعوه .. وسار بهم الى أريحاء عاصمة البلاد .. وقتل الجبارين .. وأخرجهم من الشام .. وصار الشام كله لبنى اسرائيل « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها » (١٣٧ - الأعراف) .

روى أن هارون مات في مدة التيه .. ودفنه موسى في جبل هور .. وهو من جبال سيناء في البرية ..

وطلب الله من موسى أن يصعد جبل «نبو» وينظر الى الأرض الموعودة التى وعد الله بها أبناء اسحاق ويعقوب .. دون أن يدخلها .. ففعل ومات على الأكمة .. بعد هارون بسنة ودفن بها ..

وان كان بعض الرواة يقولون أن موسى دخلها .. ولكن الأغلب على أنه لم يدخلها ..

والى اللقاء في رحلة التاريخ مع طالوت وجالوت وبنى اسرائيل ..



« وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا »
(٢٤٧ - البقرة)

○ من نبأ طالوت

١] تابوت النصر

وقد روى في جميع كتب التفسير تقريبا أن التابوت كان يسمع فيه انين ثم يسير .. فاذا سمعوه ساروا لربهم خلفه .. واذا لم يسمع هذا الانين لم يسيروا ولم يسر التابوت .. ثم ينزل النصر .

قام يوشع بن نون بأمرهم حتى لحق بربه .. فاقاموا بعده على عبادة الله .. ملتزمين بأوامره .. مجتنبين نواهيه .. يسوس أمرهم قضاة منهم .. وليس لهم ملك .. ستا وخمسين وثلاثمائة سنة .. بعد موسى - عليه السلام - وكان أنبيأؤهم في تلك الفترة مرشدين فقط للقضاة ..

وحصلت حروب متعاقبة بينهم وبين جيرانهم من العماليق .. الذين كانوا يسكنون على ساحل الروم .. بين مصر وفلسطين - كما يقول أغلب المفسرين .. وقد حدد كتاب قصص الأنبياء مكانهم .. مدينة أشدود بالقرب من غزة .. وقال أبو اسحاق الثعلبي في كتابه انهم كانوا يسكنون غزة وعسقلان وساحل البحر بين فلسطين ومصر .. وكلها اقوال متفقة تقريبا ..

وكان النصر ملازما للاسرائيليين .. فلبون بالتابوت من يقاتلهم .. حتى عصوا ربهم .. وحادوا عن سبيل توارثهم .. فغلبهم جالوت ملك العماليق .. وأخذ منهم التابوت .. وهذا دليل على أن العصيان دائما سبب الخذلان .. ويبدو هذا واضحا في كتاب أبي بكر خليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الى خالد ابن الوليد .. قائد جيش المسلمين .. لما طلب هذا نجدة .. لكثرة العدو عددا وعدة .. قال فيه : يا خالد انكم لا تهزمون بكثرة عدوكم عددا وعدة .. ولكن تهزمون بذنوبكم وآثامكم « وكانت هزيمة بني اسرائيل عظيمة .. وذلهم شديدا ..

بعد موت هارون وموسى - عليهما السلام - دخل بنو اسرائيل فلسطين بقيادة يوشع ابن نون - فتى موسى .. فساس أمرهم .. وأحسن قيادهم .. وعاشوا زمنا في رغد من العيش .. ورفاهة في الحياة .. ظل وماء .. وجو ورواء .. وزدوع كثيرة .. وفاكهة وفيرة .. طابت لهم الدنيا .. واستقام أمامهم الأمر .. يعبدون الله .. ويؤدون مفاهيم التوراة .. ها بهم جيرانهم .. وخافهم أعداؤهم .. فمعهم تابوت النصر .. يقدمونه أمام الجيش في الحروب . فيكون نصرهم محققا وفوزهم مضمونا (١) .

وقد قال المفسرون الكثير عن هذا التابوت .. وعما فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون « ان آية ملكه ان ياتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون » (٢٤٨ البقرة) .. ولكن اصدق الآراء وأوثقها تخبرنا أنه مصنوع من خشب الشمشار .. وهو خشب تصنع منه الأمشاط .. وكان مموها بالذهب .. ابعاده : ثلاثة أذرع في ذراعين .. وكان فيه سكينة لهم .. واطمئنان في الحروب ما دام أمام الجيش .. كما كان الله - سبحانه - ينزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين في غزواته - عليه الصلاة والسلام - « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » .. وكان في التابوت « بقية مما ترك آل موسى وآل هارون » .. فقبل كان فيه عصا موسى .. وعمامة هارون .. ورضاض من الألواح التي كسرها موسى .. عندما عاد بعد تلقى الألواح (٢) .. ووجد قومه يعبدون العجل « ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال نُسما خلفتموني من بعدي ، أعجلتم أمر ربكم والقي الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره اليه » (١٥٠ - الأعراف) .

(١) القرطبي ٢٢/ص .

(٢) القرطبي والنسفي والكشاف وغيرهما ٢٤٨/البقرة .

ورضاض الشيء : فتاته .

بعد ان فقدوا التابوت .. حيث اسر منهم جالوت
أربعمائة وأربعين من أبناء كرامهم .. وأخذ
منهم الجزية .. علامة الدل والهوان .. بعد ان
استولى على ديارهم وأموالهم ..

وقد ذكر الأستاذ النجار في قصص الأنبياء :
ان العمالة دخلوا بالتابوت الى بيت داجون -
الههم - وهو رأس انسان بجسم سمكة .. وقال
ان قرية بيت دجن - قرب الرملة - هي بيت
الاله داجون .. الذي احتفظوا فيه بالتابوت ..
كما ذكر القرطبي انهم وضعوه في بيت أصنامهم
.. تحت الصنم الأكبر .. فأصبحوا وهو فوق
الصنم .. فأخذوه وشدوه الى رجله ..
فأصبحوا وقد قطعت يدا الصنم ورجلاه وألقيت
تحت التابوت .. فأخذوه وجعلوه في قرية ..
فأصاب أولئك القوم أوجاع في أعناقهم .. وقيل

أصابهم الباسور .. فلما عظم بلاؤهم كيفما كان
.. قالوا : ما هذا الا بسبب وجود هذا التابوت
بيننا .. فوضعوه على عجلة بين تورين ..
وأرسلوهما في الأرض ..

اما سفر صمويل الأول وهو من أسفار
التوراة . فقال : ان الفلسطينيين .. كانوا
يجدون الههم داجون ملقى عن مكانه في كل ليلة
.. وسلط الله عليهم الفئران .. فأفسدت
عليهم حاصلاتهم .. وخرجت لهم البواسير ..
وعلموا ان ذلك من وجود التابوت بينهم ..
فجاءوا بعجلة وعلقوا فيها بقرتين مرضعتين ..
ووضعوا التابوت على العجلة .. وأطلقوا
البقرتين .. فجاءتا بالتابوت بدون سائق أو
قائد الى قرية بيت شمس .. الى اهل قرية
يعازيم .. حيث مكث في يعازيم عشرين سنة(١) .



٢ السقاء يصير ملكاً

عيد لهم ، وعند توزيع الانصبية من القرابين ، اخذت أم الاولاد عشرة انصبية غير نصيبها .. واخذت العاقر نصيبا واحدا .. فقالت أم الاولاد للعجوز العاقر : الحمد لله الذي كثرني بولدى وقللك : - فوجمت العجوز .. وعند السحر .. عمدت الى مكان عبادتها فقالت : اللهم بعلمك وسمعتك كانت مقالة صاحبتى .. واستطالتها على بنعمتك التى أنعمتها عليها .. فارحم ضعفى .. وأرزقنى ولدا تقيا راضيا .. واجعله لك ذخرا فى مسجد من مساجدك .. يعبدك ولا يكفرك .. وبطيعك ولا يجحدك .. واجعل لى علامة اعرف بها قبول دعائى .. فلما أصبحت حاضت .. وألم بها زوجها فحملت ووضعت صمويل .. وتنبأوا له بالنبوة لان اليائسات لا يحملن الا الانبياء .. كسارة امرأة ابراهيم حملت باسحاق .. وابشاع امرأة زكريا حملت بيهيى (٢) .

وذهب وفد بنى اسرائيل الى نبيهم صمويل .. فى بلدة الرامة ليختار لهم ملكا ... وقد خاطبهم نبيهم بما يعرف فيهم من الجبن والخشوع .. وما تغفل فى نفوسهم بسبب عصيانهم من الدلة والمهانة .. والنكوص عن الصبر فى حومة الوغى .. فقال لهم « هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا » (٢٤٦ البقرة) وكأنه بهذا القول قد حرك فيهم كوامن النخوة والشجاعة .. فقالوا وما لنا الا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وابنائنا ، ويأتى تعليق القرآن الكريم على هذا الموقف .. بقوله تعالى « فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » (٢٤٦ البقرة) .. تولوا عن القتال الا القليل .. كما سنشهد

ضاق بنو اسرائيل بالذل الذى فرضه عليهم المعاملة .. ولم يطيقوا صبرا على وضعهم هذا .. وهم ورثة النبوة والملك .. فراوا ان يوفدوا وفدا من رؤسهم الى نبيهم .. ليجعل لهم ملكا يلم شتاتهم .. ويوحد صفوفهم .. ويقوى من عزيمتهم .. ويقودهم للجهاد فى سبيل استرداد ديارهم وابنائهم .. اقرأ « ألم تر الى الملائكة من بنى اسرائيل من بعد موسى ، اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله » (٢٤٦ البقرة) .

ونبيهم هذا .. هو صمويل .. كان من قضاة بنى اسرائيل .. هجرهم لما عصوا ربهم .. واتخذ له صومعة .. انقطع لعبادة الله فيها .. ويقول الاستاذ النجار فى كتابه « قصص الانبياء : انه رأى قبره على جبل بين بيت المقدس والرملة .. فى موضع يقال له « الرامة » . ويقول القرطبى : ان هذا النبي اسمه : صمويل بن بال بن علقمة .. ويعرف بابن العجوز .. لان أمه كانت عجوزا عقيما .. طلبته من الله فوهبه لها (١) .. كما قال السدى : اسمه شمعون أو سمعون لان الله سمع دعاء أمه واجاب سؤالها .. والسعين شين فى العبرية .. وهو من نسل هارون .. وان كان القرطبى أورد قول قتادة : بأن نبي الله صمويل هو يوشع ابن نون .. الا أن هذا القول ضعيف .. لان صمويل بعد موسى بقرون ، ويوشع كان فتى موسى .. وقد ذكرنا أن بنى اسرائيل لم ينحرفوا الا بعد موت يوشع بزمان كبير .. ولميلاد صمويل قصة أوردها أبو اسحاق الثعلبى وموجزها :

ان ابا صمويل كانت له زوجتان .. احدهما عاقر .. والثانية انجبت له عشرة بنين وفى يوم

(١) - القرطبى/ ٢٤٦ البقرة .

(٢) - الثعلبى فى قصص الانبياء .

من عرض القصة في منظر قريب .. عند الزحف .. ان شاء الله تعالى .

وفي هذا اليوم الذي ذهب فيه وفدهم الى نبيهم صمويل خرج شاب اسمه « طالوت » يعمل سقاء .. خرج من قريته يبحث عن حمارته التي فقدت منه .. وامتدت به خطاه الى مقربة من صومعة نبي الله « صمويل » .. فرأى ان يزوره تبركا به .. عسى ان يهديه الله تعالى الى دابته التي يبحث عنها .. وطالوت هذا ورد اسمه في سفر صمويل الاول (١) .. انه شاول بن قيس بن ابيثيل بن صرود بن بكورة ابن افيج بن انيس بن بنيامين بن يعقوب - عليه السلام - وصادف دخول « طالوت » الى صومعة « صمويل » .. وعنده وفد بني اسرائيل يطلبون منه تنصيب ملك عليهم .

وقد ذكر القرطبي في تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » عن وهب بن منبه : لما طلبوا من صمويل بن بال ملكا .. سأل الله ذلك .. فقال الله له : انظر الى القرن - بفتح القاف والراء الذي فيه الدهن - وهو جعبة من الجلد - فاذا دخل عليك رجل فنش الدهن - بتشديد الشين وفتحها - أى « صوت » .. فهو الملك المطلوب .. فادهن رأسه منه وملكه عليهم (٢) .

وعند دخول طالوت عليهم نش الدهن في القرن .. فقام اليه صمويل ودهن رأسه بالدهن .. وقال له : أنت ملك بني اسرائيل .. ثم قال لهم : « ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا » (٢٤٧ البقرة) .. ولكنهم جروا على سنتهم في تعنيتم الانبياء .. وحيدهم عن امر الله تعالى .. فقالوا له « انى يكون له الملك علينا .. ونحن أحق بالملك منه .. ولم يؤت سعة من المال » .. كيف تجعل هذا الرجل ملكا علينا .. وأنت تعلم أن النبوة في سبط لاوى بن يعقوب .. والملك في سبط يهوذا ؟ .. وهو ليس من أحد هذين السبطين .. وانما هو فقير من سبط بنيامين .. « نحن أحق بالملك منه » .. جئناك لتختار منا ملكا .. فتختار لنا هذا الرجل .. الذى لا تتوافر فيه مقومات الملك .. من نسب او مال ؟ ..

فذكر لهم « صمويل » صفتين انفع واجدى مما ذكروا من النسب والمال .. وهما العلم والجسامة .. ولا بد للملك أن يكون من أهل العلم .. فان الجاهل مزدري غير منتفع به .. وأن يكون ذا جسم يملأ العين .. لانه أعظم في

النفوس واهيب للقلوب .. وقد روى ان الرجل القائم كان يمد يده لينال رأس طالوت .. والله يؤتى ملكه من يشاء .. فهذا حكم الله وقضاؤه .. فهو ادري بالأصلح والأفضل .. واسمع الفضل والعطاء .. يوسع على من ليس له سعة من المال .. عليهم بمن يصطفيه للملك .. قال ان الله اصطفاه عليكم .. وزاده بسطة في العلم والجسم .. والله يؤتى ملكه من يشاء .. والله واسع عليهم « (٢٤٧ البقرة) » فتضمنت صفة الامام .. واحوال الامامة .. وانها مستحقة بالعلم والدين والقوة .. لا بالنسب والغنى .. قال ابن عباس : كان طالوت يومئذ اعلم بنى اسرائيل وأجمعهم وأتمهم .. وزيادة الجسم مما يهيب العدو .. وقيل سمى طالوت لظوله .. كما قيل : ان زيادة الجسم كانت بكثرة معاني الخير والشجاعة .. ولم يرد عظم الجسم .. كقول الشاعر : -

ترى الرجل النحيل فتزدريه
وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطير فتبتليه
فيخلف ظنك الرجل الطير (١)
وقد عظم البعير بغير لب
فلم يستغن بالعظم البعير

وفي هذا المهني قوله - صلى الله عليه وسلم - لأزواجه : - أسرعن لحاقي ابي اطولكن بدا .. فكن يتطلون .. فكانت زينب اولهن موتا لانها كانت تعمل بيدها وتتصدق .. خرجة مسلم كما قال بعض المتأولين : المراد بالعلم علم الحرب .. وفي هذا تخصيص للعموم من غير دليل ..

لم يقتنع القوم بكلام نبيهم .. وطلبوا منه دليلا .. على ان هذا الاختيار من الله .. فقال لهم : سيايكم تابوت النصر .. الذى فقدتموه .. وكان فقده سببا في هزيمتكم وخذلانكم وذلكم .. « وقال لهم نبيهم ان اية ملكه ان ياتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم .. وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة » ان في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين « (٢٤٨ البقرة) .. وقال ابن عباس : جاءت الملائكة بالتابوت .. تحمله بين السماء والارض .. وهم ينظرون اليه .. حتى وضعته امام طالوت .. فأقروا بملكه .. وقالوا رضينا بك باطالوت ملكا علينا . وهكذا يخرج السقاء من بيته .. باحثا عن دابته .. فلا يعود الا وهو ملك على بنى اسرائيل . « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء » .

(٢) القرطبي وغيره ٢٤٧/البقرة .

(١) الاصحاح التاسع - صمويل الاول .

(١) الطير : ذو الرداء والمنظر الحسن .

٣ صرم النصر

أوحى الله - سبحانه - الى نبيه صمويل :
ان يامر طالوت بالمسير الى الملك الكافر جالوت
.. وبدأ الاعداد للزحف ..

قال طالوت لبني اسرائيل : لا يخرج معي
رجل بنى بناء لم يفرغ منه .. ولا تاجر مشغول
بتجارته .. ولا رجل تزوج ولم يبين بزوجه ..
ولا ابتغى الا شيا با نشيطا فارغا .. فلم يتخلف
منهم الا ذو عذر من صغر أو كبر أو مرض ..
حيث استبشروا بالنصر .. لما اتاهم التابوت
.. فاجتمع له جيش عدته ثمانون الفا .

وتحرك هذا الجيش الضخم .. متجها الى
فلسطين .. بقيادة طالوت .. الذى أنعم الله
عليه بنعمتى العلم والقوة معا .. وابتلعتهم
الصحراء .. شمال سيناء .. ليبدأ الله -
سبحانه - معهم اختبار الصوم والصبر ..
تمهيدا للمعركة الحاسمة .. بين قوى الحق
وعناصر الباطل والبقى .. واعدادا للنصر الكبير .

الصحراء واسعة شاسعة .. والرمال
ساخنة لاذعة .. والحر شديد قاتل .. وقد
نفد ما معهم من الماء .. وتمر يوم ويومان ..
وهم على هذا الحال .. من قيظ محرق ..
وظلما مهلك .. حتى جفت اللسنة فى الحلوق
.. ويبست الدماء فى العروق .. واذا بطالوت
يخاطبهم قائلا : « ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب
منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فاته منى الا
من اغترف غرفة بيده » (٢٤٩ البقرة) .

وقد ذكر صاحب تفسير القرطبي ، عن
قتادة : ان هذا النهر بين الأردن وفلسطين (١) ،
كما ذكره ايضا الثعلبي فى كتابه - ومعنى الابتلاء
الاختبار لهم .. فمن ظهرت طاعته بعدم شربه

من الماء نعلم - انه مطيع فيما عدا ذلك .. ومن
غلبته شهوته فى الماء .. وغصى الامر .. فهو فى
العصيان فى الشدائد اخرى وأولى .

وراوا النهر .. وقد نالهم العطش .. وهو
فى غاية العذوبة والحسن .. فلذلك رخص
للمطيعين فى غرفة واحدة .. ليرتفع عنهم اذى
العطش بعض الارتفاع .. وليكسر نزاع النفس
فى هذه الحال .. والفرفة - كافة ضرر
العطش عند أولى العزم .. الصابرين على
شظف العيش .. الذين همهم فى غير الرفاهية
والترف .. ولهذا قال بعض الذين يتعاطون
غوامض المعانى وبواطن المرامى : قالوا : هذه
الآية مثل ضربة الله سبحانه - للعالم ..
فشبهها بالنهر . والشارب منه بالمائل اليها ..
والمستكثر منها . والتارك لشربه بالمنحرف
عنها .. والزاهد فيها كلية . والمقترف بيده
غرفة بالآخذ منها قدر حاجته . وأحوال الثلاثة
عند الله مختلفة ..

ولعل طالوت يقصد بقوله « فليس منى »
اى ليس من أصحابنا ولا على طريقتنا .. كما
جاء فى الحديث .. « من غشنا فليس منا » ..
وكما قال النابغة الذبياني : -

إذا حاولت فى اسد فجورا
فانى لست منك ولست منى

وكما هو شائع فى كلام العرب .. حيث
يقول الرجل لابنه .. اذا سلك غير أسلوبه :
أنت لست منى .. وقد حجب الامام على فى الشرب
بالاكف فقال : الاكف انظف الآنية .. ومنبه
قول الحسن :

لا يد لفون الى ماء باتية الا اغترافا من الغدران بالراح

وجاء في القرطبي .. حديث خرجه ابن ماجه ، من حديث عمر . قال . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لا يلغ احدكم .. كما يلغ الكلب ولا يشرب باليد الواحدة .. كما يشرب القوم الذين سخط الله عليهم .. ومن شرب بيده وهو يقدر على اناء يريد به التواضع .. كتب الله له بعدد اصابعه حسنات .. وهو اناء عيسى بن مريم - عليهما السلام - اذ طرح القدر فقال : اف هذا مع الدنيا » (١) .

وعلى البعد لاح لهم النهر .. بمائه العذب الرقاق .. وكان تلك الغرفة المباحة .. هي شراك ابليس .. ليوقعهم بها في العصيان .. فاحي اليهم اول الامر .. أن يشرب كل منهم تلك الغرفة المباحة .. على الأقل يرد بها عن نفسه غائلة الظلم .. وينقل نفسه من الهلاك .. ولكن كيف يستطيع من هو في مثل تلك الحال أن يشرب غرفة ماء واحدة .. ثم يستطيع أن يمنع نفسه من اتمام الشرب ؟ .. فركضوا في لهفة جارية نحو النهر .. ولم يملكوا انفسهم .. ان اكبوا على بطونهم يشربون ويشربون .. كما قال عروة : واحسوا قراح الماء والماء بارد .. فلم يقم واحد منهم من مكانه .. حيث تفجرت اكبادهم الملتهبة .. عند نزول الماء البارد عليها .. فأصيب ما شرب بالاستسقاء في الحال .. ولم يعبر النهر مع طالوت .. غير ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا .. رأوا أن يمسكوا عن الماء وينتصروا على نفوسهم .. ويمتنعوا حتى عن تلك الغرفة المسموح بها « فشربوا منه الا قليلا منهم » (٢٤٩ البقرة) .

لم ينجح في الاختبار الا ثلاثمائة وثلاثة عشر من ثمانين الفا ..

قال البراء بن عازب : كنا نتحدث أن عدة اهل بدر كمدة اصحاب طالوت .. الذين جازوا معه النهر - ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا .. وفي رواية - وثلاثة عشر رجلا - وما جاز معه الا

مؤمن .. حقيقة لم يعبر مع طالوت غير المؤمنين .. ولكن الايمان درجات .. فأراد الله - سبحانه - أن يستخلص من هذا العدد القليل من المؤمنين .. صفوة الامتياز .. « فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ، قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » (٢٤٩ البقرة) .. ويبدو جليا من قولهم هذا .. أنه مازال في ايمانهم نقص .. وفي يقينهم تردد .. وهنا تبرز الصفوة الممتازة .. **فيقولون في ايمان راسخ ..** ويقين ثابت : « قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين » (٢٤٩ البقرة) .

وفي هذه الآية تحريض على القتال .. واستنعار للصبر .. واقتداء بمن صدق ربه .. وفي البخاري :

وقال أبو الدرداء : انما تقاتلون بأعمالكم .. وفي مسند : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « هل ترزقون وتنصرون الا بضغائنكم ؟ » .

وما انهزمنا في معاركنا قبل معركة العبور .. مع كثرتنا .. وقلة اعدائنا .. الا بأعمالنا الفاسدة .. واهمال ضعفائنا والتكيل بهم .. وقلة صبرنا .. وضعف اعتمادنا .. وزوال تقوانا .. وقد قال تعالى « اصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله (١) » وقال « ان الله مع الذين انقسوا والذين هم محسنون (٢) » وقال « ولينصرن الله من ينصره (٣) » وقال « واذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (٤) » .. فهذه اسباب النصر وشروطه .. وقد كانت معدومة عندهم .. غير موجودة فينا .. لظهور الفساد .. وكثرة الطغيان .. وقلة الرشاد .. فكم رأينا من ضمائر للايجار .. ونفوس للبيع .. وذمم للاستعارة .. فكانت النتائج دائما شر الهزائم .. وانطلق جيش طالوت .. الصغير عددا .. الكبير ايمانا ويقينا .. حتى اشرفوا على ديار المماليق .. في فلسطين .. والتقى الجيشان .. جيش طالوت .. وجيش جالوت ..



٢] والتقى الجيشان

ابن ابراهيم .. وكان مع ايشي في الجيش ستة من بنيه سابعهم غلام صغير السن .. كان يرمى القنم .. يحتفظ معه بمقلعه الذي يرد به الفئمة الشاردة الى القطيع .. ويدفع به عنها سباع الصحراء وذئابها .

اتى هذا الغلام اباه يوما .. فقال : يا ابيه .. ما قدفت بمقلعى هذه شيئا الا اصابته وصرعته .. فقال له : ايشري يا بنى .. فان الله قد جعل رزقك في قذافتك .

فلما رأى هذا الغلام تحدى جالوت ..
ونكوص قومه عن الخروج له مهابة منه ورهبة .. تقدم الى طالوت .. طالبا الاذن له بمبارزة عدو الله .. ولكن القائد اراد رده لصغره وقصره وصفرته .. غير انه اصر على مبارزة جالوت قائلا : انى قتلت اسدا اخذ شاة من غنم ابي .. وكان معه دب قتلته ايضا .. فألبسه طالوت درع حرب .. ولكنه تعثر فيها .. وعافت جسمه عن الحركة .. فنضاهها الغلام عن جسمه قائلا : يا سيدي خذ درعك فلا حاجة بى اليها .. وكفانى بالله درعا .. ثم انحنى الى الأرض ليلتقط حجرا من الجرائيت مدبب الجوانب .. وجده عند قدميه .. فتناوله ووضع في مقلعه .

وقد روى المفسرون الكثير عن هذا الحجر
.. فقال الاستاذ النجار في كتابه « قصص الانبياء » انه انتقى من الوادى خمسة احجار ماس .. اخذها ووضعها في كنفه « اى مخلاته » .. وقال النسفى والبيضاوى والقرطبي والنيسابورى وغيرهم .. انه وجد في طريقه

كان جالوت امير العمالة ومنكهم .. ويقال: ان البربر من ذريته .. والعمالة هم نسل عمليق بن عاد .. واجمع المفسرون .. على ان جالوت كان جبارا .. وكانت بيضته تزن ثلاثمائة رطل من الحديد .. روى القرطبي ان جيشه كان ثلاثمائة الف فارس .. وقال عكرمة كان تسعين الفا (١) .. وعلى اية حال فالنسبة بين الجيشين رهبة جيش طالوت وجيش جالوت .. مما دعا جيش طالوت الصغير .. الى اللجوء الى الله .. ولن يلجا المؤمن اذا اشتد الكرب .. وضاق الامر .. الا الى الله ؟ .. وكان رسولنا - صلى الله عليه وسلم - يقول قبل الحرب « اللهم بك اصول واجول » .. ويقول اذا لقي العدو : « اللهم ائنى اعوذ بك من شرورهم .. واجعلك فى نحورهم » .. ودعا يوم بدر حتى سقط رداؤه عن منكبيه يستنجز الله وعده ..

ومن اجل هذا قال جند المؤمنين مع طالوت: « ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا والصبرنا على القوم الكافرين » (٢٥٠ البقرة) وبرز جالوت من بين جيشه الضخم .. يطلب من يبارزه .. وكان يهزم الجيوش وحده لشدة وقوته .. فنقال طالوت : من يبرز اليه ويقتله .. فانا اقوجه ابنتى .. واشاطره ملكى .. واحكمه فى مالى .. ولكن الناس هابوا الخروج اليه .. فلم يبرز منهم احد .. وكرر طالوت هذا الطلب ثلاث مرات .. دون ان يجيبه احد من جنده .

وكان ممن جاوز النهر مع طالوت .. رجل من بنى اسرائيل .. اسمه ايشي بن عوفيد ..
ينتهى نسبه الى يهوذا بن يعقوب بن اسحاق

(١) القرطبي وغيره ٢٤٩/البقرة .

.. فيشق خوذته .. ثم رأسه .. ويخر صريعا
.. فييب النعر في قلوب قاداته وجنوده .. لما
راوا ما أصاب ملكهم فجأة .. فيولون الأدبار
وينتصر جند الله .

« فهزموهم بأذن الله ، وقتل داود جالوت »
(٢٥١ البقرة) . فقد كان هذا الغلام هو داود
- عليه السلام .

وقيل : ان الحجر تفتت الى ذرات أصابت
القوم كلهم .. فلم ينج منهم أحد .. كما فعل
النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر ..
حين حثا حثوة من التراب .. ورمى بها القوم
فانهزموا .

وقالوا حز داود رأس جالوت .. وقدمها
الى طالوت .. « وكفى الله المؤمنين القتال » ..
وعادوا الى ديارهم المفتصة وأموالهم المنهوبة .

ثلاثة أحجار .. دعاه كل منها أن يحمله في
مخلاته .. وأنها التأمت في المقلع فصارت
حجرا واحدا .. ونحن لا نميل الى أمثال تلك
المبالغات .. وعلى أية حال .. فقد وقف الغلام
بمقلعه .. متجهاً ناحية جالوت .. وأدار
المقلع في الهواء ثلاث دورات .. ثم قذف
الحجر باسم الله المنتقم الجبار .. فلا يجوز في
مثل تلك المواقف أن يذكر اسم الله الرحمن
الرحيم .. لأنه لا مجال للرحمة هنا .. وإنما هو
مجال الانتقام والجبروت .. كما لا يجوز ذكر
اسم الله الرحيم عند الدبح .. والا فارفع يدك
ولا تدبح ما دمت قد ذكرت الرحمة .. وإنما
مجالها : بسم الله .. الله أكبر .

وخرجت القذيفة من المقلع .. « وما رميت
اذ رميت .. ولكن الله رمى » فيطير الحجر
كالصاروخ الموجه .. ثم ينقض على رأس جالوت



« واذكر عبدنا داود ذا الأيد أنه أواب »
١٧ - ص

○ من نبأ
« داوود » عليه السلام

١] حمد وطمح

الانبياء « ان طالوت هم ان يطعن ابنه يونانان بالرمح .. لانه كان يحاجه في داود .. فراغ منه ونجا .. وكم حاول طالوت دفع داود الى الحرب على امل ان يقتله الاعداء .. ولكنه كان دائما مظفرا .. فعقد النية على قتله غيلة .

وقد ذكر ابو اسحاق الشعلبي في كتابه .. عن وهب ابن منبه .. انه قال : كانت الانبياء والملوك يومئذ يتكئون على العصي ويفرزون في اطراف العصي أزجة من الحديد .. وكان داود - عليه السلام - جالسا في ناحية البيت .. فدخل طالوت .. فرماه بالعصى بفتة ليقتله .. فلما أحس داود بذلك .. حاد عن رميته .. وأمال نفسه من غير أن يبرح مكانه .. فارتكزت العكازة في الجدار .. فقال له داود : أردت قتلى ؟ .. قال له طالوت : لا بل أردت ان اقف على ثباتك عند الطعان .. وربط جأشك للاقران .. فقال له داود أفلقينه على ما قدرته في ؟ .. قال : نعم .. ولكن لعلك فرغت ؟ .. قال : معاذ الله ان أخاف سواه .. فلا يدفع الشر الا هو .. ثم ان داود انتزع العكازة من الجدار .. وهزها هزة الشكرة .. وقال له : اثبت كما ثبت لك .. فايقن طالوت بالهلاك .. فقال له : أنشدك بالله .. وبحرمة المصاهرة التي بيني وبينك .. وما كان هذا القول من داود عن قصد قتل طالوت .. ولكن كان مقال تخويف وتحذير . فقال داود لطالوت : ان الله قد كتب في التوراة : جزاء السيئة سيئة مثلها واحدة بواحدة .. والسادى اظلم .. قال طالوت : أفلا تقول قول هابيل « لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ، ما انا بباسط يدي اليك لأقتلك ، انى اخاف الله رب العالمين (١) ؟ فقال داود : قد عفوت عنك لوجه الله تعالى .

كان داود بن ايش - عليه السلام - أزرق العينين .. بوجهه صفرة تميل الى الحمرة .. دقيق الساقين .. ابيض الجسم .. قصيرا .. سبط الشعر .. طويل اللحية فيها جبودة .. حسن الصوت والخلق .. طاهر القلب نقيه .. وبعد ان قتل جالوت .. ذكره الناس .. وعظم في نفوسهم .. وطلب من طالوت ان يزوج ابنته « ميكال » .

ويبدو ان شيطان الحقد .. والخوف على الملك .. بعد ان ذاعت شجاعة داود .. واجبه الشعب .. جعل طالوت يتردد في الوفاء بوعده بتزويج ابنته لداود .. بل وفكر في طريقة للتخلص منه خشية ان يطمع داود في الملك .. فطلب منه مهرا لابنته « ميكال » مائة غلقة من اعدائه العماليق الفلسطينيين .

وقد ذكر الأستاذ : عباس محمود العقاد - عن الختان - في كتابه عن - خليل الرحمن - قال : ومن بقايا عادة الختان الاولى .. ان شاول - نبي الله طالوت - اشترط على داود ان يقدم له مائة غلقة من الفلسطينيين مهرا لابنته « ميكال » فقدم له مائتين . ا هـ .

وتزوج داود - عليه السلام - ميكال ابنة الملك .. وصار قائدا عاما للجيش .. وتوطدت اواصر الصداقة بينه وبين شقيقها يونانان ابن طالوت .. ولكن دوافع الحقد والطمع .. ازدادت ونمت في قلب صهره .. بعد ان تمكن داود من دفع المهر مضاعفا .. ولعل طالوت بطلب هذا المهر العجيب .. كان يريد التخلص من داود .. وكلما تعلق الشعب بداود .. ازداد طالوت خوفا منه .. وحقدا عليه .. وقد حاول يونانان ان يعطف قلب ابيه على داود .. فلم يفلح .. وقد روى الأستاذ عبد الوهاب النجار في « قصص

وهنا قد يسأل سائل : كيف تحدث طالوت
بآيات من القرآن الكريم قبل نزوله ؟ ..
وللاجابة .. نقول :

ان القرآن الكريم قديم أزلي « وانه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » ({ الزخرف }) آمن به الأنبياء والرسل جميعهم .. كما آمنوا بالرسول الخاتم المنزل عليه هذا القرآن في آخر الدهر .. واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (٨١ آل عمران) .. فكان الخطاب قبل نزوله بمعانيه القديمة الأزلية .. ولا شك ان الالفاظ والعبارات التي أنزلها الله - سبحانه - على رسوله .. هي أفضل تعبير عن تلك المعاني .

ونعود الى داود - عليه السلام - فقد اشتد حرص طالوت على قتله .. وقد قرأت احداثا كثيرة جدا عن محاولات طالوت للتخلص منه .. وردت في كثير من المراجع .. ولا مانع من ذكر بعضها .. لتري كيف كان داود - عليه السلام - يقابل اساءة طالوت بالعمو والتسامح والاحسان .. مرات ومرات .. وتلك من أهميات الصفات .. التي يجب ان يتحلى بها المؤمن .. وهي العفو عند المقدرة .

فقد روى في كتاب ابي اسحاق الثعلبي : ان طالوت ظل زمنا يريد قتل داود .. فعزم على أن يأتيه ويقتله في داره .. فأحست بذلك ميكال زوجته - وقد أحبتة وفنيت فيه . فقالت له : انك لمقتول الليلة .. قال : ومن يقتلني ؟ .. قالت : ابي .. قال : وهل أجزمت جرما ؟ .. قالت حدثني بذلك من لا يكذب .. ولا عليك بأس ان تغيب الليلة .. حتى تنظر مصداق ذلك .. فقال : لئن كان اراد ذلك .. لا استطيع خروجا .. ولكن ائتنى بزق من خمر .. فأتته به .. فوضعه في مضجعه على السرير .. وسجاه (١) . ودخل تحت السرير .. وعندما دخل طالوت في جنح الليل يريد قتله .. سال ابنته عن بعلاها فقالت : هو نائم على السرير .. فضربه بالسيف فسال الخمر .. فلما وجد ريح الخمر .. قال : رحم الله داود .. ما كان أكثر شربه للخمر .. فلما أصبح علم انه لم يفعل شيئا .. ولكن خاف انتقام داود .. فاستتر بحجابته وحراسه .. وأغلق دونه

الابواب .. ولكن داود استطاع ان يصل الى فراش طالوت .. وهو نائم عليه .. فوضع سهما عند راسه .. وسهما عند رجله .. وسهما عن يمينه .. وسهما عن شماله .. ثم خرج .. ولما استيقظ طالوت .. وجد السهم فعرفها .. فقال : رحم الله داود هو خير مني .. ظفرت به فقصدت قتله .. وظفر بي فكف عني .. لو شاء لوضع هذا السهم في حلقى .. ولكن ما أنا بالذي آمنه .

وقد ذكر الأستاذ النجار في « قصص الأنبياء » هذا الحادث ولكنه ذكر ان الذي كان على السرير متاع مغطى .. ولم يكن خمر . وروى ان داود خرج هاربا . بعد نصيحة زوجته له خوفا عليه من حقد أبيها .. وانتهى في هربه الى « أخيش » ملك « جت » وهم أعداء الداء لطالوت .. وكان لداود أسوأ التكايات بهم في الحرب .. فلما ظفروا به جاءوا به الى الملك .. وحرصوه على قتله .. فتظاهر داود بالجنون .. وأوقع الله في قلب الملك طرد هذا المجنون من حضرته وأمر غلمانه بطرده .. ولامهم على ادخال مجنون الى بيته .

واقام داود في البرية .. واجتمع له كل متضايق وكل مدين .. وطالوت يطلب الفرصة لاهلاكه .. فجمع ثلاثة آلاف للتفتيش عليه .. والإيقاع به .. واختبأ داود مع بعض أتباعه في كهف .. فجاء طالوت .. ونام في ذلك الكهف .. دون أن يعلم أن داود هنا .. ولأحت الفرصة لداود في قتله .. وأغراه رجاله بذلك .. فوبخهم ولم يفعل .. واقتصر على قطع طرف جبة طالوت وهو نائم .. فلما استيقظ .. وخرج من الكهف تبعه داود .. واخبره بأنه هو الذي قطع طرف جبته .. وكان في استطاعته قتله فلم يفعل .. فندم طالوت .. وقال : انت أبر مني .. ولكنه لم يلبث أن عاوده الحقد والخوف على الملك من داود .. فألح في طلب اهلاكه ..

فخرج مع رؤساء جنده في جيش للقضاء على داود .. ونزلوا مكانا ناموا فيه .. وقد ركز الملك رمحه عند راسه ونام .. وجاء داود وتخطى الجند .. وأخذ الرمح وكوز ماء كان عند رأس الملك .. ثم وقف على ربوة ونادى رؤساء الجند موبخا لهم على تقصيرهم في حراسة الملك .. فاستيقظوا وطلب داود أحدهم يأتيه ليأخذ رمح الملك وكوز الماء .. فظهر الملك الندم

وعاد .. بينما أقام داود في حصن اتخذته لنفسه ولرجاله ..

وينس داود من اصلاح ما بينه وبين الملك
.. فذهب الى الفلسطينيين .. وطلب من ملكهم ان يسمح له في الإقامة هو ورجاله في إحدى القرى .. ووافق ملك الفلسطينيين على ذلك .. واعتبرها هدنة مع داود .. اكتفاء لشره .. ورأى ذلك خيرا من عداوته .. فأجاب طلبه .. وقد ندم طالوت .. وبكى كثيرا .. عسى أن يغفر الله له مقابلة احسان داود بالسيئات .. وفضله بالجحود والنكران .

ثم قامت حرب بين الفلسطينيين وبين طالوت .. قتل فيها طالوت وثلاث من بنيه .. وهزم رجاله .. وجلا الاسرائيليون عن المدن والقرى القريبة من الموقعة .. وسكنها

الفلسطينيون .. ولم يكن داود يعلم بهزيمة طالوت وقتله .. ولم يخبره بذلك غير غلام من العمالقة .. اخبر داود بأن طالوت قتل .. وأنه - اى طالوت - طلب من هذا الغلام العماليقي ان يجهز عليه - حيث كانت فيه بقية من الحياة - وقد اجهز عليه فعلا .. وقدم لداود اكليل طالوت وسواره .. فغضب داود .. وحزن من اجل صديقه يونانان وابيه .. وقتل الغلام ..

واقام ماتما .. وورثاهما رثاء عظيمما .. والظاهر ان طالوت كان حسن السياسة .. وأن مدته كانت مدة رفاهة وهناءة لبنى اسرائيل .. كما تدل عليه مريضة داود .. وفي اثناء تلك الأحداث .. مات نبي الله صمويل - عليه السلام - وكان قد غصب على طالوت واجتنبه .. واخبره داود ان الملك صائر اليه .. بعد موت طالوت .



٢ داود الملك

وقال ابن عباس - كما ذكر القرطبي - كان داود اشد ملوك الأرض سلطانا .. وكان يحرس محرابه كل ليلة نيف وثلاثون ألف رجل .. فاذا أصبح قيل : أرجعوا فقد رضى عنكم نبي الله (١) .

ولا يهمننا شيء من عدد حراسه بقدر ما يهمننا وصف الله - سبحانه - له بأنه : ذو ايد (٢) واذكر عبدنا داود ذا الأيد (٣) « والأيد القوة .. ومنه قوله تعالى « والسماء بنيناها بأيد (٣) » ..

فكان عليه السلام ذا قوة في الدين .. مضطلعا بمشاقه وتكاليفه .. فكان على قيامه بأعباء النبوة والملك .. يصوم يوما ويفطر يوما وهو اشد الصوم .. ويقوم نصف الليل ويأكل من عمل يده .. فعلمه الله صنعة الدروع من الحديد .. اقرا « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم » ٨٠ الانبياء ..

قذف الله في قلوب قومه المهابة منه .. وقد وردت قصة تعليلا لهذه الهبة .. في بعض كتب التفسير .. منها الكشاف والثعلبي .. نقول : أخبرنا عبد الله بن حامد .. عن عكرمة .. عن ابن عباس : أن رجلين من بني اسرائيل احتكما الى داود - عليه السلام - فقال المدعى : ان هذا قد غصبني بقرتي فسأل داود الرجل عن ذلك فأنكر .. وسأل المدعى البينة فلم تكن له بينة .. فقال لهما داود : انتظرا حتى أنظر في امركما .. فأوحى الله اليه في منامه أن يقتل المدعى عليه .. فقال : هذه رؤيا .. ولست أعجل حتى أتبين .. فأوحى الله اليه في اليقظة بهذا .. فاستدعى الرجل وأخبره بما أوحى الله اليه .. فقال له

استغفرت الأحداث السابقة .. بين طالوت وداود .. سبع سنوات بعد أن قتل داود جالوت .. وما أن مات طالوت حتى صعد داود الى حبرون .. وهى مدينة الخليل اليوم .. وآتاه رجال يهوذا .. ونصبوه ملكا عليهم .. اما من بقى من بني اسرائيل .. فقد دانوا بالطاعة لابن طالوت واسمه « ايشبوش » وحصلت حروب بين رجال داود ورجال ايشبوش .. الى أن هلك هذا بعد سنتين .. فأقام داود في حبرون .. حيث آتاه جميع بني اسرائيل .. وبايعوه على الملك .

وظل في حبرون سبع سنوات .. ثم انتقل الى صهيون - وهو حصن سماه مدينة داود وقام داود في أيامه بحروب كثيرة .. كان النصر حليفه فيها .. فتم له فتح بلاد فلسطين كلها .. واستولى على دمشق عاصمة ملك الآراميين .. بعد أن امتلك جميع البلاد على الفرات وشرق الأردن . وبقي غلام من أبناء طالوت .. اكرمه داود - عليه السلام - ورد عليه ملك ابيه . « وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » (٢٥١ البقرة) قال السدى : آتاه ملك طالوت .. ونبوة شمعون « صمويل » وعلمه صنعة الدروع .. ومنطق الطير .. وغير ذلك من انواع العلوم .. شدد الله - سبحانه - ملك داود - عليه السلام - وقواه وثبته « وشددنا ملكه » بالهبة .. والقاء الرعب منه في القلوب .. وكثرة الجند .. وشدد كل هذا بالتأييد والنصر من لدنه .. وهذا اختيسار « ابن عربى » فى معنى هذه الآية - حيث لا ينفع الجيش الكثير بغير ناصر أو معين .. وكان داود شديد البطش .. روى أنه ما فر ولا انجاز من عدوله قط ..

(٢) ١٧/ص .

(١) القرطبي والنسفى والكشاف ١٠/ص .

(٣) ٢٧/الذاريات .

الرجل : اتقتلنى بغير ذنب ولا بينة ؟ .. فقال داود : نعم ؟ والله لانقلن امر الله فيك .. فلما عرف الرجل انه قاتله .. قال : لا تعجل يابى الله حتى اخبرك : انى والله ما اخذت بهذا الذنب - ذنب البقرة - ولكنى كنت اغتلت ابا هذا فقتلته .. فأمر به داود فقتل .. فهاب الناس داود .. وقالوا ان اذنب احدا اظهره الله عليه .. فقتله (١) .

وقد ذكر القرطبي عن ابن عباس : ان الله اعطاه سلسلة موصولة بالجرة والفلك ، ورأسها عند صومعة داود .. فكان لا يحدث في الهواء حدث إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ما حدث .. ولا يمسه ذو عاهة الا يرى .. وكانت علامة دخول قومه في الدين ان يمسوها بأيديهم .. ثم يمسحون اكفهم على صدورهم .. وكانوا يتحاكمون اليها بعد داود - عليه السلام - الى ان رفعت (٢) . اهـ .

وذكر ابو اسحاق الثعلبي ان رجلا اودع رجلا جوهرة ثمينة . فلما جاء يستردها انكرها فتحاكما الى السلسلة .. وقد لجأ المنكر الى حيلة .. فنقر عكازته ودس الجوهرة في داخلها .. واتكأ عليها .. وعندما وقفا امام السلسلة .. قال صاحب الجوهرة لصاحبه ان لى عندك ودیعة .. فقال ما اعرف لك شيئا عندي .. فان كنت صادقا فتناول السلسلة .. فتناولها بيده .. ثم قال للمنكر : قم أنت ايضا فتناولها

.. فقال لصاحب الجوهرة : الزم انت عكازتى هذه فاحفظها معك .. حتى اتناول السلسلة .. فأخذها .. فقام الرجل .. وقال : اللهم ان كنت تعلم ان هذه الوديعة التى يدعيها قد وصلت اليه .. فقرب السلسلة منى .. فمد يده فتناولها .. فتمعجب القوم .. ولكنهم أصبحوا وقد رفع الله تلك السلسلة ..

كما يقول الثعلبي : كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - اذا اشتبه عليه الامر بين خصمين يتحاكمان اليه .. يقول : ما احوجكما الى سلسلة بنى اسرائيل .. كانت تأخذ بعنق الظالم فتجره الى الحق جرا ..

ونحن لا نستبعد صحة هذا الراى من تلك السلسلة مع غرايته .. فليس هذا أغرب ولا أعجب من معرفة لغة الطير .. والانيان من كل شيء .. اقرأ « وورث سليمان داود ، وقال ياها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء » ١٦ النمل ..

كما ان امر السلسلة ليس أغرب ولا أعجب من تسبيح الجبال والطير معه .. اقرأ : « انا وسخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق والطير محشورة كل له اواب » ١٨ ص ..

واقرأ ايضا : « ولقد اتينا داود منا فضلا يا جبال اوبى معه والطير » (١٠ سبا) ثم اقرأ : « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين » ٧٩ الانبياء .



(٢) القرطبي ٢٥١/البقرة .

(١) أبو اسحاق الثعلبي والكشاف ٢٠/ص .

٣ داود الموسيقار الكوني

لا شك ان تسبيح الجبال والطير مع داود
امر عجيب غريب .. لنا فيه راي ..

فقد انزل الله الزبور على داود - عليه
السلام - اقرا : « وآتينا داود زبورا » ١٦٣
النساء ..

واقرا ايضا : « ولقد فضلنا بعض النبيين
على بعض وآتينا داود زبورا » ٥٥ الاسراء .

والمعروف عن الزبور انه قصائد وانشيد ..
تتضمن تسبيح الله وحمده .. والثناء عليه ..
والتضرع له .. وان كان في بعض سوره أشياء
أخرى .. كما قال تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور
من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي
الصالحون » (١) .. وفي هذا التعبير اخبار
ضمنى عن نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام -
الذى يرث الأرض في نهاية الزمن ..

وكان داود - عليه السلام - جميل الصوت
.. حسن الانشاد .. طيب النغم ترجيعا وغناء
.. يضرب به المثل الى يومنا هذا في جمال
الصوت ورخامته .. فنقول لمن اعطاه الله حسن
الصوت .. انه اعطى مزمارا من مزامير داود ..
وكما يقول شوقي « كما ترنم في المزمار داود »
.. ويقول :

حديثها السحر الا انه نغم
جرت على فم داود ففنتها

وذكر ابو اسحاق الثعلبي وغيره : « ان داود
كان يقرأ الزبور بسبعين لحنا تؤثر في كل شيء
.. فيعرق المجوم .. ويفيق المغمى عليه ..
كما ذكر بالاسناد : اخبرنا ابو بكر الخوزقي عن
ابى موسى الاشعري .. قال : قال ابى رسول
الله - صلى الله عليه وسلم .. « لقد أعطيت

مزمارا من مزامير داود » وذكر ايضا اخبرنا ابوبكر
.. قال : « اخبرنا ابو العباس بالاسناد عن البراء
ابن عازب .. قال سمع النبي - صلى الله عليه
وسلم - صوت ابى موسى فقال كان صوت هذا
من صوت آل داود .

والزبور عند اهل الكتاب « المزامير » ..
وعدها مائة وخمسون مزمورا .. وليست كلها
لداود .. بل بعض المزامير منسوبة لقورح امام
المغنين .. وليس في الزبور احكام ولا أوامر ولا
نواه .. وبعض المزمور الف بعد داود بمئات
السنين .. كالمزمور الذى اوله « على انهار بابل »
فانه الف بعد سبى الاسرائيليين في حادثة بختنصر
ولكن ابا اسحاق الثعلبي يقول : انزل الزبور
على داود بالعبرانية .. مائة وخمسون سورة
.. في خمسين منها ذكر ما يكون من بختنصر
واهل بابل .. وهذا يتنافى مع ما قرره بعضهم
من ان مزامير « على انهار بابل » الفت بعد
داود - عليه السلام - .

وقال ابن عباس : كان داود يفهم تسبيح
الحجر والشجر والمدر (١) .

فاذا كان الزبور كله قصائد وانشيد وترايم
.. تتضمن التسبيح والحمد والثناء والتضرع ..
باطيب صوت .. وأحسن لحن .. واجمل نغم
.. كما اجمعت على ذلك كل المراجع والتفاسير
.. وعلى رأسها قول من لا ينطق عن الهوى محمد
عليه الصلاة والسلام - فما وجه الصلة بين هذا
وبين الجبال والطير في قوله تعالى « يا جبال أوبى
معه والطير » (٢) وقوله « وسخرنا مع داود
الجبال يسبحن والطير » (٧٩ الانبياء) . اما
تحس المشاعر الموسيقية تلك الصلة بين هذا
وذاك ؟ .. اما ترى معنى ايها القارئ الكريم بعين

(١) ابى اسحاق الثعلبي (٢) ١٠/سبا

(١) ١٠٥/الانبياء .

عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال « خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن كبر الله .. أو حمد الله أو هلل الله .. أو سبح الله أو استغفر الله .. أو عزل حجرا أو شوكة أو عظما عن طريق الناس .. أو أمر بمعروف .. أو نهى عن منكر .. عدد تلك الستين والثلاثمائة سلامى .. فإنه يمشى يومئذ .. وقد زحزح نفسه عن النار قال « أبو توبة : وربما قال (يمس) - كذا أخرجه مسلم ، ويجزى من ذلك ركعتان » أى يكفى من هذه الصدقات .. وعن هذه الأعضاء ركعتان .. وذلك أن الصلاة عمل بجميع أعضاء الجسم .. فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته التى عليه فى الأصل ..

لقد شد الله - سبحانه - ملك داود - عليه السلام - وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .. أقرأ « وشدنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » (٢٠ ص) .. وقالوا عن « الحكمة » : أنها : النبوة والعدل والعلم بكتاب الله .. أما « فصل الخطاب » فهو الفصل فى القضاء ..

وقال ابن عباس فى فصل الخطاب : هو بيان الكلام .. أما على بن أبى طالب - رضى الله عنه وكرم وجهه - فقال : أنه هو البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .. فداود هو أول من قضى بهذا .. وإن كان أبو موسى الأشعرى والشعبي قالا : أنه عبارة « أما بعد » .. وذكر القرطبي حول معنى « فصل الخطاب » أنه البيان الفاصل بين الحق والباطل .. وقول على - رضى الله عنه - يجمع كل هذه المعانى .. لأن مدار الحكم عليه فى القضاء ..

وأما من قال من المفسرين : أن « فصل الخطاب » هو الإيجاز .. فذلك للعرب دون العجم .. وللمحمد - صلى الله عليه وسلم - دون العرب .. وقد بين هذا بقوله « وأوتيت جوامع الكلم » .. وأما من قال أنه عبارة « أما بعد » فكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يقولها ويروى أن أول من قالها فى الجاهلية - سبحانه ابن وائل - وهو أول من آمن بالبعث .. وأول من توكأ على عصا .. وعمر مائة وثمانين عاما وأن صح أن داود عليه السلام قالها .. فلم يكن ذلك منه بالعربية على هذا النظم وإنما كان بلسانه (٢) .

البصرة .. تلازم الترجيع والترديد بين داود - عليه السلام - وبين صوت الجبل والطير ؟ .. وكأنها « كورس » الزمن يترنم على مسرح الكون بقيادة داود - عليه السلام - .. ثم ألم تلمس بالدوق القرآنى المرفف .. هذا السلم الموسيقى الرائع .. المحصور بين صوت الجبل بجلاله وضخامته .. اضخم الأوتار وأدناها .. وصوت البلبل بعلوبته ورقته .. أرفع الأوتار وأعلاها ؟ وكان صوت الجبل يمثل القرار فى السلم الموسيقى بينما يمثل صوت البلبل الجواب فيه .. اليس هذا هو السلم الموسيقى الكونى الرائع البديع ؟ .. موسيقى كونية تتردد فى جنبات الكون عشية وضحى .. ذكر القرطبي عن مقاتل : كان داود إذا ذكر الله - عز وجل - ذكرت الجبال معه .. وكان يفقه تسبيح الجبال (١) « أنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب » ١٨ ص .

والإشراق هو وقت الضحى .. وقد روى عن ابن عباس أنه قال : كنت أمر بهذه الآية ولا أدري ما هى .. حتى حدثتنى أم هانئ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دخل عليها .. فدعا بوضوء فتوضأ .. ثم صلى صلاة الضحى .. وقال : يا أم هانئ هذه صلاة الإشراق .. وروى أن كعب الأحبار ، قال لابن عباس : انى وجدت فى كتب الله صلاة بعد طلوع الشمس ، هى صلاة الأوابين .. فقال ابن عباس وأنا أوجدك فى القرآن .. ذلك فى قصة داود « يسبحن بالعشى والإشراق .. والطير محشورة كل له أواب » (٤) .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال « يصبح على كل سلامى - بضم السين - من أحدكم صدقة .. وكل تكبيرة صدقة .. وأمر بالمعروف صدقة .. ونهى عن منكر صدقة .. ويجزى من ذلك ركعتان يركعهما فى الضحى ..

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : أوصانى خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت : صوم ثلاثة أيام من كل شهر .. وصلاة الضحى .. ونوم على وتر « لفظ البخارى » . وقال مسلم « وركعتي الضحى » ..

وأصل السلامى - بضم السين : عظام الأصابع والأكف والأرجل .. ثم أستعمل فى سائر عظام الجسد ومفاصله .. وروى من حديث

٤ فتنه داود

« وهل أتاك نيا الخصم اذ تسوروا المحراب .
اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف
خصمان بغي بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق
ولا تشطط وأهدنا الى سواء الصراط . ان هذا
أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة
فقال اكفليها وعزني في الخطاب قال لقد ظلمك
بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثير من الخطاء
ليبقى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا
الصالحات وقليل ما هم وظن داود انما فتناه
فاستغفر ربه وخر راكعا واناب . ففغرنا له ذلك
وان له عندنا لزلفى وحسن مآب » ٢١ - ٢٥ ص .

تلك هي القصة التي اوردها القرآن الكريم
عن فتنه داود - عليه السلام -

كان له اربعة ايام : يوم للعبادة . . . ويوم
للقضاء بين الناس . . . ويوم لخاصة امره . . .
ويوم يجمع فيه بنى اسرائيل يعظهم ويبيكهم . . .
كما ذكر ذلك ابن عباس (١) - رضى الله عنه -
وغیره من المفسرين . . .

ففى يوم عبادته اخذ الزبور . . . ودخل محرابه
- كعادته - متفرغا لعبادة ربه . . . وبينما هو
كذلك اذ سقط عليه رجلان من أعلى السور . . .
ففزع وخاف . . . فقالا له : لا تخف . . . نحن
خصمان بغي احدا على الآخر . . . وقال المدعى
هذا أخى عنده تسع وتسعون نعجة . . . ولى
نعجة واحدة فقط . . . فطلب منى ان يضم نعجتى
الى نعاجه . . . لتصير مائة . . . وغلبنى على هذا
الأمر . . . وأخذها منى فعلا . . . وسلم المدعى عليه
بصحة الدعوى - كما اورد ذلك القرطبي - نقلا
عن ابن عربى . . . فقال داود : لقد ظلمك هذا
بطلب ضم نعجتك الى نعاجه . . . وارتفع الخصمان

فى الهواء . . . فعلم داود انهما ملكان . . . ارسلهما
الله اليه . . . ليخبره بأمر هو غافل عنه . . . فخر
داود راكعا . . . واستغفر ربه فغفر الله له . . .

والنعا في هذا المثل كناية عن النساء . .
والعرب تكنى عن المرأة بالنعجة والشاة . . . وقد
يكنى عنها بالبقرة والنوق والظباء (٢) . . . وقد
قال عنتره :

ياشاة ما فنص لمن حلب له
حرمت على وليتها لم تحرم
فبعثت جاريتى فقلت لها اذهبي
فتجسسى اخبارها لى وأعلمى
قالت رأيت من الاعادى غرة
والشناة ممكنة لمن هو مرتهم

وقال الأعشى :

فرميت غفلة عينه عن شاته
فأصبت حبة قلبها وطحالها

**وقد ذهب المفسرون مذاهب شتى فى الذنب
الذى ارتكبه داود - عليه السلام - واستوجب
بسببه التنبيه . . . ولفت النظر من الله - سبحانه
والرکوع والاستغفار . . . فقال بعضهم ان داود
حكم قبل سماع الطرف الثانى . . . وهذا مما
لا يجوز عند أحد . . . ولم يتبع فى ملة من الملل . . .
فكيف يقع فيه داود ؟ . . . وخاصة ان الله -
سبحانه - يقول عنه « واتيناه الحكمة وفصل
الخطاب » وليس من الحكمة . . . ولا من فصل
الخطاب . . . ان يحكم فى قضية قبل سماع الطرف
الأخر . . . وانما التقدير كما قال ابن عربى : ان
أحد الخصمين ادعى . . . والاخر سلم بصحة
الدعوى . . . فوقعت الفتوى . . . وقيل ان داود**

(١) القرطبي وغيره ٢١/ص

(٢) قاله النحاس . . . من القرطبي ٢٢/ص .

لم يقض للآخر .. حتى اعترف صاحبه بذلك ..
أو يكون التقدير : لقد ظلمك ان كان كذلك ..

وقال آخرون : ان اوريا بن حنان .. وهو قائد من قواد داود .. يقول الكلبى عنه : أنه سيف الله في أرضه في زمان داود .. قال : كان سيوف الله ثلاثة : كالب بن يوقنا في زمن موسى .. واوريا بن حنان في زمن داود .. وحمزة ابن عبد المطلب في زمن رسول الله - صلى الله عليه وسلم (١) قالوا : ألا أوريا خطب امرأة .. ووطن نفسه عليها .. فلما غاب في غزائه خطبها داود .. ففضله أهلها على أوربا .. فتزوجت منه .. فاغتم لذلك أوريا غما شديدا .. فأثب الله - سبحانه - داود على ذلك .. وهذا الرأي .. لا يقره المنطق .. ولا يسيغه العقل .. داود له تسع وتسعون زوجة .. ولا يجوز ان يخطب امرأة خطبها قائد من قواده لانه راها جميلة فأحبها .. وهذا رسولنا - صلى الله عليه وسلم - يقول « لا يبيع أحدكم على بيع أخيه .. ولا يخطب على خطبة أخيه » وإذا كان داود - عليه السلام - قد خطب على خطبة أخيه أوريا .. أفلا يكون هذا بغيا منه ؟ .. مع انه يقول في الحكم « وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات وقليل ما هم » .. أفلا يكون داود عليه السلام - من هذا القليل ؟ ..

ويذكرنى هذا الموقف بموقف لعمر - رضى الله عنه - سسمع رجلا يقول في دعائه : اللهم اجعلنى من عبادك القليل .. فقال عمر : ما هذا الدعاء ؟ قال الرجل أردت قول داود - عليه السلام - « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » .. فقال عمر : كل الناس افقه منك يا عمر ؟ ..

قال بعض آخر : ان داود رأى تلك المرأة .. وهى زوجة لأوريا فاعجبته فطلب منه ان يطلقها ليتزوجها هو .. كما يسأل الرجل الرجل ان يبيعه جاريته .. وأجبر أوريا على ذلك .. حياء من داود .. ولمدم استطاعته مخالفته ..

ويستدل اصحاب هذا الراى .. بما حصل من مجاملة الانصار للمهاجرين بمثل ذلك .. فقد روى ان سعد بن الربيع الانصارى .. عرض على عبد الرحمن بن عوف .. وهو مهاجر .. ان يطلق سمسعد إحدى زوجتيه ليتزوجها عبد الرحمن .. فأبى عبد الرحمن ذلك (١) .. وقال له : بارك الله لك في اهلك .. واظن ان الفرق ظاهر بين الحالتين .. ولا حاجة بنا الى مناقشة هذا الراى .. لاثبات بطلانه .. ونفيه عن نبي الله داود عليه السلام .



٥] إسرائيليات

قال: قال قوم من العلماء: إنما امتحن الله داود بالخطيئة.. لأنه تمنى يوما على ربه منزلة إبراهيم وإسحاق ويعقوب.. وكان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام: يوم يقضى فيه بين الناس.. ويوم يخلو فيه بعبادة ربه.. ويوم يخلو فيه بنسائه وأشغاله.. فأوحى الله إليه: إنهم ابتلوا ببلايا لم يبتل بها غيرهم، فصبروا عليها.. فقال داود: فابتلني بمثل ما ابتليتهم.. وأعطني مثل ما أعطيتهم.. فأوحى الله إليه: إنك مبتلى في شهر كذا في يوم الجمعة.. فلما كان ذلك اليوم.. دخل محرابه وأغلق بابه.. وجعل يصلى ويقرأ الزبور.. فبينما هو كذلك.. إذ مثل له الشيطان في صورة حمامة من ذهب.. فيها من كل لون حسن.. فوقع بين رجله.. فمد يده ليأخذها.. فیدفعها لابن له صغير.. فطارت غير بعيد.. ولم تؤيسه من نفسها.. فامتد إليها ليأخذها فتنتحت.. فتتبعها فطارت.. حتى وقعت في كوة.. فذهب ليأخذها فطارت.. ونظر داود يرتفع في أثرها.. فنظر امرأة في بستان على شط بركة تغتسل، قاله الكلبى.. وقال السدى: تغتسل عريانة على سطح لها.. فرأى أجمل النساء خلقا.. فأبصرت ظله فنفضت شعرها.. فغطى بدنهما.. فزاده إعجابا بها.

وكان زوجها أوريا بن حنان في حرب البلقاء.. مع أيوب بن صوريا ابن أخت داود.. فكتب إليه، أى إلى أيوب ابن أخته.. أن ابعث بأوريا إلى مكان كذا وكذا.. وقدمه قبل التابوت.. وكان من قدم قبل التابوت لا يحل له أن يرجع وراءه حتى يفتح الله عليه.. أو يستشهد.. فقدمه أيوب ففتح الله عليه..

وجد الإسرائيليون في قصة داود مع أرملة أوريا مرتعا خصبا لدس سمومهم ونشر مفترياتهم على رسل الله الكرام.

فجاء في كتاب «قصص الانبياء» للأستاذ عبد الوهاب النجار ص ٣١٣ من الطبعة الثالثة ما نصه: أما أهل الكتاب، فإنهم قالوا: إن داود نظر وهو يمشى على سطح داره إلى امرأة تستحم.. فأعجبه.. وأغرم بها.. وأتى بها وضاجعها فحملت منه.. وأعلمته بحملها.. وكان زوجها «أوريا الحثي» في الحرب فأتى به ليسأله عن أمر الحرب في الظاهر، وليحدث الرجل بامرأته، حتى لا يرتاب بامرأها إذا علم فيما بعد أنها حامل.. ولكن الرجل كان تقيا جدا.. فبات بباب داود، ولم يزر امرأته.. لأنه رأى من عدم التقوى أن يتمتع بزوجه.. وإخوانه في الحرب.. بعيدون عن أزواجهم.. فلما علم داود بامرأته.. لم ير وسيلة لعندم افتضاح أمره.. إلا بتعريض أوريا لجبهة القتال.. حاملا الراية.. وأن يتأخر عنه الجند.. وبهذه الوسيلة.. قُتل الرجل وأنت امرأته بولد من تلك الزنية.. وتزوجها داود.. ولم يترك الأستاذ عبد الوهاب النجار هذا الموضوع حتى أثبت كذبهم وافتراءاتهم.. واستشهد بما ورد في سفر صمويل الثانى فى الإصحاح الثانى والعشرين.. وما ورد فى الإصحاح الثالث من الملوك الأول.. وما فى الإصحاح السادس من أخبار الأيام الثانى.. وكلها شهادات تحكم بعصمة داود من مثل هذا الجرم الخطير.. كما ذكر القرطبي والكشاف وغيرهما عدة روايات يبرز فيها الدسيس الإسرائيلى.. تذكر منها ما أورده القرطبي عن الثعلبي (١).

(١) القرطبي ٢١/ص.

فكتب إلى داود يخبره بذلك.. قال الكلبي: وكان أوريا سيف الله في أرضه في زمان داود.. فطلب منه داود أن يبعثه في بعث كذا.. وقدمه قبل التابوت. ففتح الله عليه.. ولكنه استشهد في الثالثة.. فتزوج داود تلك المرأة حين انقضت عدتها. أ هـ.

أشمت أيها القارئ الكريم رائحة الحقد الكريهة.. المنبعثة من خلال تلك الأقاويل المدسوسة على رسول كريم؟.. رسول.. قال الله تعالى عنه: «وآتيناها الحكمة وفصل الخطاب».. «وقال عنه أيضا عنه: «نعم العبد إنه أواب»؟

ولعل هذا هو الذي دفع عليا بن أبي طالب - رضى الله عنه وكرم وجهه - لأن يقول.. رواية

عن سعيد بن المسيب: «لو سمعت رجلا - يتحدث عن داود - عليه السلام - بما يرويه القصاص لجلدته ستين ومائة»(١).

لأن حد قاذف الناس ثمانون.. وحد قاذف الأنبياء ستون ومائة.

وروى أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز.. وعنده رجل من أهل الحق.. فكذب المحدث به.. وقال: إن كانت القصة على ما في كتاب الله.. فما ينبغي أن يلتمس خلانها.. وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها شرا على نبيه.. فما ينبغي إظهارها عليه.. فقال عمر: لسماعى هذا الكلام.. أحب إلى مما طلعت عليه الشمس.



(١) من الكشاف والقرطبي ٢٤ / ص.

٦ ما هي الحقيقة

بقي أن نسأل أنفسنا سؤالاً.. بعد أن عرضنا أغلب الآراء التي وردت عن تلك القضية.. وأثبتنا بطلانها جميعاً.. فما هي الحقيقة إذن في مسألة الخصمين والنعاج؟.. وما هو الذنب الذي تنبه له داود - عليه السلام - بعد أن حكم بين الخليطين.. وظن من أجله أنها فتنة له.. فخر واكماء.. واستغفر ربه فغفر له.. لأن له عند الله زلفى وحسن مآب؟.

تزوج أوريا بن حنان زوجة جميلة.. آية في الجمال.. كان لها خطابٌ كثيرون.. ولكنه ظفر بها من دونهم.. لما له من منزلة كبيرة بين قومه.. فهو الشاب الصالح.. التقى.. الشجاع.. الذي حمل لقب سيف الله في زمانه.. فقد كان قائداً من قواد الملك داود.. لمع نجمه وتتابع انتصاراته.. وذاع صيته.

واستدعى أوريا لحرب البلقاء.. وهو في أول عهده بالزواج.. وهنا ذهبت به الظنون كل مذهب.. وتناوبته الشكوك من كل جانب.. كيف يترك زوجته تلك الجميلة.. والذئاب حولها كثير.. وأجهدته هذا الأمر أياً إجهاد.. وأخيراً سنحت له فكرة.. طلب على أثرها مقابلة الملك داود.. فأذن له.

قال أوريا للملك: لقد استدعيت يا نبي الله إلى حرب البلقاء.. وأنا حديث عهد بالزواج من فتاة.. كان لها خطاب كثيرون.. ظفرت بها من دونهم.. وأخشى أن يشغلني أمرها وأنا في الحرب.. خشية اعتداء أحد عليها في غيبتى.. فقال الملك: لا بأس يا أوريا أن تجعل على منزلك حرساً لتكون مطمئناً على أهلك حتى تعود من

المعركة.. قال: أخشى ما أخشاه عليها من حراسها يا مولاي.. فقال الملك: وما الرأي إذن يا أوريا؟ قال: أنا لا آمن عليها يا سيدي.. إلا إذا كانت في قصر الملك.. فهل يسمح مولاي بتخصيص جناح لها في قصر الحريم.. حتى أعود أو يقضى الله أمراً كان مفعولاً؟.. ولي داود - عليه السلام - رغبة قائده.. وانتقلت زوجة أوريا لتكون ضيفة في قصر حريم الملك.. مع أزواجه التسع والتسعين.. حتي يعود زوجها من الميدان.. يقول ابن العربي: إن كانت زوجاته جميعهن أحراراً.. فذلك شرعه وإن كن إماء.. فذلك شرعنا.. والظاهر أن شرع من قبلنا لم يكن محصوراً بعدد.. وإنما الحصر في شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - لضعف الأبدان.. وقلة الأعمار (١).

وسافر أوريا إلى غزاته.. مطمئن النفس.. مرتاح الضمير.. وشاء الله أن يستشهد في الحرب بعد حين.. ولم يتنبه داود إلى بقاء أرملة أوريا في قصره.. إلا بعد مضي ستة أشهر من استشهاد زوجها.. فأسرع بالإذن لها في الخروج من القصر إذا شاءت.. فهي حديثة السن.. وقد يكون وجودها في قصر الملك.. حائلاً بينها وبين من يريد خطبتها.. ولكنها طلبت مقابلة الملك.. لما بلغها الإذن في الخروج.. فأذن لها داود - عليه السلام - بمقابلته.

ودخلت عليه في استحياء قالت: يا مولاي.. لقد تعودت الحياة هنا في قصر مولاي الملك.. ولم يعد في استطاعتي أن أعيش بين عامة الشعب

(١) من القرطبي ٢٣/ص.

.. فهل تسمح يانبي الله ببقائى فى قصرك ولو كوصيفة من وصفات القصر؟

وأطرق داود - عليه السلام - برهة .. مر بخاطره فيها إخلاص زوجها وتقواه .. ووفاءه وشجاعته .. ووجد من الوفاء له أن يتزوجها صونا لها .. وتكريما له .. مادامت تلك رغبتها .. التى فطن إليها من خلال حديثها .. وتزوجها داود - عليه السلام - وكانت هى أم ولده سليمان - عليه السلام .

وكان هذا الأمر أرضا خصبة .. تبيض فيه الشائعات وتفرخ .. فشعب داود هم بنو إسرائيل .. لم يسلم من أذاهم نبى ولا رسول .. فهم هواة الفتنة والافتراء .. وعشاق الكذب والبهتان .. بدأ الحديث همسا أول الأمر .. ثم انتشر رويدا .. رويدا .. لقد تزوج داود أرملة أوريا .. لقد رآها داود من قبل فعشقها .. ثم ضمها إلى حريمه .. لقد عمل على التخلص من زوجها فى الميدان .. و.. وألف شعب إسرائيل تلك الروايات التى ذكرنا بعضها نقلا من كتب التفسير .. حتى صارت حديث الغادى والرائح .. والقائم والسارى .. كل هذا وداود - عليه السلام - غافل عما يقال .. لا يصل إلى سمعه شئ مما يشاع .. والشائعات دائما تنقطع عند صاحبها .. وخاصة إذا كان صاحبها ملكا مرهوبا مثل داود .. ومن هنا يظهر خطأ داود - عليه السلام - فقد كان من المفروض أن يلقى نفسه قالة السوء .. بإذاعة بيان على الشعب بما حدث بينه وبين أوريا .. يقطع به دابر الشك .. ويقضى على بذور الفتنة .. كما حصل من نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - عندما مرَّ به بعض الصحابة وهو واقف فى ظلمة الليل مع إحدى زوجاته .. فناداهم .. وقال لهم هذه زوجتى فلانة .. حتى لا يترك للشيطان فرصة يوسوس بها فى صدورهم شكا وريبة ..

وأراد الله - سبحانه - أن ينبه رسوله داود إلى هذا الأمر الخطير .. فأرسل له ملكين .. فى صورة رجلين من الإنس .. تسورا عليه المحراب وهو فى يوم عبادته .. حيث يمنع الحجاب أى داخل عليه من الدخول .. ولا شك عندى أنه عرف أنهما ملكان من أول لحظة هبطا عليه فيها .. يقول ابن العربى: كان محراب

داود من الامتناع بالارتفاع .. بحيث لا يرتقى إليه آدمى بحيلة .. إلا أن يقيم إليه أياما أو شهورا .. مع أعوان يكثر عددهم .. وآلات جملة مختلفة الأنواع .. وإذا شاهدت الكوة التى يقال دخل منها الخصمان .. لعلمت قطعا أنهما ملكان .. لأنها من العلو بحيث لا ينالها الأعلى (١).

وجدهما واقفين على رأسه .. فخاف وفزع .. قال: «لا تخف نحن خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط» .. مثلا ضربه له الملكان تنبيها وتذكيرا .. قال من يمثل أوريا «إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أفضلنيها وعزنى فى الخطاب» أبى طلب منى أن يضم نعجتي إلى نعاجه .. وغلبنى وأخذها منى .. يلفت نظره إلى أن هذا ما تردده الشائعات .. ولهذا كان رد داود - عليه السلام - صريحا .. واضحا .. لا لبس فيه ولا غموض .. تعبيرا عن الحقيقة الواقعة .. وقد فطن داود للأمر .. والفتنة من صفات الأنبياء .. فقال: «لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه» إن كان قد طلب منك ضمها إلى نعاجه .. فقد ظلمك .. إنه فى الحقيقة يعبر عما حصل منه .. لأنه لم يطلب من أوريا ضم زوجته إلى حريمه .. وإنما أوريا هو الذى طلب هذا الضم خوفا عليها من أعدائه .. ثم قرر داود .. تكلمة وتعليقا على الحادث .. فقال «وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم» وللمرة الثانية .. أفلا يكون داود من هذا القليل؟ ..

وصعد الملكان بعد أن تنبه داود إلى خطئه وغفلته عن هذا الأمر الخطير .. «فاستغفر ربه وخر راكعا وأتاب» .. استغفر ربه من الغفلة .. «فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب» .. ولقد كان رسولنا - ﷺ - يكثر من الاستغفار .. فقليل له: لماذا تستغفر وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر .. فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا؟ استغفر الله من الغفلة.

وصدر البيان الملكى ليوضح الحقيقة للشعب .. فقطعت الشائعات .. وخمدت الفتنة .. ولكن مازالت آثارها باقية فى تراث بنى إسرائيل.

٧ أصحاب السبت

«واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت» ١٦٣ الأعراف.

قال ابن عباس ووهب بن منبه: أن قوما من بني إسرائيل.. في زمن داود - عليه السلام - سكنوا قرية على شاطئ البحر.. بين مصر ومدین يقال لها أيلة.. وقيل: إنها طبرية.. كانت أكبر ميناء على البحر الأبيض وكان عدد سكانها سبعين ألفا.. حرم الله عليهم صيد السمك.. وسائر العمل أيضا يوم السبت من كل أسبوع.. وأمرهم أن يتفرغوا للعبادة في ذلك اليوم.

والله - جل شأنه - دائما مع عباده شئون.. واختبارات.. وبلاء.. فكان إذ دخل يوم السبت.. لم تبق سمكة في البحر.. إلا اجتمعت هناك.. وتخرج خراطيمها من الماء.. حتى لا يرى الماء من كثرتها.. وفي باقى أيام الأسبوع لا يرى من السمك إلا القليل.. «إذ تأتئهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يستون لا تأئهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون» ١٦٣ الأعراف.. وهذا يدل على أن السبب المباشر لا بتلائهم واختبارهم.. هو فسوقهم عن أمر الله.

ويقول صاحب تفسير الكشاف في معنى كلمة «شرعا» أى طاهرة على وجه الماء.. وعن الحسن: تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض.

وسئل الحسن بن الفضيل: هل تجد في كتاب الله: الحلال لا يأتئك إلا كفافا.. والحرام يأتئك جزافا؟.. قال: نعم.. في قصة داود وأهل أيلة «إذ تأئهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يستون لا تأئهم» (١).

فعمد رجال منهم.. فحفروا الحياض حول البحر.. وفتحوا لها قنوات تصل بين الحياض وبين البحر.. فإذا كانت عشية الجمعة.. فتحو القنوات.. فيقبل الموج بالحيتان إلى الحياض.. فلا تطيق الخروج منها.. لبعد عمقها.. وقلة الماء فيها.. فإذا كان يوم الأحد أخذوها.. وقيل: إنهم كانوا ينصبون الحبال والشباك يوم الجمعة.. ويخرجونها يوم الأحد.. وفي كل هذا تحايل على الله ومكر.. والله - سبحانه وتعالى - أشد مكرًا..

وانقسم أهل القرية حيال هذا الأمر.. إلى ثلاثة أصناف.. صنف امتنع عن هذا التحايل ونهى عنه.. وصنف امتنع ولم ينه.. وصنف ثالث انتهكوا حرمة الله.. «وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون» ١٦٤ الأعراف..

أى: قالت الفرقة التي لم تنه ولم تعص.. للفرقة الناهية: لم تعظون العاصين؟ إن الله سيعذبهم كما هو عهدنا.. من فعل الله بالأمم العاصية.. فقالوا لهم: إن موعثنا لهم معذرة إلى الله لعلهم يتقون.. ويرجعون عن عصيانهم.. ومن هذا النص علمنا أنهم كانوا ثلاث فرق. ويقول المفسرون «مسخ الله العاصين منهم قرده.. ونحى الله المتقين» (٢) «فلما نسوا ما ذكروا به أجبنا الذين ينهاون عن السوء، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين» ١٦٥ - ١٦٦ الأعراف.

(٢) القرطبي والكشاف والثعلبي - ١٦٥ - والأعراف.

(١) القرطبي والكشاف / ١٦٥ الأعراف

قال بعض المفسرين: إن الطائفة التي لم تنه ولم تعص.. هلكت مع الطائفة العاصية.. عقوبة على ترك النهي.. وقال هنا ابن عباس: ما أدري ما فعل الله بالفرقة المعتزلة.. التي لم تعص ولم تنه.. وهو الظاهر من الآية.. وقال عكرمة: قلت لابن عباس.. لما قال ما أدري ما فعل بهم: ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقالوا: «لم تعظون قوما الله مهلكهم».. فلم أزل به حتى عرفت أنه قد نجوا.. فكساني حلة (١) وهذا رأى حسن.. ومما يدل على أنه قد هلكت الفرقة المعتزية فقط.. قوله تعالى «وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس» ١٦٥ الأعراف.

كما ذكر الثعلبي رواية عن أبي نصر عن أبي سعيد الخدري. قال: قال رسول الله (ﷺ): «ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة بعذاب من السماء.. بعد ما أنزل الله التوراة على وجه الأرض.. غير أهل القرية التي كانت حاضرة البحر.. الذين مسحوا قردة.. ألم تسمع قول الله تعالى «ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى»؟

وقال صاحب تفسير الكشاف والقرطبي: إن المسلمين من أهل القرية أقاموا جدارا بينهم وبين المعتدين في السبت.. لهؤلاء باب.. ولهؤلاء باب.. ولعنهم داود - عليه السلام - فأصبح المسلمون في مجالسهم.. ولم يخرج من المعتدين أحد.. فقالوا إن لهؤلاء شأنا.. فعلوا الجدار فنظروا.. فإذا هم قردة.. ففتحو الباب ودخلوا عليهم.. فعرفت القردة أنسبائها من الإنس.. والإنس لا يعرفون أنسبائهم من القردة.. فجعل القرد يأتي قريبه.. فيشم ثيابه ويبكى.. فيقول ألم نتهدك.. فيقول برأسه بلى (٢) أهـ.

ومعني هذا أنهم كانوا في أجسام القردة.. يعقول البشر.. وفي هذا حقا عذاب بئيس.. كما قيل: صار الشباب قرودا وصار الشيوخ خنازير (٣)

وعن الحسن: أكلوا والله أوخم أكلة أكلها.. أثقلها خزيا في الدنيا.. وأطولها عذابا في الآخرة.

وإن كان بعض المفسرين يميلون إلى أن الله مسخهم مسخ طباع وخصال.. ولكننا لانميل إلى هذا الرأي.. لأن الله يقول «قلنا لهم كونوا قردة خاسئين» والله سبحانه إذا قال لشيء كن.. فلا بد أن يكون.. ولا داعي للمعرج على ظاهر النص.. وقد أخطأ من قال: إن القردة والخنازير من نسلهم.. لأن المسوخ مقطوع الإنجاب.. وإنما المعقول والمقبول قول من قال: إن هؤلاء المسوخين قد ماتوا جميعا بعد ثلاثة أيام من مسخهم.

وكانت مدة داود في الملك.. أربعين سنة.. منها سبعة أعوام وهو ملك حبرون لسبط يهوذا فقط من بني إسرائيل.. ولبنى إسرائيل كلهم ثلاثا وثلاثين سنة.. ملكا لجميع اليهود في صهيون..

يقول القرطبي: مات داود فيما قبل يوم السبت فجأة.. أتاه ملك الموت وهو يصعد في محرابه وينزل.. فقال: جئت لأقبض روحك.. فقال دعني حتى أنزل وارتنق.. فقال مالي إلى ذلك سبيل نفدت الأرزاق.. فما أنت بمؤثر بعدها أثرا..

قال: فسجد داود على مرقاة من الدرج.. فقبض نفسه على تلك الحال.. وكان بينه وبين موسى خمسمائة وتسع وسبعون سنة.. وقيل وتسع وتسعون.. وعاش مائة عام.. وأوصى إلى ابنه سليمان بالخلافة (٤). ويقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يزال المرء ينمى أخاه حتى يكونه.. وقد يرجو الرجاء فيحول الموت دونه..

ونفس المعنى في قول بعض الشعراء:

وإذا حملت إلى القبور جنازة

فاعلم بأنك بعدها محمول

وإذا وليت أمور قوم مدة

فاعلم بأنك عنهمو معزول

(٢) من القرطبي ١٦٥ / الأعراف.

(٤) القرطبي ٢٥ / ص.

(١) من القرطبي والكشاف ١٦٥ / الأعراف.

(٣) نفس المصدر السابق.

«وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا
من كل شيء»

(١٦ من سورة النمل)

○ من نبأ سليمان
عليه السلام

الفصل الأول

غلام حكيم

تعالى «وكلا آتينا حكما وعِلما».. دليل على أنهما كانا على صواب.. فكان وجه حكم داود.. أن الضرر لما وقع من الغنم.. سلمت بسبب جنايتها إلى المجنى عليه.. ولعل قيمة الغنم كانت على قدر التلف في الحرث - أما وجه سليمان فإنه جعل الانتفاع بالغنم.. نظير ما تلف من الحرث.. من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث حتى يزول الضرر والتلف.

وجاء في تفسير النسفى عن مجاهد: كان رأى داود حكما.. ورأى سليمان صلحا.. والصلح خير.. كما أن صاحب تفسير البيضاوى قال: إن هذا دليل على أن خطأ المجتهد.. لا يقدح فيه..

ولكل مجتهد نصيب..

ولقد تعرض المفسرون لرأى الشريعة الإسلامية.. ففى مثل هذه القضية.. فكان رأى الشافعية:

ضمان المتلف بالليل.. إذ المعتاد.. ضبط الدواب ليلا.. وهكذا قضى النبى - صلى الله عليه وسلم - لما دخلت ناقة البراء بستانا وأفسدته.. فقال: «على أهل الأموال حفظها بالنهار.. وعلى أهل الماشية حفظها بالليل».

دخل رجلان على داود- عليه السلام - ومعه ابنه سليمان.. وكان سليمان - عليه السلام - ابن إحدى عشرة سنة.. وكان أحد الرجلين صاحب حرث.. والآخر صاحب غنم.

فقال صاحب الحرث: إن هذا الرجل انفلتت غنمه ليلا.. فوقعت فى حرثى.. فلم تبق منه شيئا.. قال له داود: اذهب فإن الغنم لك.. فأعطاه رقاب الغنم نظير إتلاف الحرث.. فقال سليمان بعد أن سمع حكم أبيه: غير هذا أرفق بالفريقين.. فقال داود.. فكيف تقضى بينهما؟.. وعزم عليه ليحكم فى هذه القضية.. فقال: تدفع الغنم إلى أهل الحرث.. يستفعون بألبانها.. وأصوافها.. وأولادها.. وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم.. حتى يصلح الحرث.. ويعود كهيئته يوم أُفسد.. ثم يترادان.. فقال داود: القضاء ما قضيت يا سليمان.. وأمضى الحكم بذلك.. اقرأ «وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث.. إذ نفشت فيه غنم القوم.. وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعِلما» (٧٨ الأنبياء) ونفش الغنم: انتشارها ليلا بغير راع.. وقد اجتهد داود وسليمان فى الحكم.. فكان اجتهد سليمان أقرب إلى الصواب بدليل: «ففهمناها سليمان».. وقوله

**أما رأى أبى حنيفة فهو لاضمان إلا إذا كان مع
البهيمة حافظ.. لقوله - صلى الله عليه وسلم - «جرح
المعجماء جبار» (١).**

**ووردت رواية فى كتاب أبى إسحاق الثعلبى..
تقول: عن أبى هريرة - رضى الله عنه: أنزل الله تعالى
كتابا من السماء على داود.. فيه ثلاث عشرة مسألة..
وأوحى الله إليه.. أن يسأل عنها الخليفة من بعده.. فدعا
الأخبار والرهبان.. وأجلس سليمان - وهو غلام - بين
أيديهم.. ثم قال: يا بنى.. إن الله أنزل من السماء كتابا فيه
مسائل.. أسالك عنها.. قال سل وما توفيقى إلا بالله.
قال: ما أقرب الأشياء؟ وما أبعدا.**

**قال سليمان: أقرب الأشياء: الآخرة.. وأبعدا.. ما
فاتك من الدنيا.**

**قال: ما آنس (٢) الأشياء؟ وما أوحشها؟
قال: آنس الأشياء: جسد فيه روح.. وأوحشها:
جسد لا روح فيه.**

**قال: ما أحسن الأشياء؟ وما أقبحها؟
قال: أحسن الأشياء: الإيمان بعد الكفر.. وأقبحها:
الكفر بعد الإيمان.**

**قال داود: ما أقل الأشياء؟ وما أكثرها؟
قال: أقل الأشياء اليقين.. وأكثرها: الشك
قال: ما القائمان؟.. والساعيان؟
قال: أقل الأشياء اليقين.. وأكثرها؟
قال: ما القائمان؟.. وما الساعيان؟**

**قال سليمان: القائمان: السماء والأرض..
والساعيان: الشمس والقمر.**

**قال داود: ما المشتركان؟ وما المتباغضان؟
قال: المشتركان: الليل والنهار.. والمتباغضان: الموت
والحياة.**

**قال: ما الأمر الذى إذا ركبته الإنسان.. حمد آخره..
والأمر الذى إذا ركبته الإنسان.. ذم آخره؟**

**قال: الأمر الذى إذا ركبته الإنسان.. حمد آخره:
الحلم عند الغضب.**

**وأما الأمر الذى إذا ركبته الإنسان ذم آخره : فالحدة
عند الغضب..**

**فقال الأخبار والرهبان : نريد أن نسأله سؤالا.. فقال
داود: سلوه قالوا: ما الشيء الذى إذا صلح.. صلح كل
شئ من الإنسان.. وإذا فسد فسد كل شئ منه؟
فقال سليمان: هو القلب.. وقال الأخبار: صدقت..
ثم صعد داود المنبر.. فقال:**

**«إن الله تعالى أمرنى أن استخلف عليكم سليمان..
ورضى الرهبان والأخبار.. لبادرة ذكائه.. وحكمته..
صغيرا.**

**وقال وهب بن منبه: لما استخلف داود ابنه سليمان -
عليهما السلام - وعظه فقال:**

**«يا بنى إياك والهزل.. فإن نفعه قليل.. ويهيج العداوة
بين الإخوان.. وإياك والغضب.. فإن الغضب يستخف
بصاحبه.. وعليك بتقوى الله وطاعته.. فإنهما يغلبان كل
شئ.. وإياك وكثرة الغيرة على أهلِكَ من غير شئ..
فإن ذلك يورث سوء الظن بالناس.. وإن كانوا براء
واقطع طمعك من الناس.. فإن ذلك هو الغنى.. وإياك
والطمع.. فإنه الفقر الحاضر.. وإياك وما يعتذر منه من
القول والفعل.. وعود نفسك ولسانك الصدق.. والزم
الإحسان.. فإن استطعت أن يكون يومك خيرا من
أمسك فافعل.. وصل صلاة مودع.. ولا تجالس
السفهاء.. ولا ترد على عالم.. ولا تماره فى الدين.. وإذا
غضبت فالصق جسمك بالأرض.. وتحول من مكانك..
وارج رحمة الله.. فإنها وسعت كل شئ».**

(١) الجبار كالفبار: الهدر والهباء.. يقال ذهب دم فلان جبارا أى هدر.. وفى الحديث أيضا «المعدن جبار» أى إذا انهيار منجم على من يعمل

فيه.. لم يؤخذ به مستأجره.

(٢) من الأئس.

ورث سليمان داود - عليهما السلام - فى النبوة
والملك.. والعلم والحكمة.. وهو ابن ثلاث عشرة سنة..
دون سائر بنيه.. وكانوا تسعة عشر ولدا.
وكان سليمان أعظم مُلكا من أبيه.. وأقضى منه..
بينما كان داود أكثر تعبدا من ابنه..
وقال مجاهد عن ابن عباس: ملك الأرض أربعة:
مؤمنان وكافران: فأما المؤمنان: فسليمان بن داود..
والإسكندر ذو القرنين، وأما الكافران: فالنمرود بن
كنعان.. وبختنصر(١).

وقال وهب بن منبه، وكعب الأحبار: كان سليمان..
أبيض.. جسيما.. وضيئا.. جميلا.. كثير الشعر.. يلبس
من الثياب البيض..
وكان خاشعا.. متواضعا.. يخالط المساكين
ويجالسهم.. ويقول: مسكين يجالس مسكينا.
وكان أبوه يستشير به فى كثير من أموره.. مع صفر
سنه.. لوفرة عقله وحكمته.



(١) النسفى ٨٣/ الكهف.

« قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب »

(الآية ٣٥ من سورة ص)

ملك لا ينبغي لأحد

الفصل الثانى

١] فتنة سليمان

فكست جرادة هذا التمثال بملايس أبيها وزينته.. وصارت تسجد له هي وجواربها.. فى الصباح والمساء.. ولبت سليمان يجهل هذا الأمر أربعين يوما.. حتى أخبره به كاتبه الصديق.. آصف بن برخيا.. فحطم هذا الوثن.. وندم غاية الندم.. وحق عليه العقاب.. وقالوا: إن تلك هي الفتنة التي فتن بها سليمان.

أما إلقاء الجسد على كرسية - عقابا له - فقالوا: إن خاتمه كان يحتفظ به.. وقت قضاء الحاجة.. أو الاغتسال.. عند إحدى زوجاته.. واسمها أمينة.. وألقى الله شبه سليمان على الشيطان - صاحب البحر وقالوا: اسمه صخر.. كما قالوا عنه: إنه هو الذى دلَّ سليمان على الماس.. يقطع به الحجارة والفصوص وغيرها.

فلهب الشيطان إلى زوجة سليمان متمثلا به.. وأخذ منها الخاتم.. اعتقادا منها أنه سليمان.. ولبسه وجلس على العرش.. بينما تغيرت حال سليمان - عليه السلام - وعرف أن الخطيئة أدركته.. فكان يتكفف الناس.. وأخذ يخدم السماكين.. نظير سمكتين كل يوم.. ولبت أربعين يوما - عدد ما عبد الوثن فى بيته.. وقد أنكر آصف

قبل أن نتحدث عن الملك الذى طلبه سليمان - عليه السلام - فى الآية التى صدرنا بها هذا الفصل : (قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) ٣٥- ص.

يجدر بنا أن نتحدث أولا عن الآية التى قبلها مباشرة «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب» ٣٤- ص.

قصة غريبة: غريبة.. حشيت بها كتب التفسير كلها تقرىبا.. إما موجزة وإما مفصلة.. ولولا هذا لما ذكرناها فى كتابنا.. فأنا أعتقد أنها مما لا يحل فيه النقل.. لاستحالة أن يقبلها العقل أو الدين.. وسألخصها باختصار غير مخل.. قالوا:

إن سليمان بلغه خبر مدينة اسمها صيدون بجزيرة فى البحر فخرج إليها بجنوده تحمله الرياح.. فدخلها.. وقتل ملكها.

وكان للملك فتاة آية فى الجمال.. اسمها جرادة - أحبها سليمان.. وشغفته حبا.. فتزوجها.. ولكنها كانت دائمة البكاء.. حزنا على أبيها.. الذى كانت تحبه حبا بلغ درجة العبادة.. وحاول سليمان - عليه السلام - أن يسرى عنها حزنها.. فأمر - تنفيذًا لرغبتها - بصنع تمثال لأبيها.. وُضِعَ فى حجرتها..

ابن برخيا وزعماء الإسرائيليين حكم الشيطان.. وقال أهل الحشو في قصص الأنبياء: ذهب آصف كاتب سليمان إلى نسائه أى نساء سليمان - يسألهن عن تغير حاله.. فقلن له: إنه لا يدع امرأة منا فى دمها.. ولا يغتسل من جنابة.. ثم طار الشيطان.. وقذف الخاتم فى البحر.. فابتلعه سمكة.. جاءت من نصيب سليمان نظير خدمته للسماكين.. فلما فتحها.. وجد فيها الخاتم.. فلبسه وعاد له ملكه.

فقبض على الشيطان.. وأدخله فى صخرة.. وألقاه فى البحر(١).

تلك هى القصة المفتراة على سليمان - عليه السلام - وهى قصة لا تستحق شرف النقاش.. شيطان يكون له سلطان على ملك سليمان إلى هذا الحد.. الذى يزعم فيه الزاعمون أنه وطأ نساء وهن حيض.. الله أكبر.. هذا بهتان عظيم.. وإفك جسيم.. فالله سبحانه - يقول عن الشيطان «ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون».. ليس له سلطان على المؤمن العادى.. المتوكل على مولاه.. فما بالك برسول من كبار المرسلين؟.. له عند الله زلفى وحسن مآب.. وقال عنه أيضا «نعم العبد إنه أواب».

قال أبو حيان فى تفسيره: نقل المفسرون فى هذه الفتنة.. وإلقاء الجسد.. أقوالا.. يجب براءة الأنبياء منها.. وهى مما لا يحل نقله.. فهى إما من وضع اليهود.. أو الزنادقة.. ومستحيل عقلا وجود بعض ما ذكروه.. كتمثل الشيطان بصورة نبي.. ولو أمكن وجود هذا.. لم يوثق بإرسال نبي.. فما هى إلا أقوال مسترقة من زنادقة السوفسطائية.. نسأل الله سلامة أذهاننا، وعقولنا منها.

وقد اجتهد العلماء فى استنتاج مفهوم فتنة سليمان.. ومعنى الجسد الذى ألقى على كرسىه بعد تكذيب هذا الحشو الباطل.. والزيف البين.. فقال بعضهم: إن سليمان كان له ولد تآمر الشياطين على قتله تخلصا منه.. حتى لا يسخرهم بعد موت أبيه.. وعلم سليمان.. عليه السلام بذلك.. فكان يغذوه فى سحابة خوفا عليه.. ولكنه فوجيء بإلقائه على كرسىه.. ميتا.

فتنبه إلى خطئه بعدم توكله على الله فى حفظه.. فاستغفر وأتاب.. هذا رأى.

ورأى آخر يقوله القرطبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.. مؤداه أن سليمان.. اختصم إليه فريقان.. أحدهما من أهل جرادة.. زوجته.. وكان يحبها.. فهوى أن يحكم لصالحهم.. ولكنه عاد وقضى بينهم بالحق.. فأصابه الذى أصابه.. عقوبة له لذلك الهوى.. ولكن الرواية لم تذكر لنا ما هو الذى أصابه.

وتوجد آراء أخرى كثيرة.. ولكن لا يهمنا من تلك الآراء.. إلا أن نعرض حديثا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تعلق بسليمان - عليه السلام - اتخذ بعض المفسرين سنداً لتأويل معنى الفتنة.. والجسد الذى ألقى على الكرسى.

يقول الحديث: «قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة.. تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى.. ولم يقل - إن شاء الله - فطاف عليهن.. فلم تحمل إلا امرأة واحدة.. جاءت بشق رجل.. والذى نفسى بيده، لو قال - إن شاء الله - لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون (٢)» فقالوا: إن فتنة سليمان.. أنه لم يقل - إن شاء الله - وأن الجسد الذى ألقى على الكرسى.. هو الشق الذى ولدته المرأة التى حملت فى تلك الليلة.. ولنا وقفة قصيرة أمام ملاحظتين حول هذا الحديث.. فقد رواه البخارى سبع مرات.. ورواه مسلم فى كتاب الإيمان بطرق متعددة.. ولكن هذه الروايات اختلفت فى عدد النساء.. فكان ستين.. ومرة سبعين.. ومرة أخرى تسعين.. وتسعا وتسعين.. ومائة بل أورد الأستاذ عبد الوهاب النجار هذا الحديث.. نقلا عن الحافظ ابن كثير «البدية والنهاية» ونصه: «قال إسحاق ابن بشر: أنبأنا مقاتل عن أبي الزناد عن أبيه عن عبد الرحمن عن أبي هريرة: أن سليمان بن داود.. كان له أربعمائة امرأة وستمائة سرية.. فقال يوما: لأطوفن الليلة على ألف امرأة.. فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد فى سبيل الله - ولم يستثن - فطاف عليهن.. الخ الحديث.

(١) القرطبي - الكشاف - البيضاوى - الثعلبى ٣٤/ص.

(٢) ورد الحديث فى جميع كتب التفسير ٣٤/ص.

وظاهر أن المبالغة في عدد النساء في تلك الرواية.. زادت عن حدها المعقول زيادة لا يقبلها إلا مجرد من العقل.. هذه ملاحظة.

والملاحظة الثانية: أن الحديث لم ينص على أن هذا الشق.. الذي ولدته المرأة.. هو الجسد الذي ألقى على كرسى سليمان.. اللهم إلا في رواية واحدة أوردها صاحب تفسير النسفي.. زيد عليها بعد قوله «فلم تحمل إلا امرأة واحدة.. جاءت بشق رجل» قال «فجىء به على كرسية.. ووضع في حجره» وأعتقد أن تلك العبارة زيادة من بعض الرواة.

ولقد دفعني عدم اتساعى بأى رواية من الروايات السابقة.. أو رأى من آراء المفسرين.. إلى البحث عن معنى كلمة «جسد» في اللغة.. فوجدته يؤدي معنى: البدن.. ويؤدي معنى الزعفران ونحوه من المصبغ.. كما يؤدي معنى الذهب الأحمر (١).. وقد أخبرني صديق من قدامى المشتغلين بصناعة الذهب: أن الجسد هو الاسم الفني القديم للذهب الخالص «الخام».

وزاد إيماني بهذا المعنى.. قول الله تبارك وتعالى: «واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسدًا» (١٤٨ الأعراف) أى عجلًا ذهبًا.. كما قال البيضاوي وغيره.. كما وجدت في معاجم اللغة العربية وقواميسها حول كلمة «فتن» تقول «فتن الذهب أى اختبره.. ويسمى الصائغ الفتان».

وهنا برز في معنى جديد للآية التي نحن بصدددها.. «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسية جسدًا».. معنى يشرح الصدر.. ويريح النفس.. ويخاطب العقل.. ويواكب المنطق.. لقد قال المفسرون: إن سليمان تولى الملك وعمره ثلاثة عشر عامًا.. وفتن بعد ما ملك عشرين عامًا.. وملك بعد الفتنة عشرين عامًا.. ورد هذا في تفاسير القرطبي والكشاف والنسفي وغيرهم. فنفهم من هذا.. أن سليمان ورث ملك أبيه - وهو ملك عريض - ولبت يحكم حكمًا عاديًا لمدة عشرين سنة.. كانت تراوده فيها الرغبة في عظمة الملك وفخامته وأبهته.. لا طمعا في العظمة.. والفخامة والأبهة.. ولكن لإرهاب الشعب.. وأداء حقوق الله تعالى.. وشكره

.. وسياسة ملكه.. وإقامة حدوده.. والمحافظة على رسومه.. وتعظيم شعائره.. وظهور عبادته.. ولزوم طاعته.

فصنع كرسى عرشه من الذهب الخالص وهو - الجسد - إظهارًا لعظمته.. وإبرازًا لمجده «وألقينا على كرسية جسدًا» لأن الله هو الفاعل في كل شيء.. ولكنه خاف أن يكون في ذلك فتنة له.. تحيد به عن طريق المتقين الزاهدين في الدنيا وزينتها.. فأناوب إلى الله.. ورجع إليه.. بيثه أمانيه.. ويدعوه بما يبتغيه فقال «رب اغفر لى وهب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب» فقدم الاستغفار على طلب هبة الملك جريًا على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم.. وأجاب الله دعاءه.

ولملك مشوق الآن لتعرف شيئًا عن هذا الكرسى العجيب - كرسى سليمان - عليه السلام - وقد أوردت بعض كتب التفسير وصفًا له.. منها تفسير القرطبي.. وكتاب المرائس لأبى إسحاق الثعلبي.. لا مانع من ذكره لطرافته.. ومن باب العلم بالشيء.

فقال تفسير القرطبي: قال وهب بن منبه، وكعب، وغيرهما: إن سليمان أمر باتخاذ كرسى ليجلس عليه للقضاء.. وأمر أن يعمل بديعًا.. مهولًا.. بحيث إذا رآه مبطل.. أو شاهد زور.. ارتدع وتهيب.. فأمر أن يعمل من أتياب الفيلة.. مغصصة بالدر والياقوت والزبرجد.. وأن يحف بنخيل الذهب.. فحف بأربع نخلات من الذهب.. شماريخها الياقوت الأحمر.. والزمرد الأخضر.. على رأس نخلتين منهبًا طاووسان من ذهب.. وعلى رأس نخلتين نسران من ذهب بعضها مقابل لبعض.. وجعلوا من جنبى الكرسى أسدين من ذهب.. على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر.. وقد عقدوا على النخلات أشجار كروم من الذهب الأحمر.

واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر.. بحيث أظل عريش الكروم النخل والكرسى (٢).

وكان سليمان - عليه السلام - إذا أراد صعوده.. وضع قدميه على الدرجة السفلى.. فيستدير الكرسى دوران الرحى المسرعة.. كله بما فيه.. وينشر النسران والطاووسان أجنحتهما

(١) من مختار الصحاح للإمام محمد بن أبى بكر الرازى.

(٢) لعلنا الآن نرى الفتنة الملقاة على هذا الكرسى.

ويبسط الأسدان أيديهما.. ويضربان الأرض بأذنايهما.. وكذلك يحصل فى كل درجة يصعدهما سليمان فإذا استوى بأعلاه.. أخذ النسران اللذان على النخلتين تاج سليمان فوضعه على رأسه.. ثم يستدير الكرسي بما فيه.. ويدور معه النسران والطاووسان والأسدان.. مائلين براءوسهما إلى سليمان.. وينضحن عليه من أجوافهن المسك والعنبر.. ثم تناوله حمامة من ذهب - قائمة على عمود من أعمدة الجواهر فوق الكرسي - التوراة.. فيفتحها سليمان - عليه السلام - ويقرأها على الناس.. ويدعوهم إلى فصل القضاء.. فإذا تقدم الشهود للشهادات.. دار الكرسي بما فيه وما عليه دوران الرحى المسرعة..

ويبسط الأسدان أيديهما.. ويضربان الأرض بأذنايهما.. وينشر النسران والطاووسان أجنحتيهما.. فيفزع الشهود.. فلا يشهدون إلا بالحق.. واسترسلت رواية الكرسي.. قائلة.. فلما توفى سليمان.. بعث بختنصر.. فأخذ الكرسي.. فحمله إلى أنطاكية.. وأراد أن يصعد عليه.. ولم يكن له علم.. كيف يصعد إليه.. فلما وضع رجله.. ضرب الأسد رجله فكسرها.. وكان سليمان.. إذا صعد.. وضع قدميه معا.. ومات بختنصر وحمل الكرسي إلى بيت المقدس.. فلم يستطع ملك قط.. أن يجلس عليه.. ولكن لم يدر أحد عاقبة أمره.. ولعله رفع. أهـ (١).



٢٠ سليمان وحديث الطير

قال سليمان: «يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين» ١٦ النمل. والنطق والمنطق كل ما يعبر به عما في الضمير.. ولو كان من أصوات الحيوان.. فإن الأصوات الحيوانية.. تعبر عن تخيلات لها.. وخاصة وأن فيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض.. بحيث تفهم بعضها بعضها.. فمثلاً.. مواء هرة محبوسة يختلف عن مواء هرة تطلب ضاماً.. فكل صوت له كيفيات ونبرات ليست في الصوت الآخر.

والمنطق قد يقع لما يفهم بغير كلام.. وقد ذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» أن جريدة الأهرام نشرت في عدد الأحد ٤ فبراير ١٩٣٧م تحت عنوان «لغة الطير» قالت: كشف عالم ألماني بعد ملاحظات دقيقة.. وصبر طويل.. أثراً لم ينتبه إليه أحد قبله.. وهو أن الطيور لا تصدح فقط.. ولكنها تتكلم.. ولها على مثال البشر لهجات خاصة.. مثال ذلك.. أن الشحورور النمساوي لا يفهم لهجة الشحورور البلغاري.. والشحورور الفرنسي لا يفهم لهجة الشحورور الإنجليزي.

وقال صاحب تفسير الـمـيـضـاوي: ولعل سليمان كان إذا صوت حيوان علم بقوته

الحدسية التخيل الذي عبر عنه بصوته.. والغرض الذي توخاه منه.. ومن ذلك ما حكى أنه مر بلبل يصوت ويترقص.. فقال إنه يقول: «أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء».. وصاحت فاختة.. فقال: إنها تقول: «ليت الخلق لم يخلقوا».. فلعل صوت البلبل كان على شبع وفراغ بال.. وصياح الفاختة كان على مقاسات شدة وألم.. فقد أجاب الله - سبحانه - دعاء سليمان - عليه السلام - وأكرمه بخصائص لم يكرم بها أحداً من خلقه.. لا من قبل.. ولا من بعد.. ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الصحيح: «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته».. الحديث (١).

وقد ادخر - عليه الصلاة والسلام - دعوته ليشفع لنا بها يوم لقاء الله فجزاه الله عنا خير الجزاء.

لقد علم سليمان - عليه السلام - من منطق الطير.. ما يفهم بعضها من بعض من معانيه وأغراضه.

وقد ورد حديث الطير في جميع كتب التفسير.. فمثلاً.. قال صاحب تفسير الكشاف والنسفي.. ما نصه:

(١) القرطبي ٣٥ / ص.

يحكى أنه مر على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ..
ويميل بذنبه .. فقال لأصحابه:

أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله ونبيه أعلم.. قال يقول:
«أكلت نصف ثمرة.. فعلى الدنيا العفاء».. وصاحت
فاخته.. فأخبر أنها تقول: «ليت الخلق لم يخلقوا»..
وصاح طاووس فقال: يقول «كنا تدين تدان».. وصاح
هدهد.. فقال: يقول «استغفروا الله يامذنبين» وصاح
طيטوى.. فقال: يقول «كل حى ميت.. وكل جديد
بال».. وصاح خطاف.. فقال: يقول «قدموا خيرا تجدوه»
وصاحت رخمّة.. فقال: تقول: «سبحان ربى الأعلى
ملء أرضه وسماؤه».. وصاح قمرى.. فقال: تقول:
«سبحان ربى العظيم».. وقال: الحدأة تقول «كل شيء
هالك إلا وجهه».. والقطاة تقول «من سكت سلم»..
والبغاة تقول «ويل لمن الدنيا همه».. والدبك يقول
«اذكروا الله يا غافلين».. والنسر يقول «يا ابن آدم عش
ما شئت.. أخرك الموت».. والعقاب يقول «فى البعد عن
الناس أنس».. والضفدع يقول «سبحان ربى
القُدوس (١)».

كما ذكر القرطبي: قال مكحول: صاح دراج عند
سليمان.. فقال إنه يقول: «الرحمن على العرش
استوى».. وذكر أن آدم.. خرج من الجنة.. فاشتكى إلى
الله الوحشة.. فأنسه الله تعالى بالخطاف.. وألزمها
البيوت.. فهي لا تفارق بنى آدم.. أنسا لهم.. قال:
ومعها أربع آيات من كتاب الله.. عز وجل «لو أنزلنا هذا
القرآن على جبل لرأيت حاشعا».. إلى آخر سورة
الحشر.. وتمد صوتها بقوله تعالى «العزیز الحكيم»..
كما ذكر الحسن - رضى الله عنه - قال: قال النبى - صلى
الله عليه وسلم -: «إذا صاح الديك.. قال: «اذكروا الله يا
غافلين» (٢).

أعطى الله سليمان ملكا عظيما.. وآتاه من كل
شيء.. فعلمه كلأما لا يعلمه سواه.

وهذه المنحة لم تذكر فى كتب أهل الكتاب.. وإنما
يذكرون أن سليمان كان عظيم الحكمة.. ولذلك
يسمونه.. سليمان الحكيم.. ولا يعترفون بشبوته مطلقا.
ولم يقل سليمان «علمنا وأوتينا» فخرا وزهوا..
وإنما كان هذا القول منه شكرا.. وثناء على الله.. كما
كان رسولنا - عليه الصلاة والسلام.. يقول «أنا سيد
ولد آدم ولا فخر» أى أقول هذا القول شكرا.. ولا أقوله
فخرا..

ويذكرنى هذا بسؤال.. وجهه إلى بعض الطلبة
النابهين.. فقال تعليقا على قول سليمان «وهب لى
ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى» قال الطالب: ألا يعتبر
هذا الطلب من سليمان أنانية منه.. وجبا لذاته؟ حيث
يطلب من الله ألا يعطيه أحدا سواه؟

والجواب: أن سليمان لم يطلب هذا الملك.. جبا فيه..
للاستمتاع بأبهته وبذخه وعظمته.. بل ليشكر الله شكرا
لا ينبغى لأحد من بعده.. بدليل أنه برغم هذا الملك
الواسع العريض.. الخارق للمألوف والمعروف.. مات
عليه السلام.. وهو واقف خلف عمال الجن والمردة
والشياطين.. حتى لا يتراخوا فى أعمالهم.. فلما
قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض
تأكل منسأته.. فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون
الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين «١٤ سبأ.

فأى استمتاع هذا بذلك الملك.

وقد أخطأ الحجاج فى حق سليمان.. عندما قيل له: إنك
حسود، فقال أحسد منى.. من قال: «وهب لى ملكا لا
ينبغى لأحد من بعدى» وهذا من جرأته على الله
وشططه.. كما حكى عنه - أى الحجاج قال: طاعتنا
أوجب من طاعة الله.. لأنه شرط فى طاعته فقال: «
فاتقوا الله ما استطعتم» وأطلق طاعتنا.. فقال: «وأولى
الأمر منكم» (٣) وهذا جهل منه وشطط.

وقبل أن نترك حديث الطير.. ألقت نظر القارىء
الكريم.. إلى مبالغات أوردها بعض السادة المفسرين..
لا يقبلها عقل.. ولا يسيغها منطق.. ولا تخرج عن
كونها من لغو الحديث.. مما يسىء إلى سليمان - عليه
السلام - ويشكك فى صحة تلك المنحة التى منحه الله
إياها.. فمثلا.. ذكر فى كتاب أبى إسحاق النيسابورى
والثعلبى.. قصة.. أسماها: قصة العنقاء مع سليمان..
استغرقت ثمانى صفحات من الكتاب من صفحة ٣٢٥
إلى صفحة ٣٣٢.. أجبرت نفسى على قراءتها.. وكأنى
أقرأ فى كتاب «الف ليلة وليلة».. وجبل قاف.. وجزيرة
واق الواق.. وأنا لا أشك خردلة فى أنها من الدسيس
الإسرائيلى.. والحشو الزائف.. ولا يجوز لى أن أشغل
القارىء الكريم.. فى ضياع وقته.. فى قراءة خرافات..
ما أنزل الله بها من سلطان.

(٢) القرطبي ١٦/ النمل.

(١) الكشاف والنسفى ١٦/ النمل.

(٢) من تفسير الكشاف ٢٥/ ص.

٣١ سليمان والنملة الفدائية

«حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت ثملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون» ١٨ النمل.

ولاشك أن نداء النملة الذى سمعه سليمان - عليه السلام - وهو فى وسط هذا الجند الضخم من الجن والإنس والطير.. أمر عجيب غريب.. دفع الكثير من رجال التفسير.. وأولى العلم.. إلى البحث عن اسم تلك النملة.. فقالوا فى الكشف.. والقرطبي.. وغيرها: أن اسمها طاخية.. وإن كنت لا أدري من الذى جعل لها اسما.. علما.. يدل عليها؟.. ومن الذى عرف هذا الاسم؟.. وكيف عرفه؟.. إلا أن يكون سليمان ذاته.. فهو الذى جعل الله له هذا السلطان الخارق للمألوف والمعروف.. أو أن تكون هذه النملة الناطقة.. قد سميت بهذا الاسم فى التوراة.. أو الزبور.. أو فى بعض الصحف.. سماها الله تعالى بهذا الاسم.. وعرف به الأنبياء قبل سليمان.. أو بعضهم.

وخصت بالتسمية لنطقها وإيمانها - كما قال ذلك صاحب تفسير القرطبي.

لم يكن علم سليمان - عليه السلام - بمنطق الطير فقط... فقد علم منطق النملة أيضا.. وإن كان تفسير القرطبي.. ذكر عن قتادة والشعبي... أن النملة طائر.. إذ قد يوجد لها أجنحة.. غير أنه ذكر عن ابن العربي.. أنه قال: من قال إن سليمان كان لا يعلم إلا منطق الطير.. فذلك نقصان عظيم.. وقد اتفق الناس.. على أنه كان يفهم كلام ما لا ينطق.. ويخلق الله له القول من النبات.. فكان كل نبت يقول له: أنا شجر كذا.. أنفع فى كذا.. وأضر فى كذا.. فما ظنك بالحيوان؟..

ولهذا قالت فرقة من أولى العلم: كان يفهم منطق جميع الحيوانات.. وإنما ذكر الله الطير.. فى قوله «علّمنا منطق الطير» لأنه كان جندا من جند سليمان.. يحتاج إليه فى التظليل من الشمس.. وفى البعث فى الأمور.. وفى كثير من المهمات.. فخصه الله بالذكر.. لكثرة مداخله.. ولأن أمر سائر الحيوان معه نادر.. وغير متردد تردد أمر الطير.. اقرأ: «وحشر لسليمان جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون» ١٧ النمل.

ولقد شغلنى أمر هذه النملة الفدائية.. التى لم تدخل مسكنها.. حتى دخل جميع نمل الوادى مساكنهم.. وتضاربت فى ذهنى خواطر كثيرة.. وجالت بخاطرى أسئلة حائرة.. لاحصر لها ولا عدد.. فالمعروف أن لجسم النملة - على ضآلته - جميع أجهزة الحياة.. من رأس وصدر وبطن وأطراف.. لها جهاز هضمى.. وجهاز دورى.. وجهاز تنفسى.. وجهاز عصبى.. وجهاز تناسلى.. إلى آخر الأجهزة التى يتكون منها جسم كل حى.. فما هو حجم صوتها الذى سمعه سليمان.. وهو فى وسط تلك الجحافل من الجيوش الجارية التى لا يحدها حد.. ولا يعدها عدد.. ولا يحصرها مد..؟

وهل كان لها مكبر للصوت حتى سمعها النمل المنتشر فى أرجاء الوادى على رحابته وسعته وترافيه؟ أم منحها الله هى أيضا قوة خارقة معجزة.. بازدياد خلق الصوت فيها.. كما ازداد خلق السمع فى أذن سليمان فسمعها.. والله يقول: «يزيد فى الخلق ما يشاء»..؟ مرت كل تلك الخواطر ببالى.. وأخيرا سجد العقل.. واستسلم التفكير لقدرة القادر.. وحكمة الحكيم.. وعلم العليم..

قال المفسرون عن وادى النمل: إنه وادٍ كبير.. ففى تفسير القرطبي: قال قتادة:

هو بأرض الشام.. وقال كعب: مرَّ سليمان - عليه السلام - بوادى السدير من أودية الطائف.. فأتى على وادى النمل.. فقالت نملة تمشى وهى عرجاء تتكاوس (١) مثل الذئب فى العظم.. فنادت يا أيها النمل.. الخ وقال الزمخشري: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال.. وكانت تمشى وهى عرجاء تتكاوس.. وفى تفسير الكشاف: عن قتادة: أنه دخل الكوفة.. فالتف عليه الناس.. فقال سلوا ماشئتم.. وكان أبو حنيفة - رحمه الله - حاضرا.. وهو غلام حدث.

فقال: سلوه عن نملة سليمان.. أكانت ذكرا.. أم أنثى؟.. قالوا.. أفحم.. ولم يستطع الإجابة.. فقال أبو حنيفة كانت أنثى.. ف قيل له: من أين عرفت؟.. قال: من كتاب الله تعالى - وهو قوله: «قالت نملة» ولو كانت ذكرا.. لقال: قال نملة..

وذلك أن النملة مثل الحمامة.. وحمامة أنثى.. أو.. هو.. وهى.

«فتبسم ضاحكا من قولها» ودوافع سليمان إلى الابتسام والضحك.. لما سمعها.. أمران:

الأمر الأول.. ما يدل عليه هذا القول من رحمته ورحمة جنوده.. وشفقتهم وتقواهم.. فقولها «وهم لا يشعرون» لفئة مؤمن.. أى من عدل سليمان ورحمته وشفقته هو وجنوده.. ألا يحطموا نملة فما فوقها إلا إذا كانوا لا يشعرون.. وكان سرور سليمان - عليه السلام - بهذا القول منها.. سرورا كبيرا.. حيث أكد التبسم بقوله «ضاحكا».. فقد يكون التبسم من غير ضحك.. ولا رضا.. وقد يكون الابتسام غضبا.. أو سخيرية واستهزاء.. أما الابتسامة الضاحكة.. فهى سرور وانسراح.. ولا يسر نبي بأمر الدنيا.. بل يسر بأمر الدين.. وعبرة «وهم لا يشعرون» إشارة إلى العدل والرحمة والدين.. ولعل صوت هذه النملة.. يبلغ آذان المسؤولين فى تلك الدول الاستعمارية الذين غرهم طغيانهم.. وبطشهم.. بسحق البشر فى ديارهم.. وامتصاص دمائهم.. ونهب أموالهم.. من غير رحمة.. أو شفقة.. أو وازع من ضمير.. ليروا كيف أن سليمان وجنوده.. لو شعروا أن هذا الوادى.. هو وادى النمل.. لقدسوه.. ولا رتدوا عن اقتحامه.. احتراما لتلك المخلوقات الضئيلة.. لأن ضمير الإنسان.. يعلم قول الله تعالى «وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم» ٣٨ الأنعام.

الأمر الثانى الذى ابتسم ضاحكا من أجله سليمان - عليه السلام - هو سروره كما آتاه الله.. مما لم يؤت أحدا سواه.. من المد فى سمعه.. فيسمع ما همس به هذا المخلوق الضئيل.. وتنازعه رغبة الشكر.. وليست نزوة الاستمتاع فيقول: «رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين» (١٩ النمل).

لقد ذكرت آراء كثيرة عن هذا الوادى.. وعن ذلك النمل.. فقال الكلبي: إنه كان ببلاد اليمن.. وإنها كانت نملة صغيرة.. مثل النمل المعتاد.. وقال غيره: إن النمل كان على هيئة الذباب فى العظم.. كما ذكر بريدة الأسلمى:

(١) التكاوس: التقلب. وفى الحديث الشريف «والله لو فعلت ذلك.. لكوسك الله فى النار.. رأسك أسفلك».

كانت كهيئة النعاج.. ورد على هذا الرأي - محمد بن على الترمذى (١) فقال : إن كان النمل على هذه الخلقة.. فلها صوت مسموع.. وإن افتقد صوت النمل لصغر خلقها.. وإلا فالأصوات فى البهائم والطيور كائنة.. معروفة.. ولكن قولها « لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » يدل على أنها كانت بملا صغيرا.. إذا لو كانت كهيئة الذباب.. أو النعاج.. لما حطمت بالوطء.

وقد وجد الإسرائيليون.. كمادتهم.. فى قصة سليمان.. وخوارقه.. ميدانا فسيحا.. وأرضا خصبة.. لأحاديثهم الكاذبة.. ومفترياتهم الضارية.. وإشاعاتهم الغاربة.. فأدخلوا على كل خارقة ومعجزة.. من خوارقه ومعجزاته.. أفكارا تحرك الشك.. وتثير الشبهات.. فأوحت إليهم شياطينهم.. إضافة خيالات شاطحة إلى حادث النملة.

وسأضرب مثلا صغيرا من تلك الأباطيل.. حرصا على وقتنا من الضياع فى لغو باطل.. ضرره أكبر من نفعه.

فذكر أبو إسحاق النيسابورى الثعلبى فى كتابه أو بمعنى أدق - دس عليه - أن سليمان لما سمع قول النملة.. نزل عليها.. وقال ائتونى بها.. فأتوه بها.. فقال لها لم حذرت النمل؟.. هل سمعتم أنى ظالم؟.. أما علمتم أنى نبي عدل؟.. فلم قلت « لا يحطمنكم سليمان وجنوده »؟ فقالت النملة: يا بنى الله.. أما سمعت قولى « وهم لا يشعرون »؟..

مع أنى ما أردت حطم النفوس.. وإنما أردت حطم القلوب.. فقال لها: عطينى.. فقالت له: هل علمت.. لم سُمى أبوك داود؟ قال: لا.. قالت: لأنه داوى جراح قلبه.. ثم قالت: وهل تدري لم سميت سليمان؟.. قال: لا.. قالت: لأنك سليم.. ثم قالت: أتدري.. لم سخر الله لك الريح؟.. قال: لا.. قالت: ليخبرك أن الدنيا كلها ريح.. وأورد القرطبى.. تلك الرواية.. وأسندها إلى أبى إسحاق النيسابورى أيضا.

ونحن إذا أردنا مناقشة هذه المسألة.. مناقشة خفيفة.. فقل لى: كيف أتوه بالنملة من هذا الوادى الكبير؟ هل أخرجوها من جحرها؟ أو لحقوا بها قبل أن تدخل مسكنها؟.. وكيف انتقوها من بين النمل.. وعرفوا أنها هى النملة الناطقة؟.. ذكرنى هذا الموقف بحديث لبعض الأصدقاء العلماء.. الذين صدقوا أمثال هذه الترهات والخرافات - غفر الله لهم - وكان يتحدث عن مناقشة يعقوب - عليه السلام مع أبنائه.. بعد أن جاءوه عشاء يكون.. وقالوا: « فأكله الذئب ».

قال صاحبنا: فقال لهم أبوهم يعقوب: أحضروا لى هذا الذئب.. فأحضروه له.. وسأله عن يوسف.

فقل لى - بالله عليك - ما هو الذئب الذى أحضروه؟..

هل يمكن تصديق مثل هذا الهراء.. إلا إذا ألغينا عقولنا؟..



٤ سليمان والريح

القرطبي وغيره أيضا: كان سليمان إذا جلس نصبت حواليه أربعمئة ألف كرسى.. ثم جلس رؤساء الإنس.. مما يليه.. ثم عامة الإنس.. فرؤساء الجن ثم عامتهم.. وموكل بكل كرسى طائر.. لعمل قد عرفه.. ثم تقلهم الريح.. والطير تظلهم من الشمس.. فيعدو من بيت المقدس الى إصطخر ثم بيت بيت المقدس.. ثم قرأ ابن عباس «غدوها شهر ورواحها شهر» أى مسيرة شهر مساء فى الرواح.. كما قيل كان يتغذى بالرى.. ويتعشى بسمر قند(٢).

وهناك رواية.. أعرضها فى محفظ.. لأن لى تعليقا عليها فى موضوع «سليمان والصفائف الجياد» فى فصل آخر بعد هذا الفصل.

فقالوا: عن الحسن.. شغلت سليمان الخيل.. حتى فاتته صلاة العصر.. فعقر الخيل.. فأبدله الله خيرا منها وأسرع.. وأبدله الريح.. تجرى بأمره حيث شاء.. غدوها شهر.. ورواحها شهر(٣).

ركب سليمان الريح يوما.. فمرت بحراث يحرق أرضه.. فنظر إليها الحراث.. وقال لقد أوتى آل داود ملكاً عظيماً.. فحملت الريح كلامه.. ونقلته إلى أذن سليمان.. فنزل حتى أتى الحراث.. وقال: إني سمعت قولك.. وإنما نزلت إليك.. لثلاث تمنى ما لا تقدر عليه.. وإن تسيحها واحدة يقبلها الله منك.. خير لك مما أوتى آل داود.. فقال الحراث: أزال الله همك.. كما أزلت همى(١).

وقد ورد ذكر الريح مع سليمان.. فى قوله تعالى «فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب» (٣٦/ ص). ورخاء أى لينة طيبة.. مع قوتها وسرعتها.. وكذلك فى قوله تعالى «ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر» (١٢ سبأ). قال الحسن - رضى الله عنه - فى القرطبي وفى كثير من كتب التفسير: كان يغدو من دمشق.. فيقيل بإصطخر - من بلاد فارس - وبينهما مسيرة شهر للمسرع.. وقال السدى مثل ذلك. وقال ابن عباس - رضى الله عنه - فى

(٣) القرطبي وغيره ١٢/ ص

(١) القرطبي وغيره ٣٦/ ص.

(٣) من القرطبي ١٢/ سبأ.

وورد وصف لبساط سليمان.. وريحه - في تفسير النسفى والقرطبي وغيرهما.. فقال: نسجت له الجن بساطا من ذهب إبريم.. فرسخا من فرسخ.. وكان يوضع منبره في وسطه - من ذهب وفضة.. فيقعد الأنبياء.. على كراسى الذهب.. والعلماء على كراسى فضة.. وحولهم الناس.. وحول الناس الجن والشياطين.. وتظله الطير بأجنحتها.. حتى لا يقع عليه حر الشمس.. فتسير به مسيرة شهر.. ثم يقول النسفى.. ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله.. ويأمر الرخاء تسيره.. وأوحى الله إليه.. وهو يسير بين السماء والأرض: أنى قد زدت في ملكك.. ألا يتكلم أحد بشئ.. إلا ألقته الريح في أذنك.. ثم أورد النسفى قصة سليمان والحراث.. التي افتتحنا بها هذا الموضوع.. ونحن لا نريد أن نناقش أى رأى.. حتي نتم جولتنا السريعة.. بين حدائق التفسير الغناء.. ورياضها الفيحاء.. فنجنى الثمار.. ونقتطف الأزهار.. ولا يسلم الأمر من التعرض لبعض الأشواك.. وحراب الصبار.

غير أنني ألفت النظر فقط.. إلى عبارة وردت في حديث النسفى - رحمه الله - عن البساط «فيقعد الأنبياء على كراسى الذهب» فمن هم هؤلاء الأنبياء؟ وهل كان معه أنبياء غيره في عصره؟.. هذا قد يكون جائزا.. ولكن هل كانوا من الكثرة بحيث يشغلون الكراسى الذهبية.. وطبيعيًا كانت بالآلاف بالنسبة إلى هذا الكرسي الرهيب؟.. إنى أكاد أشم رائحة الدس الإسرائيلى في مثل هذه العبارات والمبالغات.

وقد نقد الأستاذ عبدالوهاب النجار في «نقص الأنبياء» وصفا لبساط سليمان فيقول: إنه قرأ لبعض المفسرين: إن سليمان كان له نحو البساط من الخشب.. له ألف ركن.. في كل ركن ألف بيت.. وتحت كل ركن ألف جنى.. يحملون ذلك الشئ الخشبى.. حتى يرتفع في الجو.. وحينئذ تسير به الريح.. وكان يخرج من المقدس.. فيقبل في إصطخر.. ثم يبيت بخراسان.. وحمل فضيلته على

هذه الروايات المبالغ فيها حملة عنيفة.. عرضته لكثير من العنف من اللجنة التى شكلت لنقد كتابه المذكور.

ولعل الأستاذ النجار معذور في نقده هذا.. لما هو ظاهر فيها من مبالغات تخرج عن حد المعقول والمنقول.. ولكنه نفى سير الريح به وببساطه.. بالكلية.. واكتفى من تسخير الرياح له.. بالسير إلى جهات في حاجة إليها للارتفاع بها في الزرع أو سير السفن.. وأدى به نقده.. إلى الحكم بأن سليمان.. لم يمتد ملكه إلى أكثر من خليج أيلة.. وفلسطين.. وشرق الأردن.. ولبنان.. وسوريا إلى شط الفرات فقط.. لثبت أنه لم يكن هناك حاجة لتلك الريح في نقله ونقل جنوده.. بتلك السرعة.
ونحن لانقره على هذا الرأى.. فعلى أقل تقدير.. ثبت من القرآن الكريم أنه امتلك مملكة بلقيس.. وهى فى اليمن.. وفى أقصى الجزيرة العربية كلها.. وإنما كان الأولى بالنقد في الروايات السابقة: عدد نسائه الألف.. والوقوف عند تلك الأعداد الرهيبة من البيوت والأركان.. ومئات الألوف من الكراسى الذهبية المفضضة.. فوق البساط.

كان سليمان.. رجلا.. غزاء.. لا يكاد يقعد عن الغزو.. وكان لا يسمع بملك فى ناحية من الأرض.. يعبد غير الله.. إلا أتاها حتى يذله ويقهره.

وروى بعض المفسرين: أن سليمان.. سار من أرض العراق غازيا.. فقام بمدينة مرو.. ثم انتقل إلى بلخ.. ثم سار من بلخ إلى أرض الصين ثم عاد على ساحل البحر.. حتى أتى أرض الهند.. ثم خرج منها.. حتى أتى أرض فارس.. فنزلها أياما.. ثم غدا منها.. فقام بكسكر.. ثم رجع إلى الشام.. وأذكر هنا الحديث «ملك الأرض أربعة.. مؤمنان.. وكافران.. أما المؤمنان: فسليمان بن داود.. وذو القرنين.. وأما الكافران.. فنمروذ.. وبختنصر.

وكان مستقر سليمان مدينة تدمر.. بناها له الجن بالصفائح.. والعمد.. والرخام الأبيض والأصفر(١).

(١) فى جميع كتب التفسير تقريبا.

وقد قال النابغة الذبياني في مدح النعمان:
 ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه
 ولا أحاش من الأقوام من أحد
 إلا سليمان إذ قال الإله إله
 قم في البرية فاحدها عند الفند (١) .
 وجيش الجن إنني قد أذنت لهم
 يبنون تدمر بالصفاح (٢) والعمد
 ويقول القرطبي: وجدت الأبيات الآتية منقورة في
 صخرة بأرض يشكر.
 أنشأهم بعض أصحاب سليمان — عليه السلام:
 ونحن ولا حول سوى حول ربنا
 نروح إلى الأوطان من أرض تدمر
 إذا نحن رحنا كان ريث رواحنا
 مسيرة شهر.. والغدو لآخر
 أناس شروا لله طوعا نفوسهم
 بنصر الله طوعا نفوسهم
 بنصر ابن داود النبي المطهر
 لهم في معالي الدين فضل ورفعة
 وإن نسبوا يوما فمن خير معشر
 متى يركبوا الريح المطيعة.. أسرعت
 مبادرة عن شهرها لم تقصر
 تظلمهم طير صفوف عليهم
 متي رفرفت فوقهم لم تنفر
 إن ملك سليمان.. كان عظيما.. ملأ الأرض ..
 وانقادت له المعمورة كلها.
 ولا نستطيع إنكار تسخير الرياح له.. والسير بأمره.. سواء
 بنقله من مكان إلى مكان.. أو بالتوجه بالغيث الرخاء إلى بلاد

جدياء.. في حاجة إلى الماء.. فكان يصرفها بأمره كيف
 يشاء.. كما يصرف الإنسان عنان دابته.. وكان
 لسليمان.. أساطيل بحرية حربية وتجارية.. تحركها تلك
 الرياح.. وقد ذكر النجار في «قصص الأنبياء» ما يلي:
 نشرت الأهرام في عددها الصادر في ٢٨ مايو
 ١٩٣٨ ما يأتي.. تحت عنوان «أسطول سليمان» هل
 عثروا على أسطول سليمان الذي يرجع عهده إلى ألف
 سنة قبل المسيح؟..
 جاء في سفر الملوك.. أحد أسفار التوراة ما
 خلاصته:
 وبنى الملك سليمان سفنا في «عصيون جابر» التي
 بجانب أيلة.. على شاطئ بحر القلزم.. في أرض
 الروم.. وقد انقضى تسعة وعشرون قرنا على هذا
 الحادث.
 وفي هذه الأيام.. جاءت برقية في ١٦ مايو ١٩٣٨
 من بلدة «نيوهافن» بولاية كنتيكوت.. إحدى الولايات
 المتحدة.. فحواها.. أن الأستاذ: «ميلار بوروس» رئيس
 المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية.. أذاع أن الدكتور
 «نلسن غلوك» مدير فرع تلك المدرسة في بيت المقدس..
 كان على رأس البعثة التي اكتشفت ثغر «عصيون
 جابر».. وهو ثغر يرتقي عهده إلى ثلاثة آلاف سنة..
 وقال الدكتور «غلوك» إنه عثر على أدلة تبين أهمية
 «عصيون جابر» كمركز تجاري للنحاس.. ومصنع
 لإنشاء السفن.. قبل الميلاد بألف سنة.



(٢) الصفاح كالنفاح: حجارة عريضة رقيقة.

(١) أي منعها عن الخطأ.

٥ سليمان والجن

قال المفسرون: يعذبه في الآخرة .. كما قالوا: يعذبه في الدنيا.

وقد روى عن ابن عباس .. في القرطبي وغيرهما: كان مع سليمان ملك بيده سوط من نار.. فمن زاغ عن أمره.. ضربه الملك بهذا السوط ضربة — من حيث لا يراه — فأحرقته (١).

سخر الله تعالى له الجن والشياطين.. ولم تُسخر لأحد قبله.. فكانوا يبنون له ما يشاء.. من المباني الضخمة.. والعمائر الفخمة.

وجاء في سفر الملوك — الأول — أن العمائر التي قام بعملها سليمان هي:

١ — بيت الرب: ويقول عنه الأستاذ عبد الوهاب النجار.. أنه كان يقع على مساحة تقدر بما يقرب من ستين فدانا.. ويقول: إنه شاهد رفعته بنفسه.

٢ — بيت الملك.

٣ — سور أورشليم.

٤ — حاصور.

قال الحسن — رضى الله عنه — ما أنعم الله على أحد نعمة .. إلا عليه فيها تبعة.. إلا سليمان — عليه السلام — فإن الله تعالى يقول له «هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب» (٣٩/ص).

كان عطاء الله لسليمان.. عظيما.. عظيما.. يفوق الوصف.. ويعجز الخيال.. فكان له جنود من الجن والإنس والطير.. ومن الوحش أيضا في بعض الروايات.. «وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير» (١٧ النمل).. وخص الله سبحانه — الطير هنا بالذكر.. دون الوحش — لكثرة مداخلته.. ولأن أمر سائر الحيوان معه نادر.. كما بينا ذلك سابقا.. في حديث الطير.

كان الجن مسخرين له تسخييرا مطلقا.. يعملون له ما يشاء.. ومن يخرج منهم عن طاعته.. ويخالف أمره.. يذقه الله عذابا أليما «ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير» (١٢ سبأ).

(١) القرطبي والكشاف وغيرهما ١٢/ سبأ.

٥- مجدو.

٦- جازر.

٧- بيت حورون السفلى.

٨- بعله.

٩- تدمر في البرية.

كل ذلك عدا المخازن.. ومدن المركبات.. ومدن
الفرسان.. وما بناه في سائر مملكته ومن نظر هذه
الأعمال وفخامتها.. وضخامة أحجارها.. أيقن أنها
ليست من صنع الإنسان.. وبخاصة مدينة تدمر..
وبعض آثارها الفخمة مازال ماثلا حتى اليوم.

**يحملون له ما يشاء من محارِب ومائيل وجفان
كالجواب وقدور راسيات (١٣ سبأ).**

والمحارب في اللغة كل بناء مرتفع.. وسمى مكان
الصلاة محرابا لرفعته وسموه..

وذكر القرطبي: أن سليمان أمر أن يعمل حول
كرسيه ألف محراب.. فيها ألف رجل عليهم المسوح..
وأنه كان يقول لجنوده - إذا ركب: جميع الجنود إلى
هذا العلم يسبحون الله.. وإلى هذا يهللون.. وإلى هذا
يكبرون.. فتلج الجنود بالتسبيح.. والتهليل.. والتكبير..
لجة واحدة.

وقيل أيضا: إن المحارب.. هي المساجد.

وأما التماثيل.. فكانت الملائكة والنبين
والصالحين.. في صور متعددة.

تبين طريقة عبادتهم.. وكانت تصنع في المساجد من
نحاس وورخام.. ليراها الناس.. فيتعبدون علي هيتها.

**والتماثيل تكون للإنسان والحيوان وغيرهما.. ومنها
تماثيل الأسدين والنسرين والطاوسين.. التي ذكرناها
في وصف الكرسي.. إذا صعد على كرسيه.. بسط
الأسدان أيديهما تحته.. ونشر النسران والطاوسان
أجنحتهما فوقه.**

**وأغلب المفسرين.. يقولون: إن التماثيل كانت
جائزة.. قبل بعث الرسول - عليه الصلاة والسلام -
فقال قوم: قد صح النهي عن صنعها عن النبي - صلى
الله عليه وسلم - والتوعد لمن عملها.. أو اتخذها..
فنسخ الله بهذا ما كان مباحا قبله.. وصنع التماثيل مما
يجوز أن تختلف فيه الشرائع.. لأنه ليس من قبيح الفعل
كالظلم والكذب والزنا والتميمة.**

ومقتضى الأحاديث الواردة في هذا.. يدل

على أن التصاوير والتماثيل ممنوعة.. ثم جاء
الإمكان رقما «أى نقشا» في ثوب.. ولكن ثبتت
الكراهية فيه بقوله - صلى الله عليه وسلم - لعائشة -
رضي الله عنها.

**فقد روى مسلم عن عائشة.. قالت: كان لنا ستر..
فيه تمثال طائر.. وكان الداخل إذا دخل استقبله.. فقال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «حولى هذا فلانى
كلما دخلت فرأيت ذكرك الدنيا».**

**وقالت أيضا «دخل على رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - وأنا مستتره بقرام (١) فيه صورة.. فتلون
وجهه.. ثم تناول الستر فهتكه (٢)» ثم قال «إن من
أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبهون بخلق
الله (٣)».**

وقال بعض العلماء: ويمكن أن يكون تهتيكه - عليه
السلام - الثوب - وأمره بتحويله ورعا.. لأن محل
النوبة والرسالة الكمال.

**وفى الترمذى عن أبى هريرة: قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم - «يخرج عنق من النار يوم القيامة له
عينان تبصران.. وأذان تسمعان.. ولسان ينطق..
يقول: إني وكلت بثلاث: بكل جبار عنيد: وبكل من
دعا مع الله أحدا.. وبالمصورين» وقال أبو عيسى:
حديث حسن غريب صحيح.**

**كما جاء فى البخارى ومسلم.. عن عبد الله بن
مسعود - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم -: «أشد
الناس عذابا يوم القيامة المصورون».. ولعل المقصود
بالمصورين.. صناع التماثيل..
وقال القرطبي: وهذا يدل على المنع من تصوير شئ
.. أى شئ.**

واستثنى من هذا الباب.. لعب البنات «العرائس»..
لما ثبت عن عائشة - رضي الله عنها.. أن النبي - صلى
الله عليه وسلم - تزوجها وهى بنت سبع سنين.. وزفت
إليه وهى بنت تسع.. ولعبها معها.. ومات عنها وهى
بنت ثمانى عشرة سنة.. «رضى الله عنك وأرضاك يا
أم المؤمنين.. ففى تلك السن الحديثة جمعت من العلم
والدين.. ما أنار لنا الطريق.. وهدانا سواء السبيل..
وكان عليه الصلاة والسلام - يقول عنك: «خذوا نصف
دينكم من هذه الحميراء».

(٢) مزقه.

(١) القرام بكسر القاف: الستر فيه نقش.

(٣) من القرطبي ١٣/ص.

وعنها أيضا: كنت ألعب مع البنات « أى العرائس » عند النبی - صلى الله عليه وسلم - وكان لى صواحب يلعبن معى - فكان - صلى الله عليه وسلم - إذا دخل ينقمعن منه « أى يتوارين ويجرين حياء « فيسربهن إلى أى يبعثنهن » فيلعبن معى .. خرج الحديثين مسلم (١).

وقال العلماء: وذلك للضرورة .. لحاجة البنات .. حتى يتدربن على تربية أولادهن فيما بعد.. ثم أنه لابقاء لهذه التماثيل .. وكذلك ما يصنع من الحلوة ومن العجين فلا يبقاء له .. فرخص فيه .. ونحن نزيد هذا الاستثناء .. ما يصنع الآن من تماثيل للحيوان والطيور والنبات والأجهزة الجسمية وغيرها .. لأنها تستعمل في العلم كوسائل للإيضاح تيسر للدارس استيعاب العلوم. **وأما الجفان التي كالجواب ..** من صناعة الجن لسليمان .. فكانت أطباقا للطعام .. كأنها الأحواض الكبار .. وقال المفسرون: كان يقعد على الجفنة ألف رجل (٢) .. لتكون هذه الجفان مناسبة لتلك الجيوش التي لا يحصرها عد .. وتتلاءم مع تلك القدور الراسيات التي صنعها الجن .. لظهو الطعام فيها.

والقدور الراسيات .. أى الثابتات على قواعدها .. لاتنزل عنها لعظمها .. قال بعضهم: كانت من النحاس .. وقالوا: كانت منحوتة من الجبال الصم .. ثابته لاتحمل ولا تتحرك من مكانها .. وقال ابن العربى: وكذلك كانت قدور عبدالله بن جدعان .. يصعد إليها فى الجاهلية بسلم.

وعبر عنها طرفة بن العبد بقوله:

كالجوابى لآتنى مترعة

لقرى الأضياف أو للمختصر

وقال تفسير النسفى: إن آثار هذه القدور باقية باليمن.

وقد فصل القرآن الكريم الشياطين إلى نوعين «والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين فى الأصفاد» (٣٧ - ٣٨ ص).

فمنهم نوع استعمله فى الأعمال الشاقة .. كالبناء والحفر .. فبنوا له .. المدائن والعمائر، والطواحين، والحمامات، والقوارير .. واحترفوا له الأنهار .. وغاصوا فى أعماق

البحار .. فاستخرجوا اللآلىء، والدر، والجواهر البحرية .. واليواقيت والزمرد ... وسليمان - عليه السلام - هو أول من استخرجها.

والنوع الثانى: وهم المردة .. فقد قرن بعضهم مع بعض .. فى سلاسل الحديد .. لتأديب والكف عن الفساد.

ولم يكن يفعل ذلك إلا بالكفار منهم .. فإذا آمنوا .. أطلقهم .. ولم يسخرهم .. وعن المسدى .. فى الكشف: كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم .. مغللين فى الأصفاد .. والصفد هو القيد .. ويسمى العطاء والإحسان صفدا (٣) .. لأنه ارتباط وقيد للمنع عليه .. ومنه قول على - رضى الله عنه - « من برك فقد أسرك » « ومن جفاك فقد أطلقك » .. وكذلك قول القائل: « غل يدا مطلقها .. وأرق رقبة معتقها »

كما قال بعضهم: إن العطاء إसार. ويعلق صاحب البيضاوى على تقييد الشياطين .. فيقول: ولعل أجسامهم شفافة .. صلبة .. فهى لاترى ولكن يمكن تقييدها (٤).

وبعد تلك الجولة السريعة بين رياض الفضل التى أنعم الله على آل داود.

نصل إلى قول الله - عز وجل « اعملوا آل داود شكراً » (١٣ سبأ) .. لنرى أن الشكر عمل .. وليس كلمة حمد تقال .. أو تقبيل اليد ظهرا وبطنا .. مصحوبا بكلمات الحمد والثناء .. وإنما شكر النعمة بذلها .. لقول الله تعالى: « وأما بنعمة ربك فحدث » قال سبحانه - حدث بها .. ولم يقل حدث عنها.

وسئل الجنيد عن الشكر .. فقال: الشكر بذل المجهود بين يدي المعبود .. كما قيل: الشكور .. من يرى عجزه عن الشكر.

ومن حقنا الآن أن ننتقل إلى الفصل الثالث من قصة سليمان .. لنعرض فيه على القارئ قصة رائعة .. من أعظم القصص .. وأقوى الأفلام .. فيها الكثير من العظات والبيانات .. والروائع المحكمات .. التى تعيش عليها الأمم .. ونحيا فى نورها الشعوب .. ويسعد فى هداها المؤمنون .. قصة العلاقة بين آدم وحواء .. بين الرجل والمرأة .. فى تلك الحياة .. قصة سليمان وبلقيس .. ملك عظيم .. وملكة عظيمة .. قصة غرام صاحبة العرش العظيم.

(٢) فى كثير من كتب التفسير ١٣/ ص.

(٤) البيضاوى ٣٧/ ص.

(١) من القرطبي ١٣/ ص.

(٣) من تفسير الكشاف ٣٧/ ص.

« إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم »

(٢٣ - النمل)

○ غرام صاحبة العرش

الفصل الثالث

١٧ دقة الحاكم وحزمه

لم يتيسر لأحد قبله ولا بعده.. من تسخير الطير..
والوحش والرياح.. والجن.. والإنس.
فبعد أن تم له بناء بيت المقدس.. فى فلسطين..
حشد حشوده.. وجمع جموعه.. وتحرك جنوباً.. مولياً
وجهه شطر المسجد الحرام بمكة.. ويقول المفسرون —
مهتدياً بنجم السماء سهيل.. حتى وافى الحرم.. ودخله
آمنًا.. فأقام به ما شاء الله له أن يقيم.. وقضى المناسك..
وأدى الشعائر.. وبشر أهل مكة بخروج نبينا محمد —
صلى الله عليه وسلم — منهم.. وأخبرهم أنه سيد
الأنبياء.. وخاتم المرسلين.. وهذا موجود عندهم فى
التوراة والزبور.
وعن جابر بن عبد الله.. قال.. قال النبی — صلى الله
عليه وسلم: «كان نقش خاتم سليمان بن داود.. لا إله
إلا الله.. محمد رسول الله» (١).

وقفت طويلاً أمام قول الله — تبارك وتعالى —
«وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على
الناس».. فنحن المسلمين بمقتضى هذا الحكم من الله
العلی القدير.

شهود على جميع الأمم السابقة.. لأننا عشنا
أحداثهم من خلال كلام الله — سبحانه — فإذا اكتفينا
بمجرد الاستماع إلى قصص القرآن يتلى.. كانت
شهادتنا مبنية على السماع.. والشهادة على السماع
باطلة قانوناً.

ولعل هذا هو المقصود.. من قوله تعالى «إن فى ذلك
لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع هو شهيد».. فلم
يكتف — سبحانه — بالسماع فقط.. وإنما قرنه بالشهادة..
لتكمل العظة.. وتتم العبرة.. لأن تصديقنا بكلام الله..
وهو يقص علينا القصص.. لا بد أن يبلغ باليقين درجة
المشهد.

ونحن نستطيع الآن أن نرى سليمان بن داود
— عليهما السلام — وقد استتب له ملك عظيم..

(١) من القرطبي وغيره.

وقرب سليمان القرايين للبيت.. يقول صاحب تفسير الكشف: أنه كان يذبح فى اليوم بمكة المباركة خمسة آلاف ناقة.. وخمسة آلاف بقرة.. وعشرين ألف شاة.. كما يقول أبو إسحاق الثعلبى: إن معسكره بمكة كان مائة فرسخ.

ثم خرج من مكة بحشد.. قاصدا بلاد اليمن.. ووصل إلى صنعاء فى وقت الظهيرة.. فرأى أرضا طيبة.. حسنة.. أعجبه خضرتها.. وشدته نضارتها.. فنزل بها.. للراحة.. والغذاء.. والصلاة.

ونحن لا ننكر ما قرره كثير من المفسرين.. من أنه انتقل بجيشه.. من مكة إلى صنعاء فى غدوة من النهار.. تحمله الريح هو وجنوده.. وهى مسيرة شهر.. ولكن لايهمنا هذا.. فهو أمر معروف.. من تسخير الريح له.. «غدوها شهر.. ورواحها شهر».. بقدر ما يهمنا دقة سليمان وقدرته.. على اكتشاف غياب الهدهد.. عندما قام بعملية تفتيش.. على جميع الألوية والسرايا والفرق.. مع اختلاف أنواعها وأجناسها.. من إنس وجن وطير.. وذلك قبل استئناف الرحيل.

وهكذا يكون الحاكم فى تفقد أحوال رعيته.. والمحافظة عليهم.. فهذا هدهد.. مع صغره.. لم يخف أمر غيابه على سليمان.. فكيف بعظائم الأمور؟.. رحم الله عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — حينما قال: والله لو أن سخلة (١) على شاطئ الفرات أخذها الذئب.. لسئل عنها عمر.. فما بالك بولاة.. تذهب على أيديهم البلدان.. وتضيع الرعية والرعيان؟..

ورحم الله — أيضا — ابن المبارك حيث يقول:

وهل أفسد الدين إلا الملوك

وأحبار سوء ورهبانها

ويشرق حزم سليمان — عليه السلام — بجانب دقته حيث قال بعد أن تفقد الطير «ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحه أو ليأتينى بسلطان مبین» (٢٠ — ٢١ النمل).

وهنا نقف وقفة قصيرة أمام آراء بعض العلماء والمفسرين.. فقال بعضهم: إن سليمان.. لما نزل صنعاء بجنوده.. لم يجد ماء.. فبحث عن الهدهد ليدلهم على بعد الماء فى باطن

الأرض.. فاكتشف غيابه.. وتوعده.. بالعذاب.. أو الذبح أو العذر المقبول.

وهذا رأى لو دققنا فيه قليلا.. لوجدناه يخالف المعقول.

فصحيح أن فرقة الهداهد.. كانت من مهمتها ووظيفتها فى جيش سليمان.. اكتشاف بُعد المياه فى أعماق الأرض.. لأن الهدهد يرى الماء فى باطن الأرض.. كما يراه فى الزجاج.. وتلك خاصية خلقها الله فيه.. كان يخبر سليمان بموضع الماء.. ثم كانت الجن تخرجه فى ساعة تسليخ عنه وجه الأرض كما تسليخ الشاة (٢).

ولكن هل كان فى جيش سليمان.. هدهد واحد.. عندما غاب.. بحث عنه سليمان ليدلهم على بُعد الماء؟.. أظن هذا غير معقول.. فقد كان فى الجيش فرقة كاملة من الهداهد.. تقوم بالاستطلاع.. أمام الجيش الغازى.. فى الصحراء.. لتدلهم على الأماكن التى يقرب فيها الماء من سطح الأرض.. فينصبون الخيام.. ويعسكرون للراحة.. ويستخرجون الماء.. لأكلهم.. وشربهم.. واستهلاكهم.

وروى قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم: «أنهاكم عن قتل الهدهد.. فإنه كان دليل سليمان على الماء» (٣) فلو أن هدهدا غاب.. فغيره كثير.

فالتفقد هو التفتيش بلغة العصر.. وهو ما تقتضيه العناية بأمور الملك.. والاهتمام بكل جزء من تلك الأمور.. مهما قل أو صغر.. وهذا هو ظاهر النص.

أما قول سليمان: «ما لى لا أرى الهدهد» فكأنه كان يتفقد أمر نفسه هو.. وكأنه فهم أنه قصر فى حق من حقوق الله.. وظن أنه ابتلى بنعمة الهدهد.. فقال «مالى» وقال ابن العربى: هذا ما يفعله شيوخ الصوفية.. إذا فقدوا آمالهم.. تفقدوا أعمالهم.. ويتأسف القرطبي على هذا ويقول.. هذا فى الآداب.. فكيف بنا اليوم.. وقد قصرنا فى الفرائض؟..

ولما تحقق سليمان — عليه السلام — من غياب الهدهد.. توعده بما توعده به من العذاب الشديد.

وقالوا.. إن عذاب الطير.. عند سليمان.. كان ينتف ريشه وتشميسه بعد طلاء جسمه بالقار.. أو إيداعه قفصا.. أو التفريق بينه وبين ألفه.. أو صحبة الأضداد..

(٢) من القرطبي والكشاف وغيرهما ٢٠ / النمل.

(١) غنمة.

(٣) القرطبي ٢١ / النمل.

وأضيق السجون صعبة الأضداد ولم يغب الهدهد كثيرا
«فمكث غير بعيد».

فما أن وصل إلى معسكره.. حتى قبض عليه
قائد فرقته.. وأتى به إلى سليمان — عليه السلام —
فلما قرب منه.. أرخى ذيله وجناحيه.. يعجرها على
الأرض.. تواضعا ورهبة.. فأخذ سليمان برأسه..
يعجره إليه.. فقال: يا نبي الله.. اذكر وقوفك بين يدي

رب العالمين.. فارتعد سليمان وعفا عنه(١).. وأخبر
الحسن بن محمد الثقفي، بإسناده عن عكرمة.. قال: إنما
صرف الله سليمان عن ذبح الهدهد.. لأنه كان باراً
بوالديه.. ينقل الطعام إليهما فيزقهما(٢) فسأله.. أين
كنت غائباً؟..

فقال ما أخبر الله به.. «فمكث غير بعيد فقال أحطت
بما لم تحط به، وجئتك من سبأ نبأ يقين» (٢٢ النمل).



(١) من الكشف والقرطبي وغيرهما ٢١ / النمل وذكره القرطبي بتوسع ٤٤ / النمل.

(٢) الكشف والقرطبي ٤٤ / النمل.

٢ بين هدهد صغير وملك كبير

والإحاطة بالشئ علماً.. هي أن تعلم الشئ من جميع جهاته.. لا يخفى منه معلوم.. وفي هذا الدليل على أنه من حق الصغير.. أن يقول للكبير.. عندي ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه..

وهذا عمر - رضى الله عنه - مع جلالة وعلمه.. لم يكن عنده علم بالاستئذان فقد كان حكم الإذن.. أن تنشر الخائض.. فى سبيل الله.. عند ابن عباس.. ولم يعلم ذلك عمر.. ولازيد بن ثابت.

كما كان علم التيمم عند همار وغيره.. وغاب عن عمر وابن مسعود.. حتى قالوا: لايتيمم الجنب.. ومثل هذا كثير(٢).

وجميل جداً سلاسة التعبير فى قول الهدهد «وجئتك من سبأ بنياً».

فتركيب كلمتى: سبأ ونبأ.. مما يسميه علماء اللغة بالبديع.. وهو من محاسن الكلام.

فقال سليمان: وماذا عندك أيها الهدهد.. من بنا سبأ.. قال:

«إنى وجدت امرأة تملكهم. وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم» (٢٣ النمل).

لما عسكر جيش سليمان - عليه السلام - فى صنعاء.. وهى على بعد ثلاثة أيام من مدينة مأرب.. عاصمة مملكة سبأ.. طار الهدهد.. ليكتشف تلك البلاد وما فيها.. وسقط هدهد سليمان.. على هدهد بنى(١)..

وجده يمرح بين الحقول.. وجرى بينهما حديث.. فهم منه هدهد سليمان.. أن تلك الديار تحكمها ملكة عظيمة.. لها عرش عظيم.. وجيش عظيم.. ولم يكتف الهدهد بما سمع من صاحبه.. وإنما طار معه إلى مأرب.. ليرى بنفسه تلك الملكة وعرشها.. وعظمتها. وعظمة جيشها.. فتأخر إلى العصر وقول الهدهد: «أحطت بما لم تحط به» إلهام من الله - جل شأنه - ليواجه سليمان بهذا القول.. على ما أوتى.. من فضل النبوة.. والحكمة والعلوم الجمة.. والإحاطة بالمعلومات الكثيرة.. ابتلاء له فى علمه.. وتنبها على أنه فى أدنى خلق الله وأضعفه.. من أحاط علماً بما لم يحط به.. لتتحاقر إليه نفسه.. ويتصاغر لديه علمه.. ويكون ذلك رحمة له.. فى ترك الإعجاب.. الذى هو فتنة العلماء.. وأعظم بها فتنة!!

(١) من الكشاف والقرطبي وغيرهما ٢١/ النمل - وهذا الخبر ذكره القرطبي بإضافة ٤٤/ النمل.

(٢) القرطبي ٢٢/ النمل

تأمل معي أيها الأخ الكريم.. أول نقد من الهدهد.. نحو تلك الملكة.. «وجدت امرأة تملكهم» يستغرب الهدهد.. من هؤلاء القوم.. أنهم يولون أمرهم امرأة؟.. وقد ناقش العلماء هذا الموضوع.. فقالوا:

في حديث البخارى عن ابن عباس.. أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لما بلغه أن أهل فارس.. قد ملكوا بنت كسرى.. قال «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة». قال القاضى أبو بكر بن العربى: هذا نص فى أن المرأة لا تكون خليفة.. ولا خلاف فى هذا(١).

وقالوا: أجاز الطبرى أن تكون المرأة قاضية.. وهذا نقل خطأ.. وقد نقل ذلك.. عن أبى حنيفة - رضى الله عنه - وحقيقة الأمر أنها تقضى فيما تشهد فيه فقط.. وليس بأن تكون قاضية.. على الإطلاق.. كما روى عن عمر أنه قدم امرأة على حصة السوق.. ولم يصح.. فلا يلفت إليه.. فإنما هو من دسائس المبتدعة فى الأحاديث.. فالمرأة.. لا يجوز لها أن تبرز إلى المجالس.. ولا تخالط الرجال.. ولا تفاوضهم مفاوضة الند للند.. لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها.. وكلامها.. وإن كانت برزة «أى كهلة لا تحتجب.. وهى مع ذلك عفيفة عاقلة.. تجلس للناس وتحادثهم» لم يجمعها مع الرجال مجلس واحد.. تزدحم فيه معهم.. وتكون منظره لهم.. ولن يفلح قط من تصور هذا ولا من اعتقده(٢). ١هـ.

حتى الهدهد.. لم يعجبه هذا الأمر.. وهو أول شئ لفت نظره.. بفطرته التى فطره الله عليها.. فكان أول نقده لهم «وجدت امرأة تملكهم».. فقال له سليمان: مالى ولهذا.. تحكمهم امرأة.. آتاه الله من كل شئ.. لها عرش عظيم.. كل هذا لا يهمني فى شئ.. وما علاقة كل هذا بتخلفك عن الجيش؟..

ولكأنى أرى الهدهد.. يقول منفجلاً بغيرة المؤمن على دينه.. لا يا نبى الله «وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله.. وزين لهم الشيطان أعمالهم.. فصدهم عن السبيل.. فهم لا يهتدون» (٢٤ النمل).

فتحركت فى سليمان نوازح الغيرة على التوحيد.. فعندما قال له الهدهد.. «وأوتيت من كل

شئ ولها عرش عظيم» لم يستفزه الطمع.. ولا أغراه حب الزيادة فى الملك.. إلى أن يعرض له.. ولكنه لما قال «وجدتها وقومها يسجدون للشمس» غاظه حينئذ ما سمع.

واستمع القارئ الكريم.. فى الوقوف لحظة.. مع هذا الطائر.. الذى منحه الله قوة إدراك فطرية.. فاستنكر على دولة السبئيين - وهم من أعنى دول التاريخ - سجودهم للشمس.. وندد بتمليكهم امرأة عليهم.. وبهذا يكون قد سجل قاعدة أبدية.. أزلية.. عن نظام التوحيد.. وتحرير النفس من عبادة ما سوى الله.. مهما كبر حجمه.. وعظم شأنه.

فإلى أى مستوى بعد ذلك.. يهوى الإنسان الظالم من هذا المقام.. الذى يستنكر فيه هدهد.. السجود للشمس الكبرى «لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس» استنكر الهدهد أن يسجد الإنسان لأكبر كوكب سيار.. فكيف به إذا رأى الإنسان يسجد للإنسان.. والطواطم.. والتمائيل.. سواء كانت من خشب أو نحاس.. أو ذهب.. أو لحم ودم.

«ألا يظن أولئك أنهم مبعثون ليوم عظيم.. يوم يقوم الناس لرب العالمين»(٣)..
 «يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً»(٤)..
 «يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها»(٦)..
 «واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده.. ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً»(٧)..
 «هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت»(٨)..
 «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً.. وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.. ويحذركم الله نفسه.. والله رءوف بالعباد»(٩)..
 والله لو آمن الناس كما آمن هذا الهدهد.. ما انحرفت بهم أوهامهم.. ولا هوى بهم جهلهم إلى الدرك الأسفل من النار.. ولما عاشوا منافقين: «وإذا لقوا الذين آمنوا.. قالوا آمنا.. وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم.. إنما نحن مستهزئون»(١٠)..
 فكيف اجتمع الشرك والإيمان فى نفس الوقت؟..
 أولئك لم يفهموا قوله تعالى «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون»(١١)..
 (١) القرطبي والكشاف ٢٢/ النمل. (٢) من القرطبي ٢٣/ النمل. (٣) المطففين. (٤) ٤١/ الدخان. (٥) ١٩/ الانفطار. (٦) ١١١/ النحل. (٧) ٣٣/ لقمان. (٨) ٣٠/ يونس. (٩) ٣٠/ آل عمران. (١٠) ١٤/ البقرة.

وكانى أحسن الثورة الجامعة فى صدر الهدهد.. وهو يتم حديثه مع سليمان فيقول معقبا. «ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض.. ويعلم ما تخفون.. وما تعلنون» ٢٥/ النمل..

وإخراج الخبء.. من كلام الهدهد.. لأنه يتحدث عن خاصيته هو.. فى معرفة المخبوء من الماء فى باطن الأرض.. بإلهام من يخرج الخبء فى السموات والأرض.. وخبء السماء.. مطرها وأسرارها.. وخبء الأرض معادنها ونباتها ومياها الجوفية.. وتلك النظرة الفاحصة.. من ذوى البصائر.. الناظرين بنور الله.. تبرز شمائل كل مختص بصناعة.. أو فن.. أو علم.. فى حديثه.. ومنظره.. وحركاته.. ولهذا ورد ما عمل عبد عملا.. إلا ألقى عليه رداء عمله..

ولعل الهدهد.. أدرك مؤخرا.. أنه أخطأ فى حق الله.. عندما قال عن بلقيس «ولها عرش عظيم».. فاستدرك هذا الخطأ.. قبل أن ينهى تقريره.. الذى قدمه لسليمان.. عن سبب غيابه.. فقال ندما ورجوعا إلى الله «الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم» ٢٦/ النمل..

وقبل سليمان — عليه السلام — عذر الهدهد.. وهذا دليل على أن الحاكم.. يجب أن يقبل عذر رعيته.. ويدرك عنهم العقوبة فى ظاهر أحوالهم.. بباطن أعدائهم..

فلسليمان لم يعاقب الهدهد.. حين اعتذر إليه.. وإنما صار صدق الهدهد عذرا.. لأنه أخبر بما يقتضى الجهاد.. وكان سليمان يحب الجهاد.. وفى الصحيح «ليس أحد أحب إليه

العذر من الله.. ومن أجل ذلك أنزل الكتب.. وأرسل الرسل (١)»..

ولكن على الإمام.. أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة.. وهكذا فعل سليمان.. فقال للهدهد «سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين.. اذهب بكتابى هذا.. فألقه إليهم.. ثم تول عنهم.. فانظر ماذا يرجعون» ١٧ - ٢٨/ النمل..

ونلاحظ هنا.. أن سليمان — عليه السلام — يعلم الهدهد.. الطريقة السليمة فى التجسس والتخابر.. حين قال له «فألقه إليهم.. ثم تول عنهم.. فانظر ماذا يرجعون».. فالمفروض.. أن يكون نظره إلى ترجيعهم القول فى شأن الكتاب.. قبل أن يتولى عنهم.. ولكنه يريد أن يقول له: إذا ألقى الكتاب إليهم.. وظللت ظاهرا إليهم.. فسيكون أمرك بالنسبة لهم أمرا عجباً.. يمنهم من تدارس الأمر.. والتشاور.. واتخاذ القرار أمامك.. فعليك أن تلقى الكتاب.. ثم تتظاهر بأنك عدت من حيث أتيت.. بينما تكمن فى مكان تراه فى من حيث لا يرونك.. ثم تحمل إلى تقريرها مفصلا.. عما يجرى بينهم.. بعد قراءة الكتاب

ولقد قال سليمان «فألقه إليهم» بصيغة الجمع.. يقصدها هى وقومها لأن الهدهد قال «وجدتها وقومها يسجدون للشمس»..

وفى هذا دليل.. على إرسال الكتب إلى المشركين.. وتبليغهم الدعوة.. ودعوتهم إلى الإسلام..

وقد كتب النبى — صلى الله عليه وسلم — إلى المقوقس.. وكسرى.. وقبصر.. وإلى كل جبار..



٣] غرام بلقيس

مكللا بالدر.. والياقوت الأحمر.. والزبرجد الأخضر(٤) كما قيل: إن أحد أبويها من الجن (٥).
وقال ابن العربي: وهذا أمر تنكره الملاحدة.. ويقولون: الجن لا يأكلون.. ولا يتوالدون.. وكذبوا.. لعنهم الله أجمعين.. هذا صحيح.. ونكاحهم جائز عقلا.. فإن صح نقلا فيها ونعمت.. ثم يناقش القرطبي هذا الموضوع.. فيقول: «خرج أبو داود من حديث عبدالله بن مسعود.. أنه قال: قدم وفد من الجن على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالوا يا محمد.. انه أمتك أن يستنجوا بعظمة.. أو روثه.. أو جمجمة.. فإن الله جاعل لنا فيها رزقا»..
وفي صحيح مسلم.. فقال — صلى الله عليه وسلم — «لكم كل عظم.. ذكر اسم الله عليه.. يقع في أيديكم.. أوفر ما يكون لحما.. وكل بكرة علف لدوابكم»..
فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — «فلا تستنجوا بهما.. فإنها طعام إخوانكم الجن»..
وفي البخاري من حديث أبي هريرة.. قال.. فقلت ما بال العظمة والروثه؟...

ويتنقل بنا العرض إلى مدينة مأرب.. عاصمة مملكة سبأ.. مع الهدهد سفير سليمان — عليه السلام — لئرى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان (١) وشهرته — الهلهاذ — ورثت عن أبيها ملك السبئين نسبة إلى سبأ بن شجب بن يعرب بن قحطان (٢).. حكمت اليمن.. وجنوب الجزيرة العربية كلها..
وقد قرأت كثيرا مما كتبه أولو العلم عن المفسرين.. عن هذا الملك الواسع العظيم في هذا الحين.. ولكنني لاستبعد بعض المبالغات فيما كتبوا.. أو كتب باسمهم.. فمثلا قالوا عن جيشها: كان لها اثنا عشر ألف قائد.. تحت كل قائد مائة ألف جندي (٣).. وبحسبة بسيطة.. نجد أن عدد هذا الجيش.. مليار ومائتي مليون جندي.. غير القادة.. ويخيل إلى أن هذا العدد.. فيه مبالغة غير مهضومة..
وأما عرشها — فأغلب الوصف فيه.. أنه من الذهب.. المكمل بأنواع الجواهر من الياقوت والزمرد.. يقول ابن عباس: كان عرشها.. ثمانين ذراعا.. وعرضه أربعين.. وارتفاعه ثلاثين..

(١) البيضاوي والقرطبي والكشاف ٢٣/ النمل.

(٣) الكشاف والقرطبي وغيرهما ٣٢/ النمل.

(٥) من القرطبي وغيره ٢٣/ النمل.

(٢) من الكشاف والثعلبي وغيرهما ٢٠/ النمل.

(٤) البيضاوي والقرطبي وغيرهما ٢٣/ النمل.

فقال: «هما من طعام الجن.. وإنه أتاني وفد جن يصيين - ونعم الجن - فسألوني الزاد.. فدعوت الله تعالى.. ألا يمرؤا بعظمة أوروثة.. إلا وجدوا عليها طعاما».. ويستمر - القرطبي - فيقول: وهذا كله نص في أنهم يطعمون.. وأما نكاحهم.. ففى قوله تعالى: «وشاركهم فى الأموال والأولاد»..

كما روى القرطبي - روى وهيب بن جرير بن حازم.. عن الخليل بن أحمد عن عثمان بن حاضر
.. قال «كانت أم بلقيس من الجن.. يقال لها: بلعمة بنت شيطان» أهـ (١) ..

كان الهذاهذ ملكا عظيم الشأن.. ملك اليمن كلها.. وكان يقول للملوك الأطراف.. ليس أحد منكم كفوا لى لأصاهره.. فتزوج من الجن.. فولدت له بلقيس.. ولم يكن له غيرها.. وأخبر ابن ميمونة.. بإسناده عن أبى هريرة.. عن النبى: كان أحد أبوى بلقيس جنيا» - أهـ.

ونحن فى الواقع.. لايهمنا من هذا الأمر إلا أن نعلم
أنها كانت امرأة شاذة.. وترك موضوع أمها إلى علم الله تعالى.. كانت تقود الجيوش بنفسها.. وتخوض المعارك ببطشها وجبروتها.. حتى أذلت من جاورها من الملوك والحكام.. ودانت لها المنطقة بمن فيها وما فيها..

فلم نجد الرجل الذى ينبض لها قلبها بنبضات الحب.. ولم تعثر على من يفرض عليها إرادته.. ليكون كفشا للزواج منها.. الجميع يقدمون لها فروض الطاعة والولاء.. ويخضعون لها بالسمع والطاعة المطلقة.. والمرأة بطبيعتها تحب أن تحس بأنوثتها.. بجانب رجل يفرض عليها قوامته.. ويرغمها على الخضوع له..

فلو أن «عربة أنوبيس» مثلا.. بها عدد من الشباب
بينهم فتاة جميلة واحدة.. يتهافت عليها الجميع.. على أمل نظرة.. أو بسملة.. أو كلمة.. ما عدا شابا واحدا منهم.. أعرض عنها كل الإراض.. وشغل نفسه بكتاب يقرأه.. أو صحيفة يتصفحها.. أو نظرة تأمل فيما يحيط به من جمال الكون.. فإنى أجزم.. أنه لا يشغلها أحد من هؤلاء الشبان المولاهين بها.. وإنما يشغلها هذا الشاب المعرض عنها.

فهو وحده الذى تحكم فى تفكيرها.. وشغل فؤادها..

ونصل مع سفير سليمان - عليه السلام - الذى وصل إلى مدينة مأرب حاملا الرسالة بمنقاره.. ولقد لفت بشريط أحمر من الحرير.. كتاب ملكى مختوم بخاتم سليمان.. ملك أورشليم.. وكانت بلقيس فى تلك الأثناء.. ترأس اجتماعا مع الحكام والوزراء والقادة فى قاعة عرشها.. وقد جلست فى عظمة الملك.. وأبهة السلطان.. على كرسيها الذهبى الضخم.. واصطف حولها المجتمعون.. حيث أدوا لها التحية الملكية.. ثم جلس كل منهم فى مكانه المعد له.. وكل الروايات.. على أن عددهم.. كان ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا (٢) .. ولعله من الغريب أن يكون هذا العدد هو عدد جنود طالوت.. الذين اجتازوا النهر معه.. وهو هو عدد المسلمين فى غزوة بدر الكبرى.. وفوجئ الجميع بسقوط الرسالة من أعلى.. فى حجر الملكة.. فنظروا وإذا بهم يجدون هدهدا.. يرفرف فوق رأسها لحظة.. ثم يتجه إلى نافذة عليا.. من منافذ القاعة.. ثم يبسط جناحيه.. طائرا فى الفضاء.. ولكنه بعد أن دار عدة دورات فى الهواء.. وعاد ليكن فى إحدى الشرفات.. ليسجل تقريره إلى سليمان - عليه السلام - بما يرجعون.

تقدم رئيس وزرائها.. مسرعا فتناول الكتاب.. وفتحه.. ونفضه بعيدا عنها.. خشية أن يكون فيه مسخدر.. أو أى شئ مضر.. وتقدم إليها.. فى أدب وخشوع.. وقدم لها الخطاب..

وكانت بلقيس.. قارئة.. كاتبة.. هرية.. من نسل
تبع بن شراحيل الحميرى (٣) .. فمرت بنظرها فى عجل على الكتاب.. وكان نصه:
«من عبدالله - سليمان بن داود.. إلى بلقيس.. ملكة سبأ..

بسم الله الرحمن الرحيم.. السلام على من اتبع الهدى.. أما بعد ..
«فلا تعملوا على وأتونى مسلمين». سليمان ملك أورشليم.. وهو مطبوع بالمسك.. ومختوم بخاتمه (٤) ..

(٢) القرطبي وغيره ٣٢ / النمل.

(٤) النسفى وغيره ٢٨ / النمل.

(١) القرطبي ٢٣ / النمل.

(٢) الكشاف وغيره ٣٢ / النمل.

فأحست برعشة.. هزت جسمها.. وخفقت قلبها.. وأحست بإحساس غريب.. فيه كل الخشوع.. وكل الخضوع.. نحو صاحب هذا الاسم.. فلأول مرة تجد إنساناً.. يفرض عليها أمره.. وعلى عليها إرادته.. فى حزم وقوة وإيجاز.. وتحركت فى نفسها طبيعة الأنوثة.. والميل.. والهوى..

يقول صاحب تفسير البيضاوى: الكتاب فى منتهى الإيجاز.. مع كمال الدلالة على المقصود.. وقال النسفى وغيره: لم يزد سليمان فى كتابه على ما نص الله شيئاً.. كانت كتب الأنبياء.. جملاً.. فلا يظيلون.. ولا يكثر.. وبسرعة.. تمالكت نفسها.. وقالت «يا أيها الملأ إني ألقى إلى كتاب كريم «وقد يكون معنى» كريم «أنه كتاب ملكى مختوم بخاتم الملك.. ولكنى الملح فى وصفها لهذا الكتاب.. بأنه كريم.. ما يكشف عما يعتل فى قلبها من لواجع الحب.. ونبضات القلب.. فقال الملأ: ومن أين هذا الكتاب؟»

قالت: إنه من سليمان.. وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلقو على وأتونى مسلمين» ٣١ - ٣٢ / النمل..

ثم قالت تسألهم: ما هو اسم الله هذا؟..

فقال بعض القوم: ما نظن هذا.. إلا عفريتاً عظيماً من الجن.. يقتدر به هذا الملك على ما يريد.. ولكنها أسكتته بإشارة من يدها.. فقال آخر: أراهم ثلاثة من العفاريت.. فأسكتته أيضاً.. وقال شاب يعلم: يا سيدة الملوك.. إن سليمان ملك.. قد أعطاه ملك السماء ملكاً عظيماً.. فهو لا يتكلم بكلمة.. إلا بدأ فيها بتسمية إلهه.. «والله» اسم ملك السماء.. وأظن «الرحمن الرحيم» صفتان له (١) ..

وعندها قالت: «يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى.. ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون» ٣٢ / النمل..

يقول صاحب الكشاف: طلبت الفتوى منهم لاستطلاع رأيهم.. واستعطافهم.. وتطيب نفوسهم.. ليماثلوها.. ويقوموا معها — أ هـ.

والشورى: إما استعانة بالآراء.. وأما مداراة للأولياء..

يقول القرطبي: ربما كان من استبدادها برأيها.. وهم فى طاعتها.. وكان فى مشاورتهم

.. وأخذ رأيهم عون على ماتريده.. من قوة شوكتهم.. وشدة مدافعتهم.. ثم يقول: ألا ترى قولهم لها: «نحن أولو قوة وأولو بأس شديد.. والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين» ٣٣ / النمل..

يقول ابن عباس: — رضى الله عنه — كان من قوة أحدهم.. أن يركض فرسه.. حتى إذا احتدد.. ضم فخذه.. فحسبه بقوته.. ولعلمهم بقولهم: «أولو قوة» يقبضون الأجسام.. والآلات.. والعدد الحربية.. ويقولهم: «وأولو بأس» يقصدون الشجاعة والنجدة.. والبلاء بالحرب.. ومعنى هذا أنهم أشاروا عليها بالحرب.. وهى لاتريد هذا.. فنبضات قلب المرأة.. أقوى من كل شئ..

يقول صاحب الكشاف: فلما أحست منهم الميل إلى الحرب.. أو أرادوا.. نحن من أبناء الحرب.. لامن أبناء الرأى والمشورة.. وأنت ذات الرأى والتدبير.. رأيت من الرأى.. الميل إلى الصلح.. والابتداء بما هو أحسن.. ورتبت الجواب.. فزيفت أولاً ما ذكروه.. وأرتهم الخطأ فيه.. فقالت: «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها.. وجعلوا أعزة أهلها أذلة «أى أذلوا أعزتها.. وأهانوا أشرافها وقتلوا.. وأسروا.. ليستتب لهم الأمر.. قال ابن الأثير: «وجعلوا أعزة أهلها أذلة» هذا وقف تام (٢) يقصد أن بلقيس لم تقل: «وكذلك يفعلون» فقال الله تحقيقاً لقولها: «وكذلك يفعلون» ٣٤ / النمل..

وفى هذا المعنى يقول الشاعر.. أبو القاسم الجنيد: ..
إن الملوك بلاء حيثما حلوا

فلم يكن لك فى أكنافهم ظل
جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا

وإن مدحتهمو خالوك تخدعهم
واستثقلوك كما يستثقل الكل

فاستغن بالله عن أبوابهم كرماً
إن الوقوف على أبوابهم ذل

كانت بلقيس لبيرة عاقلة.. مجربة لأمر الملك وسياسته.. فقالت: «وانى رسالة إليهم بهدية.. فناظرهم يرجع المرسلون» ٣٥ / النمل .. وهذا الرأى من حسن نظرها وتدبيرها

(١) القرطبي عن وهب ٣٤ / النمل.

(٢) القرطبي ٣٤ / النمل.

.. وصدى لانفعالات وتحركت فى كوامن صدرها..
قال قتادة: يرحمها الله.. كانت عاقلة فى شركها وفى
إسلامها .. قد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس -
أ.هـ - / وفى نفس الوقت تجرب هذا الإنسان.. الذى
أجبرها على أن تسلك سلوكا لم تألفه فى نفسها من
قبل.. وفى مثل تلك المواقف .. التى كانت فيها مثلا
للشجاعة .. والبسالة .. والصمود ..

فقلت لهم : أجرب هذا الرجل .. بهدية أعطيه فيها
من النفائس والأموال .. فإن كان ملكا دنيويا .. أرضاه
المال .. فتعامله بحسب ذلك .. وإن كان نبيا .. لم يرضه
المال .. ولا يرضى منا إلا اتباع دينه .. وهنا نؤمن به
ونتبعه على دينه .

ثم نادى رجلا شريفا فى قومها .. اسمه المنذر بن
عمرو - وكلفته بأن يكون أميرا للوفد القائم بتوصيل
الهدية .. وضمت إليه بعض ذوى العقل والحكمة ..
وقالت له :

إذا نظر إليك بغضب .. فأعلم أنه ملك دنيوى .. فلا
تخشه ولا تهبه .. فأنا أعز منه .. وإن نظر إليك .. فى
سماحة وجه وبشاشة محيا .. فهو نبى مرسل .. فتفهم
كلامه .. واثنى بما تسمع وترى ..

وبدا تجهيز الهدية والقافلة فى الحال..

ورأى الهدهد وسمع .. وانطلق ليقدم تقريره بما
حصل .. إلى سليمان - عليه السلام .. وقبل أن نستقل
إلى الوصف الرائع للهدية .. ولحفلة الاستقبال .. أريد
أن أشير إشارة خفيفة إلى بعض آراء قالت : إن الهدهد
ألقى الخطاب عليها .. وهى نائمة فى مخدعها .. بعدة
روايات ..

وهذا رأى يخالف النص الذى قاله سليمان للهدهد
« فألقه إليهم » بالجمع .. ولم يقل له .. فألقه إليها ..
ولا داعى للخروج عن النص .. بدون سبب أو
دليل..



٤ هدية وحفل استقبال

تحرك ركب الهدية.. تحت إمارة المنذر بن عمرو.. ويقول جميع المفسرين :

كانت الهدية.. عددا من الغلمان والجواري.. واختلفوا فى عددهم.. فقال بعضهم.. ألفا.. ونزل البعض إلى المائة.. أو أقل.. ويقول ابن عباس : أليست الغلمان والجواري.. لباسا واحدا.. حتى لا يعرف الذكر من الأنثى..

وقالوا : حليهم.. الأساور والأطواق.. والقرط.. راكبي خيل مغشاة بالديباج.. محلاة اللجم والسرج.. بالذهب المرصع بالجواهر.. وألف لبنة.. من ذهب وفضة.. وتاجا مكللا بالدر والياقوت.. ومع الأمير علبة.. بها درة غير مثقوبة.. وخرزة مثقوبة ثقبها معوجا.. ومعه أيضا خطاب.. من بلقيس إلى قبول هديتها.. كما تطلب منه معرفة الغلمان من الجواري.. وثقب الدرة البكر.. وإدخال خيط فى الخرزة المثقوبة ثقبها معوجا(١).. وسارت القافلة.. تقطع الفيافي والقفار.. فى سبيلها إلى سليمان..

وفى نفس الوقت بدأ سليمان - عليه السلام - فى الإعداد لحفل الاستقبال.. بعد أن أخبره الهدد أنهم يسبيلهم إليه..

فأمر الجن.. فضربوا لبن الذهب والفضة.. وفرشوه فى ميدان بين يديه.. على امتداد سبعة فراسخ(٢).. وجعلوا حول الميدان.. حائطا.. شرفه من الذهب والفضة.. وأمر بأحسن الدواب.. فى البر والبحر.. فأحضر الجن له دوابا بحرية عجيبة.. مختلفة الألوان.. لها أجنحة وأعراف ونواصي.. ربطوها مع الدواب البرية.. عن يمين الميدان ويساره.. على لبن الذهب والفضة المفروشة فيه.. وأمر بإحضار شباب الجن.. وهم خلق كثير.. وقفوا صفوفا على الجانبين..

كما اصطفت الوحوش.. صفوفا.. صفوفا.. فى نظام مرعب.. وتحفز مخيف.. ثم جلس هو على سرير ملكه.. والكراسى آلاف عن جانبيه.. فى منظر مهيب رهيب.. وشكلت الطيور مظلة.. تقى هذا الجمع الزاخر.. من وهج الشمس.. وحرها..

(١) أغلب المفسرين ٣٥ / النمل.

(٢) الفرسخ ثلاثة أميال ونصف.. أى أكثر من خمسة كيلو مترات.

ووصل الوفد إلى مدخل الميدان.. فرأوا مالم يكن يخطر لهم على بال.. رأوا تلك الدواب العجيبة.. فبهتوا لما رأوها تروث وتبول على لبن الذهب.. وساروا بين صفوف فراسخ من الإنس.. والجن والوحوش.. والسباع.. والهوام.. رأوا صفوف الشياطين المردة.. وقد امتدت أجسامهم في الفضاء.. كأنها أعمدة المعابد الضخمة.. تنبعث من عيونهم أشوطة من نار..

مشوا بين كل هذا تظلمهم الطيور.. وهى لا تعلموا عن رءوسهم إلا قدر رمح.. ترفرف بأجنحتها.. فتحرك الهواء.. فوق رءوسهم.. فيجفف عرقا من أجسامهم.. رهبة.. وخشية.. ورعبا..

حتى وصلوا إلى عرش سليمان - عليه السلام - وعلى جانبيه وزيران.. أحدهما عن الإنس.. والثاني عن الجن.. وقد جلس القادة والعلية على الكراسى المحيطة به.. إحاطة السوار بالمعصم.. ونظر سليمان إلى وفد بلقيس بوجه هاش باش طلق.. ثم قال للأمير : هات ما معك.. فنأوله المنذر.. أمير الوفد.. الخطاب والعلبة.. فقرأ سليمان الخطاب بعد أن أخبر بما في العلبة.. قبل أن يقرأ الخطاب.. ثم طلب ماء.. وأمر الغلمان والجواري.. أن يغسلوا وجوههم.. فميز بينهم بطريقة تناولهم الماء.. فالجارية تغترف الماء باليد الأخرى.. ثم تضرب به وجهها.. أما الغلام.. فكلما يأخذ الماء.. يضرب به وجهه.. ثم أمر الأرضة.. فأخذت شعرة في فمها.. ونفذت من الدرة البكر.. فتقبتها.. كما أمر دودة بيضاء.. فأخذت خيطا.. ودخلت به من ثقب الخزرة.. وخرجت من الثقب الآخر.. فدخل الخيط في الخزرة(١) ..

وانجى سليمان - عليه السلام - إلى الوفد قائلا «أحمدون بما.. فما آتاني الله خير مما آتاكم.. بل أنتم بهديتكم تفرحون» ٣٦ / النمل..

أى أن الله آتاني الدين.. الذى فيه الحظ الأوفر.. والغنى الواسع.. وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه.. بل أنتم الذين تفرحون بمثله.. لأنكم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا..

ثم نظر إلى أميرهم.. وقال له : « ارجع إليهم »..

ارجع بهديتك التى أتيت بها.. فرفض الهدية.. وأبى قبولها.. وردها عليهم..
وهذا يدفعنا إلى وقفة قصيرة - أمام رأى الإسلام.. فى قبول الهدايا..

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقبل الهدية.. ويثيب عليها.. ولا يقبل الصدقة.. وكذلك كان سليمان والأنبياء.. وإنما جعلت بلقيس.. قبول الهدية أو ردها.. علامة على ما فى نفسها.. لأنه قال لها.. فى كتابه « ألا تعلموا على وأتوني مسلمين » وهذا الأمر لا تقبل فيه فدية.. ولا يؤخذ عنه هدية.. وليس هذا من الباب الذى تقرر فى الشريعة عن قبول الهدية بسبيل.. وإنما هى رشوة وبيع الحق بالباطل.. ولا يحل هذا..

وأما الهدية المطلقة.. للتحجب.. والتواصل.. فإنها جائزة.. من كل أحد.. وعلى أية حال.. وهذا مما لم يكن من مشرك.. فإن كانت من مشرك.. ففى الحديث : « نهيت عن زيد المشركين(٢) » يعنى.. هداياهم.. وعطاؤهم.. والهدية مندوب إليها.. وهى مما تورث المودة.. وتذهب العداوة..

روى مالك عن عطاء بن عبدالله الخراساني

قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « تصافحوا يذهب الغل.. وتهادوا.. تحابوا.. وتذهب الشحناء » وروى معاوية بن الحكم.. قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول « تهادوا.. فإنه يضاعف الود.. ويذهب بغوائل الصدور »..

وعن ابن شهاب قال : بلغنا.. أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « تهادوا بينكم.. فإن الهدية تذهب السخيمة ».. قال ابن وهب : سألت يونس.. عن السخيمة.. ما هى ؟

فقال : الغل(٣) وقال شاعر :

هدايا الناس بعضهم لبعض

تولد فى قلوبهم الوصالا

وتززع فى الضمير هوى وودا

وتكسبهم إذا حضروا جمالا

قال سليمان للمنذر بن عمرو.. أمير الوفد

.. بعد أن رد الهدية « ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها.. ولنخرجهم منها أذلة.. وهم صاغرون » ٣٧ / النمل..

وعاد المنذر بوفده وهداياهم.. ليخبر سيدته بما رأى.. ويأهول ما رأى..

(١) فى جميع كتب التفسير تقريبا ٣٥ / النمل.

(٢) القرطبي ٣٥ / النمل.

(٣) القرطبي ٣٥ / النمل.

٥ جنود اسم الله الرحمن الرحيم

واحد.. ليلة الهجرة.. بل ساعة الهجرة.. بل لحظة
الهجرة ليضيع دمه بين القبائل..
لقد قرأ - عليه السلام - الآية .. فعلا .. وروحا ..
وتوجها .. وإيمانا .. وإسلاما .. وإحسانا .. فانفعلت
الحقائق .. ووقع الأثر ..

وهكذا اتخذ سليمان - عليه السلام - من بسم الله
الرحمن الرحيم - جنودا .. لا قبل لدولة السبئيين بها..
وكان جازم الإيمان .. بأن جند الاسم .. لا ترجع .. حتى
تحقق الحق .. وتبطل الباطل .. وتخرج ورثه العمالقة
العادين الجبابرة .. أذلة بما عدوا صاغرين بما أشركوا..
حيث لا عز إلا بالإيمان ..

وهل أرسل سليمان سوى «بسم الله الرحمن
الرحيم» .. يحمل نصفها هذا الهدهد .. ليلقيه على
بلقيس .. إلقاء روحيا بالذات .. ماديا بالصورة .. فلم
تلبث أن هرولت من سبأ في اليمن .. إلى أورشليم
بالشام ..؟

وسنرى بعد قليل .. أنها قالت .. خاضعة .. خاشعة..
مسلمة «رب إنني ظلمت نفسي .. وأسلمت مع سليمان
الله رب العالمين ..»

وهكذا كانت رحلة جنود «الرحمن الرحيم» إلى
سبأ .. رحلة موفقة .. ميمونة الطالع .. أوقفت تيارا
خاطئا .. دفع الناس إلى عبادة الشمس من دون الله .. حتى
أعادتهم جنود الآية الكريمة .. إلى عبادة الله وحده .. وهو

لكل شيء حقيقة .. ولكل شيء صورة .. ولا قيمة
ولا تأثير للصورة .. إذا فقدت حقيقتها وروحها..
وكذلك كلام الله - سبحانه وتعالى .. فالمصحف ..
والورق .. والحروف .. والكلمات .. والآيات .. والصور..
والألفاظ .. كلها صورته .. وليست حقيقته ..

فهل يتصدع الجبل ويخشع .. لو أنزلنا عليه من طائفة
مئات المصاحف .. أو سلطنا عليه آلاف القراء .. يتلون
عليه القرآن تلاوة حرفية .. مجردة من القوى الروحية
الفعالة ..؟ مع أن الله تعالى يقول: «لو أنزلنا هذا القرآن
على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله» .. ويقول
عنه أيضا .. من ناحية الفعل والتأثير: «ولو أن قرأنا
سيرت به الجبال أو قطعنا به الأرض أو كلم به الموتى»
وهذا شرط جوابه محذوف .. فالقرآن بروحه وحقيقته
يسير الجبال .. ويقطع الأرض .. ويكلم به الموتى: «بل لله
الأمر جميعا» ..

وقد وأيناه - صلى الله عليه وسلم - ليلة الهجرة .. يبدأ
عند خروجه بأول سورة «يس» .. ولا يكاد يأتي منها عند قوله
تعالى: «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا
فأغشيناهم فهم لا يبصرون» .. حتى قامت جنود الآية
بوظيفتها ومهمتها .. فغشيت أبصار أربعين متآمرا - فنى جلدا
- وقفوا بباب حجرته - عليه السلام - يحمل كل منهم سيفا
بشارا .. وكانوا قد أصروا وأسروا أن يقتلوه بضربة رجل

الذى يملك وحده سعادة الإنسان.. متى سبقت له الحسنى.. وكان من المؤمنين..

خرجت بلقيس من سبأ.. بعد أن احتفظت بعرشها.. فى مكان أمين.. وأقامت عليه حراسا.. مدفوعة بفعل تلك القوات القرآنية.. لأن الأمر فيها.. بعدم التعالى.. وإتيانه مسلمين..

ولعل يقين سليمان.. وإيمانه بتنفيذ ما أمر.. وثقته بأنهم فى الطريق إليه مسلمين.. جعله يلتفت إلى ملته.. ويقول : « يا أيها الملأ أياكم يأتينى بعرشها.. قبل أن يأتونى مسلمين » ٣٨ النمل..

واختلف المفسرون فى السبب الذى من أجله طلب سليمان إحضار عرشها.. وخرجوا لذلك أسبابا كثيرة.. منها أنه أراد الاستيلاء على العرش قبل أن تسلم.. فلا يكون من حقه الاستيلاء على أموالها.. ومنها : ليربها قدرة الله.. ويجعله دليلا على نبوته.. لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب..

ومنها : أنه أراد أن يختبر صدق الهدهد.. لما قال : « ولها عرش عظيم »..

ورأى آخر فى أغلب كتب التفسير.. تقول : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان.. فيولد له منها.. فيظلمون فى السخرة لنسله - عليه السلام - فقالوا له : فى عقلها خيل.. ورحلها كحافر الحمار.. فأراد أن يختبر عقلها بتغيير العرش.. ويرى رحلها بإقامة الصرح (١) ولعل العقل لا يقبل كل هذه الأسباب بسهولة .

وإنما رأى الذى تطمئن إليه : أن سليمان - عليه السلام - كان حكيما.. أراد أن يعرف أخلاق تلك المرأة.. قبل وصولها إليه مسلمة.. وهو بنور النبوة.. يستطيع أن يعرف شخصيتها.. ويسبر أغوارها.. ويقف على طباعها من منظر عرشها وتركيبه وألوانه فاللون فى الأثاث واللباس يكشف كثيرا من ميول صاحبه وسجاياه.. لذوى البصائر.. وأولى الفراسة.. من المؤمنين..

قال ابن عطية: ظاهر الآيات أن هذا القول من سليمان بعد مجئ هديتها.. ورده إياها..

مباشرة.. (٢) ويقول بعض المفسرين جلس سليمان على سرير ملكه فرأى رهجا (٣) قريبا.. فقال: ما هذا قالوا: بلقيس يا نبي الله.. قال أوقد نزلت منا بهذا المكان؟.. قالوا: نعم.. فقال لجنوده: أياكم يأتينى بعرشها.. قبل أن يأتونى مسلمين (٤) «قال عفريت من الجن أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك.. وإنى عليه لقوى أمين» ٣٩ / النمل.. قوى على حمله.. أمين على نفائسه ودرره.. والعفريت من الشياطين: القوى المارد.. قالوا: إن اسمه ذكوان.. أو دعوان.. وقال ابن عباس: هو صخر.. وفى الصحيح عن أبى هريرة.. قال. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: - إن عفريتا من الجن.. جعل يفتك على البارحة.. ليقطع على الصلاة.. وإن الله أمكننى منه.. فدعته «أى دفعته دفعا..

وفى البخاري.. «تفلت على البارحة» بدلا من «جعل يفتك على» وفى الموطأ.. عن يحيى بن سعيد.. أنه قال: أسرى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرأى عفريتا من الجن يطلبه.. بشعلة من نار.. كلما التفت رسول الله.. رآه.. فقال جبريل أفلا أعلمك كلمات تقولهن.. إذا قلتين.. طفئت شعلته.. وخر لفيه؟.. فقال - صلى الله عليه وسلم - بلى.. فقال «أعوذ بالله الكريم.. وبكلمات الله التامات.. التى لا يجاوزهن بار ولا فاجر.. من شر ما ينزل من السماء.. وشر ما يخرج منها (هـ) وشر ما ذرأ فى الأرض.. وشر ما يخرج منها ومن فتن الليل والنهار.. ومن طوارق الليل والنهار.. إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن».

فالعفريت من الجن.. يريد أن ينقل العرش.. قبل أن يقوم سليمان من مكانه.. وكانت تلك المدة كبيرة.. عند الذى عنده علم من الكتاب.. «قال الذى عنده علم من الكتاب.. أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك»؟ ٤٠ النمل.. فمن هو الذى عنده علم من الكتاب؟.. وأى كتاب هذا؟..

اختلفوا فيه أيضا.. فقال جبريل - عليه السلام - أو ملك أيد الله به سليمان.. أو عبيد

(٢) القرطبي ٣٨ / النمل.

(٤) القرطبي والنيسابورى ٣٨ / النمل.

(١) من كل التفاسير ٣٨ / النمل.

(٣) غبارا.

(٥) والزيادة من الموطأ.. نقلا عن القرطبي ٣٩ / النمل.

صالح من بنى إسرائيل.. أو الخضر.. أو هو سليمان نفسه وأغلب المفسرين.. على أنه.. آصف بن برخيا.. كاتب سليمان.. وأمين سره.. وكان صديقا عالما.. غير أننا نعتقد أنه واحد من اثنين.. فإما أن يكون سليمان.. أو وزيره وصديقه.. آصف بن برخيا.. وبما أن الخطاب في عبارة «أنا أتيتك به» موجه إلى سليمان.. لزم أن يكون القائل هو آصف بن برخيا..

فالكتاب المقصود هنا.. هو الكتاب الذي حملة الهدهد.. ليلقيه على بلقيس.. والذي عنده علم منه.. علم بما فيه من جنود وقوات.. هو سليمان – عليه السلام – وكاتبه وأمين سره.. آصف..

يقول اليبضاوي: كأن سليمان.. استبطأ الزمن.. الذي حدده العفريت.. أو أراد إظهار معجزة نقله.. فتحدثهم أولا.. ثم أراهم أن يتأتى له ما لا يتأتى لعفاريت الجن.. فضلا عن غيرهم.. أه..

وما كانت تلك الجنود.. التي لا قبل لهم بها.. سوى المعاني الفعالة.. التي ألقيت إليهم إلقاء.. يحمل صورته كتاب منسوب في مطلعته إلى سليمان.. وفي حقيقته إلى الله الرحمن الرحيم.. الذي لا يريد برحمته.. أن يدمر قوما.. منى استجابوا لدعوته.. وما كانت «بسم الله الرحمن الرحيم» من عند سليمان بن داود – صاحب الزبور – فهي لم ترد بهذا النص في الزبور.. وليست شعارا عند اليهود.. ولا عند المسيحيين.. لأن شعارهم «باسم الرب الإله» أو باسم الأب والابن والروح القدس.. إله واحد.. آمين.. الخ..

وإنما استعار سليمان – بسم الله الرحمن الرحيم – من صاحب السلطان الأوحد.. على ورثة العاديين في اليمن.. الذين هم من شعب إمامه الأعظم: محمد – صلى الله عليه وسلم – الذي اختصته العناية الإلهية.. من الفيض الكريم.. والذكر الحكيم.. بمزية الافتتاح «بسم الله الرحمن الرحيم» وجاءت تاجا لسور القرآن الكريم كلها.. إلا سورة التوبة.. لأنها تحوى الإنذار..

فإذا كان نقل العرش.. من اليمن إلى الشام.. يحتاج إلى زمن – أى زمن – فإنه لا ينقل شيئا من مكان إلى مكان – فوق قانون

الزمن – إلا الذي خلق المكان.. وقدر الأوان.. لأنه وحده المهيم الذي «وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» في غير زمن.. مهما قل.. وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر.. «أو هو أقرب» أى أن لمح البصر.. يتألف من التقاء الهدبين وانفصالهما بالبصر.. وهما جزءان من الزمن.. وقدرة الله تعالى – لانتأخر جزءا أول.. ثم تتحقق في الجزء الثانى.. لأن هذا يعتبر عجزا في اللحظة الأولى.. وهو محال على الله تعالى.. فلزم انتفاء الزمن لزوما رياضيا..

ولهذا قال «قبل أن يرتد إليك طرفك» وهي صريحة في أنها لا تشمل زمن ارتداد الطرف.. بل قبله.. يعنى بغير زمن مطلقا.. وما كان هذا الذى عنده علم من الكتاب.. والذي هو «بسم الله الرحمن الرحيم»..

**لاباسم زيد.. ولا اسم عمرو
ولا اسم بكر.. ولا اسم خالد
بل باسمه.. وحده تعالى
وجل في سائر المشاهد
لأنه وحده.. تجلى
ومالك الكون بعد واحد
وقوله كن بغير لفظ
وغير حرف عليه وارد
بل أنه قوة وفعل
لقوله الحق.. وهو شاهد**

وبهذا المعنى.. نجد أن ما ذكر في بعض كتب التفسير.. حول هذا الموضوع.. يحتاج إلى إعادة النظر.. من حيث مفهوم معنى الكتاب.. الذى قالوا عنه: إنه «اللوح المحفوظ» أو «أم الكتاب الذى به جميع المقدورات»..

ولاحق لنا فى أن نتحدث عن «أم الكتاب».. أو أن نتصور أن أحد من العالمين يعلمها – ولا جبريل – فهذا الاسم من السمعيات.. التى يجب الإيمان بها تسليما مطلقا.. وتفويضا كاملا.. إلى علم العليم الحكيم: «وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم»..

وإعادة النظر أيضا.. من حيث زمن نقل العرش.. فلا زمن مطلقا.. إذا فهمنا معنى: «قبل أن يرتد إليك طرفك» فهو ليس مدة إرتداد الطرف ولكن قبله.. ولهذا قيل «وأمره بين الكاف والنون» فالكاف والنون حرفان.. يحتاج كل حرف منهما – إلى زمن فى نقطة.. فكان الأمر بينهما.. لإلغاء الزمن..

قال القرطبي: أكثر المفسرين.. على أن الذى عنده علم من الكتاب.. آصف بن برخيا.. وكان صديقا.. يحفظ اسم الله الأعظم.. الذى إذا سُئل أعطى.. وإذا دُعِيَ به أجاب.. وهو «ياحى ياقيوم.. ياذا الجلال والإكرام» كما ورد فى حديث عائشة — رضى الله عنها — وقال ابن عطية: قالت فرقة.. هو سليمان — عليه السلام.. والمخاطب هو العفريت لما قال: «أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك».. واستدلوا على ذلك بقوله: «هذا من فضل ربي»..

وتقول التفاسير: انخرق بعرش بلقيس مكانه.. ثم نبع بين يدي سليمان.. فإذا كانت «ثم» تفيد الترتيب الزمنى — بل مع التراخي — فنحن نرفضها.. ويقول القرطبي: (ويتصور ذلك.. بأن يعدم الله الجوهر.. فى أقصى الشرق ثم يعيده فى أقصى الغرب.. أو يعدم الأماكن المتوسطة ثم يعيدها).. وقال المفسرون أيضا: رأى سليمان العرش.. مستقرا عنده.. من مأرب إلى الشام.. فى قدر ارتداد الطرف.. ولعلنا الآن قد صححنا مفهومنا عن الزمن.. فليس قدر ارتداد الطرف.. ولكن قبل هذا الارتداد.. بحسب النص القرآنى.. وفرق كبير بين المعنيين..

«فلما رآه مستقرا عنده.. قال هذا من فضل ربي.. ليبلونى.. أشكر أم أكفر.. ومن شكر.. فإنما يشكر لنفسه.. ومن كفر.. فإن ربي غنى كريم» ٤٠ / النمل.. عليك سلام الله ياسليمان.. دائما الشكر نصب عينيك.. ليكون شكرك.. لا ينفى ولا يتيسر لأحد سواك.. كما أوتيت ملكا لا ينفى ولا يتيسر لأحد سواك..

وبحقا «من شكر فإنما يشكر لنفسه» أى لا يرجع نفع ذلك إلا إليه هو.. حيث استوجب بشكره.. تمام النعمة.. ودوامها.. والمزيد منها.. وقيل.. الشكر قيد للنعمة الموجودة.. وصيد للنعمة المفقودة..

وقال الواسطى.. فى تفسير النسفى: ما كان منا من الشكر.. فهو لنا وما كان منه من النعمة.. فهو إلينا.. وله المنة والفضل علينا..

وفى كلام بعض المتقدمين: إن كفران النعمة بوار.. واعلم أن سبوغ نعمة الله.. زائل عما قريب.. إذا أنت لم ترج لله وقارا..

«والله غنى كريم».. كريم بالإنعام على من يكفر بنعمته.. والمخلصون من عباد الله.. يتلقون النعمة القادمة بحسن الشكر.. كما يشيعون النعمة المودعة بجميل الصبر..



٦ إسلام بلقيس

أتهتدى» إلى تلك الرمزيات.. إن كانت ذكية لمأحة.. «أم تكون من الذين لا يهتدون»؟ ٤١ / النمل..
ووصلت بلقيس — كما قدمنا — مدفوعة بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» فأنت ومعهما ملوك قومها وعظماؤهم..
أذلة صاغرين..

واستقبلها سليمان.. بقوله «أهكذا عرشك»؟..
وفى كلمة «أهكذا» لطيفة.. فهى كلمة واحدة..
تضم أربع كلمات: الألف للاستفهام.. والهاء للتنبيه..
والكاف للتشبيه.. وذا اسم إشارة.. فقالت: «كأنه هو»..
لم تفهم غرضه.. ولم تلمح رمزياته ولكنها قالت..
تدليلاً على خضوعها.. واستسلامها «وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين» ٤٢ / النمل..

والإيمان ذكاء.. وفطنة.. ولماحة.. وفراسة.. وبعد نظر.. انظر معى إلى تعليق الله — سبحانه — فى هذا الموقف يقول: «وصدها ما كانت تعبد من دون الله.. إنها كانت من قوم كافرين» ٤٣ / النمل..

ونظر سليمان.. بفراسة المؤمن.. إلى كرسى بلقيس.. «واتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله»..
فرأى قوائمه.. من الذهب.. ولون الذهب أصفر.. وهو رمز للموت.. فعلم أن فى قلبها قسوة.. وغلظة.. وبفظة.. ورأى ديباج الكرسى.. ذا لون أحمر.. وهو لون الدم.. فعلم أنها حربية.. مولعة بسفك الدماء..
تقود جيشها فى الحروب.. ولا يؤثر فيها بمنظر الدم المسفوح.. فقال للجن: «نكروا لها عرشها» أى غيروا تلك الألوان ودعوه على حالته..

فاجعلوا القوائم الذهبية الصفراء.. فضية بيضاء.. يريد أن يرمز لها.. أنك امرأة.. والمرأة لا تتناسب معها القسوة والغلظة الممثلة فى لون الذهب الأصفر.. وإنما يناسبها الرحمة.. والصفاء.. والنقاء.. التى يرمز إليها لون الفضة.. الأبيض..

واجعلوا من القطيفة الحمراء.. قطيفة خضراء.. رمزا لها.. إلى أن الأثنى.. لا علاقة لها بالحروب.. ومنظر الدماء التى يرمز لها باللون الأحمر.. وإنما هى للأُمومة والحنان والحب.. وكلها تتمثل فى اللون الأخضر «ننظر

وقراءة سعيد بن جبير « أنها كانت من قوم كافرين »
بفتح الهمزة (١) أى صدها عن فهم رمزيات سليمان —
عليه السلام — أنها كانت من قوم غير مؤمنين.. وأن
على قلوبهم صداً الشوك وغلاسته.. وحجبت ظلمات
الكفر.. نور الفؤاد.. فحسبته داخل زجاجة مشكاة
الصدر.. لا ينفذ منها النور.. ولا ترى البصيرة.. «وتراهم
ينظرون إليك وهم لا يبصرون».. «ومنهم من ينظر
إليك.. أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون»..
«فإنها لاتعمى الأبصار ولكى تعمى القلوب التى فى
الصدور»..

وهكذا عميت بصيرة بلقيس.. عن فهم ما يريد
سليمان — عليه السلام — فابتسم ابتسامة عريضة..
وطلب من الجن اختباراً آخر لها.. فأقاموا في الحال
حماماً.. أرضه من زجاج خاص.. من طبقتين.. بينهما
فراغ.. وفي هذا الفراغ.. ماء يسبح فيه السمك..
سلطت عليه أنفاس الشياطين.. فسرت فيه سريان التيار
الكهربائي.. فصار كأنه لجة موج فى نظر الرائي..

وطلب منها سليمان أن تدخل هذا الحمام.. «قيل لها
ادخلى الصرح».. فلما رآته حسبته لجة.. وكشفت عن
ساقبها.. قال إنه صرح مرمد من قوارير» وهنا أدركت
بلقيس.. وفهمت.. أن سليمان يختبر ذكاءها.. فتقدمت
إليه خاشعة خاضعة.. وقالت: «رب إنى ظلمت نفسى
وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» ٤٤ / النمل..

ولعل هذا التخريج.. وهو جديد — على ما أعتقد —
يقنعنا ويغنيها عما أورده كثير من كتب التفسير.. حول
تنكير الكرسي.. واختبارها به وبالصرح.. مثل قولهم:
جعلوا مقدمه مؤخره.. وأعلاه أسفله لأن الشياطين قالوا:
له: إن فى عقلها خبلاً.. وإن رجلها كحافر الحمار وبها
شعر كثيف.. فاختر عقلها.. بتنكير الكرسي.. ورأى
رجلها.. لما كشفها عند دخول الصرح (٢)..
استغفر الله.. فسليمان بن داود — عليهما السلام —
أكبر من هذا كله.. وأعظم من أن تضحك عليه
الشياطين.. مع علمنا بأنها مسخرة له.. وليست ساخرة
منه.

ويروى أن سليمان.. تزوج بلقيس.. وأسكنها
الشام.. وقال البعض تزوجها.. وردّها إلى ملكها
باليمن.. وكان يأتيها عليّ الريح.. كل شهر مرة..
فولدت له غلاماً.. سماه داود.. ومات في زمانه (٣).

وفي الأخبار: أن النبي — صلى الله عليه وسلم —
قال: «كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين
ساقين.. وهى من أزواج سليمان عليه السلام فى الجنة»
فقالت عائشة رضى الله عنها — هى أحسن ساقين منى؟
فقال — عليه الصلاة والسلام —: «أنت أحسن ساقين منها
فى الجنة».. (٤) كما ذكر القرطبي والشعبي.. عن أبى
موسى: أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال
«أول من اتخذ الحمامات سليمان بن داود — فلما ألصق
ظهره الجدار فمسه حرها.. قال: قال: أواه من عذاب
النار» (٥)

وقال آخرون: إن سليمان زوّجها ذا تبع ملك
همدان..

وقال قوم: لم يرد فيه خبر صحيح.. لافى أنه
تزوجها ولا فى أنه زوجها.. فعلم هذا عند ربى.. حتى
حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذى ذكره
القشيري.. وأورده القرطبي «وهى من أزواج سليمان فى
الجنة» لا يدل على أنه تزوجها فى الدنيا..

وقد روى القرطبي حكاية عن الشعبي.. أن أناساً من
حمير حفروا مقبرة الملوك.. فوجدوا فيها قبراً معقوداً..
فيه امرأة.. عليها حلل منسوجة بالذهب.. وعند رأسها
لوح رخام فيه مكتوب:

يا أيها الأقوام عوجوا معاً

وأربعوا فى مقبري العيسا (٦)

لتعلموا أنى تلك السنى

قد كنت أدعى الدهر بلقيسا

بعلى سليمان النبى الذى

قد كان للتوراة دريسا

وسخر الريح له مركبا

تهب أحيانا روميسا

مع ابن داود النبى الذى

قدسه الرحمن تقديسا (٧)

٣١ — ص ٢

(٢) القرطبي وغيره ٤١ / النمل.

(٤) القرطبي ٤٤ / النمل.

(٦) عوجوا: أقيموا — وأربعوا العيس: أى أرعوا الإبل

(١) القرطبي ٤٣ / النمل.

(٣) من الكشف وغيره ٤٤ / النمل.

(٥) القرطبي والثعلبي ٤٤ / النمل.

(٧) القرطبي ٤٤ / النمل.

(إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد)

○ سليمان والصافنات

الجياد

الفصل الرابع

١ هل يقطع رقاب الخيل؟

ويقولون: فما بقى فى أيدي الناس.. من الخيل العناق — اليوم فهى من نسل تلك الخيل.. ذكرت هذه الرواية فى جميع كتب التفسير.. تقريبا.. باختلاف يسير فى الألفاظ ولكن الروايات كلها تؤدى هذا المعنى..

ولكثير من علماء التفسير.. تعليقات عليها بالنقد والتكذيب والإبطال.. منها ما قاله أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى.. فى كتابه «الجامع لأحكام القرآن» قال:

استدل الشبلى وغيره من الصوفية.. فى تقطيع ثيابهم وتخريقها.. بفعل سليمان هذا.. وهو استدلال فاسد.. لأنه لا يجوز أن ينسب إلى نبي معصوم أنه فعل الفساد.. كما ذكر القرطبى: أن ابن عباس قال: سألت عليا عن هذه الآية: فقال ما بلغك فيها؟ فقلت: سمعت كعبا يقول: إن سليمان لما اشتغل بعرض الأفراس.. حتى توارت الشمس بالحجاب وفاته صلاة العصر.. قال: «إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي» أى آثرت حب الخير.. «ردوها علي» يعنى الأفراس.. وكانت أربع عشرة.. فضرب سوقها وأعناقها بالسيف.. وأن الله سلبه ملكه.. أربعة عشر يوما..

هل تصدق أن سليمان قطع رقاب الخيل وسيقانها.. مسحاً بالسيف؟ .. مع أن المثل العامي، يقول: إن فلانا يقطع رقاب الخيل.. للمبالغة فى شره وأذاه.. وفجوره وفسقه.. هذا ما قاله بعض أصحاب البدع فى التفاسير.. فقالوا.. تفسيرا لقوله تعالى عن سليمان — عليه السلام — «إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد» فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب. ردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق» ٣١ — ٣٣ ص.

قالوا: غزا سليمان أهل دمشق ونصيبين.. فأصاب منهم.. ألف فرس.. وقيل: ورثها عن أبيه داود.. وكان أبوه.. قد أصابها من العمالقة.. وقيل أيضا: خرجت من البحر.. لها أجنحة.. وابتدعوا عن الكلبى ومقاتل: أن سليمان صلى الصلاة الأولى «الظهر» وقعد على كرسيه.. والخيل تعرض عليه.. وكانت ألف فرس.. فعرض عليه منها تسعمائة.. فتنبه لصلاة العصر.. فإذا الشمس قد غربت.. وفاته صلاة العصر.. ولم يعلمه أحد بذلك.. هيبة له.. فاغتم لذلك.. غما شديداً.. وطلب رد الخيل عليه.. فردت.. فعقرها بالسيف.. فقطع سيقانها وأعناقها.. وبقي منها مائة..

لأنه ظلم الخيل.. فقال على بن أبي طالب: كذب كعب.. لكن سليمان اشتغل بعرض الأفراس للجهاد.. «حتى توارت بالحجاب» أى غربت الشمس بالحجاب.. فقال - بأمر الله - للملائكة الموكلين بالشمس «ردوها» يعني الشمس.. فردوها حتى صلى العصر فى وقتها.. وأن أنبياء الله لا يظلمون.. لأنهم معصومون(١)..

كما هاجم الفخر الرازى - فى تفسيره - أصحاب هذا رأى.. لأنه سبحانه - أورد قصة داود.. ثم قصة سليمان - عليهما السلام - : فى هذا المقام .. بعد قوله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - «اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود»... إلى آخر الآيات.. ومعنى هذا - أن ما أتاه داود وسليمان.. كانت أعمالا فاضلة.. وأخلاقا حميدة وصبرا على طاعة الله.. وإعراضا عن الشهوات واللذات..

ثم قال الرازى: وأنا شديد التعجب من الناس.. كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة.. مع أن الثقل والعقل يردانها؟.. وليس لهم فيها شبهة.. فضلا عن حجة؟.. وعسى أن يكون القارئ الكريم .. مازال يذكر رواية ذكرتها - مع التحفظ فى موضوع -

سليمان والريح - هذه الرواية نسبوها إلى الحسن - رضى الله عنه - تقول: شغلت سليمان الخيل.. حتى فاتته صلاة العصر.. فعقر الخيل.. فأبدله الله خيرا منها وأسرع.. أبدله الريح تجرى بأمره حيث شاء.. غدوها شهر ورواحها شهر..

ولعل القارئ.. يعلم الآن لماذا تحفظت فى ذكرها.. فلاشك أن تلك الروايات كلها.. من بدع التفاسير..

وإن كان بعضهم.. يعلل هذا.. بأن قتل الخيل.. لم يكن إفسادا من سليمان لأن الخيل كان مأكولة فى شريعته.. والبعض الآخر يقول: إنه قدمها قربانا لله تعالى..

ولكن كل هذه .. تعليقات.. يظهر فيها التكلف والمغالطات المنطقية.. التى لا يجوز أن تكون مجالا للمناقشة العلمية..

أما ترى معنى أن قتل الخيل بتلك الصورة .. إفساد للمال.. ومعاقبة من لا ذنب له؟..

ويقول القشيري(٢): ما كان فى ذلك الوقت صلاة الظهر.. ولا صلاة العصر..



٢] سليمان يعبد :. ولا يفسد

لقد جعلوا من عبادة سليمان لربه.. فى جميل خلقه
إفسادا..

وأبدلوا تأمله وحنانه.. إتلافا وقسوة..
ووضعوا المعاني النبيلة السامية.. فى غير موضعها..
لتخدم أغراضهم.. وتحقق مقاصدهم فى إيذاء رسل الله
الكرام.. وإسناد مالا يجوز إسناده إليهم..
ويجدر بنا أن نعرض الآيات.. لتتظرف فيها بنور الله -
إن شاء الله - بعد أن نظهر نفوسنا من أدران الشرك..
ونصفى قلوبنا من نوازع الشك.. ونكون أهلا لسريان
المعاني العليا فى صدورنا..

«وهبتا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب.. إذ
عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد.. فقال إني أحبيت
حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب.. ردوها
على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق» ٣٠ - ٣٣ ص..
ولعلنا نلمح فى مطلع الآيات.. مدح الله - سبحانه -
- لسليمان بقوله: «نعم العبد».. مسبباً ذلك.. بأنه
أواب.. والأواب: كثير الرجوع إلى الله أو كثير
التسبيح.. فالمسيح مؤوب.. وكل مؤوب أواب.. ومنه
قوله تعالى: «يا جبال أوبى معه والطير».. أى سبّحى..

ومن الواضح محاولتهم تجريد سليمان - عليه
السلام - من الفضل.. فيقولون: إن قول الله - تعالى:
«نعم العبد إنه أواب» يقصد بهذا المدح داود - عليه
السلام - ونسوا.. أو تناسوا.. أن الله - سبحانه - ذكر
تلك الصفة أيضاً عن داود من قبل هذا.. فى نفس المقام
وفى نفس السورة.. واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب»
١٧/ ص فما الداعى لتكرارها بعد الانتهاء من ذكر
داود.. والبدء فى ذكر سليمان؟.. إلا إذا كان المقصود
بها سليمان.. لا داود؟.. ولكن الأغراض الخبيثة.. تدفع
إلى المكابرة.. والجدل بالباطل.. وتطويع المعانى.. لخدمة
تلك الأغراض..

كان سليمان - عليه السلام - محباً للجهاد
والحرب.. فى سبيل إعلاء كلمة الله.. ونشر دينه فى كل
بقاع الأرض..

ورباط الخيل.. من أول دعائم الجهاد.. فكانت عنده
فصائل الخيول العراب.. الصافنات الجياد.. وقيل
سميت الخيل عراباً.. لأنه جئ بها.. من بعد آدم
لإسماعيل.. جزاء عن رفع قواعد البيت.. وإسماعيل
عربى.. فصارت له منحة من الله فسمى الفرس

عربيا (١).. والفرس الصافن.. هو الذى يقف على طرف حافر يد أو رجل.. حتى يقوم على ثلاث:

ويقول عمرو بن كلثوم:
تركنا الخيل حاكفة عليه
مقلدة أعتتها صفونا

كما يقول شاعر آخر:
ألف الصفون فما يزال كأنه
بما يقوم على الثلاث كسيرا (٢)

والصافن من الرجال: الذى يجمع بين يديه على صدره..

وفى هذا يقول — عليه الصلاة والسلام:

«من سره أن يقف الناس له صفونا.. فليؤأ مقعده من النار» (٣).

والصفن من الصفات الممدوحة فى الخيل.. إذ لا يكون إلا فى العرباب الخالص وقد وصف الله سبحانه — خيل سليمان «بالصفانات الجياد».. والجياد من الخيل: طويلة الأعناق.. من الجيد.. وهو العنق.. لأن طويل العنق منها.. من صفات الفراهة والجمال.. أو الجياد من الجودة والسرعة والخفة فى الجرى..

وقد جمع الله لها بين صفتى الصفن والجودة.. فهى ممدوحة فى وقوفها وفى جريها.. كما قال صاحب تفسير النسفى: إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة.. وإذا جرت كانت سراعا خفقا فى جريها..

أمر سليمان — عليه السلام — باستعراض الخيل.. استعدادا لغزوة من غزواته.. ومرت أمامه مئات الخيول العرباب الأصلية.. فى عزم وجمال.. وأخذته نشوة المنظر.. وقوة المخبر.. حتى مرت جميعها.. وتوارت عن بصره خلف الجدر البعيدة حول الميدان.. وتذكر سليمان أن نظره فى تلك المرة.. كان منصبا على الناحية المادية فقط من جهة الخيل.. وأنها خير.. ومال.. وعز.. فقال فى نفسه:— كان الأولى.. ذكر الله فى جمال تركيبها.. وبديع تصويرها.. وفائق روعتها..

وتلك صفة المؤمن.. يعبد الله فى كل شئ.. فى الهواء الذى يتنفسه.. وفى الماء الذى يشربه.. وفى الطعام الذى يتناوله.. وفى الدابة التى يركبها.. وفى كل شئ خلقه الله.. يقع نظره عليه..

هذا من المؤمن.. فما بالك بنبي الله سليمان؟.. ولهذا قال بعض المفسرين: «إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربي» قالوا: الخير يغنى الخيل.. والعرب تسميها كذلك.. قال الفراء: الخير والخيل فى كلام العرب واحد..

وفى الحديث: «الخيل معقود فى نواصيها الخير».. وفى الحديث أيضا: لما وفد زيد بالخيل.. على النبی — صلى الله عليه وسلم — قال له: أنت زيد الخير... وهو زيد بن مهلهل الشاعر..

وفى الخبر: أن الله تعالى.. عرض على آدم جميع الدواب.. وقيل له: اختر منها واحدا.. فاختار الفرس.. ف قيل له: اخترت عزك فصار اسمه الخير من هذا الوجه (٤).

وعاد سليمان — عليه السلام — إلى طبيعته الأصلية فى الشكر.. الشكر الذى نراه يلازمه فى كل صغيرة وكبيرة من نعم الله عليه.. فينادى «ردوها» ردوا الخيل على.. فقد نسيت أن أذكر مبدعها.. ومصورها.. ومنشئها.. وأعادوها عليه..

يقول الزهرى وابن كيسان:

كان يمسخ سوقها وأعناقها.. ويكشف الغبار عنها.. حبا لها...

وقال ذلك الحسن وقتادة، وابن عباس (٥) ولا شك أن هذا هو الرأى.. فصار يمسخ بيده.. سوق الخيل.. وصدورها.. وأعناقها.. وهذا من عادة هواة الخيول العربية.. حبا.. وتأملا.. وإعجابا بكمال خلق الله.. وجمال إبداعه..

(٢) ذليلا.

(٤) القرطبي ٣٢/ص.

(١) القرطبي ٣١/ص.

(٣) الكشاف والقرطبي ٣١/ص.

(٥) القرطبي وغيره ٣٣/ص.

وفي الحديث: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رُئِيَ وهو يمسخ فرسه برذائه.. وقال «إني عوتبت الليلة في الخيل» أخرجه الموطأ عن يحيى بن سعيد مرسلًا والحديث في غير الموطأ مسند متصل عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس.. قوله.. عن الخيل «امسحوا بنواصيها وأكفالها» (١).

وهنا يتضح معنى «فطفق مسحًا بالسوق والأعناق»...

وبقى رأى.. أريد أن أسمه مسًا خفيفًا.. حتى يكون القارئ على علم بجميع الأراء.. وهو رأى هؤلاء الذين قالوا: طلب رد الشمس بعد غروبها بالحجاب.. وردّها الله - سبحانه - إليه فصلى العصر حاضرا.. وأغلب هؤلاء... وروطوا أنفسهم.. في كثير من بدع التفسير... فقالوا: اتفق مثل ذلك لنبينا - عليه الصلاة والسلام.

فخرج الطحاوي في مشكل الحديث.. عن أسماء بنت عميس من طريقتين: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يوحى إليه.. ورأسه في

حجر على.. فلم يصل العصر.. حتى غربت الشمس.. فقال - صلى الله عليه وسلم: «أصليت يا علي؟» قال: لا.. فقال - صلى الله عليه وسلم - «اللهم إنه في طاعتك - وطاعة رسولك.. فاردد عليه الشمس» قالت أسماء: فرأيتهما غربت.. ثم رأيتهما بعد ما غربت.. طلعت على الجبال والأرض.. وذلك بالصهباء في خيبر..

قال الطحاوي: وهذان الحديثان ثابتان (٢)..
ورواتهما ثقة.. ولكن القرطبي: قال تعليقًا على هذا الحديث: قلت: وضعف أبو الفرج بن الجوزي هذا الحديث: فقال: (وغلو الرافضة في حب علي - عليه السلام (٣) - حملهم على أن وضعوا أحاديث كثيرة في فضائله.. منها أن الشمس غابت - ففادت الصلاة عليا - عليه السلام - فردت له الشمس.. وهذا من حيث النقل محال.. ومن حيث المعنى: فإن الوقت قد فات.. وعودها طلوع متجدد.. لا يرد الوقت..



(٢) لعله يقصد بالحديثين.. قوله من طريقتين.

(١) القرطبي ٢٣/ ٥.

(٣) هكذا في القرطبي ٣٣/ ص.

« وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس
السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت »
(١٠٢ - البقرة)

○ هاروت وماروت

الفصل الخامس

١١ الشياطين يسترقون السمع

كلها ثم يضمنون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها.. فيها من أفانين السحر والشعوذة.. ألوان وفصول وأبواب وطلاسم.. ويلقونها إلى الكهنة.. فيكتبها هؤلاء في كتب.. يقدمونها إلى الناس.. فأغرت هذه الكتب الجهلة والسفلة منهم.. وصاروا يقرأونها.. ويتعلمون منها.. ويعملون بما فيها وهجروا ما أنزل الله في التوراة والزبور.. وأوحت إليهم شياطينهم.. بعد موت سليمان — عليه السلام — أنه كان يسخر الإنس والجن والريح والطير.. بما في تلك الكتب من سحر وطلاسم..

قال محمد بن إسحاق: لما ذكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سليمان في المرسلين.. قال بعض أحبار اليهود: يزعم محمد أن ابن داود كان نبيا.. والله ما كان إلا ساحرا(١).. واليهود لا يعترفون بنبو سليمان.. ولكنهم يقولون عنه — سليمان الحكيم — فأنزل الله — سبحانه: — «واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان.. وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر» ١٠٢ / البقرة.

قلنا في قصة إمام الصابرين أيوب عليه السلام «.. كان إبليس يقف من السماوات حيث شاء.. لا يحجب عنها.. ولا يعوقه شيء عن التجول في أرجائها...»

ومن هناك.. وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنة.. ولم يزل هو وقبيله يصعدون إلى السماء حيثما أرادوا.. حتى رفع الله تعالى عيسى — عليه السلام — فحجب الشياطين عن أربع سماوات.. فكانوا لا يقعدون إلا في ثلاث.. لهم منها مقاعد للسمع...

فلما بعث الله محمدا — صلى الله عليه وسلم — حجبوا عن الثلاث الباقية.. فهم محجوبون عن جميع السماوات.. إلى يوم القيامة.. «وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا» ٩ / الجن..

والتكلمون في هذه الآية هم الجن.. واستغل الشياطين — عصر سليمان — عليه السلام — فكانوا يسترقون السمع في السموات

(١) القرطبي ١١٢ / البقرة.

وملك في تلك الآية بمعنى عهد وزمن سليمان.. وهذا المعنى الذى قدمناه حول هذه الآية.. هو المعنى الذى اطمأن إليه القلب بعد جولة مضنية بين كتب التفسير وفيها الكثير من الأشواك التى تلازم الورود والأزهار.. أعرضُ بعضها بإيجاز على القارئ.. ليحس بنفسه ملامسة الأزهار.. من وخز الأشواك..

فقد قرأت فى تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن».. وفى قصص الأنبياء.. لأبي إسحاق الثعلبي وغيرهما..

وقال أهل التفسير: كتبت الشياطين السحر والنرجيات (١) على لسان آصف بن برخيا كاتب سليمان.. «هذا ما علم آصف بن برخيا.. سليمان الملك».. ثم دفنوها تحت مصلاه أو تحت كرسیه حتى انتزع الله ملكه (٢) .. ولم يشعر بذلك سليمان.. فلما مات.. استخرجوها.. وقالوا للناس: ما ملككم سليمان إلا بهذا..

وقال السدي: إن شيطانا .. تمثل على صورة إنسان.. فأتى نفرا من بنى إسرائيل.. فقال لهم: هل أدلكم على كنز لا يفنى أبدا؟ قالوا: نعم.. قال: فاحفروا تحت كرسی سليمان.. وذهب معهم.. فأراهم المكان.. وقام ناحية.. فقالوا له: ادن.. فقال: لا.. ولكنى ههنا.. فإن لم تجدوه.. فاقتلوني.. وذلك أنه.. لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسی.. إلا احترق (٣) فوجدوا تلك الكتب..

فلما أخرجوها.. قال الشيطان: إن سليمان كان

يضبط الإنس والجن والشياطين والطير بهذا.. ثم طار الشيطان.. وذهب.. فأما علماء بنى إسرائيل وصلحاؤهم.. فقالوا: معاذ الله.. أن يكون هذا علم سليمان.. فإن كان هذا علمه.. فقد هلك سليمان.. وأما سفاؤهم.. وجهالهم.. فأقبلوا على تعلمه.. ورفضوا كتب أنبيائهم.. فأنزل الله — سبحانه — هذه الآية إظهارا لعذر سليمان.. وبيانا لبراءته.

ولعل شوكة حادة قد وخرتنا.. فى قولهم: إن الشياطين دفنوا هذه الكتب تحت كرسی سليمان.. حين «انتزع الله ملكه».. وقد كذبنا — سابقا — فكرة نزع ملك سليمان — تكذيبا قاطعا.. فى موضوع «فتنة سليمان».. كما كذبها غيرنا من أولى العلم.. وفقهاء المفسرين.. لما صحبها من خرافات.. لا تقبل عقلا ولا نقلا فمن شاء.. فليرجع إليها.. والشياطين الذين يعلمون الناس السحر.. قد يكونون من الجن.. وهو مفهوم الآية.. وقد يكونون من الإنس المتمردین فى الضلال.. وذلك كقول جرير:

أيام يدعو ننى الشيطان من غزلى

وكن يهويننى إذ كنت شيطانا
فقال الله تعالى «ولكن الشياطين كفروا» باستعمال السحر.. وتدوينه.. ونشره بين الناس.. بعد أن كذب الله اليهود والشياطين.. فيما يزعمون عن سليمان.. من اعتقاد السحر.. وتدوينه والعمل به.. حيث قال — سبحانه — «وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر» فجعل — سبحانه — تعليم السحر كفرا.. فهل السحر حقيقة؟ وما حكم الإسلام فيه؟..



(١) الطلاسم السحرية

(٢) أثبتنا أن زوال ملك سليمان خرافة «فصل فتنة سليمان».

(٣) وهذه العبارة دليل على كذب الرواية التى تقول: إن الشياطين دفنوا الكتب تحت الكرسی.

٢ السحر

قال عامة المعتزلة:

أصل السحر أنه تمويه بالحيل والتخايل.. بأن يفعل الساحر أشياء ومعانى.. فيخيل للمسحور.. أنها بخلاف ما هي عليه.. كالذي يرى السراب بعيدا.. فيخيل إليه أنه ماء.. وكراكب القطار.. يخيّل إليه أن ما يرى من الشجر والأعمدة تسير.. فقالوا: إن السحر.. لاحقيقة له.. وإنما هو إيهام.. لكون الشيء على ما هو عليه.. وأنه ضرب من الخفة والشعوذة.. واستشهدوا على صدق رأيهم بقوله: «يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى» (١) ولم يقل — سبحانه — أنها تسعى على الحقيقة.. وإنما قال: «يخيّل إليه».. وبقوله أيضا: «سحروا أعين الناس» (٢) .. فجعل السحر في العين.. وسحر العين تمويه وتخايل..

ولكن علماء السنة.. أكدوا وجود السحر.. وقالوا: أن التخيل من جملة السحر..

وقد ثبت أن وراء التخيل والتوهم.. أمورا جوزها العقل.. وورد بها السمع.. فمثلا الآية التي نحن بسبيلها.. تثبت أن هناك سحرا.. وتعلّما له.. ولو لم يكن حقيقة.. لم يمكن تعلّمه.. وأخبر الله — سبحانه — أنهم يعلمونه الناس.. كما أن الله جل شأنه قال عن سحرة فرعون «وجاءوا بسحر عظيم» (٣) .. ولعل خير دليل على حقيقة السحر.. ما اتفق عليه المفسرون في سبب نزول سورة الفلق (٤) .. ما كان من سحر لبّيد بن الأعصم.. وهو لما خرج مسلم والبخاري وغيرهما... عن عائشة — رضي الله عنها — أنها قالت: سحر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يهودي من يهود بني زريق.. يقال له: لبّيد بن الأعصم.. الحديث وفيه أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما حل السحر.. قال: «إن الله شفاني» والشفاء.. إنما يكون برفع العلة.. وزوال المرض.. فدل على أنه حقيقة وليس تمويهها.. ولاتخيلا.. وقد يتردد العقل.. في قبول هذا الحديث..

(٣) ١١٦ / الأعراف.

(٤) هذه العبارة من القرطبي ١٠٢ / البقرة

(١) ٦٦ / طه.

(٢) ١١٦ / الأعراف.

فكيف يقبل العقل بسهولة.. أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد سحر؟.. ولكن العقل يسلم به.. إذا علم أن الله - سبحانه - أراد أن يمد المؤمنين بالأسلحة المضادة.. ضد قذائف السحر والحسد.. فاتخذ من رسوله - عليه الصلاة والسلام - مثلاً عملياً في هذا.. ليوحى إليه بالمعوذات.. ليستخدمها المؤمنون فتكون لهم وقاية وحصناً - ضد آفات خطيرة في حياة الإنسان.. وظلمة الليل.. والسحر والحسد.. ووسوسة الشيطان.

وللسحر أمور خارقة للعادة.. بما ليس في مقدور البشر.. من مرض.. وتفريق.. وزوال عقل.. ومع هذا.. فنحن لانؤمن بأن السحر سبب مولد.. ولاعلة موجبة لوقوع هذا.. وإنما يخلق الله - سبحانه - هذه الأشياء.. ويحدثها عند حصول السحر.. كما يخلق الشيع عند الأكل.. والرئ عند الشرب.. والمرض عند دخول الميكروب في الحسد..

وروى سفيان عن عمار الذهبي (١): أن ساحراً.. كان عند الوليد بن عقبة.. يمشى على الحبل.. ويدخل في است الحمام.. ويخرج من فمه.. فضربه جندب بالسيف فقتله.. وهذا هو جندب بن كعب الأزدي.. وهو الذي قال في حقه.. النبي - صلى الله عليه وسلم - «يكون في أمتي رجل يقال له: جندب.. يضرب ضربة بالسيف يفرق بين الحق والباطل».. فكانوا يرونه جندباً هذا.. قاتل الساحر.

والمراد بالسحر: ما يستعان في حصوله بالشياطين.. والتقرب إليهم.. مما لا يمكن للإنسان.. أن يستقل به.. ويصنعه بنفسه.. بدون تدخل الشيطان.. ولا يكون ذلك إلا إذا كان هناك تناسب بين الساحر والشيطان.. وتوافق في الشرارة وخبث النفس.. فإن التناسب شرط في التضامن والتعاون.. وبهذا يمكن التمييز بين الساحر وبين النبي أو الولي..

يقول القاضي أبو بكر بن الطيب: لولا آيات الرسل.. لأجزنا السحر.. ومن أجل ذلك أجمعنا على منعه..

وهناك فرق كبير بين السحر والمعجزة.. فالسحر يوجد من الساحر وغيره.. بمعنى أنه قد تكون جماعة يعرفونه.. ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد.. أما المعجزة.. فلا يمكن الله أحداً أن يأتي بمثلها.. وبمعارضتها.. ثم الساحر.. لم يدع النبوة.. فالذي يصدر منه مختلف عن المعجزة.. فإن المعجزة شرطها.. اقتران دعوى النبوة.. والتحدى بها..

وقال أبو نصر عبدالرحيم الشقيري (٢): قال أبو عمرو: من زعم أن الساحر.. يقرب الحيوان من صورة إلى صورة.. فيجعل الإنسان حماراً أو نحوه.. ويقدر على نقل الأجسام.. وهلاكها.. وتبدلها.. فهذا يرى قتل الساحر.. لأنه كافر بالأنبياء.. يدعى مثل آياتهم ومعجزاتهم.. ولا يتهى مع هذا صحة النبوة.. إذ قد يحصل مثلها بالحيلة..

ولقد شاع السحر.. وذاع.. في سابق الزمان.. وتكلم به الناس.. ولم يبد من الصحابة.. ولا من التابعين.. إنكاراً له..

وروى سفيان.. عن ابن الأعرور.. عن عكرمة.. عن ابن عباس (٣) قال: علم السحر في قرية من قرى مصر.. اسمها «الفرما».. فمن كذب به.. فهو كافر.. مكذب لله ورسوله.. منكر لما علم بالمشاهدة والعيان.

وقد ذهب طائفة من العلماء.. إلى أن الساحر كافر.. يقتل ولا يستتاب.. ولا تقبل توبته.. لأن السحر كفر.. مستشهادين بقول الله - تبارك وتعالى -: «وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر»..

كما روى قتل الساحر عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وأبي موسى، وقيس بن سعد، وعن سبعة من التابعين (٤).. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم «حد الساحر ضربه بالسيف» خرجه الترمذي.. وليس بالقوى.. انفرد به إسماعيل بن مسلم.. وهو ضعيف عندهم.

(١) القرطبي ١٠٢ / البقرة.

(٢) القرطبي ١٠٢ / البقرة.

(٣) أسماء الرواة من القرطبي - والرواية في أغلب التفاسير.

(٤) القرطبي ١٠٢ / البقرة.

وقال الشيخ أبو منصور الماتريدي (١) رحمه الله:
القول بأن السحر على الإطلاق كفر.. خطأ.. بل يجب البحث عن حقيقته.. فإن كان في ذلك رد ما لزم في شرط الإيمان.. فهو كفر.. وإلا فلا. إلى أن قال: وتقبل توبته إذا تاب.. ومن قال: لا تقبل فقد أخطأ.. فإن سحرة فرعون قبلت توبتهم — أ ه — ولتوضيح عبارة الشيخ أبي منصور.. التي قال فيها «فإن كان في ذلك رد ما لزم في شرط الإيمان.. فهو كفر» أقول:

يوجد فريق من السحرة.. يسمونهم «السفلية»..
وهؤلاء يستعنون بنوع خطير من شياطين الجن.. يدعون أن بينهم وبين الله تعالى نسبا.. «وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون. سبحانه الله عما يصفون» ١٥٨ الصفات.. يشترطون على من يريد — من شياطين الإنس — أن يستعين بهم في قضاء أغراضه.. أن يجلس في مكان نجس.. وتحت كل رجل من رجليه مصحف ويقول لهم: آمنت بكم وكفرت بالله.. ونعوذ بالله من كل ذلك.. وأذكر حادثا.. حول الاستعانة بالجن وعبادتهم.. فتلك هي عبادة الجن التي وردت في قوله تعالى على لسان الملائكة: «قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون» ٤١/ سبأ.. هذا الحادث رواه لى صديق فاضل.. من أولى العلم.. وأهل الثقة: قال: كان في قرية من قرى الشرقية.. شيخ يأتي بما يشبه المعجزات.. يهابه الناس.. يتغون رضاه.. ويخشون أذاه.. فقد كان يهدد.. وينفذ ما يهدد في التو.. ومات هذا الشيخ.. وبعد تغسيله وتكفينه.. وتجهيزه للدفن.. خرج المشيعون.. خلف خشبته.. يشيعونه إلى المقابر.. وإذا بهم يجدون النعش.. وقد طار في الهواء.. يعلوا أكتاف حامله.. متخطيا تلك الجموع الحاشدة.. التي تجمعت من القرى المجاورة وجرى الناس خلفه.. مهللين مكبرين.. حتى استقرت الخشبة في مستنقع قريب.. وكان بين المشيعين.. ثرى من أثرياء القرية.. كان يشغل مركز كبيرا في القصر الملكي.. في هذا الحين.. ورأى تلك الكرامة المذهلة..

كما رآها المشيعون.. فأمر سعادته ببناء ضريح للشيخ في مكانه الذي استقر فيه.. وأوقف عليه خمسة أفدنة من أملاكه الخاصة..

ترك الشيخ طفلا صغيرا.. تربي في الأزهر.. على نفقة وزارة الأوقاف.. وكان طالبا ذكيا.. اجتاز مراحل التعليم بتفوق..

وبعد تخرجه عين مدرسا بالمعاهد الأزهرية شب الابن مؤمنا موحدا.. كثير التفكير فيما يصل إلى سمعه.. من أعمال والده وكراماته الخارقة.. ومن بين هذا أضرار كان ينزلها بمن يعارضه من الناس.. وليس هذا من أدب أولياء الله الصالحين.. فكر الابن كثيرا في طيران النعش بجنثمان أبيه.. وهل كان أبوه أكرم عند الله من الخلفاء الراشدين.. والصحاب والتابعين.. حيث لم يشهد طيران أجسادهم بعد موتهم؟.. وشغلته تلك الأفكار عن كل شيء.. فهو يريد أن يعرف تلك الأسرار التي أحاطت بوالده.. حيا وميتا..

لجأ إلى أمه في القرية.. وسألها: كيف كان أبي يعبد الله.. وأين؟.. قالت: كان يدخل خلوته.. التي مازالت مغلقة بجانب المنزل.. من يوم موته.. حيث كان يتفرغ فيها للعبادة الساعات الطوال.. في أغلب الليالي.. وقرر الابن في نفسه أمرا..

بحث في مخلفات أبيه.. وأخذ منها المفاتيح.. وقام في منتصف الليل.. ومعه مصباح كهربي صغير.. وعالج باب الخلوة.. حتى فتحه بعد جهد كبير.. لأنه لم يفتح من عشرين عاما.. ثم أغلق الباب خلفه.. وأضاء المصباح.. فوجدها حجرة ضيقة جدا.. لا تزيد على متر ونصف في مترين.. غطيت أرضها بطبقة سميكة من التراب الناعم.. من طول الزمن.. ووجد في وسطها سندانا صغيرا.. تكسوه الأتربة.. فأزال التراب عن السندان بيده.. فوجد فوقه نقوشا.. محفورة فيه.. ووجد بجانب السندان مطرقة صغيرة.. يريد تنظيفها من التراب العالق بها.. فأحدثت صوتا.. تردد في جنبات الخلوة.. فإذا به يسمع صوتا.. آتيا من جدران المكان وكان أكثر

من واحد.. لبيك وهزته رعدة المفاجأة هزة خفيفة..
لم تستغرق أكثر من ثوان معدودة. ونزلت على قلبه
سكينة الإيمان.. فقال: من أنتم؟.. قالوا: نحن أنسباء الله
وأحباؤه.. قال: وما شأنكم.. وماذا تريدون؟.. قالوا:
نحن خدام تلك الأسماء المنقوشة على السندان.. نقوم
لك بما تريد.

قال: هكذا.. بدون أى شروط لكم؟ قالوا: لنا شرط
واحد.. لو أديته.. يكون لك علينا السمع والطاعة..
قال: ما هو هذا الشرط؟ قالوا: أن تجلس على هذا
السندان.. فى مكان نجس.. وتجعل تحت كل من رجلك
مصحفا.. وتبول في إناء به لبن.. ثم تقول: آمنت بكم
وكفرت بالله.. ونظير هذا نكون تحت أمرك فى كل
شئ..

فقال فى ألم وأسى: وهل معنى هذا أنكم كنتم
تخدمون أبى؟.. قالوا نعم..

قال وهل نفذ لكم هذا الشرط؟.. قالوا نفذ لنا هذا
الشرط.. ولكنه كان يتعبنا ويزيدنا رهقا (١) بكثرة
العمل.. فانتقمنا منه.. بتلويت جثمانه فى المستنقع.. بعد
تغسيله وتطهيره. وعرف الشاب كل شئ عن أبيه
الكافر..

**وبيقين المؤمن.. صرّفهم إلى غير رجعة.. حيث دمر
السندان والمطرقة..**

ثم يقول الصديق الفاضل.. راوى هذا الحادث: لم
يمجبني فى هذا الموضوع غير خطابين متبادلين بين الابن
المؤمن الموحد.. والباشا صاحب الوقف.. نشرتهما مجلة
«الانثين» وكانت تصدر فى هذا الحين.. فقد جاء فى
خطاب الابن إلى الباشا:

لقد أوقفت سعادتك على والدى خمسة

أفدنة.. اعتقادا منك بأنه ولى من أولياء الله الصالحين..
وقد اتضح لى اليوم.. أن والدى مات كافرا.. فأرجوا
استرداد الوقف.. وهدم الضريح.. أما ما أنفق على فى
تعليمى من الوقف.. فأنا على استعداد لرده مقسطا
خصما من راتبى.

وجاء فى رد الباشا عليه.. تنازله عن الخمسة أفدنة له
شخصيا.. نظير شجاعته الأدبية.. وإظهاره الحقيقة.. مع
مرارتها.

فهؤلاء هم الذين فقدوا شرط الإيمان.. وهم الذين
ينطبق عليهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حد
الساحر ضربه بالسيف».. ويقول البيضاوى: أما ما يفعله
أصحاب الخيل بمعونة الآلات والأدوية فغير مذموم..
وتسميته سحرا على التجوز.

وقد أورد القرطبي.. رواية لفك السحر.. قال: قال
ابن بطل.. فى كتاب وهب بن منبه: أن يأخذ سبع
ورقات من سدر أخضر.. فيدقها بين حجرين.. ثم
يضره بالماء.. ويقرأ عليه آية الكرسي.. ثم يحسو منه
ثلاث حسوات (٢).. ويغتسل.. فأنه يذهب عنه كل ما
به.. إن شاء الله تعالى.. وهو جيد للرجل إذا حبس عن
أهله (٣).

وأنا أقول: إن سلاح المؤمن ضد كل هذا.. هو
المعوذات (٤).. يتلوها منفعلا بها.. واثقا من تحقق
تأثيرها.. ولن يتيسر ذلك إلا للمؤمن القوى فى إيمانه..
الواقى من فضل ربه وإحسانه.

لقد اتبع اليهود.. ما أوحى إليهم الشياطين.. من
السحر والشعوذة.. كما اتبعوا ما أنزل على الملكين ببابل
وهاروت وماروت (٥)

فمن هما هاروت وماروت؟

(١) لعل هذا معنى قوله تعالى «وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا» ٦/ الجن.

(٢) جرعات. (٣) ١٠٢/ البقرة.

(٤) الصمد - والفلق - والناس.

٣ الملكان المفتونان

رأسه.. ولم يزل بعد ذلك مطأطأ الرأس.. حياء من الله (١).

فما مر بهما شهر.. حتى افتتنا بامرأة.. يقول القرطبي اسمها بالنبطية «بيدخت» واسمها بالفارسية «ناهيل».. وبالعربية «زهرة».. وكانت فتنة في شدة جمالها.. اختصمت إليهما.. وراودها عن نفسها.. فأبت إلا إذا شربا الخمر.. والمرأة حباله إبليس.. كما أن الخمر أم الكبائر.. فشربا الخمر وأتيا بها.. ورأهما رجل.. فقتلاه خشية الفضيحة.. وهكذا حلت عليه لعنة: شرب الخمر.. والزنا.. والقتل فخيرهما الله - سبحانه - بين عذاب الدنيا - وعذاب الآخرة.. فاختارا عذاب الدنيا.. فهما يعذبان.. منكوسين.. في سرب من الأرض.. قيل ببابل العراق.. أو بابل نهاوند.

وردت هذه القصة بهذا المعنى في جميع كتب التفسير.. تقريبا.. ولكن في بعضها زيادات.. سأحاول عرضها عرضا خفيفا.. إن شاء الله.. كقولهم.. إن المرأة.. قبل أن يزني بها.. سألتهم عن الاسم الأعظم الذي يصعدان به إلى

لما كثر الفساد.. من أولاد آدم - عليه السلام - في زمن إدريس - من قبل نوح.. تحدث الملائكة.. فيما بينهم.. عن هذا الأمر.. ووجهوا اللوم.. إلى ابن آدم بسبب عصيانهم.. وإفسادهم في الأرض.. وقد استخلفهم الله - سبحانه - في أرضه.. واصطفاهم بذلك من دون العالمين.

فقال الله لهم: أما لو كنتم مكانهم.. وركبت فيكم ما ركب فيهم.. لعملتهم مثل أعمالهم.. قالوا سبحانه.. ما كان ينبغي لنا ذلك.

قال: فاختاروا ملكين من بينكم.. فاختاروا هاروت.. وماروت.. وكان هاروت اسمه عزا.. وماروت اسمه عزابيا.. وغير الله - سبحانه - اسميهما.. لما اقترفا الذنوب.. كما غير من قبلهما اسم إبليس بعد أن كان اسمه عزازيل.. وأنزلهما الله.. إلى الأرض.. وركب فيهما الشهوة.

وقيل: كان معهما ملك ثالث اسمه عزريائيل.. لما وقعت الشهوة في قلبه.. استقبل ربه.. وسأله أن يرفعه إلى السماء.. فأقاله ورفعه.. فسجد أربعين سنة.. ثم رفع

(١) أبو إسحاق النسابوري الثعلبي.

السماء.. فعلمناها.. فتكلمت به.. بعد الزنا..
فعرجت إلى السماء.. فمسخها الله كوكبا - هو كوكب
الزهرة الآن (١) - ويقول القرطبي عن عطاء: كان ابن
عمر.. إذا رأى كوكبى الزهرة وسهيل.. سبهما
وشتمهما..

ويقول إن سهيلا كان عشارا (٢) باليمن.. يظلم
الناس.. وإن الزهرة.. كانت صاحبة هاروت وماروت
وإن كان العقل لا ينكر.. وقوع المعصية من الملائكة..
بعد أن خلق الله فيهم الشهوة.. وقد حصلت المعصية -
قبلهما - من إبليس - وكان من ملائكة النار - والشهوة
موجودة في عنصر النار - كما بينا ذلك بإفاضة في نبأ
آدم - عليه السلام.. إلا أن العقل لا يقبل.. أن يكون
كوكب الزهرة وهو فلك سيار.. هو نفسه تلك المرأة..
صاحبة هاروت وماروت.. فقد خلق الله - سبحانه -
تلك الكواكب.. يوم خلق السماء.. ففى الخبر «أن
السماء لما خلقت.. خلق فيها سبعة دوائر هي: زحل
والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد،
والقمر.. جمعهم الشاعر فى هذا البيت:
زحل شرى مريخه من شمسه

وتزاهرت لعطارد الأعمار

وقد حاول بعض العلماء تنزيه الملكين.. عن هذا
الذى حصل.. فقرأ ابن عباس.. وابن أبزى..
والضحاك.. والحسين «الملكين» بكسر اللام فى الآية
«وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت» ١٠٢ -
البقرة.. يقصدون أنهما: داود وسليمان.. ولكن هذا
القول ضعيف.. فقد روى عبد الله بن بشر المازنى (٣).
قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «أتقوا
الدنيا.. فوالذى نفسى بيده.. إنها لأسحر من هاروت
وماروت».

وقال العلماء.. حول هذا الحديث:

إن الدنيا.. أسحر منهما.. لأن فتنها تدعوك إلى
الحرص عليها.. والتنافس فيها.. والجمع لها.. والمنع..
حتى تفرق بينك.. وبين طاعة الله.. وتحول بينك.. وبين
رؤية الحق ورعايته.. فالدنيا.. فعلا.. أسحر منهما..
وسحر الدنيا: محبتها.. والتلذذ بشهواتها.. والتمنى
بأمانيتها الكاذبة.. حتى تحتوى القلب.. وتعمى البصيرة.

ولهذا يقول - صلى الله عليه وسلم - «حبك الشئ
يعمى ويصم».. وقال الزجاج: روى عن على رضى الله
عنه - فى معنى قوله تعالى: وما أنزل على الملكين ببابل
هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا: إنما
نحن فتنة فلا تكفر» ١٠٢ - البقرة.

يقول: إن الملكين.. يعلمان الناس.. تعليم إنذار من
السحر.. لتعليم دعاء إليه.. فيقولان لهم: لاتفعلوا
كذا.. لتفرقوا بين المرء وزوجه.

كانا يقولان للناس «إنما نحن فتنة».. فلما أنبا
بفتنتهما.. كانت الدنيا أسحر منهما.. حين كتبت
فتنتها.

فإذا جاءهما أحد من الناس.. لتعلم السحر..
نصحاء أولا.. وقال له: إن الله أرسلنا إلى الناس.. ابتلاء
منه لهم.. فمن تعلمه وعمل به.. كان كافرا..

ومن تحبسه.. أو تعلمه.. لا يعمل به.. ولكن
ليتوقاه.. ولكيلا يغتر به.. كان مؤمنا.

يقول صاحب تفسير الكشاف: عرفت الشر لا
للشر.. لكن لتوقيه.. تماما.. كما ابتلى الله تعالى.. قوم
طالوت.. بالنهر «فمن شرب منه فليس منى.. ومن لم
يطعمه فإنه منى» (٤).

فيتعلم الناس - من الملكين - السحر.. الذى يكون
سببا فى التفريق بين الزوجين.. من حيلة.. وتغويه..
ونفث فى العقد.. ونحو ذلك مما يحدث الله.. عنده..
التشؤز.. والخلاف.. ابتلاء منه.. لا لأن السحر له أثر فى
نفسه.. بل دليل قوله تعالى.. بعد هذا مباشرة «وما هم
بضارين به من أحد إلا بإذن الله» ١٠٢ - البقرة.. يعلمه
ومشيئته.. «ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم» ١٠٢ -
البقرة.. يقول النسفى: وفى دليل.. على أنه واجب
الاجتناب.. كتعلم الفلسفة.. التى تجر إلى الغواية.

كما يقول السدى فى القرطبي وغيره:

كانا يقولان - لمن جاءهما «إنما نحن فتنة فلا تكفر»..
فإن أبى أن يرجع قال له: ائت هذا الرماد.. فبل فيه.. فإذا
بال فيه.. خرج من الرجل نور.. يسطع إلى السماء..
وهو الإيمان.. ثم يخرج منه دخان أسود.. فيدخل فى
أذنيه.. وهو الكفر.. فإذا أخبرهما بما رأى.. علماه ما
يفرق به بين المرء وزوجه.

(١) أغلب كتب التفسير: كالقرطبي والبيضاوى وأبى إسحاق ١٠٢ / البقرة.

(٣) القرطبي ١٠٢ / البقرة

(٢) العشار الذى يأخذ عشور الأموال

(٤) ٢٤٩ / البقرة

الفصل السادس

«فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته»

(١٤ - سبأ)

○ موت سليمان

والجن - كما قدمنا - كانوا يدعون علم الغيب.. فى عهد سليمان ويتنبأون للناس بأحداث الغد.. بما كانوا يسترقون سمعه من السماوات.. فعرف الناس أنهم كاذبون فى ادعائهم.. ولو كانوا يعلمون الغيب.. لما استمروا فى عنائهم وعذابهم.. حيناً من الزمن.. خوفاً من سليمان.. ولم يعلموا أنه مات.

وقال أولو العلم من رجال التفسير: أن سليمان عليه السلام - سأل الله أن يخفى موته سنة.

واختلفوا فى سبب هذا الطلب.. فمنهم من قال: إنه أراد أن يثبت للناس.. أن الجن.. لا يعلمون الغيب.. عندما يرونهم.. مستمرين فى عملهم.. وعنائهم.. وشقائهم.. خوفاً منه بينما يكون هو ميتاً.

وجاء فى تفسير الكشاف.. للقاضى ناصر الشيرازى: قرأ ابن مسعود هذه الآية:

«تبين أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب.. ما لبثوا فى العذاب المهين».

ومنهم من يقول: أن سليمان.. طلب من الجن.. أن يتمنوا ببناء بيت المقدس.. الذى

كل ما أخبرنا به - سبحانه - عن موت سليمان عليه السلام - هو قوله تعالى:

«فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب.. ما لبثوا فى العذاب المهين» ١٤ - سبأ.

مات.. وهو متكئ على عصاه.. ولم يعلموا بموته حيناً من الوقت ولم يعلمهم بموته.. إلا فعل الأرضة بعصاه.. والأرضة دويبة صغيرة.. تأكل الخشب.. أكلت طرف منسأته.. والمنسأة.. هى العصا.. من نسأت البعير.. أى طردته.. ولأن العصا يطرد بها.. سميت منسأة.. فاختلف توازن سليمان - عليه السلام - وخر ساقطاً.. على الأرض.. فعلموا أنه ميت من قبل هذا الحين.

فمن هم هؤلاء.. الذين لم يعلموا بموته.. ثم علموا أخيراً؟

آخر الآية يدلنا على أنهم الجن.. حيث قال سبحانه: «فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين».

أسسه أبوه داود.. فى موضع فسطاط موسى — عليه السلام — ولما علم سليمان بدنو أجله .. طلب من الله .. إخفاء موته عن الجن .. حتى يتموا بناء البيت .. وكانت هذه المدة سنة (١).

ولعل رأى الأول.. هو الذى رأيناه من ظاهر الآية ومفهومها.. وإن كنا لم نقتنع بعد بأن مدة بقائه ميتا على عصاه.. كانت سنة.

لأن رأى الثاني .. يوحى إلينا.. أن سليمان — عليه السلام — مات قبل أن يتم بيت المقدس.

وهذا رأى يخالف ما بلغ إلى علمنا.. فى عدة مواقف.. ومن عدة جهات.. فقد رأيناه عليه السلام.. قد انتهى من بناء بيت المقدس.. ثم زار البيت الحرام بمكة.. ومعه الحشود الحاشدة من جنوده.. ودخله آمنا.. وقضى مناسك الحج.. وأدى شعائره.. وذبح آلاف الذبائح بها.. وبشر أهل مكة بظهور.. آخر الأنبياء.. وإمام المرسلين.. من بينهم.. وكان ذلك قبل حادث الهدهد وبلقيس.

وروى إبراهيم بن طهمان (٢) .. عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال:

«كان نبى الله سليمان بن داود — عليهما السلام — إذا صلى .. رأى شجرة نابتة بين يديه.. فيسألها: ما اسمك؟ .. فإن كانت لغرس غرست.. وإن كانت لدواء كتبت.. فيبينما هو يصلى ذات يوم.. إذا شجرة نابتة بين يديه.. قال ما اسمك؟ .. قالت: الخرنوبة.. فقال: لأى شئ أنت؟ .. قالت: لخراب هذا البيت.. فقال: اللهم عمّ عن الجن موتى.. حتى تعلم الإنس.. أن الجن.. لا يعلمون الغيب.. فنحتها عصا.. فتوكلأ عليها حولا.. لا يعلمون.. فسقطت.. فعلم الإنس أن الجن.. لا يعلمون الغيب».

وهذا الحديث هو الذى حدد لنا مدة وقوفه ميتا.. على عصاه .. بأنها سنة.

وقد قرر جميع المفسرين.. أن سليمان — عليه السلام — ابتدأ بناء بيت المقدس .. فى

السنة الرابعة.. من ملكة.. وكانت سنة وقئت سبع عشرة سنة.

كما قال القرطبي: أنه قرب بعد فراغه من بناء البيت.. اثنتى عشر ألف ثور.. وعشرين ألف شاة.. واتخذ اليوم الذى فرغ فيه من بنائه.. عيدا .. وقام على الصخرة.. رافعا يديه.. إلى الله تعالى بالدعاء فقال:

اللهم أنت وهبت لى هذا السلطان.. وقويتنى على بناء هذا المسجد.

اللهم فأوزعنى شكرك على ما أنعمت على.. وتوفنى على ملكك.. ولا تنزع قلبى بعد إذ هديتنى.

اللهم إنى أسألك لمن دخل هذا المسجد.. خمس خصال: لا يدخله مذنب.. دخل للتوبة.. إلا غفرت له.. وتبت عليه.. ولا خائف.. إلا أمنت.. ولا سقيم.. إلا شفيت.. ولا فقير إلا أغنيته.. والخامس.. ألا تصرف نظرك عن دخله حتى يخرج منه.. إلا من أراد إلحادا.. أو ظلما.. يارب العالمين.

ذكره الماوردى.

كما خرج النسائى وغيره.. بإستناد صحيح.. من حديث عبدالله بن عمرو عن النبى — صلى الله عليه وسلم —:

«أن سليمان بن داود .. لما بنى بيت المقدس.. سأل الله تعالى.. خللا ثلاثا حكما (٣) يصادف حكمه.. فأوتيه.

وسأل الله تعالى.. ملكا لا ينبغي لأحد من بعده.. فأوتيه.

وسأل الله تعالى .. حين فرغ من بنائه المسجد: ألا يأتبه أحد لا ينهزه (٤) ... إلا الصلاة فيه.. أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه».

وقد أتى الأستاذ عبدالوهاب النجار.. فى كتابه «قصص الأنبياء» حول هذه الآية «مادلهم على موته» — بمعنيين جديدين.. يريد بهما فضيلته أن يطل فكرة بقاء سليمان سنة.. متكئا على عصاه.. وهو ميت.. ودفعه النقاش إلى موضوعات طويلة متشعبة.. اضطر فيها إلى التشكيك فى صحة الأحاديث الواردة.. فى هذا الموضوع.

(٣) ابن كثير والقرطبي وغيرهما ٣٤/ سبأ.

(٤) لا يحركه ويدفعه.

(١) فى أغلب كتب التفسير ١٤/ سبأ.

(٢) أى حكمة.

**وملخص رأيه الأول: أن سليمان.. مات — كما
موت سائر الناس — ولم يعلم الجن بموته.. ولكنه أهله
يعلمون.. وظل الجن فى عملهم — حتى اكتشف
أحدهم.. وجود عصا سليمان.. وقد أكلتها الأرضة..
فعلم أنه مات وأخبر إخوانه الجن بهذا.**
وأما رأى الثانى الذى أتى به فضيلته: فهو أن الموت
أدركه.. وهو جالس متكئ على عصاه.. فأكلت الأرضة
طرف العصا.. فاختلف توازنه.. وسقط.. وهذا لا يحتاج
إلى زمن طويل.

**وعلى أى حال.. فكل خلافه.. مع الإجماع.. على
زمن بقائه ميتا متكئا على عصاه.. هل هى سنة.. أم هى
مدة وجيزة.**

ونحن لانستطيع أن ننكر أحاديث وردت عن رسول
الله — صلى الله عليه وسلم — وتواترت لنا بتلك
المعاني.. وأخذ جميع السلف بها.

ومن الجائز أن تمر الأعياد والطقوس الدينية.. وتأتى
سليمان زوجته أو غيرها.. فى عيد الفصح مثلا.. فتراه
على هيئة المصلى فترجع ويرجعون وقد رأينا مثل ذلك..
مع رسولنا — صلى الله عليه وسلم — حينما كانت
السيدة خديجة — رضى الله عنها — تصعد إلى الجبل —
وهو يتعبد فى غار حراء — قبل الرسالة — فتجده
متفصلا عن الدنيا.. لا يدري بما حوله ومن حوله..
فتأخذ الطعام والشراب القديم.. الذى لم يمسه.. وتضع
مكانه.. طعاما وشرابا جديدين.. لتعود فى اليوم التالى..
فتصنع كما صنعت بالإمس.. وهو لا يدري بها.. وتظل
هكذا.. طوال شهر رمضان.. من كل عام.

لعل هيئة سليمان — عليه السلام — كانت تمنع
الإنس والجن معا من القرب منه.. مادام على هيئة
العبادة.. مهما طال الزمن والله أعلم.

كما يريد البعض أن يتشكك فيما ورد

بحديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن حديث
سليمان من النبات والشجر.

**وهذا أمر روحى صرف.. والأمور الروحية..
إحساس فى أعماق النفس.. يحسه المؤمن أحيانا.. دون
أن يستطيع التعبير عنه.**

وقد كان لنا صديق من عباد الله المخلصين.. رحمه
الله.. ورضى عنه.. يزورنا فى قريتنا.. بين الحين والحين..
وكنا نسير معه.. بين الحقول.. عند الأصيل.. فنحس به
يمش بجانبنا.. وكأنه طيف سار.. يتعمق فى خنايا
النبات.. ويتغلغل إلى أعماق الطيور.. وكأن بينهما
حديثا نحسه ولانسمعه.. وتحاوبا نشعر به ولا نعلمه..
وهذا داود الضرير الأنطاكى.. يأتى فى تذكركه بالعجب
العجاب.. عن جميع أجناس النباتات.. وأنواعها..
وأشكالها.. وفوائدها.. ومضارها.. وأجودها..
وأردئها.. وليس فى النباتات فقط.. وإنما فى
الحيوانات.. والجمادات أيضا.. وقد اعترفت بصحته كل
الدوائر العلمية والطبية.. مع أنه ضرير.. فما بالك بنبي
الله — سليمان — عليه السلام — وقد وهبه الله ملكا
لا ينبغي لأحد من بعده.. من تسخير الإنس والجن
والطير والريح.. حتى النملة برغم ضآلتها.. سمع
صوتها.. وفهم غرضها..

**عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة.. فملك وهو ابن
ثلاث عشرة سنة.. ومدة ملكه أربعون سنة.. كما أخبر
بذلك جميع العلماء والمؤرخين إلا السدى (١) .. فقال:
كان عمر سليمان سبعا وستين سنة.. ملك وهو ابن سبع
عشرة سنة.. وكان ملكه خمسين سنة.. ولكن
الإجماع.. على رأى الأول.**

وبعد مدة من موت سليمان — عليه السلام — ظهر
فى بنى إسرائيل الظلم والفساد.. وفشت فيهم
المعاصى.. وعيد بعض ملوكهم الأصنام من دون الله..
فغضب الله عليهم بكفرهم.. وعصيانهم وسلط عليهم
بختنصر.

**وإلى اللقاء معا.. على درب التاريخ القرآنى.. إن
شاء الله تعالى..**

﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله﴾.

(سورة التوبة الآية ٣٠)

○ من نبأ
عزيز

١ قتل الأنبياء

وعيسى.. وأشعياء هو الذى بشر بيت المقدس..
فقال : أبشر فإنه يأتك راكب الحمار.. ومن بعده
صاحب البعير (١)..

ثم يقول ابن إسحاق :

تنافس بنو إسرائيل فى الملك.. حتى قتل بعضهم
بعضا.. وظهر فيهم البغى والفساد.. ونبههم أشعياء
فيهم.. لا يرجعون إليه.. ولا يقبلون قوله.. فلما
فعلوا ذلك..

قال الله تعالى لأشعياء.. عليه السلام :

«قم فى قومك.. يوح على لسانك.. فلما قام
النبي.. أطلق الله لسانه.. بالوحى.. فقال : « يا سماء
اسمعى.. ويا أرض أنصتى.. فإن الله أراد أن يقضى
شأن بنى إسرائيل.. الذين رباهم بنعمته..
واصطفاهم وخصهم بكرامته.. وهم كالغنم
الضائعة.. التى لا راعى لها.. فأوى شاردها.. وجمع
ضالها.. وجبر كسيرها.. وداوى مريضها.. وأسمن
هزيلها.. وحفظ سمينها..

فلما فعل ذلك.. بطرت.. فتناطح
كباشها.. فقتل بعضهم بعضا.. حتى لم يبق
منهم عظيم صحيح يجبر إليه كسير.. فويل لهذه
الامة الخاطئة.. الذين لا يدرون أجاءهم الخير
أم الشر.. وأن البعير يذكر وطنه

كثرت الحروب.. ضد بنى إسرائيل.. بعد
سليمان.. عليه السلام.. من الملوك المجاورين لهم
باليهند وبابل « العراق »..

فكان الله معهم.. طالما كانوا مستمسكين بتعاليم
التوراة.. منفذين لأوامرها.. مجتنبين لنواهيها.. إلى
أن ظهر فيهم الفساد.. وفشت بينهم المعاصى..
وعبد بعض ملوكهم الأصنام من دون الله..

أرسل الله.. تعالى.. لهم.. فى تلك الفترة.. عددا
من الأنبياء « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ١٥
- الإسراء.. فكانوا يقابلونهم بالتعذيب والتكيد
والقتل.. « فبما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات
الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق » ١٥٥ / النساء.. ومن
هؤلاء الأنبياء.. نبي الله - أشعياء - وله فيهم عظات
بالغات.. وآيات بينات.. رأيت أن أنقلها للقارىء
الكريم.. بنصها.. رواية عن محمد بن إسحاق وغيره
من أهل السير والتاريخ.. لما فيها من حكم غالية..
ودرر ثمينة.. وتبشير نبينا - محمد - عليه الصلاة
والسلام..

يقول ابن إسحاق :

بعث الله تعالى - إلى بنى إسرائيل - نبيه
أشعياء.. وذلك قبل بعث زكريا ويحيى

فيتنابه.. وإن الحمار يذكر الآرى (١) الذى يشبع عليه فيراجع.. وإن الثور يذكر المسرح الذى يسرح فيه فيرتاده.. وإن هؤلاء القوم لا يدرون من أين جاءهم الخير.. وهم أولو الأبواب والعقول.. ليسوا ببقر ولا حمير.. وإنى ضارب لهم الأمثال إلى أن قال.. بعد أن ضرب لهم أمثالا..

« يقولون صمنا... فلم يرفع صيما.. وصلينا.. فلم تنور قلوبنا.. وتصدقنا.. فلم ترك صدقاتنا؟.. وإن دعونا بمثل حنين الجمال.. وبكىنا مثل عواء الذئب.. لا يستجاب لنا.. فسلهم.. ما الذى يمننى أن أستجيب لهم؟.. أأست أسمع السامعين.. وأنظر الناظرين.. وأقرب المحبين.. وأرحم الراحمين.. وأن رحمتى وسعت كل شيء.. إنما يتراحم الراحمون بفضلى » (٢) ..

« ولو أن هؤلاء القوم.. نظروا لأنفسهم بالحكمة.. التى نورت فى قلوبهم فتدبروها.. ولم يشترها بها الدنيا.. لأبصروا وتيقنوا أن أنفسهم هى أعدى العداة لهم.. فكيف أرفع صيماهم.. وهم يلبسونه بالزور.. ويقولون عليه بطعمة الحرام.. أم كيف أنور صلاتهم.. وقلوبهم طاغية.. تركن إلى من يحاربني.. ويتتهك محارمى؟.. أم كيف تزكو عندى صدقاتهم.. وهم يتصدقون بأموال غيرهم؟.. وإنما أجزى عليها أهلها المغصوبين؟.. أم كيف أستجيب لهم دعاءهم؟.. وإنما هو قول بالاستهم.. والعمل من ذلك بعيد.. إنما أستجيب قول المستضعف المسكين.. وإن من علامة رضى.. رضا المساكين.. ولو رحموا المساكين.. وقربوا الضعفاء.. وأنصفوا المظلوم.. ونصروا المغصوب.. وعالوا الغائب.. وأدوا إلى الفقير واليتيم والأرملة والمسكين حقه.. إذ لو كان ينبغى لى أن أكلم البشر.. لكلمتهم.. وكنت نور أبصارهم.. وسمع أذانهم.. ومعقول قلوبهم.. وأعمرت أركانهم.. وكنت قوة أيديهم وأرجلهم.. وكنت ألسنتهم.. إلا أنهم يقولون.. لما سمعوا كلامى.. وبلغتهم رسالتى.. أنها أقاويل منقولة.. وأحاديث متواترة.. وتآليف فيما يؤلف السحرة والكهنة.. وزعموا أن لو شاءوا أن يأتوا بحديث مثله.. لفعلوا.. وأن يطلعوا على علم الغيب بما توحى إليهم الشياطين.. وهم يعلمون أنى أعلم غيب السماوات والأرض.. وأعلم ما يدون وما يكتمون.. وإنى قضيت يوم خلقت السماوات

والأرض قضاء بينته على نفسى.. وجعلت أجلا مؤجلا.. لا بد أنه واقع » إلى أن قال مبشرا بإمام النبيين والمرسلين :

« فلانى باعث لذلك نبيا أميا.. لا أعمى من العميان.. ولا ضالا من الضالين.. ليس بفظ ولا غليظ.. ولا بصخاب فى الأسواق.. ولا امتزى بالفحش.. ولا قوال بالحننا.. أسدده بكل جميل.. وأهب له كل خلق كريم.. أجعل السكينة لباسه.. والبر شعاره.. والتقوى ضميره.. والحكمة معقوله.. والصدق والوفاء طبيعته.. والعفو والمعروف خلقه.. والعدل سيرته.. والحق شريعته.. والهدى أمامه.. والإسلام ملته.. وأحمد اسمه.. أهدى به بعد الضلالة.. وأعلم به بعد الجهالة.. وأرفع به بعد الخمالة.. وأشهر به بعد النكرة.. وأكثر به بعد القلة.. وأغنى به بعد الفقر.. وأجمع به بعد الفرقة.. وأؤلف به قلوبا مختلفة.. وأهواء مشتتة.. وأما متفرقة.. وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس.. يأمرون بالمعروف.. وينهون عن المنكر.. بأيتى وتوحيدي.. يصلون قياما وقعودا.. وركوعا وسجودا.. ويقاثلون فى سبيل الله.. صفوفا وزحوفاً.. ويخرجون من ديارهم وأموالهم.. ابتغاء رضوانى.. ألهمهم التكبير والتحميد والتسبيح والتمجيد والتوحيد.. فى مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم.. يكبرون ويهللون ويقدسون على رؤس الأشراف.. ويظهرون لى الوجوه والأطراف.. ويعقدون الشيا فى الأنصاف.. قربانهم دماؤهم وقرآنهم فى صدورهم.. رهبان بالليل.. ليوث بالنهار.. » ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » ٥٤ - المائدة.

فلما فرغ نبيهم أشعياء.. من مقالته تلك.. غدوا عليه ليقتلوه.. فهرب منهم .

يقول ابن إسحاق فى سيرته :

لقيته شجرة.. فانفلقت له.. فدخلها فأدركه الشيطان.. فأخذ بهدبة من ثوبه.. فأراهم إياها.. فوضعوا المنشار فى وسطها.. فنشروها حتى قطعوها.. وقطعوه وهو فى وسطها..

وكلما جاءهم نبي قتلوه.. أو حبسوه وعذبوه.. وهكذا فعلوا بنبيهم أرمياء.. حين أئذهم سخط الله.. فظلموا العباد.. وأكثروا فى الأرض الفساد.. « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » [٨٧/ البقرة].

(١) الآرى: محبس الدابة.

(٢) نفس المعانى وردت فى التوراة فى سفر أشعياء..

٢ المفسدون فى الأرض

ونجد أنفسنا أمام قضاء الله.. حيل بنى إسرائيل..
فى قوله تعالى :

« وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأسا شديدا فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا » ٥/٤ الإسراء.

فهل هذا الإفساد منهم فى الأرض.. فى هذا الزمن الذى ذكرناه.. هو الإفساد الأول المقصود فى الآية؟ هكذا قال كثير من المفسرين.. ولنا رأى فى هذا الموضوع:-

فبعد قتل أشعياء.. أرسل الله سبحانه إليهم أرمياء.. الذى خطب فيهم.. قائلا : « إن الله قال : فإنى أحلف بعزتى وجلالى.. إن لم ينتهوا.. لأقيضن لهم فتنة.. يتحير فيها الحليم.. ولأسلطن عليهم جبارا قاسيا.. ألبسه الهيبة.. وأنزع من قلبه الرحمة.. يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ».

وكان هذا الجبار.. هو بختنصر البابلى.. نسبة إلى بابل.. حيث هجم من بابل على بيت المقدس.. بجيش كالجراد.. فخرّب

المسجد.. وقتل العلماء.. وحرّق التوراة.. وذبح الكبار.. وأسر الصغار.. وأجمع المفسرون على أن عدد السبّايا من بنى إسرائيل.. كان سبعين ألفا (١) ..

وجاء فى موسوعة تاريخ العالم (٢) : استولى بختنصر على أورشليم « بيت المقدس » مرتين.. الأولى عام ٥٩٧ قبل الميلاد.. والثانية عام ٥٨٦ قبل الميلاد.. وكانت مدة حكم بختنصر فى بابل من ٦٠٥ ق.م إلى ٥٦١ ق.م

فهل يكون بختنصر.. هذا الملك الجبار الظالم القاسى.. الذى نزع الله من قلبه الرحمة.. وخرّب بيت المقدس.. وقتل العلماء.. وحرّق التوراة.. وذبح الكبار.. وأسر الصغار.. هو وجنوده.. هم عباد الله أولى البأس الشديد؟..

لا شك فى خطأ من قال بهذا الرأى.. فكلما «عباد» وردت فى القرآن الكريم.. أكثر من سبعين مرة.. خاصة بالمؤمنين الصالحين «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب» ١٨٦ / البقرة.
«الله لطيف بعباده» (٣).

(١) النفسى والكشاف وغيرهما - ٥ / الإسراء.

(٢) إصدار وليام لاجز.

(٣) ١٩ - الشورى.

«يا عباد فاتقون» (١).
«وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا» (٢).

«والله رءوف بالعباد» (٣).
«وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا» ١٩ - الزخرف.

«أن أدوا إلى عباد الله» ١٨ - الدخان.
«عينا يشرب بها عباد الله» ٦ - الإنسان.
«يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون» ٦٨ - الزخرف.

«إن عبادي ليس لك عليهم سلطان» ٦٥ - الإسراء.
«نبي عبادي أنى أنا الغفور الرحيم» ٤٩ - الحجر.

«فادخلني في عبادي وادخلي جنتي» ٢٩ - الفجر.
وغيرها كثير.

ويظهر الفرق.. واضحا جليا.. بين كلمتي «عباد» و «عبيد».. فالعباد خاصة بالمؤمنين.. أما العبید.. فهي شاملة.. تعم المؤمن والكافر.. فاقرأ مثلا:

«وما ربك بظلام للعبيد»..
«وما أنا بظلام للعبيد»..
«ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد»..

فهل يمد هذا.. يمكن أن يقال عن بختنصر وجنوده.. أنهم عباد الله أولو البأس الشديد؟

كلا.. وإنما المتبادر إلى الذهن.. أن المقصود «بالكتاب» في قول الله تبارك وتعالى: «وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين» أن الكتاب.. هو القرآن الكريم.. «ذلك الكتاب لا ريب».. وعلى هذا

الأساس يكون إفساد اليهود في الأرض.. وبعث عبداً لله أولى بأس شديد لسحقهم مرتين بعد نزول القرآن الكريم.. على محمد - عليه الصلاة والسلام - المرة الأولى.. في صدر الإسلام.. لما

ذهب ركب البعير.. عمر بن الخطاب - رضى الله عنه.. داخل بيت المقدس

فهل يمد هذا.. يمكن أن يقال عن بختنصر وجنوده.. أنهم عباد الله أولو البأس الشديد؟

كلا.. وإنما المتبادر إلى الذهن.. أن المقصود «بالكتاب» في قول الله تبارك وتعالى: «وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين» أن الكتاب.. هو القرآن الكريم.. «ذلك الكتاب لا ريب».. وعلى هذا

الأساس يكون إفساد اليهود في الأرض.. وبعث عبداً لله أولى بأس شديد لسحقهم مرتين بعد نزول القرآن الكريم.. على محمد - عليه الصلاة والسلام - المرة الأولى.. في صدر الإسلام.. لما

ذهب ركب البعير.. عمر بن الخطاب - رضى الله عنه.. داخل بيت المقدس

.. غازيا فاتحاً.. وجاس خلال الشام «فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا».

وقد لاحظت بواهر المرة الثانية.. تحقيقا لوعد الله.. تبارك وتعالى - فقد رد الله الكرة لليهود على المسلمين.. ولا ينبت الخير إلا بعد استواء الشر على

سوقه.. أمدهم الله بالأموال.. تنساب عليهم بغير حساب.. من أمريكا وغير أمريكا كما ينساب النبع من قمة الجبل إلى الوادي في يسر وسهولة.. وأمدهم

أيضاً بالبنيين.. يتدفقون عليهم من جميع الأقطار.. في شرق الأرض وغربها.. شباباً متطوعاً حرباً وسلماً.. اقرأ معي.. والخطاب هنا لبني إسرائيل: «ثم

رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا» ٦ - الإسراء.. والتفسير: هو الإعلام فقد كان إعلامهم قويا.. يكتسح العالم.. ويملا الدنيا صراخاً.. بأن العرب.. قوم همج

ضعاف.. لا نصيب لهم من حضارة.. ولا حظ لهم في مدنية.. ولا يصلحون إلا للحياة في أكباد الصحارى.. وكهوف الجبال.. بينما هم شعب الله

المختار.. أصحاب العلم.. وأئمة الفكر.. ورسول الحضارة.. وقادة المدنية.

أفسدوا في الأرض.. فاغتصبوا الديار.. ونشروا الدمار.. وملأوا المنطقة بغيا وطفيانا.. وقالوا: من أشد منا قوة.. لم تردعهم هزيمتهم

القريبة.. تحت ضربات «الله أكبر» في العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ.. عندما قالوا: نحن أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط.. وظنوا أن حصونهم..

في خط بارليف.. مانعتهم من الله.. ولكن الله أثنهم من حيث لم يحتسبوا.. وقذف الرعب في قلوبهم.. لم تروعهم تلك الهزيمة.. فما أن استردوا أنفاسهم..

حتى تحركت في صدورهم طبيعة الإفساد في الأرض.. فعادوا إلى بغيتهم وطفيانهم.. يقتلون الأبرياء.. ويسفكون الدماء.. ويشعلون الفتنة..

ويحركون عوامل الحقد بين الأخ وأخيه.. يضربون العربي بالعربي.. والمسلم بالمسيحي.. وهذا وأيم الله يشر بقرب الانتقام الإلهي الثاني.. في المرة الثانية.. التي لم تأتى بعد.

(١) ١٦ - الزمر.

(٢) ٦٣ - الفرقان.

(٣) ٢٠٧ - البقرة.

ونسمع صوت الله - تعالى - يناديهم . بعد أن رد الكرة لهم على المؤمنين.. وأمدهم بالأموال والبنين.. بعد هزيمتهم أول مرة.. أمام عباد الله أولى البأس الشديد.. يقول لهم: « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة » أى المرة الثانية « ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علوا تتييرا » ٧ - الإسراء.

فهل أن الآوان.. لأن يبعث الله عباده المؤمنين.. ليدخلوا المسجد الأقصى.. غايزين فائحين.. كما دخله صمر والمؤمنون معه.. أول مرة.. ويتبروا ما علوا تتييرا..؟

أليس وعد الله.. هو الوعد الحق.. فى قوله تعالى.. مخاطبا أحقاب المؤمنين : « وعد

الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » - ٥٥ النور - سبحانه - شرطا جزائيا واحداً نظير الاستخلاف فى الأرض والتسمكين فى الدين، وإبدال الأمن مكان الخوف الذى نعيش فيه.. هذا الشرط الجزائى.. هو «يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » ٥٥ - النور.

الشرط.. عبادة الله وحده.. بتحكيم كتابه.. والركون إلى جنبه.. والالتزام بتعاليمه وتشريعاته وأدابه.. وكان الأجدر بنا.. أن نعلنها قوية.. بعد أن رأينا الله فى خط بارليف.



٣. عزيز ورحلة الموت

عندما نقرأ قول الله - تبارك وتعالى - : « وقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله » ٣٠ - التوبة.. لمجد أن قول النصارى عن المسيح معروف.. ولكن.. من هو عزيز هذا.. الذى ادعى اليهود أنه ابن الله؟.. وبخاصة إذا علمنا أن اليهود.. لما تليت عليهم تلك الآية.. لم ينكروها.. مع أنها تكذبهم على التكذيب فى كل شىء.. مما يدل على أنهم يقولون ذلك حقيقة.

لما أصاب الإسرائيليين ما أصابهم.. من يختنصر.. من قتل العلماء.. وحرقت التوراة.. وقتل الكبار.. وأسر الصغار.. خرج عزيز بن شرحيا.. سائحا فى الأرض.. لا يلوى على شىء.. يركب حمارا.. ومعه سلة.. فيها تين.. وزق به عصير عنب.. ودفعته الخطى.. إلى طريق المؤتفكة.

الطريق مخيف.. مرعب.. رهيب.. فهو يؤدى إلى القرية الملعونة - كما يسمونها - وهى قرية سدوم من بلاد الأردن.. قرية قوم لوط - عليه السلام - التى أهلكها الله - وجعل عاليها سافلها.. وأمطر عليها حجارة من سجيل - كما قدمنا فى « نبال لوط ».. ومن يومها.. لم يسر فى هذا الطريق إنسان.. ولم ير إنسان يأتى منه.. وأصر عزيز.. على اجتيازه حتى يصل إلى القرية الملعونة.. ويرى ما فيها.

ثم بلغها وطاف حولها.. بين ركام من الأحجار والعظام.. لم يجد فيها نسمة حياة حتى الوحوش والهوام والطير تتحاشى دخولها.. أو القرب منها.. فلما انتهت جولته فيها.. عاد حيث بدأ.. ثم قال : كيف ومتى يحيى الله تلك القرية.. بعد أن صارت هكذا ؟

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها » ٢٥٩ - البقرة .

سؤال تردد فى جنبات نفسه.. ولكن هل هو شك منه فى قدرة الله - تعالى..؟ كلا.. وإنما هى خواطر تخطر فى النفس.. كما خطرت فى نفس إبراهيم - عليه السلام - عندما قال: « رب أرنى كيف تحبى الموتى ».. وقد حقق الله سبحانه - لإبراهيم سؤله بذبح الطيور ثم إحيائها.. ولكن فى حالة عزيز.. ليس من المعقول.. أن يحيى الله له القرية.. كلها.. بما فيها.. ومن فيها فأراه الدليل المطلوب.. فيه هو.. فما أن ركب حماره حتى انكفأ الحمار به.. وخرا ميتين.. هو وحماره.. وكان الوقت ضحى.

فأما الله مائة عام ثم بعثه « بعثة الله .. بعد أن مات مائة عام .. وانفجرت عيناه فوجد جبريل أمامه .. يسأله « قال كم لبثت ؟ .. قال لبثت يوما » وحانت منه التفاته إلى قرص

الشمس يميل إلى الغروب.. وكان قد نام وقت الضحى.. فقال: «أو بعض يوم» أى جزءاً من يوم.. فقال له جبريل - عليه السلام -: «بل لبثت مائة عام» ونظر إلى فساكته وعصيره.. كله على حاله.. فالفاكهة غضة رطبة.. والشراب لم يتغير.. ووجد الهيكل العظيم للحمار مفكك الأوصال.. ووصل إلى سمعه صوت جبريل يقول: «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى العظام» أى عظام الحمار «كيف ننشزها ونجمعها إلى بعضها.. ثم نكسوها لحماً».

رأى العظام تتلاصق.. ورأى اللحم يترجرج.. بدءاً من الحوافر زاحفاً.. ليكسو الأرجل والبطن والظهر والعنق.. ثم الرأس.. حيث يعطس.. ثم يستوى قائماً.. كل هذا من غير زمن.. أقرب من لمح البصر.

مرت به تلك المشاهد.. وهو إلى الدهول أقرب.. فلما أفاق.. تذكر قولته: «أنى يحيى هذه الله بعد موتها» فخر ساجداً فى مكانه وكأنه أراد أن يدفع احتمال الشك فى سؤاله.. فقال: «فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير» ٢٥٩ - البقرة.. بمعنى أعلم قدرة الله.. قل أن يحدث أمامى هذا الإحياء..

وركب حماره.. وعاد من حيث أتى.. ورأى الناس - على البعد - إنساناً.. يركب حماراً.. قادماً من الطريق الملعون لأول مرة.. بعد قرون مضت.. وتجمع الشعب.. بين الخوف والوجل.. يدفعهم حب الاستطلاع.. ليروا من هذا الإنسان.. وهل هو إنسان حقيقة.. أم هو جنى فى صورة إنسان؟

حتى رأوه.. وتحدثوا إليه.. وقال لهم:

أنا عزير.. فكذبوه.. فقال لهم:

هاتوا التوراة.. فأخذ يتلوها عن ظهر قلب.. وهم ينظرون فى الكتاب.. فما خرم حرفاً واحداً.. ولم يقرأ التوراة.. ظاهراً.. أحد قبل عزير.. فقالوا: هو ابن الله (١).

يقول القرطبي: قتل اليهود الأنبياء من بعد موسى.. فرفع الله عنهم التوراة ومحامها من قلوبهم.. فلما خرج عزير.. يسبح فى الأرض.. أتاه جبريل.. وسأله: أين تذهب؟ قال: أطلب العلم.. فعلمه التوراة.. فلما عاد إليهم.. علمهم.. وكان علمناؤهم قد دفنوا

التوراة.. بعد ما أصابهم الله بالفتن والبلاء.. وبعد أن قتل بختنصر العلماء.. ثم وجدوها مطابقة لما كان يقرؤه عزير.. فقالوا ابن الله.

وروى عن على - رضى الله عنه - أن عزيراً خرج من أهله.. وخلف امرأته حاملاً.. وله خمسون سنة.. فأماته الله مائة عام.. ثم بعثه.. فرجع إلى أهله وهو ابن خمسين سنة.. وله ولد ابن مائة سنة.. فكان ابنه أكبر منه بخمسين سنة (٢).

ولنا وقفة قصيرة.. أمام عمره.. بعد أن مات مائة عام.. وأنه مازال عمره خمسين عاماً.. فهذا هو النقص فى العمر.. والنقص فى العمر لا يكون إلا فى وسطه وليس فى البدء أو فى النهاية.. فمثلاً:-

كتب الله - سبحانه - لعزير عمراً.. سبعين سنة.. ثم أماته وهو فى الخمسين لمدة مائة عام.. فيكون الباقي من عمره بعد بعثه عشرين عاماً.. لأن الزمن وقف.. بالنسبة لهذا الجسم مائة عام.. فلا غذاء ولا تنفس.. وبالتالي.. ولا نمو.. لا فى الجسم.. ولا فى الشعر.. ولا فى الأظافر.. وهى نفس الحالة.. بالنسبة لأهل الكهف.. بدليل أنهم لما قاموا من موتهم.. بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين.. نظروا إلى بعضهم.. وقالوا: «كم لبثتم، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم».. فلو أنهم وجدوا استطالة فى الشعر والأظافر.. لما كان قولهم يوماً أو بعض يوم.

وروى عن ابن عباس:

لما أحيا الله عزيراً.. ركب حماره.. فأتى محلته.. فأنكر الناس وأنكروه.. فوجد فى منزله.. عجوزاً عمياء.. كانت أمة له.. خرج عنهم عزير وهى بنت عشرين.. فقال لها: أهذا منزل عزير؟.. فقالت: نعم.. ثم بكى.. وقالت فارقنا عزير.. منذ كذا وكذا سنة، قال: فأنا عزير.. قالت: إن عزيراً فقدناه منذ مائة سنة، قال: فالله أمانى مائة سنة.. ثم بعثنى.. قالت: فعزير مستجاب الدعوة للمريض وصاحب البلاء فيسقى.. فداع الله يرد على بصرى.. فدعا الله ومسح على عينيها بيده.. فصحت مكانها.. وكأنها أنشطت من عقال.. قالت: أشهد أنك عزير.. ثم انطلقت إلى ملابنى إسرائيل.. وفيهم ابن لعزير.. شيخ

(١) النسفى والكشاف وغيرهما ٢٥٩ / البقرة.

(٢) القرطبي ٢٥٩ / البقرة.

ابن مائة وثمانية وعشرين عاما.. وبنو بنيه شيوخ..
فقلت : يا قوم هذا والله لعزير.. فأقبل إليه ابنه.. مع
الناس . فقال ابنه: كانت لأبى شامة سوداء مثل
الهلال بين كتفيه.. فنظرها.. فإذا هو عزير(١).
والحديث عن عزير - عليه السلام - يجبرنا إلى وقفة
قصيرة.. أمام التوراة وأسفارها.. فقد أجمعت كتب
التفسير.. وأسفار التوراة.. وسجلات التاريخ.. على
أن الله سبحانه - قد بعث عزيرا إلى بنى إسرائيل..
بعد أن أصابهم البلاء.. على يد بختنصر.. الذى
ضرب ديارهم.. وقتل علماءهم.. وحرق توراتهم..
وحاول عزير.. أن يجمع شتات التوراة.. ويلم
شعثها.. ويضم أجزاءها.. ولكنها - من غير شك
- فقدت الكثير من أصولها.. وأصابها التحريف
والتبديل والتغيير.. وتاهت فيها الحقيقة.. بين
كتب مفسريهم وشروحها.

وحواشيها.. التى ذهبت بالدين بعيدا عن أصله. وهو
نفس ما حصل فى الدين الزرادشتى.. ببلاد فارس
والهند.. وهو دين أصله قائم على التوحيد.. الدين
الذى كان يعتنقه ذو القرنين .. ولم ير التاريخ القديم
إلا دعوتين تدعوان إلى التوحيد... وهما دعوة
إبراهيم - عليه السلام - من الشعوب السامية..
ودعوة زرادشت من الشعوب الآرية .
ولكن كتب الدين الزرادشتى حُرِفَت ودمرت فى
حملة الإسكندر اليونانى المقدونى.. الذى يسميه -
دانيال النبى - بتيس اليونان ..
وقد حاول الفرس جمع أصول دينهم.. بعد
خمسائة سنة من الإسكندر المقدونى.. فى عصر
أزدشير.. ولكنه جاء محرفا مبدلا خليطا من
المجوسية القديمة واليونانية والزرادشتية.. كما سنرى .
ذلك مفصلا فى نبأ ذى القرنين إن شاء الله..
وهو نبأ دينى تاريخى عمتع ..



(١) القرطبي ٢٥٩ / البقرة.

”ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا“

(٨٣ - الكهف)

○ من نبأ
ذي القرنين

نبذة تاريخية

١

العرب.. فزادت عن الإمبراطورية المصرية منطقة العراق وسوريا وجزءاً من تركيا..

والإمبراطورية الثالثة : يسميها مؤرخو التاريخ القديم.. إمبراطورية بابل الجديدة وذلك حول سنة ٦٠٦ - ٥٥٠ قبل الميلاد.. وأرضها تقريبا.. هي أرض منطقة الإمبراطورية الآشورية ..

وأما الإمبراطورية الرابعة : فهي الإمبراطورية الفارسية.. وزمنها حول سنة ٥٠٠ قبل الميلاد .. وهذه زادت أملاكها.. عن سابقتها.. حتى شملت المنطقة كلها.. شرق خليج العرب.. إلى حدود الهند.. فضمت باكستان وأفغانستان وإيران وتركيا كلها وأرمينيا وأذربيجان وجورجيا إلى جبال القوقاز في الشمال..(١).

ولعل الذي دفعنا .. إلى تلخيص هذا العرض السريع .. عن تلك الإمبراطوريات الأربع .. التي حكمت العالم .. قبل ميلاد السيد المسيح .. هو الوصول إلى الإمبراطورية الفارسية.. التي ظهر.. في عصرها.. ذو القرنين..

عندما نريد أن نتحدث.. أو نكتب عن ذي القرنين... الذي سأل عنه كفار مكة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بإيعاز من اليهود.. فأنزل الله على رسوله : « ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا.. الخ ٨٣ - ٩٩ الكهف.. يجب علينا أولا.. أن نستعرض - سريعا - شيئا من تاريخ العالم القديم.. قبل ميلاد عيسى - عليه السلام -

ونحن نستطيع أن نقسم زمن هذا التاريخ.. الذي نشهد عرضه.. إلى أربع إمبراطوريات.. حكمت فيه المعمور من الأرض :

الإمبراطورية الأولى : وهي الإمبراطورية المصرية.. حول سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد .. وكانت تضم المنطقة التي يمثلها الآن : جمهورية مصر.. وفلسطين.. والأردن.. ولبنان.. بالإضافة إلى الربع الشمالي من الساحل الشرقي للبحر الأحمر..

والإمبراطورية الثانية : وهي الإمبراطورية الآشورية .. حول سنة ٨٠٠ - ٧٠٠ قبل الميلاد .. وقد امتدت أملاكها إلى شمال خليج

(١) هذا ملخص من لوحة جغرافية ص ٤٣ ج ١ من موسوعة تاريخ العالم إصدار وليام لانجز ..

وقد قرر كثير من المفسرين.. أن ذا القرنين.. هو الإسكندر المقدوني.. الذى بنى مدينة الإسكندرية.. فقد سجل التاريخ.. فتوحات.. وصلت من مقدونيا ومصر غربا.. إلى الهند شرقا.. ثم مات بابل.. على نهر الفرات.. وهو فى طريق العودة من الشرق.. واستتجوا من هذا.. أنه هو ذو القرنين.. لأن الله - سبحانه - قال عنه : إنه بلغ نهاية المعمور من الأرض غربا.. بقوله تعالى: «حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة، ووجد عندها قوما، قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا وإما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا، ثم أتبع سبيا « ٨٦ - ٨٩ / الكهف .. هذا من جهة فتوحاته غربا..

كما قال - سبحانه - إنه بلغ نهاية المعمور شرقا.. بقوله تعالى :-

« حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا، كذلك

وقد أحطنا بما لديه خبرا ، ثم أتبع سبيا « ٩٠ - ٩٢ / الكهف ..

وكانت نهاية مطافه .. فى القرآن الكريم :-

« حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يعمّهون قولا قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا « ٩٣ - ٩٤ / الكهف ..

وسرى إن شاء الله.. كيف أقام ذو القرنين سدا مسلحا من قطع الحديد المنصهر بالفحم والخطب.. ثم صب عليه من النحاس المذاب.. حتى ساوى بين الجبلين ..

وذلك بعد أن رفض قبول المال.. الذى عرضوه عليه.. نظير إقامة هذا السد بينهم وبين أعدائهم.. حيث قال « قال مامكنى فيه ربي خير، فأعينونى بقوة، أجعل بينكم وبينهم ردما آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطراً (١) ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا « ٩٥ - ٩٧ / الكهف ..



(١) القطر : هو النحاس المذاب .

٢ الإسكندر المقدوني

وقبل أن نلقى بأنفسنا.. فى أحضان كتاب الله الكريم.. لنشهد حياة ذى القرنين.. ورحلاته العجيبة.. فى الشرق والغرب والشمال.. نرى لزما علينا.. أن نستعرض حياة الإسكندر المقدوني.. مما كتبه عنه التاريخ القديم.. وهو ما يجب أن يلم به كل مثقف. وسأوجز ذلك فى سطور.. إن شاء الله.. لنرى من خلالها.. هل هو ذو القرنين المذكور فى القرآن الكريم.. أم هو إنسان غيره ؟

فى عام ٣٣٦ ق.م.. قُتل فيليب ملك مقدونيا.. ويقال : إن قتله كان بتحريض.. من زوجته أوليمبيا.. التى كان قد طلقها.. منذ وقت قريب جدا من قتله.

وخلفه على عرش مقدونيا الإسكندر الأكبر.. ولما شاع موت فيليب.. ثارت بلاد كثيرة.. كانت تابعة لمقدونيا.. منها طيبة وأركاديا.. وأثينا.. وأيتوليا.

ولكن الإسكندر استولى بسرعة على طيبة.. ودمرها.. واسترق سكانها.. وقدم الآخرون له فروض الطاعة والولاء سنة ٣٣٥ ق.م.

ثم قام فى سنة ٣٣٤ ق.م بجيش يتكون من ٣٢٠٠٠ من المشاة و٥٠٠٠ من الخيالة.. يساعده أسطول مؤلف من ١٦٠ سفينة.. لمهاجمة الفرس.. فى شرق البحر المتوسط ..

وكان إمبراطور الفرس آنذاك اسمه « دارا الثالث » واستطاع الإسكندر أن يهزم جيش الفرس.. المكون من المرتزقة اليونانيين بقيادة « ممتون الردى » قائد الفرس فى تلك المنطقة.. هزمه الإسكندر.. هزيمة تامة.. فى نفس السنة ٣٣٤ ق.م.. وساعده فى ذلك ثورة جميع المدن الإغريقية على الفرس.. ومات قائد الفرس «ممتون الردى».. بعد أن خضعت أغلب المدن الإغريقية للإسكندر.

ودعا الإمبراطور « دارا الثالث » الجنود المرتزقة.. إلى سوريا.. وحصلت بينه وبين الإسكندر.. موقعة أسوس.. التى هُزمَ فيها دارا.. وعرض على الإسكندر.. أن يتنازل الفرس.. عن كل آسيا غرب نهر الفرات.. وأن يدفع له جزية عشرة آلاف تالنت « العملة فى زمانهم ».. ولكن الإسكندر.. طلب التسليم.. من غير قيد أو شرط .

وخضعت للإسكندر كل المدن الفينيقية .. ما هذا صور .. ولكنها سقطت بعد حصار حسير.. دام سبعة أشهر.. فى عام ٣٣٢ ق.م.

ثم دخل مصر .. وبنى مدينة الإسكندرية.. وزار مهبط وحى آمون .. ثم غادر مصر.. فى ربيع سنة ٣٣١ ق.م . وقابل جيش الفرس وهزمه.. وسار إلى « أريلا » واستولى فيها

على كنوز كثيرة.. من الكنوز الفارسية.. ثم سقطت
« بابل » و « سوسا » ..

ولقى مقاومة فى « برسيبوليس » .. فنهب البلدة..
وأحرقها.. واستولى منها على كنوز ضخمة .

وفى ربيع ٣٣٠ ق.م تعقب الإسكندر.. دارا
الثالث - إمبراطور الفرس - فى « ميديا » شمال إيران
الآن .. حيث لقى دارا مصرعه ..

وأخضع إقليم قزوين .. ثم اتجه إلى الجنوب.. بعد
أن أعدم.. ابن بارمينيو - حاكم إقليم ميديا - على
ساحل بحر قزوين .. ثم بعث رسله لقتل بارمينيو .

وفى عام ٣٢٩ ق.م.. سار الإسكندر فى طريقه إلى
« بكتيريا » وهى بلخ الآن.. على حدود الهند ..
وتغلب على الإيرانيين بصعوبة سنة ٣٢٨ ق.م
وتزوج روكسانا الفارسية ..

واستولى عليه شيطان الغرور.. ففى نشوة
الخمر.. قتل صديقه الوفى .. « كليتوس » .. لأنه وجه
إليه اللوم.. لما ادعى لنفسه الألوهية وأخذ يدعو..
ويحث على الاعتقاد فى ألوهيته.. ولكن اليونانيين
عارضوه فى هذا الادعاء.. فأغفل هذا الأمر مؤقتا .

وفى عام ٣٢٦ ق.م.. هزم الإسكندر بوروس
حاكم الهند فى موقعة هيداسبيس . . وتقدم حتى
بلغ هيفاسيس . . وامتنعت جيوشه عن الزحف بعد
هذا ..

فعاد الإسكندر إلى المحيط الهندى وأرسل سفنه
لاكتشاف المحيط بقيادة تيارخوس.. وعاد هو
مخترقا الصحراء إلى كرمانيا.. ثم إلى سوسا -
بأرض العراق ..

وعزل حكام الفرس.. وعين حكاما - فى الغالب
- من المقدونيين.. وأدركه الأجل.. فمات فى بابل
فى ١٣ يونيه ٣٢٣ ق.م.



٣ هل هو ذو القرنين

بعد هذا العرض السريع المختصر.. عن تاريخ الإسكندر المقدوني.. الذى استعمر ضئاه بإيجاز غير متخل بالوقائع والأحداث.. من «موسوعة تاريخ العالم (١)» نلفت نظر القارئ الكريم إلى ثلاث ملاحظات.. نرجوا أن يميها القارئ الكريم حتى نناقشها عندما نمود إلى أحضان كتابنا الكريم..

أولها : أن الإسكندر فتح بلادا كثيرة فى زمن وجيز جدا .. لا يتجاوز ثلاثة عشر عاما من عام ٣٣٦ إلى عام ٣٢٣ قبل الميلاد.. ولكن تلك الفتوحات كلها تقع فى الشرق.. بالنسبة إلى موطنه مقدونيا.. ولم يتجه فى حروبه غرب مقدونيا مطلقا.. بينما صورة القرآن الكريم.. تعرض علينا أن ذا القرنين بلغ أقصى الغرب.. ثم أقصى الشرق.. ثم أقصى الشمال.. حيث أقام السد بين الجبلين..

وثانيها : أنه كان قاسيا .. فى معاملة أعدائه.. حرقا وإعداما ونهباً واسترقاقا.. بالرغم من انتصاراته المتلاحقة بينما صورة ذى القرنين فى القرآن الكريم توحى إلى النفس أنه كان رحيماً.. بقوله: « هذا رحمة من ربى ».. ولم يكن نهاباً.. برفضه قبول الضريبة التى عرضت عليه .

أما الملاحظة الثالثة : وهى الأهم .. أن الإسكندر المقدوني .. كان كافرا.. ادعى الألوهية .. وقتل فى سبيلها صديقه الوفى

المخلص « كليتوس » لما أراد نصحه.. فهل الإسكندر المقدوني - وهذا تاريخه المتفق عليه.. بين مؤرخى العالم القديم .. يكون هو ذا القرنين.. الوارد ذكره فى أواخر سورة الكهف ؟ .. أعتقد أن هذا غير مقبول.. لا عقلا.. ولا نقلا ..

إن صورة القرآن الكريم.. تعرض علينا شخصا.. مكن الله له فى الأرض.. وآتاه من كل شىء سببا.. وتلك عبارته تقول: « إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا » ٨٤ الكهف فتوحى إلينا.. أن الله أعطاه من أسباب الدين والدنيا معا.. وإن كان المفسرون قد اختلفوا فى نبوته.. إلا أنهم اتفقوا على إيمانه.. وصلاحه.. وتقواه.. حتى رفعه عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب.. -رضى الله عنهما- إلى درجة الملائكة.. فعن عمر أنه سمع رجلا ينادى ابنه « يا ذا القرنين.. فقال : اللهم غُفراً.. أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء.. حتى تسميتهم بالملائكة» كما روى عن على مثل قول عمر.. سمع رجلا يدعو آخر « يا ذا القرنين » فقال على : أما كفاكم أن تسميتهم بأسماء الأنبياء.. حتى تسميتهم بأسماء الملائكة.. قال ابن إسحاق : فالله أعلم.. أقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك أم لا ؟ والحق ما قال(٢).

(١) موسوعة تاريخ العالم إصدار وليام لالجز - ج ١ ص ١٦٤ نشر مؤسسة فرانكلين.

(٢) القرطبي ٨٣ / الكهف .

وقال المفسرون فى تفسير قوله تعالى : «إنا مكننا له فى الأرض..» سخر له السحاب .. ومدت له الأسباب .. وبسط له النور .. فكان الليل والنهار عنده سواء .. ومن بين الأسباب التى علل بها أولوا العلم تسميته بذى القرنين .. أنه كان كريم الطرفين من جهة أبيه .. ومن جهة أمه .. كما قيل : لأنه أعطى علم الظاهر وعلم الباطن .. كما قال القرطبى والنسفى وغيرهما سمي بذى القرنين .. لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس .. وهو حى .. وذكرت أسباب أخرى كثيرة . وقد تجتمع فيه كل تلك الأسباب ..

والمهم أنهم رمزوا لذلك بقرنين فى تاج ملكه .. كما سنرى فى تمثاله الذى عثر عليه أخيراً .. فى حفريات إصطخر بإيران .. وسنذكر تفصيل ذلك .. فى فصل لاحق إن شاء الله تعالى . .
ولعلنا نذكر رواية تكررت فى جميع كتب التفسير .. تقول ملك الدنيا أربعة .. مؤمنان وكافران .. فالمؤمنان : سليمان بن داود وذو القرنين .. والكافران : ثمود وبختنصر ..

خرج ذو القرنين .. من موطنه .. فأنجا .. داعياً إلى دين الله .. متجهاً إلى الغرب « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة » ..
وليس المقصود أنه بلغ إلى جرمها .. أو إلى عين تغرب فيها .. وإنما المقصود مرأى البصر وقت الغروب .. حيث انتهى إلى آخر معمور الأرض .. من جهة الغرب .. فوجدتها - فى رأى العين - تغرب فى عين حمئة .. كما تراها .. وأنت واقف على شاطئ البحر .. وقت الغروب .. وكأنها تغوص فى اليم .
وقد قرأها بعض القراء « فى عين حامية » أى حارة .. وقرأها الباقون « فى عين حمئة » .. وكلمة « عين » تفيد المكان .. داراً أو أرضاً .. أى فى مكان كثير الحمأة .. والحمأة هى الطينة السوداء .. قال ابن عباس : هى « حمئة » .. وقال معاوية : بل « حامية » .. وقال عبدالله بن عمرو بن العاص : فأنا مع أمير المؤمنين .. فجعلوا كعباً بينهم حكماً - وقد كان كعب حبراً من أجبار اليهود وأسلم - فقالوا : يا كعب كيف تجد هذا فى التوراة ؟ قال أجدها تغرب فى عين سوداء .. فوافق ابن عباس (١) .

(١) فى أغلب كتب التفسير كالقرطبى والنسفى والكشاف ٨٦ / الكهف .

(٢) القرطبى ٨٦ / الكهف .

وقال تبع اليماني :
قد كان ذو القرنين قبلى مسلماً .
ملكا تدين له الملوك وتقتدى .
بلغ المغارب والمشارق يبتغى .
أسباب أمر من حكيم مرشد .
فرأى مغيب الشمس عند غروبها .
فى عين ذى خلب وثأط حرمد
والخلب : الطين .. والثأط : الحمأة .. والحرمد :
الأسود .

يقول وهب بن منبه : كان ذو القرنين .. ابن عجز .. ليس له ولد غيره .. وكان اسمه الإسكندر .. فلما بلغ .. وكان عبداً صالحاً .. قال الله له : يا ذا القرنين .. إني باعذك إلى أمم الأرض .. وهم أمم مختلفة الألسن .. واستعظم هو هذا الأمر على نفسه .. فقال الله له : سأظفرك بما حملتك .. أشرح لك صدرك .. فتسمع كل شىء ..
وأثبت لك فهمك .. فتفقه كل شىء .. وألبسك الهيبة .. فلا يروعك شىء .. وأسخر لك النور والظلمة .. فيكونان جنداً من جنودك .. يهديك النور من أمامك .. وتحفظك الظلمة من خلفك .

فلما وصل أقصى الغرب .. وجد فى هذا المكان قوماً .. يقول القرطبى : هم أهل جابرس .. قوم من نسل ثمود .. من البقية التى آمنت بصالح - عليه السلام - منحه الله تعالى سلطة التصرف معهم كيف يشاء « ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً » ٨٦ / الكهف .
ويقول النسفى وغيره : وجدهم عراة من الثياب .. لباسهم جلود الصيد .. وطعامهم مالفظ البحر .. وكانوا كفاراً (٢) ...

أعطاه الله حرية التصرف معهم .. إن شاء عذبهم .. وإن شاء أحسن إليهم .. فماذا اختار ذو القرنين حيالهم ؟ .. لقد اختار الحسنى .. وفضل دعوتهم إلى الإيمان .

« قال أما من ظلم » ولم يتبع الهدى .. « فسوف نعذبه » فى الدين .. « ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً » * وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وستقول له من أمرنا يسراً » ٨٧ / ٨٨ الكهف ...

٤ قورش العظيم ورؤيا

دانيال النبی

وهذا هو الرؤى .. ولذلك سأعرض شيئاً مما جاء
فى التوراة حول هذا الموضوع.
فى الإصحاح الثامن .. من سفر دانيال ..
يقول دانيال:

١- فى السنة الثالثة من ملك بلشاصر الملك ..
ظهرت لى أنا دانيال رؤيا ..

٢- فرأيت وأنا فى شوشان القصر الذى فى ولاية
عیلام .. ورأيت فى الرؤيا وأنا عند نهر أولاى.

٣- فرفعت عينى ورأيت .. وإذا بكيش واقف
عند النهر وله قرنن والقرنان عاليان والواحد منهما
وراء الآخر.

٤- رأيت الكبش ينطح غرباً وشمالاً وجنوباً فلم
يقف حيوان قدامه ولا منقلد من يده.

٥- وبينما كنت متأملاً .. إذا بتيس من المعز جاء
من الغرب على وجه كل الأرض ولم يمس الأرض
وللتيس قرن معتبر بين عينيه.

٦- وجاء إلى الكبش صاحب القرنين الذى رأيت
واقفاً عند النهر وركض إليه بشدة قوته.

٧- ورأيت أنه قد وصل إلى جانب الكبش ..
فاستشاط عليه وضرب الكبش وكسر
قرنيه فلم تكن للكبش قوة على
الوقوف أمامه وطرحه على الأرض

وقبل أن نصحب ذا القرنين .. فى رحلة إلى مطلع
الشمس .. يجدر بنا أولاً .. أن نعرف من هو الرجل
الذى سنصاحبه فى تلك الرحلة ..

يقول أبو الكلام آزاد .. وزير المعارف الهندى
السابق .. فى كتاب له .. عنوانه : « ويسألونك عن ذى
القرنين » .. وهو كتاب قيم .. سأحاول أن أخلص
للقارئ شيئاً منه .. فهو قوى فى تسليط الأضواء
الكاشفة .. لاكتشاف شخصية ذى القرنين .. قال فيه
آزاد.

الحاصل أن المفسرين .. لم يصلوا إلى نتيجة
مقنعة .. فى بحثهم عن ذى القرنين .. القدماء منهم
لم يحاولوا التحقيق .. والمتأخرون حاولوا .. ولكن
كان نصيبهم الفشل .. ولا عجب فالطريق الذى
سلكوه .. كان طريقاً خاطئاً ..

فقد صرحت الآثار .. بأن السؤال .. كان من قبل
اليهود .. فكان لائقاً بالباحثين .. أن يرجعوا إلى
أسفار اليهود .. ويبحثوا .. هل يوجد فيها شيء
يلقى الضوء على شخصية ذى القرنين .. إنهم لو
فعلوا ذلك لفازوا بالحقيقة — أهـ.

على الأرض وداسه ولم يكن للكباش منقذ من قوته.
٨ - فتعظم تيس المعز جدا ولما اعتز انكسر القرن
العظيم وطلع عوضا عنه أربعة قرون.. ولكن ليست
فى قوته.

ويستمر دانيال.. فى سرد رؤياه.. ثم يقول :

١٥ - وكان لما رأيت أنا دانيال الرؤيا.. وطلبت
المعنى. إذا بشبه إنسان واقف قبالتى .

١٦ - وسمعت صموت إنسان بين أولادى..
فنادى وقال: يا جبرائيل فهم هذا الرجل الرؤيا.

١٧ - فجاء إلى حيث وقفت.. ولما جاء خفت
وخررت على وجهى.. فقال لى: افهم يا ابن آدم..
أن الرؤيا لوقت المنتهى.. إلى أن قال فى الآية :

٢٠ - أما الكباش الذى رأيته ذا القرنين فهو ملك
ماوى وفارس.

٢١ - والتيس العافى ملك اليونان. والقرن
العظيم الذى بين عينيه هو الملك الأول.

٢٢ - وإذا انكسر وقام أربعة عوضا عنه .
فستقوم أربع ممالك من الأمة.. ولكن ليس فى قوته..
إلخ (١).

وواضح أن تأويل الرؤيا .. هو اتحاد مملكتى

ماوى «ميديا» وفارس. وميديا تقع فى شمال
غرب إيران الآن .. وفارس فى جنوبها الشرقى
.. وباتحاد المملكتين .. يكون ملك تلك الدولة
المتحدة .. هو الكباش ذو القرنين .. ولا يقضى
على هذا الكباش غير تيس اليونان .. الآتى من
الغرب .. أى الإسكندر المقدونى .. وقد
ثبت تاريخيا - كما قدمنا - أن

الإسكندر حارب «دارا الثالث ملك فارس.. وهزمه
الإسكندر فى عام ٣٣٠ ق.م وقضى عليه.

**فعلينا - إذا - أن نبحث عن الملك.. الذى وحد
ميديا وفارس.. وجعلها مملكة واحدة.. فهو ذو
القرنين.. الذى رآه دانيال كبشا ذا قرنين ثم جاء تيس
اليونان.. الذى هو الإسكندر المقدونى.. وقضى على
مملكته فى أيام «دارا الثالث».. ولنتمسك بهذا الخيط..
ونعود إلى التاريخ من قبل دارا الثالث والإسكندر
المقدونى..**

ف نجد فى موسوعة تاريخ العالم.. حوالى ٥٥٠ -
٥٣٠ قبل الميلاد..

١ - ظهر قورش العظيم.. فخلع سيده إستياجيز..
ملك ميديا.. سنة ٥٥٩ ق.م وغزا ليديا ٥٤٦ ق.م
وبابل ٥٣٨ ق.م وأسس الإمبراطورية الفارسية
الكبرى.. التى امتدت من السند.. إلى البحر
المتوسط.. ومن القوقاز.. إلى المحيط الهندى ومات
قورش العظيم عام ٥٢٩ ق.م..

٢ - وورثه ابنه قمبيز الذى غزا مصر عام ٥٢٥ ق.م..
أى قبل الإسكندر المقدونى بحوالى مائتى عام
تقريبا..

٣ - وورث الإمبراطورية الفارسية «دارا الأول» بعد
قمبيز من ٥٢١ - ٤٨٥ ق.م.

٤ - ويستمر عرض التاريخ إلى عام ٣٣٦ ق.م حيث
كان إمبراطور فارس هو «دارا الثالث» الذى مات فى
عام ٣٣٠ ق.م بعد أن استطاع الإسكندر المقدونى أن
يستولى على الإمبراطورية الفارسية (٢).



(١) سفر دانيال ص ٨.

(٢) موسوعة تاريخ العالم - إصدار وليام لانج ص ٩٣ و ٩٤ من الجزء الأول نشر مؤسسة فرانكلين ترجمة محمد مصطفى زيادة...

٥ فتوحات قورش العظيم

وشخصيته

. فيما يشبه الأساطير.. وكذلك كتب «زينوفن» المؤرخ اليوناني.. فقالا :

إن جده لأمه.. واسمه «إستياغس» عزم على قتله وليدا.. إلا أن العناية الإلهية.. فتحت لهذا الوليد قلب أمير.. من أمراء البلاد فأُنقذه من الموت.. وأغلقت في وجهه أماكن التربية من مدارس وغيرها.. ففتحت له مدرسة الفطرة أبوابها.

فرباه الأمير.. في الجبال والصحارى.. حتى أتت ساعة ظهوره فبرزت مواهبه العظيمة.. وسيرته الرشيدة.. وعقله الراجح.. فاشتهر أمره.. وذاع صيته.. واستولى على حكم فارس.. وكان من حقه.. أن ينتقم لنفسه.. من أعدائه.. الذين حاولوا هلاكه صغيرا.. ولكنه أثر العفو على النعمة.. فصفح عنهم أجمعين^(١).

ثم بدأت فتوحات قورش.. وحروبه.. وانتصاراته.

ولكنها ليست حروبا لسفك الدماء.. أو طمعا في ملك أو مال.. ولكن يبرز فيها الأمن

من حقنا الآن.. أن نسلط بعض الأضواء.. على قورش العظيم هذا لنرى مدى تطابق فتوحاته.. وشخصيته.. مع فتوحات وشخصية وأخلاق، ودين ذي القرنين.. بالصورة التي عرضتها علينا سورة الكهف.

وقبل أن ندخل في حروب قورش وفتوحاته.. نستقرئ التاريخ عن أصله.. وطريقة ظهوره.

فنجد أن التاريخ يحدثنا عن ظهور شخصية.. في شمال فارس عام ٥٥٩ ق.م شخصية فذة.. في ظروف غريبة.. لفتت نظر العالم كله إليها فجأة.

كان صاحب هذه الشخصية.. شابا من أسرة فارسية.. سماه اليونان سائرس.. وسماه العرب قورش.. استطاع هذا الشاب.. أن يخلع ملك ميديا.. وحكم فارس.. واستولى على مملكة ميديا.. وكون من قسمي إيران مملكة متحدة.. لأول مرة في التاريخ.. ونشأت في آسيا الغربية إمبراطورية جديدة.. وقد سجل «هيرودوتس» المؤرخ اليوناني.. وهو يعتبر بحق.. أبو التاريخ القديم.. فقد ولد سنة ٤٨٤ قبل الميلاد.. سجل حياة قورش

(١) من كتاب آزاد..

والعدل.. وإنصاف المظلومين.. والأخذ بيد
المحرومين..

وفى اثنتى عشرة سنة.. استطاع أن يستولى على
جميع المعمور فى الأرض.. غربا.. وشرقا.. ولعل
هذا يتلاءم مع قوله تعالى عن ذى القرنين: «إنا مكننا
له فى الأرض، وأتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا»
٨٤ - الكهف.

ويعرض علينا التاريخ اليونانى.. ثلاث حملات
حربية لقورش:

الحملة الأولى:

فتح فيها ليديا.. ومملكة ليديا هذه.. تقع فى
القسم الشمالى من آسيا الصغرى «تركيا» وتسمى
الآن الأناضول.. مستقر حكومة تركيا الآن.. وكانت
حكومة هذه البلاد إذ ذاك.. يونانية الصبغة..

انتصر قورش فى حرب تلك الدولة.. وكانت
عاقبة البلاد المقهورة فى هذا العصر.. الدمار والهلاك
على أيدي الفاتحين المنتصرين.. إلا أن مؤرخى
اليونان كلهم.. يشهدون بأنه لم يقع شىء من هذا..
بل عامل قورش المهزومين.. بكل سخاء وجميل..
حتى أنهم لم يشعروا بأنه كانت هناك حروب
بساحتهم.. إلا مارواه هيرودوتس من أمر كروسس -
الملك المغلوب: فقال: إن قورش.. أمر بادىء ذى
بدء.. بأن يبنوا مصطبة من الحطب.. ويشعلوها
بالنار.. بعد أن يقعدوا كروسس فوقها.. ولعله كان
يقصد بذلك.. أن يمتحن شجاعته وثباته.. أو يبطل
أوهام البلاد الوثنية.. لأن عبادة اليونان.. كانت
وثنية.. ولذلك.. لما رآه جالسا.. غير هباب ولا
وجل.. عفا عنه.. فعاش فى كنفه.. فى بحبوحة
المعيش.. ورفاهة الحياة.. إلى آخر أيامه.. وقد علمت
شعوب العالم.. من تلك الحرب.. أن قورش ليس
فاتحا جديدا فحسب.. بل هو معلم أخلاقى جديد
كذلك.. يؤسس - خلافا لما كانت عليه الملوك
والحكومات - إمبراطورية جديدة.. على أخلاق
سياسية جديدة.. هذا ما قرره تاريخ اليونان..

وهنا يومض فى الحائط.. تعبیر القرآن الكريم..
عن الرحلة الأولى لذى القرنين إلى جهة الغرب
«حتى إذا بلغ مغرب الشمس، وجدها تغرب فى عين
حمئة.. إلخ» ٨٦ - الكهف. تلك هى المهمة الأولى
لذى القرنين.. نشر دعوته إلى أقصى الغرب..

ويظهر هنا.. أنه اتجه غربا.. فالسائر من إيران
الشمالية.. إلى آسيا الصغرى.. يكون متجها إلى
الغرب تماما..

كتب هيرودوتس - المؤرخ اليونانى الكبير.. يقول:
كان انتصار قورش.. سريعا جدا.. لم يتوقعه
أحد.. فما مضت على موقعة «بنزيا» أربعة عشر
يوما.. إلا وخضعت عاصمة ليديا المنيعه ووقع
ملكها «كروسس» أسيرا بين يدي الفاتح العظيم..
فأصبحت آسيا الصغرى.. كلها.. من البحر
المتوسط.. إلى البحر الأسود خاضعة لقورش.. ولم
يكتف بهذا.. من جهة الغرب.. وإنما استمر سائرا..
متوغلا.. حتى بلغ آخر الغرب.. على ساحل
البحر.. ورأى الشمس تغرب فى عين الخليج
الساحلى..

يقول آزاد:

لنضع خريطة الساحل الغربى لآسيا الصغرى..
أمامنا.. نرى فيها معظم الساحل.. قد تقطع فى
خلجان صغيرة.. لاسيما على مقربة من أزمير..
حيث يتخذ الخليج صورة عين.. وكانت «ساديز»
عاصمة ليديا - على مقربة من الساحل الغربى.. ولا
تبعد كثيرا عن موقع أزمير الحاضرة..
فلنا أن نقول: إن قورش.. لما تقدم.. بعد
استيلائه على «ساديز» العاصمة.. وصل من ساحل
بحر إيجه.. إلى مكان قريب من أزمير.. ورأى
الساحل.. قد اتخذ صورة تشبه العين وكان الماء قد
انكدر من حول الساحل.. فرأى الشمس تغرب
مساء.. فى هذه العين.. وهذا ما عبر عنه القرآن
الكريم.. بقوله «وجدها تغرب فى عين حمئة» أى
تراءى له.. كأن الشمس تغرب فى بقعة كدرة من
الماء..

ولعلنا أدركنا الآن.. قوله تعالى.. عن ذى
القرنين «وجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين إما أن
تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا قال أما من ظلم
فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا، وأما
من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له
من أمرنا يسرا ثم أتبع سببا» ٨٦ - ٨٩ - الكهف..
فقد حكى لنا التاريخ.. ماملة
قورش لهؤلاء القوم.. والإحسان إليهم -
كما ذكرنا من قبل وخاصة إذا علمنا أن هيرودوتس..

كتب هذا التاريخ قبل ميلاد الإسكندر المقدوني بمائة وستين عاماً.. وأنه - أى هيرودوتس - كان يونانياً.. أما قورش فكان فارسياً.. ويعتبر انتصار قورش على كروسس.. فى آسيا الصغرى - .. هزيمة لآلهة اليونان.. التى كان يعبدها كروسس.. ولكن هيرودوتس.. كتب ما كتب عن أخلاق قورش وإنسانيته ومثله العليا.. للحق وللتاريخ..

أما الحملة الثانية :

فكانت إلى مطلع الشمس.. إلى جهة الشرق.. وقد حدثنا مؤرخو اليونان.. على لسان هيرودوتس وغيره.. أن قورش.. بعد أن فتح ليديا فى الغرب.. رأى أن طغيان بعض القبائل الهمجية الصحراوية.. فى الشرق.. يدفعه إلى التوجه إليهم.. وكانوا رحالة.. لا يسكنون مدناً.. ولا يبنون بيوتاً.. قال المؤرخون : هى قبائل «بكتريا» .. أى بلخ.. لو نظرنا فى الخريطة.. لوجدنا بلخ - وهى فى شمال الهند - بمشابة الشرق الأقصى لإيران.. لأن الأرض بعدها ترتفع وتسد الطريق..

ويظهر أن قبائل «جيد روسيا» كانت قد أخذت تسعى فى الفساد على حدوده الشرقية.. فقام حتى وصل بلخ فاتحاً.. والمقصود من جيد روسيا.. البلاد التى تسمى الآن بمكران وبلوخستان (١).

وهذا مطابق تماماً.. لقوله تعالى عن ذى القرنين.. فى رحلة الشرق : «حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً» فهم رحالة.. ليست لهم مساكن تحميهم من الشمس «كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً» (*) ثم أتبع سبباً ٩٠ - ٩٢ / الكهف.

وأما الحملة الثالثة : التى اتجه فيها.. إلى الشمال.. إلى جبال القوقاز.. بين بحر قزوين «الخزر».. والبحر الأسود..

حيث كانت تغير.. على بلاد السهول.. قبائل تعيش على السطو والنهب.. تأتى من خلف الجبل.. من البقعة الشمالية الشرقية.. من الأرض.. وهى منغوليا.. وقبائلها الرحل «منغول».. ليأمن غاراتهم.. على مملكته العريضة.. المترامية الأطراف..

ويحدثنا التاريخ.. عن طريق كتابات سجلها دارا الأول - الذى استولى على

الإمبراطورية الفارسية الكبيرة.. بعد قمبيز بن قورش.. سجل كتابات تاريخية على صخور إصطخر.. ومفهومها أنه كانت توجد قبائل همجية.. تغير على آسيا الغربية.. نازلة من جبال القوقاز.. سماهم اليونانيون باسم : «سى تهن» وقد ظهرت هذه القبائل بهذا الاسم.. فى كتابة دارا الأول.. التاريخية.. ولنا عودة إلى كتابة دارا.. هذه.. بإصطخر.. فهى التى ستبين لنا.. دين قورش.. وعبادته.. وأخلاقه.. وتمثاله.. تلك الكتابة التى لم تستطع حملة الإسكندر المقدونى.. أن تخرّبها.. أو تمحوها.. لأنها فوق الصخور.. ويقول آزاد فى كتابه.. لمجزم بأن تلك القبائل الهمجية المغيرة.. هم الذين بنى قورش السد الحديدى لمنعهم..

ويقول المؤرخ اليونانى الكبير «هيرودوتس : إن حدود الآشورين الشمالية.. كانت عرضة لغارات قبائل «سى تهن» المستمرة.. وكانت حدودها.. تمتد إلى جبال أرمينيا.. فكانت تلك القبائل.. تجتاز مضيق القوقاز.. وتشن الغارات.. على شعوب السهول.. وتقدمت جموع كبيرة منها سنة ٦٢٠ ق.م.. ووصلت إلى نينوى.. محطمة فى طريقها إيران الشمالية..

يذكر لنا التاريخ أيضاً.. أن منغوليا.. هى مهد الشعوب القديمة.. وهى جزء مرتفع من الكرة الأرضية.. واقع فى الشمال الشرقى.. كان مهداً لشعوب قديمة لا تحصى عدداً.. وكان معينا بشريا.. الصين فى شرقه.. وآسيا الغربية والجنوبية فى غربه وجنوبه.. وأوروبا فى الشمال الغربى منه..

يقول هيرودوتس : فى عام ٥٠٠ ق.م.. الزمن الذى ظهر فيه قورش تكونت مملكة ميديا وفارس المتحدة.. فتغيرت الظروف.. وأمنت آسيا الغربية.. من هجمات «سى تهن»..

واندفع سيل جديد من القبائل المنغولية.. فى القرن الثالث.. قبل الميلاد وانصب على الصين.. وقد سعى مؤرخو الصين هذه القبائل «هيونغ نو»..

(١) من كتاب آزاد ص ١٣٢.

وفى هذا العصر.. بنى إمبراطور الصين «شين هوانغ تى» ذلك الجدار العظيم.. جدار الصين.. لصد هجمات هؤلاء المغيرين.. ولازال موجودا إلى الآن.. وقد بنى فى سنة ٢٦٤ ق.م/ كما يخبرنا تاريخ الصين.. عن قبيلة أخرى.. من تلك البقعة من الأرض «أرض منغوليا» كانت تعرف باسم «يواش».. ويقول آزاد.. الوزير الهندى.. يظهر أن هذه الكلمة مازالت تحرف.. عند الأمم.. حتى أصبحت «ياجوج».. فى العبرية(١).

وها نحن نرى الآن .. بعد تلك الجولة التاريخية السريعة .. أن حملات قورش العظيم الثلاث .. هى نفسها .. رحلات ذى القرنين .. التى كانت آخرها.. رحلة القوقاز.. التى أقام فيها السد.. «حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا ياذا القرنين إن ياجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجا على أن نجعل بيننا وبينهم سدا . قال ما مكنى فيه ربي خير ، فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما» ٩٣ - ٩٥ / الكهف..

٦ أجوج ومأجوج

جاء ذكر هذا الاسم.. بأجوج ومأجوج في اليونانية «خاغ وماخاغ» يقول آزاد: ذكرنا هاتان الكلمتان.. بهذا الشكل.. في الترجمة السبعينية للتوراة.. وانتشرتا بنفس الصيغة.. في سائر اللغات الأوروبية..

كما جاء هذا الاسم.. في سفر التكوين.. عند ذكر أبناء أبناء نوح.. ففي الإصحاح العاشر: ٢ - بنو يافث هم.. جومر، ومادى، وياوان، ومأجوج، وتوبال، وماسك، وتيراس. (١). وأما القرآن الكريم.. فقد ذكر بأجوج ومأجوج في موضعين: الأول: في سورة الكهف.. وهو الموضوع الذي نستعرضه الآن مع ذى القرنين..

والموضع الثانى: في سورة الأنبياء «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق» ٩٦ / الأنبياء.

يقول عنهم أهل التفسير:

لما كان ذو القرنين.. فى بعض الطريق.. بما يلى الترك.. من المشرق الشمالى.. قالوا له: ياذا القرنين.. إن بين هذين الجبلين..

خلقا من خلق الله تعالى.. من الكثيرة.. بحيث لا يحصرهم عدد.. ولا يحددهم حد.. يأكلون العشب.. ويفترسون الدواب كما تفترسها السباع.. ويأكلون حشرات الأرض.. من العقارب والشعابين.. وليس لله تعالى خلق ينمو نماءهم.. فى العام الواحد.. قال الكلبى: حفاة.. عراة.. عماء عن الحق.. يتسافدون مثل الكلاب.. ويتهارجون تهارج الحمير..

وقال السدى والضحاك: الترك شرذمة من أجوج ومأجوج.. خرجت تغيير.. فجاء ذو القرنين.. ف ضرب السد.. فبقيت فى هذا الجانب.. وقالوا: بنى السد.. على إحدى وعشرين قبيلة.. وبقيت منهم قبيلة واحدة.. دون السد.. فهم الترك (٢) ..

وقال ابن عباس.. فى تفسير «حتى إذا بلغ بين السدين» إنهما جبلان شمال أرمينية وأذربيجان.. وهو كما ترى نفس موقع جبال القوقاز التى حددها التاريخ عن سد قورش..

(١) سفر التكوين الإصحاح العاشر.

(٢) القرطبي وغيره - ٩٣ - الكهف.

وقد روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: « ولد لنوح سام وحام وياث.. فولد سام العرب وفارس والروم.. والخير فيهم وولد ياث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة.. ولا خير فيهم.. وولد حام القبط والبربر والسودان»..

ولمجد هنا أن يأجوج ومأجوج من نسل ياث بن نوح.. كما ذكرت التوراة في سفر التكوين.. تماما كما روى أبو سعيد الخدري.. عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: « لا يموت رجل منهم.. حتى يولد لصلبه ألف رجل » يقصد يأجوج ومأجوج.. وهذا أيضاً.. رأى المؤرخين اليونانيين.. من حيث كثرة توالدهم.. وتكاثرهم..

وفي حديث عبدالله بن مسعود.. سألت النبي - صلى الله عليه وسلم - عن يأجوج ومأجوج.. فقال: «يأجوج ومأجوج أمتان.. كل أمة.. لا يعلم عددها إلا الله تعالى.. لا يموت الرجل منهم.. حتى يولد له ألف ذكر.. من صلبه.. كلهم قد حمل السلاح(١)».. كانوا يخرجون.. من مضيق جبل القوقاز.. أيام الربيع.. فلا يتركون شيئاً أخضر.. إلا أكلوه.. ولا يابساً.. إلا احتملوه.. كما قيل: إنهم كانوا يأكلون الناس(٢)»..

كما قالوا: الناس عشرة أقسام.. تسعة منها.. يأجوج ومأجوج كانوا قوماً.. لغتهم غريبة.. لا يمكن التخاطب معهم.. لا يفهمون ولا يفهمون «حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما «أى من خلف الجبلين «قوما لا يكادون يفقهون قولاً».. ولهذا قال الناس له: «قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض، فهل لمحمل لك خرجا على أن لمحمل يبتنا وبينهم سدا»..

وهنا تظهر عزة الإيمان .. وعفة الإحسان .. فى ذى القرنين .. فيرفض أخذ الخراج والضريبة.. التى فرضوها على أنفسهم .. نظير قيامه .. بعمل سد .. بينهم وبين هؤلاء المفسدين فى الأرض .. فيقول لهم: «قال ما مكنى فيه ربي خير» أى أعطاني من النعم

والخيرات .. والتمكين فى كل شيء .. خير بما تعرضونه على من أموال .. ولا أطلب منكم.. إلا المساعدة.. بفعله وصناع مهرة.. يحسنون البناء.. ويجيدون العمل بالآلات.. «فأعيتوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما».. كان بين الجبلين مائة فرسخ (٣)»..

فأمر ذو القرنين.. بحفر الأساس.. حتى بلغ الماء.. وجعل الأساس من الصخر.. وأمر بوضع طاقة من قطع الحديد والحجارة ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنفاخ.. حتى تحمى.. وإذا انصهر الحديد.. صار ناراً.. ثم يؤتى بالنحاس المنصهر.. فيفرغ على تلك الطاقة المستوية.. فإذا التأم واشتد.. ولصق البعض ببعض.. استأنف وضع طاقة أخرى.. إلى أن استوى العمل.. فصار جبلاً صلباً..

يقول القرطبي: عرضه سبعون فرسخاً.. وارتفاعه مائتا ذراع وخمسون ذراعاً (٤)».. ويصور لنا القرآن الكريم هذا العمل.. بقوله على لسان ذى القرنين «آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين، قال انفخوا، حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً، فما استطاعوا أن يظهره، وما استطاعوا له نقباً «٩٧/٩٦ الكهف»..

وزبر الحديد: هى القطع الكبيرة.. والقطر: هو النحاس المذاب.. ومنه قوله تعالى: عن سليمان - عليه السلام -: «وأسلنا له عين القطر».. والصدفان: الجبلان.. وبهذا السد بين جبال القوقاز.. صاراً باباً مقفلاً منيعاً.. لسلامة سائر بلاد آسيا الغربية..

فأمنت جميع الشعوب.. التى تسكن آسيا الغربية.. حتى مصر من جهة الشمال.. وصارت تلك البلاد كلها فى مأمن من الغارات ولهذا قال لهم ذو القرنين: «هذا رحمة من ربي»..

وهكذا ترى المؤمن دائماً.. لا يسند عمل الخير إلى نفسه.. وإنما يسنده إلى الله تعالى.. مدبر الأمور.. ومسبب الأسباب ..

(١) القرطبي ٩٤ / الكهف.

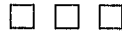
(٢) النسفى والبيضاوى ٩٤ / الكهف.

(٣) النسفى والقرطبي وغيرهما ٩٧ / الكهف والفرسخ ثلاثة أميال.

(٤) المصدر السابق.

قال قتادة .. من السد: هو كالبرد المحبر (١) : .
طريقة سوداء وطريقة حمراء .. ويروى أن رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - جاءه رجل .. فقال:
يا رسول الله .. إني رأيت سد يأجوج ومأجوج .. قال :
«كيف رأيته»؟ قال: رأيته كالبرد المحبر .. طريقة
صفراء .. وطريقة حمراء .. وطريقة سوداء .. فقال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «قد رأيته» (٢) ..
كما جاء في التوراة .. في سفر حزقيال ..
تنبؤات عن يأجوج ومأجوج في الإصحاحين
الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين .. ففي
الإصحاح ٣٨ يقول حزقيال :

١ - وكان إلى كلام الرب قائلًا - ٣ يا ابن آدم
اجعل وجهك على «جوج» أرض «مأجوج»
رئيس مسك وتوبال ، وتنبا عليه - ٣ - وقل هكذا
قال السيد الرب. ها أنذا عليك يا «جوج» رئيس
مسك وتوبال... (٣)
وقد تردد في الإصحاحين ٣٨ و٣٩ .. تلك العبارة
«جوج رئيس مسك وتوبال» عدة مرات.
وقد استتج آزاد.. من هذا .. أن تلك النبوة .. في
سفر حزقيال .. قد صورت موقع يأجوج ومأجوج
الجغرافي .. فمسك .. هي «موسكو» (٤) .. أما
توبال .. فهي بلاد البحر الأسود المرتفعة ..



(١) البرد المحبر: أى الرداء الملون ..

(٢) القرطبي ٩٦ / الكهف .

(٣) حزقيال - ص ٣٨ / ١ - ٣ .

(٤) من كتاب آزاد ص ١٧٠ .

٧ دين قورش ولحة

عن دين «زرادشت»

بعد وفاته بثمانية أعوام فقط (١) ... ترك دارا تاريخا حافلا .. على أحجار إصطخر .. التي كانت عاصمة إيران القديمة ..

يقول آزاد : إنه رأى هناك تمثالا حجرياً لقورش بعينه .. وجدوه منصوباً .. فى مكان يبعد عن إصطخر .. بنحو خمسين ميلاً .. على شاطئ نهر «مرغاب» ... وهو تمثال .. على القامة الإنسانية .. ظهر فيه قورش .. وعلى جانبيه جناحان .. كجناحي العقاب .. وعلى رأسه قرنان كقرنى الكبش .. يده اليمنى ممتدة يشير بها إلى الأمام .. ولباسه نفس ذلك اللباس .. الذى نراه فى صور ملوك بابل وإيران ..

ولعلنا نذكر رؤيا دانيال النبى .. التى ذكر فيها .. أنه رأى كبشاً على رأسه قرنان ... الواحد منهما وراء الآخر .. وهكذا نرى القرنين فى التمثال ..

بعد تلك الرحلة .. التى طفنا فيها .. غرب الأرض وشرقها .. مع قورش .. فى نور التاريخ .. والجهنما معه فيها إلى الشمال .. حيث أقام السد الحديدى بين جبال القوقاز .. ورأينا مدى تطابقها مع رحلات ذى القرنين غرباً وشرقاً .. وإقامته سد يأجوج ومأجوج .. التى صورها لنا القرآن الكريم .. يهمنى بالدرجة الأولى .. أن نعرف الدين الذى كان يعتنقه قورش ... حتى نقارن بينه وبين ذى القرنين .. المؤمن الموحد .. الذى ارتفع به عمر بن الخطاب .. وعلى بن أبى طالب .. إلى درجة الملائكة .. كما ذكرنا من قبل .. بخلاف الإسكندر المقدونى .. الذى مات .. وهو يدعى الإلهية .. وقتل فى سبيل دعواه هذه ... صديقاً مخلصاً وفيماً .. هو كليتوس .. كما رأينا فى حنايا التاريخ ..

وقد هياً الله - سبحانه - لنا سبيل التعرف على دين قورش - تاريخياً - بكتابات تركها لنا «دارا الأول» ويسمونه دارا يوش .. وهو ابن عم قورش .. وخلفه فى الحكم

(١) من موسوعة تاريخ العالم .. لوليام لالجز .

وقد نقل آزاد في كتابه عن ذى القرنين.. رسماً لشمثال قورش.. رسمه السير رابرت كيربوتر.. ونشره في كتاب «رحلة إلى إيران وجورجيا».. قبل ١٨٥١..

وقبل أن تشغلنا كتابات داريوش الأول.. التي سجلها على صخور إصطخر.. عن الديانة التي كان يعتنقها هو وسلفه قورش.. أريد أن أعرض لمحة سريعة من التاريخ.. عن الديانة التي كان يدين بها الفرس.. في تلك الحقبة من الزمن.. وما قبلها بقليل.. لتكون أقدامنا ثابتة.. وبقيننا قويا.. فيما نكتب أو نقرأ أو نفهم..

لم ير التاريخ القديم.. إلا دعوتين تدعوان إلى التوحيد.. في العالم الوثني... وهما دعوة إبراهيم - عليه السلام - من الشعوب السامية.. ودعوة زرادشت من الشعوب الآرية..

ف نجد في صفحة ٩١ من الجزء الأول - من موسوعة تاريخ العالم التي أصدرها وليام لاهيز - ما يمكن تلخيصه.. فيما يأتي:-

كانت الزرادشتية.. عبارة عن إصلاح للديانة الآرية القديمة.. القائمة على تعدد الآلهة.. وربما ولد زرادشت.. في ميديا.. حوالى ٦٦٠ ق.م (١).... ولكن يظهر أنه عاش في باكتيريا «بلخ».. حيث يروى أنه اجتذب الملك واسمه «هستاسبس» إلى دينه.. وقد جمعت تعاليم هذا الدين.. في كتاب.. اسمه «أفستا» من خمسة أجزاء.. بها ترانيم.. وتعاليم.. وطقوس دينية وأخلاقية.. وصلوات وعبادات.. به نواة المذاهب الكبرى.. للزرادشتية التامة: أى التوحيد... والخلاص العام.. والحرب الكونية بين الخير والشر.. وما يجب على كل شخص أن يعمل لخلاص نفسه.. وخلاص الكون بالطاعة لأوامر الإله الطيب «أهورامزدا» أى سيد العقل.. وطبعاً يقصد هنا الله - سبحانه وتعالى - وفي الأجزاء الأخيرة من «أفستا» الذى هو اسم كتاب زرادشت.. يسمى إله الشر أو الجن الأكبر.. باسم «أهرمان».. أى الروح الشريرة.. وواضح أنه يقصد هنا «إبليس»..

ثم يقول زرادشت في تعاليمه:

وبعد الموت.. يعبر الطيبون جسر «كنفات» يقصد الصراط - حيث يلاقون ثوابهم.. أما الخبيثون.. فيقعون من هذا الجسر ويعذبون في بيت الأكاذيب..

هذا موجز تاريخى عن دين زرادشت (٢)

ولعل الفقرة الأخيرة.. التي ذكر فيها زرادشت.. الإله الطيب.. باسم «أهورامزدا».. وإله الشر.. باسم «أهرمان».. جعلت الكثير من رجال الفكر.. يعتقدون أن الزرادشتية قائمة على المثوية أى اعتقاد وجود إلهين اثنين فى الكون.. إله للخير.. وإله للشر.. كما كان المجوس يعتقدون.. قبل زرادشت.. وهذا الظن خطأ محض.. فزرادشت جعل أصليين كونييين: أصل للخير.. وأصل للشر.. ولم يقل بإلهين متوازيين..

ويقول آزاد.. حول هذا الموضوع: أن زرادشت.. يقول بالأخلاق الثنوية.. لا بالإلوهية الثنوية.. ففى الكون أصلان: أصل للخير.. وأصل للشر.. والذى يجلب الشر هو «أهرمن» أى الشيطان فى لغته.. هذه الثنوية... بهذا المعنى.. موجودة فى الأديان المعروفة...

اليهودية.. والنصرانية.. والإسلام.. فكلها تقول بوجود الشيطان أصل الشر...

ولعلنا بعد هذا العرض السريع.. للدين السائد... فى تلك البلاد.. فى هذه الحقبة الزمنية.. التى ظهر فيها قورش.. وخلفه داريوش الأول.. نستطيع أن نستعرض صخور «إصطخر» نقرأ معا فيها.. بعض ما كتبه داريوش عن ديانتته هو وسلفه وابن عمه قورش..

وقد أورد لنا الأستاذ الكبير.. أبو الكلام آزاد.. وزير المعارف الهندى.. فى كتابه عن ذى القرنين.. الكثير مما رآه منقوشاً على تلك الصخور.. ويقول:

(١) نلاحظ أن زرادشت كان قبل قورش بزمان وجيز لا يزيد على بضع عشرات من السنين.. حيث كان ظهور قورش سنة ٥٥٠ ق.م.

(٢) من موسوعة تاريخ العالم لوليام لاهيز.

أما كتابات دارايوش.. فلن من حسن حظ التاريخ.. أنه اختار لها الصخور الجبلية.. التي عاشت.. على رغم الدمار الإسكندري.. وأهم هذه الكتابات.. كتابات ذكر فيها.. تفصيل ارتقائه العرش.. وثورة «غوماتا.. المجوسى» أ. هـ .

وهذه الثورة... ثورة غوماتا.. التى يشير إليها آزاد.. هى حادثة تاريخية ثابتة.. حدثت بعد وفاة قورش بثمانية أعوام.. فقد أجمع المؤرخون.. على أن قورش توفى سنة ٥٢٩ ق.م وخلفه ابنه كمبوشية «قمبيز الأول» (١). الذى استولى على مصر فى سنة ٥٢٥ ق.م.. وعلم وهو بمصر.. أن ثورة نشبت فى ميديا.. العاصمة.. قام بها شخص اسمه غوماتا، وادعى أنه الولد الثانى لقورش.. وطالب بالملك لنفسه.. فرجع قمبيز من مصر.. إلا أنه مات بالشام.. قبل وصوله إلى ميديا.. فارتقى العرش «دارايوش» ابن عم قورش.. لعدم وجود أخوة لقمبيز.. وقضى على الثورة.. وقتل زعيمها..

وأجمع المؤرخون.. على أن دارايوش.. استولى على حكم الإمبراطورية الفارسية سنة ٥١٢ ق.م.. ونعود إلى **صخور إصطخر..** فنجد على أحجارها كتابات كتبها دارايوش وقد تكرر فيها اسم «أهورا مزدا».. الذى يرجع الملك جميع مساعيه الناجحة.. إلى فضله وتوفيقه..

وقد علمنا.. سابقا.. أن «أهورا مزدا» هو الله.. فى الدين الزرادشتى.. وقد وجدنا أن الدين الزرادشتى.. يقوم على أسس أخلاقية مثلى.. «هومت» و «هوخت» و «هوروشت» ومعناها بلغة العرب: صدق النية.. وصدق القول.. وصدق العمل (٢)

فإذا كان ذو القرنين يدين بدين زرادشت.. فقد أثبت له القرآن الكريم.. الإيمان بالله واليوم الآخر.. بل وجعله من الملهمين من عند الله تعالى - أليس معنى هذا.. أن دين زرادشت كان دينا صحيحا إلهيا؟.. ويعتقد الكثير الآن.. خطأ.. أن دين زرادشت هو دين المجوسية.. وعبادة النار وتلك عبادات

دخيلة على الدين الزرادشتى.. كما سنبين ذلك فيما بعد.. لأن زرادشت كان أكبر حرب ضد المجوسية بجميع صورها..

لقد ثبت نهائياً.. أنه دين التوحيد والأخلاق الفاضلة.. وأن عبادة النار.. والعقيدة الثنوية.. التى نسبتا إليه.. ليستا منه بل من بقايا المجوسية.. التى اختلطت بالزرادشتية.. فى العصور التالية.. بعد تخريب الإسكندر المقدونى لتلك الديار..

لقد بلغ الدين الزرادشتى مجده.. فى عصر قورش.. ودارايوش.. وها نحن نرى الإمبراطور دارا.. يردد صوت الدين.. فى كتابته الخالدة.. على الصخور.. فيقول فى أحدها بالنص:

إن الإله العلى «أهورا مزدا» هو الذى خلق الأرض.. ورفع السماء.. وفتح سبل السعادة على البشر.. وهو الذى أقام دارايوش وحده حاكما على الكثيرين.. وجعله واضع الشرائع لهم.. ويقول فى كتابة أخرى :-

«يعلن دارايوش للناس قاطبة.. بأن أهورامزدا» قد وهبى الملك بفضله ورحمته.. وقد نجحت بتوفيقه تعالى.. فى تدعيم الأمن والسلام فى الأرض.. وإنى أبتهل إلى أهورامزدا «إلهى أن يرعانى.. أنا وأسرتى.. وجميع البلاد.. التى جعلنى حاكما عليها.. يارب «أهورامزدا» «اسمع دعائى واستجب»...

وكذلك يقول فى غيرها.. - «يا أيها الإنسان.. أمرك «أهورامزدا» ألا تخوض قط فى الشر.. ولا تحيد عن الطراط المستقيم أبدا.. واحذر الإثم فى جميع الأحوال» وأن ما يقوله دارايوش.. كأنه قول قورش نفسه.. وأن نسبة دارايوش ملكه ونجاحه إلى فضل «أهورامزدا» وتوفيقه ورحمته تطابق قول ذى القرنين.. فى القرآن الكريم «هذا رحمة من ربى»..

إن الدين الزرادشتى.. حارب المجوسية.. بقوة ولم ترفع المجوسية رأسها.. إلا فى القرن الثالث

(١) موسوعة تاريخ العالم ص ٩٣ ج ١ .

(٢) آزاد ص ١٤٨ .

القرن الثالث.. قبل الميلاد.. بعد قورش وذارايوش
بمائتي عام..

**حقا إن حرب الإسكندر المقدوني.. قضت على
الإمبراطورية الفارسية.. سياسيا ودينيا..**

وقد أثبت التاريخ.. أن غارة بختنصر.. قضت
على التوراة.. وأن غارة الإسكندر المقدوني.. قضت
على كتاب زرادشت.. ففقد الدين اليهودي..
والدين الزرادشتي.. معظم عناصرهما..

**وقد حاول الفرس.. بعد خمسمائة سنة من
الإسكندر.. في أيام أزدشير.. أن يجمعوا كتاب
زرادشت.. من جديد.. كما حاول عزير من قبل
يجمع التوراة.. التي خربها بختنصر.. ولكن الحقيقة
تأهت في الديانتين.. بين الكثير من التحريفات
والمندسوسات.. فجاءت التوراة.. محرفة.. كما
جاءت الزرادشتية.. خليطا من المجوسية القديمة
واليونانية.. والزرادشتية..**

ويقول آزاد :

**وزاد الطين بلة.. المفسرون بحواشيهم وشروحهم
وتفاسيرهم.. التي ذهبت بالدين.. بعيدا عن أصله..
وهناك أسطورة فارسية تقول :-**

**إن صحيفة زرادشت الدينية المقدسة..
كانت قد دونت في جلود اثني عشر ألف
نور.. بحبر من الذهب.. واحترقت كلها أيام حرب**

الإسكندر(١).. ولأشك أن عدد الجلود مبالغ فيه..
**وقد ثبت أن الإسلام.. عامل الدين الزرادشتي..
معاملة اليهود والنصارى.. حيث قال عليه السلام:**
«سنوابهم سنة أهل الكتاب».. كما روى عن علي
ابن أبي طالب.. أنه قال عن الزرادشتيين: عندهم
شريعة يعملون بها.. وكتاب يؤمنون به.. فعاملوهم
معاملة أهل الكتاب (٢)...

**ونحن نعلم.. أن الإسلام.. يؤمن بأصول دين
اليهود والنصارى.. وفي نفس الوقت.. ينكر
عقائدهم المحرفة المبدلة.. وهذا ما فعله حيال الدين
الزرادشتي.. فلم ينكر أصله بل أنكر المجوسية التي
دسوها في هذا الدين.. تحريفا وتبيلا..**

ويقول آزاد.. ونحن نؤيد ما يقوله

مازال المسلمون يرون أن دين زرادشت.. في
أصله.. لم يأمر بعبادة النار.. بل أمر بالتوحيد.. وأن
زرادشت.. كذلك.. كان نبيا من الأنبياء
القدماء(٣)...

وقد ذكر الفردوسي.. صاحب «شاه نامه»
الخالدة.. هذا الرأي.. في أشعار ذكرها آزاد..
بلغتهم.. ومعناها: لا تقل عن الزرادشتين أنهم كانوا
يعبدون النار.. بل كانوا يعبدون الله الواحد..



(١) آزاد ص ١٥٧.

(٢) آزاد ص ١٥٨.

(٣) آزاد ص ١٥٩.

٨ مبادئ وأخلاق قورش

"ذى القرنين"

من الملوك.. بل كان حرصه على الكرم والعطاء..
يبدل العدل للمظلومين.. ويحب كل ما فيه خير
البشر.. ويقول عنه.. زينوفن - المؤرخ اليونانى
المعروف:

كان ملكا عاقلا رحيمًا.. اجتمعت فيه.. مع نبل
الملوك.. فضائل الحكماء.. همته تفوق عظمته..
وجوده يغلب جلالته.. خدمة الإنسانية شعاره..
ويذل العدل للمظلومين دينه.. حل فيه.. مكان
الكبر والعجب - التواضع والسماحة.

وقد دفع هذا آزاد.. لأن يقول عنه بالنص:

وأظهر ما نجد في صفحات هؤلاء المؤرخين.. هو
رفعة شخصية قورش الفذة.. فقد أجمعوا على أنه..
لم يكن من نبت عصره.. بل شخصًا فذا.. كأنه سبق
خلق عصره.. لم يعلمه معلم.. ولم يره حكيم..
ولم ينشأ فى بلد متحضر.. وإنما كان ربيب الفطرة..
وصنع أيدى الحكمة الأزلية.. مضت الأيام والليالى
من حياته.. فى حجر الصحارى.. وكنف الجبال..
كان من رعاة الصحارى الشرقية من فارس..
فواصجا.. لما برز هذا الراعى.. أمام أعين العالم..
كان أكبر مظهر للحكم.. وأعظم شخصية للحكمة
والفضيلة. أ. هـ أليست تلك

الأصل فى الدين الزرادشتى.. الذى يدين به
قورش «ذو القرنين».. أنه دمهوة حق.. وأن
المجوسية.. وعبادة النار.. دخيلة عليه.. ويكفيها.. أن
نسمع صوت زرادشت.. وهو يهاجم المجوس
القديماء.. قائلًا:-

ليس هناك قوى روحية كثيرة للخير.. ولا
صفاريت كثيرة للشر.. بل هو إله واحد.. اسمه
«أهورامزدا».. الذى ليس كمثله شئ.. وهو الواحد
الأحد.. القدوس الصمد.. وهو الحق والنور.. وهو
الحكيم القادر الخالق الذى لا يشاركه فى ملكه
وربوبيته شئ.. وأن القوى الروحية.. التى زعموها
خالقة للخير.. ليست بخالقة.. بل هى نفسها من
خلق «أهورامزدا».

هذا هو الدين الذى اعتنقه قورش.. وسجله
خليفته دارايوش فوق صخور إصطخر.. بإيران..
وتلك هى أخلاقه.. ومثله العليا.. التى ضربها
لل البشرية.. ومازال صداها يدوى فى أسماع التاريخ
من ألفين وخمسائة سنة.

وهذا هيروودوتس.. أبو التاريخ القديم.. الذى
وجد بعد قورش بسنوات قليلة.. يقول:

كان قورش.. ملكا كريما جوادا
سمحا للغاية.. لم يكن حريصا على جمع المال كغيره

الصورة.. التى يعرضها علينا التاريخ.. توحى إلينا بصورة ذى القرنين الممدوح فى الكتاب الكريم؟

وتلك أيضا شهادة محققى التاريخ فى العصر الحاضر.

يقول مستر غراندى.. أستاذ جامعة أكسفورد.. والمتخصص الثقة فى التاريخ القديم.

يقول: لا ريب كانت شخصية قورش.. شخصية فذة.. غير عادية.. فى عصره.. فإنه أحدث فى قلوب الشعوب.. المعاصرة له.. أثرا يحير الألباب.. وقد ألف زينوفن - تلميذ سقراط - سوانح حياته.. بعد موته.. بمائة وخمسين سنة.

وإننا لنرى فى جميع الروايات.. فضائله الإنسانية بارزة.. وسواء اهتمنا بها.. أم لم نهتم.. إلا أنه لا مناص لنا.. من الاعتراف.. بأن حبل سياسة ملكه.. كان مرتبطا بمحاسنه الأخلاقية.. وفضائله الإنسانية.

وإذا لاحظنا سلوكه.. مع ما كان عليه ملوك الآشور وبابل.. من السيرة نجده يتلأأ تلالؤا عظيما رائعا.

ثم يقول غراندى:

لقد كان مجاحه . . . نجاحا عظيما . . . كان قبل اثنتى عشرة سنة . . . أميرا مجهولا . . . لإمارة مجهولة . . . فإذا هو نراه الآن . . . وقد خضعت له جميع تلك البلاد . . . التى كانت مراكز العظمة للشعوب الكبيرة السابقة . . . فمن بلاد « سارغون » الملك الأساطيرى للمملكة الأكادية . . . إلى بلاد بختنصر . . . إمبراطور بابل . . . سجدت كلها لهذا الإمبراطور الفاضل الجديد . . . إنه لم يكن فاتحا

عظيما.. بل حاكما كبيرا كذلك.. وأن الشعوب.. لم تقبل الدور الجديد فقط.. بل رحبت به أيضا.. ففى السنين العشرة الأخيرة من حياته.. بعد فتح بابل.. لم تحدث ولا ثورة واحدة.. فى مملكته الواسعة.. أجل كانت رعيته تهابه.. ولكن لا تخشى قسوته.. إذ أن حكومته.. لم تعرف عقاب القتل والسلب والنهب.. بل كان الأمن والسلام يشمل الجميع.. وترفرف الطمأنينة والرفاهية على الكل.

قد مسحيت آثار مظالم الملوك الآشوريين والبابليين.. ورجعت الشعوب المنفية إلى أوطانها.. وأعيدت إليها معابدها.. لم يبق اعتساف ضد العوائد والعبادات القديمة.. بذل العدل لسائر الشعوب.. ومنحت الحرية التامة.. لجميع الأديان والمذاهب.. وقد حل محل الخوف العام السابق.. عدل عام.. وسماحة كريمة.. ومساواة تامة^(١).

أرأيت أيها القارئ.. هذا الإجماع الرائع.. على مدح قورش العظيم.. وعدله.. ورحمته.. ورقته.. وقوته.. وهيبته.. وجلاله.. أرأيت كيف اتفق التاريخ القديم.. مع التاريخ الحديث.. على إبراز تلك الشخصية الفذة العجيبة.. شخصية إنسان.. من أبناء الفطرة.. التى خَرَجَتْ من قبله إبراهيم - عليه السلام - ومن بعده خاتم الأنبياء وإمام المرسلين.. محمدا صلى الله عليه وسلم.

وهل رأيت كيف جالت الأقسام.. وصالت الأنهام.. فى وصف شخصيته وأخلاقه ومبادئه ومثله.. تلك الأخلاق والمبادئ والمثل.. التى ذكرها القرآن الكريم عن ذى القرنين فى سطور قليلة.. حددت لنا تلك الصورة الجليلة الرهية فى عبارات موجزة؟



(١) من كتاب تاريخ العالم لهمرتن ج ٢ ص ١٠٨٥ نقلا من كتاب آزاد..

٩ خاتمة حول السد والشيوعية

«حتى إذا فتحت بأجوج ومأجوج وهم من كل
حذب ينسلون» ٩٦/ الأنبياء.. ولا شك أن هذا أمر
يلفت النظر..

فها نحن نرى الشيوعية.. فى عصرنا الحديث..
تزحف على الشعوب الآمنة.. من كل فج.. وكأنها
طوفان.. انحدر من شمال الأرض وشرقها.. ليغرق
البشرية بأفكار تنحط بالإنسان من أعلى عليين.. إلى
أسفل سافلين.. وتنحدر به.. من عالم الروح
والنور.. إلى عالم أحط من عالم الأنعام.. عالم المادة
- فقط - الذى يحيا من أجله أقل الحيوانات.. وأدنى
الحشرات.

وأبلغ وصف لتسللهم بين الأمم.. هو قوله تعالى
«وهم من كل حذب ينسلون».

وقد روى أبو داود.. عن أبى بكر.. أن رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - قال :

«ينزل ناس من أمتى بغائط (١) .. يسمونه
البصرة .. عند نهر يقال له دجلة يكون عليه
جسر.. يكثر أهلها .. وتكون من أمصار المهاجرين»
قال ابن يحيى.. قال أبو معمر : «وتكون من
أمصار المسلمين .. فإذا كان آخر

قرأت من سد ذى القرنين.. أحاديث صحيحة..
وردت فى كثير من كتب التفسير.. وكلها تفيد.. أن
هذا السد.. قائم إلى الآن.. وأن خلفه قوما يحاولون
اجتيازه ولن يجتازوه إلا فى العصور الأخيرة.. من
عصور البشرية.. وأنهم سيكونون فتنة للناس.. فى
دينهم ودنياهم.

وما زلنا نذكر فى سفر حزقيال.. فى الإصحاحين
الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين.. عن وصف
«جوج».. بأنه رئيس مسك.. وتوبال.. واستنتج آزاد
من هذا.. أن مسك أشتق منه اسم موسكو..
وتوبال.. هى بلاد البحر الأسود المرتفعة.

ولو وضعنا أمامنا أطلسا جغرافيا.. لوجدنا أن
منطقة موسكو وبلاد شمال البحر الأسود.. هى
مصادر الشيوعية العالمية.. وفى نفس الوقت تقع
خلف جبال القوقاز.. وفى نفس الوقت أيضاً.. نجد
أن الشيوعيين من الكثرة العددية.. بحيث ينطبق
عليهم قول الله - تبارك وتعالى - فى سورة الأنبياء :

(١) الغائط: المكان المظلم من الأرض..

الزمان.. جاء بنو قنطوراء.. عراض الوجوه.. صغار الأعين.. حتى ينزلوا على شاطئ النهر.. فيتفرق أهلها.. ثلاث فرق: فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية.. وهلكوا.. وفرقة يأخذون لأنفسهم.. وكفروا.. وفرقة يجعلون ذرايعهم خلف ظهورهم ويقاثلونهم وهم الشهداء» (١).

ولعل دقة الوصف ظاهرة.. فى قوله - عليه الصلاة والسلام - عن بنى قنطوراء.. «عراض الوجوه.. صغار الأعين» أليس هذان الوصفان.. من أهم مميزات الجنس الشيعوى؟ .. لا شك أن الشيعيين.. هم بنو قنطوراء.. وهم بوادر يأجوج ومأجوج.

ولكنه - عليه الصلاة والسلام - أرسل السكينة.. هجر الأحقاب.. إلى قلوب أجيال المسلمين.. الذين يواجهون بنى قنطوراء.. ونكرر قولنا بأنهم هم الشيعيون.. وأنهم بواكير يأجوج ومأجوج.. أرسل لنا - عليه الصلاة والسلام - السكينة.. فى حديث.. جاء مرفوعا.. من حديث أبى هريرة.. خرجه ابن ماجه.. فى السنن قال فى نهايته.. بعد أن تحدث - عليه الصلاة والسلام - عن يأجوج ومأجوج خلف السدد.. ومحاولتهم اجتيازه.. قال :

«ويخرجون على الناس.. فينشفون الماء.. ويتحصن الناس منهم فى حصونهم.. فيرمون بسهامهم إلى السماء.. فيرجع عليها الدم.. فيقولون قهرنا أهل الأرض.. وعلونا أهل السماء فيبعث الله - تعالى - عليهم نغفا (٢) فى أقفائهم فيقتلهم بها» ثم قال «والذى نفسى بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرا من لحومهم (٣)».

وقال لى صديق: إنه رأى أول سفينة فضاء روسية.. عادت من الجو حمراء كالدم.. بعد أن كانت بيضاء.. وذلك بفعل التغيرات الجوية.. فهل لهذا الأمر علاقة.. بسهام بنى قنطوراء التى قال الحديث عنها إنها ترجع عليها الدم؟ وكلنا يذكر قول جاجارين.. أول من ركب سفينة الفضاء.. نذكر قوله: بحثت عن الله فى السماء.. فلم أجده.. فهل لهذه العبارة علاقة

بقول الحديث عنهم أنهم يقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء؟.

فأين هذا السد - إذأ - جغرافيا؟ وقد انكشف لنا سطح الأرض تقريبا.. كصفحة كتاب.. تحت منظار البشرية.. المتمثل فى الأعمار الصناعية المتجسدة؟.. وإن كان العلم يعترف بأنه مازالت فى الأرض أماكن لم تكتشف بعد.

غير أننا مادمننا قد استطعنا تحديد المكان.. الذى أقيم فيه السد.. تاريخيا ودينيا.. بأنه فى سلسلة جبال القوقاز.. فلندرس هذا الموقع جغرافيا.. لنرى.. هل يوجد فى تلك المنطقة.. سد حديدى.. بين جبلين.. وصفه القرآن الكريم.. بأنه من الحديد المنصهر.. الذى صب عليه النحاس المذاب؟.

ف نجد فى المنطقة.. التى يحدها بحر قزوين «الخزر» من الشرق.. والبحر الأسود من الغرب.. نجد جبلين عظيمين.. يسدان الطريق.. بين الشمال والجنوب.. ولا يوجد بينهما غير مضيق واحد.. يسمى مضيق داريال.. وفى هذا المضيق.. يوجد سد حديدى.. قفل باتصاله بالجبلين الطريق الذى كان مفتوحا.. للعبور بين الشمال والجنوب.

وقد سمي هذا السد الحديدى.. فى اللغة الأرمينية.. من الدهور السالفة.. «هاك غورائى» و«كابان غورائى» ومعنى العبارتين «مضيق غورش» وغورش.. هو قورش.. ونأخذ من هذا.. أن ذلك السد.. هو سد قورش «ذى القرنين» من غير شك.. وهناك دليل آخر من لغة بلاد جورجيا.. التى هى القوقاز نفسها.. حيث سمي هذا المضيق باللغة الجورجية.. من قديم الزمان.. باسم «الباب الحديدى» وسمى بهذا الاسم أيضا فى اللغة التركية.. وهو مشهور عندهم إلى الآن.

ويوجد جدار حجرى.. فى تلك المنطقة.. من قديم الزمان يسمى جدار دريند.. ظنه بعض المفسرين أنه هو سد يأجوج ومأجوج.. ولكن هذا خطأ.. لسببين:

السبب الأول: أن سد ذى القرنين.. وصفه القرآن الكريم.. بأنه بين جبلين وجدار دريند.. ليس بين جبلين.

(١) القرطبي ٩٤ / الكهف .

(٢) النغف بالتحريك : دود فى أنوف الإبل والغنم ..

(٣) القرطبي ٩٤ / الكهف .

والسبب الثانى : أن صفة سد ذى القرنين فى القرآن.. أنه من الحديد والنحاس وهذا من الحجر.. وليس فيه حديد ولا نحاس (١).

ولعل الخطأ الذى وقع فيه بعض المفسرين.. بقولهم : إن جدار دربند.. هو سد ذى القرنين.. راجع إلى عدم معرفتهم بمضيق داربال.. وجداره الحديدى..

فلم يجدوا فى هذا المكان غير جدار دربند فظنوه السد.. المذكور فى القرآن الكريم.

إن سد يأجوج ومأجوج.. الذى رفعه ذو القرنين.. هو «سد قورش» فى اللغة الأرمنية.. أو «الباب الحديدى» كما تسميه اللغة الجورجية.. وهاتان شهادتان.. كما قال آزاد - تعتبران شهادة يقينية.. لأن الأرمنين والجورجيين.. هما أقرب البلاد إلى مضيق داربال.. الذى أقيم فيه هذا السد الحديدى.

وإلى بطن الحوت لنسبح فيه.. مع رسول الله «يونس بن متى» عليه السلام - إن شاء الله .



(١) هذا الموضوع بتفصيل تاريخى جغرافى دقيق فى كتاب «ويسألونك عن ذى القرنين» لأزاد ص ١٧١ وما بعدهما.. لمن يريد التوسع..

«ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم»

(٤٨ - القلم)

○ من نبأ

يونس " صاحب الحوت "

١ الرسالة

أرسل الله - تعالى - يونس بن متى - عليه السلام - من أرض الموصل .. إلى أهل نينوى .. لما انتشر فيها الفساد .. وعبدوا الأصنام .. وكفروا بخالقهم ورازقهم .. وكانوا أكثر من مائة ألف .. وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ١٤٧ / الصافات ..

قال ابن عباس - رضى الله عنه -: زادوا على المائة ألف .. عشرين ألفا .. سماه الله «ذا النون» أى صاحب الخوت - لأن النون هو الخوت .. وذو معناها صاحب.

وقال على بن أبى طالب: بعث الله يونس بن متى .. إلى قومه .. وهو ابن ثلاثين سنة .. فأقام فيهم يدعوهم إلى الله .. ثلاثا وثلاثين سنة .. فلم يؤمن به إلا رجلان .. أحدهما اسمه «روبل» .. وهو عالم حكيم .. وثانيهما اسمه «تنوخا» .. وهو عابد زاهد (١).

وطال الزمن بيونس - عليه السلام - وهو يحاول جاهدا .. أن يستجيبوا له فى الإيمان بربهم .. والإعراض عن أصنامهم .. والبعد عن غيهم وإفسادهم .. والرجوع إلى خالقهم ورازقهم .. فلم

يزدادوا إلا إصرارا على الكفر .. واستمرارا فى الفساد .. وتمسكا بالضلال والعناد .. وبدأ اليأس يلتمس ثغرة ينفذ منها إلى قلبه .. يقول ابن إسحاق:

قال - صلى الله عليه وسلم -: « كان يونس بن متى فيه عجلة وخفة .. فلما حمل أعباء النبوة ..

نفسخ تحتها .. تفسخ الريح تحت الحمل الثقيل » ..

وبلغ به اليأس مبلغه .. فلم يتمالك نفسه .. أن قال

لهم : أمامكم ثلاثة أيام .. إن لم تؤمنوا بعدها ..

فيسرسل الله عليكم نارا من السماء تأكل الأخضر

واليابس .. فلا تذر شجرا .. ولا تبقى على مدر ..

عبارة قالها يونس .. درجت على لسانه .. لا يدري

أبعادها .. ولا يسبر أغوارها .. فسرت فى المدينة

مسرى الريح .. تناقلتها الألسنة .. والتقطتها

الأسماع .. ولاكتها الأفواه .. وسخر منها الناس ..

وما إن بلغ يونس - عليه السلام - داره .. بعد

قولته تلك .. حتى لقيته أخته فى لهفة قائلة له :

يا يونس .. بلغنى أنك قلت لقومك كذا ..

(١) ابن إسحاق - فى قصص الأنبياء .

قال : نعم .: قالت: وهل هذا التحديد الزمنى بوحي من الله إليك.. قال: لا .. ولكننى لم أعد أحتمل أكثر من هذا.. دعوتهم إلى الله.. عشرات السنين.. فلم يستجيبوا.. وأمرتهم بالمعروف والتوحيد.. فلم يأتروا.. ونهيتهم عن المنكر وعبادة الأصنام.. فلم يتنهبوا.. فلا فائدة ترجى منهم.. على أعينهم غشاوة.. وفى آذانهم وقر.. وغلقت قلوبهم بغلاف سميك من الخطايا والأوزار.. فلا ينفذ إليها بصيص من نور الإيمان.. لا طاقة لى معهم بعد هذا يا أختاه.. قالها.. مصحوبة بأنة عميقة من الأسى والألم..

وكادت نفسه أن تذهب عليهم حسرات..

ومضت الأيام الثلاثة.. وهم على ما هم فيه من جحود وكفر.. وطنيان وكبر.. ولم تنزل نار من السماء.. تأكل الأخضر واليابس.. كما ادعى يونس.. فماذا يقول لهم.. بعد هذا التحدى؟.. هل يستطيع أن يواجههم بعد ذلك الوعيد المكذوب؟..

اضطربت نفسه .. واختل تفكيره .. وارتجفت أعضاؤه كما ترتجف القشة تحت وطأة ريح عاصف .. لقد رأى أنه كان متجنيا .. عندما حدد لهم زمن العقوبة .. دون أن يأتيه ذلك ممن أرسله .. فلم يجد بدا من أن يخرج متسللا من المدينة .. إلى حيث يشاء الله .. دون أن يراه منهم أحد .. أو يقع بصره منهم على أحد..

وبعد خروجه.. من بينهم.. مباشرة - كما ذكرت كل كتب التفسير - أغامت السماء غيما أسود.. ذا دخان شديد.. فهبط حتى غشى مدبنتهم.. يقول ابن عباس: إنهم غشيتهم ظلة.. وفيها حمرة.. فلم تزل تدنوا منهم.. حتى وجدوا حرها.. بين أكتافهم.. فهابوا.. فطلبوا يونس - عليه السلام - فلم يجدوه.. فأيقنوا صدقه.. فلبسوا المسوح.. وبرزوا إلى الصعيد.. بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم.. وفرقوا بين كل والدة وولدها.. فحن بعضها إلى بعض.. وعلت الأصوات والعجيج.. وأخلصوا التوبة.. وأظهروا الإيمان.. وتضرعوا إلى الله.. وبلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم.. حتى إن الرجل.. كان يقلع الحجر.. وقد وضع عليه أساس بنيانه.. فيرده.. فتاب الله عليهم..

يقول الإمام النسفى:

خرجوا لما نزل بهم العذاب.. إلى شيخ من بقية علمائهم.. فقال لهم: قولوا: يا حى حين لا حى.. ويا حى محى الموتى.. ويا حى لا إله إلا أنت.. فقالوا فكشف الله عنهم العذاب.. وكان ذلك يوم عاشوراء.. وعن الفضيل.. قالوا: اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت.. وأنت أعظم منها وأجل.. افعل بنا ما أنت أهله.. ولا تفعل بنا ما نحن أهله..



٢ الهروب

خرج يونس - عليه السلام - مستخفيا.. هائما على وجهه.. ولا يلوى على شيء.. ولا يدرى إلى أين.. حائر الفكر.. خائر النفس.. ثائر الضمير.. كيف حصل منه هذا الأمر؟ وكيف جمع به لسانه حتى قال ما قال؟..

أحاطت به الأفكار من كل جوانبه.. وحاصرتة الهموم من جميع نواحيه.. لا يدرى.. هل هو يسير على سطح الأرض.. أم تخطفته الطير.. أم هوت به الأوهام إلى مكان سحيق.. «وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه» ٨٧ - الأنبياء..

وقد يتبادر إلى بعض الأذهان.. أن يونس - عليه السلام - ظن أن الله غير قادر عليه.. وتلك جريمة خطيرة.. لا تقبل من ضعيف الإيمان.. فكيف نقبلها من نبي كريم.. مثل يونس - عليه السلام - الذي قال عنه رسولنا - صلى الله عليه وسلم -: «لا تفضلوني على يونس بن متى».. وإنما هي من القدر.. بمعنى التقدير والتضييق.. وليست من القدرة.. ومنه قوله تعالى: «الله يسطر الرزق لمن

يشاء ويقدر» يسطر ويقدر.. أى يوسع ويضيق.. ومنه أيضا «وأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فقد رزقه».. أى ضيق عليه فى الرزق.. وقد حصل هذا اللبس عند معاوية.. فيقول ابن عباس : إنه دخل يوما على معاوية.. فقال : يا ابن عباس.. لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة.. فغرقت فيها.. فلم أجد لنفسى خلاصا إلا بك.. قال.. وما هى يا أمير المؤمنين؟.. فقرأ الآية: «وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه».. ثم قال: أو يظن نبي الله.. أن الله لا يقدر عليه؟.. قال ابن عباس: هذا من القدر لا من القدرة (١) ويتضح هذا فى بعض القراءات «فظن أن لن نقدر عليه» بتشديد الدال وكسرها..

وهكذا حال المؤمن.. إذا أحاطت به الهموم.. واحتوشته الظنون..

وحاصرتة الأوهام.. هبت عليه نسمة الإيمان.. فتذكر رحمة الله وعفوه.. وكانت له تلك الذكرى بارقة الأمل.. وحبل النجاة.. وبصيص النور.. وهو ما حصل ليونس عليه

(١) تفسير النسفي والكشاف ٨٧ / الأنبياء .

السلام.. لما خرج مغاضبا مع نفسه.. ثائرا مع ضميره.. نفحته رياح الرحمة.. فاعتقد أن الله سيوجد له من ضيقه مخرجا.. ويهيء له من ضنكه فرجا.. «فظن أن لن نقدر عليه» والظن هنا يقين منه بأن الله لن يضيق عليه.. لأنه بأصفيائه رءوف رحيم..

وروى ابن إسحاق الثعلبي.. أن يونس - عليه السلام - مضى فنزل ضيفا.. عند رجل يصنع الفخار.. فأوحى الله إلى يونس.. أن يأمر صاحب الفخار بكسره.. فشتمه الرجل.. وقال له: شيء صنعته بيدي.. أعيش من ثمنه.. أنا وعيالي تأمرني بكسره؟.. فأوحى الله إليه: هذا عمل فخارا من طين.. لم تطب نفسه بكسره.. وأنت طبت نفسا.. ووطنتها على هلاك مائة ألف أو يزيدون من عبادي.. فبكى يونس.. وخرج هائما..

وساقته قدماه.. إلى ساحل البحر.. ولم يرد في كتب التفسير شيء عن المكان الذي ركب منه السفينة.. وإنما ورد في التوراة.. في سفر يونا.. ٣ - فقام يونا - وهذا هو اسم يونس في التوراة - ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب.. فنزل إلى يافا.. ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش.. فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب (١).

وما دام الحديث قد تطرق بنا إلى التوراة.. فسأعرض عليك فقرة صغيرة منها - حول يونس - عليه السلام - لترى الذوق العام لليهود.. وسوء أدبهم.. في حديثهم عن الرب - جل شأنه - فجاء في سفر يونا: بعد أن تحدث عن قوم يونس.. وعنادهم وكفرهم.. ثم توبتهم ورجوعهم إلى الله.. قال:

١٠ - فلما رأى الله أعمالهم.. أنهم رجعوا عن طريقتهم الرديئة.. ندم الرب على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم.. فلم يصنعه (٢) أرايت تحريفهم في الكتاب المقدس.. وذكرهم فيه.. أن الرب ندم.. لعنوا بما قالوا.. وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ركب يونس السفينة.. وانطلقت بركابها.. تمخر عباب الماء.. حتى صارت في عرض البحر.. وجرت بريح طيبة.. وفرحوا بها.. وفجأة اجتاح السفينة ريح عاصف.. وجاءهم الموج من كل

مكان.. وظن أهلها أنهم أحيط بهم.. فعلت الأصوات.. وارتفع العجيج.. وهاج الركاب.. وصرخوا.. بيننا عبد أبق.. فمن هو؟

والأبق: هو العبد العاصي.. الهارب من مولاه.. وكان من عادتهم أنهم إذا أحيط بهم في البحر.. يعلمون أن بين الركاب عبدا هاربا.. ولا سبيل لنجاتهم.. إلا بإلقاء هذا العبد في البحر.. فيكون فداء للسفينة وركابها.. حيث يسكن الريح.. ويهدأ البحر.. وتتلاشى الأمواج.. وينجو الركاب.

ومالت السفينة ذات اليمين وذات الشمال.. الرياح عاصفة.. والأمواج صاخبة.. والبحر هائج.. واختلط صراخ الناس بصخب الأمواج ينادون.. أين العبد الأبق؟

لم يصل شيء من كل هذا الضجيج والعجيج إلى سمع يونس - عليه السلام - فهو الآن جسم.. لا هو بالحي.. ولا هو بالميت.. وما هو إلا فكر يسبح في عالم بعيد.. بعيد.. مع مولاه.. لا يسمع هذا الهياج الصاخب.. ولا يرى ذلك الهلاك المحيط.. ولا يحس شيئا مما يجري حوله.. وأخرج ربان السفينة جراب الأقاليم ليحرق القرعة.. التي تدلهم على العبد الأبق.. وكان في الجراب عدد من الأقاليم المصنوعة من خشب الأبنوس الأسود.. ومن بينها قلم واحد مكتوب عليه باللون الأبيض.. كلمة «أبق».

وضرب الربان الأقاليم في جرابها.. وبدأ يلقي على كل راكب قلما.. ولم ينتبه يونس من شروده.. إلا على سقوط القلم في حجره.. ومد يده ليأخذه.. وقرأ عليه كلمة «أبق» وأحس بالموقف.. وعلم بما يجري حوله.. فوقف مسرعا.. قائلا: هل تبحثون عن عبد أبق؟.. أنا ذلك العبد.. ثم ألقي بنفسه بين أحضان الأمواج.. وكان هذا الأمر بالنسبة له.. أمر إفراج مما هو فيه من آلام وأوهام.

ولا مانع لدينا.. من الوقوف لحظة.. أمام عملية القرعة.. وهل هي جائزة شرعا؟

قال أولو العلم.. إن القرعة جائزة شرعا في ثلاثة مواطن.. وضربوا لها ثلاثة أمثلة:

الأول: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا أراد السفر.. أقرع بين نسائه.. فأيتهن خرج سهمها.. خرج بها معه.

(١) سفر يونا الإصحاح الأول - ٣

(٢) سفر يونا الإصحاح الثالث - ١٠

والثاني: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رفع إليه أن رجلاً أعتق ستة عبيد.. لا مال له غيرهم.. فأقرع بينهم.. فأعتق اثنين.. وأرق أربعة.

والثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريث.. فقال: «اذهبا.. وتوخيا الحق واستهما.. وليحلل كل واحد منكما صاحبه» (١).

ثلاثة مواطن: هي القسم في النكاح.. والعتق.. والقسامة.. والقرعة في تلك الحالات الثلاث.. حلت إشكالا.. أو تفادت هوى في النفس.. ففي الحالة الأولى: لعدم إمكان الخروج بجميع النساء.. واختيار

واحدة منهن إيثار.. فكانت القرعة.

وفي الحالة الثانية: العبيد ستة.. وكل اثنين يمثلان الثلث.. وهو القدر الذي يجوز فيه العتق في مرض الموت.. واختيارهما بحسب الهوى غير جائز شرعا.. فكانت القرعة.

أما في الحالة الثالثة: فمنعت التشاجر في أعيان المواريث.. ولا يميز الحق إلا القرعة.. فصارت.. في تعيين المستحق.. إذا حصل إشكال.

فالقرعة جائزة.. على هذا الأساس.. في كل مشكل.



رحلة الظلمات

٣

كان الأمر الإلهي صادرا إلى الخوت.. كى يقف بين الأمواج.. فاغرا فاه.. ليستقبل فيه ضيفا عزيزا.. ونيا كريما.

واستقر يونس - عليه السلام - فى معدة الخوت.. «وإن يونس لمن المرسلين. إذ أبق إلى الفلك المشحون. فساهم فكان من المدحضين. فالتقمه الخوت وهو مليم» ١٣٩ - ١٤٢ / الصفات.

روى الطبرى.. من حديث أبى هريرة.. قال.. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «لما أراد الله - تعالى ذكره - حبس يونس فى بطن الخوت.. أوحى الله إلى الخوت أن خذه.. ولا تخذش له لحما.. ولا تكسر عظما.. فأخذه.. ثم هوى به إلى مسكنه فى البحر.. إلى آخر الحديث (١)».. وسنذكر نهايته إن شاء الله تعالى فى حينه.

وأحسن يونس - عليه السلام - بتراكم الظلمات حوله.. ظلمة الليل.. وظلمة البحر.. وظلمة بطن الخوت.. وأشد منها ظلمات النفس الخاطئة.. وعرف أنه لم ينزل فى البحر.. وإنما نزل فى بطن الخوت.. وانفرجت شفتاه عن بسمه خفيفة.. ثم

قال: إلهى لأسجدن لك فى مكان لم يسجد لك فيه قبلى إنس ولا جن.. وخر ساجدا مكانه فى معدة الخوت.. وجاء بدعاء الكرب: «سبحانك اللهم.. لا نحصى ثناء عليك.. أنت كما أثنيت على نفسك.. اللهم رحمتك أرجو.. فلا تكلنى إلى تدبير نفسى طرفة عين.. أصلح شأنى كله.. لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين».

«وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فتادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك تنجى المؤمنين» ٨٧ - ٨٨ / الأنبياء.

ولتكمل معاً حديث أبى هريرة.. الذى رواه الطبرى.. حيث يقول:

فلما انتهى به.. أى الخوت - إلى أسفل البحر.. سمع يونس حسا.. فقال فى نفسه.. ما هذا؟.. فأوحى الله - تبارك وتعالى - إليه.. وهو فى بطن الخوت: إن هذا تسبيح دواب البحر.. قال: فسبح وهو فى بطن الخوت.. قال: فسمعت الملائكة

تسبيحه .. قالوا ربنا .. إنا نسمع صوتنا ضعيفا ..
 بأرض غريبة .. قال: ذلك عبدى يونس .. عصائى ..
 فحبسته فى بطن الحوت فى البحر .. قالوا: العبد
 الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة
 عمل صالح ؟ .. قال: نعم .. فشفعوا له عند ذلك ..
 فأمر الحوت فقذفه فى الساحل .

قال ابن العربى :-

أخبرنى غير واحد من أصحابنا .. عن إمام
 الحرمين .. أبى المعالى .. عبد الملك بن عبد الله بن
 يوسف الجوينى .. أنه سئل عن الله .. فى جهة ؟ ..
 فقال: هو يتعالى عن ذلك .. قيل له: ما الدليل ؟ ..
 قال: الدليل عليه .. قول النبى - صلى الله عليه وسلم
 - « لا تفضلونى على يونس بن متى » .. فقليل له: وما
 وجه الدليل فى هذا الخبر ؟ .. فقال: لا أقوله .. حتى
 يأخذ ضيفى هذا ألف دينار .. يقضى بها ديننا .. فقام
 رجلان .. فقالا: هى علينا .. فقال: لا يتبع بها اثنين ..
 لأنه يشق عليه .. فقال واحد: هى على .. فقال: إن
 يونس بن متى .. رمى بنفسه فى البحر .. فالتقمه
 الحوت .. فصار فى قعر البحر .. فى ظلمات ثلاث ..
 ونادى « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من
 الظالمين » .. كما أخبر الله تعالى عنه .. ولم يكن محمد
 - صلى الله عليه وسلم - حين جلس على الرفرف
 الأخضر .. وارتقى به صعدا .. حتى انتهى إلى موضع
 يسمع فيه صريف الأقلام .. وناجاه ربه بما ناجاه به ..
 وأوحى إليه ما أوحى .. بأقرب إلى الله تعالى من
 يونس فى بطن الحوت فى ظلمة البحر (١) .

واختلف رجال التفسير .. فى المدة التى قضاهما
 يونس - عليه السلام - فى بطن الحوت .. بين أربعين
 يوما .. وسبعة .. وثلاثة .. وقيل ساعة واحدة .

والرأى الأخير .. أقرب منطقا .. وأصدق تأويلا ..
 وأخذ به الحسن - رضى الله عنه - فقال: لم يلبث
 فى بطن الحوت .. إلا قليلا .. ثم أخرج من بطنه ..
 بُعيد الوقت الذى التقم فيه (٢) فلنا أن نقف وقفة
 الخضوع والخشوع والرهبة .. أمام معدة الحوت ..
 وعصاراتها الهضمية .. ودرجة حرارتها المرتفعة
 ارتفاعا يصهر الحديد والخشب .. ويجعله مادة سهلة
 مهضومة لغذاء الحوت .. الذى يبتلع القوارب
 الصغيرة بمن فيها .. فتتحول فى معدته إلى سائل
 مهضوم .

تلك العصارات الملتهبة .. عجزت عن تحليل تلك
 اللقمة التى هى جسم يونس - عليه السلام -
 وهضمها .. وإذا عجزت المعدة عن هضم لقمة ..
 صارت ألما فى البطن .. وهكذا أصيب الحوت بمغص
 شديد .. جعله يتلوى .. صاعداً إلى سطح الماء ..
 وهابطاً إلى القاع .. عدة مرات .. من شدة الألم .. ثم
 قذف به إلى الشاطئ .

«فلولا أنه كان من المسبحين. للبت فى بطنه إلى
 يوم يبعثون. فنبذناه بالمرء وهو سقيم»
 ١٤٣ / ١٤٥ / الصافات .



(١) القرطبي ١٤٣ / الصافات .

(٢) الكشف ١٤٣ / الصافات .

٤ فى العراء

لتنخيل معاً جسم يونس - عليه السلام - خارجاً من تنور مسجور.. هو معدة الحوت بعصاراتها.. شديدة الحرارة.. عالية الارتفاع.

يقول المفسرون.. فى معنى «فنبذناه بالعراء وهو سقيم» أى طرحناه بالساحل كهيئة الفرخ الممعوط.. الذى ليس عليه ريش.. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: خرج به.. يعنى الحوت - حتى لفظه فى ساحل البحر.. فطرحة مثل الصبى المنفوس.. لم ينقص من خلقه شئ.. وقال أبو عبيدة: العراء وجه الأرض.. وأنشد لرجل من خزاعة:

ورفعت رجلاً.. لا أخاف عثارها

ونبذت بالبلد العراء ثيابى

ونكاد نراه - عليه السلام - فاقد الوعى.. محروق الجسم.. ضئيلاً هزياً.. لا يملك لنفسه شيئاً.. ولا يستطيع حراكاً.. تتلقفه يد الرحيم لتبدأ معه مرحلة العلاج.

نراه ملقى على ظهره.. فوق ساحل البحر.. رأسه تجاه البحر فى المنخفض.. ورجلاه تجاه

الشاطئ فى المرتفع.. فى هيئة المحروق الملقى على سرير المستشفى.. وقد انخفض رأسه عن مستوى جسمه.. لتنظيم الدورة الدموية.. وفى التو نبتت عليه شجرة اليقطين: «وأثبتنا عليه شجرة من يقطين» ١٤٦ / الصافات.. هى شجرة القرع.. فاتجهت كل ورقة من أوراقها.. لتلتف حول جزء من جسمه المحروق.. فالتفت ورقة حول عنقه.. وأخرى حول صدره.. وكذلك حول وسطه ورجليه ويديه.. لتكون ضمادات تعالج الجلد.. الذى تحتها حتى يسراً.. وغاب يونس فى حنايا الشجرة.. وبين أحضانها.. فكان منظراً فريداً غريباً.. ومشهداً عجباً رهيباً.. وأخذت ثمار القرع تنبت متجهة إلى فمه تلقائياً.. لتكون له غذاء.. وجسمه دواء وشفاء.

وقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنك لتحب القرع.. قال: «أجل هى شجرة أخى يونس» (١).

والمعروف عن شجرة القرع.. أن الذباب لا يجتمع عنده.. وأنه أسرع الأشجار نباتاً واستداداً وارتفاعاً.

(١) تفسير النسفى والكشاف وغيرهما ١٤٠ / الصافات

ومرت أيام على يونس - عليه السلام - وهو على هذا الحال.. حتى عادت إليه الحياة رويدا.. رويدا.. وتنبه.. فرأى تلك الشجرة وهى تحتضنه.. كما تحتضن الأم الرءوم وحيدها المريض.. ثم حانت منه التفاتة نحو قدمه.. فوجد ورقة من أوراق الشجرة.. برأ الجلد تحتها.. فجفت وذبلت وكشفت عن الجلد السليم.. ثم سقطت.. فعز عليه موتها.. وقد ضحت بنفسها فى سبيل شفاء جزء منه.. فحزن من أجلها وبكى.. فنودى يايونس.. أنت الذى لم تخلق.. ولم تسق - ولم تنبت.. تحزن على ورقة من شجيرة.. فأنا الذى خلقت مائة ألف من عبادى أو يزيدون.. تريد منى أن أستأصلهم فى ساعة واحدة.. وقد تابوا وتبت عليهم.. فأين رحمتى يا يونس أنا أرحم الراحمين(١).

وهكذا يتلأل النجم القرآنى الكريم «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك».. لقد يش يونس - عليه السلام - من إصلاح قومه.. وهدايتهم.. بعد أن جاهدهم عددا من السنين.. دون أن يستجيبوا له.. ودفعه اليأس إلى تحديد زمن لهلاكهم.. ناسياً أن الله بعباده رءوف رحيم.. لطيف خبير.. أشد فرحا بتوبة التائب.. من ضال فى مفازة.. عثر على دابته بما حملت من زاد وماء.. بعد أن فقدوها بحملها.. وبعد أن يش من العثور عليها.

إن الله لا يظلم مثقال ذرة.. فكل بلاء يصيب الإنسان فى نفسه أو ماله أو عياله.. إنما هو منه نفسه.. لخطأ أخطأه.. أو ذنب ارتكبه «وما أصابكم من مصيبة فمما كسبت أيديكم» إنما يريد الله - سبحانه - بالبلاء لعبده المؤمن.. أن يكفر عنه ذنبه ويذكره به.. فالبلاء تكفير وتذكير.. وقد رأينا فى نبال إبراهيم - عليه السلام - أن الله لم يأمره بذبح وحيدته إسماعيل.. الذى رزق به وهو شيخ كبير.. وبعد أن بلغ إسماعيل معه السعى.. ما كان ذلك إلا قصاصا لذبحه الطير.. وهو فتى حديث السن.. ليرى كيف يحيى الله الموتى.. وتسبب بذلك فى تعذيب الطيور الأربعة.. فأمر بذبح إسماعيل.. ليزوق هو ألم الذبح تكفيرا لحق الطير لديه.

وقد يقول قائل:.. وماذا فى ذبح الطير من إثم.. ونحن نذبح طيوراً وأنعاماً؟.. فنقول: نحن نذبح الطير والأنعام.. لتأكل لحمها.. وننتفع بها.. وتلك هى الغاية من خلقها.. أما ذبح إبراهيم للطير.. فلم يكن لهذا الغرض.. وإنما ليرى كيف يحيى الله - جل شأنه - وستموت تلك الطيور بعد ذلك مرة ثانية.. فصارت المرة الأولى لها ألماً وتعذيباً.. لا لشيء إلا ليرى إبراهيم كيف تحيا بعد موتها.



٥ السعادة فى الإيمان

شاء الله - سبحانه - أن يكون يونس - عليه السلام - آية لهداية قومه.. فمر به جماعة منهم.. وراوه راقدًا.. تحتضنه شجرة القرع وترعاه.. تضمده جسمه بأوراقها.. وتطعمه وتدأويه بشمارها.. فقال أحدهم: عجباً.. إنه يونس.. وقال الباكون: أين يونس؟.. لقد ألقى فى اليم من أيام وابتلعه البحر.. وسرى خبر موته فى جميع الأنحاء..

ولكنهم تأكدوا أنه يونس.. ووجدوا فيه آية.. تدل على قدرة القادر.. وعلم العليم.. وحكمة الحكيم.. فقالوا جميعاً: نشهد أن لا إله إلا الله.. وأن يونس رسول الله.. فكان هو سبباً فى إيمانهم.. وآية ليقينهم.. وسرى خبره فى أهل المدينة.. فأمنوا.. وازدادوا إيماناً..

ويصور لنا القرآن دائماً.. أن الإيمان سبب فى سعادة الدنيا.. قبل سعادة الآخرة: «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون» (٢١/ الجاثية). وقرأ أيضاً: «فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً» ١٣/ الجن.. فهل بعد هذا ضمان؟..

وهذا نوح عليه السلام.. يدعو قومه إلى الإيمان.. جاعلاً أساس الإيمان الاستغفار.. فيقول لهم: «استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً» نوح.. فيكون الاستغفار.. كمظهر من مظاهر الإيمان.. سبباً فى نزول المطر من السماء والإمداد بالأموال والبنين.. وازدهار الجنات... وجريان الأنهار.. إلى غير ذلك من وسائل السعادة فى الدنيا.. قبل السعادة فى الآخرة.. وهذا واضح أيضاً فى قوله تعالى.. فى سورة الرحمن: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» ومفهوم الجنتين.. جنة فى الدنيا بالسعادة.. وتيسير وسائل الحياة فيها.. وجنة فى الآخرة للنعيم المقيم.

وقد ضرب الله - سبحانه - لنا الكثير من الأمثال.. فى هذا الباب ومن بينها قوم يونس.. فيقول - جل شأنه: «فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس، لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين» ٩٨/ يونس.. ربنا آتانا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

وقبل أن نودع يونس - عليه السلام - نلفت النظر إلى بعض الحشو المكشوف.. الوارد في قصته.. في سطور قليلة جدا..

فقد ذكرت بعض الكتب قصصا حوله.. هي أقرب إلى الخيال.. منها إلى الواقع المعقول.. ونحن لا نبريء منها الإسرائيليين.. فدسيسهم معروف.. وإفكهم مألوف.. كسابق عهدهم.. مع جميع رسل الله الكرام.. فقد ذكروا رواية.. أسندوها إلى عبدالله ابن مسعود.. وهو منها براء.. أوجزها في عجالة سريعة حرصا على وقت القارئ الكريم.. من الضياع في لغو غير مفيد..

تقول تلك الرواية:

إن يونس - عليه السلام - بعد شفائه قام يمشى.. فلقي غلاما يرعى غنما قال: يا غلام.. من أنت؟.. قال: من قوم يونس.. قال: فإذا جئت إليهم.. فأخبرهم أنك لقيت يونس.. قال: إن كنت يونس.. فقد علمت أنه من كذب قتل.. إذا لم تكن له بيعة.. فمن يشهد لي؟.. قال:

هذه الشجرة.. وهذه البقعة.. قال: فمرهما.. فقال لهما يونس: إذا جاءكما هذا الغلام.. فاشهدوا له.. قالتا: نعم.. ثم قالت الرواية: إن الغلام أتى الملك.. وأخبره بوجود يونس.. واستدل بشهادة الشجرة وقطعة الأرض.. وأرسل الملك معه من سمع شهادتهما.. وأخذ الملك يد الغلام فأجلسه مجلسه.. وقال له: أنت أحق بالملك مني.. وأقام لهم هذا الغلام أمرهم أربعين سنة (١).

ولا شك.. كما ترى.. أن هذا حشو باطل.. ولغو مائل.. وإفك مفتري.. لا حاجة للمؤمن إليه.. ويقول الأستاذ عبدالوهاب النجار.. صاحب «قصص الأنبياء»:- يوجد ببلد اسمه «حليحول» قرب مدينة الخليل بفلسطين قبر يقال: إنه قبر «يونس».. ويمكن غير بعيد عنه.. قبر آخر.. يقال: إنه قبر «متى»...



﴿وذكر يا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير
الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له
زوجه﴾.

صدق الله العظيم
(الأنبياء / ٨٩، ٩٠)

○ من نبأ
ذكر يا عليه السلام

١ أصول الدعاء

جاء فى الخبر - كما ذكر ابن إسحاق - أن الله تعالى أميط آدم وحواء.. ومعهما إبليس إلى الأرض.. وقال لهم: (وقلنا امبطوا بعضكم لبعض صدق) (١) وأصدر الأمر الحريى إلى إبليس بقوله: (واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعصمهم وما يعلمهم الشيطان إلا غرورا) (٢).. والجلب لغة: هو صراخ الفارس على ظهر الحصان فى الحرب.

ثم قال سبحانه: يا آدم أجمع لك العلم كله فى أربع كلمات: واحدة لى.. واحدة لك.. واحدة بينى وبينك.. واحدة بينك وبين الناس: فأما الواحدة التى لى.. فألا تشرك بى شيئا. وأما التى لك.. فأجزيك بعملك. وأما التى بينى وبينك.. فممنك الدعاء ومنى الإجابة.

وأما التى بينك وبين الناس.. فأن ترضى لهم ما ترضى لنفسك.

ونص الكلمة الثالثة من تلك الكلمات الأربع.. يفيد أنه على الإنسان أن يدعو.. وعلى الله الإجابة.. وهو نفس النص فى قوله تعالى: (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) (٣).

فما بالننا ندعو الله ليل نهار فلا يستجيب لنا؟ إما أن يكون هذا لنقص فىنا.. يحول بيننا وبين الإجابة.. أو لجهلنا بأصول الدعاء.

ولعلنا إذا أكملنا الآية السابقة.. تتضح لنا الحقيقة التى تعتبر أصلا للاستجابة.. فنجد أن الله - سبحانه - بعد أن قال: (أجيب دعوة الداع إذا دعان) أردفها بقوله الكريم: (فليستجيبوا لى). وهذه العبارة الكريمة تستلزم منا وقفة قصيرة للتأمل.

فإن الله - سبحانه - يطلب منا الاستجابة له قبل أن يستجيب هو لنا.

ولنضرب لذلك مثلا بسيطا. فأنا إن كنت بخيلا.. شحيح النفس.. ضنينا بما آتانى الله من مال وفير.. فى مواقف

البذل - فهل يجوز لى وقت الحاجة أن أقول يا كريم .. أعتقد أن هذا غير جائز .. لأننى فى هذه الحالة أكون لست مؤمنا بأنه كريم .. وإلا لكنت مستجيبا له بصفة الكرم فى أوقات البذل والجود والعطاء .. وبالتالي عندما أقول يا كريم .. يجيبنى فى التو ليثبت لى أنه أكرم منى .. فهو مصدر الكرم .. وهكذا فى صفة الرحمة والعفو وغيرها من الصفات.

(والذين اهتدوا زادهم هدى) (١).

وأفضل لحظات الدعاء عندما يكون الإنسان ساجدا.. فالسجود مكان القرب:
(واسجد واقترب) (٢).

ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام.. «أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد» جبهته .. وهى أشرف وأعلى مكان فى جسمه .. على الأرض بين يدى الله - تعالى - هنا تكون درجة القرب .. وهنا يمكن سريان الاتصال الروحى بين العبد وربّه. وأذكر حديثا قرأته عن أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها - معناها:

أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يصلى فى ظلمة حجرتها.. تقول:

فتحت الباب فوجدته ساجدا فى الظلام.. ووجدت عمودا من النور يصل ما بين رأسه وسقف المكان.. فأغلقت الباب فى هدوء.. وانتظرت ساعة.. ثم فتحت الباب فوجدته مازال ساجدا ومازال عمود النور متصلا.. فأغلقت الباب ثم انتظرت ساعة وفتحته فوجدته مازال ساجدا ومازال عمود النور متصلا.. تقول.. رضى الله عنها.. فظننت أنه قبض.. فلمست إبهام رجله اليمنى وهو ساجد.. فحرك إصبعه ثم جلس فتشهد وسلم.. ثم نظر إلى وقال: «هل ظننت أنى خست (٣) بك يا حميراء؟ أما تعلمين أنها ليلة النصف من شعبان»؟.

سجدة واحدة على مدى ثلاث ساعات!.. فناء كلى.. وانتقال ذاتى.. وتفاعل وجدانى تنتقل فيه النفس من ظلمات الحياة الدنيا بأحوالها وأحوالها.. ومطامعها ومطامعها.. وآمالها وآلامها.. يسرى التيار النورانى فيصل بين العبد وربّه.. هنا يكون الدعاء.. وهنا تتحقق

العبودية.. وتكون الإجابة أقرب من نفس يتردد.. ومن قلب ينبض.

وعلى قدر يقينك بالإجابة تكون درجة الوصول إليها.. ألم تستمع إلى قوله - صلى الله عليه وسلم - «ادع الله وأنت موقن بالإجابة»؟.

فإذا دعوت وأنت متردد فى دفعة الدعاء.. مراتب فى تحقيق الرجاء.. فكذلك تكون الإجابة.. ولعل أقرب مثل يلائم هذا المقام.. هو موقف على ابن أبى طالب - رضى الله عنه - وهو فى غزوة خيبر.. لما كسر فى يده ترسه.. الذى يستتر به فى المعركة من ضربات السيوف.. وانكشف رأسه للعدو.. فوجد على يساره باب حصن خيبر.. وكان من الحديد السميك.. يعجز عن حمله رهط من الرجال الأشداء.. ولكن إيمانه ويقينه جعله يميل وهو فوق سرج جواده.. حيث يمسك بمقبض الباب.. ويرفعه صارخا باسم الله القوى.. فيرتفع الباب فى يده.. ويستعمله ترسا بدلا من الترس المكسور.. ولا عجب فإنها ليست يد على.. وإنما هى يد الله.. إنه دعاء من غير كلمات.. ونداء بدون ألفاظ.. إنها القوة الإيمانية الكامنة فى أحماق النفس.. المتغلغلة فى حنايا الشعور والوجدان إنها تصنع المعجزات.

وقبل أن نتقل إلى دعاء نبي الله زكريا - عليه السلام - أريد أن ألفت النظر إلى قوله تعالى (و الله الأسماء الحسنى فادعوه بها) (٤).. فمعرفة محالى أسمائه تعالى من لوازم المؤمن فى حياته الدنيا.. وإلا كان كالمريض.. أمامه الصيدلية.. فيها جميع العقاقير اللازمة لعلاج.. ولكنه يجهل استعمالاتها.. فقد يأخذ (صبغة اليود) فيستعملها قطرة لعلاج عينيه.. فتكون النتيجة عكس المطلوب.

فمثلا: عندما أريد ذبح طائر.. لا يجوز أن أقول: بسم الله الرحمن الرحيم.

فليس الذبح من مجليات الرحمة.. وإنما مجال الذبح - بسم الله.. الله أكبر - فالعبد المظلوم له أن يدعوا الله باسمه - العدل - والمستدل المستضعف له أن يدعوا باسمه - العزيز - والمريض له اسم - الرءوف والرحيم - وذو الضائقة المالية له اسم - الرزاق والكريم والوهاب - وهكذا على اختلاف الأسماء.. ويحسن إسناد الاسم المدعو به إلى اسم الذات - الله - فأقول: الله الرحيم.. الله الرزاق - الله العزيز.. إلى آخره.

(٢) ١٩ / الملق.

(٤) ١٨٠ / الأعراف.

(١) ١٧ / محمد.

(٣) خست بك: أى ظلمتك.. يقصد أن تلك ليلتها.

وهذا سر الاختلاف الأسمائي.. لاختلاف
أحوال الداعين.. ومقاماتهم عند رب العالمين.

**فالإنسان في دنياه هذه محكوم بالنواميس الكونية
في خطواته وأحواله حتى يعبرها إلى مستقره
الأبدى.. فراسخه الأيام والليالي.. تختلف عليه
تجليات الأسماء الحسنی.. تلك الأسماء التي كونت
الأسباب وخلقتها لتكون وسيلة للوصول إلى
المسبب.. وفي نفس الوقت هي قادرة على إيجاد
المسبب من غير سبب.. فمثلا - الله الرازق - أثبت من
حبة القمح سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة -
ليأكل الناس والأنعام.. وهو - سبحانه - قادر على
إيجاد مواد الغذاء للإنسان والدواب بدون هذا
السبب الذي هو أعواد القمح وسنبله.**

**وهكذا رأى زكريا - عليه السلام - كلما دخل
على فتاته - مريم - عليها السلام - في محرابها..
وجد عندها رزقا.. طعاما شهيا.. له إشعاع غريب..
شبيه بطعام الأرض.. ولكنه ليس مما تنبت الأرض:
(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها
رزقا)(١).**

ولفظ (كلما) يفيد في اللغة الاستمرار والدوام
مدة من الزمن.. مما دفعه إلى سؤالها:

(قال يا مريم أئني لك هذا قالت هو من عند الله
إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)(٢) أى بدون
سبب من الأسباب التي يألّفها الناس . إنها حقيقة

«يقينية» رآها زكريا - عليه السلام - فحركت في
نفسه عوامل الدعاء.. وفجرت في صدره أمرا
دفينا.. وألما مكبوتا.. وحنينا مكنونا. لقد بلغ من
العمر ما يناهز المائة.. ضعف جسمه.. واشتعل
رأسه.. ووهن عظمه.. وفقد أسباب الإنجاب.
**ولطالما حدثته نفسه.. وتنازعت هواجسه وأفكاره
أن يرزقه الله ولدا.. يكون له قرة للعين.. ووارثا
للبوة.. وامتدادا للعمر.**

ولكنه سرعان ما كان يعود إلى نفسه باللوم
والتوبيخ.. لخطور تلك الأفكار على قلبه بعد أن فقد
كل الأسباب الموصلة إلى الأمل الميثوس منه.. فلما
رأى المسيبات مع فقد الأسباب.. في الطعام المتتابع
المستمر.. الهابط على فتاته مريم.. ولما سمع منها
قولها:

(هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير
حساب) أى بدون أسباب (هنالك دعا زكريا ربه قال
رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع
الدعاء)(٣).

ومعنى لدنك: أى خارجة عن نطاق الأسباب
التي فقدتها في جسمي الواهن الضعيف.
وكانت الإجابة:

**(فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن
الله يمشرك بيهي)(٤).**



مع آل عمران



وهكذا نرى أن تلك الأسرة من الله بمكان. ولها عند الله أعظم درجة فى عصرها.. فهم صفوة البشرية.. وخالصة الإنسانية:
(إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم)(١).

والله - تعالى - دائما يجتلى أوليائه.. ويختبر أصفياه.. فابتلى المرأتين بالعقم.. وأمسك عنهما الولد.. حتى أيست كل منهما وشابت.. وامتد بهما العمر.. وأدركهما وزوجيهما ضعف الكبر ووهن الشيخوخة.. دون ولد يكون لهما قرّة عين.. أو وارث يحمل عنهما رسالة السماء.

وذاث يوم جلست حنة - زوج عمران - تحت شجرة ورفة - وقت الأصيل - تتفياً ظلالها.. وتتفكر فى خلق السموات والأرض.. وما خلق الله فيهما من آيات - والمؤمنون فى مثل تلك الأوقات - قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.. يسبحون بأرواحهم فى ملكوت الله اللانهائى.. يطالعون ببصائرهم كتاب الفطرة الواسع المفتوح

كان عمران بن ماثان زوجا لحنة بنت فاقوذ.. وحنة بفتح الحاء.. وهو اسم غير عربى.. ويوجد بالشام دير اسمه - دير حنة - قال عنه أبو نواس:
يا دير حنة من ذات الأكيراح

من يصح عنك فإنى لست بالصاحي

وعمران زوج حنة من نسل سليمان بن داود - عليهما السلام - ويتصل نسبه بيهودا بن يعقوب - عليه السلام.

وقد أجمع رجال التفسير والتاريخ على أن بينه وبين عمران والد موسى وهارون ألفا وثمانمائة سنة.
وكان نبيا وإماما لأحبار اليهود وعلمائهم.

وكان لفاقوذ والد حنة ابنة أخرى هى الیصابات - أو إيشاع - تزوجها زكريا بن آدن - الذى يتصل نسبه بسليمان بن داود مثل عديله عمران بن ماثان.

فكانت حنة والیصابات - ابنتا فاقوذ - تحت نبين عظيمين.. وإمامين جليلين.. هما: عمران بن ماثان.. وزكريا بن آدن.

..فتنشر صدورهم.. وترتاح أفئدتهم.. وقد أعجبني قول عطاء الله السكندري - رضى الله عنه - «إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام.. جالت الروح فى ميادين الملكوت وتعود إلى صاحبها محملة بطرائف الحكم.. ويعلمه الله من غير معلم فينطق بالحكمة.. ويتكلم بالنور».

وهذا القول مطابق لقوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) (١).

وقوله (ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) (٢).

ولمحت حنة - وهى فى مقامها هذا - طائرا يزق فرخا له.. فنارت فى نفسها دوافع الحنين إلى الولد.. وتمتته.. وتقبل الله دعاءها الخفى.. وحقق أملها المكبوت.. فتحركت فى نفسها عوامل الإيمان بعد اليأس وفوات الشباب.

ونرى أننا مضطرون للوقوف برهة أمام هذا الأمر الغريب.. والحال العجيب..! امرأة لم تحمل فى صباها ولا فى شبابها.. ولا فى كهولتها حتى إذا قطعت مرحلة الشيخوخة وحان الأجل.. يتحرك فى نفسها الشوق والحنين إلى الولد.. وتكون السماء أقرب إليها من جبل الوريدا!..

فهل معنى هذا أنها لم تطلب من الله الولد من قبل؟

أعتقد هذا.. فعلاقات المقربين بربهم لها خصائص وميزات لا يدركها إلا المبصرون.. فهذا نبي الله أيوب.. يتتليه ربه بإفناء ماله وأنعامه وحرثه.. فيصبر ويحتسبها عند الله.. ثم يتتليه بفقد أبنائه الذين كانوا قرة العين وزهرة الحياة.. فيصبر ويحتسبهم عند الله.. ثم يتتليه بضيق صحته.. وشدة مرضه.. وهزال جسمه.. وضمور عوده.. حتى يصير هيكلًا من العظم لا حول له ولا قوة.. تقوم امرأته رحمة بنت إفرايم بن يوسف - عليه السلام - بقضاء حاجته.. والسعى للحصول على قوتها وقوته.. وهو فى كل تلك البلايا صابر محتسب.. لم يطلب من الله أن يكشف ضرا.. أو يدفع شرا.

وقد روت كتب التفسير: كالبياض والكشاف: أن امرأته رحمة دخلت عليه يوما بعد

أن وصل إلى ما وصل إليه من الأسى والمرضى.. فقالت له:

يا أيوب لو دعوت الله ليرفع عنك البلاء؟.. فقال لها: كم مدة رخائنا؟ قالت: ثمانين عاما.. قال: أستحيى من الله أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى.. ولم يدعه إلا بعد أن تدخل الشيطان بينه وبين ربه عند الصلاة التى كان يؤديها بجفن عينه بعد أن عجزت رأسه عن الحركة من شدة المرض.. وذلك أن إبليس يشس من أن ينال منه فتिला أو يشفى غليلا.. فى كل أنواع البلاء التى امتحن بها أيوب.. حيث كان فى كل مرة يزداد قربا من الله.. فأراد أن يشغله عن الصلاة.. فلما اتجه بعينه إلى القبلة ليصلى.. أتاه إبليس بتخيلات وأوهام من التماثيل والصور والنصب.. ليحول بينه وبين كمال الصلاة..

هنا فقط قال أيوب:

إلهى لقد صبرت على ذهاب مالى وعيالى وصحتى فى سبيل رضاك.. أما أن يحال بينى وبينك فهذا مالا طاقة لى به:

(إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) (٣).

وكانت الإجابة أقرب إليه من سريان هذا الخاطر فى نفسه.

(اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب.. ووهنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب) (٤).

إن حنة زوجة عمران لم تطلب من الله ولدا من قبل.. فشفاية روحها.. وصفاء وجدانها.. وكمال إيمانها جعلتها تقبل عقمها فى رضى وصبر.. حتى إذا أراد الله - تعالى - تنفيذ هذا الأمر.. حرك فى ضميرها هذا الرجاء لما رأت الطائر يطعم فرخه.. ولبى الله رجاءها.

وحملت حنة.. ولم يمض وقت بعد حملها.. حتى مات زوجها عمران ثم تحرك الجنين فى بطنها.. فأخذتها نشوة الفرح بهذا الوليد المرتقب.. فانجذبت إلى الله بكل أحاسيسها وجدانها تدعو قائلة: (رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم) (٥).

(٢) ٥٢ / الشورى .

(٤) ٤٢ - ٤٣ / ص .

(١) ٢٨٢ / البقرة .

(٣) ٤١ - ص .

(٥) ٣٥ - آل عمران .

ولعلها بهذا النذر الذى كان جائزا عندهم..
تقصد أن يكون الوليد ذكرا.. ليحل محل أبيه فى
سدانة بيت المقدس وخدمته.. محررا عتيقا عن الدنيا
وآمالها وزينتها وفتنتها خالصا لله ولبيته المقدس.

ولكن المولود حين وضعته جاء أنثى.. ووقعت
حنة فى حيرة من أمرها.. ومن الوفاء بنذرهما..
فالأنثى لا تصلح لهذا الأمر.. فاعتذرت عما
نذرت.. وعادت إلى الله - سبحانه - أسفة متحسرة
تقول: (رب إنى وضعتها أنثى) و«ليس الذكر
كالأنثى» فى خدمة بيتك المكرم.. والعبادة فيه..
لمورثتها وما يعترىها من الحيض والنفاس والأذى..
وكانها فى قرارة نفسها وأعماق وجدانها تصر على
النذر خالصا لله فقالت:

(وانى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من
الشیطان الرجيم) (١).

واسم مريم فى لغتهم بمعنى العابدة الخادمة لله..
فلم يرد الله يدها.. وقبل منها نذرهما (فتقبلها ربها
بقبول حسن) (٢).

ورضى - سبحانه - بهذا النذر مكان الذكر.. ولم
يقبل قبل مريم أنثى فى ذلك الأمر.

طلبت حنة من الله تعالى أن يحفظ ابنتها وما
يتناسل منها من الشيطان ووسوسته وهواجسه
وإغوائه بقولها: (وانى أعيذها بك وذريتها من
الشیطان الرجيم) والله فى خلقه شئون وشجون.. فلم
يكن لمريم - عليها السلام - ذرية غير عيسى..
فانحصرت الدعوة فيهما فقط - مريم وابنها..

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال.. قال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان.. فيستهل
صارخا من نخسه إلا ابن مريم وأمه.. ثم قال أبو
هريرة: اقرأوا إن شئتم:

(وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم).
ومفهوم هذا الحديث أن كل مولود يولد يطعم
الشیطان فى إغوائه وإضلاله إلا مريم وابنها.. فإنهما
كانا معصومين بسبب دعوة حنة لهما.

واستهلال المولود صارخا من مس الشيطان..
تخيل وتصور لطمعه فيه.. كأنه يمسه ويضرب بيده
عليه وكأنه يقول: هذا بمن أغويهم وأضلهم.. وكله
تصور وتخيل..

ويقول ابن الرومى فى هذا:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها

يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وأما حقيقة المس والنخس - كما يتوهم أهل
الحشو - فالمقل يرفضه.
ولو سلط إبليس على الناس بنخسهم لامتألت
الدنيا صراخا وعويلا.

- ٣ -

زكريا يكفل مريم

إن تلك الأسرة التى ولدت مريم - عليها السلام -
فى أحضانها.. وشبت فى ظلالها.. تتميز بالرضى
والطهر.. والرحمة والحنان.. حتى السورة التى
سميت باسمها فى القرآن الكريم تبدأ أول ما تبدأ
بالرحمة (ذكر رحمة ربك عبده زكريا)..

وزكريا كما قلنا - هو زوج خالتها اليصابات..
واسم زكريا - فى العبرية - يفيد معنى دوام الذكر
والتسبيح لله تعالى.. فكان له ولزوجته اليصابات
نصيب من اسميهما.. فقد قرأت أن اسم - زكريا
أصله: ذكر إيلى.. كما أن اليصابات أصلها - إيلى
صابات.. فإذا علمنا أن إيلى هو الله - سبحانه
وتعالى.

فالإل - بالكسر - هو الله عز وجل (٣).. وجاء فى
إنجيل متى فى الإصحاح السابع والعشرين ما نصه:
٤٦ - ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت
عظيم قائلا: إيلى إيلى لم شقنتى.. أى إلهى إلهى
لماذا تركنتى.. على أنها العبارة التى قالها المسيح -
عليه السلام - عند صلبه.

فإذا أفهمنا هذا كان معنى كلمة (زكريا) أى كثرة
ذكر الله.. وكلمة اليصابات: تعنى قسم الله وبمينه..
وهو ما يحلف به صادقا.

قال أولو العلم من رجال التفسير (٤):

إن حنة حين ولدت مريم.. لفتها فى خرقة
وحملتها إلى المسجد.. وسلمتها للأخبار من

(٣) مختار الصحاح .

(٤) البيضاوى والنسفى والكنشاف ٣٦ - آل عمران .

(١) ٣٦ / آل عمران .

(٢) ٣٧ - آل عمران .

وقال وضاح اليمن:
ربة محراب إذا جتتها

لم ألقها حتى ارتقى سلما
وسمى المحراب محرابا.. لأنه مكان محاربة
الشیطان والمحراب أشرف المجالس ومقدمها.. كأنها
وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس.
وروى أنه كان لا يدخل عليها محرابها إلا زكريا
وحده. (فتقبلها ربها بقبول حسن) وسلك بها طريق
السعداء (وأنبئها نباتا حسنا) (٣) سوى خلقها من
غير زيادة ولا نقصان.

**ولا شك أنها أفضل نساء العالمين - فقد اصطفاها
الله - سبحانه - مرتين في آية واحدة.**

﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك
وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ (٤).

وهل بعد اصطفاء الله من برهان ؟ - اصطفاها
أولا بتقبلها من أمها.. ولم يقبل قبلها أنثى وفرغها
لعبادته وأنبتها نباتا حسنا برزق من نوع جديد..
وطهرها مما يستعذر من النساء.. واصطفاها ثانية
بهدايتها وإرسال الملائكة إليها لتحديثها مشافهة.. وهذا
هو ظاهر النص القرآني.. وخصصها بالكرامات
السنية.. كالولد من غير أب.. وتبرئتها مما قذفها به
اليهود بإنطاق الطفل وجعلها وابنها آية للعالمين.

**والكثير من المفسرين يقول: إنها تحدثت وهي
صغيرة مثل عيسى - عليه السلام (٥)..**

وفي هذا القول تكلف ظاهر.. لم يرد فيه نص..
لا في القرآن ولا السنة.. ولو كان حقيقة لقال الله -
تعالى - ذلك عنها كما قال عن ابنها..

**نشأت مريم - عليها السلام - على الطهارة
والرحمة والحنان والبعد عن الدنس.. عابدة قانتة
خاشعة متبذلة.. يقول الأوزاعي: لما قالت لها
الملائكة:**

(يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع
الراكعين) (٦) قامت في الصلاة حتى ورمت قدمها.

أبناء هارون.. وهم في بيت المقدس كالحجبة في
الكعبة.. فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة.. فتنافسوا
فيها.. لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم..
فقال لهم زكريا - عليه السلام -: أنا أحق بها وعندى
خالتيها.. فقالوا له: نحن لا نوافق على هذا.. فإنها لو
تركت لأحق الناس بها وأقربهم إليها.. لتركت لأمها
التي ولدتها.. ولكن نقترح عليها فتكون عند من
يعلمو سهمه.. وكانوا تسعة عشر حبرا.. ذهبوا إلى
نهر جار.. يقول السدي: هو نهر الأردن.. فألقوا
أقلامهم التي يكتبون بها التوراة.. فارتفع قلم زكريا
فوق سطح الماء.. وانحدرت أقلامهم ورسبت في
الماء:

(وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل
مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) (١).

وكان زكريا - عليه السلام - رأس الأحناب
وإمامهم بعد موت عمران (وكفلها زكريا). ضمها
إلى خالتها.. واسترضع لها حتى شبت ونمت..
ولهذا أفنى الفقهاء بأن الخالة أحق بالحضانة من سائر
القربات ماعدا الجدة.. وقضى بهذا رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - فقد خرج أبو داود عن عليّ
قال:

خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدم بابتة حمزة -
عم رسول الله - فقال جعفر: أنا آخذها.. أنا أحق
بها.. إنها ابنة عمى وخالتها عندى.. فالخالة أم فقال
علي: أنا أحق بها.. إنها ابنة عمى وعندى ابنة رسول
الله - ﷺ - فهي أحق بها وقال زيد: أنا أحق بها.. أنا
خرجت إليها وسافرت وقدمت بها.

فخرج النبي - ﷺ - فذكر حديثا قال: «وأما
الجارية فأقضى بها لجعفر.. تكون مع خالتها.. وإنما
الخالة أم».

**وذكر ابن خزيمة أن زيد بن حارثة كان وصي
حمزة.. فتكون الخالة على هذا أحق من الوصي (٢).**

**وشبت مريم - عليها السلام - حتى إذا بلغت
مبلغ النساء بنى لها زكريا محرابا في المسجد.. أى
غرفة مرتفعة يرقى إليها بسلم.. مثل باب الكعبة..**

(٢) القرطبي ٤٤ / آل عمران .

(٤) ٤٢ / آل عمران .

(٦) ٤٣ / آل عمران .

(١) ٤٤ / آل عمران .

(٣) ٣٧ / آل عمران .

(٥) جاء ذلك في البيضاوى والكشاف والنسفى وغيرهم.

وروى مسلم عن أبي موسى.. قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم:

«كامل من الرجال كثير.. ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون» (١).
ويعلق القرطبي على هذا الحديث فيقول:

قال علماؤنا: الكمال هو التناهي والتمام.. وكمال كل شيء بحسبه.. والكمال المطلق لله تعالى وحده.. ولا شك أن أكمل نوع من الإنسان الأنبياء.. ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين.. وإذا تقرر هذا فقد قيل إن الكمال المذكور في الحديث يعنى به النبوة.. فيلزم عليه أن تكون مريم وآسية نبيتين.. وقد قيل بذلك.. ولكن الصحيح أن مريم إذا كانت نبية فذلك لأن الله تعالى أوحى لها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر الأنبياء.. أما آسية فإنه لم يرد ما يدل على نبوتها.. بل على صديقتها وفضلها.

وإن كان كثير من العلماء ينكر نبوة مريم وقالوا: إن رؤيتها للملك كما روى جبريل في صفة دحية الكلبي حين سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الإسلام والإيمان والإحسان.. ورآه الصحابة ولم يكونوا بذلك أنبياء.. والإجماع على أنه سبحانه لم يستنبئ امرأة لقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) (٢).

ونحن لا يهمننا من هذا الأمر إلا أن ظاهر الأحاديث وقبلها القرآن الكريم يقتضى أن مريم - عليها السلام - هى أفضل نساء العالمين من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة فإن الملائكة قد بلغتها الوحي عن الله - عز

وجل - بالتكليف والإخبار والبشارة.. كما بلغت سائر الأنبياء.. فهى أفضل من كل النساء الأولين والآخرين مطلقا.. ثم بعدها فى الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية.. وكذلك بهذا الترتيب رواه موسى بن عقبة.. عن كريب.. عن ابن عباس قال.. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

«سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية» (٣).

صدقت مريم - عليها السلام - بكلمات ربها.. ولم تسأل الله آية عندما بشرت بكلمة من الله اسمه المسيح.. كما سأل زكريا - عليه السلام - عندما بشرته الملائكة بيهي.. فقال: (رب اجعل لى آية) (٤).. ولذلك سماها الله صديقة فقال: (وأمه صديقة) (٥) وقال (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) (٦).

إن مريم.. عليها السلام.. لم تنل شهادة ربها لها بالصديقية والتصديق إلا لمنزلتها السامية ومرتبها القرية الدانية..

وقد جاء فى الخبر (٧) عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال:

«لو أقسمت لبررت.. لا يدخل الجنة قبل سابقي أمتى إلا بضعة عشر رجلا هم: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم ابنة عمران».

وهكذا سبقت جميع السابقين مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الجنة..

(٢) ١٠٩ / يوسف .

(٤) ١٠ / مريم .

(٦) ١٢ / التحريم .

(١) ٤٢ / آل عمران .

(٣) القرطبي ٤٢ / آل عمران .

(٥) ٧٥ / المائدة .

(٧) القرطبي ٤٢ / آل عمران .

هذا الطعام الذى له علاقة ظاهرة برفع عيسى - عليه السلام - حيث كان ينزل على مريم - عليها السلام - قبل حملها.. ثم فى لحظة مولده على هيئة ماء ورطب.. ثم قبل رفعه مباشرة فى صورة مائدة طلبها الحواريون.. وسنعرض له إن شاء الله فى نبأ عيسى - عليه السلام.

ولعل ذلك الطعام الدائم المنزل على مريم.. ترك فى نفس زكريا - عليه السلام - أمرا.. وحرك فى ضميره شجونا.. وأثار فى تفكيره خواطر ما كان يجرؤ على مجرد التفكير فيها.

فقد بلغ الشيخ العشرين بعد المائة.. وليس له ولد يرث ما حباهم الله به من النبوة والملك.. فهل يجول فى ذهنه بعد تلك السن الطاعنة فى أعماق الزمن.. وبعد أن وهن العظم.. وضعف الجسم.. واشتعل الرأس.. وتقوس الظهر.. وخفت الصوت.. هل يجول فى ذهنه أن يطلب من الله ولدا؟

ولم لا.. بعد أن رأى طعاما ينزل على مريم من السماء مجردا عن الأسباب.. أسباب الحرث والزرع والسقى والاستنبات.. وبعد أن رأى أمها قبل ذلك تضعها بعد سنين اليأس ويأس السنين.
«هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء» (٢).

تكرر دخول زكريا عليه السلام - على مريم فى محرابها.. يحمل لها الطعام والشراب فيجد أمامها طعاما يعرفه ولا يألوه ولم ير له مثيلا مما تثبت الأرض وما يأكل الناس.. وإنما هو طعام غريب.. ورزق عجيب.. قد يكون شبيها بطعام الدنيا.. ورزقها.. ولكنه يرى فيه إشعاعا لا يعلم سره.. ولا يدرى كنهه.. فيقول لها: يا مريم من أين لك هذا الطعام؟ ومن الذى يأتيك به ولم يدخل عليك أحد سوى؟

فتقول له: إنه يأتينى من عند الله كلما أحسست بالجوع دون طلب منى.

«كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» (١).

وقد أجمع المفسرون على أن زكريا - عليه السلام - كان يجد عند مريم فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء.. وفى هذا التأويل لحميل للمعاني فوق طاقتها.. فإن الله - سبحانه - قد خلق لكل فصل من الفصول فاكهة تتلاءم مع جوهه.. فالمدفء منها للشتاء.. والمرطب للصيف.. فهل يستساخ البطيخ والشمام مثلاً فى فصل الشتاء؟.. هذا تقدير العزيز العليم.. البديع الحكيم.. ولا داعى للتكلف فى تفسيرنا لكلام الله بتأولات ليس لها حجة من منطق أو عقل.. ولنا رأى فى

وقد جاء وصف دعاء زكريا في سورة مريم بصفة الخفاء.. لقوله تعالى:

(إذ نادى ربه نداء خفياً)(١).

دعا ربه في ضراعة وفي خفاء.. خفاء عن أعين الناس وأسماعهم في خلوة يخلص فيها لربه يناديه في قرب واتصال وفناء (قال رب) بغير واسطة حتى ولا حرف النداء. والدعاء سر أبعد عن الرياء.. وأقرب إلى الصفاء.. وقد يكون الخفاء في دعاء زكريا حياء منه استعظاما للطلب خشية أن يسمعه أحد فيرميه بالخبل.. لكبر سنه وضعف جسمه وعدم إلمامه من قبل:

«قال رب إني ومن المعظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقياً»(٢).

وهنا لفظة جميلة من زكريا - عليه السلام - (ولم أكن بدعائك رب شقياً).

هكذا حال المؤمن.. لا يفقد ثقته في مولاه.. فهو دائما مطمئن النفس.. كامل الثقة.. وافر اليقين بأن الله معه.. يعطيه إذا سأل.. ويعينه إذا استعاض به.. ويعينه إذا طلب منه العون (ولم أكن بدعائك رب شقياً).. فكم سألتك يارب وأعطينتني.. وكم استعنت بك فأعنتني.

وقد روي أن محتاجا سأل غنيا وقال له: أنا الذي أحسنت إلى يوم كذا.

فقال له: مرحبا بمن توسل إلينا بنا.. ثم قضى حاجته.

وقد يكون سبب الخفاء - كما قال بعض المفسرين - أن موالیه كانوا شرار بني إسرائيل.. فعخاف منهم.. وأخفى سره عنهم.. وقال ما قال بينه وبين ربه.. حيث كان صلب الدعاء قوله:

(وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي ساقرا فهب لي من لدنك وليا. يرثني ويرث من آل يعقوب وأجعلهم رب رضىا)(٣).

ولعل زكريا - عليه السلام - يقصد أن يرثه في النبوة.. ويرث من آل يعقوب الملك.

طلب زكريا من الله أن يرزقه ولدا رضىا.. ليس بجبار ولا غليظ.. ولا متبطر ولا طماع.. ولفظ (رضى) يلقي الكثير من معاني الخير.. فالرضى ليس خيره لنفسه فقط وإنما خيره يعم من حوله بالحب والخير والسلام.

وجاء دعاء زكريا عليه السلام - في سورة آل عمران بطلب ذرية طيبة:

(قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء)(٤).

وفي هذا دليل على أن طلب الولد الصالح من سنن المرسلين والصدّيقين.. لقوله تعالى:

«ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية»(٥).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث».

وذكر منها «أو ولد صالح يدعو له» وإن لم يكن غير هذا الحديث لكان فيه الكفاية.

ومن حديث أنس.. قال - صلى الله عليه وسلم: «أى رجل مات وترك ذرية طيبة.. أجرى الله له مثل أجر أعمالهم ولم ينقص من أجورهم شيئا».

والأخبار في طلب الولد كثيرة.. نحث عليه.. وتندب إليه.. لما يرجوه الإنسان من نفسه في حياته وبعد موته.. وهذا دعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأنس بن مالك: «اللهم أكثر ماله وولده.. وبارك له فيما أعطيته». أخرجه البخارى ومسلم.

وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال: أراد عثمان أن يتبتل.. فنهاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولو أجاز ذلك لاختصمنا.

وخرج ابن ماجه عن عائشة قالت.. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم:-

«النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني.. وتزوجوا فإنى مكاثركم الأمم.. ومن كان ذا طول فليتكح.. ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقال تعالى مغبرا عن إبراهيم - عليه السلام -:

(واجعل لى لسان صدق فى الآخرين)(٦).

وقال: (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين)(٧).

(٢) ٤ / مريم .

(٤) ٣٨ / آل عمران .

(٦) ٨٤ / الشعراء .

(١) ٣ / مريم .

(٣) ٥ - ٦ / مريم .

(٥) ٣٨ / الرعد .

(٧) ٧٤ / الفرقان .

كان نداء زكريا عليه السلام - نداء خفيسا.. فما الدعاء الخالص إلا انفعال فى قرار النفس وأصمات الوجدان.. وليست العبرة بارتفاع الأصوات وجوار الحناجر.. من غير يقين.. ولهذا نادته الملائكة فى التو بتلبية طلبه.. وتحقيق غرضه:
(فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله ييشرك بىحى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين)(١).

وفوجيء زكريا بسرعة الإجابة وتحقيق الأمل..
كيف يكون هذا وأنا شيخ فلانى بلغت من الكبر عتيا.. حطمتنى الأيام.. وهدتنى السنون.. حتى وهن عظمى.. وانحنى ظهري.. ولم يبق لى أمل فى مثل هذا الأمر!!؟

وزوجتى تلك العجوز العاقر التى ناهزت التسعين من سنين الزمن.. وخط اليأس فى أعماقها أخاديد وأخاديد.. هل من الممكن أن تأتى القدرة على الإنجاب.. وأن يكون لديها وسائل الإخصاب!!؟ إن هذا الأمر عجب.. وأى عجب (قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر)(٢).

ويأتية الرد الفورى (قال كذلك الله يفعل ما يشاء).

وأخذت زكريا - عليه السلام - دهشة ملكت عليه كل شىء.. احتوشت خلجات نفسه.. وشملت نبضات قلبه.. فاندفع مع خواطره وأحاسيسه.. يسأل الله تعالى أن يريه آية.. يعلم منها كيف يتم هذا الأمر: (قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار)(٣).

وأغلب المفسرين يقولون: إن الآية هى حبس لسانه عن الكلام ثلاثة أيام.. فإذا أراد أن يتكلم عجز لسانه عن النطق.. إلا إذا أراد ذكرا وتسييحا.. هذا هو رأى جميع المفسرين تقريرا.. وقد أخذوه عن أهل الكتاب حيث جاء هذا المعنى فى الإنجيل لوقا.. الإصحاح الأول.. الآيات ١٨ - ٢٢.

ولكن ليعذرنى القارىء إذا أنا خرجت عن هذا الرأى إلى رأى آخر يستسيغه الفكر.. ويرضاه المنطق.. ويوائم كتاب الله.

فقد عرض الله - سبحانه - هذا المقام فى سورة مريم.. بقوله تعالى:

(قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليل سويا).

وزاد عليها لتوضح هذا الأمر قوله:

(فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا)(٤).

والواضح من هذا أن زكريا - عليه السلام - طلب من ربه.. وهو فى نشوة الرجاء وتحقيق الأمل المرتقب.. أن يريه آية يعلم بها كيف سيحدث هذا الحمل بعد اليأس المزدوج بينه.. على كبره وشيخوخته - وبين امرأته - على عقرها وعقمها.. فأمره الله - سبحانه - بالاعتكاف فى المحراب بنية الصوم ثلاثة أيام مع الإكثار من ذكر الله وتسييحه(٥) فى البكرة والعشى.. وبعدها سيرى الآية التى ينشدها.. والدليل الذى يرنجيه.

وكان الصوم فى ملة التوارة.. أحيانا.. الامتناع عن الكلام.. والاكتفاء فى معاملة الناس عند الضرورة بالإشارة والرمز.. انظر إلى قول عيسى.. عليه السلام.. لأمه لحظة ميلاده:

(فلما ترين من البشر أحدا فقولى إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا)(٦).

وهكذا فعل زكريا - عليه السلام - فدخل محرابه ناويا الصوم ثلاثة أيام.. تفرغ فيها للذكر والحمد والتسييح.. فلما أتمها.. أراد الاغتسال قبل أن يخرج من محرابه.. وإذا به يجد أن كل مايمسه الماء من جسمه يعود إليه النضارة والشباب.. فالعظام تصلب بعد وهنها.. والعود ينتصب بعد انحنائه.. والجسم يقوى بعد ضعفه.. والشعر يسود بعد بياضه.. ويخرج على الناس.. فما أن وقع بصرهم عليه فى صورته الجديدة.. حتى سمع من أفواههم شهقات كلها استغراب وعجب.. فأمرهم بتسييح الله القادر على كل شىء.. الذى يحيى العظام وهى رميم:

(فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا)(٧).

ويخيل إلى أنه كان يرد عن نفسه قذائف الحسد التى أحسها من عيونهم الزائفة.. ونظراتهم الداهلة.. وأفواههم الفاغرة..

(٢) ٤٠ / آل عمران .

(٤) ١٠ - ١١ / مريم .

(٦) ٢٦ / مريم .

(١) ٣٩ / آل عمران .

(٣) ٤١ / آل عمران .

(٥) قاله عطاء - من الثعلبى .

(٧) ١١ / مريم .

وزفراتهم الحارة لما رأوه يخرج عليهم من المحراب فى
الجسم البض الفتى.

وفى نفس الوقت كما أصلح الله له جسمه..
أصلح له زوجه لتكون مهياة للإخصاب والإنجاب..
وليأتى يحيى.. وهذا هو النص (فاستجبنا له ووهبنا له
يحيى وأصلحنا له زوجه)(١).

وتمت المعجزة.. معجزة الحمل بيحيى - عليه
السلام.

ومن الغريب أن بعض المفسرين فسر عبارة
(وأصلحنا له زوجه) بأنها كانت سيئة الخلق.. فحسن
الله خلقها(٢).. وقد غفل هؤلاء عن قوله تعالى:

(فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه
إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا
ورها وكانوا لنا خاشعين)(٣).

وضمير الجمع يشملها مع زكريا ويحيى.

فهل يكون المسارع فى الخيرات.. الداعى ربه رغبة
فى رضاه ورهبة من غضبه.. الخاشع لله.. هل يكون
هذا سىء الخلق؟.

نستغفر الله ونستعيز به من نزغات الشياطين.

وهيا أيها القارىء الكريم لنلتقى برسول الله يحيى
- عليه السلام - الذى اختصه الله - تعالى - بصفات
فرائد.. كما لم يجعل له من قبل سميا.. فلم يحمل
هذا الاسم قبله أحد.. ويقول عنه - عليه الصلاة
والسلام.

«من هوان الدنيا على الله أن يحيى بن زكريا قتلته
امراة».



(٢) فى الكشف والنسفى وغيرهما - ٩٠ / الأنبياء .

(١) ٩٠ / الأنبياء .

(٣) ٩٠ / الأنبياء .

﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً﴾.

صدق الله العظيم
(١٢ - مريم)

○ من نبأ

يحيى عليه السلام

١ يحيى فى الميزان

ثبت بالدليل القرآنى أن يحيى - عليه السلام - هو أول من سُمى بهذا الاسم من بنى آدم.. لقوله تعالى: «يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً» (١).

كما قررت الأنجيل ذلك.. ففى الإنجيل لوقا.. فى الإصحاح الأول:

٥٧ - فأما الیصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابناً.
٥٨ - وسمع جيرانها وأقرباؤها أن الرب عظم رحمته لها ففرحوا معها.

٥٩ - وفى اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبى وسموه باسم أبيه زكريا.

٦٠ - فأجابت أمه وقالت: لا.. بل يسمى يوحنا.

٦١ - فقالوا لها: ليس أحد فى عشيرتك يسمى بهذا الاسم.

٦٢ - ثم أومأوا إلى أبيه.. ماذا يريد أن يسمى.
٦٣ - فطلب لوحاً وكتب قائلاً: اسمه يوحنا.. فتعجب الجميع.
ويوحنا عند أهل الكتاب.. هو يحيى بن زكريا - عليهما السلام.

وقد أطلال المفسرون فى سبب تسميته بهذا الاسم.. فقال ابن عباس:

لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه. وقال قتادة وغيره: لأن الله أحيا قلبه بالإيمان والنبوة. وقال الحسن بن الفضل: لأن الله أحيا بالطاعة حتى لم يتغير ولم يهم بمعصية أبداً.. ودليله ما أخبر به الحسن بن فتحويه بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس.. أن النبى - صلى الله عليه وسلم قال:

«ما من أحد يلقى الله - عز وجل - إلا وقد هم بخطيئة أو عملها: إلا يحيى بن زكريا فإنه لم يهم ولم يعمل».

وذكر الثعلبي في كتابه- قصص الأنبياء- رواية
من عمر بن عبد الله القدسي: أن الله أوحى إلى زكريا-
 عليه السلام- أن قل لامراتك- يسارة- وكان اسمها
 كذلك: «إني مخرج منكما عبدا لا يهم بمعصية اسمه..
 حتى.. فهى له حرفا من اسمك» فوهبت أول حرف من
 حروف اسمها- الياء- فصار يحيى وصار اسمها-
 سارة.

وقال الأستاذ عبد الرزاق نوفل في بعض بحوثه:

إن أصل الاسم هو يوحنا- واختلف وضع
 الألف والنون في التعريب ليصبح - يوحنا - والألف
 والنون فى - يوحنا- زائدة.. كما هى زائدة فى -
 المعمدان.. التى أصلها- المعمد- لأنه يعمد الناس بالماء
 أى يغسلهم به ليظهرهم.. ويحذف الألف والنون من
 يوحنا يصبح الاسم- يوحا- يحيى- ومعناه استمرار
 الحياة.. فقد شاء زكريا وزوجته استمرار حياتهما بهذا
 المولود.. فالابن امتداد حياة والديه ولما كان إطلاق اسم
 الحياة على إنسان يموت يعتبر تناقضا لم يحصل من قبل
 أنكره أهلهم وجيرانهم.. وكانوا يريدون تسميته زكريا
 على اسم أبيه.. ولكن الله تعالى.. كان قد أوحى إلى
 زكريا وزوجته بهذا الاسم.

وهنا يتضح معنى قوله تعالى:

(يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل
 له من قبل سميا).

أى لم يطلق اسم الحياة من قبل على إنسان
 يموت.. فهو أول من تسمى بهذا الاسم.

كان يحيى بن زكريا- عليهما السلام- نبيا حسن
 الوجه والصورة.. لين الجناح.. قليل الشعر.. قصير
 الأصابع.. طويل الأنف.. مقرون الحاجبين.. رقيق
 الصوت.. كثير العبارة قويا فى طاعة الله.. وقد ساد
 الناس فى العبادة والطاعة(١).

وصفه الله- سبحانه- بصفات فرائد.. لم ترد عن
 نبي قبله.. فقد أخبرنا فى سورة- آل عمران- بأنه ذرية
 طيبة.. وأنه مصدق بكلمة من الله.. وأنه سيد وحضور..
 ونبي من الصالحين(٢).

كما أخبرنا تعالى عنه فى سورة مريم بأنه رضى..
 وأنه أخذ الكتاب بقوة.. وآتاه الحكم صبيا.. ووصفه
 بالحنان.. والزكاة.. والتقوى.. وبر الوالدين.. وعدم
 التجبر والعصيان.. وسلم الله عليه يوم مولده.. ويوم
 موته.. ويوم يُبعثُ حيا(٣).

ولعله مما يلفت النظر أن تلك الأيام الثلاثة التى
 سلم الله فيها على يحيى وعلى عيسى أيضا عندما كان
 يبرىء أمه أمام قومها وهو طفل وليد عقب ولادته
 مباشرة.

لما قال لهم: (إنى عبد الله أتانى الكتاب وجعلنى
 نبيا) إلى أن قال لهم فى النهاية:
 (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم
 أبعث حيا) (٤).

أقول إن تلك الأيام الثلاثة هي أوحش الحالات التى
نحتاج فيها إلى السلام.. فهل هناك أوحش على الإنسان
من يوم الميلاد.. ويوم الموت.. ويوم البعث؟

ويهمنا قبل أن نستمرسل مع نبي الله يحيى عليه
 السلام- لشرافقه فى صحراء الأردن التى قضى حياته
 فيها: عابدا خاشعا متبتلا.. يعمد بنى إسرائيل من ماء
 الأردن أى يغسلهم بالماء.. وكان صوتا صارخا فى البرية
 كما وصف نفسه بذلك فى جميع الأناجيل.. حين
 أرسل إليه اليهود يسألونه: من أنت؟.. هل أنت المسيح؟
 قال: إنى لست أنا المسيح.. فسألوه إذا ماذا.. هل أنت
 إيلياء؟.. فقال لست أنا فسألوه: أنت النبی؟.. فأجاب:
 لا.. فقالوا له: من أنت لنعطى جوابا للذين أرسلونا..
 ماذا تقول عن نفسك؟ قال: أنا صوت صارخ فى
 البرية.. اجعلوا طريق الرب مستقيمة.. فسألوه وقالوا له:
 فما بالك نعمد إن كنت لست المسيح ولا إيلياء ولا
 النبی؟ أجابهم أنا أعمد بماء.. ولكن فى وسطكم قائم
 الذى لستم تعرفونه.. هو الذى يأتى بعدى.. والذى
 صار قدامى.. والذى لست بمستحق أن أحل سيور
 حذاؤه.. هذا كان فى بيت عبرة فى عبر الأردن حيث
 كان يوحنا يعمد(٥).

(٢) ٣٨-٣٩ / آل عمران

(٤) ٣٢-٣٣ / مريم.

(١) الثعلبي عن كعب الأحبار

(٣) ١٢-١٥ / مريم

(٥) إنجيل لوقا، إصحاح ١ رقم ١٩-٢٨.

أقول يهمنى قبل هذا الاسترسال أن نسترجع
سريعا بعض صفاته لوجود بعض اللبس في فهمها.

فهو مصدق بكلمة من الله.. وكلمة الله المقصود
بها عيسى - عليه السلام..

(إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها
إلى مريم وروح منه) (١).

ويحيى أول من آمن بعيسى.. وهو سيد.. والسيد
هو الذى يفوق قومه فى الشرف.. وكان يحيى - عليه
السلام - يفوق قومه لأنه لم يرتكب سيئة قط.. ولا هم
بها.. وبها من سيادة: وقال الزجاج السيد هو الذى
يفوق أقرانه فى كل شيء من الخير..

وبهذه المناسبة جاء فى البخارى ومسلم: أن
النبي - صلى الله عليه وسلم - قال فى الحسن:

«إن ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين
عظيمتين من المسلمين».

وكذلك كان.. فإنه لما قُتل أبوه على - رضى الله
عنه - بايعه أكثر من أربعين ألفا وكثير ممن تخلف عن
أبيه فى الجهاد.. ومن نكث بيعته.. فبقى سبعة أشهر
خليفة فى العراق وما وراءها من خراسان.. ثم سار إلى
معاوية فى أهل الحجاز والعراق.. وسار إليه معاوية فى
أهل الشام.. فلما تراءى الجمعان بموضع يقال له
مسكن - بفتح الميم وسكون السين - من أرض السواد
بناحية الأنبار.. كره الحسن - رضى الله عنه - القتال
لعلمه أن إحدى الطائفتين لا تغلب حتى تهلك أكثر
الأخرى فيهلك المسلمون.. فسلم الأمر إلى معاوية على
شروط شرطها عليه. فصديق قوله - صلى الله عليه
وسلم - «إن ابني هذا سيد».

فقد فاق قومه فى الشرف والتعقل.

وكان يحيى - عليه السلام - حصورا.. والحصير
هو الحبس.. وأحصرنى أى حبسني.. قال ابن ميادة:

وما حجر ليلى أن تكون تباعدت
عليك ولا أن أحصرتك شغول
وقال تعالى: (وجعلنا جهنم للكافرين
حصيرا) (٢) أى محبسا.

والحصور: الذى لا يأتى النساء.. كأنه يحبس
نفسه عنهن.. ورجل حصور: أى بخيل.. لحبس خيره
عن الناس.. وقال الأخطل:

وشسارب باسم بالكأس نادمنى
لا بالحصور ولا فيها بسوار
أى ليس بخيلا ولا تأخذه سورة الحمر.

ولقد وصف الله تعالى يحيى - عليه السلام -
بالحصير لأنه كان لا يأتى النساء.. ولا يدخل فى اللعب
واللهو.. وليغفر لى القارئ أننى أطلت عليه شيئا ما..
فى التعليق على تلك الصفة فى يحيى - عليه السلام -
وذلك لأن بعض العلماء فى أغلب كتب التفسير قرر أن
يحيى عليه السلام لم يكن له عضو إلا مثل هبة
الثوب.. أو كان كالقشة.. فيكون امتناعه عن النساء
لعيب فيه.. والعقل لا يرتاح إلى هذا المعنى.. ويؤيدنا
فى ذلك ابن مسعود وابن عباس وابن جبير وقتادة
وعطاء وابن زيد.. قالوا: الحصور يحيى.. كف نفسه
عن النساء مع القدرة (٣).

وهذا هو الأصح.. لأن فى هذا مدحا فيه وثناء
عليه.. وقد أورد الله - سبحانه - تلك الصفة لمدحه وليس
لبيان نقص فيه.. فهو يحصر نفسه عن الشهوات.. وهذا
كان شرعهم.. فأما شرعنا نحن المسلمين فالنكاح.

وقال القاضى عياض فى كتابه الشفاء:

اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى - عليه السلام - أنه
كان حصورا.. ليس كما قال بعضهم: إنه كان لا ذكر
له.. بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين.. ونقاد العلماء..
وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق بالأنبياء..
وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب.. أى لا يأتىها
كأنه حصر عنها.

□ □ □

٢] بلاء الأنبياء

ورد حول معنى قوله تعالى:

(وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) (١).

إن الله تعالى جمع كل أرواح بنى آدم.. وهم فى عالم الأمر قبل عالم الخلق.. جمعهم فى صعيد واحد وقال لهم (ألست بربكم)؟.. قالوا: بلى أنت ربنا لا يصرفنا عنك صارف.. ولا يمنعنا من طاعتك مانع.. فقال لهم: سأخلقكم.. وأجعل لكم أجساما.. لأبتلى مدى صدقكم فى هذا العهد.. قالوا جميعا: أنت ربنا لا يصرفنا عنك صارف.. ولا يمنعنا من طاعتك مانع.

فخلق الدنيا وعرضها عليهم.. فانقسموا إلى عشرة أقسام.. تسعة منها جرتهم الدنيا بزخارفها وغرتهم بما فيها من نساء وبنين وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة.. وخيل مسومة وأنعام وحرث.. فانصرفوا إليها.. ونسوا العهد.. وبقي العشر قائما لم ينصرف.. فقال لهم: خلقت لكم الدنيا فلم تنصرفوا إليها.. قالوا: أنت ربنا لا يصرفنا عنك صارف.. ولا يمنعنا من طاعتك مانع.

فخلق الجنة وعرضها عليهم.. فانقسم العشر إلى عشرة أقسام.. تسعة منها بهرتهم الجنة بما فيها من حور وقصور.. وفواكه وطيور.. وأنهار من لبن وخمر وعسل.. فانصرفوا إليها.. وبقي عشر العشر قائما بالعهد.. فقال لهم: خلقت لكم الدنيا فلم تنصرفوا إليها.. والجنة فلم تنصرفوا إليها.. فقالوا: أنت ربنا لا يصرفنا عنك صارف.. ولا يمنعنا من طاعتك مانع.

فخلق النار وعرضها عليهم.. فانقسموا إلى عشرة أقسام.. تسعة منها لم يتحملوا آلامها وزقومها ولهيها وزمهريرها ففروا منها.. وبقي عشر العشر قائما بالعهد.. فقال الله تعالى - لهم: خلقت لكم الدنيا فلم تنصرفوا إليها.. والجنة فلم تدخلوها.. والنار فلم تفروا منها.. قالوا:

أنت ربنا لا يصرفنا عنك صارف.. ولا يمنعنا من طاعتك مانع.

فصب عليهم البلاء صبا.. واستمر الانقسام حتى المرحلة السادسة.. من تنوع أنواع الابتلاء وقسوته.

فهؤلاء الذين ثبتوا على العهد بعد كل مراحل البلاء الست.. اتخذ الله تعالى منهم الأنبياء.

ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام:

«أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل».

ومن أجل هذا قسم بعضهم العبادة إلى ثلاث درجات:

النوع الأول: عبادة تجارية.. يعطى ليأخذ.. يعبدون الله ليدخلهم الجنة.. الجنة المقصودة بعبادتهم.. وهؤلاء الذين بهرتهم الجنة بما فيها يوم العهد.. فانصرفوا إليها.

والنوع الثاني: عبادة العبيد.. يعبدون الله خوفاً من عقابه.. واثقاء لغضبه.. الخوف من النار هو دافعهم إلى العبادة.. وهؤلاء هم الذين لم تبهرهم الجنة بنعيمها ولكنهم فروا يوم العهد من ألم النار وعذابها.. وهؤلاء أرقى درجة من النوع الأول.

أما النوع الثالث: فهي عبادة الأحرار.. لا طمعا في الجنة.. ولا خوفاً من النار.. وإنما يعبدون الله حبا لذاته فقط.. وهؤلاء هم الذين لم ينصرفوا عن الله عندما عرض عليهم الجنة.. ولم ينصرفوا عنه عندما عرض عليهم النار.. وثبتوا لم يصرفهم عنه صارف.

‘ ونحن نعيش الآن مع أسيرة كلها ممن ثبتوا على العهد وصمدوا أمام جميع البلايا والمحن والرزايا.. إنها بحق أسيرة الشهداء.

لم يكن زكريا- عليه السلام- يدري أن فرحه يحيى لن يطول.. فقد كتب الله- سبحانه- البلاء لمثل هؤلاء.

وذلك أن هيرودس- ملك اليهود في ذلك الحين- بلغه أن ثلاثة من المجوس قدموا من الشرق يرقبون نجما في السماء.. وهدهم سيرهم إلى أورشليم- العاصمة- وسألوا: أين ولد ملك اليهود؟ فاستدعاهم إليه وسألهم عما يبتغون.. فقالوا له: أيها الملك.. يوجد في كتبنا- كتب الصابئة- وهم عبدة الكواكب.. ما يدل على أن كوكبا يظهر في السماء.. يكون علامة على ميلاد طفل يكون له شأن كبير.. وقد بزغ هذا الكوكب وازداد تألقا في السماء.. فحشنا بهدايا من الذهب والمر واللبن.. واهتدينا بالنجم حتى وصلنا إلى هنا.. وهذا دليل على أنه في هذا الموقع من الأرض.. فقال لهم هيرودس الملك: ولم تلك الهدايا بالذات؟

قالوا: لأنها أمثاله.. فالذهب سيد المتاع كله.. وكذلك هذا الوليد سيد أهل زمانه. والمر يجبر الكسر ويرى الجرح.. وكذلك هذا الوليد يشفى كل سقيم ويرى كل مريض.. واللبن دخانه يدخل السماء ولا يدخلها دخان غيره.. وكذلك هذا الوليد يرفعه الله إلى السماء.

وطبعا كانوا يقصدون عيسى- عليه السلام- الذي ولد في نفس العام الذي ولد فيه يحيى- عليه السلام- وفي نفس البلاد- فلسطين- فكان هذا الأمر كافيا لأن يشير حفيفة الملك الطاغى على ذلك المولود الذي سيهدد ملكه.. وينازع ولده السيادة والشرف.. فطلب من المجوس الثلاثة أن يهتدوا إليه ويخبروه به ليكرمه.. ولكنهم بعد أن اهتدوا إلى عيسى في بيت لحم وسجدوا له وقدموا لأمه الهدايا سرا.. أحسوا أن هيرودس يريد الغدر به.. فعادوا إلى بلادهم ولم يرجعوا إلى الملك.. وأصدر هذا أمرا بقتل جميع الأطفال الذكور الذين ولدوا في السنتين الأخيرتين.. وخاصة أبناء الأنبياء ورجال الدين.. فهم الذين ينتظر أن يكون هذا الوليد من أصلابهم.

وغلب زكريا- عليه السلام- على أمره.. ماذا يفعل في ابنه الحبيب وقد قارب السنتين من عمره.. لا شك أن حبه له يفوق كل حب.. إنه ليس حب الوالد العادي لولده.. ولكنه حب من نوع أشد قوة وأعظم وجدانا.

لقد علم زكريا- عليه السلام- أن الله تعالى أوحى مناما إلى يوسف النجار ابن عم مريم- عليها السلام- لكي يذهب بها مع وليدها إلى مصر.. هربا من ذلك الملك الظالم الجبار.. وقد خرجوا فعلا في رحلتهم.. ونجا عيسى الوليد- عليه السلام- من يد هيرودس وزبائنه.. فماذا يصنع مع ابنه يحيى؟

طلب من زوجته اليصابات أن تحمل ابنها الذي رزقهما الله به بعد طول حرمان.. وكان لهما قرة عين في أيامهما الأخيرة من عمرها الطويل.. وفي قلبه أنات مكتومة.. وزفرات محبوسة.. حبسها وقار النبوة وثبات الإيمان.

خرج الشيخ حزين النفس.. كاسف البال.. يسير في ظلمة الليل يحمل في يده اليسرى بعض الطعام والماء.. وفي اليمنى عصا يتوكأ

عليها.. وهو يكاد يقتلع قدمه من الأرض اقتلاعاً في كل خطوة يخطوها.. تتبع خطاه الثقيلة زوجه الرءوم.. تحمل ولدتهما الحبيب.. فهو في طريقه بهما إلى الصحراء الواسعة.. والفيافي الشاسعة.. حتى إذا خرج هذا الركب الكريم من المدينة.. وبدت الصحراء مسترامية الأطراف.. بعيدة الأرجاء.. وقف الشيخ ونظر إلى زوجته وولده نظرة فيها كل شيء.. فيها الحب والشجن والحنان.. وفيها الشفقة ولوعة الوجدان.. نظرة لا يدري هل هي بمقلة العين أم بشغف الفؤاد.

زوجة وفيه عاشرته من شرخ الصبا وبواكير الشباب.. تحنو عليه كما يحنو صدر الأم الرءوم على وحيدها الرضيع.. تخفف عليه وحشة الزمن وآلام السنين.

وابن حبيب رزق به بعد فقد الأمل وانقضاء الأجل.

وقف يودعهما.. وهو يحس في قرارة نفسه أنه الوداع الأخير.. ويشعر في أعماق وجدانه أنه لا لقاء بعده إلا في جوار الله.

وطبيعياً لا مجال هنا لتبادل الألفاظ وتناول العبارات.. وكل ما استطاع الشيخ أن يفعله أن طبع قُبْلَةً طويلة حارة على جبين يحيى كادت من زفرائها أن تحرق وجهه البض الصغير.. ثم دعا لهما واستودعهما الله ليلقيا بنفسيهما في أحضان الفيافي والقفار.. بعد أن سلمها ما استطاع حملة من الغذاء والماء.. ثم عاد يجر رجليه جراً.. ليستأنف دعوته إلى الله.. التي خُلِقَ من أجلها.. وليعود إلى رسالته التي اصطفاه الله لها.. ولولا هذا للذهب مع زوجته وولده إلى حيث يشاء الله تعالى.

دخل زكريا المعبد.. وناجى ربه بما يعتمل بين جوانحه.. وما يختلج به وجدانه من الخوف على فلذة

كبد.. وشريكة عمره.. وفوجيء بالجند يقتحمون عليه الهيكل.. وليس في قلوبهم ذرة من خشية الله.. أو رهبة لجلال المعبد.. فسألوه: أين ولدك يحيى ليقتل تنفيذاً لأمر الملك؟ فقال لهم: لا أعلم له مكاناً.. وهو صادق في قوله لأنه لا يدري أين هو الآن.. ولكنهم وقد أشربت قلوبهم القسوة.. وطبعت أرواحهم على الغلظة.. قبضوا عليه في وحشية.. وضربوه وعذبوه ليعترف بمكان ابنه.. فكان رده أن لأدري أين هو الآن.. وأمر هيرودس - الملك - بقتله.. وقتلوه.. وحصلت المعجزة.. لقد اختفى جسد زكريا - عليه السلام - كيف اختفى؟ لا أحد يدري - ولا شك أن الملائكة قد حملته إلى حيث يريد الله.

وتحمد دم زكريا - عليه السلام - في الهيكل حتى صار قطعة حمراء من الحجر الصلب.

وفي الصباح سمعوا صوتاً صارخاً.. لا يدرون هل هو هابط من السماء أو منبعث من خلایا الأرض.. يقول:

قُتِلَ زكريا وسيصرخ دمه حتى يأتي المنتقم له.

وجاء في الإنجيل برنابا أن المسيح قال لليهود:

ستأتي عليكم دماء الأنبياء الذين قتلتموهم إلى دم زكريا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح..

ويوجد زكريا آخر.. له كتاب عند النصاري.. وهو «زكريا بن برخيا».

كان في زمن دارايوش - حاكم الفرس - أي قبل ميلاد المسيح - عليه السلام - بأكثر من ثلاثة قرون.. وهو الذي تكلم في كتابه في الفصل التاسع عن ولاية عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - وانتصاره على أورشليم.. ودخلوها منصوراً وأدها راكباً حماراً.. يؤولونه النصاري بأنه المسيح.

ولليهود مسيح منتظر.. هو الدجال (١).



٣ يحيى يأخذ الكتاب بقوة

سارت الیهابات ضاربة فی کبد الصحراء.. تحمل
ابنها يحيى تارة.. ونجمره فی يدها تارة أخرى.. تجلس
دقائق لتستريح وتتزود معه بالقليل من الطعام والماء
.. ثم تستأنف رحلتها الشاقة المضنية.. فإذا أدركها
الليل أوت إلى مكان تتوسم فيه بعض الأمن..
تحتضن طفلها وكأنها تريد أن تشق صدرها لتخفيه
بين أضلاعها.. حتى بلغا مأمنا.. عين الله تكلأهما..
وعناية ترعاهما..

ولكن أمر الله غالب فماتت الأم بعد أربع
سنوات.. وقد ناهز يحيى - عليه السلام - السادسة من
عمره.. ليشب على عين الله وحده.

وقرر رجال التفسير أن يحيى - عليه السلام -
شب في الصحراء.. يأكل من الجراد الذي تدفعه إليه
الرياح.. ويتفكه بأقراص العسل التي تخرج من جذوع
الشجر.. ويلبس من وبر الجمال.

وهكذا قالت جميع الأناجيل.. مثل ما جاء في
الإصحاح الثالث من الإنجيل متى.

«٤- ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل.. وعلى
حقوقه منطقة من جلد وكان طعامه جرادا وعسلا
بريا(١)».

تفرغ يحيى - عليه السلام - كلية لعبادة الله من
صباه:

(يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا)
١٢/ مريم.

والحكم هنا: بمعنى الحكمة.

وسميه أهل الكتاب في كتبهم «يوحنا المعمدان»
لأنه عمد جميع بني إسرائيل بالماء من نهر الأردن.. وقد
ذهب عيسى - عليه السلام - إلى يحيى في البرية..
ليعمده بالماء أيضا.

وما زال المسيحيون يعمدون أبناءهم أي
ينصرونهم - في سن معلومة.. وهنا يتلأأ حديث
رسولنا - صلى الله عليه وسلم -:

«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يمجسانه أو
يهودانه أو مجسانه» بمعنى أن المولود لو ترك على
طبيعته - لشب مسلما.. لأن الإسلام دين الفطرة التي
فطر الله الناس عليها.

فترى - يحيى عليه السلام- فى الإنجيل مرقس:

٤- صوتا صارخا فى البرية يقول: أعدوا طريق الرب.. اصنعوا سبله مستقيمة... ٧- وكان يكرر قائلا: يأتى بعدى من هو أقوى منى الذى لست أهلا أن أنحنى وأحل سيور حذائه- ٨- أنا عمدتكم بالماء وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس.. ٩- وفى تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل.. واعتمد من يوحنا فى الأردن(١).

وهل روح القدس غير القرآن الكريم؟.. يقول تعالى:

(وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) (٢).

وإذا أردنا تتبع خطوات يحيى- عليه السلام- فى الإنجيل يوحنا الإنجيلي.. نجد فى الإصحاح الأول يقول: ١٩- وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه: من أنت؟- ٢٠- فاعترف ولم ينكر قال إنى لست أنا المسيح- ٢١- فسألوه: إذا ماذا؟ إيلياء أنت؟ فقال: لست أنا.. قالوا: النبی أنت لتعطى جوابا للذين أرسلونا.. قال: أنا صوت صارخ فى البرية..

وكرر يوحنا الإنجيلي هنا العبارة التى ذكرها مرقس فى الإنجيله.

أخبر- يحيى عليه السلام- بنى إسرائيل أنه ليس المسيح.. وليس إيلياء.. وإنما هو صوت صارخ فى البرية.. يمهّد لمن يأتى بعده.. ويقول عنه:

إنه ليس أهلا لأن يحل سيور حذائه.. فمن المقصود هنا؟.. هل يصح أن يكون هو عيسى- عليه السلام- مع أن عيسى عمده يحيى؟.. أعتقد أن هذا غير معقول.. وخاصة إذا دققنا النظر فى مناقشة الكهنة ليحيى.. يسألونه: هل أنت المسيح؟ فيقول: لا.. هل أنت إيلياء؟ فيقول: لا.. ومعنى هذا أن هناك من اسمه إيلياء غير يحيى وغير المسيح.. فمن هو إيلياء هذا؟.. لا شك أنه أحمد- عليه الصلاة والسلام.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا رسالة يحيى إلى عيسى- عليهما السلام- التى أوردها لوقا فى الإنجيله.. فى الإصحاح السابع.. يقول:

١٩- فدعا يوحنا- يحيى- اثنين من تلاميذه وأرسل إلى يسوع- المسيح- قائلا: أنت هو الآتى.. أم ننتظر آخر؟ ٢٠- فلما جاء الرجلان إليه قال لهما: يوحنا المعمدان قد أرسلنا إليك قائلا: أنت هو الآتى أم ننتظر آخر؟ (٣).

ولم يذكر لنا لوقا رد عيسى عليه.. وإنما قال: إنه فى تلك الساعة شفى كثيرا من المرضى.. وإن عيسى قال للرسولين: أخبرا يوحنا بما رأيتما.

وهذا رد غير صريح.. والنقص ظاهر فى تلك الرواية.. مما يدل على وجود محذوف.. وسنعود إلى هذا الموضوع بالتوضيح إن شاء الله فى- نبأ عيسى- عليه السلام- فى فصل «معجزات المسيح».

ومات هيرودس.. وكانت الشام تابعة لقيصر الروم.. فعين مكانه ولديه: هيرودس الأصغر على نصف المملكة.. وفيليبس على النصف الثانى.. بينما اشتهر أمر يحيى- عليه السلام- وصلاحه وتقواه.. فقصده بنو إسرائيل يعظمهم ويرشداهم إلى طريق الحق.. ويعلمهم ما يسعدهم فى دنياهم وأخراهم.. ذهبوا إليه زرافات ووحدانا.. يعلنون التوبة إلى الله.. ويدون الندم على ما فرط منهم من الذنوب والآثام.. فكان يحيى- عليه السلام- يباركهم ويذكهم ويعمدهم من ماء نهر الأردن.. أى يغسلهم بمائه ليظهرهم من ذنوبهم.

ويقول الإنجيل متى:

«وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهود.. قائلا: توبوا.. لأنه قد اقترب ملكوت السماوات» (٤).

دعاهم إلى الحب والبر بالفقراء والعطف عليهم ومساعدة المحتاجين.. ومد يد العون إلى المساكين.. فمثلا جاء فى الإنجيل لوقا:

«وسأله الجموع قائلا: فماذا نفعل؟ فأجاب وقال لهم: من له ثوبان فليعط من ليس له.. ومن له طعام فليفعل هكذا» (٥).

(٢) ٥٢/ الشورى.

(٤) الإصحاح الثالث- متى.

(١) الإصحاح الأول- مرقس.

(٣) الإصحاح السابع- لوقا.

(٥) الإصحاح الثالث- لوقا.

وكان يحيى - عليه السلام - قويا فى ضرب الأمثال..
لوصول عظامه إلى القلوب وضرب المثل هو أقوى
الدعائم التي يركز عليها الداعية إلى الله.

فضرب المثل فى الشرك: برجل اشترى عبدا من
خالص ماله.. ثم أسكنهم دارا له.. ودفع لهم مالا
يتجرون فيه.. ويأكل كل واحد منهم ما يكفيه.. ثم
يؤدون إليه فضل الربح. فدفع العبيد فضل الربح إلى
عدو سيدهم.

وضرب مثل الصلاة: برجل استأذن على ملك..
فأذن له.. ودخل عليه.. فأقبل الملك عليه بوجهه لسمع
مقالته ويقضى حاجته.. فصار الرجل يلتفت يمينا
وشمالا ولم يهتم بحاجته.. فأعرض عنه الملك ولم
يقض حاجته.

وضرب مثل الزكاة: بأسير اشترى نفسه بثمن
معلوم.. فجعل يعمل ويؤدى من كسبه القليل والكثير
حتى أوفى ثمنه فأعتق.

وضرب المثل فى ذكر الله: بقوم لهم حصن ولهم
عدو.. فإذا أقبل العدو دخلوا حصنهم فلم يقدر عليهم..
وكذلك ذكر الله لا يقدر عليه الشيطان.

وضرب مثل الصيام: كمثل جنة تستر من فيها عن
عدوه.

أرأيت أبلغ وأوقع وأعمق من تلك الأمثلة الحية
الناضجة التي تنساب إلى القلوب فى يسر وسهولة كما
ينساب السهم فى إصابة الهدف؟

أرأيت عن الشرك أن سيدك كفل أمرك كله.. فلا
يجوز أن تعطى فضل ما معك لسواه؟

وهل رأيت أنك فى صلاتك قائم بين يدي
الملك.. الذى اتجه إليك وفتح لك أبواب الرحمة.. يريد
أن يحقق أملاكك.. ويجيب رجاءك.. فلا تعرض عنه
فيرض عنك؟

وهل رأيت فى الزكاة والصدقة.. أنك تدفع قسطا
من ثمنك لتعتق من النار؟

وهل رأيت فى ذكر الله إنه حصن حصين..
وركن أمين.. تلجأ إليه كلما حاصرتك الهموم..
وأحاطت بك الخطوب والأنواء؟

وهل رأيت فى الصوم.. تلك الحديقة الملتفة
الأشجار التي تسترك.. فلا تصل إليك أنظار الأعداء؟

وهكذا صار يحيى - عليه السلام - صوتا صارخا
فى البرية.. قويا فى عظامه.. حكيما فى أمثاله.

وما أجمل تعبير القرآن الكريم عنه:

«يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا» (١)

كان يحيى - عليه السلام - كثير البكاء.. طويل
الدعاء.. حتى نحل جسمه.. وضمير عوده.. وصار
أقرب إلى الملاك منه إلى جسم الإنسان.

أذكر أننى قرأت عن يحيى أنه قال: اللهم
اعصمنى من السنة الناس.

فقال له: يا يحيى لن أختصك بشيء لم أختص
به نفسى.

قالت اليهود: عزيز بن الله.. وقالت النصارى: المسيح
ابن الله.

وقالت اليهود: يد الله مغلولة وغلت أيديهم.

وقالت اليهود: إن الله فقير ونحن أغنياء.

فكيف أختصك بشيء لم أختص به نفسى؟

قضى حياته فى البرية.. ثم أتى بيت المقدس..

فجعل يعبد الله فيه مع الأحبار والرهبان.. ويأتيه اليهود
من كل فج يعظهم ويهديهم سواء السبيل.



٤ صراع الشياطين

كان هيرودس الأصغر ملكا ظالما.. فاجرا مستهترا..
أحب زوجة أخيه فيليبس الذى يشاطره ملك الديار..
وكانت امرأة لعوبا من النوع الذى يسمونه الآن-
بملكات الإغراء- واسمها- هيروديتا- بادلته حبا
بحب.. وراشقته غراما بغرام.. حتى صار هذا الأمر
حديث الغادي والرائع.. والقاعد والسائح.. وكانت
نتيجته إشعال الحرب الضروس بين الأخوين.. ولكن
فيليبس كان ضعيفا.. فهزمه هيرودس.. واستولى على
ملكه وزج به بين جدران السجن.

والسنة الناس لا ترحم.. فأراد هيرودس أن
يسكت الألسنة ويخرس النقاد.. وخيل له شيطانه أنه من
الممكن أن يتزوج هيروديتا زوجة أخيه.. مع أنه هو
متزوج.. وهي مازالت زوجة لأخيه السجين.

ولكن كيف يتم هذا.. وهو أمر ديني.. لابد أن
يكون بفتوى شرعية يجيزها رجال الدين من الأحبار
والرهبان.

وبلغ سمع هيرودس أمر نبي الله يحيى.. وحب
الناس إياه.. والتفاف الجماهير حوله..

وخضوع القلوب له حبا وسمعا وطاعة.. فأرسل
إليه العديد من الرسل ليحصل منه على تلك الفتوى
الملعونة.. فلم تفلح رسله.. برغم الوعيد والتهديد.

فاستدعاه مرارا إلى قصره.. ليظهر للناس أن
علاقته به لا يشوبها شئ.. ولكن يحيى في كل مرة كان
يخطب في الناس يعظهم ويرشدهم.. وربما كان يلمح
في بعض كلماته بما يريد به أن يصل إلى هذا القلب
الفساق الفاجر.. عله يرجع عن غيه.. ويؤوب إلى
رشده.. ويحفظ للأخوة حقها.. وللدين حرمة.. ولكن
أنى لمصباح هذا القلب المظلم أن يكون له نور.. وقد
تكتلت على زجاجته أكداس الأقدار والأغبار.. فلا ينفذ
منه خيط من نور.. ولا يتسلل إليه بصيص من شعاع.

وقد صدق إمامنا الشافعى حين قال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي

فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور

ونور الله لا يهدى لعاصي.

ونور الله فى جميع القلوب واحد.. حتى قلوب الكفرة والفسقة والعصاة.. ونضرب المثل لذلك بمصاييح الكيروسين.. كل مشتملاتها واحدة:

الإناء.. والكيروسين.. والفتيل المشتعل.. وجهاز الرفع والخفض.. فلماذا يكون هذا المصباح منيرا وذاك مظلمًا؟

الفرق فى الزجاج.. هذا زجاجته صافية نظيفة.. فانثى منها النور ساطعا قويا.. وذاك زجاجته تراكت عليها الأوساخ والأدخنة فليس فيه خيط من نور.. أو بصيص من شعاع.

ولهذا يقول- عليه الصلاة والسلام:

«إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وجلأؤها الاستغفار» أو قال: «ذكر الله».

وأنى لقلب مثل قلب هيرودس أن يرى ما هو فيه من فسق وفجور.. وعتو وكفر.. وكيف تصل إليه عظة.. أو تمسه ذكرى.. وقد طمس الشيطان على هذا القلب.. فصار فى غلاف سميك من الخطايا والآثام وذلك مثل قولهم:

«وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب» (١).

ويتس هيرودس من الحصول على ما يستغيه من يحيى- عليه السلام- فأمر بإيداعه السجن.. بحجة الخشية منه على سلامة المملكة.. وتلك دائمة حجة الحاكم الظالم إذا أعجزته الحيلة.. وأعيتته الحجة.. ولبت يحيى فى السجن عشرة أشهر.. بذل فيها الملك معه كل الوسائل والحيل ليثنيه عن رأيه.. أو يستميله إليه.. ولكن من غير جدوى.. فلم يجد بدا من قتل أخيه فيليبس بإيعاز من عشيقته هيروديتا.. والنساء حبايل الشيطان..

فقتله ليخلو لهما الجو ويتزوجا.. قطعاً لدابر الأحاديث المترددة بين الشعب.. وقضاء على النقد المتأجج لدى الجماهير.

ودعا يحيى إليه ليبلغه زوال العقبة التى كانت بينه وبين هيروديتا بموت زوجها فيليبس.. وعدم وجود حائل يحول بينه وبين الزواج منها.. ولكن يحيى- عليه السلام- أصر على إنكار هذا الزواج.. وعدم الموافقة عليه.. وصمم على رأيه هذا فى قوة وحزم.. وثبات وعزم.. كم وعده هيرودس ورجاه.. وكم ساومته هيروديتا وتوسلت إليه ليوافق على هذا الزواج.. استجابة لنداء قلبيهما وقد سكنهما الشيطان ليحرك فيهما نبضات الحب الآثم.. ويثير كوامن العشق المأفون.

ولكن يحيى كان كالصخرة العاتية والجبل الآثم.. فلم يزد إلا إصرارا على الحق وثباتا على الرفض.. قاتلا للملك: لا تكون لك هيروديتا أبدا.. ليس بالشر يعالج الشر.. وليس بالذنب يحى الذنب.. فأمر بإعادته إلى السجن.

وآه من قلب المرأة.. إذا أحبت حطمت الحواجز ودكت السدود فى سبيل حبيبها.. وإذا بغضت كان حقدتها إعصارا يفتت الجبال التى تعترضها.

وقد قال بعض العلماء: إننى أخشى النساء أكثر من خشيتى للشيطان فقد قال الله تعالى عن الشيطان: (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) (٢).

ولكنه قال عن النساء: (إن كيدكن عظيم) (٣). وهذه هيروديتا أحبت الملك هيرودس.. وعملت على التخلص من زوجها.. حتى لا يحول بينها وبين حبيبها.

وبغضت يحيى لأنه لم يوافق على إتمام هذا الزواج.. فكان لزاما عليها أن تدبر أمرها.. وتعمل حيلتها.. وتنفذ انتقامها منه.



٥ الحب القاتل

الصورة.. تام التقاطيع.. فى رشاقة تجعله كطائر يطير
فى الهواء.. لا كبشر يدب فوق البطحاء.. جذبها نور
وجهه الصبوح.. وفتنتها رشاقته مع جلال الروح.
وكم حاولت معه سالومى بكل وسائل الإغراء
المزدوج.. إغراء الطبيعة الذى قام فى كل خلجة من
خلجات جسمها.. وإغراء الشيطان الذى تجسد فى هذا
التمثال ليكون سلاحا مدمرا من أسلحته الفتاكة.

زارته مرارا فى سجنه فى هجعة الليل وسكون
الكرى.. حيث يفتح لها السجن باب سجن يحيى -
عليه السلام- بعد أن تغدق عليه من المال والعطايا..
استنفدت مع يحيى كل الوسائل والحيل.. عله يستجيب
لدعائها المجنون.. ويلبى نداء قلبها المفتون.. ولكن أنى
للشيطان مهما أوتى من أسلحة الهلاك ومعاول الدمار..
أن يقتلع ذرة من هذا الجبل الأشم!!

فكان يحيى يسم فى بسمه عريضة.. وهو يجيبها
فى كل مرة بما يحاول به أن يهديها إلى سواء السبيل..
ويرشدها إلى طريق الله المستقيم.. فكان هذا منه بالنسبة
إليها.. كالبتروى تصبه على النار فيزيدها اشتعالا..
ويؤججها وجيئا.. وبدأ حبها له ينقلب إلى حقد عليه.

تذكرت هيروديتا ابتتها سالومى.. فتاة فى شرخ
الصبا وعمر الزهور.. ذات قد مياس.. وعود أمشق..
شعر أسود كالليل.. يتهادى على كتفين مرمرين.. تكاد
الفتنة تتفجر من جوانبهما.. يضمها صدر بارز نابض
بالحياة وكأنه بندقية الصياد الماهر صوبت إلى قلب طائر
وادمع آمن.

خسر نجيل يحمله ردفان عريضان.. يوحيان
بالفتنة.. ويصرخان بالإغراء.. فإذا عدت ببصرك إلى
وجهها.. رأيت وجهها جعله الله آية فى الجمال.. ورمزا
للإبداع.. عيانا حالماتان ساحرتان.. نامت أهدابهما فى
استرخاء فائن فوق خدين أثيلين مستهما ريشة القدرة
مسا رفيقا رفيقا فكانتا زهرتين ناضرتين.. ألهبهما الشوق
والحنين إلى قطرات الندى فى صبح يوم صائف.

كانت سالومى بنت العاشقة الفاسجة هيروديتا..
نموذجا حيا للإغراء والفتنة.. سمعت عن يحيى.. هذا
الشاب التقى الورع ابن الصحراء.. الذى أحبته
الجماهير.. وعشقته الأسماع.. وسارت بذكره الركبان..
فزارته فى السجن.. من باب حب الاستطلاع..
ولكنها كانت زيارة لا تدرى أبعادها.. ولا تسبر
أغوارها.. فقد رأت شابا جميلا

تذكرت هيروديتا ابتها سالومي.. وهي تعلم بما
أوتيت من خبرات العشق وتجارب الهيام.. أن ابتها
مفتونة بهذا الإنسان الذي تكرهه بكل نبضة في قلبها..
وتحقد عليه بجميع خلجات صدرها.. فوجدت فيها
السلاح الذي تبتغيه.. سلاح الانتقام من يحيى.. ودبرت
في نفسها أمرا.

جاء عيد ميلاد الملك هيرودس.. وبدأت
الاستعدادات الضخمة في قصر الملك.. كما بدأت
الاستعدادات الضخمة أيضا في قلب هيروديتا.. فلابد
أن تنفذ مؤامرتها في تلك الليلة.. ليلة عيد ميلاد عشيقها
الفاجر.

ألحمت الزينات.. وأعدت الموائد بما لذ وطاب
من أوفر الأطعمة وأجودها.. وأعلى الخمور وأعتقها..
وأكبر الراقصات والمغنيات وأشهرها.

وبدا الحفل صاخبا.. ضاحكا.. نائرا كلما أسرف
المدعوون في الأكل والشرب والمجون.

ولعبت الخمر برأس الملك.. وأخذته نشوة جعلته
لا يدري هل هو حي أم ميت.. في الحقيقة أم في
الخيال.. في الأرض أم فوق السحاب.

وألقت هيروديتا قبيلتها.. فقدمت إلى الحفل
بنتها سالومي بعد أن ألبستها ما خف وشف من الثياب..
وكستها حلة من الزينة لم تبديها فتاة من قبل.. وبعد أن
اتفقت معها على أمر.

وتقدمت سالومي إلى الملك.. تتهدى بجسمها
البض كما يتهدى غصن الورد أمام نسيمات الأصيل..
وتلقاها هيرودس وهو لا يصدق أنه يرى فتاة من بنات
حواء.. واحتواها بين ذراعيه طالبا منها أن تشاركه رقصة
على نغمات الموسيقى الحاملة التي تملأ المكان سحرا
وفتنة.. ورقصت معه سالومي بكل أحاسيسها ووجدانها
وخلجاتها وكأنها رقصة المذبوح.. فهي قادمة على أمر
خطير.. وصارت تغريه بين الحين والحين بالشراب..
حتى بلغت النشوة منتهاها.. وصعد السكر في رأسه إلى
قمته.

والتقت كل هوامل الشر ضد يحيى - عليه السلام -
الحب.. والحقد.. والفسق.. والمرأة.. والشيطان..
والظلم المتمثل في هذا الملك الفاجر الطاغى الثمل.

ومنعت سالومي في دلال ورشاقة.. زادت
قلبه اشتعالا.. وهيامه اضطراما.. فأصر على
ذلك في وحشية جامحة.. وبهيمية مارقة.. ونزوة
خارقة.. فلم يتمالك نفسه أن دعاها إلى

مخدعه غافلا أو متغافلا وجود أمها في الحفل.

وحانت اللحظة الحاسمة.. فقالت سالومي: حتى
تقدم مهري يا مولاي.. فقال لها: اطلبي ما شئت.. ولو
كان في أعماق الثرى.. أو على متن الشريا.. لقدمته
لك.. قالت: أريد رأس يحيى.

ولكنني أرى يحيى - عليه السلام - ساجدا في
غرفته بالسجن.. وقد انطلقت روحه من الظلمات
الثلاث: ظلمة السجن.. وظلمة الليل.. وظلمة النفس..
والمقربون يفرحون بالخلوة.. ويستلذون بالظلمة..
لينطلقوا بأرواحهم.. يخترقون الحجب.. ويسبحون في
النور.. وما هو يحيى يناجي ربه مناجاة خفية ويدعوه
دعاء صامتا.. بعد أن سجد بين يدي الله.. وبعد أن
وصل السالب بالموجب.. وسرى التيار الذي يعلو به من
ظلمات الخلق إلى نور الأمر «ألا له الخلق والأمر».. وإن
كان جسمه مقيدا بالسلاسل والأغلال.

وفتح باب السجن ليدخل السيف وقد شهر
سيفه في يده لينفذ الأمر العاجل الصادر من الملك..
وبضربة واحدة خاطفة.. انفصل رأس يحيى عن
جسده.. وحمل الرأس في طبق من النحاس.. ليمثل
أمام الملك الفاسق وعشيقتة الحاقدة الفاجرة.. بعد أن
أحكمت حيلتها.. ونفذت خطتها.

وكان حضور رأس يحيى لم يطفئ نار حقددها..
فأحضرت إبرة.. وأرادت أن ترشقها في هذا اللسان
الذي استعصى عليها.. ولم تقدر على استنطاقه موافقة
على زواجها الغادر الأثيم.

وقيل في بعض الروايات: إن الرأس أدخل على
الملك ولسانه يقول: لا تحمل لك.. لا تحمل لك.. ولعل
هذا هو السبب الذي جعلها تحضر إبرة وأرادت رشقها
فيه.. ولكن الإبرة استعصت على السير في عضلة
اللسان.. وكأنها من الصلب قدت.. فكسرت الإبرة في
يدها.. ولم تتمالك سالومي أن تنحنى على شفتيه
الجامدين لتقبلهما.. فقد امتنعتا عليها في حياته.. فلا
أقل من الحصول على أملها بعد مماته.

وكانت مفاجأة.. فقد طار الرأس من الطبق إلى
حيث يشاء الله.

وصعدت روح يحيى إلى مستودعها في برزخ
السما الثانية وهذا ماورد في حديث الإسراء والمعراج..
حيث يقول عليه الصلاة والسلام: إنه لقى في السماء
الثانية يحيى وعيسى - عليهما السلام.

«إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلاً
وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى
وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جتتهم بالبينات فقال الذين كفروا
منهم إن هذا إلا سحر مبين».

[١١٠ - المائة]

○ من نبأ
عيسى بن مريم عليه السلام

١ الرزق الحسن

جاء فى جميع كتب التفسير تقريبا حول تفسير قوله تعالى:

(إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)(١).

«أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقام أياما لم يطعم طعاما.. حتى شق ذلك عليه.. فطاف بمنازل أزواجه.. فلم يصب فى بيت أحد منهن شيئا.. فأتى فاطمة - رضى الله عنها - فقال: يا بنية.. هل عندك شئ آكله فأنى جائع؟.. فقالت: لا والله بأبى أنت وأمى.. فلما خرج من عندها.. بعثت إليها جارة لها برغيفين وبضعة لحم.. فأخذته منها.. ووضعته فى جفنة وغطت عليه.. وقالت: لأوثرن بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على نفسى وعلى من عندى.. وكانوا جميعا محتاجين إلى شبة من طعام.. فبعثت حسنا وحسينا إلى جدهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرجع إليها.. فقالت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله.. قد آتانا الله بشئ فخبأته لك.. قال: فهل من به.. فأتته به.. فكشف عن الجفنة..

فإذا هى مملوءة خبزا ولحما.. فلما نظرت إليه بهتت.. وعرفت أنها بركة من الله.. فحمدت الله تعالى.. فقال - صلى الله عليه وسلم -: من أين لك هذا يا بنية؟.. قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.. فقال: الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل.. فإنها كانت إذا رزقها الله رزقا حسنا فستلت عنه قالت:- هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

فبعث - صلى الله عليه وسلم - إلى على.. فأتى به.. فأكل رسول الله وعلى وفاطمة والحسن والحسين وجميع أزواج النبى حتى شبعوا وبقي فى الجفنة. قالت فاطمة - رضى الله عنها -: وأوسعت منه على جميع جيرانى.. وجعل فيها بركة وخيرا كثيرا.. وكان أصل الجفنة رغيفين وبضعة لحم.. والباقي بركة من الله تعالى.

وكان - عليه الصلاة والسلام - بقوله لفاطمة:

«الحمد لله الذى جعلك شبيهة بسيدة نساء بنى إسرائيل» يقصد مريم بنت عمران -

عليها السلام - التي انقطعت في محرابها عابدة قانتة متبتلة. وقد كفلها زكريا - عليه السلام - بتوجيه من الله تعالى.. لما أصابته قرعة الأقلام.. التي أقامها الأحبار والرهبان.. ليعلموا أيهم يكفل مريم.

(وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون)(١).

ويخبرنا الله سبحانه - عن نتيجة تلك القرعة في قوله تعالى عن مريم:

«فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا»(٢).

وقد وضع جدا في قوله تعالى (وأنبتها نباتا حسنا) وأن الرزق الذي كانت تأكله ليكون وسيلة النماء والإنبات في جسمها.. كان رزقا حسنا ليصير نباته نباتاً حسناً.. وخاصة إذا استعرضنا تكملة الآية التي نحن بصدد استعراضها الآن (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب). فلفظ (كلما) يفيد الاستمرار والدوام.. ومعنى هذا أن تلك الظاهرة.. ظاهرة الرزق الحسن.. كانت ملازمة لها من يوم أن دخلت المحراب.. الذي بناه لها زكريا عليه السلام - داخل المسجد لتقطع فيه عابدة متبتلة - أى منقطعة لعبادة الله تعالى.

فما نوع هذا الرزق الحسن؟ «ومن أين يأتى؟.. ولماذا؟

من حق العقل أن يفكر دون شطط وواجب الفكر أن يتدبر الآيات دون ملل.. لقوله تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) (٣) وهل التدبر إلا إعمال العقل وإشغال الفكر؟

قالوا: كان زكريا - عليه السلام - يجد عندها فاكهة الشتاء صيفا.. وفاكهة الصيف شتاء.. فما الحكمة في هذا التأويل الذى لا يقبله العقل ولا يرضاه المنطق.. لأن الله حكيم فى كل أمر يدبره.. بديع فى كل قدر يقدره؟.. إن الله - سبحانه - قد خلق لكل فصل من فصول

السنة فاكهة تسلام مع جوه.. فالفاكهة المدفئة للشتاء.. والمرطبة للصيف.. فهل يستساغ البطيخ والشمام مثلا فى فصل الشتاء؟.

وبقى السؤال قائما.. ما نوع هذا الرزق الحسن إذا؟.

وللإجابة على هذا السؤال.. علينا أن نتأمل قليلا.. لنرى أن هذا الرزق نزل من السماء فى حياة مريم وابنها - عليهما السلام - على ثلاث دفعات.

الدفعة الأولى: على مريم مدة من الزمن قبل حملها بعيسى.. وقد تكون تلك المدة طويلة أو قصيرة - الله أعلم بها - ولكننا نكتشف أنها مدة من الزمن.. لقوله تعالى: «كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا».

وكلما تفيد الاستمرار - كلما قلنا - مما يدل على استغراق زمن ما.

والدفعة الثانية: لحظة ميلاد عيسى - عليه السلام - عندما اشتد بها الطلق.. وجلست متأللة إلى جذع يابس من جذوع النخل.. ليس به سعف ولا كرايف (٤) ولا عروق فى موضع يقال له - بيت لحم - بفلسطين.. كما لا يوجد به ماء.

وضغطت على الجذع بكلى يديها.. صارخة من شدة الألم وهى تقول:

«يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا» (٥).

فإذا بها تجد الحياة تدب فى هذا الجذع اليابس.. وتتدلى فوقه أسلاك البلح رطبا جنيا.. وفى نفس الوقت تنشق الأرض تحتها عن جدول رقرق بالماء العذب.. البارد عند شربه والدافئ عند استعماله.. ثم يناديها وليدها الذى لاح وجهه المشرق على الوجود فى تلك اللحظة.

«فناداها من تحتها أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا. وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا. فكلى وأشربى وقرى عينا» (٦).

وقد سئل - عليه الصلاة والسلام - عن السرى.. فقال: هو جدول الماء (٧) فنزل عليها هذا الرزق فى تلك المرة بلحا وماء.

(٢) ٣٧ / آل عمران.

(٤) الكرنافة: أصل السعفة.. يسميها العوام - القحف..

(٦) ٢٤ - ٢٦ / مريم.

(١) ٤٤ / آل عمران.

(٣) ٢٩ / ص.

(٥) ٢٣ / مريم.

(٧) تفسير الكشاف وغيره - مريم -

وأما في المرة الثالثة: فبعد أن كبر عيسى - عليه السلام - وهو في قمة صراعه مع بنى إسرائيل.. لما قال له الحواريون:

«هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا». فيما تقوله لنا من أن أمك كان ينزل عليها مائدة من السماء.. «ونكون عليها من الشاهدين».. وطلب عيسى من الله تعالى أن ينزل عليهم المائدة: قال: «اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين».. واستجاب الله تعالى لرسوله: «قال الله إنى منزلها عليكم» (١).

ونزلت المائدة من السماء.. سفرة حمراء بين غمامتين.. وهم ينظرون إليها.. فإذا بها سمكة مشوية بلا

فلوس (٢) ولا شوك.. وخمسة أرغفة فأكلوا منها جميعاً.. وأكل منها أيضاً عيسى وأمه عليهما السلام (٣).

ونحن نرى هنا أن الرزق في الحالة الأولى - قبل الحمل - مجهول بالنسبة لنا.. وفي الحالة الثانية كان رطباً وماء.. وفي الحالة الثالثة كان سمكة وخبزاً. ونفهم أيضاً أنها كانت من مصدر واحد.. ومن عناصر واحدة.. لجهل كنهها.. ولا نعرف نوعها.. وإن اختلفت أشكالها ومسمياتها.

فأين هذا المصدر؟ ولماذا كان؟

ولابد أن تكون هناك علاقة بين هذا الرزق وبين عيسى - عليه السلام - حيث كان تنزله: قبل الحمل به.. وفي لحظة مولده.. وقبل رفعه بزمان قصير فما هي تلك العلاقة؟.. وما هي الرابطة التي تربط بين جسم عيسى وهذا المصدر الذي ينزل منه هذا الرزق الحسن؟



٢ عناصر غريبة

لعل الطريقة العجيبة في حمل مريم بعيسى من غير أب.. قد دفعت أقواما إلى الظن بأنه ابن الله تارة- كما قال النسطوريون- أو هو الله تارة أخرى- كما قال اليعقوبيون- أو هو ثالث ثلاثة- كما قال الملكيون- كل هذا لأنه ولد من غير أب.

وتصورى لهذا الأمر ببساطة المنطق.. أن الله- سبحانه- أراد أن يبرز قدرته من جميع زوايا الإمكان.. فقد خلق إنسانا من غير أب ولا أم.. وهو آدم.. ومن الزاوية المقابلة لتلك الزاوية خلق إنسانا من أم وأب.. مثلى ومثلك ومثل جميع المخلوقات.. ومن زاوية أخرى خلق إنسانا له أب وليس له أم.. وهو حواء.. خلقها من ضلع من أضلاع آدم- عليه السلام.. ولهذا يقول- صلى الله عليه وسلم:-

«خُلِقَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ ضِلْعِ أَدَمَ.. إِنْ عَدَلْتَهُ كَسَرْتَهُ.. وَإِنْ تَرَكْتَهُ اسْتَمْتَعْتَ بِهِ عَلَى عَوْجِهِ».. فلها أب وليس لها أم.. فلزم أن يخلق إنسانا له أم وليس له أب.. فكان هذا الإنسان هو عيسى بن مريم- والله يقول عنه (ولنجعله آية للناس) (١).

وقد جعل الله لكل شئ سببا.. وأتبع سببا.. وهو- سبحانه- خالق السبب بقوته.. ومسببه بقدرته وحكمته.. فالسمكة مثلا إذا خرجت من الماء ماتت.. والدجاجة إذا غاصت فيه هلكت.. لأن الله قد هيا لكل جسم ما يلائمه في البيئة التي يحيا فيها.

ويعلم الله- تعالى- أن مريم ستكون وعاء لإبراز الآية التي يريد أن يبرزها إنسانا له أم وليس له أب.. ويعلم أن هذا الإنسان سيرفع من كوكب الطين- الأرض- إلى كوكب آخر.. لا ندرى عنه شيئا.. ولا نعرف له كنها.. لقوله تعالى عن عيسى:

﴿بَلِّغْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٢)

ويعلم- سبحانه- أن هذا الإنسان سيبقى في كوكبه الآخر الجديد حينما من الدهر.. ثم يعود إلى كوكب الطين- الأرض- مرة أخرى في آخر الدهر.. كما ثبت هذا بعشرات الأحاديث الصحيحة.. والتي سنوردها في مكانها- إن شاء الله- من هذا الكتاب.. وكما ثبت ذلك أيضا من نص القرآن الكريم.. في قوله تعالى له: (تكلم الناس في المهد وكهلا) (٣)..

(٢) ١٥٨ / النساء..

(١) ٢١ / مريم..

(٣) ١١٠ / المائدة..

وقد كلم الناس فى المهد.. ولكنه لم يكلمهم وهو كهل.. حيث رفع وهو فى شرح الشباب قبل سن الكهولة.. فكان لزاما أن ينزل إلى الأرض.. ويكلم الناس وهو كهل.. وهذا هو ظاهر النص.. وقوله أيضا:

(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) (١).

والضمير هنا يعود إلى عيسى.. أى أن جميع أهل الكتاب سيؤمنون بعيسى قبل أن يموت.. وذلك بعد عودته إلى الأرض فى آخر الزمان.. وهذا ظاهر النص أيضا.

كما جاء فى سورة الزخرف:

﴿وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها﴾ (٢).. وسياق الآية قبلها يدل على أن المتحدث عنه هو عيسى.. بمعنى أن نزوله إلى الأرض سيكون من علامات الساعة.. وقد قرأها ابن عباس - رضى الله عنه -:

(وإنه لعلم للساعة) (٣) بفتح اللام.. أى علامة على قربها:

(فلا تمترن بها).. من الريبة والشك.. والمراء والجدل.. وهذا ظاهر النص كذلك.

وهنا تتضح لنا تلك الروابط التى تربط بين جسم عيسى - عليه السلام - وبين هذا الرزق الهابط من السماء على ثلاث دفعات..

أولا: أراد المسبب - سبحانه - أن يكون بجسم عيسى - عليه السلام - من الخلايا ما يلائم حياته فى هذا الكوكب المجهول بعد رفعه إليه.. فكان الرزق يأتى منه لمريم - عليها السلام - قبل الحمل آخذا صفة الاستمرار والدوام.. ليكون ذلك الإنبات الحسن.. ولتكون الخامة التى سيتكون منها جسم الوليد جاهزة فى بطنها.. فى انتظار أمر التكوين.. لأنه ليس حملا منويا متطورا «خلقنا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث» من نطفة إلى علقة.. ومن علقة إلى مضغة.. ومن مضغة إلى هيكل

عظمى غضروفى.. مثل غيره من بنى البشر.. كلا.. وإنما هو أمر من أمور التكوين المباشر (كن فيكون).

اقرأ قوله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) (٤).

فلزم أن تكون الخامة جاهزة فى بطنها مسبقا وتلك هي الدفعة الأولى قبل الحمل.

ثانيا: تلك الخلايا الغريبة التى نزل بها جسم عيسى - عليه السلام - لحظة ميلاده لا عمل لها على سطح كوكب الأرض.. وإنما هى لاستعمالها فيما بعد عند رفعه إلى الكوكب الآخر الذى هو مصدر هذا الرزق.. ليكون لائقا جسما للحياة على سطحه.. فالدجاجة لا تحيا تحت سطح الماء كما أن السمكة لا تعيش طويلا فى الهواء.. لاختلاف تركيب كل منهما. فلزم تثبيتها بالرضعة الأولى.. حيث إنه سوف يأكل بعدها مما تنبت الأرض التى سوف يعيش فوقها نيفا وثلاثين عاما وتلك هي الدفعة الثانية.

ثالثا: لما جاء موعد الرفع.. أراد الله - تعالى - أن ينبه تلك الخلايا الساكنة فى جسمه.. الخامة فى تكوينه.. استعدادا لقيامها بمهامها وأداء وظيفتها.. فسبب سؤال الحوارين له:

(هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) ١١٢ - المائدة وطلبها من الله.. ونزلت السمكة والأرغفة ليأكل منها عيسى.. ولا شك أنها كانت من نفس المصدر.. ومن نفس المادة.. مادة الرزق الحسن الغريبة عن مادة الأرض.. أكل منها عيسى - عليه السلام - لتنشط تلك الخلايا الكامنة فى جسمه من يوم مولده. تمهيدا لرفعه إلى مصدرها.. حيث يبقى هناك إلى ما شاء الله وتلك هي الدفعة الثالثة.

ولعلنا فيما أوجزناه فى تلك المجالة قدمنا دليلا ماديا على رفع عيسى - عليه السلام - وسبحانه مسبب الأسباب.. ليخر العقل ساجدا بين يدي عظمته.. عاجزا عن إدراك جلاله وقوته.. معترفا بالقصور عن الإحاطة بحكمته.



منحة ومحنة

٣

ولكننى تذكرت موقفا لكفار قريش.. بعد أن قتل الله عددا من أبطالهم فى غزوة بدر الكبرى.. فقالوا: تأركم بأرض الحبشة.. حيث يوجد عدد كبير من كبار المسلمين هاجروا إليها.

فجهزوا هدية للنجاشى.. وأرسلوها مع عمرو ابن العاص.. وعبد الله بن أبى ربيعة.. لاستلام المسلمين المهاجرين بالحبشة.. وردهم إلى مكة للثأر منهم.

وسمع - صلى الله عليه وسلم - بيعتهما.. فأرسل عمرو بن أمية الضميرى.. وكتب معه إلى النجاشى.. فلما قرأ النجاشى كتاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا جعفر بن أبى طالب - رضى الله عنه - ومن معه من المهاجرين.. ثم أرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ثم قال لجعفر: هل معك شئ مما جاء به صاحبكم عن الله؟..

فقال جعفر: نعم.. فقال له النجاشى: أقرأه على.. فقرأ سورة - مريم (كهيعص).. وقام الرهبان والقساوسة تفيض أعينهم من الدمع.. فقرأ عليهم:

ذكرت فى كتابى - مريم البتول - أننى لما أردت أن أكتب فى موضوع حمل مريم بميسى - عليهما السلام - كان لزاما على أن أشهد أحداث هذا الحدث العجيب فى - سورة مريم - فكانت صورة عميقة التأثير فى النفس.. لم أستطع معها أن أحبس دمعات انسابت من مقلى.. ولست أدري هل هى دمعات باردة؟ ودمعة الفرح باردة.. أم هى دمعات حارة؟ ودمعة الحزن حارة.. وسألت نفسى: هل هى دموع الأسى والشفقة على مريم فى محنتها القاسية؟.. فتاة عذراء قديسة.. لا يعرف عنها أحد إلا العفة والطهر والطيبة والتقوى.. وينظر الجميع إلى أسرتها نظرة التوقير والتبجيل والتقديس.. تظهر أمام المجتمع وقد حملت فى فترة خطبتها لابن عمها يوسف النجار.. قبل إتمام الزواج.. وهذا زنى فى جميع الشرائع؟.. أم هى دموع الفرح والغبطة.. لأن الله تعالى قد جباها واصطفها لتكون إناء لآية تهن العالم.. وتدفعه دفعا إلى الاعتراف بقدرة القادر.. وإرادة العزيز العليم..؟.

(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) (١).

يقول الرواة: بكى النجاشي حتى اخضلت لحيته.. وبكت أساقفتهم حتى اخضلت لحاهم.. حين سمعوا ما يتلى عليهم.

فقال النجاشي: إنه وما جاء به موسى وعيسى ليخرج من مشكاة واحدة.. ثم نظر إلى عمرو بن العاص وزميله.. وقال: انطلقا.. فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا (٢).

وحقا إن لتلك السورة لأثرا يهز المشاعر.. ويحرك الوجدان.. ويوقظ الفكر.. بأسلوب أخاذ.. وتعبير نفاذ.. وجرس موسيقى رائع.. يذرف الدمع.. ويخلق بالروح بعيدا عن ظلمات النفس وأكدار الحياة.. فتعال معي لنرى فتاة عذراء قديسة.. تخدم البيت مع يوسف النجار.. وهو يوسف بن يعقوب بن ماثان (٣).. قديس مثلها.. يتصدق من عمل يده.. حيث يعمل نجارا.. تحرر معها لخدمة بيت المقدس.

وخرجت - عليها السلام - صبيحة يوم صاف جميل.. مشرقة من بيت المقدس.. لتصعد ربوة قريبة.. كعادتها.. حيث تسبح روحها الطاهرة مع نسمات البكور.. وتفريد الطيور.. وسريان الأشعة.. وسكون الرمال.. وجريان السحب.. وصمود الجبال.. وتظل هكذا في أغلب الأيام حتى تزول الشمس.. ثم تعود إلى محرابها حتى ما بعد العصر.. ثم ترجع إلى صخرتها الشرقية متلهفة إلى أحضان الطبيعة.. وتظل في تسبيحة الأصيل حتى تودع كوكب الشمس.. وهو يغوص في الأفق الغربي كما يودع الصديق صديقه.. والأليف إلفه.. إلى لقاء آخر قريب.

وهذا هو كتاب الكون الضخم الرهيب.. الذي ربي النبيين والمرسلين من أبى البشرية آدم.. إلى نبينا

الخاتم.. ومن تبعهم من الأولياء المشقين وصالح المؤمنين.

ودائما يحرضنا القرآن الكريم على النظر في ملكوت السماوات والأرض.. قبل طلوع الشمس وقبل غروبها.. وكأن الله - سبحانه يبكى هؤلاء الذين أعماهم الشيطان.. فلا يرون في الكون بصمات اللطيف الخبير.. الخالق المصور البديع.. فيقول جل شأنه:

(وكأين من آية في السماوات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون) (٤).

ولكن مريم - عليها السلام - سليمة بيت النبوة والرسالة والمجد.. كانت من أولى الألباب (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض) (٥).

في هذا اليوم تسلمت مريم - عليها السلام الصخور حتى وصلت إلى الربوة الشرقية.. واختارت لها مكانا محجوبا عن أعين الناظرين.. تشرف منه على ما حولها من صفحات الكون المفتوحة للمستبصرين:

(واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكان شرقيا. فاتخذت من دونهم حجابا) (٦) لتتفرغ بكل أفكارها ومشاعرها.. عابدة خاشعة.. متبذلة ضارعة.. واستقر بها مكانها:

وتلمح على البعد شابا يتسلق الصخر.. خفيفا رشيقا.. إنه جبريل - عليه السلام - في طريقه إليها:

(فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) (٧). وعبارة (بشرا سويا) توحى بأنه كان في صورة شاب جميل الصورة كامل التقاطيع.. متناسب الخلق.

وبالها من مفاجأة عيفة.. جعلتها تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة.. لقد كانت آمنة في خلوتها.. مطمئنة بوحدها.. وتضاربت في ذهنها الظنون والشكوك.. فصرخت مستعيذة بالرحمن:

(٢) القرطبي - أول - مريم.

(٤) ١٠٥ / يوسف.

(٦) ١٦ - ١٧ / مريم.

(١) ٨٢ - ٨٣ / المائدة.

(٣) عن الكتاب المقدس وقصص الأنبياء للنجار ص ٣٧٣.

(٥) ١٩١ / آل عمران.

(٧) ١٧ / مريم.

(قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا)(١).

قيل: فنكص جبريل فزعا عند ذكر الرحمن.. وقال لها: لا تخافى ولا تراعى.. فأنا لست آدميا.. أنا رسول من استعذت به إليك: (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) (٢) غلاما.. يا للكارثة.. لقد زاد الأمر خطورة وتعقيدا.

ومن حقنا أن نتخيل ما أصابها من فزع.. مشوب في تلك المرة بالحياء والخجل.. حياء الفتاة العذراء.. مع شاب في الخلاء يصارحها بهذا الأمر الخطير.

يقول الأستاذ سيد قطب في هذا المقام: إنها لم تثق بعد بأنه رسول من عند ربها.. فقد تكون حيلة فاتك.. يستغل طبيعتها.. ويصارحها بما يחדش سمع الفتاة الخجول.. وهو أنه يريد أن يهب لها غلاما.. وهما في خلوة (٣).

وكان طبيعياً أن تكون صريحة معه. كما كان صريحا معها.. فالحياء لا ينفع في مثل هذا الموقف الذى يمس العرض والشرف.. فقالت: كيف يحصل هذا: (أنى يكون لي غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا) (٤)؟

إنه رد شامل جمع الأمر من جانبيه: الحلال والحرام.. فالس يعبر عن الزواج وهو حلال.. والبغاء يرمز إلى الحرام..

ولا شك أن عدة عوامل قد تفاعلت في نفسها عن الطريقة التي تنجب بها طفلا.. فليس في ذهنها إلى هذه اللحظة غير الطريقة التي يعرفها الناس للإنجاب الأطفال.. ولهذا قالت: إني لم أتزوج بعد.. كما أنى لست زانية.. فكيف يكون لي غلام؟!..

فقال لها جبريل - عليه السلام - (كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا) (٥).

ونحن مضطرون الآن إلى الوقوف برهة.. أمام هذا المشهد المثير فالقرآن الكريم لم يبين لنا كيف تم هذا الحمل.. وإنما يقول أغلب المفسرين:

تقدم جبريل - عليه السلام - بعد أن اطمأنت إليه.. واستسلمت لأمر ربها.. فتناول ردن قميصها بأصبعه.. فنفخ فيه.. فحملت من ساعتها.

وقد شط بعضهم وتعسف في تحليل معنى النفخ والحمل.. فقالوا: إن الله تعالى لما خلق آدم.. وأخذ الميثاق من ذريته.. جعل بعض الماء في أصلاب الآباء.. وبعضه فى أرحام الأمهات.. فإذا اجتمع الماء ان صار ولدا.. وأن الله تعالى جعل الماءين جميعا في مريم بعضه فى رحمها.. وبعضه في صلبها.. فنفخ فيه جبريل لتهييج شهوتها.. لأن المرأة ما لم تهج شهوتها لا تحمل.. فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل وقع الماء الذي كان في صلبها في رحمها.. فاختلط الماءين فحملت بذلك (٦).

وهذا تكلف وتعسف وشط لا داعي له. فما كان ظهور جبريل - عليه السلام - لمريم في خلوتها.. إلا لتنفيذ أمر التكوين المباشر لتلك الخامة المعدة من قبل في بطنها - نتيجة للطعام الذى نزل عليها مدة من السماء والتي ناقشناها في الفصل السابق.. وأما نفخة الروح التي وردت في قوله تعالى في «سورة التحريم».

(ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) (٧).

وقوله في سورة الأنبياء: (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) (٨) فهى تعنى الروح التي نفخ الله منه في آدم.. بعد أن سواه من تراب.. فصار إنسانا.. نفخ منه في مريم أيضا بعد تشكيل جسم عيسى وتصويره في بطنها.. فصار إنسانا.

(٢) ١٨ / مريم.

(٤) ٢٠ / مريم.

(٦) القرطبي - ٤٧ / آل عمران.

(٨) ٩١ / الأنبياء.

(١) ١٨ / مريم.

(٣) ظلال القرآن ٢٠

(٥) ٢١ / مريم.

(٧) ١٢ / التحريم.

ولقد ذهب الأستاذ سيد قطب إلى هذا المعنى..
 فى رأيه عن نفخة الروح فى فرج مريم- عليها السلام-
 فى كتابه- فى ظلال القرآن- فقال:
 أما فى سورة التحريم.. فتعنى الروح الذى نفخ
 الله منه فى آدم فإذا هو إنسان.. نفخ منه فى فرج مريم..
 فإذا البويضة حية مستعدة للنمو (١).
 ولكننا نستبعد فكرة البويضة ونموها وتطورها..
 فإن النفخة كانت مباشرة لتدب الحياة كاملة فى جسم
 عيسى.. كما كانت مباشرة لتدب الحياة فى جسم آدم
 تماما.. ولا فرق بين الحالتين إلا أن جسم آدم كان ظاهرا
 أمام الملائكة.. أما جسم عيسى فكان مستورا فى بطن
 أمه على وشك الخروج إلى الوجود.. ويؤيدنا فى هذا
 المعنى قوله تعالى:
 (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب
 ثم قال له كن فيكون) (٢).
 فقوله تعالى (كن) يفيد كمال التكوين من غير
 نقص.

وليفسر لى القارئ الكريم أننى أطلت فى هذا
 المقام.. وذلك لأن الكثير قد فهم أن حمل مريم بعيسى-
 عليهما السلام- استغرق زمنا عاديا كالحمل المألوف..
 حتى بعض العلماء المحدثين كالشيخ عبد الوهاب
 النجار فى قصص الأنبياء.. وهذا بعيدا جدا.. وإلا كان
 حملا طوريا من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام
 إلى لحم يكسو تلك العظام.. كلا.. وإنما كان تكويننا
 لتلك المادة المجهولة المعدة من قبل فى بطنها.. ولا
 ينقصها غير التكوين والتشكيل والتصوير- كما أسلفنا-
 فكان كل هذا فى التو واللحظة.. بل وبدون زمن: قل أو
 كثر.. كما هو الحال دائما فى تنفيذ أمر الله- قبل ارتداد
 الطرف-

«وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر» (٣).. أو هو
 أقرب (٤).

بمعنى أن لمح البصر يتألف من التقاء الهدبين
 وانفصالهما بالبصر.. وهما جزءان من الزمن وقدرة
 الله تعالى لا تتأخر جزءا.. ثم تتحقق فى الجزء الثانى..
 لأن هذا يعتبر عجزا فى اللحظة الأولى..

وهو محال على الله تعالى.. فلزم انتفاء الزمن لزوما
 رياضيا.

ولغة القرآن الكريم أيضا تؤيدنا فى أنه لم يكن
 حملا معتادا.. استغرق مدة الحمل المعتاد.. فالعطف فى
 الآية بحرف الفاء التى تفيد الترتيب مع التعقيب
 السريع.. حيث قال تعالى:

(فحملته فانتبذت به مكانا قصيا * فأجاءها
 المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا
 وكنت نسيا منسيا * فناداها من تحتها) (٥) إلى آخر
 الآيات.

ولو كان العطف هنا بحرف (ثم) التى تفيد
 الترتيب مع التراخى لجاز لنا أن نشك فى زمن الحمل
 قبل وضعه.. مثل قوله تعالى:

(فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة
 ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة) (٦).. إلى آخر الآية.
 وقوله:

(هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من
 علقة ثم يخرجكم طفلا) (٧) إلى آخر الآيات.

فترى أن العطف هنا بحرف (ثم).. مما يدل على
 استغراق بعض الزمن.. مع أن هذه جزئيات من الحمل..
 ولهذا نضم صوتنا إلى ابن عباس- رضى الله عنه- قال:
 «كانت مدة الحمل «قبل الوضع» ساعة واحدة. كما
 حملته نذته» (٨).

واتصور- اجتهادا- وللمجتهد نصيب إذا أخطأ..
 ونصيبان إذا أصاب- أنه لو التقطت صورة لعيسى-
 عليه السلام- وهو فى شرح شبابه- قبل رفعه- لكانت
 هى صورة جبريل- عليه السلام- حال ظهوره أمام عين
 مريم.. عند نفخة الروح.. فقد قامت عينها بما تقوم به آلة
 التصوير.. لتعكس تلك الصورة على الجنين فى بطنها..
 وكأنها لقطة الوحى.

وقد أوردت الأناجيل قصة هذا الحمل المعجزة..
 نعرض بعضها.. لنرى كيف شطحت المفاهيم بعقول
 بنى البشر.. حتى أضفت على عيسى- عليه السلام-
 صفات الإلهية.. وعكست الحكمة من خلقه على هذا
 النحو المعجيب.. فشوهت عقيدة التوحيد..

(٢) ٥٩ / آل عمران.

(٤) ٧٧ / النحل.

(٦) ٥ / الحج.

(٨) القرطبي والكشاف وغيرهما ٢٢- ٢٤ / مريم.

(١) ظلال القرآن

(٣) ٥٠ / القمر.

(٥) ٢٢- ٢٧ / مريم.

(٧) ٦٧ / غافر.

ففى إنجيل لوقا جاء فى الإصحاح الأول ما يأتى:

«فى الشهر السادس من حمل اليصابات زوج زكريا أرسل الملاك جبريل من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة * إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم * فدخل الملاك وقال سلام أيتها المنعم عليها. الرب معك. مباركة أنت فى النساء * فلما رآته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية * فقال لها الملاك لا تخافى يا مريم لأنك وقد وجدت نعمة عند الله * وها أنت ستجبلين وتلدین ابنا وتسمينه يسوع * هذا يكون عظيما وابن العلى يدعى ويعطيه الرب كرسى داود أبيه * ويملك على بيت يعقوب ولا يكون ملكه نهاية * فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا * فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظلك فلذلك أيضا القدوس وليدك يدعى ابن الله.. وها هى ذا اليصابات نسيبتك هى أيضا حبلى بابن فى شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقر * لأنه ليس شىء غير ممكن لدى الله * فقالت مريم هو ذا أنا أمة الرب ليكون قولك فمضى من عندها الملاك» (١).

وقد انفرد إنجيل لوقا بذكر بعض عبارات فى قصته هذه.. لم ترد فى الأناجيل الثلاثة الأخرى من الأناجيل الأربعة الرسمية:

وهى: متى.. ولوقا.. وبطرس.. ويوحنا.

وهذه العبارات هى: «وابن العلى يدعى» و«المولود منك يدعى ابن الله» و«يعطيه الإله كرسى داود أبيه».

فهذه العبارات لم ترد فى غير إنجيل لوقا. ولوقا ليس تلميذا.. ولا من الاثنى عشر.. بل هو رجل دخل فى الدين متأخرا.. وصار تلميذا لبولس الذى لم ير المسيح ولم يعاشره.

تلك العبارات مما جاء به ليزين أمر المسيح.. ويدخل على الناس تعظيمه.. والمسيح برىء منها.

ولعل قوله: «وابن العلى يدعى» عبارة مأخوذة من قول زكريا فى ابنه يحيى- عليهما السلام-: «وأنت أيها الصبى نبى العلى». فحرفت فى حق عيسى- عليه السلام- إلى قول لوقا على لسان الملك:

«وابن العلى يدعى» ليوهموا الناس أن المسيح- عليه السلام- إله وابن إله.



٤ تحت جذع النخلة

ونعود إلى مريم عليها السلام.. لنصحبها في محبتها.. بعد أن انصرف عنها جبريل - عليه السلام - في نفس اللحظة التي أحست فيها بالجنين يتحرك في بطنها.. وبإلها من محنة قاسية.. وموقف مؤلم.

وهي وإن كان الأنبياء والأولياء هم أشد الناس بلاء.. إلا أن بلاءها كان من نوع شديد بالنسبة إلى فتاة عفيفة طاهرة.. نقية تقية.. لم تفق من ذهولها بعد هذا الحدث الجلل.. إلا عندما أبصرت عشيرها (١) يوسف ابن عمها مقبلاً نحوها من بعيد.

ذهب إلى المسجد فلم يجدها.. فعرف أنها على الصخرة الشرقية.. فأسرع إليها ليشاركها عبادتها وتسبيحها.. رآته مقبلاً.. فذهبت السكره.. وحلت الفكرة - كما يقولون -

ماذا تقول ليوسف؟.. وكيف تواجهه وهذا الجنين يتحرك في بطنها؟.. فضيحة فظيعة.. وألم نفسي مريع.. اضطرب من أجله جسدها كما تضطرب القشة حملتها موجة طاغية.. فقامت من مكانها ذاهلة حائرة..

لتقابلته وهي راعشة راجفة.. يوسف.. أنا.. أنا.. وفوجئت به قبل أن تخرج الكلمة المتعثرة من فمها.. يشير إليها ألا تكمل قولها.. قائلاً: أنا أعلم كل شيء يا مريم.. قالت: ماذا تعلم؟.. قال: أعلم أنك حامل.. قالت: ومن الذي أعلمك هذا؟.. قال: أعلمني الذي كان عندك الآن.

لقد أراد الله - تعالى - وهو رحيم بمریم في محبتها.. أن يرد عنها ظنون يوسف وشكوكه.. رافة بها ورحمة.. باعتباره خطيبها وعشيرها.. وهو أول من يثيره هذا الأمر.. فأخبره بذلك جبريل - عليه السلام - وهو في طريقه إليها.

وعادت إليها نفسها الحائرة المضطربة المتساعة.. ثم قالت من أعماق قلبها.. بعد أن تنفست الصعداء.. مادمت قد علمت الحقيقة يا يوسف.. فلا يهمني أحد سواك.. وسأتحمل كل ما سيكون من أجل هذا الوليد الزكي الطاهر.. الذي اختاره الله آية للعالمين.

(١) اليهود يسمون الخطيب - العشير - طوال مدة الخطبة.

وعليها أن نستعرض سريعاً بعض ما جاء عن هذا الحادث في الأناجيل: جاء في الإنجيل متى في الإصحاح الأول:

«لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف.. قبل أن يجتمع بها.. وجدت حبلى من الروح القدس.. فيوسف رجلها إذ كان باراً.. ولم يشأ أن يشهرها.. أراد تخليتها سرا.. ولكن فيما هو يتفكر في هذه الأمور.. إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم.. قائلاً.. يا يوسف بن داود.. لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك.. لأن الذى حبلى به فيها.. هو الروح القدس.. فستلد ابناً.. وتدعو اسمه يسوع.. لأنه يخلص شعبه من خطاياهم» (١).

وجاء في الفصل الثانى من الإنجيل برنابا:

«أما مريم.. فإذا كانت عالة بمشيئة الله وموجسة خيفة أن يغضب الشعب عليها.. لأنها حبلى.. فیرجمها.. كأنها ارتكبت الزنا.. اتخذت لها عشيراً من عشيرتها.. قويم السيرة.. يدعى - يوسف - لأنه كان باراً متقياً الله.. يتقرب إليه بالصلاة والصيام.. ويرتزق بعمل يديه.. لأنه كان نجاراً.

هذا هو الرجل الذى كانت تعرفه العذراء.. واتخذته عشيراً.. وكاشفته بالإلهام الإلهى ولما كان يوسف باراً.. عزم.. إذ رأى مريم حبلى.. على إبعادها لأنه يتقى الله.. وبينما هو نائم.. إذا بملاك يوبخه.. قائلاً: فيها.. إنما كون بمشيئة الله.. ستلد العذراء ابناً وستدعونه - يسوع - تمنع عنه الخمر والمسكر.. وكل لحم نجس لأنه قدوس الله.. من رحم أمه.. فإنه نبي من الله.. أرسل إلى شعب إسرائيل.. ليحول يهوذا إلى قلبه.. ويسلك إسرائيل إلى شريعة الرب.. كما هو مكتوب فى ناموس موسى.. وسيجيء بقوة عظيمة بمنحها له الله.. وسيأتى بآيات عظيمة.. تفضى إلى خلاص كثيرين. فلما استيقظ يوسف من النوم.. شكر الله.. وأقام مع مريم كل حياته.. خادماً لله بكل إخلاص» (٢).

ومسألة العشير عند بنى إسرائيل.. هى أن يختار الرجل لابنته عشيراً يعاشرها فى بيت أبيها مدة من الزمن.. فإذا رضيت ورضيها تم الأمر بالزواج.. ولكل منهما فى أثناء المعاشرة قبل الزواج أن يتخلى عن الآخر. على ألا يحدث بينهما اتصال جنسى فى مدة المعاشرة.. فإذا حصل كان زنى يستحق الرجم.

ونلاحظ أن ما جاء فى الأناجيل حول مسألة حمل مريم - عليها السلام - لا يختلف عما جاء فى القرآن الكريم.. ولكن الأناجيل جاء فيها ذكر يوسف النجار.. فلم يتحدث عنه القرآن الكريم.. ولكن يصح إirاده.

كما أن الأناجيل ذكرت أن حمل مريم قد انتشر خبره بين بنى إسرائيل قبل الوضع.. وهذا باطل.. لأن رؤيتهم لها تحمل ابنها كانت مفاجأة لهم.. كما هو نص القرآن الكريم.. ولهذا نعود إلى أحضان القرآن الكريم.. الذى يقول:

«فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً.. فجاءها المخاض إلى جذع النخلة» (٣).

والموقف هنا - كما يقول الأستاذ - سيد قطب - أشد هولاً من موقفها الأول.. فلئن كانت فى الموقف الأول.. تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها.. فهى هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة.. ثم هى تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية (٤). لم تمالك نفسها من شدة ألم المخاض من - أن يفلت من صدرها أنين مكتوم.. أحس به يوسف ابن عمها.. وهو يسير بجانبها.. فى طريقهما إلى العودة.. فقال لها: مالك يا مريم؟ قالت: ألم شديد تكاد تنفجر منه جوانبى.. وعرف يوسف أنه ألم المخاض.

فحاول أن يقوى من عزمها.. ويرفع من معنوياتها.. حتى يصل إلى القرية.. وهى قرية.. ولكن دفعة قوية من دفعات الطلق لم تستطع مقاومتها.. ألجأتها إلى جذع نخلة يابس يقوم على مذود ولا يوجد غيره فى هذا المكان - بيت لحم - فأسندت ظهرها إليه من قسوة الألم.. وفى نفس اللحظة جرى يوسف إلى القرية.. ليحضر لها شيئاً يساعدها على الوضع..

(٢) برنابا - الفصل الثانى.

(٤) ظلال القرآن.

(١) متى ص ١ - ١٨.

(٣) ٢٢ - ٢٣ / مريم.

فالمكان قفر.. ليس فيه غير مذود الماشية.. وبقياء النخلة.. وما يحيط بهما من كثران الرمال.. فقد أحس يوسف أنه- المخاض:-

جلست مريم- عليها السلام- إلى هذا الجذع.. تلوى من شدة الألم لا أنيس معها.. وحيدة فريدة.. تعاني حيرة العذراء يفجؤها الوضع في أول مخاض لها.. ثم جاءت الدفعة الأخيرة من دفعات الطلق.. جبارة عاتية.. جعلتها تغمض عينيها في إعياء شديد.. وتضغط على جذع النخلة بكل قوتها صارخة:

«يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا» (١).

وقال أولوا العلم من المفسرين: قالت ذلك من فرط الحياء والخجل من الناس.. على حكم العادة البشرية.. لا كراهة لحكم الله.. أو لشدة التكليف عليها إذا بهتوها واتهموها وهى عارفة ببراءة ساحتها (٢).

وعزیز على النفس الحرة الأیسة.. أن ترى فى نفسها الأمر العظيم.. الذى يستحق الثناء والتقدير والتوقیر.. ثم تراه عند الناس لجهلهم به عیبا یعاب به.. ويعنف عليه.

وكانت اللحظة القادمة.. لحظة فيها كل شيء غريب.

لقد رأت الجذع الجاف.. وقد دبّت فيه الحياة فجأة.. رأت فيه ديب الحياة رؤية غير زمنية.. كما تم تكوين الجنين وتشكيله وتصويره فى بطنها من قريب.. وفى نفس اللحظة انشقت الأرض من تحتها عن جدول صغير يفيض بالماء العذب الزلال.. وفى نفس اللحظة أيضا.. سمعت صوت وليدها.. ينادىها من تحتها:

«لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا. وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا. فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا» (٣).

يقول ابن عباس- رضى الله عنه:-

«كان جذعا نخرا.. فلما هزت نظرت إلى الجذع.. فإذا السعف قد طلع.. ثم نظرت

إلى الطلع قد خرج من بين السعف.. ثم اخضر فصار بلحا.. ثم احمر فصار زهوا.. ثم رطبا.. كل ذلك فى طرفه عين.. فجعل الرطب يقع بين يديها لا ينشدخ منه شيء» (٤).

والسرى: هو الجدول.. فقد سئل- عليه الصلاة والسلام- عن السرى: فقال: هو الجدول (٥).

وقال الحسن- رضى الله عنه- هو السيد الكريم.. يقصد من «قد جعل ربك تحتك سريا» أى أن عيسى يقول عن نفسه بأن الذى تحتها سيد كريم.. فقال له خالد بن صفوان: إن العرب تسمى جدول الماء سريا.. فقال له الحسن: صدقت.. ورجع إلى قوله (٦). وقد ورد عن صفة الماء الجارى فى هذا الجدول أنه كان باردا عند شربه.. دافئا عند استعماله.

يا سبحان الله.. ولید فى لحظة مولده.. ینادى أمه من تحتها.. نداء لا یزید على سطرین فى کتابته.. فيه ذهاب لحزنها «ألا تحزنى».. وتذكیر بربها «قد جعل ربك تحتك سريا». وإرشاد إلى طعامها وشرابها «فكلی واشربى» وتسکین لوجدانها «وقرى عینا».. وأمن فى مواجهة قومها «فإما ترين من البشر أحد فقولى» كذا.. معجزات متتابعة.. وآيات متلاحقة.. ثم غصن رطب جنى من جذع يابس.. وماء عذب سلسبيل فى صحراء جرداء.. وطفل وليد ينطق بالهدى والنور «كلى من الجنى» واشربى من السرى.. وقرى بوليد نبى..

وقد فسر بعضهم: قرى عينا أى نامى (٧).. فكأنه أرشدها إلى الأكل والشرب والنوم.. ونحن لا نأخذ بهذا الرأى.. لأن قرة العين فى استكانتها واستقرارها فرحا وأمنا وسلاما.. لا نوما.

ويتضح هذا من قوله- عليه الصلاة والسلام:

«وجعلت قرة عيني فى الصلاة» وقوله تعالى على لسان المؤمنين: «ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين».

(٢) الكشف- ٢٣ / مريم.

(٤) القرطبي ٢٤ / مريم.

(٦) النسفى وغيره.

(١) ٢٣ / مريم.

(٣) ٢٤-٢٦ / مريم.

(٥) النسفى وغيره.

(٧) الشيبانى.. نقلا من القرطبي

وفى طلب عيسى - عليه السلام - من أمه أن تهز النخلة.. رمزية جميلة.. تدفعنا إلى السعى للحصول على الرزق.. فإن الذى شق الصحراء بالماء.. وأنزل الرطب من السماء.. كان قادرا على إسقاط الرطب فى حجرها.. ولا داعى لأن تهز فتاة مجهدة من آلام الوضع جذع النخلة ليسقط عليها البلح.. وإنما لزم اتخاذ الأسباب.. ولو تمّ يدها فتمسّ جذع النخلة ويكون ذلك سببا لتساقط البلح لتأكل منه.

ويقول القرطبي:

«قال علماؤنا: لما كان قلبها فارغا لله.. فرغ جوارحها عن النصب أى - التعب - يقصد حينما كان ينزل لها الطعام فى المحراب بغير سبب.. فلما ولدت عيسى.. تعلق قلبها بحبه.. واشتغل سرها بحديثه وأمره.. وكلها إلى كسبها.. وردّها إلى العادة بالتعلق بالأسباب فى عباده» أهـ.

والبلح هو أنسب الأغذية فى مثل تلك الحالات.

وقالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت.. وما للنفساء خير من الرطب.. ولا للمريض خير من العسل.. **وقال الربيع بن الحيثم:** ما للنفساء عندى خير من الرطب لهذه الآية.. ولو علم الله شيئا هو أفضل من الرطب للنفساء.. لأطعمه مريم (١).

طلب منها ولدها أن يكفيها شر السنة الناس.. والسنة الناس لا ترحم - عندما يلقونها بما يلقونها به من الرمي والإفك والبهتان «وكان الإنسان» بطبيعته «أكثر شىء جدلا».

وويل للإنسان من عشرات اللسان.. قال لها:

«فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا».

طمأن قلبها.. وأمن روعها.. من أمر فضلت فى قرارة نفسها أن تموت قبل أن تلقاه.. فكيف تلقى قومها - اليهود - وقد جبلت ألسنتهم على هتك الأعراض بالباطل.. والدس والفتن بغير حق.. فما بالها وهذا أمر واضح ملموس محسوس؟

فتاة هراء.. فى فترة خطبتها.. تحمل طفلا وليدا

على كتفها.. وأمامها يسير خطيبها.. وهى ليست فتاة عادية - كما قلنا - مثل أى فتاة.. وإنما هى سليقة بيت النبوة والدين والخلق والفضيلة والشرف والمجد.. ألم يقل لها: إذا قابلك أحد من الناس فصومي.. واصمتى عن الكلام.. ودعى هذا الأمر لى.. فأنا كفيل بالدفاع والإقناع؟

وكان من الصيام عندهم.. الإمساك عن الكلام.

وقد نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن صوم الصمت.. فصار ذلك منسوخا فينا (٢).

روى البخارى عن ابن عباس.. قال: بينما النبى - صلى الله عليه وسلم - يخطب إذا هو برجل قائم.. فسأل عنه.. فقالوا: أبو إسرائيل.. نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم.. فقال - عليه الصلاة والسلام - مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه (٣).

ولكن سنتنا نحن فى الصيام: الإمساك عن قبيح الكلام.. وفحش القول.. والكذب.. والنميمة.. والفتنة.. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «إذا كان صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل.. فإن امرؤ قاتله أو شاتمه.. فليقل إني صائم».. وقال:

«من لم يدع قول الزور والعمل به.. فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه».

ومن بلاغة التعبير من الوليد - عيسى - عليه السلام -

لأمه:

«فقولى إنى نذرت للرحمن صوما.. فلن أكلم

اليوم إنسيا».

تعبير عجيب غريب.. قولى ولا تتكلمى!! كيف يكون القول من غير كلام؟.. لا معنى لهذا.. إلا إذا فهمنا أن القول ما هو إلا تقرير فى أعماق النفس.. يلفظه اللفظ إلى الخارج عبر اللسان.. ومن أجل هذا سميت الكلمة «لفظا» كما سميت العبارة «عبارة» لأنها تعبر بالقول من نفس القائل إلى أذن السامع.. يؤيدنا فى هذا المنطق قول الله - تبارك وتعالى: «واسروا قولكم أو اجهروا به» (٤).. وقوله:

(٢) الكشاف والنسفى والبيضاوى - ٢٦ / مريم.

(٤) ١٣ / الملك.

(١) القرطبي.

(٣) القرطبي - ٢٦ / مريم.

«سواء منكم من أسر القول ومن جهر به» (١) .. أى أن القول قد يكون سرا فى أعماق النفس.. أو جهرًا عن طريق اللفظ والعبارة.. والصوم عن الكلام كان فى الشريعة الموسوية. التى يدين بها اليهود.

وهذا ظاهر أيضا فى موقف زكريا - عليه السلام - زوج - اليبابات - خالة مريم - عندما ثمنى على الله الولد.. ونادته الملائكة فى المحراب بالبشرى..
قال:

(رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوبا) (٢).

وفى نفس المقام من سورة - آل عمران -:
(قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) (٣).

وهذا يعنى أمره بالصوم ثلاثة أيام.
ونلاحظ هنا أن العبادات فى الأصل واحد.. لأن المنبع واحد.. وإنما هو التطور والترقى فى العبادات.. حتى تبلغ درجة الكمال.

فالصوم فى اليهودية: إمساك عن الطعام والشراب والكلام.
وفى المسيحية: إمساك عن أكل ذى روح.. وما نتج من ذى روح.

أما فى الإسلام: فهو إمساك عن الشراب والطعام والجنس نصف يوم.. ثم يكون لك مطلق الحرية فى النصف الثانى.. وهذا من غير شك أكمل أنواع الصوم.. مناسبة للنفس البشرية.. ومواءمة للجسم الأدمى.

واستمع القارئ الكريم فى وقفة خفيفة.. مع رأى تردد فى جميع كتب التفسير.. بغير استثناء.. هو احتمال أن يكون الذى نادى مريم من تحتها هو جبريل - عليه السلام - بل وقال بعضهم عبارة أذكرها هنا - على استحياء - هى: - وكان جبريل يقبل الولد كالقابلة (٤) - عليك سلام الله يا جبريل.. يا أمين الوحى.. ويا حامل رسالات السماء.

أذكر موقفا لجبريل - عليه السلام - عندما نزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الجبل.. من غار حراء.. ليلة السابع والعشرين من رمضان.. فى أول ليلة

نزل فيها القرآن الكريم جملة.. من مقامه العلى الحكيم.. إلى سماء العزة.. ونزل جبريل - عليه السلام - فيها.. على محمد - صلى الله عليه وسلم - بأول ما نزل - اقرأ - وكررها ثلاثا: ثم قال له:

(اقرأ باسم ربك الذى خلق).. إلى آخر الآيات.
أذكر ليلتها.. عندما نزل - عليه الصلاة والسلام - فزعا مرتجفا إلى زوجه خديجة رضى الله عنها وهو يقول لها: «أخشى أن يدون هذا رثيا من الجن».. ويخبرها أنه لم يزل يراه - يرى جبريل - ولم يزل يسمع الدنيا تدوي حوله بقوله:

(اقرأ باسم ربك الذى خلق).
وهذا ذاكاؤها.. ورجاحة عقلها.. إلى عمل اختبار لهذا الواقف الذى يراه محمد.. وهى لا تراه.. فأخذته - صلى الله عليه وسلم - فى حجرها.. واحتضنته من الخلف.. فقال لها - عليه الصلاة والسلام - لقد انصرف.. وهنا ظهر الفرح على وجهها الكريم.. وقالت:

والله إنه لملك.. ولو كان شيطانا لما استبحى!
ثم قالت - رضى الله عنها - قولتها المشهورة عن محمد:

«أبشريا ابن العم واثبت.. فوالذى نفس خديجة بيده.. إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة.. ولن يخزيك الله أبدا.. إنك لتصل الرحم.. وتحمل الكل.. وتكسب المعدوم.. وتقري الضيف.. وتعين على نوائب الحق».

لقد استحى جبريل - عليه السلام - أن يقف ويرى زوجة تحتضن زوجها من الخلف.. فهل يقبل العقل.. ويجيز المنطق.. ويرضى الذوق والحياء.. أن نتخيله تحت فتاة تلد.. ويعمل قابلة لوليدها؟؟؟

أظن أيها الأخ الكريم.. أنه ليس من العقل.. ولا من المنطق.. ولا من الذوق والحياء بمكان.. فالجميع متفق على أن عيسى - عليه السلام - قد تكلم فى المهد - فىكون هو الذى ناداها من تحتها.. ليكفيها ألم الرد على قومها.. ولنفهم نحن أن السكوت عن السفه واجب.. فقد قيل: ما قدح سفه بمثل

(٢) ١٠ / مريم.

(٤) البيضاوى والنسفى - ٢٤ / مريم.

(١) ١٠ / الرعد.

(٣) ٤١ / آل عمران.

الإعراض.. وما أطلق عنانه بمثل العراض. وقيل
أيضا: من أذل الناس.. سفيه لم يجد من يسافهه.
إن عيسى الوليد هو الذى ناداها من تحتها.. ولذلك
أحالتهم عليه لما واجهوها بالتوبيخ والتأنيب (فأشارت
إليه).

ونعود إلى مريم- عليها السلام- فنجد أنها قد
اطمأنت بعد أن سمعت من الوليد ما سمعت.. فلما
ذهب عنها الروح.. وعادت إليها نفسها الشاردة من
العجب والذهول.. أكلت من الرطب.. وشربت من
الماء.. وأصلحت من شأنها.. ولفت وليدها الحبيب فى
قميصها ثم جلست إلى جانب المذود.. ترضعه الرضعة
الأولى.. من ذلك اللبن الذى تفجر به ثدياها.. بعد
تناولها هذا الطعام والشراب.. الهابطين عليها من
السما.. خارجين عن نطاق الأسباب.. ولتكون تلك
الرضعة عملية تثبيت لهذه الخلايا الغريبة..

التي يتكون منها جسم هذا الطفل.. آية الله وكلمته
ألقاها إلى مريم.. وذلك الجسم الذى سيحيا حيناً من
الدهر فوق سطح الأرض.. يأكل مما يأكل الناس
ويشرب مما يشربون.. حتى يحين موعد رفعه إلى
السما.. كما ذكرنا فى فصول سابقة. وكـ.. أنا نرى
يوسف النجار.. قادما من بعيد.. يجرى وهو يلتهب بما
يحمل من ماء وغذاء.. وبعض ما يلزم فى مثل هذا
الموقف.. حتى إذا بلغ مكانها.. وجد هذا الأمر
العجب.. وجدها تحمل رضيعها والبشر يملا وجهها..
والماء والرطب حولها.. فألقى ما معه ونظر إليها نظرة
المؤمن الواصل من قدرة العزيز العليم.. القادر الحكيم..
فقالت باسمه:

يا يوسف.. لقد حصل ما هو أعجب مما ترى..
لقد كلمنى الوليد.. وقال لى كذا وكذا.. فقال: أعلم أن
الله على كل شئ قدير.. يقول للشئ كن فيكون.



٥ عيسى فى المهد

لقد اطمان قلب مريم.. وعلت معنوياتها.. وقوى يقينها.. بعد ما رأت من آيات ربها.. ووثقت أن الله معها.. ومن كان الله معه فكيف يخشى الناس؟.. (فأنت به قومها تحمله) (١).

يقول ابن عباس - رضى الله عنه -:

«خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس فجاءتهم عند الظهر.. ومعها صبى تحمله.. فكان حمله وولادته ثلاث ساعات من النهار» (٢)

أنت من المكان القصى.. الذى كانت انتبذت فيه صبيحة ذلك اليوم.. وياله من موقف شديد.. موقف العذراء البتول.. العفة الخجول.. تواجه قومها بوليد تحمله على صدرها.. وخطيبها يسير أمامها.. والله لولا إيمانها بربها.. وثقتها بنصره.. ويقينها بوجوده معها.. لأنهارت كما ينهار الثوب الذى ترفعه بين أصبعيك.. انفلت منهما فسقط على الأرض كومة صغيرة.

وتسامع القوم الخبر.. فأتوا ليعلموا حقيقة الأمر.. فاجتمع منهم عدد من الرجال والنساء.. حول مريم وابنها وعشيرها - ومدت امرأة منهم يدها لتضربها على وجهها.. وقبل أن تهوى تلك اليد على وجه مريم.. أجف الله شطر المرأة.. وحملوها مشلولة.. وقال رجل منهم: ما أراها إلا زنت.. فأخرس الله لسانه فى الحال (٣).

فوجم الجمع.. ونحاشوا أذاها.. خوفا وخشية.. وقالوا فى أدب:

(قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا) (٤). أى أن هذا الذى حصل منك أمر عظيم مفترى.. والولد من الزنى.. أمر مفترى.. ما كان لك يا مريم أن تصنعيه: (يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) (٥).

ومن حقنا أن نتصور الأسى والحيرة.. التى ارتسمت على وجوه قومها.. وهم يرون مريم

(١) ٢٧ / مريم.

(٢) القرطبي - ٢٧ / مريم.

(٣) ٢٨ / مريم.

(٤) ٢٧ / مريم.

(٥) القرطبي وغيره - ٢٧ / مريم.

..التي كانت بينهم صبيحة اليوم.. زهرة ناضرة..
ووردة عطرة.. يتسمون فيها عبير الإيمان.. ويتغنون
بالتقرب إليها رضى الرحمن.. يرونها تحمل طفلا.. ولا
يعرف أحد منهم حتى تلك اللحظة غير أنها زنت فيه مع
يوسف عشيرها.

وتبدو هذه الدهشة فى قولهم: (يا أخت هارون)
بمعنى أنك يا مريم من أسرة هارون النبى.. خلفاء الله فى
بيته.. وسدنة محرابه.. فماذا نقول لك؟ وكيف نفهم
هذا الأمر الرهيب؟

(ما كان أبوك أمراً سوء) بل كان لنا قدوة وأسوة
فى الصلاح والتقوى وخشية الله.. إنه إمامنا وسيدنا (وما
كانت أمك بغيا) زانية.. تعمل الفحشاء.. أو تصنع ما
يغضب الرب.

وهنا تذكرت مريم وصية رضيعها لها.. بالصوم
والصمت.. فوضعتهم بينهم (وأشارت إليه).

وَيُخَيَّلُ إِلَى أَنَّهُمْ إِلَى تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَانُوا فِي
منتهى الهدوء والرهبة والخشية.. بعد الحادثين
السابقين.. حادث المرأة التى شلت.. وحادث الرجل
الذى أخرس الله لسانه.. ولكن بعد أن جاء ردها
عليهم.. بالإحالة على رضيعها.. لا شك أنه قد جن
جنونهم.. وغضبوا وثاروا.. وقالوا: أبلغ بها التبجح إلى
هذا الحد؟ تزنى.. وتحمل.. وتلد.. وتلقنا وهى تحمله..
وعندما نسألها تهزأ بنا وتحيلنا إلى طفل رضيع
لنحادثه؟.. والله إن استخفافها بنا لأشد علينا من زناها:

(قالوا كيف تكلم من كان فى المهد صبيا) (١)

ويلوح أمامنا مشهد عجيب.. ومنظر غريب.

فتخيل معي طفلا.. مولودا من ساعات.. وإن
كان بعض المفسرين يقول:

إن مريم وابن عمها اختبأ بالطفل أربعين يوما..
حتى تعللت من نفاسها وطهرت منه (٢) غير أننا لا
نأخذ بهذا رأى.. لأنها ولادة من غير نفاس.. وإنما هو
امر مباشر من أوامر القدرة الخارجة عن نطاق الناموس

الكونى والأسباب- كما بينا سابقا- والنفاس مرتبط
بعملية الحمل العادى المتطور خلقا من بعد خلق فى
ظلمات ثلاث: هى ظلمة خلق النطفة علقه.. ثم خلق
العلقة مضغة.. ثم خلق المضغة عظاما.. حيث ينتهى
الخلق الظلمانى.. وقد سماها الله- تعالى- ظلمات.. لأن
الروح النورانى لم ينزل فيها بعد.. ثم بعد تلك المراحل
الثلاث تنزل الروح.. والروح نور.

تلك المراحل هى التى يتخلف منها دم النفاس..
ولكن هذا الوعاء.. وعاء مريم- عليها السلام- ليس
كأوعية النساء.. فقد طهرها الله- سبحانه- واصطفها:
اقرأ قول الله عنها:

(يا مريم إن الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على
نساء العالمين) (٣).

حيث يشع أمام أبصارنا من ثنايا تلك الآية.. أنها
طهر بين اصطفاءين.

وقال علماؤنا الأجلاء: إن الله طهرها من كل ما
يستقذر من النساء.. وعن سائر الأذناس.. من حيض
ونفاس (٤).

أقول: تخيل معي منظر ذلك الوليد العجيب.. بعد
أن قالوا لأمه فى غضب وسخط (كيف تكلم من كان
فى المهد صبيا). نراه قد اتكأ على يساره.. واتجه إليهم
بوجهه.. يقول علماء التفسير.. تقدم إليه زكريا- عليه
السلام- وهو على هذا الحال.. قائلا له: انطق بحجتك..
إن كنت أمرت بها.. فأشار الوليد بسبابته اليمنى (٥)..
وهو متكئ على يساره.. متجه إليهم بوجهه.. وبصوت
رفيع قوي قال:

(قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلنى نبيا *
وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة
ما دمت حيا * ويرا بوالدى ولم يجعلنى جبارا شقيا *
والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث
حيا) (٦).

أسكتت مريم لسانها تنفيذا لأمر الله.. فأنتطق الله
لها اللسان الساكت.

(٢) فى أغلب كتب التفسير.

(٤) القرطبي والبيضاوى وغيرهما ٤٢/ آل عمران.

(٦) ٣٠-٣٣/ مريم.

(١) ٢٩/ مريم.

(٣) ٤٢/ آل عمران.

(٥) القرطبي والكشاف والنسفى- ٣٠/ مريم.

وبجبرنا هذا الموقف جبيرا على الوقوف لحظة.. أمام
عظمة تلك العبارات الموجزة.. التى تكلم بها عيسى
عليه السلام - فى الساعات الأولى من ولادته.. والأمر
فيه هو الذى تكلم(١).. أما الخلق فلا قيمة له فى هذا
المقام.

ولتوضيح هذه العبارة أقول: إن الإنسان مَكُون من
خلق وأمر:

(ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) (٢) أو
كما هو معروف.. الإنسان روح وجسم.. فالروح أمر
والجسم خلق.. وعند الإخوة المسيحيين: الروح
لاهوت.. والجسم: ناسوت.

فحديث عيسى - عليه السلام - هنا.. هو حديث
الروح.. ولهذا بعد كلامه فى المهد.. عاد جسمه إلى
طبيعته البشرية.. ولم يتكلم بعدها.. إلا بعد أن بلغ
مرحلة الكلام العادى.. كأى إنسان.. قال عباراته كلها
بصيغة الماضى.. لأن حقيقته فعلا أوتيت كل هذا الذى
قال:

ولعلنا نرى أن الدين كله.. قد ورد فى تلك
العبارات الموجزة.. التى ألقاها على الناس.. من مناسك
وعبادات.. ومعاملات وأخلاقيات. فنطق أول ما نطق..
بكلمة التوحيد (إنى عبد الله) نطق بالمعبودية المطلقة
المجردة لله الواحد الأوحد.. الذى لم يلد ولم يولد..
فليس هو كما قال فريق اليعاقبة: الذين قالوا عنه أنه هو
الله.. هبط إلى الأرض.. ولا كما قال النسطورية: الذين
قالوا هو ابن الله.. ولا كما قال الإسرائيليون ملوك
النصارى: الذين قالوا هو ثالث ثلاثة.. الله إله.. وهو
إله.. وأمه إله(٣). أو الأب والابن والروح القدس..
ولما قال: أنا عبد الله.. فقرر كلمة التوحيد.. وهى
الركيزة الأولى فى الدين.

نطق عيسى - عليه السلام - وهو وليد.. بأربع آيات
قصار.. كل آية منها.. ذات هدف خاص:

فالآية الأولى: جمعت قواعد الإيمان (إنى عبد الله

آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) فيها التوحيد.. والإيمان
بالكتب السماوية.. وبالرسالات الهادية للبشرية.

والآية الثانية: جمعت ركائز العبادات (وجعلنى
مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت
حيا) ففيها البركة بالنفع وتعليم الخير.. وفيها الصلاة
والزكاة.

والآية الثالثة: جمعت أسس الأخلاقيات والمعاملات
(وبرا بوالدى ولم يجعلنى جبارا شقيا) ففيها بر
الوالدين.. والرحمة.. والعدل.. والهدى.

ويقول ابن عباس - رضى الله عنه - «لما قال: «وبرا
بوالدى» ولم يقل بوالدى.. علمنا أنه شىء من الله
تعالى.

الآية الرابعة: آية السلام (والسلام على يوم ولدت
ويوم أموت ويوم أبعث حيا) فيها السلام والسلام غاية
الغايات.. ونهاية النهايات وطلب السلام فى أوقات
ثلاثة: هى أشد الحالات على الإنسان فى الدنيا
والآخرة.. وهل يحتاج الإنسان إلى أكثر مما يحتاج إليه
فى لحظة الميلاد.. وساعة الموت.. ويوم البعث؟ لقد
جمعت تلك الكلمة كل ما يقتضيه الدين من إيمان
وعبادات وأخلاقيات ومعاملات وأمن وسلام فى الدنيا
والآخرة.

**ووجع القوم.. وبهرتهم رهبة الموقف.. وأجمتهم
قوة الآية.. بينما نام الطفل.. كما ينام الأطفال.. حيث
انحنت مريم - عليها السلام - فحملته على صدرها..
واحتوته بين أحضانها.. وانطلقت به تتبع ابن عمها
يوسف النجار.. بينما وقف القوم فى ذهول غريب..
لا يدرون هل هم فى يقظة أم فى منام!.. أهى حقيقة أم
مجرد أوهام!.. ثم انصرف كل منهم إلى غايته.. فى
هدوء وصمت.. تظلم سحابة من الرهبة والخشية..
والهيبة والجلال.**

وبدا الحديث ينتشر رويدا.. رويدا حتى عمّ المدينة كلها.. فى الأندية.. والخوانيت.. والأسواق.. وألسنة الناس لا ترحم - وخاصة إذا كانت ألسنة بنى إسرائيل!! ألا تدرون؟.. لقد وضعت مريم القديسة.. سليلة النبوة والمجد.. سفاحا من ابن عمها يوسف النجار.. ومرت بولدها محمله على صدرها.. فى فجور وتبجح!! وقد يكون أحد الموجودين فى المجلس.. ممن شاهدوا الطفل.. وسمعه يتكلم.. فيعترض

المتحدث.. قائلا: لا تخوضوا يا قوم فى عرضها.. فقد رأيت كذا وكذا.. إنه آية من الله.
ولكن أولياء الشيطان أكثر فى مثل هذه الأمور.. فينبى له أكثر من واحد.. ساخرين هازئين.. يقولون: هل تصدقون أن طفلا.. ولد اليوم.. يتكلم؟ إلا أن يكون ذلك سحرا أصابك.. فخيّل لك ما تزعم؟
وهكذا لم يؤمن بهذا الحادث إلا أقل القليل.



٦ هجرة إلى مصر

وكانوا ثلاثة من المجوس.. فأدت بهم خطاهم إلى
أورشليم.. وسألوا: أين ولد ملك اليهود؟
وعلم هيرودس الملك بأمرهم.. فاستدعاهم وسألهم
عن بغيتهم فقالوا له: يوجد في كتبنا ما يدل على ميلاد
طفل سيكون سيدا ذا شأن كبير.. وجئنا له بهدايا من
الذهب والمر واللبان.. وهذه صفاته.. فالذهب سيد
المعادن.. وهو سيد في اليهود.
والمر يجبر الكسور ويداوى الجروح.. وهو
أيضا يشفى كل مريض. واللبان يدخل دخانه في
السماء.. ولا يدخل السماء دخان سواه.. وهو
كذلك يرفع إلى السماوات.. وقد ظهر نجمه في
السماء.. فاهتدينا بالنجم.. الذي أوصلنا إلى هنا.. مما
يدل على ميلاده في تلك الديار. فطلب الملك هيرودس
منهم أن يبحثوا عنه.. ويخبروه بمكانه ليكرمه.. ولكن
الصابئين الثلاثة فطنوا إلى أن الملك يريد قتله خشية
على ملكه أو ملك ابنه من هذا الوليد.. فبعد أن
وجدوا عيسى-

المسيح لقب لميسى - عليه السلام - وهذا الاسم
معرب.. أصله في العبرية - المشيخ - بالشين.. والشين
في التعريب تصير - سينا - كما عربت موسى بموسى.
وقال أبو الهيثم: المسيح ضد المشيخ.. يقال: مسحه
الله.. أى خلقه خلقا حسنا.. ومسحه.. أى خلقه ملعونا
قبيحا.

وقيل عن سبب تسميته بهذا الاسم.. لأنه مسح
الأرض بكثرة سياحته فيها. كما قيل: لأنه كان مسيح
القدمين لا أخصص لهما (١).

وقال ابن عباس: لأنه كان لا يسمح ذاعامة إلا برىء
من عاهته.. وهذا هو الأصح.. وهو ماورد عن صفته في
كتب الصابئة.. الذين وفدوا من الشرق.. يرقبون كوكبا
ظهر في السماء.. يسرون على هديه ليلا.. فإذا أشرقت
الشمس وغارت النجوم.. قبعوا في أماكنهم حتى يظهر
الكوكب في المساء.. فيستأنفون رحليهم على هده.

(١) الأخصص: ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض.

عليه السلام - سلموا أمه الهدايا.. وتبركوا به.. ثم عادوا من غير أن يمروا بالملك.. كما طلب منهم.
فأمر الملك بذبح جميع الأطفال الذكور الذين ولدوا في بيت لحم.

وباتت أمه ليلة ليلاء.. تتقاذفها أمواج الفكر.. وتتلقيها أعاصير الظنون.. فقد علمت أن هيرودس الظالم يطلب ابنها ليقطعه.. فضمت وليدها إلى صدرها الحنون.. وودت لو نبت لها جناحان فتحمله عليهما وتذهب به بعيدا.. بعيدا.. حيث لا يوجد إنسان تخشاه عليه.. أو ملك حاقد يريد التخلص منه حرصا على ملكه.

ماذا أصنع يارباه؟.. إن هيرودس ملك ظالم طاغ.. يصنع أى شيء في سبيل حرصه على أبهة الملك.. وعظمة الصولجان.. لا يخاف الله ولا يخشاه.. فقد أعماه الشيطان واستزله فهو له أسير.. وظلت في حيرتها طول ليلها.. لم يغمض لها جفن.. ولا يستقر بها قرار.. فكلما سمعت دبيب حشرة.. أو صفقة ريح.. حسبتها جنود الملك.. أتوا لياخذوه منها.. فيفزع قلبها.. ويضطرب جسمها.. وتشت خواطرها.. وتذهب بها الأفكار كل مذهب.. فتعصره بين أحضانها اعتصارا.. حتى بدأ ظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

وإذا بطرقة خفيفة على الباب.. خفق لها قلب مريم - عليها السلام - فأنصتت فسمعت صوت يوسف يتأدبها بصوت خافت.

وفتحت له الباب.. فبادرها قائلا: السلام عليك يا مريم.. هيا.. هيا.. فقد أمرني الله أن أرحل بك وبعيسى إلى مصر.. حتى يأذن لنا بالعودة إلى فلسطين.. هيا.. أسرعى قبل أن يتنفس الصبح فيرانا أحد يشى بنا عند الملك.

يقول القرطبي (١): وقع في تاريخ مصر فيما رأيت: الظاهر أن المسيح - لما ولد في بيت لحم - كان هيرودس في ذاك الوقت ملكا.. وأن الله - سبحانه - أوحى إلى يوسف النجار - في

الحلم - وقال له: خذ الصبي وأمه واذهب إلى مصر.. وكن هناك حتى أقول لك.. فإن هيرودس مزع أن يطلب عيسى ويهلكه.. فقام من نومه وامثل لأمر ربه وأخذ المسيح ومريم أمه.. واتجهوا إلى مصر - اهـ . وقبل أن يسير مع تلك القافلة المباركة.. القادمة من فلسطين قاصدة مصر.. التي قال الله تعالى عنها في هذا المشهد بالذات.

(وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين)(٢).

والربوة: هى المكان المنبسط المرتفع عن الأرض.. يستقر الساكن فيها.. لكثرة خيراتها.. وجريان مائها.

وإن كان الزمخشري صاحب تفسير الكشاف وغيره من رجال التفسير.. ذكروا من بين ما ذكروا آراء تقول: إن الربوة التي ذكرها الله تعالى.. وآوى إليها مريم وابنها هى أرض فلسطين.

وذكروا حديثا عن أبى هريرة قال: «الزموا هذه الرملة - رملة فلسطين - فإنها الربوة التي ذكرها الله»(٣).

ولكن الشيخ قرر في النهاية أنها مصر «ذات قرار ومعين» أي ذات ثمار وماء.. فمن أجل الثمار يستقر فيها ساكنها.. والمعين هو الماء الظاهر الجارى.

والمعروف أنهما أتيا مصر.. وعاشا فيها زمنا.. وآثراهما باقية بها إلى اليوم. وقبل أن نقوم بتلك الرحلة المباركة الميمونة.. مع تلك الأسرة الكريمة.. أردت أن ألقى نظرة سريعة على ما جاء في الإنجيل حول هذا الموقف.. فوجدته لا يختلف عما أوردناه في قليل ولا كثير.. حيث جاء في الإنجيل برنابا ما ملخصه:

أن هيرودس.. لما أمر بقتل كل طفل ولد في بيت لحم.. أمر الله يوسف النجار.. فى منامه.. بأن يذهب بالطفل وأمه إلى مصر.. لأن الملك أمر بقتل كل طفل ولد في بيت لحم.. وأخذ الطفل وأمه.. وذهب بهما إلى مصر.

ولنعد إلى رحلتنا.. حيث نلمح مريم - عليها السلام - تركب حمار يوسف النجار..

ومعها ابنها.. ويوسف يسير خلفهما.. واضعاً يده على عجز حمارة.. متجهين إلى الجنوب الغربى.. يقصدون مصر.

وهامهم يقطعون الفيافي والقفار.. ترفعهم لحجاد وتخفضهم وهاد.. يأكلون من أعشاب الجبال أحياناً إذا عز الغذاء.. ويشربون السراب إذا فقدوا الماء.. يفتشون الرمال ويلتحفون السماء.

وقد جعلت مريم - عليها السلام - من جسمها مهداً وغطاء لعيسى.. فكانت تنام وشق من جسمها يحمله.. وشقها الثانى يدثره.

ومرت أيام وهم يجدون فى السير: يرعاهم الله برعايته.. ويكلؤهم بعنايته حتى لاحت لهم مصر الجميلة.. بأرضها المنبسطة.. وخيراتها الوفرة.. ونيلها العذب الجارى.

ووصل الركب تحفه ملائكة الرحمن إلى بشر البلسان (١) بظاهر القاهرة.. فنزلوا عنده.. وصَلَّتْ مريم ويوسف شكراً لله على نجاتهم من هذا الملك الظالم.. وكان أول همها أن غسلت ثياب عيسى على ذلك البثر.

ويقول القرطبي: فالبلسان لا يثبت ولا يطلع إلا فى تلك الأرض.. ومنه يستخرج الدهن.. الذى يخالط الزيت.. الذى يعتمد به المسيحيون.. ولذلك كانت زجاجة واحدة من هذا البثر.. فى الأيام الخوالى.. لها قدر عظيم جداً فى نفوس ملوك النصارى.. مثل ملك القسطنطينية.. وملك صقلية.. وملك الحبشة.. وملك النوبة.. وملك الفرنجة وغيرهم.. لو أهديت لأحدهم تلك الزجاجة من ملك مصر.. فكأنما أهديت له الدنيا بما فيها.. فهى أحب إليهم من كل شيء يقدم لهم كهدية.. مهما كانت قيمته.

ومن المعروف أن القافلة المقدسة.. انجهدت جنوباً إلى مصر العليا - الصعيد - حيث وصلوا إلى مدينة - أشمونين - إحدى قرى مركز ملوى.. ثم إلى القوصية.. وفيها الدير المحرق.. ومن أجل هذا يعظمها المسيحيون وييجلونها ويزورونها دائماً.. فى عيد الفصح.. من جميع الأنحاء.. لأن هذا آخر مكان وصلت إليه مريم بابنها من أرض مصر.

ومن المعروف أيضاً أنهم استقروا زمناً فى بلدة - عين شمس - واستظلوا بشجرة هناك.. يسمونها شجرة العذراء.. بقى أصلها إلى أمد قريب.. ويهتم الناس بزيارتها بضاحية المطرية.

ومن المفروض أن نعرف الأماكن التى مرت بها مريم ومعها طفلها - عليه السلام - فى أرض مصر.. حتى وصلت إلى الصعيد الأعلى.

ولقد سكنت الأناجيل الأربعة الرسمية.. عن سير تلك الرحلة فى أرجاء مصر.. وعن المدة التى قضوها بها.. مما اضطرنى إلى التحوال.. بحثاً عن خط سيرها.. حتى هدانى الله إلى خريطة صادرة من كنيسة القديسين «أباكير ويوحنا» بمصر القديمة.. وبها الهدف الذى ننشده.. بها خط سير الرحلة من العريش حتى القوصية.. التى بها الدير المحرق.. آخر مكان بلغته الرحلة.. من أرض مصر.

ويظهر الخريطة موجز مكتوب عن خط سيرها.. وهى تفيد أنهم سلكوا فى طريقهم من فلسطين طرقاً غير مطروقة.. خوفاً من طغيان الملك هيرودس.. الذى كان جنوده الغلاظ يمعنون تقتيلاً فى أطفال بيت لحم «ويغوصون فى دمائهم البريئة الزكية.. أثر زيارة المجوس القادمين من الشرق للصبي.. متتبعين لجمه الذى ظهر فى السماء.. بينما الطفل المقصود بتلك المذبحة الوحشية.. قد أفلت منها».

وذكروا هنا ما ورد فى الأناجيل عن هذا الحدث.. ونصه:

«إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف فى حلم.. قائلاً: قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر.. وكن هناك حتى أقول لك.. لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ويهلكه.. فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً.. وانصرف إلى مصر.. وكان هناك إلى وفاة هيرودس».

وأنا لم أجد فى الأناجيل الأربعة غير تلك العبارة.. فيما يتعلق برحلة مريم وابنها إلى مصر.

ونعود إلى خريطة الرحلة وموجزها.

ف نجد أن العائلة المقدسة.. دخلت مصر.. من طريق غير الطرق المعروفة فى صحراء سيناء..

وإنما دخلت من العريش إلى قرية «فرمة» وكانت تسمى «بيلوزيوم» فى ذلك الوقت.. ومنها وصلوا إلى تل بسطة.. شمال بلبس.. ثم اتجهوا شمالا حتى وصلوا إلى الفرع الشرقى لنهر النيل - فرع دمياط.. قبالة مدينة سمند - من مدن محافظة الغربية - فعبروا النيل إليها.. ولم يكتسوا بها كثيرا.. بل استأنفوا الرحلة غربا.. إلى مدينة المحلة الكبرى.. ومنها اتجهوا شمالا.. حتى وصلوا إلى سخا.. من أعمال كفر الشيخ - حيث أقاموا بها فترة.

ويقول الموجز بظهر الخريطة: توجد فى تلك المنطقة - منطقة سخا - صخرة غريبة الشكل.. تسمى باللغة القبطية «كعب يسوع».

ثم اتجهت العائلة المقدسة غربا.. حتى عبروا النيل - الفرع الغربى - فرع رشيد - واستمروا فى سيرهم إلى الغرب.. حتى صاروا على مشارف وادى النطرون.. ثم اتجهوا فى خط مواز لهذا الوادى إلى الجنوب الشرقى.. حتى عادوا إلى النيل.. فى مكان القاهرة الآن.. وعبروا النيل إلى ناحية عين شمس - المطرية حاليا - واستظلوا بشجرة هناك.. لاتزال بقاياها قائمة حتى اليوم.. وتسمى «شجرة مريم».

ويقولون: إن ينبوعا من الماء تفجر فى هذا المكان.. حينما عطش - يسوع - وغسلت العذراء ملابسه فى هذا الماء.. ثم طرحت الماء جانبا فنبت فى هذا المكان نبات - البلسان - الذى لا يزال يستعمل زيتة فى المسوح الدينية.. كما فى طقوس التعميد.. وتكريس الكنائس والذبائح.. ولا يزال النبع قائما حتى الآن.. يترك الناس بمائه.

وهذا المكان هو المكان الذى حدثنا عنه القرطبي.. وقال عنه: إنه بظاهر القاهرة.

ونعود إلى خط الرحلة.. مع موجز الكنيسة المصرية.. فنجد نفس الخط الذى سرنا فيه من قبل بشىء من التفصيل.

وهو أنها بمنى شطر الجنوب حيث أقامت فى كهف أصبح الآن جزءا من كنيسة القديس

سرجيوس الشهير - بأبى سرجة - وتبين الخريطة أنهم عبروا النيل ثانية إلى الغرب.. وساروا بحذاء النيل غربا حتى وصلوا إلى بنى مزار.

وتقول بعض الكتب المسيحية (١):

إن شيخا صحبهم من هناك.. وحدثهم عن وجود ساحرة تسكن فى منطقة جبل الطير.. وهى منطقة مقابلة لمدينة - سمالوط - إلى الجنوب قليلا.. فى الشاطئ الشرقى للنيل.. وقال لهم الشيخ: إن هذه الساحرة تقوم بمعجزات خارقة.. فتعجبوا من حديثه.. وطلب الصبى الذهاب لرؤية تلك الساحرة.. فعبروا إلى الشرق فى مركب شراعى.. وبينما هم فى عرض البحر إذا بهم يجدون المرأة الساحرة تقترب منهم فوق الماء.. وتحتها قطعة من الحجر.. وما أن اقتربت منهم.. حتى تفتت الحجر تحت قدميها وغرقت.. وواصلت المركب سيرها إلى الشرق.. حيث أقاموا مدة.. عادوا بعدها إلى الغرب ثانيا.. مستأنفين السير إلى أشمونين.. ثم القوصية.. حيث يوجد الدبر المحرق.. كما ذكرنا من قبل.

وقد وجدت المسيحيين مختلفين فى مدة إقامتهم بمصر.. ولكن الموجز الذى نستعرضه الآن - معا - فى ظهر الخريطة يقول:

ولم يتفق المؤرخون على مقدار الزمن الذى قضته العائلة المقدسة فى مصر.. وقدر البعض أن إقامتهم امتدت إلى سبع سنوات. وتقول مصادر الكنيسة المصرية: إن إقامتهم فى مصر تجاوزت ثلاث سنوات ونصف.

كما يقول: ويوجد على كثب من - تل بسطا - قرب الزقازيق.. وهو ما أشرنا إليه أنه شمال بلبس - يقول على كثب من تل بسطا مكان يدعى - المحمة - أى موضع الاستحمام.. وقال: إن العذراء حمت الطفل يسوع وغسلت ثيابه فى عين ماء تفجرت من الأرض خصيصا لهذا الغرض - أه -

ولاشك أنها رحلة شاقة مضنية.. بالنسبة لتلك الفتاة العذراء.. التى تحمل وليدها الصغير.. هاربة من بطش الطغيان.



(١) كتاب هروب المسيح إلى مصر - طبعة ١٩٦٣ - الطبعة الثانية.

٧ معجزات المسيح فى مصر

ولكن قبل أن نطوف معهما فى أرجاء مصر..
وأنحاء فلسطين.. لنرى كيف كانت مريم - عليها
السلام - تسعى للحصول على قوتها وقوت ابنها.. أريد
قبل هذا كله أن أعرض حادثاً.. ذكره السدى قال:
كان عيسى - عليه السلام - إذا كان فى الكتاب ..
يحدث الصبيان بما يصنع آباؤهم.. وما تطبخ أمهاتهم..
ويقول للغلام: فى بيتكم من الطعام والفاكهة كذا
وكذا.. وأهلك أكلوه.. أو بقى منه شيء.. فينطلق
الصبى إلى أهله يبكى ويبكى.. حتى يعطوه من هذا
الشيء ثم يسألوه: من الذى قال لك هذا؟.. فيقول لهم
عيسى بن مريم هو الذى قال لى ذلك.. فحبس الناس
عنه أطفالهم.. ومنعوه من اللعب معه.. أو مصاحبته..
ويقولون لهم: إنه ساحر فاجتنبوه.
هذه الرواية نقلتها - وتكاد تكون بالنص - من
كتاب قصص الأنبياء للثعلبى النيسابورى .. رواية
عن السدى .. وهى إلى هذا الحد.

مررنا بأحداث رحلة العائلة المقدسة فى مصر..
مرور الكرام.. بسرد موجز.. وخطوات أقرب إلى
الجرى منها إلى السير العادى.
ولعل البحث يفضى إلى شيء يرد جوعة النهم إلى
العلم..

«ومنهم من لا يشبعان: طالب علم وطالب مال»..
وخاصة فى هذا المقام.. مقام عذراء اختارها الله - تعالى
- لتكون هى وابنها آية للعالمين.
(وجعلنا ابن مريم وأمه آية) (١) ومادامت آية.. كان
لزما علينا أن نتدبر حياتهما ونسبر قدر استطاعتنا أغوار
سيرتهما، فالله تعالى يقول:
(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته.. وليتذكر
أولو الألباب) (٢).

فحديثهما فى القرآن الكريم آية.. وهما فى نفسيهما
آية دالة على قدرة القادر الحكيم.

معقولة.. تتمشى مع النص القرآنى على لسان عيسى - عليه السلام -:

(وَأَنْبِئَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) (١).

ولكننا إذا أكملنا الرواية معا.. فى نفس الكتاب..

نجد الشيخ يقول عن السدى أيضا:

فجمع الأهلون أبناءهم فى بيت.. وجاء عيسى يسأل عنهم.. فقالوا له: ليسوا هنا.. فقال لهم: فما فى هذا البيت؟.. قالوا: خنازير.. فقال: كذلك يكونون.. ففتحوا عليهم بعد انصرافه.. فوجدوهم خنازير.. فانتشر ذلك فى الناس.. فهتت بنو إسرائيل بقتله فلما خافت عليه أمه.. حملته على حمارها.. وخرجت هاربة به إلى مصر.. اهـ (٢).

ولعل الفقرة الأخيرة من تلك الرواية ظاهرة البطلان.. تفوح منها رائحة الدس والإفك.

فأولا: ما ذنب الأولاد الصغار.. حتى يكون عيسى - عليه السلام - سببا فى تعذيبهم هذا العذاب الشديد.. بتحويلهم إلى خنازير؟.. وهل هناك عذاب أشد وأنكى من هذا العذاب؟.

وثانيا: علمنا أن مريم - عليها السلام - هربت بابنها وابن عمها من فلسطين.. بعد ميلاده - عليه السلام - بمدة يسيرة.. وهى المدة التى قضاهما المجوس الثلاثة سيرا من بلادهم يهتدون بالنجم الذى ظهر ليلة ميلاده.. حتى وصلوا إلى اورشليم.. وقدموا له الهدايا وهو وليد صغير.. وعلم هيرودس بهذا الخبر.. فعزم على قتله.. فهربوا به.. وهذا ما أجمعت عليه كل المراجع الإسلامية والمسيحية.

وتلك المدة مهما طال فلن تزيد على ستين.. وليس من المعقول أو المنقول أن عيسى فى تلك السن الصغيرة جدا يذهب إلى الكتاب.. ويحدث الغلمان بما كان يحدثهم به.. ويكون هذا الحادث سببا فى فرار أمه به إلى مصر.

ولما كان إخباره الغلمان بما يأكلون فى بيوتهم.. ويدخرون لغدهم.. فى أثناء إقامته مع أمه بمصر.. بعد أن صار غلاما بعد الرابعة أو الخامسة من عمره مثلا.. وكان يدرس العلم فى الكتاب.. ثم استمرت معه تلك المعجزة بعد عودته إلى فلسطين.. فقد كان يخاطب بها اليهود.. وهو يؤدى معهم رسالته بقوله لهم:

(وَأَنْبِئَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ).

وقد قرأت عن وهب بن منبه قال:

كان أول آية رآها الناس من عيسى - عليه السلام - أن أمه كانت نازلة فى دار دهقان (٣) بأرض مصر.. أنزلها به يوسف النجار بعد مجيئهم إلى الديار المصرية.. وبقيت بها مدة من الزمن.. وكان الدهقان رجلا صالحا كريما.. يأوى إلى بيته الفقراء والمساكين..

وفى إحدى الليالى: سرق مال من خزانة أحدا من المساكين المقيمين ببيته فى تلك الليلة.

وحزنت مريم - عليها السلام - من أجل الرجل.. ولكن مروءته أبت عليه أن يتهم هذا الرجل.. الذى يؤويهم فى بيته ويكرمهم.. ورأى عيسى - عليه السلام - أمه حزينة.

فعر ذلك عليه وقال لها: ماذا يحزنك يا أماه؟.. قالت: أحزننى يابنى ضياع مال هذا الرجل التقى الصالح.. الذى أكرمنا وآوانا.. وشمسكه بعدم جرح شعور ضيوفه المساكين باتهام أحدهم. فقال لها: هل تجبن أن أدله على ماله المفقود؟ قالت: نعم يابنى إن كان عندك علم به فدله عليه.

فقال لها: اطلبى من الرجل أن يجمع كل المساكين الذين كانوا بالدار فى تلك الليلة.

فجمعهم الرجل.. ونظر عيسى فيهم فوجد بينهم رجلا أعمى وآخر مقعدا.. فحمل المقعد على عاتق الأعمى وطلب منه أن يقف بالمقعد على عاتقه.

(٢) أبو إسحاق الثعلبى النيسابورى

(١) ٤٩ / آل عمران.

(٣) الدهقان: صانع الطعام الجيد.

فاشتكى الأعمى وقال: لا قدرة لى على القيام به.. فأنا أضعف عن ذلك.. فقال له عيسى: وكيف قويت على ذلك البارحة؟

فأنكر الأعمى فى أول الأمر.. ولكنهم ضربوه حتى قام والرجل المقعد على عاتقه.. فلما استقل قائما.. وجدوا خزانة الدهقان بجانب المقعد وهو على عاتق الأعمى.. ثم اتجه عيسى إلى الدهقان.. وقال له: هكذا احتالا على مالك بالأمس حتى أخذاه.. استعان الأعمى بقوته.. واستعان المقعد بعينيه ويديه.

وهنا قال الأعمى: لقد صدق والله.. ورد المال إلى صاحبه.

فقال الدهقان لمريم - عليها السلام - خذى نصف هذا المال حلالا لك.. هدية منى إليك.. فقالت: لم أخلق لذلك.. فقال لها: أعطيته لابنك هذا.. قالت: هو أعظم منى شأنا.

وظلت مريم - عليها السلام - بمصر سبع سنين أو نصف هذه المدة - حسب اختلاف الروايات - تسمى لكسب قوتها وقوت ابنها.. فكانت تغزل الكتان.. وتلتقط السنبل فى أثر الحصادين والحمالين.. وكانت تلتقطه والمهد (١) فى منكبها.. والجراب الذى تضع فيه السنبل فى منكبها الآخر.

حياة كلها صراع وكفاح.. عرض عليها المال من الدهقان.. فرفضته فى إباء وشمم

.. وآثرت أن تأكل هى وابنها من كسب يدها.. حتى بلغ عيسى - عليه السلام - سنا تسمح له بالحركة والانتقال وتبادل الأحاديث.. ترعاه وتصونه وتحيطه بسياج من حنانها وعطفها.. وتنشئه نشأة صالحة على التقوى والبر والخير والمعروف.

ويجدر بنا الآن أن نرسم فى أذهاننا صورة لعيسى - عليه السلام - مما رأيته من صفته الجسمية.. فى كثير من المراجع التاريخية.

فقد كان أحمر مائلا إلى البياض.. ليس بسبط الرأس.. لم يدهن رأسه قط.. وكان يمشى حافيا.. ولم يتخذ له بيتا ولا حلية ولا متاعا ولا ثيابا ولا رزقا إلا قوت يومه.. وكان حيثما غابت الشمس صف قدميه وصلى حتى يصبح.. كان أشعث الرأس.. صغير الوجه.. زاهدا فى الدنيا.. راغبا فى الآخرة.. حريصا على عبادة الله.. وكان سياحا فى الأرض.. يحرص اليهود على قتله.

وله معجزات خوارق.. ذكرها القرآن الكريم.. يرى الأكمه والأبرص.. ويحيى الموتى.. ويخبر قومه بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم لغيرهم.. ويصنع من الطين طيرا ثم ينفخ فيه فتدب فيه الحياة ويطير.. وسرى فى حياته الكثير من المعجزات.. عندما نصحه فى العودة إلى فلسطين.. إن شاء الله تعالى.



(١) المهد: فراش الطفل.

٨ اليهود فى زمن المسيح

نحن الآن فى حاجة إلى جولة سريعة بين الأناجيل
لنتمكن من متابعة تلك الرحلة مع عيسى — عليه السلام
— فليس من شك فى أن الأناجيل هى المرجع لنا فى
تاريخ تلك الأسرة المقدسة.. بعد القرآن الكريم
والأحاديث النبوية الشريفة.

وقد وقف بنا القرآن والسنة عند حد الأسس
ورءوس العناصر.. لاستخلاص العظات والعبر.. دون
التعرض للتفاصيل.. كما هى عادة القرآن الكريم —
دائما — فى عرضه للقصص القرآنى.

وقد حاول تلك المحاولة قبلنا الكثير.. ومنهم الأستاذ
عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء.. فجال
بقرائه كثيرا بين الأناجيل.. وخاصة إنجيل برنابا.. الذى
لا تعترف بصحته الكنيسة الآن.

كما أن فضيلته حرص على أن يعرض على القارئ
النقاط التى تناقضت فيها الأناجيل واختلفت فى سردها..
وهى من الكثرة بحيث تبعث الملل والسأم فى نفس القارئ
فقد اضطر اضطرارا إلى عرضها بالنص.. حتى يمكن

الوقوف على نقاط التعارض والتناقض والاختلاف.
ومن أجل هذا سأسلك إن شاء الله تعالى طريقا
آخر.. بعرض الأحداث التى اتفقت فيها الأناجيل
الأربعة حول حياة عيسى — عليه السلام — الأناجيل
المعترف بها من الكنيسة ويسمونها الأناجيل الرسمية..
وهى:

إنجيل متى.. وإنجيل مرقس.. وإنجيل لوقا.. وإنجيل
يوحنا.

بجانب ما يعرض لنا من أسفار العهد القديم
«التوراة» بطريقة مبسطة.. تؤدى الغرض المنشود.. فى
تتبع سيرة مريم وعيسى — عليهما السلام.

ونحن لو استعرضنا حياتهما لوجدناها سلسلة
متصلة الحلقات من الجهاد المضنى.. والصراع المهلك..
والكفاح المرير.. والمواقف الحساسة.. والنقاط الحرجة.

فها نحن أولاء نرى مريم — عليها السلام ..
من بواكير حياتها.. قد انقطعت للعبادة فى بيت
الله — سبحانه — وفى محراب خاص بها.. تسجد
وتركع.. وتدعو وتتضرع.. ليكشف الله عن

بنى إسرائيل ما حاق بهم من الإثم.. وما أحاطهم من غضب الرب.. بسبب إصرارهم عن الدين.. وبغدهم عن شريعة موسى وإبراهيم.. وانشغالهم بالدنيا وأعراضها.. وتهافتهم على مفاتها ومطامعها.. حتى جعلوا بيت الله سوقا لتجارهم وعروضهم.. وامتدوا لناقشتهم وحساباتهم وعشورهم^(١).

شف قلبها .. وصفا فؤداها.. فاجتازت حجب الغيب.. فيما تقرأه من التوراة.. فهي ترددها غدوا وعشيا.. وتتلوها ليلا ونهارا.. سرا وجهارا.. فتحس أن السماء تتحرك لتبعث رسولا إلى بنى إسرائيل يكبح جماحهم.. ويرد شرودهم.. ويعيدهم إلى طريق الحق.. بعد أن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وصارت كاللحجارة أو أشد قسوة.. فقد استزلهم الشيطان.. ونأى بهم عن سبيل الرحمن.. فانقسموا إلى فرق شتى:

فكان منهم فريق الفريسيين: والأصل في هؤلاء أنهم المتفرغون لعبادة الرب.. والزهد في الدنيا.. والبعد عن مفاتها وزخارفها.. ولكنهم في هذا الحين.. كان ظاهريهم غير باطنهم.. يظهرون العبادة والطاعة.. ويضمرون الفسق والفجور.. يتخذون من مظهرهم شراكا يخدعون بها الناس.. فيمتصون دماءهم.. ويأكلون أموالهم بالباطل.. فهم أشبه ما يكون بجهلة الصوفية عندنا الآن.

وكان فيهم أيضا فريق الكتبة: الذين يكتبون التوراة.. والأصل فيهم أنهم أهل الوعظ.. وكتاب الشريعة لمن يطلبها.. فكانوا كسابقينهم في اغتصاب الجهلة أموالهم.. وهؤلاء أشبه ما يكون بكتبة التماثيل والدجالين والمشعوذين.

وكان منهم أيضا فريق الكهنة: وخدمة الهيكل.. الذين جعلوا من أنفسهم آلهة تعبد من دون الله.. وادعوا أن بيدهم الأمر كله.. فحرفوا كلام التوراة عن مواضعه.. وتهالكوا على حطام الدنيا الفانى.. فأكلوا الندور.. ونهبوا العشور.

وكان هناك فريق رابع.. هم فريق الصدوقيين: أنكروا البعث.. وقالوا: لا توجد حياة غير تلك الحياة.. فمن أحسن في الدنيا أعطاه الله الخير فيها.. ومن أساء عاقبه وعذبه

فيها أيضا .. فلا قيامة ولا نشور.. ولا حساب ولا عقاب بعد الموت والفناء.

وجدت مريم — عليها السلام — نفسها في هذا الجو البغيض.. ظلمات بعضها فوق بعض.. فابتهمت إلى الله — تعالى — وتضرعت إليه في قرارة نفسها.. أن يكشف عن قومها هذه الغمة.. ويتشلهم من وهدة الضلال وحمة الرذيلة.. بإرسال من يأخذ بيدهم إلى طريقه المستقيم وسيله القويم.

وكانت تلك إرماصات وتنبؤات صادقى الكهنة والأخبار وأولى العلم منهم في هذا الحين.
واستجابت السماء لمريم.. وكانت هى محط المحنة فى حملها بهذا الرسول المنتظر.

ويالها من محنة قاسية.. عرضتها للقليل والقال.. وجعلتها عرضة لسلطة ألسنتهم.. ولاذع سخريتهم.. وعظيم اتهامهم.. لولا دفاع وليدها عنها.. وتعرضه لهم بتلك الآية التى تسكت كل لسان.. وتقطع حجة كل ذى بيان.

ومع هذا لم ينته حديثهم عنها.. ولم ينقطع تعريضهم بها.. فكانت لا تشكو بثها إلا إلى الله.. حتى تناقلت إليها الأنبياء والأخبار.. بأن الملك هيرودس يطلب ابنها ليقتله.. ابنها الحبيب الذى لو وزع ما في قلبها من الحب له على الدنيا لوسعها.. فتضطرب كما تضطرب القشة فى محيط تلاطمت أمواجه.. وزمجرت عواصفه وأنواؤه.

حيث أتاها يوسف ابن عمها بأمر من السماء.. ليهاجروا إلى مصر.. فتقطع بابنها الفيافى والقفار.. حتى تصل به إلى مكان الأمن والاستقرار والسلام وهدوء البال فى مصر..

مرت كل تلك الخواطر ببالها وهى فى مصر.. تنظر فى نشوة وجذل وسرور إلى ابنها.. وقد صار فتى يجري ويلعب ويذهب إلى الكتاب فيعب العلوم عبا.. وبدأت عليه مخائل الذكاء والفتنة والجد.. نحس بأنه محوط برعاية الله.. تكلؤه عنايته فيزداد قلبها حبا له.. وشغفا به.. وجدنا عليه.

وفيما هى هائمة مع خواطرها.. سابحة فى أحلامها.. قريرة العين بما هى فيه الآن

(١) كان الكهنة يأخذون من الناس عشر أموالهم.

.. من أمن وسلام واطمئنان .. وإذا بيوسف يبلغها أمر
السماء بالعودة إلى فلسطين.. فقد مات هيرودس الملك
الذى كانت تخشاه على ولدها.. وكأنها لفحة من القدر..
ردتها إلى الحقيقة التى خلقت هى وابنها من أجلها..
فهما لم يخلقا للأمن والسلام.. وإنما خلقا لأمر خطير..
وشأن عظيم.. وجهاد مرير.
تقول الأناجيل .. ومن بينها إنجيل متى .. فى
الإصحاح الثانى :
١٩ - ولما مات هيرودس.. ظهر ملاك الرب فى
حلم ليوسف فى مصر.
٢٠ - قائلا: قم وخذ الصبي وأمه.. واذهب إلى
أرض إسرائيل.. لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس
الصبي.

٢١ - فقام وأخذ الصبي وأمه.. وجاء إلى أرض
إسرائيل.
٢٢ - ولكن لما سمع أن أرخيلوس يملك على
اليهود عوضا عن هيرودس أبيه.. خاف أن يذهب إلى
هناك.. وإذ أوحى إليه فى الحلم.. انصرف إلى نواحي
الجليل.
٢٣ - وأتى وسكن فى مدينة يقال لها ناصرة.. لكى
يتم ما قيل بالأنبياء أنه سيدعى ناصريا - اهـ -
وهكذا تركت مريم الأمن والهدوء والسلام.. لتعود
بابنها إلى قرية الناصرة .. حيث يبدأ عيسى - عليه
السلام - حياة جديدة.. كلها جهاد وكفاح وآلام.. من
بواكير صباه.



٩ صوت الحق

لما بلغ عيسى - عليه السلام - الثانية عشرة من عمره.. خرجت به أمه ويوسف التجار إلى اورشليم - القدس - في عيد من أعيادهم .. ليسجلوا للرب هناك.. حسب شريعة موسى.

وبعد انقضاء أيام العيد.. عزموا على العودة إلى قريتهم الناصرة .. بحثت مريم عن عيسى.. فلم تجده.. لم تترك مكانا في اورشليم.. إلا وبحثت عنه فيه مع يوسف.. فظنا أنه رحل مع أقرانه وسبقهم إلى الناصرة.. ولما وصلا.. سألا عنه فلم يجدها.. ولم تستطع مريم - عليها السلام - صبرا.. فعادت مع يوسف للبحث عنه.. وبعد مجهود .. وجداه جالسا في الهيكل وسط العلماء والكهان والأحبار.. يناقشهم ويحاجهم.. ويسأل ويجيب .. والكل في عجب من علمه الغزير.. الضارب في أعماق التوراة وأسرارها وعظاتها.

وتقلعت إليه أمه.. لائمة مؤنبة على تخلفه عنهم.

ففى إنجيل لوقا في الإصحاح الثانى.. ما نصه:

٤١- وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى اورشليم .. فى عيد الفصح.

٤٢- ولما كانت له اثنتا عشرة سنة.. صعدوا إلى اورشليم - كعادة العيد.

٤٣- ولما أكملوا الأيام.. بقى عند رجوعهما - الصبى يسوع - فى اورشليم.. ويوسف وأمه لم يعلما.

٤٤- وظناه بين الرفقة.. فذهبا مسيرة يوم.. وكانا يطلبانه بين الأقارب والمعارف.

٤٥- ولما لم يجدها.. رجعا إلى اورشليم يطلبانه.

٤٦- وبعد ثلاثة أيام وجداه فى الهيكل فى وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم.

٤٧- وكل الذين سمعوه.. بهتوا من فهمه وأجوبته.

٤٨- فلما أبصره اندهشا.. وقالت له أمه: يابنى..

لماذا فعلت بنا هكذا؟.. هو ذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذرين.

٤٩- فقال لهما: لماذا كنتما تطلباني؟.. ألم تعلما أنه

ينبغى أن أكون فيما لأبى؟

٥٠- فلم يفهما الكلام الذى قال لهما.

٥١- ثم نزل معهما.. وجاء إلى الناصرة وكان خاضعا لهما.. وكانت أمه تحفظ جميع هذه الأمور فى قلبها.

٥٢- وأما يسوع فكان يتقدم فى الحكمة.. والقامة.. والنعمة عند الله والناس - أ ه -

أقامت مريم ويوسف فى قرية الناصرة.. وهى على بعد خمسين ميلا تقريبا من بيت المقدس.. يشتغل يوسف بمهنته.. مهنة التجارة.. وتفرغت هى لعبادة ربها.. وملاحظة ابنها.. وقد صنع الإيمان هالة من النور حول وجهها المشرق الحنون.

أما عيسى - عليه السلام - فلم تذكر الأناجيل شيئا عن حياته فى المدة: بين اثنتى عشرة سنة من عمره.. إلى أن بلغ تسعا وعشرين وهو السن الذى ذهب فيه ليعتمد من يوحنا المعمدان - يحيى بن زكريا - عليهم جميعا السلام.

وقرر الباحثون الأوربيون.. أنه ذهب فى تلك المدة إلى الهند.. وتلقى علوم البوذية وآدابها فى الحث على تكميل النفس وتهذيبها.. غير أنه بالمقارنة بين تعاليم المسيح وتعاليم بوذا.. نجد أن بوذا كان سلبيا.. بمعنى أنه يبحث على تجريد النفس من الشرور فقط.. وأما تعاليم السيد المسيح فكانت إيجابية.. بمعنى حث النفس على العطاء والبذل وفعل الخير.. للأعداء والأحباب.. وفرق كبير بين الحالتين.

وكل ما يهمنى من أمر عيسى - عليه السلام - أنه نشأ غيورا على الدين.. حريصا على تفهم التوراة.. واستكناه أسرارها.. شجاعا فى الحق.. لا يخشى فيه لومة لائم.. يناقش العلماء.. ويسألهم ويجيبهم على أسئلتهم فى قوة وصدق وإقناع.. ثمس من صباه فى بيئة كلها حكمة وعلم ودين.

كان قويا فى ضرب الأمثال التى تنطق بالحكمة.. وتتفجر بالعلم والموعظة.. وعلى قدر قوة الداعى إلى الله فى ضرب المثل.. تكون شدة تأثيره فى قلوب سامعيه.

ولأضرب لك مثلا واحدا من أمثاله:
«فشبه ملكوت السماوات بإنسان زرع فى

حقله قمحا.. من أجود أنواع القمح.. وجاء عدو لصاحب الحقل وبذر فيه بذور الزوان - والزوان حب يخالط القمح - فلما نبت القمح نبت معه الزوان.. وجاء العمال فأخبروا صاحب الحقل بوجود نبات الزوان مع القمح.. فقال: لا بد أن عدوا لنا فعل هذا.. فسألوه أن يذهبوا لقطع الزوان قبل نموه.. فقال لهم: لا تفعلوا حتى لا تقطعوا القمح معه.. دعوهما ينموان معا.. حتى إذا جاء الحصاد.. طلبنا من الحصادين أن يجمعوا الزوان أولا..

ويجعلوه حزما فتنحرقها.. ثم نأخذ القمح ونضعه فى المخازن.

ثم فسر هذا المثل بقوله:

زارع القمح: هو الله.. والحقل: هو العالم.. والزرع الجيد: هو بنو الملكوت.. يقصد المؤمنين - والزوان: هم بنو البشعر - يقصد الكافرين - وزارع الزوان: هو إبليس.. والحصاد: هو انقضاء هذا العالم.. والحصادون: هم الملائكة.

فكما يجمع الزوان ويحرق فى النار.. هكذا يكون فى انقضاء العالم.. يرسل الله ملائكته.. فيجمعون من ملكوته جميع المفسدين.. ويطرحهم فى النار.. بينما يضى الأبرار.. كالشمس فى ملكوت الله (١).

ولنصحب عيسى - عليه السلام - فى صراعه مع زعماء قومه بنى إسرائيل.. ودعوته لهم للعودة إلى الحق.. العودة إلى مفاهيم التوراة التى يؤمنون بها.. ويدنون بدينها.. ولكنهم حرفوها وفسروها بما يخدم أغراضهم.. ويمكنهم من أكل أموال الناس بالباطل.

فالتف حوله الناس.. ولتحضر معه عرس قانا.. ولهذا العرس قصة ذكرت فى جميع الأناجيل.. لتتخذ منها عبرة تلزمنا فيما بعد.. فقد قلب فيها الماء خمر.. قدمه أهل العرس إلى الضيوف.. وأعجبوا بجودته.. ولترك يوحنا يقص علينا وقائع تلك الوليمة فى إنجيله.. فى الإصحاح الثانى.. قال:

١- وفى اليوم الثالث.. كان عرس قانا - الجليل.. وكان أم يسوع هناك.

(١) هذا المثل بتعديل فى إنجيل متى: إصحاح ١٣ فقرات ٢٤ - ٤٣.

١٣- وكان فصيح اليهود قريبا.. فصعد يسوع إلى
أورشليم.

١٤- ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقرا
وغنما وحماما. والصيارف جلوسا.

١٥- فصنع سوطا من حبال.. وطرده الجميع من
الهيكل - الغنم والبقر.. وكبّ دراهم الصيارف وقلب
موائدهم.

١٦- وقال لباعة الحمام: ارفعوا هذه من هنا..
لا تجعلوا بيت أبى بيت تجارة.

١٧- فتذكر تلاميذه أنه مكتوب: غيرة بيتك تأكلنى.

وفى آية/ ٢٣ - قال: ولما كان فى أورشليم.. فى عيد
الفصح أمه كثيرون باسمه.. إذا رأوا الآيات التى صنع.

٢٤- ولكن يسوع لم ياتمنهم على نفسه.. لأنه كان
يعرف الجميع.. أ هـ.

وقالت **الأنجيل**: أنه فى هذا اليوم.. صنع كثيرا من
الآيات والمعجزات التى أيدها القرآن الكريم.. من إبراء
الأكمة والأبرص.. وإحياء الموتى.. وإخبارهم بما هو
مخبوء فى بيوتهم.. يقول الله تعالى عنه فى سورة آل
عمران:

«ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا
إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق
لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن
الله وأبرئ الأكمة والأبرص وأحي الموتى بإذن الله
وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك
لآية لكم إن كنتم مؤمنين» (١).

كل هذا واليهود يتهمونه فيها بالسحر.. ويسخرون
منه.. فيقولون؟

أليس هذا من نعرف أباه وأمه؟ .. أليس هو ابن
يوسف النجار؟ فمن أين له تلك الآيات؟.

لقد رأيناه - عليه السلام - يهاجمهم فى المسجد..
فى يوم عيد الفصح.. حيث صنع لهم سوطا من حبال
اللوف.. وطرده ما فيه من بقر وغنم.. وطرح موائد
الصيارف. فبعثر أموالهم.. وهزأ بهم فى قوة لا تتوافر إلا
إذا كانت مؤيدة بجنود لم يروها.. ولا قبل لهم بها.

٢- ودعى أيضا يسوع وتلاميذه إلى العرس.

٣- ولما فرغت الخمر.. قالت أم يسوع له: ليس لهم
خمر.

٤- قال لها يسوع.. مالى ولك يا امرأة.. لم تأت
ساعتي بعد.

٥- قالت أمه للخدم: مهما قال لكم فافعلوه.

٦- وكانت ستة أجران من حجارة.. موضوعة
هناك.. حسب تطهير اليهود.. يسع كل واحد مطرين أو
ثلاثة.

٧- قال لهم يسوع: املاوا الأجران ماء.. فملاوها
إلى فوق.

٨- ثم قال لهم: اسقوا الآن.. وقدموا إلى رئيس
المتكأ.. فقدموا.

٩- فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرا.. ولم
يكن يعلم من أين هو.. ولكن الخدام الذين كانوا قد
استقوا الماء علموا.. دعا رئيس المتكأ العريس.

١٠- وقال له: كل إنسان إنما يضع الخمر الجيد أولا..
ومتى سكروا فحينئذ الدون.. أما أنت فقد أبقيت الخمر
الجيدة إلى الآن.

١١- هذه بداية الآيات.. فعلها يسوع فى قناتا
الجليل.. وأظهر مجده.. فأمن به تلاميذه.

١٢- وبعد هذا انحدر إلى كفر ناحوم هو
وأمه وأخوته وتلاميذه وأقاموا هناك أياما ليست
كثيرة - أ هـ -

ثم صعد عيسى - عليه السلام - من كفر ناحوم إلى
بيت المقدس.. ليبدأ صوت الحق يدوى فى الأفاق..
حيث كان ذلك فى يوم عيد الفصح فهاجم زعماء
اليهود فى قوة زلزلت أركانهم.. وأذلت شموخهم..
وأطفأت تلك الهالة الكهنوتية التى أحاطوا بها أنفسهم..
واستغلوا بها الدهماء والبسطاء.

ولنسمع هذا من يوحنا.. فى الإصحاح الثانى نفسه:

يلازمه قلب أمه البتول.. تدعو معه إلى دين الحق.. وإلى سواء السبيل.. فتعقد الندوات للنساء.. فى أى مكان يحل به.. فيأتيه المذنبون والخاطئون.. والمذنبات والمخطئات.. نادمين على ما فرط منهم فى جنب الله.. يسكبون دموع التوبة بين يديه.. خاشعين ضارعين.. فيمد لهم عيسى — عليه السلام — يده.. فيبرئ أسقامهم ويداوى عللهم.. جسمية كانت أم روحية.. فتبعه خلق كثير من الرجال والنساء.. يسرون معه أينما سار.. ويتبعون خطاه حيثما اتجه.

لقد أخطأ فى حقه اليهود والنصارى معا.. اتهمه اليهود بالسحر.. وأنه ابن زنى.. ففرطوا وقصروا.. ورفعوا النصارى إلى درجة الإلهية.. فأفرطوا وغلوا.. وإنما هو عبدالله ورسوله.

كم حاول اليهود أن يلفقوا له التهم.. وأن يستدرجوه فى القول.. ليمسكوا عليه حجة تمكنهم من محاكمته كزندق.. خارج على مبادئ الدين.. وقانون التوراة. فمثلاً.. كان بين النساء اللاتى لازمن عيسى عليه السلام — هو وأمه.. ملازمة دائمة: امرأتان جرى ذكرهما فى الأناجيل.. أولاهما امرأة خاطئة.. ضبطوها متلبسة بجريمة الزنى.. فأحضروها إلى عيسى ليستدرجوه.

وسأترك يوحنا يقص علينا قصة هذه المرأة.. لترى فيها الحقد والغل.. اللذين باضوا وأفرخوا فى قلوب الكتبة والفريسيين.. حيال عيسى.. عندما رأوه وقد التف حوله الشعب.. وتبعته الجماهير.. وكان فى هذا الحين يعلم جموع الشعب فى الهيكل نهاراً.. فإذا جاء الليل أوى إلى الجبال.

يقول يوحنا فى الإصحاح الثامن من حادث المرأة:

- ١- أما يسوع فمضى إلى جبل الزيتون.
- ٢- ثم حضر أيضاً إلى الهيكل فى الصباح.. وجاء إليه جميع الشعب.. فجلس يعلمهم.
- ٣- وقدم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أمسكت فى زنى.. ولما أقاموها فى الوسط.

٤- قالوا له: يامعلم.. هذه المرأة أمسكت وهى تزنى.. فى ذات الفعل.

٥- وموسى فى الناموس أوصانا أن مثل هذه ترحم.. فماذا تقول أنت؟

٦- قالوا هذا ليحربوه.. لكى يكون لهم ما يشتكون به عليه.. وأما يسوع.. فأنحنى إلى أسفل.. وكان يكتب بأصبعه على الأرض.

٧- ولما استمروا يسألونه.. انتصب وقال لهم: من كان منكم بلاخطيئة.. فليرمها أولاً بحجر.

٨- ثم انحنى أيضاً إلى أسفل.. وكان يكتب على الأرض.

٩- وأمامهم.. فلما سمعوا كانت ضمائرهم تبكتهم.. خرجوا واحداً فواحداً.. مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين.. وبقي يسوع وحده والمرأة واقفة فى الوسط.

١٠- فلما انتصب يسوع.. ولم ينظر أحداً سوى المرأة.. قال لها: يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليك؟.. أما دانك أحد منهم؟.

١١- قالت: لا أحد يا سيد.. فقال لها يسوع: وأنا لا أدينك.. اذهبي.. ولا تخطئى أبداً — أ هـ.

وسارت تلك المرأة خلفه تائبة خاشعة نادمة.. ولازمت أمه فى هذا الحين.. وكانت غنية ذات مال كثير.. فهى يونا زوجة خوزى وكيل هيرودس الملك. وأما المرأة الثانية فهى مريم المجدلية.. ذكرها لوقا (١) فى الإصحاح الثامن:

- ١- وعلى أثر ذلك كان يسير فى مدينة وقربة.. يكرز ويبشر بملكوت الله.. ومعه الاثنا عشر.
- ٢- وبعض النساء قد شفين من أرواح شريرة وأمراض.. مريم التى تدعى — المجدلية — التى خرج منها سبعة شياطين.
- ٣- ويونا امرأة خوزى وكيل هيرودس.. وسوسنة.. وآخر كثيرات كن يخدمنه من أموالهن. — أ هـ.

ونحن نستبعد حكاية السبعة الشياطين .. التى خرجت من جسم مريم المجدلية .. وأرجح رواية أخرى قرأتها عنها فى الإنجيل آخر تفيد أنها كانت مريضة بنزيف مزمّن .. عجز الطب عن علاجها .. وشفيت منه عندما مست عيسى - عليه السلام - فأمنت به واتبعته ولازمت أمه بمالها .. وكان لها مال كثير .

كما ذكرت بعض الأناجيل أيضا أن مريم المجدلية هذه كانت ممن يحترفن الدعارة - فى زمن المسيح - وكانت جميلة .. كثر عشاقها .. واقتنت من وراء ذلك أموالا كثيرة .. ثم تابت على يد عيسى - عليه السلام - وآمنت به واتبعته .

ولهذا نترك أمرها إلى علم العليم .. ولا يهمنا إلا أن نعرف أنها أخلصت لعيسى - عليه السلام - وكانت تلازمه مع أمه ملازمة الظل .. تحضر دروسه وعظاته .. وكانت عوناً له على التبشير بدعوته بين النساء .. وكانت مثل الحوارين .

وحضرت مع السيدة مريم عملية الصلب .. وكانت رمزا للمرأة الناثبة الوفية المخلصة .

وبقيت مع مريم البتول - عليها السلام - بعد رفع عيسى .. تمجّاهد فى سبيل الدعوة إلى الله .. وتاب على يديها كثيرون .



قوة الدعوة.. وفطنة الداعى..

١٠

بضاعته هو .. ويجزل لنا الثمن .. وهل هناك ثمن
أغلى من الجنة؟.

قال الحواريون لميسى - عليه السلام - يا يسوع
مالك لا تقدم للناس إلا الخير.. فلا يقدمون لك إلا
الشر!.. فقال قولته المشهورة: «إنائى كله خير وأنيتهم
كلها شر.. وكل إناء بالذى فيه ينضح».

فكم قدم الخير لبنى إسرائيل.. يشفى مريضهم..
ويعالج سقيمهم.. ويداوى جريحهم كل هذا
وزعماؤهم يتربصون به الدوائر.. ويكونون له الشر..
ولكن عيسى - كلمة الله - كان من الذكاء والفتنة
بحيث لم يمكنهم مما يرغبون.. كم حاولوا استدراجه
ليكيدوا بينه وبين الملك.. ولكنه كان لبقاً في الرد
عليهم.. فلم يمكنهم من الوصول إلى أهدافهم.

وهذا لوقا يقدم لنا مثلاً صغيراً من تلك المواقف التى
تعرض لها عيسى.. فيقول فى الإصحاح العشرين من
إنجيله:

١- وفى أحد تلك الأيام.. إذ كان يُعلم الشعب فى
الهيكل.. ويبشرون.. وقف رؤساء الكهنة والكتبة مع
الشيوخ.

أصحاب الدعوات دائماً (كشجرة طيبة أصلها ثابت
وفرعها فى السماء)(١).. كلما هبت عليها الأعاصير..
وأحاطت بها العواصف.. مالت على أصولها الضاربة
فى أعماق الأعماق.. حتى يمر الإعصار وتتلاشى
العاصفة.. ثم تقوم على سوقها شامخة سامقة.. تتحدى
الزمن وتصارع عوامل الفناء.. وتزهو على الطبيعة
بأغصانها وأزهارها وثمارها.

وهكذا حال الأنبياء والشهداء والأولياء.. تهب
عليهم أعاصير الزمن.. وتحيط بهم عوامل الفتنة والشر
والطاغوت.. فلا يزيدهم ذلك إلا رسوخاً وإيماناً..
ويقينا وإحساناً.. اشترى الله تعالى نفوسهم وأموالهم..
فاستبشروا بما باعوا.. واطمأنت قلوبهم إلى الثمن الذى
به باعوا: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم
بأن لهم الجنة)(٢).

إنه والله لشراء عجيب.. وبيع غريب.. رأيت هذا
الكرم الخارج عن نطاق الإدراك!!

الله سبحانه يشتري منا أنفسنا وأموالنا ..
مع أن الأنفس من صنع يده .. والأموال من
فيض عطائه .. إنه تعالى يشتري منا

٢- وكلموه قائلين: قل لنا.. بأى سلطان تفعل هذا..
ومن هو الذى أعطاك هذا السلطان؟

٣- فأجاب وقال لهم: وأنا أيضا أسألكم كلمة واحدة فقولوا لى.

٤- معمودية يوحنا.. من السماء كانت.. أم من الناس؟

٥- فتأملوا فيما بينهم.. قائلين: إن قلنا من السماء يقول فلماذا لم تؤمنوا؟

٦- وإن قلنا من الناس.. فجميع الشعب يرموننا.. لأنهم واثقون بأن يوحنا نبي.

٧- فأجابوا.. إنهم لا يعلمون من أين..
٨- فقال لهم يسوع: ولا أنا أقول لكم بأى سلطان أفعل هذا؟

وهذا موقف آخر أكثر لباقة.. وأحكم تصرفا..
عرضه لوقا فى نفس الإصحاح العشرين.. قال:

٢٠- فراقبوه وأرسلوا جواسيس.. يثراءون أنهم أبرار.. لكى يسكوه بكلمة.. حتى يسلموه إلى حكم

الوالى وسلطانة.

٢١- فسألوه قائلين: يامعلم إنك بالاستقامة تتكلم وتعلم.. ولانقبل الوجوه.. بل الحق.. تعلم طريق الله.

٢٢- أيجوز لنا أن نعطي جزية لقيصر (١)؟ أم لا؟
٢٣- فتشعر بمكرهم.. وقال لهم: لماذا تجربوننى؟

٢٤- أرونى دينارا.. لمن الصورة والكتابة؟.. فأجابوا وقالوا لقيصر.

٢٥- فقال لهم: أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر.. وما لله..
٢٦- فلم يقدروا أن يسكوه بكلمة قدام الشعب..

وتعجبوا من جوابه.. وسكتوا.. أهد..
ومع هذا كم هاجم الكهنة والفريسيين والكتبة..
بألفاظ كاختناجر المسمومة.. والسهام المكتومة.

فقد دعاه أحد الفريسيين للغذاء.. وطلب منه أن يغسل يده قبل الأكل.. فقال له: أنتم أيها الفريسيون.. تنقون خارج الكأس والقصة.. وأما باطنكم فمملوء لؤما وخبثا.. يا أغبياء.. أليس الذى صنع الخارج صنع الداخلى أيضا؟.

ويل لكم لأنكم تعشرون (٢) النعنع والسداب وكل بقل.. وتتجاوزون عن الحق ومحبة الله.. ويل لكم فأنكم تحبون المجلس الأول فى المجمع.. والتحيات فى الأسواق.

ويل لكم أيها الكهنة والكتبة والفريسيون المراءون.. لأنكم مثل القبور المختفية والذين يمشون عليها لا يعلمون (٣).

وهكذا ظل عيسى - عليه السلام - يؤدى رسالته.. بدعوة بنى إسرائيل إلى العودة لشريعة موسى.. التى لم يبق منها فى قلوبهم إلا رسمها.. ولا أثر لها فى صدورهم غير اسمها.

حرفوا شريعة الله التى أتاها بها موسى - عليه السلام - وحادوا عن طريق الحق والخير.. فاتبعه الشعب.. كل الشعب البائس المظلوم.. المغلوب على أمره.. إلا هؤلاء النفعيون.. المتهاككون على الدنيا وزخارفها.. ومطامعها.. فلا هم لهم إلا الحرص على مراكزهم ومناصبهم.. وأصبح شغلهم الشاغل.. وهمهم المائل.. أن يتخلصوا من هذا الإنسان الذى سفه أحلامهم.. وحطم كبرياءهم.. وكشف مخبوء صدورهم.. وتناول عليهم بالسب والشتم واللعن والسخرية.

وقد حاولوا مرارا أن يقبضوا عليه.. لأى سبب من الأسباب.. وأحيانا من غير أسباب.. ولكنه كان يفلت منهم كما تفلت نقطة الزيتق من بين أصابعك كلما هممت أن تمسك بها.. وتلك قطعا عناية الله.

آمن الحواريون بعيسى - عليه السلام - إيمانا مطلقا.. واتبعوه اتباعا تسليما.. وكانوا اثنى عشر حواريا.

وسموا الحواريين لبياض ثيابهم (٤).. وقال بعضهم: إنهم كانوا صيادين.. وقال آخرون إنهم كانوا قصارين (٥) يدقون الثياب لتبييضها.

(٢) يأخذون من كل زرع عشرة

(٤) الحور: شدة بياض العين فى شدة سوادها.

(١) كانت فلسطين فى هذا الحين خاضعة لحكم قيصر الرومان.

(٣) لوقا ص ١١ / ٢٧ - ٤٤.

(٥) القصار صايغ الثياب

وقال عطاء: دفعت مريم — عليها السلام — ابنها وهو صغير إلى مهن شتى.. وآخرها القصبارين والصباغين.. وأراد معلم عيسى السفر لبعض شئونه.. فقال لعيسى: عندك ثياب كثيرة مختلفة الألوان.. وقد علمتك الصبغة فاصبغها.. فجهز عيسى إناء واحدا من أنية الصباغة.. وضع فيه جميع الثياب.. وقال: كوني بإذن الله على ما أريد منك.. فقدم الحواري — صاحب المحل — والثياب كلها في جب واحد.. فقال له غاضبا: لقد أفسدتها.. فأخرج عيسى — عليه السلام — من الجب ثوبا أحمر.. وآخر أخضر.. وغيره أصفر.. حسب ما هو مكتوب على كل ثوب من اللون المطلوب.. فعجب الحواري.. وعلم أن ذلك من الله.. ودعا الناس إليه فأمنوا به.. فهم الحواريون.

وقيل: الحواريون هم خاصة خاصة الأنبياء لنقاء قلوبهم.

وأصل الحوار في اللغة: البياض.. فأقول: حورت الثياب ببيضتها.

والحواري أيضا: الناصر.. وقال صلى الله عليه وسلم:

«لكل نبي حوارى.. وحوارى الزبير».

والحواريات: النساء البيض.. وقال الشاعر:

فقل للحواريات يبيكين غيرنا

ولا تبكنا إلا الكلاب والنوايح

كان عيسى — عليه السلام — رحالا.. لا يستقر في مكان.. ولا يهدأ في مضجع.. تجرى خلفه الجموع شرقا.. وتندفع غربا.. ولكأنى الملح مريم — عليها السلام — تجرى خلفه شرقا وغربا.. يدفعها الحب والحنين المشويان بالخوف عليه.. فقد اخترق قلبها — الصافي الشفاف — حجب الغيب.. فأحست بما يحاك لابنها في الظلام.. وتكاد ترى يد الإثم توشك أن تنقض على عنقه.. لتقدمه إلى ساحة الإعدام.

قلب حائر.. وصدر ملتاع.. ونفس قلقة.. وجسد أضناه التعب والسهر.. ترفع ناظرها إلى السماء بين الحين والحين.. فتبشها شكواها.. وتستودعها نجواها.. فتمد السماء إليها يد الصبر والرضى.. وعيسى عنها مشغول بالدعوة إلى الله.. حالت الجموع بينه وبينها.. يقول لوقا في إنجيله.. في الإصحاح الثامن:

١٩- وجاء إليه أمه وأخوته.. ولم يقدروا أن يصلوا إليه بسبب الجموع.

٢٠- فأخبروه قائلين: أمك وأخوتك واقفون خارجا يريدون أن يروك.

٢١- فأجاب.. وقال لهم: أمى وأخوتى هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها — أهـ

فتخيل معى هذا القلب الحنون.. وقد حالت الجموع بينه وبين فلذة كبده.. وهى تعلم ما يكنه الكهنة والفريسيون والكتبة من الكيد له للإيقاع به ومحاكمته على أنه زنديق خارج على شريعة موسى.

وتعود مريم — عليها السلام — إلى نفسها فى خشية المؤمن.. وضراعة المتبتل قائلة:

(ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)(١).

وكانت الريح تحمل إليها قول الحواريين لعيسى: (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين)(٢).

وفجأة وجدنا أنفسنا فى أحضان كتابنا الكريم.. كتابنا الذى:

(لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)(٣).

حقا إن له لحلاوة.. وإن عليه لطلاوة.. وإن أعلاه لمثمر.. وإن أسفله لمغدق.. وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه.. وإنه ليحطم ما تحته.. تلك شهادة الوليد بن المغيرة للقرآن الكريم..

برغم عناده وكبره.. وعتوه وكفره.. لم يتمالك نفسه
عندما سمع بعض آياته من فم رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - فجابه بتلك الشهادة أبا جهل.
وهذا هو تبثل مريم - عليها السلام - لما لعبت
بقلبيها الظنون والأوهام:

(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا
لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا
والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا

أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت
أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) (١).
وكذلك قال الحواريون:

(فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله
قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون *
ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) (٢).



١١ معجزات وخوارق

وقد ذكر لنا القرآن الكريم معجزات كثيرة.. أظهرها الله تعالى على يد عيسى - عليه السلام - منها: (أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله)(٢).

يقول وهب: كان يطير مادام الناس ينظرون إليه.. فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا.. ليطييز فعل الخلق من فعل الله تعالى.

وقيل لم يخلق غير الخفاش.. لأنه أكمل الطير خلقا.. ليكون أبلغ في القدرة لأن لها ثديا وأسنانا وأذنا.. وهى تحيض وتطهر وتلد.

ويقال: إنما طلبوا خلق خفاش.. لأنه أعجب من سائر الخلق.. ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير من غير ريش.. ويلد كما يلد الحيوان.. ولا يبيض كما يبيض سائر الطير.. فيكون له الضرع يخرج منه اللبن.. ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل.. وإنما يرى في ساعتين بعد غروب الشمس ساعة.. وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يسفر الصبح.. ويضحك كما

يروى أن بعض أهل الكتاب.. جاءوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا له: لقد جاء موسى بالعصى واليد.. وأبرا عيسى الأكمه والأبرص وأحيا الموتى.. وجاء غيرهما بشيء من المعجزات.. بماذا جئت؟ فتلى عليهم الآيات من أول:

(إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب).. إلى قوله تعالى (والله عنده حسن الثواب)(١).

ثم قال: «جئت بهذا».

وهل هناك معجزة أقوى وأخلد من هذا الكتاب المعجز.. فى ألفاظه وعباراته.. وصدق آياته.. وخلوده وموسيقاه؟.

كان الغالب على زمان موسى: السحر.. فأتاه الله بمعجزة تبهر الأبصار..

كان الغالب على زمان عيسى: الطب فأتى بمعجزات عجز الطب أمامها..

وكان الغالب على زمان محمد: الفصاحة والشعر.. فأتى بمعجزة حيرت البلغاء.. وأخرست الشعراء..

يضحك الإنسان.. ويحيض كما تحيض المرأة (١).
ويقال: إن سؤالهم لعيسى - عليه السلام - كان على سبيل التعنت..

فقالوا له: اخلق لنا خفاشا.. واجعل فيه روحا إن كنت صادقا.. فأخذ طينا.. وجعل منه خفاشا.. ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض.
فكانت تسوية الطين والنفخ من عيسى.. والخلق من الله

كما كان النفخ من جبريل.. والخلق من الله في حمل مريم بعيسى.

□ □ □

ومنها (وأبرئ الأكمة والأبرص) (٢).
والأكمة هو الأعمى.. والأبرص معروف.. وقد اختار الله تعالى له علاج هذين المرضين بالذات.. لأنهم عجزوا عن علاجهما.. مع اشتغالهم بالطب في هذا الحين.. فكانت معجزته في هذا المقام من جنس تخصصهم.

□ □ □

ومنها أيضا (وأحى الموتى بإذن الله).
وقيل إن عيسى - عليه السلام - أحيا أربعة: هم العازر - وابن العجوز - وابنة العاشر - وسام ابن نوح.

فأولهم: - العازر - كان صديقا له.. فأرسلت أخته إلى عيسى - عليه السلام - إن أخاك العازر يموت.. وكان بينهما مسيرة ثلاثة أيام فأتى هو وأصحابه.. فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام.. فقال لأخته: انطلقى بنا إلى قبره.. فانطلقت معهم إلى قبره فدعا الله تعالى.. فقام وخرج من قبره.. وولد له بعدها.

وثانيهم - ابن العجوز - فإنه مر به على عيسى ميتا.. يحمل في نعشه.. فدعا الله عيسى.. فجلس في نعشه.. ونزل عن أعناق حامله.. ولبس ثيابه.. وحمل نعشه على كتفه ورجع إلى أهله.. فبقي.. وولد له بعدها.

وثالثهم - ابنة العاشر - والعاشر هذا كان يأخذ عشور الأموال من الناس بالباطل.. ماتت له بنت بالأمس.. فأتى عيسى ودعا الله - سبحانه - فأحيها.
وآخرهم - سام بن نوح - فقد قال بنو إسرائيل لعيسى - عليه السلام - إنك نحيى من كان موته قريبا.. ولعلهم لم يكونوا قد ماتوا.. ولكنهم أصابتهم سكتة قلبية.. فأحى لنا سام بن نوح.. ودلوه على قبره.. فدعا الله - سبحانه - فخرج سام من قبره.

يقول الإمام الخطيب الشربيني في تفسيره - السراج المنير.. والقرطبي.. وغيرهما من أصحاب كتب التفسير: يقولون: إن سام خرج من قبره.. وقد شاب نصف رأسه خوفا من قيام الساعة.. وما كانوا يشيرون في ذلك الزمان.. فقال: قد قامت الساعة؟ فقال: له عيسى: لا.. ولكن دعوت الله فأحيك.. ثم قال له: مت.. فقال بشرط أن يعيدني الله من سكرات الموت فدعا الله ففعل.

□ □ □

كما كان عيسى.. عليه السلام - ينبئهم بما في منازلهم:

(وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) (٣).
يقول سعيد بن جبير وغيره: كان يخبر الصبيان في الكتاب بما هو مدخر في بيوتهم.. حتى منعهم أبائهم من الجلوس معه (٤).

وأما معجزة نزول المائدة من السماء فسنعرض لها في حينها إن شاء الله تعالى.

□ □ □

أظهر عيسى - عليه السلام - لهم كل تلك المعجزات الخوارق.. ولكن غشاوة أعينهم.. ووقر آذانهم.. وأكنت قلوبهم.. تلك القلوب التي غلفت بغلاف سميك من الخطايا والأوزار.. حالت دون وصول شعاع من نور أو بصيص من إيمان إلى صدورهم.. فهي كالحجارة أو أشد قسوة.
أحل لهم بعض الذي حرم عليهم:

(٢) ٤٩ / آل عمران.

(٤) ناقشنا هذه المعجزة في الفصل السابع.

(١) القرطبي.

(٣) ٤٩ / آل عمران.

(ولأجل لكم بعض الذى حرم عليكم)(١).

أجل عيسى لهم بعض ما حرم عليهم بسبب ذنوبهم.. ولم يكن محرما فى التوراة.. نحو أكل الشحوم وكل ذى ظفر.. وتلك أشياء حرمتها عليهم الأحبار لم ترد فى التوراة.. يقول تعالى:

(وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم بينيهم وإنا لصادقون)(٢).

وهكذا نجد أصحاب الدعوات يتعرضون للتكذيب والتأليب والاثهام.. من القادة والسادة فلايزيدهم ذلك إلا تمسكا بدعوتهم.. وتغانيا فى أداء رسالتهم.. ترعاهم رعاية الرحمن.. وتكلؤهم عناية الديان يتبعهم قلة من هؤلاء الذين صفت مرآة صدورهم.. وصقلت مشكاة قلوبهم.. فمثل هؤلاء كمثل الأرض الطيبة.. التى عنها رسولنا - صلى الله عليه وسلم - فى الحديث الشريف:

«إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم.. كمثل غيث أصاب أرضا.. فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.. وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا ورعوا.. وأصاب طائفة أخرى لكنها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ.. فذلك مثل من فقه فى دين الله فنفعه الله بما أنزل على فتعلم وعلم.. ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به».

وعيسى - عليه السلام - معجزة ذكرتها جميع الأناجيل الرسمية أو القانونية.. وهى الأربعة المعروفة: متى .. ومرقس .. ولوقا .. ويوحنا.

□ □ □

أما إنجيل برنابا فلم تعترف به الكنيسة.. لأن كتابات برنابا فى إنجيله تكاد تتفق مع كثير من العقائد الإسلامية.. فى الحكم بعدم إلهية المسيح.. وأنه عبدالله ورسوله.

ولهذا جمعت الكنيسة تلك الأناجيل الأربعة مع أعمال الرسل فى كتاب واحد به سبعة

وعشرون سفرا.. تضم مائة وتسعين إصحاحا.. وسمته - كتاب العهد الجديد.

أما كتاب - العهد القديم - فهو التوراة.. التى نزلت على موسى - عليه السلام - وبها تسعة وثلاثون سفرا.. وتضم تسعمائة وتسعة وثلاثين إصحاحا.. ثم جمعوا كتابى - العهد القديم والعهد الجديد - فى كتاب واحد اسمه «الكتاب المقدس»

□ □ □

ونعود إلى تلك المعجزة التى أشرنا إليها.. والتى ذكرتها جميع الأناجيل الرسمية.. ويسعدنا أن ندخل تلك الأناجيل مع هذه المعجزة.. حيث نشرف فيها بلقاء - أحمد - خاتم النبيين.. وإمام المرسلين.. الذى آمنت به الرسل والأنبياء جميعا.. وأخذ الله - سبحانه - عليهم العهد والميثاق بنصره وتأييده والتمهيد لدعوته.. دعوة السلام والإسلام.. التى يكمل بها الدين.. ويكون فيها إسعاد البشرية فى الدنيا والآخرة.. فاقرا معنى قوله تعالى عن هذا العهد والميثاق فى سورة آل عمران:

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة.. ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه.. قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري (٣) قالوا أقرنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)(٤).

وللقارئ الكريم أن يعجب.. كيف يؤمنون به وينصرونه.. وهو لم يأت إلا بعدهم فى الزمن!!!

ولكن لو عرفنا أن اسم - محمد - إنما هو اسم الصورة الجسدية.. واسم - أحمد - هو اسم الحقيقة الروحية.. والصورة الجسدية عرض تتعلق بالكمية والكيفية والزمانية والمكانية.. أما الحقيقة الروحية فهى الأصل والجوهر.. لاتعلق لها بالكم ولا بالكيف ولا بالزمان ولا بالمكان.. وقد ورد فى الخبر أنه - عليه الصلاة والسلام - فى السماء أحمد وفى الأرض محمد.. ولهذا كان عيسى - عليه السلام - يقول لقومه (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد)(٥).

(٢) ١٤٦ / الأنعام.

(٤) ٨١ / آل عمران.

(١) ٥٠ / آل عمران.

(٣) عهدى.

(٥) ٦ / سورة الصف.

أى أن اسمه فى هذا الوقت — وقت وجود عيسى — كان — أحمد — لأن الصورة الجسدية الطينية التى اسمها — محمد — لم توجد بعد.. وإنما كان موجودا بحقيقته الروحية.. التى رآها جميع الرسل والأنبياء.. وأمنوا به على أساسها.. فى آية الميثاق التى ذكرناها — وبشر به جميع الرسل كل فى عصره.. من لدن آدم وإدريس ونوح.. إلى موسى ويحيى وعيسى .. عليهم جميعا السلام.

وقد تعرضنا لهذا الموضوع بشئ من الإيضاح فى — نبأ موسى — عليه السلام — فى موضوع «موسى والعبد الصالح».. وأثبتنا أنه — عليه الصلاة والسلام هو العبد الصالح.. فقد كشف الله تعالى عن بصيرة موسى فرأى حقيقة أحمد عند مجمع البحرين.. ورأى منه ما رأى من علم الله ليريه من هو أكثر منه علما.

□ □ □

تلك المعجزة التى ألحنا إليها — على عهد عيسى — عليه السلام — وردت فى الإصحاح السابع عشر من إنجيل متى .. وفى الإصحاح التاسع من إنجيل مرقس.. وفى الإنجيل التاسع من إنجيل لوقا.. الذى قال بالنص على لسان عيسى — عليه السلام.
٢٧- حقا أقول لكم إن من القوام هنا.. قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله.
٢٨- وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام.. أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل ليصلى.
٢٩- وفيما هو يصلى.. صارت هيئة وجهه متغيرة.. ولباسه مبيضا لامعا.
٣٠- وإذا رجلان يتكلمان معه.. وهما موسى وإيلياء.

٣١- اللذان ظهرا بمجد.. وتكلما عن خروجه الذى كان عتيذا.. أن يكمله فى أورشليم.
٣٢- وأما بطرس واللذان معه.. فكانوا قد تشقلوا بالنوم.. فلما استيقظوا رأوا مجده.. والرجلين الواقفين معه.

٣٣- وفيما هما يفارقانه.. قال بطرس ليسوع.. يا معلم.. جيد أن نكون هنا ..

فلنصنع ثلاث مظال.. لك واحدة.. ولموسى واحدة.. وإيلياء واحدة.. وهو لا يعلم مايقول.
٣٤- وفيما هو يقول ذلك.. كانت سحابة.. فظللتهم.. فخافوا عندما دخلوا فى السحابة.
٣٥- وصار صوت من السحابة قائلا.. هذا هو ابنى الحبيب.. له اسمعوا.

٣٦- ولما كان الصوت وجد يسوع وحده.. وأما هم فسكتوا ولم يخبروا أحدا.. فى تلك الأيام بشئ مما أبصروه (١).

وزاد متى ومرقس فى إنجيليهما على رواية لوقا:
«وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم يسوع قائلا.. لا تعلموا أحدا بما رأيتم حتى يقوم ابن الإنسان من الأموات» — أ هـ —

تلك المعجزة تكاد تكون بالنص فى الأناجيل الثلاثة متفقة ولاخلاف بينهم إلا فى عدد الأيام الواردة قبل حدوثها.. حيث قال بعضهم وبعد ستة أيام بدلا من ثمانية أيام.

واسم — إيلياء — ورد فى الأناجيل.. فى مواضع أخرى.. بما يشير إلى أنه — أحمد — عليه الصلاة والسلام — عندما كانوا يذهبون للتعميد على يد يحيى — عليه السلام — الذين يطلقون عليه اسم — يوحنا المعمدان — لأنه عمد جميع بنى إسرائيل بالماء من نهر الأردن.

وقد أشرنا إلى هذا الموضوع فى نبأ يحيى عليه السلام — بذكر ما ورد عنه فى إنجيل مرقس وإنجيل يوحنا الإنجيلي.. ولأمانع من ذكر ما ورد عنه فى إنجيل متى على لسان المسيح نفسه.. لنزيد الأمر تأكيداً:

فى الإصحاح الحادى عشر.. يقول السيد المسيح:
١١- الحق أقول لكم.. لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان.
ولكن الأصغر منه فى ملكوت السماوات أعظم منه..

إلى أن قال: ١٣- لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا..

١٤- وإن أردتم أن تقبلوا.. فهذا هو إيلياء المزمع أن يأتي.

١٥- من له أذنان للسمع فليسمع (١).

وقد ورد ذكر إيلياء في سفر - ملاخي - في الإصحاح الرابع:

«ها أنذا أرسل إليكم إيلياء النبي.. قبل مجئ يوم الرب.. اليوم العظيم والمخوف» (٢).

ونفهم هنا عن إيلياء أنه هو أحمد.. وليس المسيح كما يدعون.. لأن المسيح لا يعترفون به نبيا.. وإنما هو عندهم إله.. ابن إله.

وقد ذكرنا في كتابنا - مريم البتول -

أن الاستاذ عبدالوهاب النجار.. ذكر في كتاب قصص الأنبياء.. أن اليهود يظنون أن إيلياء سيأتي إليهم.

ولكن لو عرفوا أن إيلياء جملها (٥٣) مثل جمل لفظ - أحمد - لزال الإشكال.. وتبين المراد - أه -

وهذه العبارة الأخيرة التي هي (جملها - ٥٣ - مثل جمل لفظ أحمد) قد تحتاج عند البعض إلى شيء من التوضيح.. لآمانع أن نذكره - من باب العلم بالشيء لمن لم يعلمها.

فالحروف الأبجدية.. كل حرف منها له رقم.. حسب الجدول الآتي:

الحرف	رقمه	الحرف	رقمه	الحرف	رقمه	الحرف	رقمه
ا	١	ح	٨	س	٦٠	ت	٤٠٠
ب	٢	ط	٩	ع	٧٠	ث	٥٠٠
ج	٣	ي	١٠	ف	٨٠	خ	٦٠٠
د	٤	ك	٢٠	ص	٩٠	ذ	٧٠٠
هـ	٥	ل	٣٠	ق	١٠٠	ض	٨٠٠
و	٦	م	٤٠	ر	٢٠٠	ظ	٩٠٠
ز	٧	ن	٥٠	ش	٣٠٠	غ	١٠٠٠

.. كما ظهر معه موسى أيضا بحقيقته الروحية.. ليتم العهد.. ويكون تبشير عيسى بقرب ملكوت الله.. الذي تتم به شريعة موسى والنبيين من قبله.. ويكمل الدين.. ونفس كلمة (إنجيل) معناها - البشري - أو البشارة ويحى لمحمد - فيما بعد أن يكون آخر كتابه المهيم على الكتب السابقة:

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) (٣).

وما دام الحديث قد تطرق بنا إلى وجود أحمد في الأناجيل.. فسننظر إلى أفراد فصل خاص بعنوان «أحمد في التوراة والإنجيل» لكثرة الأدلة الناطقة.. والبراهين الصادقة.. على وجوده - عليه الصلاة والسلام - متلأثا في أسفار العهد القديم.. والعهد الجديد.. أي في الأناجيل وفي التوراة.

بترتيب أبجد هوز حطى.. إلخ. وهو ما يقولون عنه حساب الجمل.. أو حساب النجم. وعلى أساس هذا الجدول.. لو أردنا أن نحسب اسم إيلياء لنجد كالاتي:

الألف (١) - والياء (١٠) - والسلام - (٣٠) - والياء (١٠) والألف (١) والهمزة الأخيرة (١).. لوجمعناها نجدها (٥٣).

وكذلك لفظ - أحمد - لنجد كالاتي:

الألف (١) - والحاء (٨) - والميم (٤٠) - والدال (٤) ويكون مجموعها أيضا (٥٣).

وبهذا يتفق الاسمان: إيلياء وأحمد في حساب جملهما. والله أسرار لا يعلمها إلا هو.

ولم يعد عندنا شك في أن إيلياء هو أحمد - عليه الصلاة والسلام - ظهر لعيسى بحقيقته الروحية فوق الجبل ورآه بطرس ويوحنا ويعقوب.. حسب ما ذكرت جميع الأناجيل

□ □ □

١٢ أحمد في التوراة والإنجيل

وردت الإشارة إلى أحمد — عليه الصلاة والسلام —

في كثير من المواقع بالتوراة والإنجيل.

ففي الإنجيل يوحنا.. حكاية عن المسيح .. في الإصحاح الرابع عشر:

١٥- إن كنتم تحبونني .. فاحفظوا وصاياي.

١٦- وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم معزيا آخر..

ليمكث معكم إلى الأبد.

وفي الإصحاح السادس عشر من نفس الإنجيل يوحنا:

٥- وأما الآن.. فأنا ماض إلى الذي أرسلني.. وليس

أحد منكم يسألني.. أين أمضي.

٦- ولكن لأنني قلت لكم هذا.. قد ملأ الحزن

قلوبكم.

٧- لكنني أقول لكم الحق.. إنه خير لكم أن انطلق..

لأنه إن لم انطلق لا يأتيكم البارقليط.. ولكن إذا ذهبت

أرسل إليكم.

٥١٤

٨- ومتى جاء ذلك يبكى العالم على خطيئته.. وعلى بر.. وعلى دينونة.

إلى أن قال في الفقرة — ١٣ — وأما متى جاء ذلك روح الحق.. فهو يرشدكم إلى جميع الحق.. لأنه لا يتكلم من نفسه.. بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية.

١٤- ذلك يمجدني لأنه لا يأخذ مما لي ويخبركم — أ هـ

وقد ثبت أن الترجمة الصحيحة لعبارة (بارقليط — أو باركليت) بالعربية.. هي كثير الحمد.. يعنى أفعال تفضيل من — حمد — فتكون: — أحمد —

كما جاء في — رؤيا يوحنا الإنجيلي — في الإصحاح التاسع عشر.. ما نصه:

١١- ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض.. والجالس عليه يدهي أمينا صادقا.. وبالعدل يحكم ويحارب.

١٢- وعيناه كلهيب نار.. وعلى رأسه تيجان كثيرة..

وله اسم مكتوب.. ليس أحد يعرفه.. إلا هو — أ هـ

والسليحيون يقولون إن المسيح هو المقصود.. فى هذه الرؤيا.. ولكن عبارة «وبالمعدل يحكم ويحارب» لا تنطبق على عيسى - عليه السلام ، لأنه لم يحارب ولا شك أنه - محمد - عليه الصلاة والسلام - فهو الذى حارب.

وقد كان يُدعى قبل الرسالة «الصادق الأمين».. وهذا معروف ومشهور.

وجاء أيضا فى نفس كتاب «رؤيا يوحنا» فى الإصحاح التاسع عشر:

١٥- ومن فمه يخرج سيف ماض.. لكى يضرب به الأمم.. وهو سيرعاهم بعضا من حديد.. وهو يدوس معصرة خمر.. سخط وغضب الله القادر على كل شئ - أ هـ

والمراد من - يخرج من فمه سيف ماض - هو القرآن الكريم ..

وقد داس النبي - صلى الله عليه وسلم - معصرة خمر .. بمعنى أنه حرم الخمر تحريما قطعيا.. أما عيسى - عليه السلام - فقد روت عنه الأنجيل أنه قلب الماء خمرا فى عرس قانا.. وقد ذكرنا تفاصيل هذا الحادث فى فصل «صوت الحق».

هذا بعض ما جاء فى كتاب العهد الجديد - الأنجيل - ولعل ما ورد فى كتاب العهد القديم - التوراة - أقوى وأصرح.. فى التبشير ببعث خاتم النبیین.. وإمام المرسلین..

(الذين يتبعون الرسول النبى الأمى.. الذى يجدونه مكتوبيا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) (١).

فنجده - عليه الصلاة والسلام - فى الإصحاح الثالث والثلاثين.. من سفر التثنية.. يتلألا فى وصية موسى - عليه السلام - ولفظه كالاتى:

٢- فقال: جاء الرب من سيناء.. وأشرق لهم من ساعير.. وتلألمن جبال فاران - أ هـ -

فقلوه: جاء الرب من سيناء.. يقصد رسالة موسى.. من طور سيناء.

وقوله: وأشرق لهم من ساعير.. يقصد إشراقة عيسى من جبال ساعير.. وهى جبال فلسطين.. وهذا معروف.

وقوله: وتلألا من جبال فاران: يقصد محمدا.. لأن المعروف فى التوراة ذاتها أن جبال - فاران - هى جبال مكة.. وسميت فاران.. نسبة إلى فاران بن عمليق ابن لاوذ بن سام بن نوح.. الذى نزل بمكة بعد الطوفان. فهذه واحدة.

وجاء فى سفر التثنية أيضا.. فى الإصحاح الثامن عشر:

١٥- يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك.. من أخوتك.. مثلى له تسمعون..

وفى الآية - ١٨ - أقيم لهم آخر الزمان نبيا مثلك.. من بنى إخوتهم مثلك.. وأجعل كلامى فى فمه.. فيتكلم بكل ما أوصيه - أ هـ -

ونلاحظ هنا أن كل نبى بعث من بعد موسى - كان من بنى إسرائيل.. وآخرهم - عيسى - فلم يكن من بنى إخوتهم إلا نبينا - محمدا.. - صلى الله عليه وسلم - لأنه من ولد إسماعيل.. أخى إسحاق..

وإسحاق جد بنى إسرائيل.

وهذا دليل ثان.

وهذا سفر أشعيا.. يقول فى الإصحاح الحادى والأربعين:

١- أنصتى أيتها الجزائر.. ولتجدد القبائل قوة.. ليقربوا.. ثم يتكلموا.

٢- من أنهض من الشرق.. الذى يلاقيه النصر عند رجليه.. دفع أمامه أمما.. وعلى ملوك سلطته.. جعلهم كالتراب بسيفه.. وكالقش المتدرى بقوسه.

٣- طردهم.. مر سالما فى طريق لم يسلكه برجليه.

٤- من فعل وصنع داعيا الأجيال من البدء.. أنا الرب الأول.. ومع الآخرين.. أنا هو - أ هـ -

والمراد بالقبائل.. قبائل العرب.. وصاحب
السيف والقسوس.. هو محمد.. لأن عيسى لم يحارب
أصلا.. ولم يحمل سيفاً ولا قوساً.
وهذا دليل ثالث.

كما فى سفر أشعياء أيضا.. فى الإصحاح الرابع
والخمسین:

١- ترنمى أيتها العاقر.. التى لم تلد.. أشيدى
بالترنم أيتها التى لم تمخص.. لأن بنى المستوحشة أكثر
من بنى ذات البعل.. قال الرب.
٢- أوسعى مكان خيمتك.. ولتبسط شقق
مساكنك.. لا تمسكى.. أطيلي إطنابك.. وشددى
أوتادك.

٣- لأنك تمتدين إلى اليمين.. وإلى اليسار..
ويرث نسلك أهما.. ويعمر مدنا خربة - أ ه -
وواضح أن المقصود بالعاقر التى لم تلد أنبياء من
قبل.. هى مكة.. فليس منها إلا- محمد- صلى الله عليه
وسلم.
وهذا دليل آخر.

كما ذكر فاران أيضا فى سفر- حبقوق- فى
الإصحاح الثالث:

٣- الله جاء من تيمان.. والقدوس من جبل
فاران.
وغيرها كثير وكثير.

ولعلنا بعد تلك الجولة السريعة الخاطفة.. بين
أسفار العهد الجديد والقديم.. قد رأينا محمدا- صلى
الله عليه وسلم- نجما ساطعا.. وكوكبا لامعا.. فى
التوراة والإنجيل.. كما أخبرنا القرآن الكريم بقوله:
(النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى
التوراة والإنجيل).

ولنعد سراعا إلى أحضان كتابنا الكريم.. فى
شوق وحنين.. ففيه ما يغنى فى بقية الرحلة مع عيسى-
عليه السلام- لنشهد فيه أحداث الرفع والصلب..
ونناقش ما انزلق فيه غيرنا.. من إفراط وغلو.. وتعالى
الله عن ذلك علوا كبيرا.



١٣ مائدة السماء

الغذائية نزلت من مصدر واحد.. هو الكوكب المجهول.. الذى رفع إليه عيسى.. وما زال فيه إلى يومنا هذا.. حتى يعود إلى كوكب الأرض فى آخر الزمان.. كما هو واضح من منطوق الكتاب الكريم.. ومفهوم السنة الصحيحة.

وسنفرد لعودته إلى الأرض — قبل الساعة — فصلا مستقلا لاحقا إن شاء الله تعالى.

قلنا إن نزول الغذاء على مريم — عليها السلام — قبل حملها.. آتيا من الكوكب المجهول.

لتجهيز الخامة التى ستكون عنصرا هاما فى جسم عيسى — عليه السلام — تجعله لائقا لمواءمة البيئة التى سيرفع إليها فيما بعد.

وضربنا لذلك مثلا بالدجاجة.. لانتحيا تحت سطح الماء.. والسمكة لاتعيش طويلا فى الهواء.. وما ذلك إلا لاختلاف تركيب كل منهما.

وقلنا: إن تلك الخلايا الغريبة فى جسمه.. لاعمل لها على سطح الأرض وإنما هى لاستعمالها عند الرفع. كما كانت معنا حواسنا الخمس.. ونحن فى بطون أمهاتنا.. ولكن لاعمل لها إلا بعد الميلاد.

فى الفصل الثانى من نبأ عيسى — عليه السلام — تعرضنا للروابط التى تربط بين نزول الطعام من السماء على مريم — عليها السلام — فى المحراب.. وبين رفع عيسى من كوكب الأرض إلى كوكب مجهول آخر:

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما) (١).

وذكرنا أن هذا الطعام نزل من السماء على ثلاث دفعات:

الدفعة الأولى: قبل الحمل بعيسى — عليه السلام — كلما دخل زكريا عليها وجد عندها هذا الرزق.

والدفعة الثانية: فى لحظة ميلاد على هيئة ماء يجرى من تحتها.. ورطب نزلت فى جذع نخلة يابس.

وفى الدفعة الثالثة: كانت مائدة من السماء.. قبل رفعه بزمان وجيز.. وبيننا أن تلك المواد

وأراد الله — سبحانه — تثبيت تلك الخلايا في جسم عيسى بالرضعة الأولى.. عقب مولده مباشرة.. كانت وسيلة تثبيتها ماء ورطبا.. من نفس المصدر في الكوكب المجهول.. تناولتهما مريم — عليها السلام — ثم أرضعت منه وليدها.

ومضى الزمن بعيسى .. يأكل مما يأكل الناس.. ومما تثبت الأرض.. حتى بلغ الكتاب أجله.. وقرب أوان رقبه:

(إذ قال الخواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) (١) وكانت عبارتهم (هل يستطيع ربك) محل نقاش بين جميع المفسرين من حيث إنهم حواريون.. والحواريون خاصة الأنبياء وأنصارهم.. بدليل قول عيسى لهم: (من أنصاري إلى الله قال الخواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون) (٢).

وكما ثبت أيضا في الصحيحين.. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ندب الناس يوم الأحزاب.. ندبهم فاندب الزبير.. وقال:

«إن لكل نبي حواريا وحواريي الزبير» (٣).

فكيف يشك الخواريون في قدرة الله تعالى على إنزال مائدة عليهم من السماء؟

وكان الرأي أن هذا القول لم يكن شكا منهم في قدرة الله تعالى على ذلك.. وإنما يقصدون: هل يستطيع يا عيسى أن تطلب من ربك هذا الطلب؟.. وهل من الممكن أن يجيئنا إلى طلبنا؟

وقد أخذت أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — بهذا الرأي.. فقالت:

«كان القوم لا يشكون أن الله قادر على إنزال مائدة.. ولكن قالوا:

(هل يستطيع ربك) بالتاء وفتح العين وفتح باء ربك.

كما قال معاذ بن جبل — رضى الله عنه — أقرأنا النبي — صلى الله عليه وسلم — (هل يستطيع ربك) بالتاء.. قال معاذ: وسمعت النبي — صلى الله عليه وسلم — مرارا يقرأ بالتاء (٤).

وشق على عيسى هذا الطلب.. حتى أنتم أيها الخالصاء الأوفياء؟.. وأنتم الصفوة المختارة من بني إسرائيل من دون الكهنة والكتبة والفريسيين.. تريدون أن تجربوني؟
(قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) (٥).

وفي تصوري أنهم — كما يبدو من صيغة طلبهم — (هل يستطيع ربك) أو هل (تستطيع ربك).. لم يكونوا مصبرين على هذا الطلب في أول الأمر.. فقد كان مجرد استفهام منهم:

هل من الممكن يا عيسى أن تطلب من ربك إنزال مائدة من السماء؟

وهل من الممكن أيضا أن يلبي طلبك هذا؟ فلما لم يجدوا منه نهيا أو زجرا بسبب هذا الطلب الحارق.. بل قال لهم: «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين».. كبر في نفوسهم هذا الطلب.. وطمعوا في تحقيقه.. وحدثتهم خواطرهم.. وماذا يضير تقوانا أو ينقص من إيماننا في حصول هذا الأمر؟.. نريد أن يبلغ إيماننا درجة حق اليقين.. ولن يكون حق اليقين إلا بالمشاهدة والمعاينة.. ألم تر أنهم قالوا «نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا» (٦).

تماما كما قال إبراهيم — عليه السلام — «رب أرني كيف تحي الموتى».

فلما قال الله تعالى له «أولم تؤمن؟» «قال بلى ولكن ليطمئن قلبي» (٧).

فعلى قدر آيات الله مع عبده.. تكون درجته في اليقين:

علما «علم اليقين» (٨) أو عينا «عين اليقين» (٩) أو حقا «حق اليقين» (١٠).

ومن هنا كان قول الله — تبارك وتعالى —: «وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين» (١١)

وهكذا كان رد الحوارين على عيسى: (نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا) فكم سمعنا منك يا نبي الله.. أن أمك كان ينزل عليها الموائد من السماء... ونحن نريد أن نأكل من موائد السماء هذه

(٢) ٥٢ / آل عمران

(٤) القرطبي — كتاب الشعب — ص ٢٣٦٢

(٦) ١١٣ / المائدة.

(٨) ٥ / التكاثر.

(١٠) ٩٥ / الواقعة.

(١) ١١٢ / المائدة.

(٣) صحيح البخارى — باب المناقب.

(٥) ١١٢ / المائدة.

(٧) ٢٦٠ / البقرة.

(٩) ٥ / التكاثر.

(١١) ٧٥ / الأنعام

(ونكون عليها من الشاهدين).. شهود رؤية ومعاينة.. لاشهادة سماع وعلم بالغيب.

ووجد عيسى — عليه السلام — نفسه مضطرا — لأن يتجه إلى ربه بالطلب.. وعلى قدر يقينك بالله فى إجابة دعائك — تكون درجة تحقق المطلوب.

فإذا كانت شحنة القلب قوية.. كانت الدفعة — بالتالى — قوية. تبلغ المطلوب.. وتصيب الهدف المرغوب.. أما القلب الهواء — الخالى من شحنات الإيمان واليقين.. فلن يصل دعاؤه وندائه إلى أكثر من طرف اللسان.

ولهذا يقول رسولنا — صلى الله عليه وسلم — «ادع الله وأنت موقن بالإجابة» وقلب عيسى — عليه السلام — وهو أحد الخمسة أولى العزم من الرسل — من القلوب المشحونة.. التى تبرئ الأكمه والأبرص وتحى الموتى وتنفع فى الطين فتدب فيه الحياة.. فقال:

(اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين)(١).

فاستعمل هنا — عليه السلام — اسمه تعالى — الرزاق.

(ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)(٢)

ومعرفة استعمال مجالى أسمائه تعالى .. من لوازم المؤمن.. وإلا كان كالمريض.. أمامه الصيدلية.. فيها جميع الأدوية والعقاقير الطبية.. ولكنه لا يعرف استعمالاتها.. فقد يأخذ «صبغة اليود» فيستعملها «قطرة» لعلاج عينه.. فتكون النتيجة عكس المطلوب.

فللعبد المظلوم أن يدعو باسمه تعالى (العدل).. وللمغلوب المقهور أن يدعو باسمه تعالى (القهار).. وللمريض أن يدعو باسمه تعالى (الرءوف الرحيم).. ولذى الضائقة المالية أن يدعو بأسمائه: (الرزاق — الفتاح — العليم — الكريم — الوهاب).. وهكذا على اختلاف الأحوال المطابق لاختلاف الأسماء.. ويحسن إسناد الاسم المدعو به إلى اسم الذات.. وهو (الله) فتقول: الله رحيم.. الله كريم.. الله رزاق.. الله قهار.. إلخ..

وهذا سر الاختلاف الأسمائى.. لاختلاف أحوال الداعين.. ومقاماتهم عند رب العالمين..

ومن أجل هذا.. رأينا عيسى.. عليه السلام — يطلب المائدة باسم الله — خير الرازقين — من حيث كونها رزقا. وتأتية الإجابة السريعة بالموافقة على الطلب.

(قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين)(٣).

ومن العجيب أن نجد بعض السادة المفسرين يقولون: إن المائدة لم تنزل من السماء على عيسى وحواريه.. معللين ذلك باستنتاجات تبعد كل البعد عن ظاهر النص القرآنى.. رغم صراحته فى طلبها.. ورغم قول الله تعالى (إني منزلها عليكم).

كقول مجاهد: ما نزلت.. وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لخلقه.. فنهاهم عن مسألة الآيات وطلبها. كما قيل: إن الله وعدهم بالإجابة.. فلما قال: (فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين)..

استعفوا منها.. وقالوا: لا نريد هذا.

ولكن القرطبى علق على هذين الرايين بقوله: وهذان القولان خطأ.. والصواب أنها أنزلت (٤).

وقد ذكر الألوسى فى تفسير هذه الآية:

خرج ابن جرير.. وابن المنذر.. وابن أبى حاتم.. عن عمار بن ياسر.. موقوفا ومرفوعا.. والوقف أصبح.. قال:

«أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما.. وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا لعدو.. فخانوا وادخروا.. فمسخوا قردة وخنائير».

كما ذكر القرطبى نفس الحديث من تخريج الترمذى.. عن عمار بن ياسر أيضا.. وذلك بجانب عدة روايات كثيرة.. تختلف فى نوع الطعام الذى كان فى المائدة

(٢) ١٨٠ / الأعراف.

(٤) القرطبى ٢٣٦٦ من كتاب الشعب.

(١) ١١٤ / المائدة.

(٣) ١١٥ / المائدة.

والمقطوع به في جميع المراجع.. أنها نزلت.. وكان عليها طعام يؤكل.. يغلب أنه سمكة مشوية.

ونحن نعذر الأستاذ عبدالوهاب النجار.. في كتابه - قصص الأنبياء - لما ضم صوته إلى الذين نفوا نزول المائدة.. معللا سبب نفيه.. بأنه قرأ روايات عجيبة عنها في تفسير الألوسي.. وقد قرأتها أنا أيضا في كثير من كتب التفسير.. قرأتها في الألوسي.. والكشاف.. والبيضاوي.. والقرطبي.. تلك الروايات فيها العجب العجيب.. عن طريقة نزول المائدة وطريقة كشف غطائها.. وألوان الطعام الذي كان فيها.. سمكة مشوية نضد حولها من كل بقول الأرض ما عدا الكراث.. وعند رأسها ملح وخل.. وعند ذنبها أرغفة.. على أحدها رمان.. وعلى الآخر ثمرات.. وعلى غيره زيتون.. وظهرت فيها روايات - عن الشعلبي - أتى فيها بعسل.. وبيض.. وجبن.. وقديد.. و.. و.. عجب كلها عجب.. أضن على وقت القارئ الكريم من أن يضع في خرافات استغرقت عدة صفحات.. في إحياء السمكة.. ثم إعادتها مشوية.. وغير ذلك من التأولات والحشو.. الذي لا يشك قارئ في أن الدسيس الإسرائيلي بارز فيها.

أقول : أعذر الأستاذ / عبد الوهاب النجار .. لما ضم صوته إلى القلة الذين نفوا نزول المائدة من السماء على عيسى وحواريه

.. بسبب تلك الروايات المدسوسة على أئمتنا من رجال التفسير.. ولكني لا أقره على هذا النفي.. كما لا يقره العقل أو النقل أو ظاهر النص.

فقد نزلت المائدة.. لما قال الله تعالى :

(قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين)(١).

نزلت وفيها طعام يؤكل.. الغالب على أنه سمكة مشوية.. أكل منها جميع بنى إسرائيل.. وأكل معهم - عيسى - عليه السلام - وطعام تلك المائدة.. من نفس المصدر المجهول.. الذي نزل منه الطعام على مريم - عليها السلام - قبل حملها بعيسى.. ثم عند مولده مباشرة.

نزل في هذه المرة ليأكل منه عيسى - عليه السلام - بعد هذا الزمن.. لتتنبه تلك الخلايا الكامنة في جسمه من اثنتين وثلاثين عاما. وكان طعامه فيها مما تنبت الأرض.. استعدادا لأداء وظائفها.. فقد دار الزمن دورته. وحين موعد رفعه إلى كوكبه المجهول.. حيث يبقى به إلى أن يعود إلى كوكب الأرض في آخر الزمان.

وكما قلنا من قريب ستعرض لهذا الموضوع في فصل لاحق إن شاء الله تعالى.



١٤ آية الرفع

كثير الناس حول عيسى - عليه السلام - أينما حل أو ارتحل .. يلتف حوله الآلاف من عامة الشعب وخاصتهم .. فهذا رجل آمن بما جاء به عيسى - عليه السلام - وكانت نفسه مكبوتة على الغيظ من هؤلاء المتألهين القساة .. غلاظ الأكباد جفاة القلوب .. حتى وجد متنفسا لما فى صدره فى عيسى بن مريم .. فجرى خلفه يؤيده وينصره .

وهذا يأمل الشفاء من مرض قد ألم به وذلك يريد أن يرى آية من الآيات التى يقوم بها عيسى .. وقد كثر الحديث عنها وتناقلتها الألسنة فى كل مكان .

وذلك يزاحم من أجل الزحام فقط .. وأمثال هذا الأخير كثير . وكلما رأى الكهنة والكتبة والفريسيون ذلك . كلما اشتعلت نار الحقد فى صدورهم .. وتحركت كوامن الغل فى قلوبهم . فقد سفه أحلامهم نهارا جهارا .. واتهمهم باستغلال الدين فى أكل أموال الناس بالباطل .. والاستعلاء على العامة بالإفك والزور والبهتان .

كم حاولوا الإيقاع به .. والكيد له .. ولكنه كان يفلت من شركائهم وكيدهم .. كما ينساب الماء من بين أصابعك .

لم يكتف هؤلاء بتشريده هو وأمه وتلاميذه .. فجعلوهم سواحا فى كل مكان .. أو هكذا أراد هو لنفسه .. وبذلوا فى أذاه كل ما يستطيعون . فسعوا إلى ملك البلاد .. واسمه (بيلاطس) وكان مشركا .. يحكم الشام من قبل قيصر الروم .. وأخبروه بأن عيسى - يفتن الناس .. ويفسد على الملك رعاياه .. ويفرق بين الابن وأبيه .. ويدعى أنه ابن الله .. مع أنه ابن زانية . حتى أذن بيلاطس - بجلده وقتله وصلبه . وكف أذاه عن الناس .

وقد رأينا شابا نحيل . يسير وسط الزحام .. وجنود الحاكم سيرون خلفه بأيديهم السياف يلهبون بها ظهره .. يحمل صليبا ضخما من الخشب .. وقد أحاطوا عنقه بطوق الشوك .. يجر رجله جرا من ثقل الصليب الذى يحمله على كتفه .. وقد اختلط عرقه بدمه الذى تفجر من بعض أماكن فى وجهه وجسمه .. فإذا انهيار هذا الجسم الضعيف تحت وطأة الصليب .. انهالوا عليه بسياطهم فى قسوة ووحشية .. حتى ينهض مستأنفا خطى بطيئة وثيدة .. وكأنه يقتلع رجله من الأرض اقتلاعا . وما هى إلا خطوات فصار .. حتى يهوى ثانية إلى الأرض .. منهك القوى خائر البدن .. فتعود السياف

إلى إلهاب جسمه الواهى.. حتى يقوم بحمله الثقيل.

وكان يسير حوله هؤلاء القساة الغلاظ.. الكهنة والكتبة الفريسيون الذين أكل الحقد قلوبهم.. فلم يبق فيها مكان لنسمة رحمة.. يشبعونه ركلا وضربا وسخرية واستهزاء.. فيبصقون فى وجهه قائلين:

أنقل نفسك الآن.. كما كنت تنقل الآخرين.. يا من كنت تبرئ الأكمه والأبرص وتحبى الموتى.. أين معجزاتك؟.. أين آياتك وأين خوارقك؟.

وهكذا حتى وصل بعد جهد جهيد بصلبه الضخم إلى المكان الذى صلبوه فيه.

فمن هو هذا الفنى الملعوب المصلوب؟

المسيحيون يعتقدون أنه عيسى - عليه السلام - حتى مريم إلى هذه اللحظة كانت تعتقد أنه ابنها.

ومن حقنا أن نتخيل معا تلك الأم الحنون ترى كل هذا العذاب ينصب على من تظنه ابنها.. وهى تسير خلفه خطوة خطوة.. حتى تم صلبه وأسلم الروح.. ثم عادت مع صاحبها مريم المجدلية.. يقطر قلبها أسى وحسرة وتفيض روحها تمزقا وألما.

وهى لو علمت وعلم هؤلاء الحاقدون الظلمة أن هذا الذى أهانوه.. وساموه سوء العذاب.. وصلبوه ليس هو عيسى.. لوفرت هى على نفسها الأسى والحسرة.. ولوفروا هم على أرواحهم الشماتة والفرحة (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) (١)

اقرأ قوله تعالى:

(وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالههم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما (٢) ومكر الله.. استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون.. قال ابن عباس:

«كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة».

ومكر الله فى هذا المقام. هو إلقاء شبه عيسى على غيره ورفع عيسى إليه. فذلك قوله تعالى (والله خير الماكرين). ولذلك عده بعض العلماء من أسماء الله تعالى.. فيقول إذا دعا: يا خير الماكرين امكر لى وكان صلى الله عليه وسلم - يقول فى دعائه.

«اللهم امكر لى ولا تترك على».

وقيل أن نسترسل فى تلك القضية.. قضية رفع عيسى - عليه السلام - بجدر بنا أن نناقش معنى قوله تعالى: «إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا» (٣).

تلك العبارة التى جعلت بعض رجال التفسير يقولون: إن عيسى قد مات تمثيلا مع ظاهر النص.. مع أن ظاهر النص لا يؤدى معنى الموت..

فالوفاة تؤدى معنى النوم والموت.. اقرأ قوله تعالى: (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) (٤) فمعنى الوفاة هنا ظاهر أنه النوم.. وقرأ أيضا (الله يتوفى الأنفس حين موتها التى لم تمت فى منامها) (٥). بمعنى أنه تعالى يتوفى الأنفس عند الموت.. ويتوفاها عند النوم أيضا ولهذا قال فى الآية السابقة مباشرة: (فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى) النائمة (إلى أجل مسمى).. فهذا ظاهر النص الذى يتمسك به البعض.

ولهذا قال كثير من العلماء.. منهم الربيع بن أنس: هى وفاة نوم.. مستشهدا بحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما سئل أفى الجنة نوم؟.. قال: «لا.. النوم أخ الموت.. والجنة لا موت فيها» أخرجه الدارقطنى.. وقال جماعة من أهل المعانى منهم: الضحاك.. والفراء: إنها على التقديم والتأخير.. لأن الواو لا توجب الرتبة.. والمعنى: إنى رافعك إلى.. ومطهرك من الذين كفروا.. ومتوفيك بعد أن تنزل من

(٢) ١٥٧ - ١٥٨ / النساء..

(٤) ٦٠ / الأنعام.

(١) ٥٤ / آل عمران.

(٣) ٥٥ / آل عمران.

(٥) ٤٢ / الزمر.

السماء .. كقوله تعالى:

(ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) (١) والتقدير «لولا كلمة سبقت .. وأجل مسمى .. لكان لزاما» .. وقال الشاعر:
ألا يانخلة من ذات عرق
عليك ورحمة الله السلام
أى عليك السلام ورحمة الله.

وقال الحسن وابن جريح - رضى الله عنهما -:
متوفيك أى قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت .. مثل: توفيت مالى من فلان .. أى قبضته.
وقال ابن زيد: قابضك ومتوفيك ورافعك بمعنى واحد .. ولم يمت بعد.

وكان رأى القرطبي: أن الله رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم .. كما قال الحسن وابن زيد .. وهو اختيار الطبري وابن عباس والضحاك.

وقال الإمام النسفى فى تفسيره .. حول قوله تعالى (إنى متوفيك) متوفى نفسك بالنوم .. ورافعك وأنت نائم .. حتى لا يلحقك خوف .. وتستيقظ وأنت فى السماء آمن مقرب (٣).

وليعذرنى القارئ الكريم .. إذا كنت قد أطلت عليه شيئا ما فى تلك الجولة الخاطفة بين آراء المفسرين ورجال العلم .. حول معنى (إنى متوفيك ورافعك إلى) .. وما ذلك إلا لنعلم يقينا أن عيسى - عليه السلام - لم يمت .. وإنما رفع نائما .. ولنلمس الفرق بينه وبين نبيينا - عليه الصلاة والسلام - الذى رفع يقظا ليلة الإسراء والمعراج .. ورأى من آيات ربه الكبرى .. رأى ما رأى .. حتى بلغ من بساط ربه .. قاب قوسين أو أدنى - فعنده من القوى الروحية ما يؤهله لتحمل ما رأى فى ملكوت الله .. أما عيسى - عليه السلام - فليست لديه تلك القدرة .. فكان رفعه نائما .. إلى الكوكب المجهول الذى أشرنا إليه سابقا .. والذى لا يعلم كنهه إلا علام الغيوب .. وسيظل فيه إلى أن يعود إلى كوكب الأرض فى آخر الزمان .. كما هو صريح النص فى القرآن الكريم .. والسنة

النبوية الشريفة .. وسنفرد لهذا الموضوع فصلا لاحقا خاصا .. إن شاء الله تعالى.
ونعود إلى حادث الصلب والرفع .. ومن هو الذى عذب وصلب .. بعد أن ألقى الله عليه شبه عيسى ؟
وردت رواية فى أغلب كتب التفسير (٣) .. وينص واحد من:

روى أن رهطا من اليهود سبوه وسبوا أمه .. فدعا عليهم قائلا:
«اللهم أنت ربى .. وبكلمتك خلقتنى .. اللهم العن من سبني وسب والدتى» فمسخ الله من سبهما قردة وخنازير .. فأجمع اليهود على قتله .. فأخبره الله بأن يرفعه إلى السماء .. ويظهره من صحبة اليهود .. فقال لأصحابه:

أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهى .. فيقتل ويصلب ويدخل الجنة ؟ .. فقال رجل منهم: أنا .. فلقى الله عليه شبهه فقتل وصلب - اهـ.

ولعل لتلك الرواية نصيب كبير من الصحة فى مسخ بعضهم قردة وخنازير .. ولكن بسبب كفرهم بعد أن أكلوا من مائدة السماء .. لقول الله تعالى:

(قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم إبنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) (٤) .. فهل يوجد عذاب أشد من مسخ الإنسان قردا أو خنزيرا ؟ .. لقد كفروا بعد نزول المائدة .. وأكلهم منها .. فاستحقوا هذا العذاب الأليم الذى لا يعذبه الله تعالى أحدا من العالمين .

ولكن الذى ألقى عليه شبه عيسى .. مختلف عليه بين الروايات .. فبجانب الروايات السابقة روايات تقول: إنه كان بين الحواريين الاثنى عشر رجلا منافقا .. ينافق عيسى - عليه السلام - فلما أرادوا قتل عيسى .. قال لهم: أنا أدلكم عليه .. فدخل بيت عيسى .. فرفع عيسى .. وألقى الله شبهه على المنافق .. فدخلوا عليه وحاكموه وقتلوه .. وهم يظنون أنه عيسى .. وأغلب المفسرين على هذا رأى .. وقالوا: إن هذا المنافق هو يهوذا الأسخريوطى.

(٢) تفسير النسفى - ٥٥ / آل عمران.

(١) ١٢٩ / طه.

(٣) فى الكشف والنسفى والبيضاوى وابن كثير وغيرهم - ١٥٧ / النساء.

(٤) ١١٥ / المائدة

وإليك أيضا رواية عن ابن عباس.. تحدثنا عن الشخص الذي شبه لهم.. فتقول:

لما أراد الله تعالى أن يرفع عيسى إلى السماء.. خرج على أصحابه.. وفي البيت اثنا عشر رجلا من الحوارين.. خرج من عين في البيت ورأسه يقطر ماء..

فقال لهم: أما أن منكم من سيكفر بي اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بي ثم قال: أيكم يلقي عليه شبهى فيقتل مكائى.. ويكون معى فى درجتى ؟ فقام شاب من أحدهم فقال : أنا فقال عيسى: اجلس.. ثم أعاد عليهم.. فقام الشاب فقال: أنا. فقال عيسى: أجلس.. ثم أعاد عليهم.. فقام الشاب فقال: أنا. فقال عيسى: نعم.. أنت ذاك.. فالتقى الله عليه شبه عيسى - عليه السلام -.

قال: ورفع الله تعالى - عيسى - من روزنة (١) - كانت فى البيت - إلى السماء.

قال: وجاء الطلب من اليهود.. فأخذوا الشبيهة فقتلوه وصلبوه.

ويقول ابن كثير فى نهاية هذا الحديث : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس (٢).

وأنا لا أريد أن أرهق القارئ جريا وراء المراجع.. فى مسألة الصلب - فهى كثيرة جدا.. ولكنى أريد فقط - فى هذا المقام - أن أعرض فقرة بسيطة.. وردت فى الأنجيل - عن لحظة الصلب - وسأكتفى بذكرها نقلا من الإنجيل متى.. فى الإصحاح السابع والعشرين.. لأننا فى حاجة إلى مناقشتها.. حيث قال:

٢٧- فأخذ عسكر الوالى - يسوع - إلى دار الولاية.. وجمعوا عليه الكتبة.

٢٨- فعروه.. والبسوه رداء قرمزيا.

٢٩- وضمفروا إكليلا من الشوك.. ووضعوه على رأسه.. وقصبة فى يمينه.. وكانوا يجشون أمامه.. ويستهنون به قائلين:

السلام عليك يا ملك اليهود

٣٠- وبصقوا عليه.. وأخذوا القصبة.. وضربوه على رأسه.

٣١- وبعدما استهزأوا به.. نزعوا عنه الرداء.. والبسوه ثيابه.. ومضوا به للصلب.

إلى أن قال بعد ذكر فنون التعذيب التى عذبوه بها: ٤٦- ونحو الساعة التاسعة.. صرخ يسوع.. بصوت عظيم.. قائلا:

إيلى إيلى لما شبقتنى ؟. يعنى إلهى إلهى.. لماذا تركتنى ؟.

وتلك هى العبارة التى نريد أن نناقشها فى هدوء. وقد قرأت - فيما قرأت - أن هذه العبارة.. فى الأنجيل اليونانية:

«إيلى إيلى لما سبختنى».. فإذا وضعنا شيئا - موضع السين.. ووضعنا - كافا - موضع الحاء - كما تقتضيه طريقة تعريب اللغة العبرية.. كان اللفظ هكذا «إلهى إلهى لم شبكتنى» أى أوقعتنى فى شبكة؟ (٣).

فمحال على المسيح - عليه السلام - أن يقول ذلك لربه.. فى لحظة بذل الروح فى سبيل الله.. ونحن لا نكذب النص الذى أورده متى وغيره من أصحاب الأنجيل.. ولكننا نتخذ هذا القول قرينة على أن المصلوب.. الذى قال هذه العبارة.. غير المسيح - عليه السلام - وإنما هو شخص آخر.



(٢) ابن كثير.

(١) روزنة: كوة السقف.

(٣) قصص الأنبياء للنجاح. ص ٤٦ الطبعة الثالثة.

١٥ العودة إلى الأرض

ورد في الآثار أن عيسى - عليه السلام - سوف ينزل إلى الأرض.. في آخر الزمان.. كما رفع قبل حادث الصليب.

وقد ناقشنا هذا الموضوع - موضوع رفعه.. من الناحية المادية في جسمه.. وأثبتنا عقليا أنه الآن موجود - وجودا مؤقتا - في مكان مجهول يتلاءم مع طبيعة كيانه الجسماني.. حتى يعود إلى الأرض فيموت عليها. والأنجيل الأربعة المعترف بها لدى جميع المسيحيين - تقول: إن عيسى قتل مصلوبا.. ثم قام من الموت في اليوم الثالث وصعد إلى السماء.. كما تتفق معنا على طبيعة عيسى المجهولة التي تمتزج بطبيعته البشرية.. إلا أن عقيدتهم هذه تطوحت بهم إلى جعله إلها.

ولعل عبارة وردت في الإنجيل - متى - في الإصحاح السادس والعشرين.. عندما كان رئيس الكهنة يناقش عيسى في المحاكمة.. وقال له:

استحلفك بالله الحى أن تقول لنا: هل أنت المسيح

ابن الله؟..

وقال له يسوع: أنت قلت.. وأيضاً أقول لكم: من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا على يمين القوة.. وآتيا على سحاب السماء(١) - أ هـ

وقد وردت هذه العبارة بنفس الصيغة تقريبا في باقى الأنجيل.

أقول: لعل هذه العبارة تشير من قريب.. أو من بعيد إلى نبوءة العودة - آتيا على سحاب السماء.

كما وردت عشرات الأحاديث الصحيحة الصريحة.. التي تؤكد هذا الأمر.. ولكن قبل أن نورد تلك الأحاديث.. علينا أن نرجع إلى القرآن الكريم.. فهو مرجعنا الأول.. قبل السنة الشريفة:

فتطالعنا صوائق الآيات.. وصوادع البيئات.. بما يؤكد أن عيسى - عليه السلام - لم يمت. اقرأ قوله تعالى:

(وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) إلى أن قال: (وما قتلوه يقينا. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما)(٢).

فلا بد أن يعود إلى الأرض.. حتى يموت فيها.. لأن الله تعالى قال:

(كل نفس ذائقة الموت)(١).

فهذه واحدة.

كما أن القرآن الكريم قد أكد على أن جميع أهل الكتاب سيؤمنون بعيسى قبل موته.. وقد جاء هذا التأكيد مزدوجاً - باللام والنون الثقيلة - في قوله تعالى: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته)(٢) بعد أن قال تعالى: (بل رفعه الله إليه) مباشرة.. فالضمير في (ليؤمنن به) يعود إلى عيسى - عليه السلام - وطبيعياً لن يكون إيمان اليهود به - وهم من أهل الكتاب.. إلا بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان.. ليظهر للعالم حقيقة الرسالة المحمدية.. ويعترف بتبعيته لإمام النبيين وخاتم المرسلين.

وهذه واحدة.

وكان القرآن الكريم صريحاً جداً.. في قوله عن عيسى:

(ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين)(٣). وفي قوله: (إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً)(٤).

وواضح أنه كلم الناس في المهد.. ولكنه لم يكلمهم وهو كهل.

حيث اتفق الجميع على أنه رفع وهو في مرحلة الشباب.. قبل سن الكهولة.. فكان لزاماً أن ينزل إلى الأرض ليكلم الناس وهو كهل.

قال أبو العباس: كلمهم في المهد - حين برأ أمه فقال: (إني عبد الله) إلى آخر الآيات.. وأما كلامه وهو كله.. فإذا أنزله الله تعالى من السماء.. أنزله على صورة ابن ثلاث وثلاثين سنة.. وهو الكهل.. فيقول لهم:

(إني عبد الله) كما قال في المهد(٥).

وهذه واحدة.

ويتلألاً أمام بصيرتنا دليل آخر.. في قوله تعالى في سورة الزخرف:

(وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها)(٦).

وسياق الآية قبلها.. يدل على أن المتحدث عنه هو عيسى.. بمعنى أن نزوله في آخر الزمان سيكون من علامات الساعة.. ولهذا قرأها ابن عباس - رضى الله عنه - وإنه لعلم للساعة (٧) بفتح العين واللام وهو العلامة.. أى أن نزوله علامة للساعة (فلا تمترن بها) فلا ريبة في هذا ولا شك.

وهذه واحدة.

فإذا خرجنا من القرآن الكريم..

بعد أن تزودنا بهذا الزاد.. جاز لنا أن نعود إلى أحضان حديث رسولنا - صلى الله عليه وسلم - ففيه البيان الكافي.. والتفصيل الشافي:

فقد ثبت في صحيح مسلم.. وابن ماجه.. عن أبي هريرة.. قال.. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم:

لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً.. فليكسرن الصليب.. وليقتلن الخنزير.. وليضعن الجزية.. ولتتركن القلاص(٨) فلا يسعى عليها.. ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد.. وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد..

وعن أبى هريرة أيضاً.. قال.. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم:

«كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم.. وإمامكم منكم؟».. وفي رواية.

«فأمكم منكم؟» قال ابن أبي ذئب: هل تدري ما أمكم منكم؟..

قلت تجربني؟ قال: فأمكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم - صلى الله عليه وسلم.

(٢) ١٩٥ / النساء.

(٤) ١١٠ / المائدة.

(٦) ٦١ / الزخرف.

(٨) القرطبي - ٦١ / الزخرف.

والقلاص: هى النوق الصغيرة.

(١) ١٨٥ / آل عمران.

(٣) ٤٦ / آل عمران.

(٥) القرطبي ٤٦ / آل عمران.

(٧) النسفي وغيره - ٦١ / الزخرف.

كما ذكر الإمام النسفى . أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال :

«ينزل عيسى .. خليفة على أمتى .. يدق الصليب .. ويقتل الخنزير .. ويلبث أربعين سنة .. ويتزوج .. ويولد له .. ثم يتوفى .. وكيف تهلك أمة أنا فى أولها وعيسى فى آخرها»؟ (١)

وقال الحسن - رضى الله عنه .. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لليهود: «إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة» (٢).

وقد قرأت عشرات الأحاديث الواردة حول هذا الموضوع .. ولكننى اخترت حديثاً سأعرضه الآن .. فقد قرأته فى كثير من أمهات كتب التفسير .. ومنها تفسير الحافظ بن كثير .. وتفسير القرطبى ..

فيقول القرطبى حول الآية (ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين) (٣).

فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك .. قال .. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : «ليس من بلد لا يطؤه الدجال إلا مكة والمدينة» . وجاء فى حديث عبدالله بن عمرو «إلا الكعبة وبيت المقدس» .. ذكره أبو جعفر الطبرى.

وزاد أبو جعفر الطحاوى «ومسجد الطور» .. رواه من حديث جنادة بن أبى أمية .. عن بعض أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - عن النبى .

وفى حديث أبى بكر بن أبى شيبة عن سمرة بن جندب .. عن النبى .. صلى الله عليه وسلم :

«وأنه - أى الدجال - سيظهر على الأرض كلها .. إلا الحرم وبيت المقدس .. وأنه يحصر المؤمنين فى بيت المقدس».

وفى صحيح مسلم: «فبينما هو كذلك .. إذ بعث الله المسيح بن مريم .. فينزل على المنارة البيضاء . شرقى

دمشق .. بين مهرتين (٤) .. واضعاً كفيه على أجنحة ملكين .. إذا طأطأ رأسه قطر .. وإذا رفعه انحدر منه جمان (٥) كاللؤلؤ .. فلا يحل لكافر يجد نفسه إلا مات .. ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه .. فيطلبه - أى يطلب الدجال - حتى يدركه بباب لد (٦) فيقتله» .

فما هى حقيقة المسيح الدجال هذا ؟

قال ابن الأعرابى: المسيح : الصديق .. والمسيح : الأور .. وبه سُمى الدجال .

والمسيح : ضد المسيح .. يقال : مسح الله : أى خلقه حسناً مباركاً .. ومسحه : أى خلقه خلقاً ملعوناً قبيحاً .

وقد نظر بعض أولى العلم .. إلى أن مسألة المسيح الدجال ما هى إلا رمزية للخرافات والدجل والقبايح التى تكثر فى آخر الزمان .

وقد ورد هذا الرأى فى تفسير المنار .. فذكر أن الأستاذ الإمام - محمد عبده - سئل عن المسيح الدجال وقتل عيسى له .. فقال: إن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبايح .

وقد كنا نأخذ بهذا الرأى .. ولكن القرائن والأحداث أثبتت أنه حقيقة لا بد واقعة .

فعند اليهود وعد من بعض أنبيائهم . بقيام دولة لهم فى فلسطين . وعندها يأتيهم المسيح .. أى الملك . يسمونه أحياناً: مسياً .. وأحياناً أخرى يسمونه إيلياء .. الذى يسوس أمرهم .. ويصلح شأنهم .

وما كذبوا عيسى عندما قال لهم أنا المسيح إلا بحجة أنه ابن زنى .. كما يدعون - فليس ببعيد الآن - وقد قامت لهم دولة فى فلسطين .. أن يظهر فيهم من يدعى أنه المسيح المنتظر .. الذى وعدوا به على لسان بعض أنبيائهم .. وقيمونه ملكاً عليهم .. وحينئذ تكون فتنة الدجال .. حيث يبعث الله عيسى فيقتله .. كما ذكرت الأحاديث .. ويوحى الدين .. ويجمع الكل على كلمة سواء .. وتكون كلمة الله هى العليا .. وكلمة الذين كفروا السفلى .



(٢) ابن كثير ٥٥٠ / آل عمران .

(٢) أى: شقيتين أو حلتين .

(٦) لد: مدينة اللد بفلسطين .

(١) النسفى - ٥٥ / آل عمران .

(٣) ٤٦ / آل عمران .

(٥) جمان: حبات من الفضة .

١٦ مناقشة هادئة

مع المسيحية واليهودية

لا تعدده من هؤلاء الحواريين .. وإن كانت تعدده من الرسل .. الذين يبلغون مكانة الحواريين فى هذا الدين بعد المسيح.

ومهما يكن من شىء فى هذا الأمر .. وهو كونه من الحواريين أو ليس منهم .. فإن برنابا حجة عند المسيحيين .. وهو من الملهمين فى اعتقادهم .. فكل ما يرد فى إنجيله حجة عليهم .. طالما كان أقرب إلى التصور والتصديق .. وهو أصبح سنداً .. وأقرب بالمسيحية الأولى رحماً.

والمسيحيون يحرمون قراءة إنجيل برنابا لصدقه وصراحته فى الإيمان بعبودية عيسى ورسالته .. وأنه بشر كغيره من الناس .

يقول الدكتور سعادة ... وهو الذى ترجم إنجيل برنابا إلى اللغة العربية : يذكر التاريخ أمراً أصدره البابا - جلاسيوس الأول - الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية .. يعدد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها .. وفى عدادها كتاب يسمى «إنجيل برنابا»

ويذهب بعض العلماء المدققين إلى أن أمر البابا - جلاسيوس - المنوه عنه برمته تزوير.

ويستطرد الدكتور سعادة فيقول:

ولكن التاريخ أصبح وأصدق من قول هؤلاء

اختلف المسيحيون بعد صلب عيسى - عليه السلام - ورفعته .. كما يعتقدون .. إلى فرق مختلفة .. وكان اختلافهم خطيراً .. فيما يتعلق بالعقيدة .

فمنهم من غلا فيه فجعله ابن الله .. وهؤلاء هم النسطورية ..

ومنهم من قال إنه هو الله .. تجسد فى بطن مريم .. ونزل إلى الأرض فى جسم آدمى .. وهم فريق اليعقوبية.

ومنهم من قال هو ثالث ثلاثة. الله إله .. وهو إله .. وأمه إله .. وهؤلاء هم فريق الملكية.

ومنهم فريق رابع .. آمن بما بعثه الله به .. على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته .. وهؤلاء هم المسلمون منهم .. وعلى رأسهم برنابا .. صاحب الإنجيل المعروف باسمه .. وهو قديس من قديسيهم .. ورسول من رسلهم .. وركن من الأركان التى قامت عليها الديانة المسيحية الأولى.

ويقول الأستاذ الشيخ أبو زهرة فى كتابه «محاضرات فى النصرانية» عن برنابا «إن إنجيله يدل على أنه كان من الحواريين الذين اختصهم المسيح بالزلفى إليه .. والتقرب منه .. وملازمته فى سرائه وضرائه .. ولكن كتب المسيحيين .. غير هذا الإنجيل ..

العلماء .. وإن كانوا محققين .. فأقوال العلماء والمؤرخين تترى فى تحريم قراءة أناجيل كثيرة .. فإذا فعل ذلك البابا جلاسيوس فقد سار على سنة أسلافه - اه -

وقد ثبت تاريخيا أنه كانت توجد أناجيل كثيرة فى العصور الأولى للمسيحية .. تأخذ بها فرق مختلفة .. ولا تعتقد كل فرقة إلا فى إنجيلها. يقول الأستاذ أبو زهرة.

«أجمع مؤرخو المسيحية على كثرة الأناجيل كثرة عظيمة .. ثم أرادت الكنيسة فى أوائل القرن الثالث .. أو أواخر القرن الثانى الميلادى .. أن تحافظ على الأناجيل الرائجة فى ذلك الحين .. فصارت هذه الأناجيل هى المعتمدة عندهم .. دون سواها. الأناجيل هى المعتمدة عندهم .. دون سواها.»

غير أن إنجيلا جديدا كشف عنه البحث العلمى .. وقد حمل من الأمارات ما يدل على أنه يمتد بنشأته إلى أبعد أعماق التاريخ المسيحى .. وهو يشبه باقى الأناجيل القائمة .. فى أنه يحكى قصة المسيح من ولادته .. إلى اتهامه .. ويحكى محاوراته ومناقشاته وخطبه .. ولكن الكنيسة لم تعترف به وانكرته .. فهو ليس معتبرا عند المسيحيين مصدرا دينيا .. ولكنه متداول بين علماء الأمم الأوروبية .. وقد اتجهوا إليه بالبحث والعناية والاهتمام .. ولم يمنعهم من ذلك انكسار الكنيسة له .. وذلك الإنجيل هو إنجيل برنابا - اه -

ولعلنا بهذا العرض الموجز حول برنابا وإنجيله .. وما كان هذا العرض إلا استطرادا للحديث عن فريق المسلمين من الفرق المسيحية .. أقول لعلنا بهذا العرض لا نفتأت عليهم .. ولا نقحم أنفسنا فيما ليس لنا من إملاء عقيدة على المسيحيين فى دينهم .. ولكننا نشير إشارة خفيفة إلى ما فى إنجيل برنابا من أخبار دقيقة .. وأنباء صادقة عن التوراة.

يقول عنه الدكتور سعادة:

«إنك إذا أعملت النظر فى هذا الإنجيل .. وجدت لكتابته إلما عجبيا بأسفار العهد القديم - وهى التوراة - لا تكاد تجد له مثيلا بين طوائف النصارى .. إلا فى أفراد قليلين من الإخصائيين الذين جعلوا حياتهم وقفا على الدين .. كالمفسرين .. أنه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضا من له إلمام بالتوراة بقرب من إلمام كاتب إنجيل برنابا.»

وإنجيل برنابا فيه ميزات واضحة عن باقى الأناجيل .. فهو واسع الأفق .. دقيق العبارة .. سلس الأسلوب .. قوى التصوير .. منسجم المعانى .. يقول بعضهم: لو لم يكن كتاب دين .. لكان أقوى كتاب فى الأدب والحكمة.

وفى هذا الإنجيل تبشير صريح باسم النبی محمد - صلى الله عليه وسلم - وإن كانت هذه الصراحة تسببت فى نقاش طويل بين العلماء .. لأن المعهود فى البشارات أن تكون رمزية ولا تكون صريحة .. ولكن البعض يوعز هذا التبشير باسم - محمد - راجع إلى الترجمة .. فالترجم الذى عرب هذا الإنجيل قد فهم النص الإيطالى بهذا الفهم .. فكانت ترجمته صريحة .. كما يفعل المسيحيون فى كثير مما ترجموا من كتب أصلها عبرى.

وبرنابا صريح فى رأيه فى عبودية عيسى ورسالته - كما ذكرنا - ففى مقدمة إنجيله قال:

«أيها الأعزاء .. إن الله العظيم العجيب .. قد افتقدنا فى هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح .. برحمة عظيمة للتعليم .. والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى .. مبشرين بتعليم شديد الكفر .. داعين المسيح ابن الله .. ورافضين الختان الذى أمر الله به دائما .. مجوزين كل لحم نجس .. الذين ضل فى عدادهم أيضا بولس - الذى لا أتكلم عنه إلا مع الأسى وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيته.»

ويقول فى الفصل الثالث والتسعين .. فى محاكمة عيسى عليه السلام: «أجاب الكاهن .. أن اليهودية قد اضطربت لأياتك وتعليمك .. حتى أنهم يجاهرون بأنك أنت الله .. فاضطرت بسبب الشعب إلى أن أتى إلى هنا مع الوالى الرومانى .. والملك هيرودس .. فترجوك من كل قلبنا .. أن ترضى بإزالة الفتنة التى ثارت بسببك .. لأن فريقا يقول إنك الله .. وآخر يقول: إنك ابن الله .. ويقول فريق: إنك نبى.»

أجاب يسوع: وأنت يا رئيس الكهنة .. لماذا لم تخمد الفتنة .. وهل جنت أنت أيضا؟ .. وهل أمست النبوات وشريعة الله نسيا منسيا؟ .. أيتها اليهودية الشقية التى ضللها الشيطان ..

ولما قال يسوع هذا .. عاد فقال:

«إني أشهد أمام السماء .. وأشهد كل ساكن على الأرض .. أنى برىء من كل ما قال الناس عنى .. من أنى أعظم من بشر .. لأننى بشر مولود من امرأة .. وعرضة لحكم الله .. أعيش كسائر البشر .. عرضة للشقاء العام».

ويقول فى الفصل السبعين:

«أجاب يسوع: وما قولكم أنتم فى؟ .. أجاب بطرس: إنك المسيح ابن الله .. فغضب حينئذ يسوع .. وانتهره بغضب قائلاً: اذهب عنى .. لأنك أنت الشيطان .. وتريد أن تسيء إلى».

وقد وردت هذه العبارة الأخيرة فى الأناجيل الأربعة

الرسمية .. المعترف بها من الكنيسة .. ولكن بشيء من التغيير والتحوير .. فقالوا: إن عيسى سأل التلاميذ عن نفسه .. فقال بطرس له: «أنت المسيح فى الإنجيل مرقس» .. «وأنت المسيح ابن الله الحى فى الإنجيل متى» .. وذكروا أن المسيح انتهرهم كى لا يقولوا لأحد عنه .. وبعدها مباشرة قالوا: إن المسيح انتهر بطرس قائلاً: اذهب عنى يا شيطان .. لأنك لا تهتم بما لله .. ولكن بما للناس» (١).

وقد استخلص الدكتور سعادة من الإنجيل برنابا ..

نقاطا هامة .. أهمها:

أن مسيا .. أو المسيح المنتظر .. ليس هو يسوع .. بل محمد .. وقد ذكر برنابا محمداً باللفظ الصريح المتكرر فى فصول .. ضافية الذبول .. وقال إنه رسول الله .. وإن آدم لما طرد من الجنة .. رأى سطوراً كتبت فوق بابها بأحرف من نور «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وقال المسيح - كما جاء فى الإنجيل برنابا:

«إن الآيات التى يفعلها الله على يدي .. تظهر أنى متكلم بما يريد الله .. ولست أحسب نفسى نظير الذى يقولون عنه .. لأننى لست أهلاً لأن أحل رباطات أو سيور حذاء رسول الله .. الذى تسمونه مسيا .. الذى خلق قبلى وسيأتى بعدى بكلام الحق .. ولا يكون لدينه نهاية».

لقد كان الأولى بالمسيحية .. ألا تقف موقف العداء من الإنجيل برنابا .. بعد العثور على أول نسخة منه فى عام

١٧٠٩ .. وثبت تاريخياً أنه أقدم الأناجيل .. بل كان المفروض أن يوازنوا بين ما جاء فيه وما جاء فى غيره من كتبهم .. ويؤخذ بما هو أقرب إلى التصوير والتصديق .. وما هو أصح سنداً .. وأقرب بالمسيحية الأولى رحماً .. ولم يختلف الإنجيل برنابا عن الأناجيل الأربعة الرسمية إلا فى أمور:

١- أن المسيح عبدالله ورسوله.

٢- وأن الذبيح الذى تقدم به إبراهيم الخليل - عليه السلام - للفداء هو إسماعيل وليس إسحاق.

٣- وأن المسيح لم يصلب .. ولكن شبه لهم .. القى الله شبهه على يهوذا الأسخريوطى.

وقال الأستاذ أبو زهرة:

«إن أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية .. أن تعنى الكنيسة بدراسته ونقضه .. وتأتى لنا بالبيانات الدالة على هذا النقض .. وتوازن بين ما جاء فيه .. وما جاء فى رسائل بولس .. اسعوف القارىء والباحث أيهما أهدى سبيلاً .. وأقرب إلى الحق .. وأوثق به اتصالاً» - أهـ -

وقد ذكرنا فى الفصلين الحادى عشر والثانى عشر

من هذا البحث - حول نبأ عيسى - عدداً كبيراً من الأدلة الواضحة .. من نصوص الأناجيل الأربعة المعترف بها ..

ومن نصوص التوراة .. مما يؤكد تبشير عيسى وموسى بمحمد .. عليهم السلام - منها ما جاء على لسان عيسى فى الإصحاح السادس عشر من الإنجيل يوحنا:

٥- وأما الآن فأنا ماض إلى الذى أرسلنى .. وليس أحد منكم يسألنى أين أمضى.

٦- ولكن لأنى قلت لكم هذا .. قد ملأ الحزن قلوبكم.

٧- لكن أقول لكم الحق .. إنه خير لكم أن أنطلق .. لأنه إن لم أنطلق لا يأتىكم البارقليط .. ولكن إذا ذهب أرسل لكم.

٨- ومتى جاء ذلك .. يبكى العالم على خطيئة .. وعلى بر .. وعلى دينونة.

وقد ثبت من الترجمة الصحيحة لكلمة «بارقليط» أو «باركليست» بالعربية هي - كثير الحمد - يعنى أفعل تفضيل فى لغة العرب من - حمد - فتكون - أحمد - . وهنا نفهم قول عيسى - عليه السلام - لقومه.. فى كتابنا الكريم فى سورة - الصّٰفّ - (ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد).

أليست عبارة القرآن الكريم هذه على لسان عيسى.. هي نفسها عبارة الإنجيل يوحنا على لسان عيسى أيضا؟؟؟(١).

لقد ثبت تاريخيا أن المسيحيين ظلوا على خلافهم العقائدى ثلاثة قرون.. ثم نبع لهم ملك من الملوك اليونانيين.. يقال له قسطنطين.

يقول الحافظ بن كثير عنه: إنه دخل فى المسيحية حيلة ليفسد دينهم.. فإنه كان فيلسوفا.. وقيل جهلا منه.. إلا أنه بدل لهم دين المسيح.. وحرفه.. وزاد فيه ونقص منه.. وأحل لهم لحم الخنزير.. وصلوا له إلى الشرق.. وصور لهم الكنائس وزاد فى صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه - فيما يزعمون - وصار دين المسيح هو دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والأديرة.. ما يزيد على اثني عشر ألف معبد.. وبنى المدينة المنسوبة إليه - القسطنطينية - واتبعته الطائفة الملكية منهم.. وهم فى هذا كله قاهرون لليهود(٢).

كما تعرض الأستاذ: سيد قطب فى كتابه «فى ظلال القرآن» لموضوع قسطنطين هذا.. فقال:

ولقد جمع الإمبراطور الرومانى قسطنطين مجمع الأساقفة.. وهو أحد المجامع الثلاثة المشهورة.. بلغ عدد أعضائه ألفين ومائة وسبعين أسقفا.. فاختلفوا فى عيسى اختلافا شديدا.. وقالت كل فرقة فيه قولا.. قال بعضهم: هو الله.. هبط إلى الأرض.. فأحيا ما أحيا.. وأمات من أمات.. ثم صعد إلى السماء.

وقال بعضهم: هو ابن الله وقال بعضهم: هو أحد الأقانيم الثلاثة: الأب.. والابن.. والروح القدس.

وقال بعضهم: هو عبد الله ورسوله.. وروحه وكلمته.

وقالت فرق أخرى أقوالا كثيرة.. ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلثمائة وثمانية.. اتفقوا.. على قول.. فمال إليه الإمبراطور.. ونصر أصحابه.. وطرد الآخرين.. وشرد المعارضين.. وبخاصة الموحدين(٣).

(فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم)(٤).

ولتوضيح قولهم: الأقانيم الثلاثة.. نقول: يقولون جوهر واحد.. من ثلاثة أقانيم.. أى ثلاثة أصول.

فالأقنوم هو الأصل.. ويعتقد صاحب - مختار الصحاح - أنها كلمة رومية.. فقالوا: أقنوم الأب.. وأقنوم الابن.. وأقنوم روح القدس.

يقصدون بأقنوم الأب: الذات.. وبأقنوم الابن: العلم.. وبأقنوم روح القدس: الحياة. فيكون تقديره عندهم: الله ثلاثة.. وإلا فتقديره الآلهة ثلاثة (٥) ويمكن تركيز دعوة عيسى - عليه السلام - كما هو واضح فى تعاليمه كلها.. فى الأناجيل المعتمدة لدى الكنيسة.. فى ثلاثة أصول:

(١) التسليم بأن الله وحده هو السلطة العليا.. فاقراً مثلا فى الإنجيل لوقا.. فى الإصحاح الثامن عشر.. بالنص:

١٨ - وسأله الرئيس قائلا: أيها المعلم الصالح.. ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟

١٩ - فقال له يسوع.. لماذا تدعونى صالحا.. ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله.

٢٠ - أنت تعرف الوصايا: لا تزنى.. لا تقتل.. لا تسرق.. لا تشهد الزور.. أكرم أباك وأمك(٦).

(٢) طاعة أحكام النبى.. بوصفه نائبا مثلا عن هذا السلطان.

(٣) قانون الله هو الذى يحدد القيود والتحليل والتحرير.. أما القوانين المفروضة فباطلة(٧).

ومن المعروف أن اليهود يتظنون نبيا - من زمن مريم - عليها السلام - حسب تنبؤات أنبيائهم.. وإرهاصات كهانهم وأخبارهم..

(٢) ابن كثير ٥٥ / آل عمران.

(٤) ٣٧ / مريم.

(٦) لوقا ص ١٨ آيات ١٨ - ٢٠.

(١) باقى الأدلة من الأناجيل والتوراة فى الفصلين ١١ و ١٢

(٣) فى ظلال القرآن - ٣٨ / مريم.

(٥) الكشف ١٧١ / النساء.

(٧) بتعديل من كتاب - تفهيم القرآن - لأبى الأعلى المودودى.

ويسمون هذا النبي - مسيا أحيانا .. أو إيلياء أحيانا أخرى.

وهذا واضح من مناقشة رسلهم إلى يوحنا المعمدان - يحيى بن زكريا - عليهما السلام - وقد وردت هذه المناقشة في جميع الأناجيل:

ففي إنجيل يوحنا.. في الإصحاح الأول:

١٩- وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من

أورشليم كهنة ولاويين ليسألوا يحيى: من أنت؟

٢٠- فاعترف ولم ينكر .. وأقر أنى لست المسيح.

٢١- فسألوه: إذا ماذا .. إيلياء أنت؟ .. فقال: لست

أنا. النبي أنت؟ فأجاب لا.

٢٢- فقالوا له من أنت حتى نعطي جواباً للذين

أرسلونا.. ماذا تقول عن نفسك؟.

٢٣- قال: أنا صوت صارخ في البرية (١).

كما ورد اسم إيلياء في إنجيل متى .. على لسان

المسيح نفسه في الإصحاح الحادى عشر.. يقول المسيح:

١١- الحق أقول لكم .. لم يقم بين المولدين من

النساء أعظم من يوحنا المعمدان.. ولكن الأصغر منه فى

ملكوت السماوات أعظم منه.

إلى أن قال:

١٣- لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا.

١٤- وإن أردتم أن تقبلوا .. فهذا هو المزمع أن يأتى.

١٥- من له أذنان فليسمع (٢).

فها نحن نرى أن اليهود يسألون يحيى.. الذى يذهبون إليه جميعهم ليعمدهم من ماء الأردن .. كما عمد هو المسيح أيضا .. يسألونه: هل هو المسيح؟ فيقول لا. هل هو إيلياء فيقول: لا .. هل هو النبي؟ .. فيقول لا:

كما نرى المسيح نفسه يقول لهم: هذا هو إيلياء المزمع أن يأتى .. لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا به.

ومعنى هذا أن اليهود ينتظرون المسيح .. وينتظرون إيلياء أيضا بعد المسيح .. فلما أرسل الله إليهم المسيح - عيسى بن مريم - كذبوه لأنه متهم لديهم بأنه ابن زنا .. فكيف يقبلونه على أنه المسيح الذى يهد لهم سبل الرب مستقيمة لمن يأتى بعده؟

المسيحيون يعتقدون أن إيلياء هو عيسى .. وواضح جدا أن هذا وهم باطل لمخالفته لنصوص كتبهم .. التى يعبدون بها ربهم .. فكيف يكون عيسى - عليه السلام - هو النبي المنتظر .. مع أن يحيى يبشر بنهى يأتى بعده.. أقوى منه .. ويقول عنه: إنه ليس أهلا لأن ينحنى ويحل سيور حذائه .. وقد رأينا يحيى - عليه السلام - هو الذى عمد المسيح من ماء الأردن .. فكيف يعمله وفى نفس الوقت ليس أهلا لأن يحل سيور حذائه؟.

لقد أثبتنا أن محمدا يتلألا فى جميع أسفار التوراة .. علاوة على الأناجيل (٣) .. بما لا يدع مجالا للشك فى صدق قول الله تعالى:

«الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجلسونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل» (٤).

(٢) متى ص ١١.

(٤) ١٥٧ / الأعراف.

(١) يوحنا ص ١.

(٣) فى الفصلين ١١ و ١٢.

١٧ واقترب الوعد الحق

لقد أثبتنا أن إيلياء هو نفسه محمد - عليه الصلاة والسلام (١).. واليهود ينتظرون إرسال إيلياء إليهم في عصرنا هذا.. بعد أن قامت لهم دولة معتقدين أنه المسيح المبشر به عندهم.

ولعلنا نسمع قريباً أن أحد اليهود يظهر في إسرائيل مدعياً أنه المسيح المنتظر.. وهنا تصدق نبوءة المسيح الدجال.. الذى سوف يهبط عيسى - عليه السلام - ويقتله عند اللد (٢).. ثم يوحد الجميع على كلمة الإسلام.. كما بشر بذلك رسولنا - عليه الصلاة والسلام - وكما ظهر من مفهوم كثير من آيات كتابنا الكريم (٣).. كما بشر بذلك رسولنا.. عليه الصلاة والسلام - عن نزول عيسى في آخر الزمان.. ويكون علامة للساعة.. (وإنه لعلم للساعة) التى قرأها ابن عباس (وإنه لعلم للساعة) بفتح العين واللام.. يعنى علامة للساعة (فلا تترن بها)..

وقد ظهرت أشراط الساعة وعلاماتها.. واضحة جليلة لكل ذى بصيرة - كما أخبرنا عنها المعصوم - صلوات الله وسلامه عليه - فى الحديث الذى رواه عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه -:

«بينما نحن جلوس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب.. شديد سواد الشعر.. ليس

عليه أثر السفر.. ولا يعرفه منا أحد.. فجلس قبالة الرسول حتى حاذت ركبته ركبته.. ثم قال: يا محمد.. أخبرنى عن الإسلام» إلى آخر الحديث المعروف.

فبعد أن سألته بعد الإسلام عن الإيمان.. ثم عن الإحسان.. والسائل يقول صدقت بعد كل إجابة من الرسول.. حيث يقول عمر: فعجبنا كيف يسأله ثم يصدقه.. قال السائل لرسول الله - ﷺ -: أخبرنى عن الساعة فقال له - عليه الصلاة والسلام -: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» فقال: فما أشراطها؟.

قال: «أن تلد الأمة ربتها.. أو قال - ربتها - وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان.. وأن ترى النساء كاسيات عاريات.. مائلات مميلات.. على رءوسهن كأسنمة البخت».

لقد نفذت بصيرته - عليه الصلاة والسلام - مخترقة حجب الغيب.. متغلغلة فى المستقبل من خلال أحقاب القرون.. فوصف لنا عصرنا بما فيه من وسائل الفتنة وعوامل الإغراء.

(١) اقرأ نهاية الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب - نبأ عيسى -

(٢) الأحاديث عن المسيح الدجال فى الفصل ١٥ من - نبأ عيسى -

(٣) اقرأ الفصل ١٣ من نبأ عيسى.

فهل رأيت تلك العلامات .. ومن أبرزها الحفاة
العراة رعاء الشاة .. وهم يتناولون ويتسابقون فى إقامة
العمائر .. وتشيد ناطحات السحاب؟

وهل رأيت المرأة وهى كاسية عارية .. يشف لباسها
عما تحته من مفاتن جسمها .. ماثلة على كعب حذاءها
العالى .. مميلة للذين فى قلوبهم مرض فزادتهم مرضاً؟
وهل رأيت على رأسها .. تلك - الباروكة - أو ما
صنع هذا - الكوافير - من شعر أشبه بسنام الجمل
المنفوش الشعر؟

أليست كل هذه من أشراط الساعة صريحة فى
حديث رسولنا - ﷺ ؟

ولنعد إلى أحضان القرآن الكريم .. لنرى فيه ظهور
يأجوج ومأجوج كعلامة من علامات الساعة فى قوله
تعالى:

(حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل
حذب ينسلون * واقرب الوعد الحق) (١).

وقد أثبتنا ظهور يأجوج ومأجوج فى عصرنا هذا ..
كحقيقة واقعة .. نلمسها فى هؤلاء الشيوعيين .. الذين
ينسلون حولنا من كل حذب .. ويتسللون من كل
جانب إلى جميع بقاع العالم .. ينشرون سمومهم ..
ويثون كفرهم وإلحادهم .. ويفسدون فى الأرض بعد
إصلاحها.

أثبتنا ذلك دينياً من القرآن الكريم والتوراة والسنة ..
وتاريخياً من التاريخ اليونانى من كتابات المؤرخ اليونانى
الكبير - هيرودوتس - أبو التاريخ .. ومن موسوعة تاريخ
العالم - لوليم لانجر - ومن تاريخ أرمينيا وجورجيا ..
المجاورتين لمنطقة السد .. ووصلنا جغرافياً إلى موقع هذا
السد الحديدى الذى أقامه ذو القرنين ليحول بينهم وبين
النزول إلى منطقة الشرق الأوسط الذى كانوا يخربونه
فى الربيع من كل عام .. وقد أشبعنا هذا الموضوع بحثاً
فى نيبأ - ذى القرنين - فى هذا الكتاب - لمن شاء
الاقتناع (٢).

وهنا تلزمننا وقفة .. نوجه فيها صرخة إلى المؤمنين
من أهل الكتاب وأصحاب الرسالات .. الذين يؤمنون
بالله تعالى رباً .. وبالأنبياء رسلاً .. وبالبعث نشراً ..

وبالقيامة حشراً .. وبالثواب سعادة .. وبالعقاب
شقوة .. إلى هؤلاء جميعاً نوجه صرخة عالية مدوية ..
تملأ أسماع الدنيا .. لعلهم يفيقون من سباتهم ..
ويصيحون من غفوتهم: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع
قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) (٣).

ألم يثن الأوان بعد .. لأن يستيقظ هؤلاء وهؤلاء ..
على فحيح الأفاعى الشيوعية .. المنكرين لوجود إله ..
المكذبين برسول الله .. المعتقدين أنه لا بعث ولا قيامة ولا
ثواب ولا عقاب .. القائلين ما هى إلا بطون تدفع ..
وأرض تبلع .. وأن الدين أفيون الشعوب؟

أما كان الأجدر بالمؤمنين بالدين كله : مسلمين كانوا
أو مسيحيين أو يهوداً .. أن يفتنوا لهذا الخطر الداهم ..
والخطب الجسيم .. من يوم أن سمعوا - جاجارين
الشيوعى - أول راكب لسفينة فضاء .. وهو يقول :
بحث عن الله فى السماء فلم أجده !!!

إنى لا أكاد أسمع صوت رسول الله - ﷺ - يقول عن
يأجوج ومأجوج .. فى حديث أبى بكره الذى رواه أبو
داود: أن رسول الله - ﷺ - قال (٤):

«ينزل ناس من أمتى بغائط (٥) يسمونه البصرة ..
عند نهر يقال له دجلة .. يكون عليه جسر .. يكثر أهلها
.. وتكون من أمصار المهاجرين» . قال ابن يحيى .. قال
أبو معمر «وتكون من أمصار المسلمين .. فإذا كان آخر
الزمان .. جاء بنو قنطوراء (٦) .. عراض الوجوه ..
صفار الأعين حتى ينزلوا على شاطئ النهر .. فيتفرق
أهلها .. ثلاث فرق:

فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية .. وهلكوا.
وفرقة يأخذون لأنفسهم .. وكفروا.

وفرقة يجعلون ذرايعهم خلف ظهورهم ويقاتلون
وهم الشهداء»

فقسم - عليه الصلاة والسلام - الناس حيالهم إلى
ثلاثة أقسام:

قسم يهرب بماله وعياله .. وهؤلاء هالكون .
وقسم ينافقهم ويمالئهم .. ويأخذ لنفسه منهم ..
وهؤلاء كافرون .

(١) ٩٦ / الأنبياء.

(٢) اقرأ الفصلين السادس والتاسع من - نيبأ ذى القرنين - فى هذا الكتاب.

(٣) ١٦ / الحديد .

(٤) الفاتح: المكان المظلم من الأرض.

(٤) القرطبي - ٩٤ / الكهف

(٦) هكذا سماهم رسول الله - يقصد يأجوج ومأجوج.

وقسم يتحصن ويستعد لقتالهم وجهادهم. وهؤلاء هم الشهداء والأولياء والمؤمنون.

وقد لفت نظري حديث آخر.. جاء مرفوعاً من حديث أبي هريرة .. خرج ابن ماجة فى السنن .. قال فى نهايته بعد أن تحدث - عليه الصلاة والسلام - عن يأجوج ومأجوج خلف السد .. قال:

«ويخرجون على الناس .. فينشفون الماء .. ويتحصن الناس منهم فى حصونهم .. فيرمون بسهمهم إلى السماء .. فيرجع عليها الدم .. فيقولون : قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء .. فيبعث الله عليهم نغفا (١) فى أفئدتهم .. فيقتلهم بها».. ثم قال:

«والذى نفسى بيده .. إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم» (٢) وأشكر الضرع: أى امتلاً لبنا.

أقول لفت نظري هذا الحديث .. لأمر حدث فى عصرنا هذا .. فقد قال لى صديق: إنه رأى أول سفينة فضاء - سفينة جاجارين - بعد أن عادت من الجو حمراء كالدم تماماً .. وقد عرضت أمام فندق - هيلتون - بميدان التحرير بالقاهرة .. ولم يكن لى نصيب فى رؤيتها حين عرضها فى الستينات .. عادت من الجو حمراء مثل الدم بسبب التفاعلات الجوية بعد أن كانت فضية اللون ..

فهل لهذا علاقة بسهام بنى قنطوراء؟ أطلقوها بسهم إلى السماء .. وعادت مخضبة بلون الدم .. وعاد جاجارين إلى الأرض يقول: بحثت عن الله فى السماء فلم أجده .. أليست هذه العبارة التى قالها جاجارين تساوى تماماً العبارة التى وردت فى الحديث الشريف على لسان بنى قنطوراء بقولهم: - قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء؟؟؟

فمن أى الأقسام الثلاثة نحن؟ تلك الأقسام التى أشار إليها الحديث الشريف .. هل نحن من الهاربين الهالكين .. أم من المنافقين الكافرين .. أم من المجاهدين المؤمنين؟؟؟

لقد انشغل أصحاب الدين بعضهم ضد بعض .. يهودا كانوا أم نصارى أم مسلمين .. مع أن الدين واحد .. وأصحاب الديانات أولى بالتضامن والتعاقد ضد من لا دين له.

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .. فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) (٣).

أما أن هؤلاء وهؤلاء أن يستجيبوا لنداء السماء .. لتتحد كلمتهم وتترابط عزيمتهم .. وتقوى شكيמתهم .. ضد هذا الطاغوت الزاحف من الشرق قبل فوات الأوان؟.



(١) النغف بالتحريك . دود يكون فى أنوف الإبل والغنم - أى جراثيم وبائية.

(٣) ٦٤ / آل عمران.

(٢) القرطبي ٩٤ / الكهف.

«أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجا»

«الآية ٩ سورة الكهف»

○ من نبا
أهل الكهف

العمل الصالح ١ ينجى فى الشدائد

قال النعمان بن بشير الأنصارى:

سمعت رسول الله - ﷺ - يقول:

«إن ثلاثة نفر خرجوا يرتادون لأهلهم .. فبينما هم
يمشون .. إذا أصابتهم السماء .. فأووا إلى الكهف ..
فانحطت صخرة من الجبل عليهم .. فانطبقت على باب
الكهف .. فأوصدته عليهم .. فقال قائل منهم: كل منكم
يذكر أحسن عمل عمله .. فلعل الله يرحمنا .. فقال
رجل منهم: قد عملت مرة حسنة ..

كان لى أجراء يعملون عملا لى .. فاستأجرت كل
رجل منهم بأجرة معلومة .. فجاء رجل منهم ذات يوم
وسط النهار فاستأجرت به بطر أصحابه .. فعمل فى بقية
نهاره كعمل رجل منهم نهاره كله .. فرأيت على من
الإكرام .. أن لا أنقصه شيئا مما استأجرت به أصحابه ..
لما اجتهد فى عمله فقال رجل منهم: أنعطى هذا مثل ما
أعطيتنى .. ولم يعمل إلا نصف النهار .. فقلت له يا عبد
الله: أنا لم أبخسك شيئا من شرطك .. إنما هو مالى ..
أحكم فيه بما شئت .. قال فغضب وذهب وترك أجرته
.. فوضعت حقه فى جانب من البيت ما شاء الله .. ثم
مر بى بعد ذلك بقر .. فاشتريت به فتميته .. فبلغت
ما شاء الله ..

فمر بى بعد ذلك شيخ ضعيف لا أعرفه .. فقال لى :
إن لى عندك حقا .. فقلت له: اذكره لى حتى أعرفه ..
قال: فذكره .. فقلت له: إياك أبغى .. وهذا حقك ..
وعرضتها عليه .. فقال: يا عبد الله .. لا تسخر بى .. إن
لم تتصدق علىّ فأعطينى حقى .. فقلت له : ما أسخر ..
إن هذا لحقك .. ومالى فيه شيء .. فدفعها إليه .. اللهم
إن كنت فعلت هذا لوجهك الكريم .. فافرج عنا
.. فانصدع الجبل حتى أبصروا الضوء ..

وقال الثانى : قد عملت حسنة مرة:

كان لى فضل مال .. وأصاب الناس شدة فجاءتنى
امراة تطلب منى معروفا .. فقلت: والله ما هو دون
نفسك .. فأبت على وذهبت .. ثم أنها رجعت ..
فذكرتنى بالله .. فأبيت عليها .. وقلت لها: والله ما هو
دون نفسك .. فأبت على وذهبت .. ثم أنها رجعت إلىّ
تنشدنى بالله .. فأبيت عليها .. وقلت لها: والله ما هو
دون نفسك .. فلما رأت ذلك أسلمت إلىّ نفسها .. فلما
كشفتها ارتعدت .. فقلت لها: ما شأنك؟ فقالت: إنى
أخاف الله رب العالمين .. فقلت لها خفتيه فى الشدة ..
ولم أخفه فى الرخاء .. فتركته .. وأعطيتها ما تحب ..

لوجهك الكريم .. فافرج عنا .. فانصدع الجبل حتى
تعارفوا ..

وقال الآخر: قد عملت حسنة مرة ..

كان لى أبوان كبيران .. وكان لى غنم فكنت أطعم
أبوى وأسقيهما .. ثم أرجع إلى غنمى..قال فأصابنى
يوما غيث فحبسنى حتى أمسيت .. فأتيت إلى أهلى ..
وأخذت محلبى .. فحلبت غنمى وتركتها قائمة ..
ومضيت إلى أبوى فوجدتهما قد ناما.. فشق على أن
أوقظهما .. وشق على أن أترك غنمى .. فما برحت
جالسا .. ومحلبى فى يدى .. حتى أيقظهما الصبح ..
فسقيتهما .. وعدت إلى غنمى ..

اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك الكريم فافرج عنا
ما نحن فيه..

وقال النعمان: لكأنى أسمع من رسول الله - ﷺ -

قال «كان الجبل طبق .. ففرج الله عنهم فخرجوا».

ولاشك أن هذا حديث جليل .. جمع من مكارم
الأخلاق أمهاتها .. فيه الأمانة .. وحفظ الحقوق ..
وصيانتها..وردها إلى ذويها .. وفيه كبح جماح النفس..

وحبسها عن شهواتها .. خشية من الله.. ورهبة من غضبه
وسخطه .. وفيه إكرام الوالدين .. ورعايتهما.. والحدب
عليهما .. إلا أن بعض رجال التفسير .. كالبيضاوى
وأبى إسحاق الشعلبى .. أوردا هذا الحديث .. على أنه
المقصود بأصحاب الكهف.. الوارد قصصهم فى القرآن
الكريم . حيث قال الشعلبى عن النعمان بن بشير
الأنصارى قال: «إن ثلاثة نفر خرجوا يرتادون
لأهلهم..» إلى آخر الحديث الذى ذكرناه..

ولست أدري أية علاقة بين هؤلاء الثلاثة .. الوارد
ذكرهم فى هذا الحديث .. وبين الفتية الذين آمنوا بربهم
وزادهم الله هدى .. وهربوا بدينهم .. وأووا إلى الكهف
.. وضرب الله - سبحانه على آذانهم فى الكهف سنين ..
بلغت ثلاثمائة وتسعا .. ثم بعثوا بعد تلك القرون .
حسب سياق القصة الواردة فى سورة .. سميت باسم
الكهف .. والنسب بدأها الله سبحانه بقوله «أم حسبت أن
أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجا» ٩/
الكهف.. وحقا إنها لآية عجب..



٢ مساجلة مع اليهود

روى أنه لما ولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -
رضى الله عنه - الخلافة .. أتاه قوم من أحبار يهود ..

وسألوه عن مفاتيح السماوات .. ماهى؟

وعن قبر سار بصاحبه؟

وعمن أنذر قومه .. لاهو من الجن .. ولا من

الإنس؟

وعن خمسة .. مشوا فى الأرض .. ولم يخلقوا فى

الأرحام؟

فقال لهم عمر: - رضى الله عنه -

لا عيب بعمر إذا شئل عما لا يعلم .. أن يقول لا

أعلم. وكان فى المجلس .. سلمان الفارسى - رضى الله

عنه - فوثب من مجلسه .. وأخبر بذلك عليا - رضى الله

عنه وكرم الله وجهه - فأقبل على .. يرفل فى بردة رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رآه عمر .. وثب قائما .

فاعتقه .. وقال يا أبا الحسن .. أنت لكل معضلة وشدة

تدعى .. فدعا على اليهود .. فقال لهم سلوا ما شئتم ..

سؤالا .. سؤالا .. فقالوا:

أخبرنا .. عن مفاتيح السماوات؟

قال: قوله لا إله إلا الله .. فإن قول لا إله إلا الله .. لو

جمعت السماوات السبع .. والأرض السبع ..

خرقتها حتى تبلغ إلى ربها .. قالوا : صدقت ..

فأخبرنا عن قبر سار بصاحبه؟

قال: الحوت .. الذى التقم يونس بن متى - عليه

السلام - فسار به فى البحر . قالوا: صدقت فأخبرنا

عمن أنذر قومه .. ليس من الجن .. وليس من الإنس؟ ..

قال: هى ثملة سليمان بن داود - عليهما السلام -

قالت : «يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم

سليمان وجنوده وهم لا يشعرون» قالوا: صدقت ..

فأخبرنا عن خمسة مشوا فى الأرض .. ولم يخلقوا

فى الأرحام؟ قال : ذلكم . آدم ، وحواء ، وناقصة صالح ،

وكبش إبراهيم ، وعصا موسى .

وكان الأحبار .. ثلاثة .. قال اثنان منهم: نشهد أن لا

إله إلا الله .. وأن محمدا رسول الله .. فهذا ما هو موجود

عندنا فى التوراة ..

فوثب الحبر الثالث من مجلسه .. وقال: يا على .

لقد وقع فى قلبى صاحبائى .. ما وقع من الإيمان

والتصديق .. وبقي لى سؤال .. فأخبرنى عن قوم ماتوا

قرونا .. ثم أحياهم الله .. فما كان من قصتهم؟ ..

قال على - رضى الله عنه -: هم أصحاب الكهف ..
وقد أنزل الله على نبينا .. قرآنا .. فيه قصصهم .. وإن
شئت قرأتها عليك ..

قال: كثيرا ما سمعنا قراءتكم .. ولكن أخبرنى عن
أسمائهم .. وأبسم مدينتهم .. وملكهم .. وقصتهم ..
فقصها عليهم .. وهو نفس السؤال .. الذى سأل
المشركون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنه بإيعاز
من اليهود .. فأنزل الله على رسوله « أم حسبت أن
أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجا » إلى آخر
الآيات ٩-٢٦ / الكهف ..

فلماذا كنا نعلم أن الكهف .. هو النقب المتسع فى
الجليل .. وما لم يتسع .. فهو غار .. فما معنى الرقيم ؟
اختلف المفسرون فى معناه .. حتى قال ابن
عباس - رضى الله عنهما - كل شئ فى القرآن أعلمه
.. إلا أربعة (١): غسلين .. وحنان .. والأواه ..
والرقيم ..

وقال ابن زيد: الرقيم كتاب .. غم الله علينا أمره ..
ولم يشرح لنا قصته ..

وإن كان بعضهم قال: هو اسم القرية .. التى خرجوا
منها .. أو الوادى الذى مشوا فيه إلى الكهف .. أو
صخرة كانت على الكهف كما قيل: هو جبل فى الأردن
فيه كهفهم ولكن المعنى .. الذى يلائم لغة العرب ..
وهى لغة القرآن الكريم .. أنه كتاب .. كما قال ابن زيد
- كتب فيه تاريخ هؤلاء الفتية .. وأسماءهم .. وأنسابهم
.. ودينهم .. ومن هربوا .. ولفظ الرقيم مأخوذ من
الرقم .. أى الكتابة .. ومنه « كتاب مرقوم » .. ومنه أيضا
سمى الأرقم لتخطيطه ..

ولا مانع أن يكون هذا الكتاب لوحا من الرصاص ..
نقش فيه تاريخهم .. ووضع فى تابوت من النحاس ..
على باب الكهف .. كما قال ذلك كثير من رجال
التفسير ..



٣ الفرار بالدين

قد بقى بعض جدرانها.. وهو فى فلاة من الأرض
خربة.. وبأعلى غرناطة.. مما يلى القبلة.. آثار مدينة
رومية قديمة. يقال لها مدينة دفيوس.. وجدنا فى آثارها
غرائب من قبور ونحوها- أه- (١).

والمهم عندنا.. أن تلك المدينة سواء كانت فى جنوب
تركيا.. أو فى الأندلس أو فى الأردن. ظالم كافر.. اسمه
دقيانوس.. وكان ذلك فى حكم الرومان فى زمن
الإمبراطور الرومانى- ترجان- فى سنة ١١٢ ميلادية..
وكان هذا الملك كافرا جبارا.. يعبد الأصنام.. ويقدم لها
القرايين.. ففتن قومه.. وسلط أهل الكفر.. على أهل
الإيمان.. يجمعون له.. فيقدمهم إلى المذابح التى يذبح
فيها للطواغيت. يخيرهم بين القتل. وبين عبادة
الأوثان.. وتقديم القرايين للأصنام.. فمنهم من تغلبه
شهوة البقاء فى الحياة الدنيا.. ويرهب القتل.. فيفتن عن
دينه.. ومنهم.

تدور أحداث هذه القصة.. كما أجمع المفسرون..
فى مدينة من مدن الروم.. اسمها أفسوس.. وسموها
العرب طرسوس.. وهى فى جنـب تركيا الآن.. ويقول
علماء الآثار إن أحداث هذه القصة كانت فى عمان-
عاصمة الأردن وكان اسمها- فلادلفيا وهذا هو الأصح
لاكتشاف آثارهم حديثا فى تلك البلاد. ولم يشذ من
المفسرين.. غير ابن عطية.. الذى يقول: يوجد بالأندلس
فى جهة، غرناطة.. بقرب قرية.. تسمى لوشة.. كهف فيه
موتى.. ومعهم كلب رمة.. وأكثرهم قد تجرد لحمه..
وبعضهم متماسك.. مضت عليهم القرون السالفة..
ويزعم ناس.. أنهم أصحاب الكهف.. دخلت
عليهم.. ورأيتهم.. سنة أربع وخمسمائة.. وهم
بهذه الحالة.. وعليهم مسجد.. وقريب منهم بناء
رومى.. يسمى الرقيم.. كأنه قص مخلوق..

(١) القرطبى ٩ / الكهف .

من يأبى أن يعبد غير الله .. فيقتل .. وجعل أهل الإيمان يسلمون أنفسهم للقتل والعذاب .. فيقتلون ويقطعون .. ثم تربط أجزاء مما قطع من أجسادهم .. وتعلق على سور المدينة .. من جميع نواحيها .. وعلى كل باب من أبوابها .. حتى عظمت الفتنة على المؤمنين فمنهم من كفر فترك .. ومنهم من صلب على دينه بقى . اتخذ هذا الملك الجبار ستة وزراء له .. فتية من أبناء أشرف القوم .. وقيل كانوا من أهل بيت الملك .. فى أول مرحلة الشباب .. ثلاثة منهم مجالسهم عن يمين الملك .. وثلاثة عن يساره .. وأسماءهم أعجمية .. والسند فى معرفتها واه ..

اختلف المفسرون فى أسمائهم .. ولكن الغالب على أن الثلاثة الأول هم: يملیخا، ومكسلمینا، ومحسلمینا .. والثلاثة الآخرون هم: مرطونس، وكشطونس، ودينموس .. ووردت فى كتب التفسير بأسماء مختلفة كثيرة .. وإنما المتفق عليه أكبرهم سنا وهو مكسلمینا .. وأصغرهم وهو يملیخا . كانوا على دين الملك . وكان الملك يستشيرهم فى كل أمر .. ثم شرح الله صدورهم للإيمان .. وكان كل منهم يكتم إيمانه فى سويداء قلبه .. خشية الفتنة .. وخوفا من الكافر الجبار .. سماهم الله سبحانه - فتية .. كما سمى من قبلهم أبو الفتيان إبراهيم - عليه السلام - لأنهم شباب أحداث .. وحكم الله لهم بالفتوة .. حين آمنوا بلا واسطة .. وقيل: الفتوة بذل السدى .. وكف الأذى .. وترك الشكوى .. واجتناب المحارم .. واستعمال المكارم .. كما قيل: إن الفتى من لا يدعى قبل الفعل .. ولا يزكى نفسه بعد الفعل ..

وكان الستة يأكلون كل يوم عند واحد منهم .. وكان يوم يملیخا .. فأكلوا وشربوا .. ولم يأكل يملیخا ولم يشرب معهم فسألوه: مالك؟

فقال: وقع فى قلبى شىء منعنى من الطعام والشراب والنم .. وهنا خفت قلوبهم .. واختلجت أوصالهم .. وقالوا: ماهو هذا الأمر يا يملیخا؟ قال: لقد أطلت فكرى فى هذه السماء .. من يرفعها سقفا محفوظا .. بلا علاقة من فوقها .. ولا دعم من تحتها؟ ..

ومن أجرى فيها شمسها وقمرها؟ .. ومن زينها بالنجوم؟ .. ثم أطلت فكرى فى الأرض .. من سطحها على ظهر اليم الزاخر؟ .. ومن حبسها وربطها بالحبال الرواسى لثلا تميد؟ ..

ثم أطلت فكرى فى نفسى .. فقلت: من أخرجنى جنيئا من بطن أمى؟ .. ومن غذانى وربانى؟ .. إن لهذا صانعا ومديرا سوى دقيانوس وآلهته .. وأخذوا يعاقبونه ويقبلونه .. وقال كل واحد منهم: وقع فى قلبى .. ما وقع فى قلبك .. وتعارف الفتية الستة على الإيمان ..

وانتشر خبر إيمانهم .. لما امتنعوا عن تقديم الذبائح للطواغيت .. وبلغ الملك أمرهم .. فاستدعاهم .. ودعاهم إلى عبادة أصنامهم وتقديم الذبائح إليها ..

ويهب مكسلمینا أكبرهم .. فى وجه الظالم .. قائلا: إن لنا إلها نعبد .. ملأ السماوات والأرض .. بعظمته وجلاله .. لن ندعو من دونه إلها أبدا .. فاصنع بنا ما بدا لك .. اقرأ قول الله - تبارك وتعالى - عن هذا المشهد «نحن نقص عليك نبأهم بالحق .. إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا» ١٣ - / ١٥ الكهف ..

ربط الله سبحانه - على قلوبهم .. وثبت اليقين فى صدورهم .. وأزال الخوف من نفوسهم .. فقاموا بين يدى الظالم .. وجابهوه بالحقيقة .. دون رهبة أو وجل ..

فنزع عنهم الكافر لباس العظماء .. وهددهم .. وتوعدهم .. ولكنه أجل قتلهم .. لحدائة سنهم .. عليهم يرجعون .. ولأوثانه يعبدون .. وازداد الملك فى ظلمه وطغيانه .. وبغيه وكفرانه .. يقتل فى كل يوم عددا من المؤمنين .. ويقطع أجزاء من أجسادهم .. فحزن الفتية لذلك .. وملكهم الأسى والألم .. واعتزلوا قومهم .. حتى تغيرت ألوانهم .. ونحلت أجسامهم .. واستعانوا بالصلاة والصيام .. والتسبيح والتحميد .. والتهليل

والتكبير.. والبكاء والتضرع إلى الله عسى أن يوجد لهم من هذا الضيق مخرجاً.. فقالوا: «ربنا آتنا من لدنك رحمة وهىء لنا من أمرنا رشداً» ١٠ / الكهف..

وروى أن دقيانوس الظالم.. ذهب إلى نينوى.. فاتفقوا على الهروب.. قبل أن يعود (١) فأخذ كل منهم من بيته نقوداً.. تصدقوا ببعضها.. واحتفظوا بالباقي مع بليخا -- وكان أرجحهم عقلاً.. وخرجوا من المدينة.. هاربين بدينهم.. فارين بإيمانهم.. ترعاهم رحمة الرحمن.. ويهديهم نور الإيمان ولعلمهم عندما تصدقوا ببعض مالهم.. قبل فرارهم إلى الله كانوا يحسون أن مناجاة الله.. تحتاج إلى صدقة بين يديها.. «وقدموا بين يدي لنجواكم صدقة» تطهرهم وتزكيهم.. ليكونوا أهلاً لمناجاة مولاهم.. ولهذا يقول الله تبارك وتعالى - لرسوله «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها».. وحملهم المال عند فرارهم.. دليل على أن حمل النفقة.. وما يلزم المسافر هو رأى المتوكلين على الله دون المتكئين على الظروف والاتفاقات.. وروى عن بعض العلماء.. أنه كان شديد الخين إلى بيت الله.. فقالوا: له ما يمنعك عن السفر إليه؟.. قال: ما لهذا السفر.. إلا شيطان: شد الهميان.. والتوكل على الرحمن.. والهميان بكسر الهاء: الدراهم.. وهى كلمة معربة (٢).

وروى أنهم خرجوا.. يلعبون بالصولجان والكرة.. يدحرجونها فى طريقهم.. اقرأ: «وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله.. فآووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا».

١٦ / الكهف / وهذه الآية صريحة.. فى الفرار بالدين والهجرة.. وها نحن نرى النبى - صلى الله عليه وسلم والصحابة.. يهاجرون.. رجاء السلامة بالدين.. والنجاة من فتنة المشركين.. وقد فضلها جماعة علماء المسلمين.. وخاصة عند ظهور الفتن وانتشار الفساد.. لقد اعتزلوا قومهم.. والعزلة: اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك.. إن كنت بين أظهرهم.

وجاء فى الخبر «إذا كانت الفتنة.. فأخف مكانك.. وكف لسانك..» وقال عقبة بن عامر.. لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما النجاة يا رسول الله؟.. فقال: «يا عقبة.. أمسك عليك لسانك.. وليسعك بيتك.. وأبك على خطيئتك»..

هذا عند اشتداد الفتن، إذا عزت الهجرة.. أما فى الأيام العادية.. فمخالطة الناس أوجب.. مع تحمل أذاهم.. فقد قال - صلى الله عليه وسلم - «المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالطهم.. ولا يصبر على أذاهم» (٣).. وقال ابن المبارك: العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خاضوا فى ذكر الله.. فخص معهم.. وإن خاضوا فى غير ذلك.. فاسكت.. وجاء رجل إلى وهب بن منبه.. فقال: إن الناس قد وقعوا فيما فيه وقعوا.. وقد حدثت نفسى.. ألا أخالطهم.. فقال: لا تفعل.. إنه لا بد لك من الناس.. ولا بد لهم منك.. ولك إليهم حوائج ولهم إليك حوائج.. ولكن.. كن فيهم.. أصم سميعاً.. أعمى بصيراً.. سكوتاً نطقاً..

ولملك يا قارئ العزيز.. قد قرأت فى كتب التفسير.. سببا آخر لإيمانهم وهروبهم.. فقد ورد فى كثير منها.. أن أحد الخواريين أراد دخول مدينتهم.. فأجر نفسه من صاحب الحمام.. وتبرك به صاحب الحمام.. وعرف الخوارى الفتية فدعاهم إلى الإيمان.. فأمنوا به واتبعوه.. واشتهر أمرهم.. وأتى ابن الملك بامرأة.. أراد أن يخلو بها فى الحمام.. فنهأ الخوارى عن ذلك.. ولكن ابن الملك.. أصر على تنفيذ ما يريد.. واختلى بصاحبه.. فماتا فى الحمام.

واتهم الخوارى وأصحابه بقتلهم.. ففروا جميعاً.. ولكننا نميل إلى رأى الأول.

فهم فتية آمنوا بدون واسطة.. كما آمن من قبلهم أبو الفتيان.. إبراهيم.. عليه السلام.. كما أن سياق القرآن الكريم.. يبين أنهم جابهوا الظالم بإيمانهم.. وطعنوا فى آلهته وأوثانه.. وربط الله على قلوبهم عندما قاموا أمامه وقالوا: «ربنا رب السماوات والأرض.. لن ندعوا من دونه إلها» كما بينا ذلك سابقاً..

(٢) من تفسير النسفى ١٩ / الكهف..

(١) من جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى

(٣) القرطبي ١٠ / الكهف.

٤ الضرب على آذانهم رحمة

لجأ الفقية إلى الله .. وقالوا: «ربنا آتانا من لَدُنكَ
رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا».

وهل يلجأ المؤمن في الشدائد إلا إلى مولاه يسأله
الرحمة؟ .. وكان صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر
لجأ إلى الصلاة..

فاستجاب الله - تعالى - لهم .. وألهمهم أن يهاجروا
.. وأن يأووا إلى الكهف .. بعد أن اعتزلوا قومهم .. وما
يعبدون من دون الله زمتا ..

وفي الطريق لقيهم راع مؤمن .. يرعى غنمه في
الوادي .. عرف بغيتهم .. وأراد صحبتهم .. وكان مؤمنا
يكتنم إيمانه .. فسار معهم .. وصاروا سبعة .. وتبعهم
كلب .. يغلب أنه كلب الراعى .. وفي كل كتب التفسير
.. تقريبا .. قصة غريبة عن هذا الكلب .. قرأتها في
أمهات كتب التفسير .. كالقرطبي .. والنسفي ..
والبيضاوي .. والطبري .. وغيرهم - وليس على قدرة الله
شيء يستغرب - فقالوا - رواية عن كعب - إن الكلب
تبعهم .. فطردوه .. فعاد .. فطردوه مرارا .. فقام الكلب
على رجله .. ورفع يديه كهيئة الداعي .. فنطق.

فقال : لا تخافوا مني .. أنا أحب أحب الله ..
فدعوني أحرسكم .. فازدادوا إيمانا بالله .. وقال كعب:
وهذا معنى «وزدناهم هدى».

قال ابن عطية حلثني أبي رضى الله عنه - قال:
سمعت أبا الفضل الجوهري .. في جامع مصر .. يقول
على منبر وعظه .. سنة تسع وستين وأربعمائة:

إن من أحب أهل الخير .. نال من بركتهم .. كلب
أحب أهل فضل وصحبهم .. فذكره الله في محكم
تنزيله .. حيث قال: «وكلبهم بأسط ذراعيه بالوصيد».

وروى في الصحيح عن أنس بن مالك .. قال: بينا أنا
ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - خارجان من
المسجد .. فلقينا رجلا .. عند سدة المسجد .. فقال: يا
رسول الله .. متى الساعة؟ فقال - صلى الله عليه وسلم -
- له «ما أهدت لها»؟ .. قال أنس: فكان الرجل
استكان .. ثم قال: يا رسول الله .. ما أهدت لها كثير
صلاة ولا صيام ولا صدقة .. ولكني أحب الله ورسوله ..

قال: «فأنت مع من أحببت».. قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر.. فأرجو أن أكون معهم.. وإن لم أعمل عملهم.

ويقول القرطبي: وكذلك تعلقنا أطماعنا بذلك.. وإن كنا مقصرين.. ورجونا رحمة الله.. وإن كنا غير مستأهلين.. كلب أحب قوما.. فذكره الله معهم.. فكيف بنا.. وعندنا عقد الإيمان.. وكلمة الإسلام.. وحب النبي عليه الصلاة والسلام؟..

ولجأ السبعة إلى الكهف.. في جبل يقول المؤرخون: اسمه جبل بنجلوس.. ومعهم الكلب.. وقد يقول قائل: إن القرآن الكريم.. لم يصرح بحقيقة عددهم حيث يقول: «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم، رجما بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل» ٢٢ / الكهف..

ويقول ابن عباس: أنا من ذلك القليل الذي استثناه الله كانوا سبعة وثمانهم كلبهم (١)

وقد استدلل ابن عباس على ذلك.. من نص الآية: **«قال قائل منهم كم لبثتم»** وهذا واحد.. وقالوا في الإجابة عليه: **«قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم»** وهو جمع.. وأقل الجمع ثلاثة فصاروا أربعة.. ثم قال: **«قالوا ربكم أعلم بما لبثتم»** وهؤلاء جمع آخرون.. فصاروا سبعة..

لقد أخبر الله رسوله بجعدال سيحدث بين أهل التوراة.. أو بين النصارى.. حول عددهم.. فروى أن وفدا من نصارى نجران حضروا النبي — صلى الله عليه وسلم — وجرى ذكر أصحاب الكهف.. فقال اليعقوبية: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم.. وقال النسطورية: كانوا خمسة سادسهم كلبهم.. وقال المسلمون كانوا سبعة وثمانهم كلبهم.. ولم يذكر الله — سبحانه — عبارة «رجما بالغيب» بعد العدد الأخير.. وإنما ذكرها بعد

العديد الأول والثاني وهذا دليل على أن العددين خطأ.. وأن العدد الأخير.. الذي لم يقدح الله فيه بشيء.. هو الصواب.

ومما يلفت النظر.. أن القرآن الكريم.. لم يذكر الواو في ثلاثة رابعهم.. ولا في خمسة سادسهم.. وذكرها في سبعة وثمانهم.. وقيل تعليلا لذلك: إن قريشا.. كانت تقول في عدها: ستة سبعة وثمانية.. فتدخل الواو في الثمانية فقط.. كما قيل: إن العرب ينتهي العدد عنهم إلى سبعة.. فإذا احتيج إلى الزيادة عليها.. استؤنف عدد آخر بإدخال الواو.. وهذا يتضح في قوله تعالى من سورة التوبة «التائبون.. العابدون.. الحامدون.. السائحون.. الرাকعون.. الساجدون.. الآمرون بالمعروف» فانتهى — سبحانه — إلى سبع صفات.. بدون إدخال الواو.. ثم قال في الصفة الثامنة «والناهون عن المنكر» بإدخالها.. وقرأ كذلك من سورة التحريم «خيرا منكن.. مسلمات.. مؤمنات.. قانتات.. تائبات.. عابدات.. سائحات.. ثيبات» فكانت سبعة.. وزيدت الصفة الثامنة بالواو.. فقال «وأبكارا»..

ولما ذكر — سبحانه — أبواب جهنم — وهى سبعة — لها سبعة أبواب» قال «حتى إذا جأها ففتح أبوابها» بدون ذكر الواو قبل فتحت.. ولكن لما ذكر الجنة قال: «وفتحت أبوابها» فأدخل الواو فالسبعة نهاية العدد عند العرب.. ولهذا يذكرها القرآن الكريم دائما للإشارة عن العدد الكبير.. «كمثل حبة أنبثت سبع سنابل» و «في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا» و «الذي خلق سبع سماوات طباقا» و «إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» وغيرها كثير.. وكما نقول نحن بلغتنا الدارجة: فلان مثل القطط له سبعة أرواح.. أى أرواح كثيرة لا تحصى.. ونقول على سبيل الاستحالة: والله لو عملت السبعة.. نقصد أكبر العدد.

(١) الطبرى والنسفى والقرطبى وغيرهم ٢٢ / الكهف..

ولعلنا نفهم الآن.. أن تحديد أبواب جهنم بأنها سبعة.. دليل على أن الأبواب الموصلة إلى جهنم كثيرة .. لا يحصرها عدد.. ولا يحددها حد.. نعوذ بالله منها.. ونستعين به فى البعد عنها واجتنابها..

وقال قوم: ذكر الله الواو فى «وثامنهم» لينبه على أن هذا العدد هو الحق.. فقد كانوا سبعة وكلبهم الثامن.. ألقى الله - تعالى - عليهم النوم.. وعلى الكلب معهم.. «فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا» ١١ / الكهف. وخص الله - سبحانه - الأذان.. لأن النوم.. لا يتم إلا من جهة الأذن.. ولا يستحكم النوم.. إلا من تعطل السمع.. وقال - صلى الله عليه وسلم - : «ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه» بمعنى أنه طويل النوم لا يقوم الليل..

وعاد الملك الكافر- دقيانوس - من رحلته.. وبحث عنهم.. فلم يعثر عليهم.. فافتى أثرهم بأعوانه.. حتى انتهى به الأثر إلى الكهف.. وعرف أنهم فى داخله.. فأقام عليهم سدا ليموتوا فيه جوعا وعطشا..

هكذا أراد الله - سبحانه - تكريما لهم.. وحفظا لأجسامهم.. فلا يحول ولا يطوف بها شيء ولعل الرعب الذى ضربه الله - تعالى - حولهم.. هو الذى منع دقيانوس من الدخول عليهم .. أو الاقتراب منهم..

فأمر بسد الكهف عليهم .. وكان فى بيت دقيانوس .. رجلان مؤمنان .. يكتمان إيمانهما اتفقا على كتابة تاريخ هؤلاء الفتية .. فى لوح من الرصاص .. كتب فيه شأنهم وأسماءهم .. وأنسابهم .. وتاريخ فرارهم بدينهم .. وأخفوا اللوح فى تابوت من نحاس .. وختموه بخاتمهما .. ووضعوه بين ظهرائى بناء السد.. وهذا هو الرقيم .. الذى أشرنا إليه من قبل ..

لقد لجأ الفتية إلى الكهف ينشدون الرحمة .. فبعد أن قالوا: «ربنا آتنا من لدنك رحمة وهىء لنا من أمرنا رشدا» اللهم الله - سبحانه وتعالى - اللجوء إلى الكهف .. بقوله: « فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا» فماذا كانت تلك الرحمة؟ كانت الرحمة «فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا» .. يا سبحانه الله ، الضرب على آذانهم فى الكهف رحمة ، نعم .. تلك هى الرحمة بهم .. ينامون حتى يأتى وعد إعلاء كلمة الله .. وحتى تخفق أعلام التوحيد تملأ الدنيا .. بالحب والحق .. والخير والسلام .. ليروا أن الباطل مهما علا وارتفع .. فلا بد من أن يقلب الله عليه بالحق.. فيدمغه فإذا هو زاهق .. وتلك هى الرحمة التى ينشدونها .. وليكونوا لمن خلفهم آية عجا..



فى الكهف

عرض الله - تعالى - علينا مشهد الكهف.. فى صورة رائعة رهية.. ففى وقت الشروق.. ثمل الشمس عن كهفهم.. وعند الغروب.. تركهم فلا يصيبهم منها شىء.. وكان للكهف حاجبا من جهة الجنوب.. وحاجبا من جهة الشمال.. وهم فى زاوية منه.. لا تصيبهم الشمس.. لا فى الصباح.. ولا فى المساء.. « وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال » ١٧ / الكهف.. وقيل فى معنى تقرضهم : أنه يصيبهم منها اليسير.. عند الغروب.. لصالح أجسامهم.. ولفظ « تقرضهم » من قراضه الذهب والفضة أى البرادة الدقيقة منهما .

لكأنى أراهم نائمين.. فى فجوة منه « وهم فى فجوة منه ».. والفجوة : المتسع.. ومنه قول الشاعر العربى .
ونحن ملأنا كل واد وفجوة

رجالا وخيلا غير ميل ولا عزل
أكاد أراهم .. فى ضجعتهم تلك .. عيونهم مفتوحة .. تبدو على ثغورهم بسمة رقيقة.. يخیل للرائى أنهم أيقاظ.. تكاد الكلمات تخرج من بين ثناياهم المتلألئة .. « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود »

راقدون فى مكان واسع منفسح من الكهف.. ينالهم فيه روح الهواء.. وبرد النسيم.. لتحفظ الأجسام بليتها وطراوتها وحيويتها.. تنزل عليهم ملائكة الرحمن.. لتقلب أجسامهم يمينا تارة.. ويسارا تارة أخرى.. حتى لا تأكل الأرض أجسامهم.. أو تتحجر تلك الأجسام.. إن لم يصبها البلى.. « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ».

وهذا كلبهم.. قابع بالباب أمامهم.. وقد بسط ذراعيه.. رافعا رأسه.. ناظرا إلى لا شىء « وكتبهم باسط ذراعيه بالوصيد ».. والوصيد .. هو الباب .. ومنه قول الشاعر:

بأرض فضاء لا يسد وصيلها

على « ومعروفى بها غير متكر
منظر مهيب وهيب.. يبعث فى النفس الخوف والرعب.. « لو اطلعت عليهم لو ليت منهم فراراً وملت منهم رعبا » ١٨ / الكهف .

وروى عن معاوية .. أنه غزا الروم .. فمر بالكهف .. فقال : أريد أن أدخله .. وكان معه ابن عباس .. فقال له : لقد قيل لمن هو خير

منك: «لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا» .. ودخله جماعة بأمر معاوية .. فأحرقتهم ربح (١).

يقول عمرو بن دينار: إن مما أخذ على العقرب .. ألا يضر أحدا قال في ليله أو نهاره .. «سلام على نوح» .. ومما أخذ على الكلب ألا يضر من حمل عليه إذا قال «وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد».

وقد أجاز الشرع اقتناء الكلب .. للصيد والزرع والماشية .. ومن حقنا الآن .. أن نقول لهؤلاء الذين يزعمون أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب .. نقول لهم: إن الملائكة كانت تنزل على أصحاب الكهف تقلبهم وتقلب معهم كلبهم.

ومرت الأرواح والقرون .. عاما إثر عام .. وقرنا تلو قرن .. وقد حفهم الله - تعالى - بالرعب .. واكتنفهم بالهيبة .. خشية مرقدهم .. وجلال مكانهم .. لينفر الناس عنهم .. لا يجرؤ أحد على الدنو من هذا المكان .. ويقول بعض المفسرين: كان الفرار منهم .. لطول شعورهم وظافارهم..

ويذكرني هذا الرأي .. بندوة تعليمية .. كانت بدار المعلمين بطنطا .. على ما أذكر لنقد الكتاب المدرسى .. وكان ذلك في أوائل الستينات .. وشاركت في تلك الندوة بنقد كتاب التربية الدينية .. للصف السادس الابتدائى .. وكان فيه قصة أهل الكهف .. وذكر فيه مؤلفه - غفر الله له - أنهم قاموا من نومهم .. وقد طال أظفارهم .. واسترسلت شعورهم .. ولم يكتف المؤلف بهذا القول .. بل عرض قبائله صورة جميلة ملونة مصقولة .. ظهر فيها أصحاب الكهف .. حال قيامهم من النوم .. وقد استرسلت لحاهم إلى أسفل بطونهم أشبارا .. وامتدت أظفارهم .. فصارت أمثارا..

وعرضت هذا الكلام .. وذلك المنظر .. على السادة المشرفين على الندوة .. وقلت لهم

(١) النسفى والبيضاوى ١٨ / الكهف ..

لو أن تلميذا ذكيا .. سألنى وأنا أدرس للتلاميذ هذه القصة .. وقال لى يا أستاذ .. إذا كان منظرهم هكذا .. عند قيامهم من النوم .. فلماذا قالوا لبيتنا يوما أو جوعا من يوم .. وهم يعلمون أنهم ناموا شبابا .. ويرون الآن أنفسهم فى تلك الأجسام الضاربة فى الشيخوخة؟ .. فبماذا أجيب هذا التلميذ؟

الحقيقة .. أن الزمن .. توقف بالنسبة لتلك الأجسام .. فلا تنفس .. ولا غذاء .. وبالتالى لا تطور .. ولا نماء.

ومدة نومهم تلك .. تعتبر نقصا من العمر .. غير محسوبة فيه .. والنقص من العمر لا يكون فى طرف من أطرافه وإنما يكون فى وسطه .. بمعنى: إذا كان أحدهم قد نام وعمره عشرون سنة .. يقوم من نومه بعد تلك القرون .. وعمره مازال عشرين سنة .. وله ما بقى من عمره المقدور .. تماما كما حصل لنبي الله - عزير - عليه السلام - حيث نام مائة عام .. والنوم موت «فأماته الله مائة عام ثم بعثه» وكانت سنة قبل موته خمسين عاما كما روى عن على - رضى الله عنه وكرم وجهه - أن عزيرا خرج من أهله .. وخلف امرأته حاملا .. وله خمسون سنة .. فأماته الله مائة عام .. ثم بعثه .. فرجع إلى أهله .. وهو ابن خمسين .. وله ولد ابن مائة سنة .. فكان ابنه .. أكبر منه بخمسين سنة .. كما ذكرنا ذلك فى نبأ عزير.

«ولبشوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا»

٢٥ / الكهف.

وهنا سر من الأسرار الفلكية .. فى القرآن الكريم .. وكم فيه من أسرار لا يعلمها إلا الله .. فقد ثبت فلكيا .. وبالحساب الدقيق .. أن الثلاثمائة سنة ميلادية .. تزيد تسع سنوات بالتاريخ الهجرى .. تماما .. لا تفرق دقيقة ولا ثانية ولا ثالثة .. فكان الله حدد مدة نومهم ميلاديا

وهجريا .. فسبحان مقدر السنين والحساب.

ويبدو من نص القرآن الكريم .. أن الناس قد انقسموا إلى حزبين .. فى تقدير مدة نومهم .. لقوله تعالى: «ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أخصى لما لبثوا أمدا» والأمد.. هو الغاية .. لقول النابغة:

ألا لملك أو من أنت سابقه

سبق الجواد إذا استولى على الأمد

ولهذا عندما حدد الله - سبحانه - مدة نومهم بثلاثمائة

سنين وازدادوا تسعا .. قال:

«قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض»

٢٦ / الكهف.

قاموا من تلك النومة الطويلة .. المتغلغلة فى أعماق الزمن . أجسامهم على حالها.. لم يمتد لهم شعر .. أو يطل ظفر .. أو تتغير خلية فى جسم .. أو تتبدل هيئة فى وجه .. ولم يبل لهم ثوب «وكذلك بعثناهم ليستاءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم» بعثناهم على حالهم التى كانوا عليها .. من هيئة وثياب وأحوال .. كما زدناهم هدى.. وضربنا على آذانهم .. وقلبناهم كذلك أيقظناهم.

قال امرؤ القيس :

وفتيان صدق قد بعثت بسحرة

فقاموا جميعا بين عاث ونشوان

والسحرة : وقت السحر.

ومضى أحدهم متثابا.. قال: «كم لبثتم» ؟ فقال جماعة منهم: يخيل لنا أننا نمنا يوما كاملا .. أو أغلب اليوم «قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم». وقال الباقيون: «قالوا ربكم أعلم بما لبثتم» وتركوا الأمر لله .. فهو الذى يعلم

الحقيقة .. لأن النائم لا يستطيع أن يحدد مدة نومه .. «فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أركى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف، ولا يشعروا بكم أحدا» ١٩ / الكهف.

قاموا ينهش الجوع أحشاءهم .. ويلوى الضوى أمعاءهم . فطلبوا من يملئها خازن أموالهم .. وأصغرهم سنا .. أن يدخل المدينة متنكراً .. فى لطف ولين جانب حتى لا يعرفه أحد .. من أتباع الملك - دقيانوس - فىشى به وبهم إليه .. ويعرف عيونه مكانهم .. الذى اختبأوا فيه «إنهم إن يظهروا عليكم يرموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا» ٢٠ / الكهف.

والرجم أقسى أنواع القتل .. وأقسى منه الارتداد فى الكفر بعد الإيمان.

وأوصوه بانتقاء أركى الطعام .. يقصدون الطعام الطيب الحلال .. الذى ليس فيه لحم مذبوح باسم آلهة - دقيانوس - وإن كانت أركى تفيد معنى الأكثر .. لقول الشاعر:-

قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة

وللسبع أركى من ثلاث وأطيب

بمعنى أكثر .. وعلى هذا يكون الحلال الجيد .. وإن

قل .. أكثر من الحرام الخبيث وإن كثر.

ويقول بعض المفسرين بالعد فى الحروف والكلمات: إن كلمة «وليتلطف» تقع من ناحية عدد حروف القرآن .. فى منتصف القرآن تماما.. بمعنى أن النصف الأول من الكلمة وهو «ولى» هى آخر النصف الأول من القرآن.. ونصفها الثانى وهو «تلطف» هى أول النصف الثانى منه.

٦ آية البعث

ولجأ فى هذا الأمر إلى الله .. ليظهر آية تجعل أعناق القوم لها خاضعين .

وأجمع المفسرون على أن هذا الملك الصالح .. لبس المسوح . ودخل محرابه .. وأغلق عليه بابه .. وجلس على الرماد .. وبقي على هذا الحال .. ليلاً ونهاراً .. يتضرع إلى الله .. ويبكى .. طالبا منه حجة وبيانا عن البعث لهداية قومه.

وقبل أن نستطرد فى رحلتنا تلك .. مع أصحاب الكهف وبعثهم .. بعد نومهم هذا الطويل .. أستمح القارئ الكريم .. فى وقفة قصيرة .. أمام عقيدة البعث لمناقشة أفكار رسخت فى أذهان عامة الناس حيالها ..

فالناس يعتقدون أن الله - سبحانه يبعث تلك الأجسام بشحمها ولحمها .. وحجتهم فى ذلك أن اليد هى التى سرقت وبطشت .. والعين هى التى نظرت وزنت .. واللسان هو الذى كذب ونم .. والأذن هى التى تسمعت وتجنست . فلزم أن تعود تلك الأعضاء يوم البعث لتذوق العذاب .. وهذا اعتقاد خاطئ .. لأن تلك الأعضاء أمانات خلقها الله لنا ..

هلك دقيانوس .. الملك الكافر الظالم .. وهلك بعده ملوك وملوك .. تقوم دولة .. لتزول دولة .. وزالت دولة الطاغوت .. وحلت مكانها دولة الإيمان .. وحكم أفسوس ملك صالح.

يقول المفسرون والمؤرخون .. إن اسمه تيدوسيس .. وأنه ملك ثمانيا وستين سنة (١)

ويقول المؤرخون إن تيدوسيس حكم تلك البلاد من عام ٤٠٨ ميلادية .. ومن هنا نلمس صدق القرآن تاريخيا .. حيث فر الفتية بدينهم فى أيام دقيانوس الظالم سنة ١١٢م وقاموا من نومهم فى أيام تيدوسيس الذى حكم من سنة ٤٠٨م

وكان الناس أحزابا .. فمنهم من يؤمن بالله .. ويعلم أن الساعة آتية لا ريب فيها .. وأن الله يبعث الأرواح والأجساد معا .. ومنهم من يؤمن ببعث الأرواح لا الأجساد .. واختلفوا فى ذلك اختلافا كثيرا .. وإن كانوا متفقين على كلمة التوحيد .. وقد حاول الملك الصالح .. تيدوسيس أن يوحد بين قومه فى عقيدة البعث .. فلم يستطع .. واغتم لذلك غما شديدا ..

(١) الطبرى .

لاستعمالها فى نواحي الخير .. فأسأنا نحن استخدامها .. فالمستولية علينا .. لا عليها .. تماماً كالجندي .. سلمته الدولة سلاحاً .. لحفظ الأمن .. فاستعمله استعمالاً خاطئاً .. فالعقاب .. فى هذه الحالة يقع على الجندي لا على السلاح .. ولتوضيح هذا المعنى .. نقول إننا نرى على شاشة السينما أو التلفزيون .. ممثلين ومغنيين .. ماتوا من عشرات السنين .. نراهم الآن رأى العين .. بأيديهم وأرجلهم وأعينهم وآذانهم وذواتهم .. ونسمع أصواتهم بالسنتهم .. هذا التسجيل لهم لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .. وهو جزء من كتاب حسابهم يوم البعث.

فحياة الإنسان مسجلة عليه .. من لحظة ميلاده .. إلى لحظة موته .. فى سجل .. تلبو فيه السرائر ... وتبرز الخواطر .. وهذا المعنى ظاهر بوضوح .. فى قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (١) .. فهذا العمل المنسوخ المصور هو نفسه شاهد علينا يوم البعث .. ومنه يبرز معنى قوله تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (٢) فأرى نفسى .. وأنا أسرق أو أزنى أو أقتل .. ولنسترسل معاً .. مع الآية « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا » (٣).

فإذا فهمنا من هذا النص .. أن الجلود هى الأعضاء التى هى ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم .. جاز لنا أن نستعرض قول الله - تبارك وتعالى - « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » (٤) أى كلما بليت ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم .. بدلهم الله السنة وأيدياً وأرجلاً أخرى .. غير التى بليت .. ليذوق أصحاب تلك الأعضاء العذاب وليس العذاب للأعضاء بذواتها .. وإلا فما ذنب غيرها ؟ .. الأعضاء التى أخطأت عذبت وبليت .. فما

ذنب الأعضاء الجديدة؟؟

وقد أدى هذا الفهم الخاطئ .. إلى تفسير خاطئ يقوله العوام .. فى معنى قوله تعالى « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (٥) فقالوا : (منها خلقناكم) للعمل والأجر والشواب .. وهذا صحيح وحق .. « وفيها نعيدكم » أى للودود والتراب .. وهذا خطأ وباطل .. لأن الله - سبحانه - يقول : « وفيها نعيدكم » ولم يقل وإليها نعيدكم وإنما هى إعادة للحياة الثانية .. اقرأ معي « كما بدأنا أول خلق نعيده » (٦) وقرأ .. أيضاً « كما بدأكم تعودون » (٧) .. وتأمل « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (٨) وانظر « فيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة » (٩) .. واعتقد أن الإعادة فى كل تلك الآيات وغيرها تفيد معنى الإعادة بالخلق الجديد بعد الموت .. فالحق - سبحانه - يقول على لسان المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث « يقولون أننا مردودون فى الحافرة ؟ إذا كنا عظاماً نخره ؟ قالوا تلك إذا كرة خاسرة » (١٠) أرايت معنى الرد فى الحافرة .. أى الإعادة فى القبر الأرضى ؟ .. إنها هى الإعادة للروح بالجسم الجديد .. الذى لا نعلم كنهه وتركيبه .. ولا نعرف الآن عناصره وتكوينه .. لأن الله يقول : « ولقد علمتم النشأة الأولى » (١١) علمتم الأولى فقط .. التى تحبون بها الآن .. ولا شأن لكم ولا علم بالنشأة الثانية .. ولأنه يقول أيضاً « وننشئكم فى مالا تعلمون » (١٢) .. فكيف نقول إننا نعلم البعث بتلك الأجسام الطينية؟

ستكون الإعادة فى القبور .. بأجسام جديدة لا نعلمها .. فلا تقوى هذه الأرض على حملها .. لأنها ليست من مادتها .. ولا من عناصرها .. فتضطرب الأرض وترجف .. وتلقى من عليها إلى الأرض الجديدة « يوم تبدل الأرض غير الأرض » (١٣) .. وهذا المشهد واضح فى قوله تعالى : « يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة » (١٤) وفى آية أخرى .. حول نفس المشهد « فلأنما هى زجرة واحدة فإذا

(١) ٢٩ / الجاثية

(٢) ٢٤ - النور.

(٣) ٢١ - فصلت.

(٤) ٥٦ / النساء

(٥) ٥٥ - طه.

(٦) ١٠٤ - الأنبياء.

(٧) ٢٩ / الأعراف.

(٨) ٢٧ - الروم.

(٩) ٥١ - الإسراء.

(١٠) ١٠ - النازعات.

(١١) ٦٢ - الواقعة.

(١٢) ٦١ - الواقعة.

(١٣) ٤٨ - إبراهيم.

(١٤) ٦ - النازعات.

هم بالساهرة» (١) .. هي الأرض الجديدة .. وتكون تلك الزجرة .. أو هذه الرادفة .. هي معنى قوله تعالى: «ومنها نخرجكم تارة أخرى» أى نخرجكم من تلك الأرض .. إلى الأرض الجديدة البديلة .

وهذا واضح أيضا فى قوله تعالى: (وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت) (٢).

وعلى هذا يكون معنى الآية «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى» أى من هذه الأرض خلقناكم .. وفى بطنها نعيدكم يوم البعث بأجسام أخرى لا تعرفونها الآن .. ومنها نخرجكم تارة أخرى .. إلى الأرض الجديدة المبدلة .. للنعيم أو العذاب .. بالنسبة لنا .. لا لأجسامنا .. حيث تعدد معنا الأجسام .. بدليل ما ذكر الله عن أهل جهنم كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها «كما بينا أن الجلود هى الأعضاء . فالأجسام قابلة للتبديل والتغيير . لأنها خلق .. أما الأرواح فهى من عالم الأمر لا تتبدل ولا تتغير .. ونعود إلى الكهف ..

فقد ألقى الله - تعالى - فى نفس أحد الرعاة .. أن يهدم البنيان الذى على فم الكهف .. لينبى بأحجاره حظيرة لغنمه .. فاستأجر لذلك عاملين .. ينزعان تلك الحجارة .. ويبنيان بها الحظيرة حتى فتح باب الكهف .. وأخفى الله الثابوت عن أعين العاملين .. وحجب الله الفتيه عن الناس بالرعب .. فكان أشجع الناس .. من يدخل من باب الكهف .. ويتقدم .. فيرى الكلب بالباب فيغلبه الرعب .. ويعود فارا .. لا يلوى على شيء ..

وعادت إليهم الحياة .. وتناقشوا فى أمرهم .. وما ينتظرهم من بلاء الملك الكافر وفتنته .. ولولا ألم الجوع .. لما طلبوا من مليخا .. أن يأتيهم بالطعام .. بعد أن يتحسس لهم الأخبار .. فى صمت وسرية ..

وتنكر مليخا قدر استطاعته .. بملايس الراعى .. وخرج مستعينا بالله .. على أداء ما كلفه به أصحابه .. ومعه بعض النقود الفضية التى كانت معهم .. ومنقوش عليها اسم الملك دقيانوس .. وتاريخ عصره ..

وتسلل مليخا على حذر .. ناحية المدينة ..

فراى طرقا لم يألّفها .. من قبل .. ففرك عينيه .. وبدأ يشك فى نفسه .. هل هو نائم أم يقظان .. ولكنه استأنف السير .. حتى وصل إلى باب المدينة .. فوجد عليه لافتة بها شعار الإيمان والتوحيد .. بدلا من أشلاء الشهداء .. ورأى وجوها غريبة عليه .. وسمع أحاديث مما يهمس به الناس .. تدل على أن كلمة الله هى العليا فازداد عجباً .. وتملكته الحيرة .. فظن أنه سلك طريقا آخر .. أدى به إلى مدينة أخرى ..

فسأل بعض المارة .. ما اسم هذه المدينة ؟ .. قال: إنها مدينة أفسوس يا عبد الله .. وكأنه يناجى نفسه .. ما هذا الذى حدث بين الأمس واليوم ؟ ..

ورأودته نفسه .. أن يعدو إلى أصحابه .. ليخبرهم بما رأى .. وهويتهم عقله .. ولكنه تذكر جوعهم .. فذهب إلى أحد التجار .. وأخرج من جيبه قطعة من النقود .. وناولها إياها .. قائلا: معنى بهذه طعاما يا عبد الله .. فأخذها الرجل .. ونظر إلى ضربها ونقشها .. فى دهشة .. وناولها إلى بعض جلسائه .. الذين أخذوا يتطارحونها .. من رجل إلى رجل .. ويتشاورون فيما بينهم .. لا بد أن هذا وجد كنزا دفيناً .. به تلك النقود الأثرية .. وظن مليخا أنهم يتآمرون على تسليمه للملك دقيانوس ..

فقال لهم: أعطونى نقودى .. ولا حاجة بى إلى طعامكم .. قالوا: من أنت أيها الفتى .. وما شأنك ؟ .. وأين هذا الكنز الذى وجدت فيه تلك النقود ؟ ..

وسكت مليخا .. قالوا: إن لم تدلنا على الكنز .. ذهبنا بك إلى السلطان .. فلم يجد مليخا جوابا .. فطوقه بشيابه .. وذهبوا به فى الطريق .. وتجمع الناس حوله .. يقولون: إن هذا الفتى غريب .. ليس من أهل مدينتنا ..

وربما خطرت فى نفسه الخواطر .. سيحضر أبوه وإخوته وأهله .. فيخلصونه من بين أيديهم .. فهو من أبناء أشرفهم وذهبوا به إلى حاكم المدينة .. وظن أنه سيلقى الجبار دقيانوس .. فصار يتلفت كالمجنون .. والناس حوله .. فرفع بصره إلى السماء قائلاً، والدمع يملأ عينيه : اللهم إله السماوات والأرض .. أولج معى روحاً منك اليوم .. تؤيدنى به عند هذا الجبار .. وجعل يبكى .. ويقول فى نفسه : لقد فرق بينى وبين إخوتى .. ليتهم يعلمون ما يجرى .. ليتهم يعلمون أنى فى سبيلى إلى لقاء هذا الطاغى .. إذا لحضروا لتواجهه معا .. وليكن ما يكون..

وسكنت روحه .. لما وجدهم أدخلوه على شخص آخر .. غير دقيانوس .. وهو حاكم المدينة .. ونائب الملك تيلوسيس .. وكان اسم هذا الحاكم - آريوس (١) ..

ونظر آريوس فى قطعة النقود ملياً .. ثم رفع بصره إلى يميلخا .. وقال له : أين هذا الكنز أيها الفتى ؟ قال : إنى لم أجد كنزاً .. وإنما هذه نقود آبائى .. ونقش هذه المدينة وضربها .. ولكنى والله .. لا أدرى ما شأنى .. ولا أعلم ماذا أقول لكم ..

فقال له : من أين أنت ؟

فقال : كنت أرى أنى من هذه المدينة .

قال : فمن أبوك ؟ ومن يعرفك بها ؟

فذكر لهم اسم أبيه .. فلم يعرفه منهم أحد .

فقال بعض الموجودين : أنت كذاب .. لا تقول الحق فلم يدر ماذا يقول .. غير أنه نكس بصره إلى الأرض وقال آخر : إنه مجنون .. أما ترون نظراته الشاردة ؟

وقال ثالث : إنه ليس مجنوناً .. بل يتصنع الجنون ليفلت منكم ..

ونظر أحدهم إليه .. بعمق .. وقال له يابنى نحن لا يمكن أن نصدقك .. فى أن هذا مال أبيك .. وهو مضروب من أكثر من ثلاثمائة سنة .. وأنت غلام حديث السن .. وها أنت ترى سراة القوم وولاة المدينة سنعدبك حتى تعترف .

فقال لهم : أجيبونى على سؤال واحد.. أين دقيانوس الملك الذى كان يملك تلك المدينة بالأمس ؟

قالوا : إن دقيانوس الكافر .. هلك من عدة قرون .

فقال يميلخا : إنى إذا لخيران .. لقد فررنا بديننا من دقيانوس بالأمس .. وعلى أى حال .. انطلقتم معى إلى الكهف فى جبل بنجلوس .. أريكم أصحابى .. مادام دقيانوس قد مات .

فقال الحاكم - آريوس - : يا قوم .. لعل .. فى هذا الأمر آية من آيات الله - تعالى - جعلها على يد هذا الفتى .. وانطلق معه الحاكم .. ومعه من سراة القوم .. وسمع الفتية الجليلة تقترب منهم .. فظنوا أن أمرهم قد انكشف .. وأن يميلخا وقع فى يد دقيانوس .. وأن الجنود فى الطريق إليهم .. للقبض عليهم .. فاستعدوا لملاقاة يميلخا عند الجبار .

ودخل آريوس ومن معه .. وأمامهم يميلخا .. وعرفوا الحقيقة .

رأى آريوس .. على باب الكهف تابوتا من نحاس .. مختوما بخاتم من فضة .. فتحه بمحضر من الجمع .. واستخرج منه لوحاً من الرصاص .. نقشت فيه أسماءهم .. وأنسابهم وتاريخ فرارهم بدينهم من دقيانوس .. ولجوؤهم إلى هذا الكهف .. وقيام الملك الكافر .. بإقامة السد عليهم .. ليموتوا جوعاً وعطشاً .. ورأى الناس آية البعث .



وأرسل آريوس فى طلب ملكه الصالح
- تيدوسيس - ليرى الآية التى مازال يلح على الله فى
طلبها .. وحضر الملك فى موكب .. وتقدم من الفتية فى
رهبة وخشوع .. وهم جلوس .. يسبحون الله ..
ويحمدونه .. فعانقهم وقبلهم .. ودعوا له قائلين :

نستودعك الله .. ونعيذك من شر الجن والإنس ثم
عادوا إلى مضاجعهم .. وتوفى الله أنفسهم فألقى الملك
عليهم ثيابه .. وأمر لكل واحد منهم بتأبوت من الذهب
.. فرآهم فى المنام كارهين للذهب . فجعلها من خشب
الساج .. وبنى على باب الكهف مسجدا «وكذلك أعرنا
عليهم ليعلموا أن وعد الله حق، وأن الساعة لا ريب فيها
إذ يتنازعون بينهم أمرهم، فقالوا ابنوا عليهم بنيانا، ربهم
أعلم بهم، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم
مسجدا» ٢١ / الكهف.

ويجدر بنا هنا أن نقف وقفة قصيرة قبل أن نطوى
صفحة أصحاب الكهف .. أمام إقامة المساجد على
القبور.

فقد روى أبو داود والترمذى عن ابن عباس .. قال:
«لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زورات
القبور . والمتخذين عليها المساجد والسرج».

وروى أئمة عن أبى مرثد الغنوى .. قال: سمعت
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : «لا تصلوا إلى
القبور ، ولا تجلسوا عليها » «لفظ مسلم» أى لا
تتخذوها قبلة فتصلوا عليها .. أو إليها .. كما فعل
اليهود والنصارى .. فيؤدى ذلك إلى عبادة من فيها ..
كما كان السبب فى عبادة الأصنام.

وخرج أبو داود والترمذى أيضا .. عن جابر .. قال:
«نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن تجصص
القبور، وأن يبنى عليها، وأن يكتب عليها، وأن توطأ» ..
قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح.
وقال على بن أبى طالب .. لأبى الهياج

الأسدي : «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - ألا تدع تمثالا إلا طمسته ،
ولا قبرا مشرفا إلا سويته».. وذهب الجمهور إلى أن هذا
الارتفاع .. المأمور بإزالته .. هو مازاد على التسنيم ..
ويبقى للقبر ما يعرف به ويحترم .. والتسنيم فى القبر
قدر شبر.. مأخوذ من سنام البعير .. ويرش عليه بالماء ..
لئلا ينتشر بالريح .. وفى الصحيح

عن سعد بن أبى وقاص .. أنه قال فى مرضه الذى
مات فيه : «اتخلوا لى لحدا .. وانصبوا على اللبن نصبا
.. كما صنع برسول الله - صلى الله عليه وسلم (١)
وإلى لقاء كريم .. مع رسول المرسلين .. وإمام
النبين - «محمد خاتم الرسل» عليه صلاة الله وسلامه
وعليهم أجمعين.

(١) القرطبي ٢١ / الكهف .

بسم الله الرحمن الرحيم

خاتمة المجلد الأول

وفي هذا ما فيه من الخطورة على فكر الشباب .. حيث يجدون في أنفسهم رفضاً لتلك الأفكار .. ونفورا من قبولها .. ولا سبيل أمامهم إلا الفرار .. والإعراض عن قراءتها .

وفي هذا تعطيل لعنصر من أهم عناصر القرآن الكريم .. عنصر القصص :

«وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين» (١) .

● والقسم الثاني .. هاجموا تلك الخرافات والترهات .. فهدموها .. وتركوها مهدومة .. دون أن يقيموا بناءها ثانية على أساس من الإقناع العلمي والعقلي .. وهذا الفكر يجتذب الشباب .. ويودى بهم في مهاوي الشك والريبة .. فهو أشد خطراً على فكر الشباب من سابقه .

ونحن نستغفر الله أن نكون متهمين أحداً من القسمين بسوء النية .. فأصحاب القسم الأول وقفوا عند النص الوارد في الكتب القديمة .. ورأوا أن يكتفوا بالنقل .. دون نظر إلى العقل .

● وأصحاب القسم الثاني .. عرضوا الأمر على العقل .. فنفضوا غير المعقول .. وكان عليهم أن يجتهدوا لإيجاد بديل .. ولهم أجر إن أخطأوا .. وأجران إن أصابوا .

ولعلك يا قارئ الكريم .. قد مررت بالكثير من تلك المواقف .. حين تجوالنا مع رسلنا الكرام .. في رياض تلك المقدسات الفكرية .. ولحظت أنني كنت حريصاً غاية الحرص .. على

بعد تلك الجولة الواسعة بين رياض كتب التفسير .. وموسوعات تاريخ العالم .. وأسفار التوراة .. وإصحاحات الأنجيل .. وبعد أن صحبنا الركب مع رسل الله الكرام .. من آدم - عليه السلام - إلى أصحاب الكهف .. بعد عيسى بن مريم - عليهما السلام - وشهدنا مواقع الأحداث الرسالية .. وأماكن وقوعها جغرافياً .. يحق لنا أن نقف وقفة نسترد فيها الأنفاس .. فقد أصابتنا في جولتنا وخزات الأشواك .. مما دسه المغرضون على أئمتنا الكرام .. من رجال التفسير وأولى العلم .. من أوهام الإسرائيليين .. وشعوذة المجوس .

وقد سلطنا عليها الأضواء .. لنكشف ما حوت من خرافات وترهات .. ليكون القارئ بمنأى عن المزالق .. وليخرج من قراءته بحكم صادق .. يطابق العقل .. ويوائم الفطرة .. فطرة الله التي فطر الناس عليها . ولعلك أيها القارئ الكريم قد رأيت كيف اتهم اليهود بالباطل هؤلاء الرسل في عديد من المواقف .. ووصموهم كذبا بالكثير من الدنيا والآثام .. والخطايا والأوزار .

وقد انقسم الكتاب المحدثون حيال القصص الرسالية إلى قسمين :

قسم رأى أن يقف عند ماورد في الكتب القديمة وقفة جامدة .. سواء طابق العقل أم لم يطابقه ..

ويقول: هكذا وردت .. وهكذا قرأتها .. وهى تراث يجب أن نحافظ عليه .. وأن يقبله على علته .. ولا مجال للعقل في مناقشتها .

إقامة البديل المقنع .. عقب هدم الدسيس مباشرة..
فالبديل لابد أن يقوم على حقائق علمية وعقلية..
يتذوقها الشاب الذى شرح الله صدره للإسلام فى
سهولة ويسر.. فالإسلام هو الدين الوحيد.. الذى
يخاطب العقل مباشرة.. دون واسطة أو كبير إقناع..
وأذكر موقفا ذكره لى أحد تلامذتى النابهين.. وهو الآن
معام يشغل منصبا مرموقا فى مؤسسة كهرياء مصر..
قال:

جمعنى فطور رمضان.. عند إحدى قريباتى.. مع أستاذة
فرنسية فى جامعة القاهرة.. وهى مسيحية اعتنقت الدين
الإسلامى.. واتفقنا على أن نتخاطب معا باللغة
الإنجليزية.. لأننا لا نجيد الفرنسية.. وهى لا نجيد العربية..
قلت لها: ما هى الدوافع التى دفعتك إلى ترك المسيحية
دين آبائك وأجدادك واعتناق دين الإسلام؟

قالت: لقد نشأت فى أسرة مسيحية متدينة.. درست
الأنجيل والرسائل فوجدت فيها اختلافا كبيرا فى
العقيدة.. مما أوجد فى نفسى بعض الشك.. فدرست
أسفار التوراة والتلمود والكتب اليهودية القديمة..
فوجدتها أشد اختلافا فى العقيدة من كتب المسيحية..

فدرست القرآن.. وكتب الإسلام.. فوجدته هو الدين
الوحيد الذى يخاطب العقل مباشرة.. إنه هو الدين
الذى يساير الفطرة.. ويوائم الطبيعة البشرية فى جميع
عصورها ويكفل لها الانطلاقة الحرة مع الكون.. دون
قيود أو أغلال.

ثم استرسلت فى كلامها قائلة.. والأسى يبدو من خلال
عبارتها: ولكننى أحمد الله أن اعتنقت الإسلام قبل أن
أتى إلى بلادكم.. فأنتم مسلمون بالوراثة.. ولكنكم لا
تعرفون شيئا عن روح الإسلام وقوته وقيمه ومثله.

ثم قالت: إن الشباب فى أوروبا الآن.. عنده فراغ دينى
تام.. ولو أن علماء الإسلام.. عندهم من القوى الروحية.. ما
يمكنهم من إبلاغ هذا الدين بروحه وقوته وقيمه ومثله إلى
ذلك الشباب الأوروبى.. لأقبل عليه فى نهم

بلا تردد.. لأن الإسلام يقيم الحجة على العقل بأدلة
منطقية لا تقبل نقاشا ولا جدالا.

ولاشك أن قول الدكتور الفرنسية حقيقة.. لم يصل
إليها الكثير منا.. لطول الأمد.. وقسوة القلوب..
فالإسلام روح.. والقرآن روح.. وكل شىء فى
الحياة الدنيا جسم وروح.. وإذا فقد الجسم روحه صار
لا شىء.. فالحمد تعالى قال عن القرآن الكريم:
«لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا
متصدعا من خشية الله».

فهل لو أننا خلقنا بطائرة فوق جبل.. وألقينا عليه من
الطائرة ملايين المصاحف.. هل يتصدع الجبل ويتشقق؟
إننا نكون قد أنزلنا عليه أجساما من غير روح.. لا أثر
لها.. بينما يقول تعالى عن روح القرآن:

(ولو أن قرأنا سيرت به الجبال أو قطعنا به الأرض
أو كلم به الموتى) وهنا محذوف تقديره: «لكان هو هذا
القرآن» بروحه وقوته تسير به الجبال.. وتقطع به
الأرض.. ويكلم به الأموات.. وذلك لأن الأمر لله
جميعا.

هذه الروح هى التى خرج بها - عليه الصلاة
والسلام - من حجرته.. ليلة الهجرة.. وهو يتلو من أول
سورة (يس) تلاوة روحية:

(وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا
فأغشىناهم فهم لا يبصرون)

تلاها - عليه الصلاة والسلام - وهو خارج.. ليمر
بين أربعين سيفا مسموما.. يريد أصحابها أن يضربوه بها
ضربة رجل واحد.. ليضيع دمه بين القبائل.

فانفعلت روحه بروح الآيات.. فغشيت أبصارهم..
فهم لا يبصرون.. ومر بينهم وهو على ثقة من قوة ما
ألقى عليهم.. وبلغت ثقته بها أنه لم يسرع فى الهروب
من بينهم.. بل انحنى إلى الأرض وتناول حفنة من
التراب ذراها على رءوسهم.. وهم واقفون مفتوحة
أعينهم.. ولكنها لم تبصر.

وهى نفس الروح.. التى أرسل بها سليمان
- عليه السلام - كتابه إلى بلقيس ملكة سبأ -
كما رأينا فى (نبأ سليمان) وفى الكتاب

قوات وجنود لا قبل لهم بها.. تلك هى قوات (بسم الله الرحمن الرحيم) بروحها - وليس بحروفها - جاءه عرش بلقيس من اليمن إلى اورشليم - القدس - من غير زمن مطلقا .. قبل أن يرتد إليه طرفه .. ثم جاءته خاضعة مسلمة قائلة :

(رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان الله رب العالمين) .. لأنه ألقى إليها .. بواسطة سفيره الهدهد (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علىّ واثتوني مسلمين).

ومن أجل هذا .. كان لزاما علينا .. أن يعرض على الشباب أنباء الرسل .. بهذا الأسلوب القصصى السهل المشهود .. وأن نضع يده على ما دسه المفرضون فى كتب أئمتنا الكرام .. من أوهام الإسرائيليين وشعوذة المجوس .. ودجل المخرفين.

ولعلك يا أخى قد رأيت أنهم دسوا فى تلك الكتب خرافات .. لا يقبلها عقل .. ولا يسيفها منطق .. منها ما دسوه مثلا فى تفسير الإمام الكبير القرطبى .. حول قصة نوح - عليه السلام -

«لم يكن فى الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر» (١).
فماذا نقول لشباب قرأ تلك العبارة فى تفسير القرطبى .. وسألنا:

كيف كان الناس يحيون على الأرض قبل الطوفان .. وليس فيها نهر ولا بحر ؟
وهل نصدق أن ابن عباس - رضى الله عنه - قال فى تفسير قوله تعالى:

(قال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها) (٢).
قال «تعلق إبليس بذنب الحمار .. وكانت يدا الحمار قد دخلتا فى السفينة .. فجعل الحمار يضطرب .. ولا يستطيع أن يدخل .. فصاح به نوح: ادخل وملك .. وإن

كان معك الشيطان - فدخل - ووثب الشيطان فدخل »
هل نصدق أن ابن عباس يقول هذا؟ .. وهل يحتاج الشيطان إلى مثل ذلك ؟

مع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول: (٣)
«إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»؟

ماذا نقول لشباب قرأ فى أمهات كتب التفسير أن إبراهيم - عليه السلام - ابن آزر - عدو الله - مع أنه يقرأ فى نفس الكتب قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:
«خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح .. لم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء .. فأنا خيار من خيار من خيار .. من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى». أليس وجود عدو الله - آزر - فى سلسلة الخيار بفسدها . لأن محمدا من نسل إسماعيل بن إبراهيم ؟

كما أن الله تعالى يقول لحبيبه محمد:

(وتوكل على العزيز الرحيم. الذى يراك حين تقوم .. وتقلب فى الساجدين) أى أن الله يرى تقلبك وانتقالك من ظهر ساجد إلى ظهر ساجد.. فكيف يكون ظهر آزر من ظهور الساجدين؟ (٤).

ماذا نقول لشباب قرأ فى بعض كتب التفسير أن لوطا - عليه السلام - قد عاش بته معاشره زوجية؟

وماذا نقول لشباب قرأ فى كتب التفسير أن يوسف - عليه السلام - وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم .. يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .. فقد جمع مربعا كاملا من النبوة .. إذا قرأ عنه حول قوله تعالى: (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) أنه حل تكة سراويله .. وقعد بين شعبها الأربعة .. وأنه سمع صوتا: إياك إياك.. فلم يكثر له .. فسمعه ثانيا .. فلم يعمل به..

(١) ٣٨ - هود ص ٢٢٦ الشعب.

(٢) ٤١ - هود.

(٣) ارجع إلى نبا نوح ص ٤٥ من هذا المجلد (الأول)

(٤) ارجع إلى نبا إبراهيم ص ٩٦ من هذا المجلد (الأول).

فسمع ثالثا: أعرض عنها فلم ينجح فيه.. حتى مثل له أبوه يعقوب عاضا على أناملته؟..

كما قالوا: إن يعقوب ضرب بيده على ظهره.. فخرجت الشهوة من أنامله..

وقالوا: كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولدا.. إلا يوسف.. فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته.. حين هم بها.

بل وقال بعضهم فى كتاب - النيسابورى - أوردها على لسان ابن عباس.. - وابن عباس منها براء - قال:

عندما همت به وهم بها.. فإذا بكف قد بدت فيما بينهما.. ليس لها عضد ولا معصم.. مكتوب فيها: (وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون) فقام هاربا وقامت.. فلما ذهب عنهما الروح والرعب.. عادت وعاد.. وإذا بالكف بدت بينهما.. ليس لها عضد ولا معصم.. مكتوب فيها: (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله).. فقام هاربا وقامت.. فلما ذهب عنهما الروح والرعب.. عادت وعاد.. وإذا بالكف بدت بينهما.. ليس لها عضد ولا معصم.. مكتوب فيها:

(ولا تقرّوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا)..

وفى تبجح وجراءة.. بعد هذه الاتهامات لهذا النبى الكريم.. قال الراوى الكذاب: ثم قال الله تعالى:

(كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا

المخلصين)؟

إلى أين نذهب بعقولنا وأفكارنا؟ .. وكيف يكون هذا الهراء والسخف فى كتب تدرس .. ويتداولها الشباب .. بل ويتحدث بها بعض من يدعون العلم والوعظ والإرشاد؟..

فإذا رددتهم .. قالوا لك: هى فى كتاب كذا .. فكيف نجرؤ على تكذيبها(١)؟

ماذا نقول لشباب قرأ فى كتب التفسير .. أن داود - عليه السلام - دخل محرابه .. ووقف يصلى .. ويقرأ

الزبور .. إذ مثل له الشيطان فى صورة حمامة من ذهب. فيها من كل لون حسن .. فوقفت بين رجله .. فمد يده ليأخذها فبعدت .. فتبعها فطارت .. وظل داود ينظر إليها ويرتفع فى أثرها .. فرأى امرأة فى بستان تستحم على شاطئ بركة .. قاله الكلبى .. وقال السدى: تستحم عريانة - والكلبى والسدى من هذا بريثان براءة الذئب من دم ابن يعقوب - قال: فرأى - يقصد داود - أجمل النساء خلقا .. فأبصرت ظله .. فنفضت شعرها .. فغطى بدنهما .. فزاده إعجابا بها .. وكان زوجها أوريا بن حنان فى حرب البلقاء .. مع أيوب بن صوريا .. ابن أخت داود .. فكتب داود إلى ابن أخته .. أمد ابعت بأوريا إلى مكان كذا وكذا . واجعله أمام التابوت .. وكان من يتقدم أمام التابوت .. لا يحل له أن يرجع إلا بالنصر أو الشهادة .. فقدمه أيوب فانتصر .. فكتب إلى داود يخبره بذلك .. ثم يقول هذا الراوى الكذاب: **(قال الكلبى):** وكان أوريا سيف الله فى أرضه فى زمان داود .. فطلب منه داود أن يبعث به فى بعث كذا .. واجعله أمام التابوت . فانتصر أوريا ثانية .. ولكنه استشهد فى المرة الثالثة .. فتزوج داود تلك المرأة .. حين انقضت عدتها.

فلماذا نقول لهذا الشاب .. بعد أن شممنا معه رائحة الحقد الكريه .. المنبعثة من خلال تلك الأقاويل المدسوسة . على رسول كريم .. رسول قال الله عنه: **(وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب).**

وقال عنه أيضا (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب).

وقال كذلك عنه (نعم العبد إنه أواب).

لقد نسبوا له عددا من الجنايات الإنسانية والدينية .. ماتكفى واحدة منها .. لأن تهوى بالإنسان من أعلى عليين.. إلى أسفل سافلين.

ولعل هذا هو الذى دفع عليا بن أبى طالب - رضى الله عنه وكرم وجهه - .. فى رواية عن سعيد بن المسيب:

(١) ارجع إلى نبأ يوسف ص ١٤١ هذا من المجلد (الأول) .

«لو سمعت رجلا يتحدث عن داود - عليه السلام - بما يرويه القصاص.. لجلدته ستين ومائة» (١).

وذلك لأن حد قاذف الناس ثمانون جلدة.. وحد قاذف الأنبياء ستون ومائة..؟؟ (٢).

ماذا أقول لشاب قرأ عن نبي الله أيوب.. أن إبليس نفخ في منخره نفخة أشعل منها جسده.. فذهل.. وخرج به من رأسه إلى قدمه تآليل مثل اليات الغنم.. ووقعت فيه حكة لا يملكها.. ولا يتماسك عن حكها.. فحك بأظفاره حتى سقطت كلها.. ثم حكها بالحجارة الخشنة.. فلم يزل يحكها حتى نزل لحمه.. وتقطع.. وتغير وأنتن.. فأخرجته أهل القرية.. فجعلوه في مكان قذر.. رفضه خلق الله كلهم.. غير امرأته.

وقالوا: وقعت دودة من فخذيه على الأرض فأخذها.. وردها إلى موضعها.

وقال لها: كلى.. فقد جعلني الله طعاما لك. ونسبوا إليه أنه قال في دعائه:

«إلهي.. تقطعت أصابعي.. وتساقطت لهواتي ولحم رأسي.. فما بين أذني من مسد.. بل إحداها ترى من الأخرى.. وأن دماغي ليسيل من فمي.. إلى أن قالوا عنه زورا: إنه قال في دعائه:

«إن قضاءك هو الذي أذلني وأدانني وأهانني.. وإن سلطانك هو الذي أسقمني.. وأنحل جسمي».

فهل يقبل العقل.. أن يتلى الله عبده أيوب - عليه السلام - بهذا المرض القذر.. المتن المنفر.. الذي يؤدي الأعين.. ويزكم الأنوف.. ويقزز النفوس.. وينفر الأصدقاء.. فيتناثر الدود من جسمه.. ويتجنبه الناس.. لعدم قدرتهم على تحمل نتنه؟.

مع أن أول الصفات الواجبة للأنبياء: الطهارة.. والنظافة.. والدوق الجميل.. والصورة الحسنه؟.

وهل يجوز أن يتصور أن النبي النقي الصابر أيوب.. يتاجى ربه بهذا الأسلوب اليائس القانط.. وقد قال الله عنه: (إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب)؟.

وكيف يسيغ الفهم هذه الدعوات من أيوب - عليه السلام - وقد رأينا معا.. أنه قال لزوجته رحمة بنت اقراثيم بن يوسف.. عندما طلبت منه أن يدعو الله ليكشف عنهم البلاء.. قال:

«استحي من الله أن أدعوه.. وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي»؟ (٣).

وحول قصة ذي القرنين.. التي أوردها القرآن الكريم في سورة الكهف.. تكثر أسئلة الشباب:

من هو ذو القرنين في تاريخ العالم؟ ومن هم يأجرج ومأجوج الذين بنى عليهم ذو القرنين السد؟ وأين هذا السد.. وقد أصبحت الأرض صفحة مفتوحة ظاهرة بعد التقدم الجغرافي.. ووجود الأقمار الصناعية التي صورت الأرض جغرافيا.

اقرأ الشباب في بعض الكتب الدينية.. أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني ثم يقرأ في سجلات التاريخ عن الإسكندر المقدوني أنه ظهر في عام ٣٣٦ ق.م وأنه غزا العالم شرق مقدونيا.. وخضعت له أغلب المدن الإغريقية.. ثم دخل مصر.. وبنى مدينة الإسكندرية.. وزار مهبط وحى آمون.

ثم غادر مصر في ربيع سنة ٣٣١ ق.م.. وحارب الفرس.. وانتصر عليهم.. واستولى على كنوز كثيرة من الكنوز الفارسية.. وسقطت تحت يده (بابل) و(سوسا).. ونهب بلدة (برسيبوليس) وأحرقها بأهلها.. واستولى منها على كنوز ضخمة.

ثم أخضع إقليم - قزوين - واتجه إلى الجنوب.. حيث وصل بجيوشه إلى بكتريا - بلخ الآن - وهزم - بوروس - حاكم الهند في موقعة (هيداسبيس) وتقدم حتى بلغ - (هيفاسيس).. وامتنعت جيوشه عن الزحف بعد ذلك (٤).

(١) من الكشف والقرطبي - ٢٤ / ص.

(٢) ارجع إلى نبا داود ص ٣٢٠ من هذا المجلد (الأول).

(٣) ارجع إلى نبا أيوب ص ١٩٠ من هذا المجلد (الأول).

(٤) موسوعة تاريخ العالم - وليم لانجر - ج ١ ص ١٦٤ وما بعدها - نشر مؤسسة فرانكلين.

واستولى عليه شيطان الغرور.. فادعى الألوهية..
وفى نشوة الخمر.. قتل صديقه الوفى - كليتوس - لأنه
وجه إليه اللوم لادعائه الألوهية لنفسه.. ثم أدركه
الموت.. عند عودته.. فمات فى بابل فى ١٣ يونية سنة
٣٢٣ ق.م.

ومن دراسة هذا التاريخ.. نلاحظ ثلاث ملاحظات:
الملاحظة الأولى: أن الإسكندر المقدونى.. فتح بلادا
كثيرة.. ولكنها كلها تقع شرق مقدونيا.. ولم يتجه فى
حروبه غرب مقدونيا مطلقا.. بينما صورة القرآن الكريم
فيها أن ذا القرنين.. بلغ أقصى الغرب.. بقوله تعالى:
(حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين
حديثة) (١).

وليس المقصود هنا أنه بلغ إلى جرم الشمس.. أو
إلى عين تغرب فيها.. وإنما المقصود مرأى البصر وقت
الغروب.. حيث انتهى إلى آخر معمور الأرض من جهة
الغرب.. فوجدتها - فى رأى العين - تغرب فى عين
حمئة.. كما تراها أنت وأنت واقف على شاطئ
البحر.. وكأنها تغوص فى الماء.

وكلمة (عين) تفيد المكان دارا أو أرضا.. أى مكان
كثير الحماة.. والحماة: هى الطينة السوداء.

● **والملاحظة الثانية:** أن الإسكندر المقدونى.. كان
ظالما قاسيا.. فى معاملة أعدائه.. حرقا وإعداماً ونهباً
واسترقاقاً.. بينما صورة ذى القرنين فى القرآن الكريم..
توحى إلى النفس.. أنه كان عادلا رحيماً.. يقول تعالى
عنه..

(قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم
حسنا * قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه
فيعذبه عذابا نكرا * وإما من آمن وعمل صالحا فله
جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا) (١).

وانظر إلى قوله.. عندما بنى السد.. ليمنع يأجوج
ومأجوج عن الإفساد فى الأرض.. ونهب منطقة الشرق

الأوسط فى فصل الربيع من كل عام.. قال:
(هذا رحمة من ربى) (٣).

لقد كان ذو القرنين رحيماً عادلاً.. ولم يكن ظالماً
نهاباً.. لقد رفض قبول الضريبة التى عرضت عليه لبناء
السد.. اقرأ:

(قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى
الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم
سداً * قال ما مكنى فيه ربي خير فأعينونى بقوة أجعل
بينكم وبينهم ردماً) (٤).

رفض أن يأخذ منهم خراجاً - ضريبة - وإنما طلب
منهم قوة عمالية من الصناع.. تعمل معه لبناء هذا السد.
أما الملاحظة الثالثة: وهى الأهم.. أن الإسكندر
المقدونى كان كافراً.. ادعى الألوهية لنفسه.. وقتل فى
سبيل دعواه صديقه المخلص - كليتوس - لما نصحه.

فهل يكون الإسكندر المقدونى.. وهذا تاريخه -
الذى أتفق عليه مؤرخو العالم القديم.. هل يكون هو ذا
القرنين.. الوارد ذكره فى القرآن الكريم فى آخر سورة
الكهف؟..

نعتقد أن هذا غير مقبول.. لا عقلاً.. ولا نقلاً.

إن الله - تعالى - قال عن ذى القرنين:
«إنا مكننا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء
سبباً» (٥).

وهذه الآية.. توحى إلينا أن الله تعالى أعطاه من
أسباب الدين والدنيا معاً. وقد اختلف المفسرون فى
نبوته.. إلا أنهم متفقون على إيمانه وصلاحه وتقواه.
حتى رفعه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى درجة
الملائكة.. فعن عمر أنه سمع رجلاً ينادى ابنه:
يا ذا القرنين؟.. فقال عمر: أما كفاكم أن تسموا
بأسماء الأنبياء.. حتى تسموا بأسماء الملائكة؟

(١) ٨٦ / الكهف .

(٢) ٨٨ - ٨٦ / الكهف .

(٣) ٩٨ / الكهف .

(٤) ٩٤ - ٩٥ / الكهف .

(٥) القرطبي ٨٤ / الكهف .

وقد ورد نفس المعنى.. عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ثم قال ابن إسحاق: فإله أعلم..

أقال رسول الله ذلك أم لا؟.. والحق ما قال (١)..
وهناك رواية تكررت في جميع كتب التفسير..

تقول:

«ملك الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران.. فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين والكافران: عمروذ وبختنصر»

فما دفع الكثير من المفسرين إلى قولهم إن ذا القرنين ليس هو الإسكندر المقدوني.. ولكنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن حقيقة ذي القرنين.. في كتب التاريخ: وعمن هو؟.. مع أننا مكلفون بالنص بالبحث.. وتدبر آيات الكتاب..

(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) وقوله:

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)؟

وقد أخبرنا التاريخ عن جميع الملوك والغزاة.. من زمن (حجر بالرمو).. وهو أعظم المصادر التاريخية القديمة.. وهو حجر به تاريخ البشر من قبل الأسرة الخامسة للفراعنة (٣)..
فمن هو ذو القرنين من بين هؤلاء الملوك والغزاة؟

كما قال بعضهم عن سد ياجوج وماجوج.. إنه سور الصين العظيم..

وهذا رأى خاطيء أيضاً.. لأن سور الصين حجري.. بينما السد في القرآن الكريم سد معدني.. اقرأ قول الله عنه.. على لسان ذي القرنين.. لمن طلبوا منه إقامة السد بينهم وبين هؤلاء المفسدين.. قال:

(١) القرطبي ٨٣ / الكهف .

(٢) موسوعة تاريخ العالم ص ٤٧ ج ١ - لوليم لاجر .

(٣) ٩٦ - ٩٧ / الكهف .

(٤) ارجع إلى نأ - ذي القرنين - ص ٤٠٣ من هذا المجلد (الأول).

«أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال أتوني أفرغ عليه قطرا فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقبا» (٣).

أي أنه طلب منهم قطع الحديد.. ورصها بين الجبلين إلى قمتهما.. وبالنفخ في الحديد انصهر.. وإذا انصهر الحديد صار نارا.. ثم أفرغ عليه القطر - وهو النحاس المذاب - فإذا اختلط النحاس المنصهر بالحديد المنصهر صار سبيكة معدنية.. فهو سد معدني.. فأين هذا السد جغرافيا.

ولملك أيها القارئ الكريم.. قد رأيت أننا في نأ ذي القرنين.. قد هدانا الله - تعالى - إلى شخص ذي القرنين تاريخيا.. وإلى موقع السد جغرافيا بأدلة علمية لا تقبل نقاشا ولا جدلا.. ورأينا مثال ذي القرنين في مكا يبعد عن اصطخر - بإيران - بنحو خمسين ميلا.. على شاطئ نهر - مرغاب - وهو مثال حجري على قدر القامة الإنسانية.. ظهر فيه - قورش العظيم - وعلى جانبه جناحان كجناحي العقاب.. وعلى رأسه قرنان كقرني الكبش.. يده اليمنى ممتدة يشير بها إلى الأمام.. ولباسه كالذي نراه في صور ملوك بابل وإيران.

كما رأينا معا ياجوج وماجوج - وهم من كل حذب ينسلون - ممثلين في الشيوعية.. التي تحرق البشرية بنارها.. ونارها أشد من النار المادية.. فالتار تحرق المادة.. أما نار الشيوعية.. فإنها تحرق المادة والروح معا (٤)..
أما موضوع الخضر.. فقد كثرت الأقاويل عن العبد الصالح.. الذي تعلم موسى على يديه..

وقد تورط الكثير.. فقالوا: إنه ولي شرب من عين الحياة.. فهو حي إلى يوم القيامة.. وهؤلاء نسوا.. أو تناسوا قول الله تعالى:

(وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) وسئل عنه شيخ الإسلام - ابن تيمية -

فقال: «لو كان حيا.. لوجب عليه أن يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم - ويؤمن به.. ويتعلم منه.. ويجاهد معه».

كما قال إبراهيم الحريمي.. عندما سئل عن حياة الخضر وخلوده.. فقال:

«من أحال على غائب لم يتصف منه.. وما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان» واعترض الإمام النسفي - في تفسيره - على قول من قال إنه ولي شرب من عين الحياة..

فقال: «وقد زلت أقدام قوم من الضلال.. في تفضيل ولي على نبي.. وهو كفر جلي.. حيث قالوا: أمر الله موسى بالتعلم من الخضر.. وهو ولي.. ومن المحال أن يكون الولي وليا.. إلا بإيمانه بالنبي.. ثم يكون النبي دون الولي» - اهـ.

ولكن هؤلاء جميعا.. لم يذكروا لنا.. من هو هذا العبد الصالح!!!

وقد اتفقنا كما اتفق من قبلنا على ضرورة التدبر والبحث في آيات الله.. فالأمر الإلزامي - كما ذكرنا - وهذا ما قمنا به - بعون الله

تعالى - فبحثنا عن صاحب الصفات التي ذكرت عنه في كتاب الله تعالى.. وليس بعد كتاب الله من دليل:

أولا: أنه عبد من عبادنا..

ثانيا: آتيناه رحمة من عندنا..

ثالثا: علمناه من لدنا علما.

ولعلك يا قارئ الكريم.. قد اطمأنت إلى ما وصلنا

إليه عنه - صلى الله عليه وسلم (١) وقد وفق الأستاذ

عبد الوهاب النجار.. في كتابه - قصص الأنبياء - في

قوله عنه نقلا من الكتب القديمة - أن اسمه أحمد

الخضر (٢).

وما نحن قد ساقنا رحلة الرسائل.. لنشرف بلقاء

أحمد - خاتم الرسل - عليه الصلاة والسلام.

والحمد لله الذي بديء منه الحمد.. وإليه يعود كل

شيء كذلك.. لا إله إلا الله..

اللهم اغفر لنا شركنا وخطأنا وتقصيرنا.. واغفر

للمؤمنين والمؤمنات.



(١) ارجع إلى فصل - موسى طالب علم - ص ٢٩٥ - من هذا المجلد الأول.

(٢) ص ٢٩٦ - ط ٣ - قصص الأنبياء للنجار.

إلى اللقاء

وقال بلى.. فى حديث العهد.. عند قوله تعالى:
(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم
وأشهدهم على أنفسهم ألتست بربكم قالوا بلى) (٤)
فكان هو — عليه الصلاة والسلام — أول من لى نداء
ربه.

وستراه فى تلك المرحلة.. ينتقل من الأصلاص
الطيبة.. إلى الأرحام الطاهرة.. من لدن آدم.. إلى أبيه
عبدالله بن عبدالمطلب.. سلالة اختصها الله تعالى بالكرم
والمروءة.. والمجد والسؤدد.. والعزة والشرف..
والشجاعة والسيادة.. من كابر إلى كابر.. ومن
ساجد إلى ساجد.. وتلك هى المرحلة التى يشير
إليها — سبحانه — فى قوله له:

(الذى يراك حين تقوم * وتقلبك فى
الساجدين) (٥).

أى انتقالك من ظهر ساجد إلى ظهر ساجد.
● **المرحلة الثانية:** من يوم مولده — عليه الصلاة
والسلام — إلى يوم مبعثه.. حيث نراه قمة فى المثل
العليا.. وذروة فى الخلق العظيم: طفولة.. وصبا..
وشبابا.. فنجد صاذا آمينا.. سهل الخلق.. لين
الجانب.. ليس بفظ ولا غليظ.. ولا صخاب ولا فحاش..
ولا عياب ولا مزاح.. فكان يمزح ولا يقول إلا حقا..
يقابل السيئة بالحسنة.. يصل من قطعه.. ويعطى من
حرمه.. ويعفو عمن ظلمه.. تراه فيها يرمى الغنم..
ويشتغل بالتجارة.. ويكسب قوته من عمل يده.

إلى اللقاء مع قمة الوجود.. مع محمد خاتم الرسل
— عليه الصلاة والسلام.. فقد ذكر رجال التفسير وأولو
العلم.. أن الله تعالى خلق من بنى آدم مائة وأربعة
وعشرين ألف نى اصطفى منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر
رسولا.. على ما فى حديث أبى ذر.. الذى رواه أحمد
وابن حبان فى صحيحه.. وذكره ابن قيم الجوزية فى
كتابه زاد المعاد (١).

وذكر الله تعالى لنا من الرسل خمسة وعشرين
رسولا فى كتابه الكريم.

ثم اختار — سبحانه — من هؤلاء أولى العزم من
الرسل.. وهم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى..
وقمة الجميع محمد — عليه الصلاة والسلام —

وقد اجتمع أولو العزم من الرسل فى قوله تعالى:
«وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح
وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم» (٢).

واجتمعوا أيضا فى قوله تعالى:
«شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا
إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا
الدين ولا تفرقوا فيه» (٣).

فكان محمد — صلى الله عليه وسلم — هو صفوة
الخمسة.. وقمة الوجود.

وحياته — عليه الصلاة والسلام — تنقسم إلى أربع
مراحل:

● **المرحلة الأولى:** من عالم الأمر.. قبل عالم
الخلق.. حيث كان هو أول من لى النداء

(١) ص ١٩ ج ١.

(٢) ٧ - الأحزاب.

(٣) ١٣ - الشورى.

(٤) ١٧٢ - الأعراف.

(٥) ٢١٨ - ٢١٩ الشعراء.

أسخى الناس كفا.. وأشدّهم حياء.. وقد كساه الله
حلة من الوقار والهيبة.. والجلال والكمال.. حتي
اصطفاه لرسالته.. واختصه بنبوته لما بلغ الأربعين..
● **المرحلة الثالثة:** نراه قد حمل الرسالة.. وأدى
الأمانة.. ودعا إلى الفضائل.. ونهى عن الرذائل..
ونحمل في سبيل ذلك ما تحمل من الأذى.. فكان فيها
جبالاً أشم.. في قوة الصبر وعظيم الاحتمال.. حلمه
يسبق غضبه.. لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً
تكتلت ضده جميع قوى الشر.. وتحالفت عليه
شياطين الإنس والجن.. فلم يزد ذلك إلا ثباتاً ويقيناً..
وصموداً وإصراراً.
عرت عليه مفاتن الدنيا.. من مال وعز وجاه.. فقال
قوله الخالدة:
«والله يا عمى.. لو وضعوا الشمس في

يمنى.. والقمر في يسارى.. على أن أترك هذا
الامر.. ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».
أوفى وعذب وطرده.. حتى أذن الله لدينه أن تحتضنه
يشرب — دار هجرته — حيث أوى الرسول إليها.. مع
السابقين المهاجرين.. والصفوة من الصديقين.
أما المرحلة الأخيرة: حيث تبدأ دولة الإسلام.. وعزة
المسلمين.. ويخرج جند الله.. رهباناً بالليل.. فرساناً
بالنهار.. حتى يرفعوا أعلام الإسلام خفاقة تملأ الدنيا
بالحب والخير والسلام.
فالإسلام دين ودولة.. عبادة وسياسة.. زهد
وكياسة. فإلى رحاب محمد — خاتم الرسل — عليه
الصلوة والسلام..
والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.



فهرس المجلد الأول من كتاب من أنباء الرسل

فصل	الموضوعات	الصفحة رقم
تقديم	٣٥
من نبأ آدم - نبي الملائكة - عليه السلام	١١
١- الملائكة جن نوري	١٢
٢- غياب إبليس	١٥
٣- إبليس يتحدى	١٨
٤- آدم نبي الملائكة	٢٠
٥- الحياة الأولى لآدم	٢٢
٦- آدم في الحياة الدنيا	٢٦
٧- لقاء وتعارف	٢٧
٨- عوامل ابتلاء آدم	٢٩
٩- أول قاتل وأول شهيد	٣٠
١٠- فساد آدم	٣٣
من نبأ إدريس - عليه السلام - أول راكب لسفن الفضاء	
١- من هو؟	٣٦
٢- من بابل إلى بابليون	٣٧
٣- إدريس يغزو الفضاء	٤٠
٤- التبشير بمحمد - عليه السلام	٤٤
من نبأ نوح - عليه السلام - آدم الثاني	
١- مقدمة	٤٦
٢- تعريف بنوح	٤٨
٣- صراع فوق طاقة البشر	٤٩
٤- اليأس	٥٢
٥- الفرج	٥٣
٦- الطوفان	٥٦
٧- النجاة	٦١
من نبأ هود - عليه السلام - مع قوم عاد	٦٧
مقدمة	٦٨
	٥٦٧

الصفحة رقم	الموضوعات	فصل
٧٠	١- من أشد منا قوة	
٧٢	٢- رسول	
٧٤	٣- وفد عاد إلى البيت الحرام	
٧٦	٤- ريح صرصر عاتية	
٨١	من نبأ صالح مع قوم ثمود عليه السلام	
٨٢	مقدمة	
٨٤	١- ناطحات السحاب	
٨٦	٢- العمى	
٨٩	٣- أشقى الأولين	
٩٢	٤- وعد غير مكذوب	
٩٥	من نبأ إبراهيم - عليه السلام - أول المسلمين	
٩٦	١- الوليد البصر	
٩٩	٢- أبو الفتيان	
١٠٢	٣- ذبح الطيور	
١٠٥	٤- محكمة	
١٠٨	٥- تبادل بين النار والجنة	
١١٠	٦- الهجرة إلى الله	
١١٢	٧- إلى مكة مع إسماعيل	
١١٥	٨- أول الذبيحين	
١١٨	٩- البشرى - بين إبراهيم ولوط	
١٢٠	١٠- إلى سدوم وعمورة	
١٢٤	١١- عودة إلى إسماعيل	
١٢٦	١٢- بيت الله	
١٣١	طواف الختام	
	من نبأ إسحاق ويعقوب	
١٣٦	١- وبشروه بغلام عليم	
١٣٨	٢- هجرة إسحاق إلى جرار	
١٣٩	٣- هجرة يعقوب إلى بابل	

الصفحة رقم	الموضوعات	فصل
١٤١	من نبأ يوسف الصديق - عليه السلام	
١٤٢	١- أحسن القصص	
١٤٣	٢- رؤيا يوسف	
١٤٧	٣- رؤيا يعقوب	
١٤٩	٤- الأسباط	
١٥٠	إلى مصر مع الصديق	
١٥٠	١- خروجه من الحب	
١٥٢	٢- الكريم ابن الأكرمين	
١٥٤	٣- قصة الحب المجنون	
١٥٧	٤- أباطيل وحقائق	
١٦٠	٥- شائعات ووليمة	
١٦٣	يوسف خلف الأسوار	
١٦٤	١- بلاء الحب	
١٦٧	٢- رؤيا الفرج	
١٦٩	٣- محكمة	
١٦٩	إلى سرير الملك	
١٧١	١- من حصير السجن إلى سرير الملك	
١٧٤	٢- القحط يسوق إخوته	
١٧٧	٣- لقاء الحبيبين	
١٨٠	٤- قمة محنة يعقوب	
١٨٢	٥- كتاب من يعقوب	
١٨٤	٦- ربح الجنة	
١٨٦	٧- رحلة يعقوب إلى مصر	
١٨٩	من نبأ أيوب - إمام الصابرين - عليه السلام	
١٩٠	١- أيوب الرومي	
١٩١	٢- إمام الصابرين	
١٩٤	٣- افتراءات	
١٩٦	٤- مناجاة	
١٩٨	٥- إجابة	

- ١- مدين بن إبراهيم ٢٠٢
- ٢- الدعوة ٢٠٣
- ٣- المكابرة ٢٠٥
- ٤- الفتح ٢٠٧
- ٥- أصحاب الأيكة ٢٠٩

- الوليد ١- بعد يوسف ٢١٢
- ٢- رؤيا وميلاد ٢١٤
- ٣- ولي عهد مصر ٢١٦
- التمحيص ١- جريمة قتل ٢١٨
- ٢- هجرة ٢٢١
- ٣- بؤس وفقر ٢٢٣
- ٤- راعى الغنم ٢٢٥
- ٥- العصا والشيخ ٢٢٨
- الرسالة ١- فى الوادى المقدس ٢٣١
- ٢- موسى الكليم ٢٣٤
- ٣- طلبات وموافقة ٢٣٧
- ٤- ذكريات ٢٣٩
- العودة ١- فرحة اللقاء ٢٤١
- ٢- هذا خلق الله ٢٤٣
- ٣- وامتز الصنم ٢٤٧
- ٤- هامان بنى الصرح ٢٤٩
- ٥- سحر ومعجزة ٢٥١
- ٦- هذه نذر ٢٥٦
- ٧- مؤمن آل فرعون ٢٥٩
- الخروج ١- العبور ٢٦٢
- ٢- الفرق ٢٦٥

فصل	الموضوعات	الصفحة رقم
	٣- الورثة المستضعفون	٢٦٧
	٤- الابتلاء بالنعم بعد النقم	٢٦٩
	٥- الميقات	٢٧١
	٦- الألواح	٢٧٤
	النكسة	٢٧٧
	١- موسى السامري	٢٧٨
	٢- الوثنية	٢٨٠
	٣- نتق الجبل	٢٨٢
	٤- التيه	٢٨٣
	٥- البقرة	٢٨٦
	٦- موسى وقارون	٢٨٩
	٧- قارون يؤذى موسى	٢٩٢
	موسى طالب علم	٢٩٥
	١- رحلة اللقاء	٢٩٦
	٢- قصور العلم البشرى	٣٠١
	٣- المعلم الأول	٣٠٤
	٤- النهاية	٣٠٧
	من نبأ طالوت	٣٠٩
	١- تابوت النصر	٣١٠
	٢- السقاء يصير ملكا	٣١٢
	٣- صوم النصر	٣١٤
	٤- والتقى الجيشان	٣١٦
	من نبأ داود - عليه السلام	٣١٩
	١- حقد وطمع	٣٢٠
	٢- داود الملك	٣٢٣
	٣- داود الموسيقار الكونى	٣٢٥
	٤- فتنة داود	٣٢٧
	٥- إسرائيليّات	٣٢٩
	٦- ما هى الحقيقة؟	٣٣١
	٧- أصحاب السبت	٣٣٣
		٥٧١

الصفحة رقم	الموضوعات	فصل
٣٣٥	من نبأ سليمان - عليه السلام -	
٣٣٦	غلام حكيم	
٣٣٩	ملك لا ينبغي لأحد	
٣٤٠	١- فتنة سليمان	
٣٤٤	٢- سليمان وحديث الطير	
٣٤٦	٣- سليمان والنملة	
٣٤٩	٤- سليمان والريح	
٣٥٢	٥- سليمان والجن	
٣٥٥	فهرام صاحبة العرش	
٣٥٦	١- دقة الحاكم وحزمه	
٣٥٩	٢- بين مدهد صغير وملك كبير	
٣٦٢	٣- غرام بلقيس	
٣٦٦	٤- هدية وحفل استقبال	
٣٦٨	٥- جنود اسم الله الرحمن الرحيم	
٣٧٢	٦- إسلام بلقيس	
٣٧٥	سليمان والصابغات الجهاد	
٣٧٦	١- هل يقطع رقاب الخيل	
٣٧٨	٢- سليمان يعبد ولا يفسد	
٣٨١	هاروت وماروت	
٣٨٢	١- الشياطين يسترقون السمع	
٣٨٤	٢- السحر	
٣٨٨	٣- الملكان المفتونان	
٣٩٠	موت سليمان	
٣٩٣	من نبأ عزيز - عليه السلام -	
٣٩٥	١- قتلة الأنبياء	
٣٩٧	٢- المفسدون فى الأرض	
٤٠٠	٣- عزيز ورحلة الموت	
٤٠٣	من نبأ ذى القرنين	
٤٠٤	١- نبذة تاريخية	
٤٠٦	٢- الإسكندر المقدونى	

الصفحة رقم	الموضوعات	فصل
٤٠٨	٣- هل هو ذو القرنين؟	
٤١٠	٤- قورش العظيم ورؤيا دانيال النبي	
٤١٢	٥- فتوحات قورش وشخصيته	
٤١٦	٦- يأجوج ومأجوج	
٤١٩	٧- دين قورش ولمحة عن دين زرادشت	
٤٢٣	٨- مبادئ وأخلاق قورش - ذى القرنين -	
٤٢٥	٩- خاتمة حول السد والشيوعية	
٤٢٩	من نبأ يونس - صاحب السموت عليه السلام	
٤٣٠	١- الرسالة	
٤٣٢	٢- الهروب	
٤٣٥	٣- رحلة الظلمات	
٤٣٧	٤- فى العمراء	
٤٣٩	٥- السعادة فى الإيمان	
٤٤١	من نبأ زكريا - عليه السلام	
٤٤٢	١- أصول الدعاء	
٤٤٥	٢- مع آل عمران	
٤٥٠	٣- نداء خفى	
٤٥٥	من نبأ يحيى عليه السلام	
٤٥٦	١- يحيى فى الميزان	
٤٥٩	٢- بلاء الأنبياء	
٤٦٢	٣- يحيى يأخذ الكتاب بقوة	
٤٦٥	٤- صراع الشياطين	
٤٦٧	٥- الحب القاتل	
٤٦٩	من نبأ عيسى عليه السلام	
٤٧٠	١- الرزق الحسن	
٤٧٣	٢- عناصر غريبة	
٤٧٥	٣- منحة ومحنة	

الصفحة رقم	الموضوعات	فصل
٤٨٠	٤- تحت جذع النخلة	
٤٨٦	٥- عيسى فى المهد	
٤٩٠	٦- هجرة إلى مصر	
٤٩٤	٧- معجزات المسيح فى مصر	
٤٩٧	٨- اليهود فى زمن المسيح	
٥٠٠	٩- صوت الحق	
٥٠٥	١٠- قوة الدعوة.. وفطنة الداعى	
٥٠٩	١١- معجزات وخوارق	
٥١٤	١٢- أحمد فى التوراة والإنجيل	
٥١٧	١٣- مائدة السماء	
٥٢١	١٤- آية السرفع	
٥٢٥	١٥- العودة إلى الأرض	
٥٢٨	١٦- مناقشة هادئة مع المسيحية واليهودية	
٥٣٣	١٧- واقترب الوعد الحق	

من نبأ أهل الكهف

٥٣٨	١- العمل الصالح ينجى فى الشدائد
٥٤٠	٢- مساجلة مع اليهود
٥٤٢	٣- الفرار بالدين
٥٤٥	٤- الضرب على آذانهم رحمة
٥٤٨	٥- فى الكهف
٥٥١	٦- آية البعث
٥٥٥	٧- عودة الموت

خاتمة المجلد الأول إلى اللقاء ، الفهرس

٥٥٧	خاتمة المجلد الأول
-----------	--------------------------

إنتهى بحمد الله
المجلد الأول من
كتاب (من أنباء
الرسول) (٩ أجزاء)
ويليه إن شاء
الله المجلد الثاني
(محمد خاتم الرسول)



ثقافة وعلوم انسانية للتراث

٩٢ شارع قصر العينى ت: ٣٥٥١٨١٠ - ٣٥٥١٥٩٩